

هذبه وحققه وضبط نصه وعلق عليه

الدكتور بشار عواد معروف   عصام فارس الحرستاني

المجلد الثاني

البقرة إلى النساء

مؤسسة الرسالة




تفسير الطبري
٢

الطّبعة الأولى
١٤١٥هـ - ١٩٩٤م

مؤسّسة الرّسالة للطباعة والنشر والتوزيع
مؤسّسة الرّسالة بيروت - شارع سوريا - بناية صمدي وصالحة
هاتف: ٦٠٣٢٤٣ - ٨١٥١١٢ - ص.ب: ٧٤٦٠ - برقياً: بيوشران

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ﴾

يعني تعالى ذِكْرُهُ بذلك: نساؤكم مُزدَرَعُ أولادكم، فأتوا مُزْدَرَعكُم كيف شئتم، وأين شئتم.

وإنما عنى بـ «الحرث» المزدَرَع، و«الحرث» هو الزرع، ولكنهن لما كُنَّ من أسبابِ الحرث، جُعِلْنَ «حرثاً»، إذ كان مفهوماً معنى الكلام.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَأْتُواْ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ﴾

يعني تعالى ذِكْرُهُ بذلك: فانكحوا مزدرَع أولادكم من حيث شئتم من وجوه المأتى.

و«الإتيان» في هذا الموضع، كنايةٌ عن اسم الجماع.

واختلف أهل التأويل في معنى قوله: «أَنَّى شِئْتُمْ».

فقال بعضهم: معنى «أَنَّى»، كيف.

وقال آخرون: معنى «أَنَّى شِئْتُمْ»، من حيثُ شئتم، وأيِّ وجه أحببتم.

وقال آخرون معنى قوله: «أَنَّى شِئْتُمْ»، متى شئتم.

وقال آخرون: بل معنى ذلك: أين شئتم، وحيثُ شئتم.

وقال آخرون: معنى ذلك: ائتوا حرثكم كيف شئتم - إن شئتم فاعْزِلُوا، وإنْ شئتم فلا تعزلوا.

والصـوابُ من القـول في ذلك عندنا قولُ مَنْ قال: معنى قوله: «أَنَّى شِئْتُمْ»، من أيِّ وجهٍ شئتم، وذلك أن «أَنَّى» في كلام العرب كلمة تدلّ إذا ابْتُدِئَ بها في الكلام - على المسألةِ عن الوجوه والمذاهب. فكأنَّ القائل إذا قال لرجل: «أنَّى لكَ هذا المالُ»؟ يريدُ: من أيِّ الوجوه لك. ولذلك يجيب المجيبُ فيه بأن يقول: «من كذا وكذا»، كما قال تعالى ذِكْرُهُ مُخْبِراً عن زكريا في مسألته مريم: ﴿أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللهِ﴾ [آل عمران: ٣٧]. وهي مُقاربة «أين» و«كيف» في المعنى، ولذلك تداخلت معانيها، فأشكلت ﴿أَنَّى﴾ على سامعيها ومتأوِّليها، حتى تأوَّلها بعضهم بمعنى: «أين»، وبعضهم بمعنى «كيف»، وآخرون بمعنى: «متى» - وهي مخالفةٌ جميعَ ذلك في معناها، وهُنَّ لها مخالفات.

وذلـك أن «أين» إنما هي حرف استفهام عن الأماكن والمحال - وإنما يستدل على افتراق معاني هذه الحروف بافتراق الأجوبةِ عنها. ألا ترى أنَّ سائلاً لو سأل آخـر فقـال: «أين مالك»؟ لقال: «بمكان كذا»، ولو قال له: «أين أخوك»؟ لكان الجواب أن يقول: «ببلدةِ كذا أو بموضعِ كذا»، فيجيبه بالخبر عن محل ما سأله عن محله. فيعلم أن «أين» مسألة عن المحل.

ولـو قال قائـل لآخر: «كيف أنت»؟ لقال: «صالحٌ، أو بخيرٍ، أو في عافيةٍ»، وأخبره عن حاله التي هو فيها، فيعلم حينئذ أن «كيف» مسألةٌ عن حالِ المسؤولِ عن حالهِ.

ولو قال له: «أنَّى يُحْيي الله هذا الميت؟»، لكان الجوابُ أنْ يُقال: «من

وجه كذا ووجه كذا»، فيصف قولاً، نظيرَ ما وصف الله تعالى ذِكْرُهُ للذي قال: ﴿أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللهُ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ [البقرة: ٢٥٩] فعلاً، حين بعثه من بعد مماته.

والذي يدل على فسادِ قولِ مَنْ تأوّل قول الله تعالى ذِكْرُهُ: «فَأْتُواْ حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ»، كيف شئتم، أو تأوله بمعنى: حيث شئتم، أو بمعنى: متى شئتم، أو بمعنى: أين شئتم، أنَّ قائلاً لو قال لآخر: «أَنَّى تأتي أهلك؟»، لكان الجواب أن يقول: «من قُبُلها، أو: من دُبُرها»، كما أخبر الله تعالى ذِكْرُهُ عن مريم إذْ سُئِلَتْ: ﴿أَنَّى لَكِ هَذَا﴾ أنها قالت: ﴿هُوَ مِنْ عِنْدِ اللهِ﴾.

وإذ كان ذلك هو الجواب، فمعلومٌ أن معنى قول الله تعالى ذِكْرُهُ: «فَأْتُواْ حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ»، إنما هو: فأتوا حرثكم من حيثُ شئتم من وجوه المأتى - وأنّ ما عدا ذلك من التأويلاتِ فليس للآية بتأويل.

وإذ كان ذلك هو الصحيح، فبيِّنٌ خطأُ قولِ مَنْ زعم أن قوله: «فَأْتُواْ حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ»، دليلٌ على إباحةِ إتيانِ النساء في الأدبار. لأن الدُّبُرَ لا مُحْتَرَثَ فيه، وإنما قال تعالى ذِكْرُهُ: «حَرْثٌ لَكُمْ»، فأتوا الحرث من أيِّ وجوهه شئتم. وأيُّ محترَثٍ في الدُبر فيقال: ائته من وجهه؟ وبيِّنٌ بما بينا، صحةُ معنى ما روي عن جابر وابن عباس: من أن هذه الآية نزلت فيما كانت اليهود تقوله للمسلمين: «إذا أتَى الرجلُ المرأةَ من دُبرها في قُبُلها، جاء الولد أحول»[1].

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُمْ

اختلف أهل التأويل في معنى ذلك:

فقال بعضهم: معنى ذلك: قَدِّمُوا لأنفسكم الخيرَ.

وقـال آخرون: بل معنى ذلك: وقَدِّموا لأنفسكم ذِكْرَ الله عند الجماع وإتيان الحرث قبل إتيانه.

والذي هو أولى بتأويل الآية هو أنَّ قوله: «وَقَدِّمُواْ لأَنفُسِكُمْ»، أمرٌ من الله تعالى ذِكْرُهُ عِبادَهُ بتقديمِ الخيرِ والصالح من الأعمال ليومِ مَعَادهم إلى ربهم، عُدّةً منهم ذلك لأنفسهم عند لقائهِ في موقف الحساب، فإنه قال تعالى ذِكْرُهُ: ﴿وَماتُقَدِّمُواْ لأَنفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللهِ﴾ [البقرة: ١١١، المزمل: ٢٠].

---

(١) قال العلامة الكبير محمود شاكر ـ حفظه الله ـ حجة أبي جعفر في هذا الفصل، من أحسن البيان عن معاني القرآن، وعن معاني ألفاظه وحروفه. وهي دليل على أنَّ معرفةَ العربية، وحذقَها، والتوغلَ في شعرها وبيانها وأساليبها، أصلٌ من الأصول، لايحل لمن يتكلم في القرآن أن يتكلم فيه حتى يحسنه ويحذقه. ورحم الله ابن إدريس الشافعي، حيث قال ـ: فيما رواه الخطيب البغدادي عنه في كتاب «الفقيه والمتفقه».

«لا يحلُّ لأحدٍ أنْ يُفْتِيَ في دينِ الله، إلاّ رجلاً عارفاً بكتاب الله: بناسخه ومنسوخه، ومُحْكَمِهِ ومُتَشَابِهِه، وتأويلِهِ وتنزيله، ومكيِّه ومدنيِّه، وما أُريدَ به، ويكون بعد ذلك بصيراً بحديثِ رسولِ الله ﷺ، وبالناسخِ والمنسوخ، ويعرف من الحديث مثل ما عرف من القرآن، ويكون بصيراً باللغة، بصيراً بالشعر، ومايحتاج إليه للسنة والقرآن، ويستعملُ هذا مع الإنصاف، ويكون بعد هذا مشرفاً على اختلاف أهل الأمصار، وتكون له قريحةٌ بعد هذا. فإذا كانَ هكذا، فله أنْ يتكلّم ويفتي في الحلال والحرام، وإذا لم يكنْ هكذا، فليس له أن يفتي».

فليت من يتكلم في القرآن والدين من أهل زماننا، يتورع من مخافةِ ربه، ومن هول عذابه يوم يقومُ الناسُ لرب العالمين.

وإنما قلنا: ذلك أولى بتأويل الآية، لأن الله تعالى ذِكْرُهُ عَقَّبَ قوله: «وَقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُمْ» بالأمر باتقائه في ركوب معاصيه، فكان الذي هو أولى بأن يكون قبلَ التهدُّدِ على المعصية ـ إذ كان التهدُّدِ على المعصية عاماً ـ الأمرُ بالطاعة عاماً.

فإنْ قال لنا قائل: وما وجهُ الأمر بالطاعة بقوله: «وَقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُمْ»، من قوله: «نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُواْ حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ»؟

قيل: إن ذلك لم يقصد به ما توهمتَه: وإنما عنى به: وقَدِّمُوا لأنفسكم من الخيراتِ التي نَدَبْنَاكُم إليها بقولنا: «يسألونك ماذا يُنفقون قُلْ ما أنفقتم من خيرٍ فللوالدين والأقربين»، وما بعده من سائر ما سألوا رسولَ الله ﷺ فَأُجِيبُوا عنه، مما ذكره الله تعالى ذِكْرُهُ في هذه الآيات. ثم قال تعالى ذِكْرُهُ: قد بَيَّنا لكم ما فيه رَشَدكم وهدايتكم إلى ما يُرضي رَبَّكم عنكم، فقدِّموا لأنفسكم الخيرَ الذي أمركم به، واتَّخِذُوا عنده به عهداً، لتجدوه لديه إذا لقيتموه في معادكم، واتقوه في معاصيه أن تقربوها، وفي حدوده أن تُضيِعوها، واعلموا أنكم لا محالةَ مُلاقُوه في مَعادكم، فَمُجازٍ المُحْسِنَ منكم بإحسانِه، والمُسِيء بإساءته.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّكُم مُّلَٰقُوهُ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٢٢٣﴾

وهذا تحذيرٌ من الله تعالى ذِكْرُهُ عبادَه: أنْ يأتوا شيئاً مما نهاهم عنه من معاصيه ـ وتخويفٌ لهم عقابَهُ عند لقائهِ، كما قد بيَّنا قَبْلُ ـ وأمرٌ لنبيه محمد ﷺ

أنْ يُبَشِّرَ من عباده، بالفوز يوم القيامة وبكرامةِ الآخرة وبالخلودِ في الجنة، مَنْ كان منهم محسناً مؤمناً بكتبه ورسله، وبلقائه، مصدِّقاً إيمانَه قولاً، بعمله ما أمره به ربُّه، وافترض عليه من فرائضه فيما ألزمه من حقوقه، وبتجنُّبه ما أمره بتجنُّبه من معاصيه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَجْعَلُوا۟ ٱللَّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَٰنِكُمْ أَن تَبَرُّوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَتُصْلِحُوا۟ بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾

اختلف أهل التأويل في تأويل قوله: «وَلَا تَجْعَلُواْ ٱللهَ عُرْضَةً لأَيْمَانِكُمْ».

فقال بعضهم معناه: ولا تجعلوه عِلَّة لأيمانكم، وذلك إذا سُئِلَ أحدكم الشيء من الخير والإصلاح بين الناس قال: «عليَّ يمينُ الله أنْ لا أفعلَ ذلك» ـ أو «قد حلفتُ بالله أن لا أفعله»، فيعتلُّ في تركهِ فِعْلَ الخير والإصلاح بين الناس بالحلفِ بالله.

وقال آخرون: معنى ذلك: ولا تعترضوا بالحلف بالله في كلامكم فيما بينكم، فتجعلوا ذلك حجة لأنفسكم في ترك فعل الخير.

وأولى التأويلين بالآية، تأويلُ مَنْ قال: معنى ذلك: «لاتجعلوا الحلفَ بالله حجةً لكم في ترك فعل الخير فيما بينكم وبينَ الله وبين الناس».

وذلك أن «العُرْضَةَ»، في كلام العرب، القوة والشدة. يقال منه: «هذا الأمر عُرْضة لك» يعني بذلك: قوةٌ لك على أسبابكَ. ويقال: «فلانة عُرْضة للنكاح»، أي قوة.

فمعنى قوله تعالى ذِكْرُهُ: «وَلَا تَجْعَلُواْ ٱللهَ عُرْضَةً لأَيْمَانِكُمْ» إذًا:

لاتجعلوا الله قوةً لأيمانكم في أنْ لا تَبَرُّوا ولا تتقوا ولا تُصلحوا بين الناس، ولكن إذا حلف أحدكم فرأى الذي هو خيرٌ مما حَلَفَ عليه من تَرْكِ البر والإصلاح بين الناس، فليحنثْ في يمينه، وليبرَّ، وليتق الله، وليصلح بين الناس، وليكفِّرْ عن يمينه.

وأما قوله: «أَن تَبَرُّواْ»، فإنه اختلف في تأويل «البر»، الذي عناه الله تعالى ذِكْرُهُ.

فقال بعضهم: هو فِعْلُ الخيرِ كُلِّهِ. وقال آخرون: هو البر بذي رحمه، وقد ذكرتُ قائِلي ذلك فيما مضى.

وأولى ذلك بالصواب قول مَنْ قال: «عَنَى به فِعْلَ الخيرِ كله»، وذلك أن أفعال الخير كلها من «البر»، ولم يخصص الله في قوله: «أَن تَبَرُّواْ» معنىً دون معنى من معاني «البر»، فهو على عمومه. والبرُّ بذوي القرابة أحد معاني «البر».

وأما قوله: «وَتَتَّقُواْ»، فإنَّ معناه: أن تتقوا ربكم فَتَحْذَرُوهُ وتَحْذَرُوا عِقابَهُ في فرائضهِ وحدوده أنْ تضيعوها أو تتعدَّوْها، وقد ذكرنا تأويلَ مَنْ تأوَّل ذلك أنه بمعنى «التقوى» قبل.

وأما قوله: «وَتُصْلِحُواْ بَيْنَ ٱلنَّاسِ»، فهو الإصلاحُ بينهم بالمعروفِ فيما لا مَأثَمَ فيه، وفيما يحبه الله دون ما يكرهه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢٤﴾

يعني تعالى ذِكْرُهُ بذلك: «وَٱللهُ سَمِيعٌ» لما يقوله الحالفُ منكم بالله إذا حلف فقال: «والله لا أبَرُّ ولا أتقي ولا أصلحُ بين الناس»، لغير ذلك من قِيلِكُمْ

وأيمانكم؛ «عَلِيمٌ» بما تقصدون وتبتغون بحلفكم ذلك، ألخيرَ تُرِيدونَ أم غيره؟ لأني عَلاَّمُ الغيوبِ وما تُضمِرُهُ الصدورُ، لا تَخْفى عليَّ خافية، ولاينكتمُ عني أمرٌ عَلَن فظهر، أو خَفيَ فَبَطَن.

وهذا من الله تعالى ذِكْرُهُ تهدُّد ووعيدٌ. يقول تعالى ذِكْرُهُ: واتقون أيها الناسُ أنْ تُظْهِرُوا بألسنتكم من القول، أو بأبدانكم من الفعل، ما نَهيتُكم عنه ـ أو تضمروا في أنفسكم وتعزموا بقلوبكم من الإرادات والنيات بفعل ما زجرتُكُم عنه، فتستحقوا بذلك مني العقوبةَ التي قد عرَّفتكموها، فإنِّي مُطَّلِعٌ على جميع ما تعلنونه أو تُسرُّونه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: لَّا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِىٓ أَيْمَٰنِكُمْ

اختلف أهـلُ التـأويل في تأويل قولـه: «لَّا يُؤَاخِـذُكُمُ ٱللهُ بِٱللَّغْـوِ فِي أَيْمَانِكُمْ»، وفي معنى «اللغو».

فقال بعضهم في معناه: لا يؤاخذكم الله بما سَبَقَتْكُم به ألسنتُكم من الأيمانِ على عجلةٍ وسرعة، فيوجبُ عليكم به كفارة إذا لم تقصدوا الحلفَ واليمينَ. وذلك كقولِ القائل: «فعلت هذا والله، أو: أفعله والله، أو: لا أفعله والله»، على سبوق المتكلم بذلك لسانُه، بما وصل به كلامه من اليمين.

وقال آخرون: بل اللغو في اليمين، اليمينُ التي يحلفُ بها الحالف وهو يرى أنه كما يحلف عليه، ثم يتبين غير ذلك؛ وأنه بخلاف الذي حلف عليه.

وقال آخرون: بل اللغو من الأيمان التي يحلف بها صاحبها في حال الغضب، على غير عقد قلب ولا عزم، ولكن وُصْلةً للكلام.

وقال آخرون: بل اللغو في اليمين: الحلفُ على فعلِ ما نهى الله عنه، وتركِ ما أمَرَ الله بفعله.

وقال آخرون: اللغو من الأيمان: كُلُّ يمينٍ وصَل الرجلُ بها كلامه، على غير قصدٍ منه إيجابَها على نفسه.

وقال آخرون: اللغو من الأيمان، ما كان من يمينٍ بمعنى الدعاء من الحالف على نفسه: إنْ لم يفعل كذا وكذا، أو بمعنى الشرك والكفر.

وقال آخرون: اللغو من الأيمان ما كانت فيه كفارة.

وقال آخرون: اللغو من الأيمان: هو ما حنث فيه الحالف ناسياً.

و «اللغو» من الكلام في كلام العرب، كلّ كلام كان مذموماً وسَقَطاً لا معنى له مهجوراً، يقال منه: «لغا فلانٌ في كلامه يلغُوا لَغْواً» إذا قال قبيحاً من الكلام، ومنه قول الله تعالى ذِكْرُهُ: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ﴾ [القصص: ٥٥]، وقوله: ﴿وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَاماً﴾ [الفرقان: ٧٢]. ومسموع من العرب: «لَغَيْتُ باسم فلان»، بمعنى أُولِعْتُ بِذِكْرِه بالقبيح. فمن قال: «لَغَيْت»، قال: «أَلْغَى لَغاً» وهي لغةٌ لبعض العرب.

فإذا كان «اللغو» ما وصفت، وكان الحالفُ بالله: «ما فعلت كذا» وقد فعل، «ولقد فعلتُ كذا» وما فعل ـ واصلاً بذلك كلامه على سبيل سُبوق لسانه من غير تَعَمُّدِ إثمٍ في يمينه، ـ ولكنْ لعادةٍ قد جرت له عند عجلةِ الكلام، والقائلُ: «والله إنّ هذا لَفُلان» وهو يراه كما قال، أو: «والله ما هذا فلان!» وهو يراه ليس به، والقائلُ: «ليفعلنّ كذا والله ـ أو: لايفعل كذا والله» على سبيل ما وصفنا من عجلة الكلام وسبوق اللسان للعادة، على غير تعمدِ حلفٍ على باطل، والقائل: «هو مشرك، أو هو يهودي أو نصراني، إنْ لم يفعل كذا ـ أو إن فعل كذا» من غيرِ عزمٍ على كفرٍ أو يهودية أو نصرانية ـ جميعهم قائلون هُجْراً من القول وذميماً من المنطق، وحالفونَ من الأيمانِ بألسنتهم ما لم تَتَعَمَّدْ فيه الإثمَ قلوبهم ـ كان معلوماً أنهم لُغاةٌ في أيمانهم، لا تلزمهم كفارة في

العاجل، ولا عقوبة في الآجل، لإخبار الله تعالى ذِكْرُهُ أنه غير مؤاخذٍ عبادَه، بما لغوا من أيمانهم، وأنَّ الذي هو مؤاخذهم به، ما تَعَمَّدَتْ فيه الإثمَ قلوبُهم.

وإذ كان ذلك كذلك لاشك عقوبةً كبعض العقوبات التي جعلها الله تعالى ذِكْرُهُ نكالاً لخلقه فيما تعدَّوا من حدوده، وإن كان يجمع جميعها أنها تمحيصٌ وكفاراتٌ لمن عُوقِبَ بها فيما عُوقبوا عليه كان بَيِّناً أنَّ من ألزم الكفارة في عاجل دنياه فيما حلف به من الأيمان فحنِث فيه، وإن كانت كفارة لذنبه، فقد واخذه الله بها بإلزامه إياه الكفارةَ منها، وإن كان ما عجَّل من عقوبته إياه على ذلك، مُسْقطاً عنه عقوبته في آجله. وإذ كان تعالى ذِكْرُهُ قد واخذه بها، فغيرُ جائزٍ لقائلٍ أن يقول وقد واخذه بها: هي من اللغو الذي لا يؤاخذ به قائله.

فإذْ كان ذلك غيرَ جائز، فبيِّنٌ فسادُ قولِ القائل: «اللغو الحلف على المعصية»، لأن ذلك لو كان كذلك، لم يكن على الحالفِ على معصية الله كفارة بحِنْثه في يمينه. وفي إيجاب الكفارة عليه دليلٌ واضح على أن صاحبها بها مُؤاخذٌ، لما وصفنا من أن من لزمه الكفارة في يمينه، فليس ممن لم يؤاخذ بها.

فإذْ كان «اللغو» هو ما وصفنا؛ مما أخبرنا الله تعالى ذِكْرُهُ أنه غير مؤاخذنا به - وكلُّ يمينٍ لزمت صاحبَها بحِنْثِهِ فيها الكفارةُ في العاجل، أو أوعد الله تعالى ذِكْرُهُ صاحبها العقوبةَ عليها في الآجل، وإن كان وَضَع عنه كفارتها في العاجل - فهي مما كسبته قلوبُ الحالفين، وتعمدت فيه الإثم نفوس المقسمين. وما عدا ذلك فهو «اللغو»، وقد بَيَّنا وجُوهَهُ.

فتأويل الكلام إذاً: لاتجعلوا الله أيها المؤمنون قوةً لأيمانكم، وحجةً لأنفسكم في إقسامكم، في أن لا تبُروا ولا تتقوا ولاتُصلحوا بين الناس، فإنَّ

الله لا يؤاخـذكم بمـا لَغَتْهُ ألسنتكم من أيمانكم فنطقت به من قبيح الأيمانِ وذميمها، على غير تعمُّدِكُم الإثمَ، وقصدِكم بعزائم صدورركم إلى إيجاب عَقْد الأيمـان التي حلفتم بهـا، ولكنه إنما يؤاخذكم بما تَعَمَّدْتُم فيه عَقْدَ اليمين وإيجابها على أنفسكم، وعزمتم على الإتمام على ما حلفتم عليه بقصدٍ منكم وإرادة، فيلزمكم حينئذٍ إمّا كفارةٌ في العاجل، وإمّا عقوبةٌ في الآجل.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ﴾

إن الله تعـالى ذِكْـرُهُ أوعـد عبادَهُ أن يؤاخذهم بما كسبت قلوبهم من الأيمان، فالذي تكسبه قلوبهم من الأيمان هو ما قَصَدَتْهُ وعزمتْ عليه على علمٍ ومعرفةٍ منها بما تقصده وتريده، وذلك يكون منها على وجهين:

أحدهما: على وجه العزم على ما يكون به العازم عليه في حال عزمه بالعزم عليه آثمـاً، وبفعله مستحقـاً المؤاخـذةَ من الله عليها، وذلك كالحالفِ على الشيء الذي لم يفعله أنه قد فعله، وعلى الشيء الذي قد فعله أنه لم يفعله، قاصداً قِيلَ الكذبِ، وذاكراً أنه قد فعلَ ما حلفَ عليه أنه لم يفعله، أو أنه لم يفعـلْ ما حلفَ عليه أنه قد فعل، فيكون الحالفُ بذلك - إنْ كان من أهل الإيمان بالله وبرسوله - في مشيئةِ الله يومَ القيامة، إنْ شاء واخذه به في الآخرة، وإن شاء عفا عنه بتَفَضُّلِهِ، ولا كَفَّارةَ عليه فيها في العاجل، لأنها ليست من الأيمـان التي يحنث فيهـا. وإنمـا تَجِبُ الكفـارةُ في الأيمان بالحِنث فيها، والحالف الكاذب في يمينه، ليست يمينه مما يُبْتَدَأ فيه الحنث، فتلزم فيه الكفارة.

والوجه الآخر منهما: على وجه العزم على إيجابِ عقدِ اليمين في حال

عزمه على ذلك، فذلك مما لا يُؤاخذُ به صاحبه حتى يحنث فيه بعد حلفه، فإذا حنِث فيه بعد حلفه، كان مؤاخذاً بما كان اكتسبه قلبُهُ ـ من الحلفِ بالله على إثمٍ وكذب ـ في العاجل بالكفارة التي جعلها الله كفارةً لذنبه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ۝٢٢٥﴾

يعني تعالى ذِكْرُهُ بذلك: «وَٱللهُ غَفُورٌ» لعباده فيما لَغَواْ من أيمانهم التي أخبرَ الله تعالى ذِكْرُهُ أنه لا يؤاخذهم بها، ولو شاء وَاخذهم بها ـ ولما واخذهم به فكفَّروها في عاجل الدنيا بالتكفير فيه، ولو شاء واخذهم في آجلِ الآخرةِ بالعقوبةِ عليه، فساترٌ عليهم فيها، وصافحٌ لهم بعفوهِ عن العقوبة فيها، وغير ذلك من ذنوبهم. «حَلِيمٌ» في تَرْكِه معاجلةَ أهلِ معصيته العقوبةَ على معاصيهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ﴾

يعني تعالى ذِكْرُهُ بقوله: «لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ»، للذين يقسمون أليَّة، «والألية» الحلف.

ومعنى الكلام: للذين يُؤْلُون أنْ يعتزلوا من نسائهم تَرَبُّصُ أربعة أشهر، فترك ذكر «أن يعتزلوا»، اكتفاء بدلالة ما ظهر من الكلام عليه.

واختلف أهلُ التأويل في صفة اليمين التي يكون بها الرجل مولياً من امرأته.

فقال بعضهم: اليمين التي يكون بها الرجل مُولياً من امرأته: أن يحلف

عليها ـ في حال غضب على وجه الضِّرار ـ أن لا يجامعها في فرجها، فأما إنْ حلف على غير وجه الإضرار، وعلى غير غضبٍ، فليس هو مولياً منها.

وقال آخرون: سواءٌ إذا حلف الرجل على امرأته أن لايجامعها في فرجها، كان حلفه في غضب أو غير غضب، كلُّ ذلك إيلاء.

وقال آخرون: كلُّ يمينٍ حلف بها الرجل في مَسَاءةِ امرأتهِ، فهي إيلاءٌ منه منها، على الجماع حلف أو غيره، في رضاً حَلَفَ أو سَخَطٍ.

وعِلَّةُ مَنْ قال: «إنما الإيلاء في الغضب والضَرار»: أنّ الله تعالى ذِكْرُهُ إنما جعل الأجلَ الذي أجَّل في الإيلاء مخرجاً للمرأة من عَضْلِ الرجل وضراره إياهـا[1]، فيما لها عليه من حُسْنِ الصحبة والعِشرة بالمعروف، وإذا لم يكن الرجلُ لها عاضلاً ولا مُضاراً بيمينه وحَلْفِهِ على تركِ جماعها، بل كان طالباً بذلك رِضَاها، وقاضياً بذلك حاجتها، لم يكن بيمينه تلك مُولياً. لأنه لا معنى هنالك لَحِقَ المرأةَ به من قِبَلِ بَعْلِها مساءةٌ وسوء عشرة، فيجعل الأجل ـ الذي جُعل للمولي ـ لها مخرجاً منه.

وأما علةُ مَنْ قال: «الإيلاء في حال الغضب والرضا سواء»، عموم الآية، وأن الله تعالى ذِكْرُهُ لم يخصص من قوله: «لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَائِهِمْ تَرَبُّص أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ» بعضاً دون بعض، بل عَمَّ به كلَّ مُولٍ ومُقسِم. فكلُّ مقسِمٍ على امرأته أنْ لا يغشاها مدةً هي أكثر من الأجل الذي جَعل الله له تربُّصه، فمُولٍ من امرأته عند بعضهم، وعند بعضهم: هو مُولٍ، وإن كانت مدة يمينه الأجل الذي جُعل له تربُّصه.

---

(١) العضل من الزوج لأمرأته: أن يُضَارَّها ولا يُحسن عشرتها، فهو لا يعاملها معاملةَ الأزواج، ولا يتركها تتصرف في نفسها.

وأما علة من قال بقول الشعبي والقاسم وسالم: أن الله تعالى ذِكْرُهُ جعل الأجلَ الذي حدَّهُ للمُولي مخرجاً للمرأة من سوء عشرة بعلها إياها وضِرارِهِ بها. وليست اليمين عليها بأنْ لا يجامعها ولا يقرَبها، بأوْلَى بأن تكون من معاني سوء العشرةِ والضِّرار، من الحلف عليها أنْ لا يكلمها أو يسوءَها أو يغيظها، لأن كل ذلك ضررٌ عليها وسوءُ عشرةٍ لها.

وأولى التـأويلات التي ذكرناها في ذلك بالصواب، قولُ مَنْ قال: كلُّ يمينٍ مَنعت المقسم الجماعَ أكثر من المدة التي جعل الله للمولي تربُّصَها، قائلاً في غضب كان ذلك أو رضاً. وذلك للعلة التي ذكرناها قَبْلُ لقائِلي ذلك.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَإِن فَآءُو فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٢٢٦﴾

يعني تعالى ذِكْرُهُ بذلك: فإنْ رجعوا إلى ترك ما حلَفُوا عليه أن يفعلوه بهن من ترك جماعهن، فجامعوهن وحنِثُوا في أيمانهم، «فَإِنَّ ٱللهَ غَفُورٌ»، لِمَا كان منهم من الكذبِ في أيمانهم بأنْ لا يأتوهُنَّ ثم أتوهُنَّ، ولما سلف منهم إليهن، من اليمينِ على ما لم يكن لهم أن يحلفوا عليه فحلفوا عليه، «رَّحِيمٌ» بهم وبغيرهم من عباده المؤمنين.

وأصل «الفيء»، الرجوعُ من حالٍ إلى حال، ومنه قوله تعالى ذِكْرُهُ: ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا﴾ إلى قوله: ﴿حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللهِ﴾ [الحجرات: ٩]، يعني: حتى ترجع إلى أمر الله.

يقال منه: «فاء فلانٌ يفيء فَيْئة» مثل «الجيئة» و«فَيْأ». و«الفَيْئة» المرة. فأما في الظلّ فإنه يقال: «فاء الظلّ يفيء فُيُوءاً وفَيْأ»، وقد يقال: «فيوءاً» أيضاً في المعنى الأول، لأن «الفيء» في كل الأشياء بمعنى الرجوع.

وبمثل الذي قلنا في ذلك قال أهلُ التأويل، غير أنهم اختلفوا فيما يكونُ

به المولى فايئاً.

فقال بعضهم: لا يكون فايئاً إلا بالجماع.

وقال آخرونَ: «الفيء»: المراجعةُ باللسان أو القلب في حال العذر، وفي غير حال العذر الجماع.

وقال آخرون: «الفيء» المراجعة باللسان بكلِّ حال.

وإنما اختلف المختلفون في تأويل «الفيء» على قدر اختلافهم في معنى اليمين التي تكون «إيلاءً».

فمن كان من قوله: إنَّ الرجلَ لا يكون مولياً من امرأته الإيلاءَ الذي ذكره الله في كتابه إلاّ بالحلفِ عليها أنْ لا يجامعها، جعل الفيءَ الرجوعَ إلى فِعْلِ ما حلفَ عليه أن لا يفعله من جماعها، وذلك الجماعُ في الفرج إذا قدر على ذلك وأمكنه ـ وإذا لم يقدرْ عليه ولم يمكنه، فإحداث النية أنْ يفعله إذا قدرَ عليه وأمكنه، وإبداء ما نوى من ذلك بلسانه ليعلمه المسلمون، في قولِ مَنْ قال ذلك.

وأما قولُ مَنْ رأى أنَّ الفيء هو الجماع دون غيره، فإنه لم يجعل العائقَ له عذراً، ولم يجعل له مخرجاً من يمينه غيرَ الرجوعِ إلى ما حلف على تَرْكِهِ، وهو الجماع.

وأما من كان من قوله أنه قد يكون مولياً منها بالحلفِ على تَرْكِ كلامها، أو على أنْ يسوءَها أو يغيظها أو ما أشبه ذلك من الأيمان، فإنَّ الفيء عنده الرجوعُ إلى تركِ ما حلفَ عليه أن يفعله ـ مما فيه من مساءتها ـ بالعزمِ على الرجوع عنه، وإبداء ذلك بلسانه، في كل حال عزم فيها على الفيء.

وأولى الأقوال بالصحة في ذلك عندنا، قولُ مَنْ قال: «الفيء هو

الجمـاع»، لأن الرجل لا يكونُ مولياً عندنا من امرأته إلا بالحلفِ على تركِ جماعها المدةَ التي ذكرنا، للعللِ التي وصفنا قَبْلُ. فإذْ كان ذلك هو الإيلاء، فالفيءُ الذي يُبطلُ حُكْمَ الإيلاء عنه، لاشك أنه غير جائزٍ أن يكون إلا ما كان للذي آلى عليه خلافاً. لأنه لما جعلَ حكمه إنْ لم يَفِيءْ إلى ما آلى على تَرْكِهِ، الحكمَ الذي بينه الله لهم في كتابه، كان الفيء إلى ذلك، معلومٌ أنه فعلُ ما آلى على تركه إنْ أطاقه، وذلك هو الجماع. غير أنه إذا حِيلَ بينه وبين الفيء - الذي هو جماعٌ بعذر، فغير جائزٍ أن يكون تاركاً جماعها على الحقيقة. لأن المرءَ إنما يكون تاركاً ماله إلى فعلهِ وتركهِ سبيلٌ. فأما مَنْ لم يكن له إلى فعل أمر سبيل، فغير كائنٍ تاركَهُ.

وإذ كان ذلك كذلك، فإحداثُ العزمِ في نفسه على جماعها، مُجْزِىءٌ عنه في حال العذر، حتى يجدَ السبيلَ إلى جماعها. وإنْ أبدى ذلك بلسانه وأشهدَ على نفسه في تلك الحال بالأوبة والفيء، كان أعجبَ إليَّ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢٦﴾﴾

اختلف أهلُ التأويل في تأويل ذلك.

فقال بعضهم: معنى ذلك: «فَإِنَّ ٱللهَ غَفُورٌ» لكم فيما اجترمتم بفيئكم إليهنّ، من الحِنْث في اليمين التي حلفتم عليهن بالله أن لا تَغْشَوْهنَّ؛ «رَّحِيمٌ» بكم في تخفيفه عنكم كفَّارةَ أيمانكم التي حلفتم عليهن، ثم حنِثتم فيه.

وهذا التأويل الذي ذكرنا هو التأويلُ الواجبُ على قولِ مَنْ زعم أنَّ كُلَّ حانثٍ في يمينٍ هو في المُقام عليها حَرِجٌ، فلا كفارةَ عليه في حنثه فيها، وأن كفارتها الحنث فيها.

وأما على قول مَنْ أوجب على الحانث في كل يمين حلف بها [كفارة]، برًّا كان الحِنث فيها أو غير برّ، فإنَّ تأويله: «فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ» للمُولين من نسائهم فيما حنِثوا فيه من إيلائهم، بأنْ فاؤوا فكفَّروا أيمانهم، بما ألزم الله الحانثين في أيمـانهم من الكفارة؛ «رَّحِيمٌ» بهم، بإسقاطه عنهم العقوبةَ في العاجلِ والآجلِ على ذلك، بتكفيرهِ إياه بما فرض عليهم من الجزاء والكفارة، وبما جعـل لهم من المَهَل الأشهرَ الأربعة، فلم يجعل فيها للمرأة التي آلى منها زوجها ما جعل لها بعد الأشهر الأربعة.

وهذا التأويلُ الثاني هو الصحيح عندنا في ذلك، لما قد بَيَّنا من العلل في كتابنا: «كتاب الأيمان»، من أن الحنث موجبُ الكفارةَ في كل ما ابتدئ فيه الحنث من الأيمان بعد الحلف، على معصيةٍ كانتِ اليمينُ أو على طاعة.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَإِنْ عَزَمُوا۟ ٱلطَّلَٰقَ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢٧﴾

اختلف أهل التأويل في معنى قول الله تعالى ذِكْرُهُ: «وَإِنْ عَزَمُوا۟ ٱلطَّلَاقَ».

فقال بعضهم: معنى ذلك: للذين يُؤْلُونَ أنْ يعتزلوا من نسائهم تربُّصُ أربعةِ أشهرٍ، فإنْ فاؤوا فرجعوا إلى ما أوجَبَ الله لهنّ من العِشرةِ بالمعروفِ في الأشهر الأربعة التي جعل الله لهم تربُّصهم عنهن وعن جِماعهن، وعِشْرتهن في ذلك بالواجب «فإنَّ الله لهم غفور رحيم». وإنْ تركوا الفيء إليهن، في الأشهر الأربعة التي جعل الله لهم التربص فيهنّ حتى ينقضين، طُلِّق منهم نساؤهم اللاتي آلوا منهن بمضيهن. ومضيُّهن عند قائلي ذلك: هو الدلالةُ على عزم المُولي على طلاقِ امرأته التي آلى منها.

ثم اختلف متأوِّلو هذا التأويل بينهم في الطلاق الذي يلحقها بِمُضِيِّ الأشهر الأربعة.

فقال بعضهم: هو تطليقةٌ بائنة.

وقال آخرون: بل الذي يلحقها بمضيِّ الأربعة الأشهر: تطليقةٌ، يملك فيها الزوجُ الرجعةَ.

وقال آخرون: معنى قوله: «لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَائِهِمْ» إلى قوله: «فَإِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ»؛ «لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ» على الاعتزالِ من نسائهم، تنظُّرُ أربعةِ أشهرٍ بأمره وأمرها؛ «فَإِن فَآءُوا» بعد انقضاء الأشهر الأربعة إليهنّ، فرجعوا إلى عِشْرتهن بالمعروفِ، وتركِ هجرانهن، وأتواْ إلى غشيانهن وجماعهن؛ «فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ * وَإِنْ عَزَمُواْ ٱلطَّلَاقَ» فأحْدَثُوا لهن طلاقاً بعد الأشهر الأربعة؛ «فَإِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ» لطلاقهم إياهن؛ «عَلِيمٌ» بما فَعَلُوا بهن من إحسانٍ وإساءة.

وقـال متأوِّلو هذا التأويل: مُضِيُّ الأشهرِ الأربعة يوجبُ للمرأةِ المطالبةَ على زوجها المولي منها، بالفيءِ أو الطلاقِ. ويجبُ على السلطان أنْ يَقِفَ الزوجَ على ذلك، فإن فاء أو طلَّق، وإلا طلَّق عليه السلطانُ

وقال آخرون: ليس الإيلاءُ بشيء.

وأشْبَهُ هذه الأقوالِ بما دلَّ عليه ظاهرُ كتابِ الله تعالى ذِكْرُهُ، قولُ عمر ابن الخطاب وعثمان وعلي رضي الله عنهم، ومَنْ قال بقولهم في الطلاق، أن قوله: «فَإِن فَآءُوا فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ * وَإِنْ عَزَمُواْ ٱلطَّلَاقَ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ»، إنما معناه، فإن فاؤوا بعد وَقفِ الإمامِ إياهم من بعد انقضاء الأشهر الأربعة، فرجعوا إلى أداء حَقِّ الله عليهم لنسائِهم اللائي آلوا منهن، فإن الله لهم غفور رحيم، «وَإِنْ عَزَمُواْ ٱلطَّلَاقَ» فطلَّقوهن، «فَإِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ»، لطلاقهم إذا طلَّقوا، «عَلِيمٌ» بما أتوا إليهن.

وإنما قلنا ذلك أشبه بتأويل الآية، لأن الله تعالى ذِكْرُهُ ذَكَرَ حين قال: «وَإِنْ عَزَمُواْ ٱلطَّلَاقَ فَإِنَّ ٱللهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ»[1]. ومعلومٌ أنّ انقضاء الأشهر الأربعة غير مسموع، وإنما هو معلوم. فلو كان «عزم الطلاق» انقضاء الأشهر الأربعة، لم تكن الآية مختومة بذكر الله الخبرَ عن الله تعالى ذِكْرُهُ أنه «سَمِيعٌ عَلِيمٌ»، كما أنه لم يختم الآية التي ذكر فيها الفيء إلى طاعته ـ في مراجعة المولي زوجَتَهُ التي آلى منها، وأداء حَقِّها إليها ـ بذكْرِ الخبرِ عن أنه «شديدُ العقاب»، إذْ لم يكن موضعَ وعيدٍ على معصية، ولكنه ختم ذلك بذكر الخبر عن وصفه نفسه تعالى ذِكْرُهُ بأنه «غَفُورٌ رَّحِيمٌ» إذْ كان موضعَ وَعد المنيب على إنابته إلى طاعته. فكذلك ختم الآية، التي فيها ذِكْر القولِ والكلام، بصفةِ نفسهِ، بأنَّهُ للكلامِ «سَمِيعٌ» وبالفعل «عَلِيمٌ»، فقال تعالى ذِكْرُهُ: وإنْ عَزَمَ المؤلون على نسائهم على طلاق مَنْ آلوا منه من نسائهم، ﴿فَإِنَّ ٱللهَ سَمِيعٌ﴾ لطلاقهم إيّاهن إنْ طَلَّقوهن، «عَلِيمٌ» بما أتوا إليهنّ، مما يحل لهم ويحرُم عليهم[2].

وقد استقصينا البيانَ عن الدلالة على صحة هذا القول في كتابنا «كتاب اللطيف من البيان عن أحكام شرائع الدين»، فكرهنا إعادته في هذا الموضع.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ

(١) تم الفصل بين شطري الآية، لأن ذلك مراد الطبري. يعني أن الله تعالى حين قال ﴿وإن عزموا الطلاق﴾ ـ ختم الآية بقوله: ﴿فإن الله سميعٌ عليم﴾.

(٢) قال العلامة محمود شاكر: هذا فقه أبي جعفر لمعاني كتاب ربه، وتجويده لدلائل البلاغة والبيان في كتاب لا يأتيه الباطلُ من بين يديه ولا من خلفه، فيه البرهان لمن طلب الحق من وجوهه، بالورع والصبر والبصر ومعرفة ما توجبه الألفاظ من المعاني.

يعني تعالى ذِكْرُهُ: «وَٱلْمُطَلَّقَاتُ» اللواتي طُلِّقْنَ بعد ابتناءِ أزواجهن بهنّ، وإفضائهم إليهن، إذا كُنَّ ذواتِ حيضٍ وطهر ـ «يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ»، عن نكاحِ الأزواج ـ «ثَلاَثَةَ قُرُوءٍ».

واختلف أهلُ التأويلِ في تأويل «القرء» الذي عَنَاهُ الله بقوله: «يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلاَثَةَ قُرُوءٍ».

فقال بعضهم: هو الحيض.

وقال آخرون: بل «القرء» الذي أمَرَ الله تعالى ذِكْرُهُ المطلقاتِ أنْ يَعْتَدِدْنَ به، الطهر.

«والقُروء» في كلام العرب جمع «قُرْء»، وقد تجمعه العرب «أقراء». يقال في «فعل» منه: «أقرأتِ المرأةُ» ـ إذا صارتْ ذاتَ حيضٍ وطُهر ـ «فهي تقرىء إقراء». وأصل «القُرء» في كلام العرب: الوقتُ لمجيء الشيء المُعْتَادِ مَجِيئُهُ لوقتٍ معلوم، ولإدبارِ الشيء المعتادِ إدبارُه لوقتٍ معلوم. ولذلك قالت العرب: «قرأتْ حاجةُ فلان عندي»، بمعنى: دنا قضاؤُها وَحان وقتُ قضائها. «وأقرأ النجم» إذا جاء وقت أُفوله، «وأقرأ» إذا جاء وقت طلوعه.

وسمى آخرون من العرب وقتَ مجيءِ الطهر «قُرءاً»، إذْ كان وقت مجيئه وقتاً لإدبار الدم دم الحيض، وإقبال الطهر المعتاد مجيئُه لوقتٍ معلوم.

ولِمَا وصفنا من معنى: «القُرء» أشكل تأويلُ قولِ الله: «وَٱلْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلاَثَةَ قُرُوءٍ» على أهل التأويل.

فرأى بعضهم أن الذي أُمِرتْ به المرأةُ المطلقة ذات الأقراء من الأقراء، أقراء الحيض، وذلك وقت مجيئه لعادته التي تجيءُ فيه ـ فأوجب عليها تربُّص ثلاث حيَض بنفسها عن خطبة الأزواج.

ورأى آخرون: أنّ الذي أُمرت به من ذلك، إنما هو أقراءُ الطهر - وذلك وقت مجيئه لعادته التي تجيءُ فيه - فأوجب عليها تربُّص ثلاثة أطهار.

فإذْ كان معنى «القُرء» ما وصفنا لما بيَّنا، وكان الله تعالى ذِكْرُهُ قد أمَرَ المريدَ طلاقَ امرأتهِ أنْ لا يُطَلِّقَها إلا طاهراً غير مُجامعة، وحرَّم عليه طلاقَها حائضاً - كان اللازمُ المطلقةَ المدخولَ بها إذا كانت ذات أقراء، تربُّص أوقات محدودة المبلغ بنفسها عَقيب طلاق زوجها إياها، أن تنظرَ إلى ثلاثة قروء بين طهريْ كل قرءٍ منهنّ قرءٌ، هو خلاف ما احتسبته لنفسها قروءاً تتربصهن. فإذا انقضينَ فقد حَلَّتْ للأزواج وانقضت عدّتها، وذلك أنها إذا فعلتْ ذلك فقد دخلت في عداد من تَرَبَّصُ من المطلقات بنفسها ثلاثةَ قروء، بين طُهريْ كل قرءٍ منهن قرءٌ له مخالفٌ. وإذا فعلت ذلك، كانت مؤديةً ما ألزمها رَبُّها تعالى ذِكْرُهُ بظاهرِ تنزيله.

فقد تبيَّن إذاً - إذا كان الأمر على ما وصفنا - أنّ القرءَ الثالثَ من أقرائها على ما بَيَّنا، الطهرُ الثالث، وأنّ بانقضائه ومجيء قرء الحيض الذي يتلوه، انقضاءُ عدّتها.

فإنْ ظَنَّ ذو غباءٍ أنَّا إذْ كنا قد نُسَمِّي وقتَ مجيء الطهر «قُرءاً»، ووقت مجيء الحيض «قرءاً»، أنه يلزمنا أنْ نجعلَ عدة المرأة منقضيةً بانقضاء الطهر الثاني، إذ كان الطهرُ الذي طلقها فيه، والحيضة التي بعده، والطهر الذي يتلوها، «أقراءً» كلها فقد ظَنَّ جهلاً.

وذلك أن الحكم عندنا - في كل ما أنزله الله في كتابه - على ما احتمله ظاهرُ التنزيل، ما لم يبيِّن الله تعالى ذِكْرُهُ لعباده أنَّ مراده منه الخصوص، إما بتنزيلٍ في كتابه، أو على لسانِ رسولهِ ﷺ. فإذا خصَّ منه البعض، كان الذي خصَّ من ذلك غيرَ داخل في الجملة التي أوجب الحكم بها، وكان سائرها على

عمومها، كما قد بيَّنا في كتابنا «كتاب لطيف القول من البيان عن أصول الأحكام» وغيرِهِ من كتبنا.

فـ «الأقراء» التي هي أقراءُ الحيض بين طُهريْ أقراء الطهر، غير مُحْتَسَبةٍ من أقراء المتربِّصةِ بنفسها بعد الطلاق، لإجماعِ الجميعِ من أهل الإسلام: أنَّ «الأقراء» التي أوجبَ الله عليها تربُّصهن، ثلاثة قروء، بين كل قرء منهن أوقات مخالفاتُ المعنى لأقرائها التي تربَّصُهن. وإذْ كن مستحقات عندنا اسم «أقراء»، فإن ذلك من إجماع الجميع لم يُجِزْ لها التربّصَ إلا على ما وصفنا قَبْلُ.

وفي هذه الآية دليل واضح على خطأ قولِ مَنْ قال: «إن امرأة المُولي التى آلى منها، تحل للأزواج بانقضاء الأشهر الأربعة، إذا كانت قد حاضت ثلاث حيضٍ في الأشهر الأربعة». لأن الله تعالى ذِكْرُهُ إنما أوجبَ عليها العدّة بعد عزم المُولي طلاقها وإيقاع الطلاق بها بقوله: «وَإِنْ عَزَمُواْ ٱلطَّلَاقَ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ * وَٱلْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ»، فأوجب تعالى ذِكْرُهُ على المرأة إذا صارت مطلقة ـ تربُّصَ ثلاثةِ قروء. فمعلومٌ أنها لم تكن مطلقة يوم آلى منها زوجها، لإجماعِ الجميع على أنَّ الإيلاء ليس بطلاقٍ موجبٍ على المولى منها العِدّة. وإذ كانَ ذلك كذلك، فالعدةُ إنما تلزمها بعد الطلاقِ، والطلاقُ إنما يلحقها بما قد بيناه قَبْلُ.

وأما معنى قوله «وَٱلْمُطَلَّقَاتُ»، فإنه: والمُخَلَّيَاتُ السبيلِ، غير ممنوعات بأزواج ولا مخطوبات. وقول القائل: «فلانة مطلقة» إنما هو «مفعَّلة» من قول القائل: «طلَّق الرجل زوجته فهي مطلَّقة». وأما قولهم: «هي طالق»، فمن قولهم: «طلَّقها زوجها فطَلُقت هي، وهي تطلُق طلاقاً، وهي طالق». وقد حُكيَ عن بعض أحياء العرب أنها تقول: «طَلَقت المرأة». وإنما قيل ذلك لها، إذا

خلاَّهَـا زوجهـا، كما يُقالُ للنعجةِ المهملة بغير راعٍ ولا كالئ، إذا خرجت وحدها من أهلها للرعي مُخلاةً سبيلها: «هي طالق»، فمثلت المرأة المخلاّة سبيلهـا بها، وسُميت بما سُميت به النعجة التي وصفنا أمرها. وأما قولهم: «طُلِقت المـرأة»، فمعنى غير هذا، إنما يقال في هذا إذا نَفَسَتْ. هذا من «الطَّلْق»، والأول من «الطلاق».

وقد بينا أنَّ «التربُّصَ» إنما هو التوقفُ عن النكاح، وحبسُ النفس عنه، في غير هذا الموضع.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ عَزَّ ذِكْرُه: ﴿وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِيٓ أَرْحَامِهِنَّ إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأٓخِرِۚ﴾

اختلف أهلُ التأويلِ في تأويل ذلك:

فقال بعضهم: تأويله: «وَلاَ يَحِلُّ»، لهن يعني للمطلقات «أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ ٱللهُ فِي أَرْحَــامِهِنَّ»، من الحيض إذا طُلِّقْنَ. حرّم عليهن أنْ يكتمن أزواجَهُنَّ الذين طلَّقوهن، في الطلاق الذي عليهم لهنّ فيه رجعةٌ، يبتغين بذلك إبطالَ حقوقهم من الرجعة عليهن.

وقال آخرون: بل المعنى الذي نُهِيتْ عن كتمانه زوجَها المطلِّقَ: الحبلُ والحيضُ جميعاً.

وقال آخرون: بل عَنَى بذلك الحبل.

ثم اختلف قائلو ذلك في السبب الذي من أجله نُهِيتْ عن كتمان ذلك الرجلَ.

فقال بعضهم: نهيت عن ذلك لئلا تُبْطِلَ حَقَّ الزوج من الرجعة، إذا أراد

رجعتها قبل وضعها حملها.

وقال آخرون: السبب الذي من أجله نُهين عن كتمان ذلك: أنهن في الجاهلية كنَّ يكتمنَهُ أزواجهن، خوفَ مراجعتهم إياهُنَّ، حتى يتزوجن غيرهم، فيُلْحَقَ نَسَبُ الحملِ ـ الذي هو من الزوج المطلّق ـ بمن تَزَوَّجَتْهُ. فَحَرَّمَ الله ذلك عليهن.

وقال آخرون: بل السبب الذي من أجله نُهين عن كتمان ذلك، هو أنّ الرجلَ كان إذا أراد طلاق امرأته سألها: هل بها حملٌ؟ كيلا يُطَلِّقها وهي حاملٌ منه، للضرر الذي يلحقُه وولدَه في فراقها إنْ فارقَها، فأُمِرْنَ بالصدقِ في ذلك، ونُهين عن الكذب.

وأوْلَى هذه الأقوال بتأويل الآية، قولُ مَنْ قال: الذي نُهيت المرأة المطلَّقة عن كتمانه زوجَها المُطَلِّقَها تطليقةً أو تطليقتين مما خلق الله في رحمها ـ الحيضُ والحَبل. لأنه لا خلاف بين الجميع أنّ العِدّة تنقضي بوضع الولد الذي خلق الله في رحمها، كما تنقضي بالدم إذا رأته بعد الطهر الثالث، في قولِ مَنْ قال: «القُرء» الطهر، وفي قول من قال: هو الحيض، إذا انقطع من الحيضة الثالثة، فتطهرت بالاغتسال.

فإذْ كان ذلك كذلك ـ وكان الله تعالى ذِكْرُهُ إنما حرَّم عليهن كتمانَ المطلِّق الذي وصفنا أمره، ما يكونُ بكتمانهن إياه بُطُولُ حَقِّهِ الذي جعله الله له بعد الطلاق عليهن إلى انقضاء عِدَدهن، وكان ذلك الحق يبطل بوضعهن ما في بطونهن إنْ كُنَّ حواملَ، وبانقضاء الأقراء الثلاثة إنْ كن غيرَ حوامل ـ عُلِمَ أنهن مَنهيّات عن كتمان أزواجهن المطلِّقيهنَّ من كل واحدٍ منهما، ـ أعني من الحيض والحبل ـ مثل الذي هنَّ مَنْهيَّاتٌ عنه من الآخر، وأنْ لا معنى لخصوصِ مَنْ خصّ بأن المراد بالآية من ذلك أحدهما دون الآخر، إذ كان

جميعاً مما خلق الله في أرحامهن، وأنّ في كل واحد منهما من معنى بُطُولِ حق الزوج بانتهائه إلى غاية، مثل ما في الآخر.

ويُسأل من خصّ ذلك ـ فجعله لأحدِ المعنيين دون الآخر ـ عن البرهانِ على صِحَّةِ دعواه من أصْلٍ أو حجةٍ يجبُ التسليم لها، ثم يُعْكَسُ عليه القولُ في ذلك، فلن يقول في أحدهما قولاً إلا أُلْزِمَ في الآخر مثله.

فإن قال قائل: ما معنى قوله: «إن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِٱللهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلآخِرِ»؟ أوَ يحلُّ لهن كتمانُ ذلك أزواجهُنَّ إنْ كن لا يؤمنَّ بالله ولا باليومِ الآخر، حتى خصّ النهيُ عن ذلك المؤمنات بالله واليوم الآخر؟

قيل: معنى ذلك على غير ما ذهبتَ إليه. وإنما معناه: أن كتمان المرأة المطلَّقةِ زوجَها المطلِّقَها ما خلقَ الله في رحمها من حيضٍ وولدٍ في أيام عدتها من طلاقه ضراراً له، ليس من فعل مَنْ يؤمن بالله واليوم الآخر ولا من أخلاقه، وإنما ذلك من فِعْلِ مَنْ لا يؤمنُ بالله ولا باليوم الآخر وأخلاقِهنَّ من النساء الكوافر ـ فلا تتخلَّقن أيتها المؤمنات بأخلاقهنّ، فإنّ ذلك لا يحل لكنّ إنْ كُنْتُنَّ تُؤْمِنَّ بالله واليوم الآخر، وكنتن من المسلمات ـ لا أنَّ المؤمناتِ هُنَّ المخصوصات بتحريم ذلك عليهن دون الكوافر، بل الواجبُ على كُلِّ مَنْ لزمته فرائضُ الله من النساء اللواتي لهن أقراء ـ إذا طلِّقَتْ بعد الدخولِ بها في عدتها ـ أنْ لا تكتم زوجَها ما خلق الله في رحمها من الحيض والحَبل.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَٰلِكَ إِنْ أَرَادُوٓاْ إِصْلَٰحًا

«والبعولة» جمع «بعل»، وهو الزوج للمرأة.

وأما تأويل الكلام، فإنه: وأزواج المطلقات ـ اللاتي فرضنا عليهن أنْ يتــربَّصن بأنفسهن ثلاثـة قروء، وحـرَّمنـا عليهنَّ أنْ يكتمن ما خلق الله في أرحامهن ـ أحَقّ وأولى بردهن إلى أنفسهم في حال تَرَبُّصِهنَّ إلى الأقراء الثلاثة وأيام الحبل، وارتجاعهن إلى حبالهم منهن بأنفسهن أن يمنعنهم من أنفسهن ذلك.

فإن قال لنا قائل: فما لزوج ـ طلق واحدة أو اثنتين بعد الإفضاء إليها ـ عليها رجعة في أقرائها الثلاثة، إلا أن يكون مريداً بالرجعة إصلاح أمرها وأمره؟

قيل: أما فيما بينه وبين الله تعالى، فغير جائز ـ إذا أراد ضِرارَها بالرجعة، لا إصلاحَ أمْرِهَا وأمره ـ مراجعتُها.

وأمـا في الحكم فإنـه مقضيٌّ له عليها بالرجعة، نظير ما حكمنا عليه ببُطُولِ رَجعته عليها لو كَتَمَتْهُ حَمْلَهَا الذي خلقه الله في رحمها أو حيضها حتى انقضت عدتها ضراراً منها له، وقد نهى الله عن كتمانه ذلك. فكان سواءً في الحكم ـ في بُطُولِ رَجعة زوجها عليها، وقد أَثِمَتْ في كتمانها إياهُ ما كتمته من ذلك حتى انقضت عدتها ـ هي والتي أطاعت الله بتركها كتمانَ ذلك منه، وإن اختلفتا في طاعة الله في ذلك ومعصيته. فكذلك المراجعُ زوجتَه المطلقة واحدة أو ثنتين بعد الإفضاء إليها وهما حُرَّان ـ وإنْ أراد ضرارَ المُراجعة برجعتهِ ـ فمحكومٌ له بالرجعة، وإن كان آثماً بريائه في فعله، ومُقْدِماً على ما لم يُبِحْهُ الله له، والله وليُّ مُجَازَاتِهِ فيما أتى من ذلك؛ فأما العباد، فإنهم غيرُ جائزٍ لهم الحـوْلُ بينـه وبين امرأته التي راجعها بحكم الله تعالى ذِكْرُهُ له بأنها حينئذٍ زوجتُه. فإنْ حاول ضِرَارها بعد المراجعة بغير الحقِّ الذي جعله الله له، أُخِذَ لها بالحقوق التي ألزم الله تعالى ذِكْرُهُ الأزواجَ للزوجات، حتى يعود ضررُ ما أراد من ذلك عليه دونها.

وفي قولـه: «وبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذلكَ» أبينُ الدلالة على صحةِ قولِ مَنْ قال: إنّ المولي إذا عزم الطلاقَ فطلق امرأته التي آلى منها، أنَّ له عليها الرّجعة في طلاقه ذلك، وعلى فسادِ قولِ مَنْ قال: إنَّ مُضِيَّ الأشهر الأربعة عزمُ الطلاق، وإنه تطليقةٌ بائنة، لأن الله تعالى ذِكْرُهُ إنما أعْلَمَ عبادَهُ ما يلزمُهم إذا آلوا من نسائهم، وما يلزم النساء من الأحكام في هذه الآية بإيلاء الرجال وطلاقهم، إذا عزموا ذلك وتركوا الفيء.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ

اختلف أهلُ التأويلِ في تأويل ذلك:

فقال بعضهم: تأويله: ولهنّ من حُسْنِ الصحبة والعِشرة بالمعروف على أزواجهن، مِثْلُ الذي عليهنّ لهم من الطاعةِ فيما أوجبَ الله تعالى ذِكْرُهُ له عليهنَّ.

وقال آخرون: معنى ذلك: ولهنّ على أزواجهن من التَّصنُّع والمؤاتاة، مثل الذي عليهن لهم من ذلك.

والـذي هو أولى بتأويل الآية عندي: وللمطلقات واحدة أو ثنتين - بعد الإفضاء إليهن - على بعولتهن أنْ لا يراجعوهنّ في أقرائهن الثلاثة، إذا أرادوا رجْعتهن فيهن، إلا أنْ يُريدوا إصلاحَ أمرِهن وأمرهم، وأن لا يراجعوهن ضِراراً - كما عليهن لهم إذا أرادوا رجعتهنَّ فيهنَّ، أنْ لا يكتمنَ ما خلق الله في أرحامهنّ من الولد ودم الحيض، ضِراراً منهن لهم لِيَفُتْنَهُم بأنفسهنّ.

ذلك أن الله تعالى ذِكْرُهُ نهى المطلقاتِ عن كتمانِ أزواجهنّ في أقرائهنَّ ما خلق الله في أرحامهنَّ، إنْ كُنَّ يؤمنَّ بالله واليوم الآخر، وجعل أزواجهن أحق

بردّهن في ذلـك إنْ أرادوا إصلاحاً، فحرَّم الله على كل واحدٍ منهما مُضَارَّةَ صاحبهِ، وعَرَّفَ كلَّ واحدٍ منهما ما له وما عليه من ذلك، ثم عقب ذلك بقوله: «ولَهُنَّ مِثْـلُ الـذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْـرُوفِ» فبيّن أنَّ الذي على كل واحدٍ منهما لصاحبه من تَرْكِ مُضَارَّتِه، مثلُ الذي له على صاحبه من ذلك.

فهذا التأويل هو أشبه بدلالة ظاهر التنزيل من غيره.

وقد يحتملُ أنْ يكونَ كل ما على كُلٍّ واحدٍ منهما لصاحبه، داخلاً في ذلك، وإنْ كانت الآيةُ نزلت فيما وصفنا، لأن الله تعالى ذِكْرُهُ قد جعل لكلِّ واحدٍ منهما على الآخر حقاً، فلكل واحد منهما على الآخر من أداء حقه إليه، مثلُ الذي عليه له، فيدخل حينئذٍ في الآية ما قاله الضحاك وابن عباس وغير ذلك.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾

اختلف أهلُ التأويلِ في تأويل ذلك:

فقـال بعضهم: معنى «الـدرجـة» التي جعل الله للرجال على النساء، الفضلُ الذي فَضَّلهم الله عليهن في الميراث والجهاد وما أشبه ذلك.

وقال آخرون: بل تلك الدرجة، الإِمْرةُ والطاعة.

وقال آخرون: تلك الدرجة له عليها، بما ساق إليها من الصَّدَاقِ، وأنها إذا قذفته حُدَّتْ، وإذا قذفها لاعنَ.

وقال آخرون: تلك الدرجة التي له عليها، إفضالُه عليها، وأداءُ حَقِّها إليها، وصَفْحُهُ عن الواجبِ لهُ عليها أو عن بعضه.

وقال آخرون: بل تلك الدرجة التي له عليها، أنْ جعلَ له لحيةً وحرمها ذلك.

وأولى هذه الأقوال بتأويل الآية أن «الدرجة» التي ذكر الله تعالى ذِكْرُهُ في هذا الموضع، الصفحُ من الرجل لامرأته عن بعض الواجب عليها، وإغضاؤه لها عنه، وأداء كل الواجب لها عليه.

وذلك أن الله تعالى ذِكْرُهُ قال: «ولِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ»، عَقيب قوله: «ولَهُنَّ مِثْلُ الذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ» فأخبر تعالى ذِكْرُهُ أنَّ على الرجل من تَرْكِ ضِرارها في مراجعتهِ إياها في أقرائها الثلاثة وفي غير ذلك من أمورها وحُقوقها، مثلُ الذي له عليها من تركِ ضراره في كتمانها إياه ما خلقَ الله في أرحامهنّ وغير ذلك من حقوقه. ثم نَدَبَ الرجالَ إلى الأخذ عليهن بالفضل، إذا تركن أداءَ بعض ما أوجب الله لهم عليهن، فقال تعالى ذِكْرُهُ: «ولِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ»، بتفضُّلِهم عليهن، وصفحهم لهن عن بعض الواجب لهم عليهن. وهذا هو المعنى الذي قصده ابن عباس بقوله: «ما أحبُّ أنْ أستنظفَ جميعَ حقي عليها»، لأن الله تعالى ذِكْرُهُ يقول: ﴿وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾.

ومعنى «الدرجة»: الرتبةُ والمنزلة.

وهذا القول من الله تعالى ذِكْرُهُ، وإن كان ظاهرُه ظاهر الخبر، فمعناه معنى نَدْبِ الرجالِ إلى الأخذِ على النساء بالفضل، ليكون لهم عليهن فضل درَجة.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ۝٢٢٨﴾

يعني تعالى ذِكْرُهُ بذلك: «وَٱللهُ عَزِيزٌ» في انتقامه ممن خالف أمره وتعدَّى حدوده، فأتى النساءَ في المحيضِ، وجعل الله عُرضةً لأيمانهِ أنْ يبرَّ ويتقي ويصلح بين الناس، وعضَلَ امرأتَهُ بإيلائهِ، وضَارَّها في مُراجعتهِ بعد طلاقه،

ولمن كتم من النساء ما خلق الله في أرحامهن أزواجَهُنَّ، ونكحن في عِدَدهن وتركنَ التربُّصَ بأنفسهن إلى الوقت الذي حَدَّهُ الله لهن، وركبن غير ذلك من معاصيه؛ «حَكِيمٌ» فيما دبَّر في خلقه، وفيما حكم وقضَى بينهم من أحكامه.

وإنما توعَّد الله تعالى ذِكْرُهُ بهذا القول عباده، لتقديمهِ قَبْلَ ذلك بيانَ ما حرَّمَ عليهم أو نهاهم عنه، من ابتداء قوله: «وَلَا تَنكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّى يُؤْمِنَّ» إلى قوله: «وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ»، ثم أتبع ذلك بالوعيد، ليزدجر أولُو النهى، وليذَّكَّرَ أولو الحجى فَيَتَّقُوا عِقابه، ويحذروا عذابه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِۖ فَإِمۡسَاكُۢ بِمَعۡرُوفٍ أَوۡ تَسۡرِيحُۢ بِإِحۡسَٰنٍۗ﴾

اختلف أهلُ التأويلِ في تأويل ذلك:

فقال بعضهم: هو دلالة على عدد الطلاق الذي يكون للرجل فيه الرجعةُ على زوجته، والعدد الذي تَبِينُ به زوجته منه.

وقال آخرون: إنما أنزلت هذه الآية على نبيِّ الله ﷺ تعريفاً من الله تعالى ذِكْرُهُ عِبادَهُ سُنَّةَ طلاقهم نساءهم إذا أرادوا طلاقهن ـ لا دلالةً على العدد الذي تَبِينُ به المرأةُ من زوجها.

والذي هو أولى بظاهر التنزيل أن الآية إنما هي دليلٌ على عدد الطلاق الذي يكون به التحريمُ وبُطول الرجعةِ فيه، والذي يكون فيه الرجعة منه. وذلك أن الله تعالى ذِكْرُهُ قال في الآية التي تتلوها: ﴿فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدُ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجاً غَيْرَهُ﴾، فعرَّف عبادَهُ القَدْرَ الذي به تحرُمُ المرأةُ على زوجها إلّا بعد زوجٍ ـ ولم يبين فيها الوقتَ الذي يجوزُ الطلاقُ فيه، والوقتَ الذي لا يجوز ذلك فيه.

وأما قوله: «فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ»، فإنّ في تأويله وفيما عُني به اختلافاً بين أهل التأويل.

فقال بعضهم: عنى الله تعالى ذِكْرُهُ بذلك، الدلالةَ على اللازم الأزواجَ للمطلقات اثنتين ـ: بعد مراجعتهم إياهن من التطليقة الثانية ـ من عشرتهن بالمعروف، أو فراقهن بطلاق.

وقال آخرون منهم: بل عنى الله بذلك الدلالةَ على أن يلزمهم لهن بعد التطليقة الثانية، من مراجعة بمعروف أو تسريح بإحسان، بترك رجعتهن حتى تنقضي عِدتهن، فَيَصِرْنَ أملكَ لأنفسهن، وأنكروا قول الأولين الذين قالوا: إنه دليل على التطليقة الثالثة.

وبَيِّنٌ أن تأويلَ الآية: الطلاقُ الذي لأزواج النساء على نسائهم فيه الرجعةُ، مرتان. ثم الأمرُ بعد ذلك إذا راجعوهن في الثانية، إما إمساكٌ بمعروف، وإما تسريحٌ منهم لهن بإحسان بالتطليقة الثالثة، حتى تبينَ منهم، فيبطل ما كان لهم عليهنّ من الرجعة، ويصرن أملكَ بأنفسهن منهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَأْخُذُوا۟ مِمَّآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ شَيْـًٔا إِلَّآ أَن يَخَافَآ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ

يعني تعالى ذِكْرُهُ بقوله: «وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَأْخُذُواْ مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا»، ولا يحل لكم أيها الرجال، أن تأخذوا من نسائكم، إذا أنتم أردتم طلاقَهُنَّ ـ لطلاقِكم وفراقِكم إياهُنَّ، شيئاً مما أعطيتموهن من الصَّداق وسُقْتُمْ إليهن، بل الواجبُ عليكم تسريحهن بإحسانٍ. وذلك إيفاؤهن حُقوقَهُنَّ من الصَّداقِ والمتعةِ وغير ذلك مما يجب لهن عليكم، «إِلَّا أَن يَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللهِ».

واختلف أهلُ التأويلِ في معنى «الخوف» منهما أنْ لا يقيما حُدودَ الله.

فقال بعضهم: ذلك هو أنْ يظهرَ من المرأةِ سوءُ الخُلُقِ والعِشرة لزوجها، فإذا ظهر ذلك منها له، حَلَّ له أن يأخذ ما أعطته من فديةٍ على فراقها.

وقال آخرون: بل «الخوف» من ذلك: أن لا تُبِرَّ له قَسَماً، ولا تطيعَ له أمراً، وتقول: لا أغتسلُ لكَ من جنابة، ولا أطيعُ لك أمراً! فحينئذٍ يحل له عندهم أخذ ما آتاها على فراقه إياها.

وقال آخرون: بل «الخوف» من ذلك، أن تبتدئ له بلسانها قولاً: أنها له كارهة.

وقال آخرون: بل الذي يبيح له أخذ الفدية، أن يكون خوفٌ أنْ لا يقيما حدودَ الله منهما جميعاً، لكراهةِ كُلٍّ واحدٍ منهما صُحْبَةَ الآخرِ.

وأولى هذه الأقوال بالصحة قول من قال: لا يَحلُّ للرجلِ أخذُ الفدية من امرأته على فراقهِ إياها، حتى يكون خوفُ معصيةِ الله من كُلٍّ واحدٍ منهما على نفسه ـ في تفريطه في الواجب عليه لصاحبه ـ منهما جميعاً، على ما ذكرنا عن طاووس والحسن، ومن قال في ذلك قولهما. لأن الله تعالى ذِكْرُهُ إنما أباح للزوج أخذ الفدية من امرأته، عند خوف المسلمين عليهما أن لا يُقيما حدودَ الله.

فإن قال قائل: فإن كان الأمر على ما وصفت، فالواجبُ أن يكون حراماً على الرجل قَبُولُ الفدية منها، إذا كان النشوزُ منها دونه، حتى يكون منه الكراهة لها مثل الذي يكون منها؟

قيل له: إن الأمر في ذلك بخلاف ما ظننت. وذلك أنَّ في نشوزها عليه داعيةً له إلى التقصيرِ في واجبها، ومجازاتها بسوءِ فِعْلِهَا به، وذلك هو المعنى الذي يوجبُ للمسلمين الخوفَ عليهما أنْ لا يقيما حدودَ الله، فأما إذا كان التفريط من كُلٍّ واحدٍ منهما في واجب حق صاحبه قد وُجد، وسوء الصحبة

والعِشرة قد ظهر للمسلمين، فليس هناك للخوفِ موضعٌ، إذ كان المخوفُ قد وجد. وإنما يُخاف وقوعُ الشيءِ قبل حدوثِه، فأما بعد حدوثه فلا وجه للخوف منه ولا الزيادة في مكروهه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ﴾

اختلف أهلُ التأويلِ في تأويل قوله: «فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ آللهِ» ـ التي إذا خِيف من الـزوجِ والمرأةِ أن لا يقيماها، حلّت له الفدية من أجل الخوف عليهما، تضييعَها.

فقـال بعضهم: هو استخفافُ المرأة بحقِّ زوجها، وسوء طاعتها إياه، وأذاها له بالكلام.

وقال آخرون: معنى ذلك: فإن خفتم أن لايطيعا الله.

والصواب من القول في ذلك: فإن خفتم أن لا يقيما ما أوجبَ الله عليهما من الفـرائض، فيمـا ألـزم كل واحـدٍ منهما من الحق لصاحبه، من العِشرة بالمعـروف والصُّحبـة بالجميل، فلا جنـاح عليهما فيما افْتَدَتْ به؛ لأن من الواجب للزوج على المرأة ـ طاعتَهُ فيما أوجبَ الله طاعتَهُ فيه، ولا تُؤْذيه بقولٍ، ولا تمتنع عليه إذا دعاها لحاجته، فإذا خالفت ما أمرها الله به من ذلك، كانت قد ضَيَّعَتْ حدودَ الله التي أمرَها بإقامتها.

وأما معنى: «إقامة حدود الله»، فإنه العمل بها، والمخالفة عليها وترك تضييعها ـ وقد بيَّنا ذلك فيما مضى قبل من كتابنا هذا بما يدل على صحته.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا ٱفْتَدَتْ بِهِۦ﴾

يعني قوله تعالى ذِكْرُهُ بذلك: فإن خفتم أيها المؤمنون أن لا يُقيم الزوجان ما حدَّ الله لكلٍّ واحدٍ منهما على صاحبه من حَقٍّ وألزمه له من فرضٍ، وخشيتم عليهما تضييعَ فَرْضِ الله وتعدِّي حُدودِه في ذلك، فلا جناحَ حينئذٍ عليهما فيما افتدت به المرأةُ نفسَها من زوجها، ولا حرجَ عليهما فيما أعطت هذه على فراق زوجها إياها، ولا على هذا فيما أخذ منها من الجُعل والعِوَضِ عليه.

فإنْ قال قائلٌ: وهل كانت المرأة حَرِجةً لو كان الضِّرارُ من الرجل بها فيما افتدت به نفسها، فيكون «لاجناحَ عليهما» فيما أعطته من الفدية على فراقها، إذا كان النشوز من قِبَلها.

قيل: لو علمتْ في حال ضِراره بها ليأخذ منها ما آتاها، أنَّ ضِراره ذلك إنما هو ليأخذَ منها ما حرَّم الله عليه أَخْذَهُ على الوجهِ الذي نهاه الله عن أخذه منها، ثم قدرت أن تمتنع من إعطائه بما لا ضررَ عليها في نَفْسٍ ولا دِينٍ ولا حق عليها في ذهاب حقٍّ لها ـ لما حَلَّ لها إعطاؤُه ذلك إلاّ على وجهِ طِيْبِ النفسِ منها بإعطائه إياه على ما يحل له أخذه منها. لأنها متى أعطته ما لا يحلُّ له أخذُه منها، وهي قادرة على منعه ذلك بما لا ضَرَر عليها في نفسٍ ولا دينٍ ولا في حقٍّ لها تخافُ ذهابَهُ، فقد شاركته في الإثمِ بإعطائهِ ما لا يحل له أخذه منها على الوجه الذي أعطته عليه. فلذلك وضع عنها الجناحَ إذا كان النشوزُ من قِبَلِهَا، وأعطته ما أعطته من الفدية بطيب نفسٍ ابتغاءً منها بذلك سلامَتها وسلامةَ صاحبها من الوِزر والمأثم. وهي ـ إذا أعطته على هذا الوجه ـ باستحقاق الأجر والثواب من الله تعالى ـ أولى إن شاء الله منَ الجُناح والحرج. ولذلك قال تعالى ذِكْرُهُ: «فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا»، فوضع الحرَج عنها فيما أعطته على هذا الوجه من الفدية على فراقهِ إياها، وعنه فيما قبض منها، إذْ كانت معطيةً على المعنى الذي وصفنا، وكان قابضاً منها ما أعطته من غير ضِرار،

بل طلبَ السلامة لنفسه ولها في أديانهما وحذارَ الأوزار والمأثم. وذلك قلب المفهوم من كلام الناس والمعروف من استعمالهم في مخاطباتهم. وغير جائزٍ حملُ كتاب الله تعالى ووحيه جَلَّ ذكره على الشواذ من الكلام، وله في المفهوم الجاري بين الناس وجه صحيح موجود.

ثم اختلف أهلُ التأويلِ في تأويل قوله: «فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا ٱفْتَدَتْ بِهِۦ»، أمعنيٌّ به أنهما موضوع عنهما الجناحُ في كل ما افتدت به المرأةُ نفسها من شيء، أم في بعضه؟

فقال بعضهم: عنى بذلك: «فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا ٱفْتَدَتْ بِهِۦ» من صَداقها الذي كان آتاها زوجها الذي تَخْتَلِعُ منه. واحتجوا في قولهم ذلك، بأنَّ آخرَ الآية مردودٌ على أولها، وأنَّ معنى الكلام: ولا يحل لكم أن تأخذوا مما آتيتموهن شيئاً إلّا أن يخافا أن لايُقيما حدودَ الله، فإنْ خفتم أن لا يقيما حدودَ الله فلا جُنَاحَ عليهما فيما افتدت به مما آتيتموهن. قالوا: فالذي أحلَّه الله لهما من ذلك ـ عند الخوف عليهما أن لايقيما حدود الله ـ هو الذي كان حظَر عليهما قبل حال الخوف عليهما من ذلك.

وقال آخرون: بل عنى بذلك: فلا جناح عليهما فيما افتدت به من قليلِ ما تَمْلِكُهُ وكثيرِه. واحتجوا لقولهم ذلك بعموم الآية، وأنه غير جائزةٍ إحالة ظاهرٍ عامٍّ ـ إلى باطنٍ خاص إلا بحجةٍ يجبُ التسليم لها. قالوا: ولا حجة يجبُ التسليم لها بأنَّ الآية مُرادٌ بها بعض الفدية دون بعض، من أصلٍ أو قياس، فهي على ظاهرها وعمومها.

وقال آخرون: هذه الآية منسوخة بقوله: ﴿وَإِنْ أَرَدْتُّمُ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا﴾ [النساء: ٢٠].

وأولى هذه الأقوال بالصواب قول من قال: إذا خيف من الرجل والمرأة

أن لايقيما حدود الله ـ على سبيل ما قدَّمنا البيانَ عنه ـ فلا حرجَ عليهما فيما افتـدتْ به المـرأةُ نفسها من زوجها، من قليلِ ما تملكه وكثيرهِ، مما يجوزُ للمسلمين أن يملكوه، وإنْ أتى ذلك على جميع مِلكها. لأن الله تعالى ذِكْرُهُ لم يخصَّ ما أباح لهما من ذلك على حدٍّ لا يُجَاوَزُ، بل أطلق ذلك في كل ما افتدت به. غير أني أختار للرجل ـ استحباباً لا تحتيماً، إذا تبيَّن من امرأته أنّ افتداءها منه لغير معصيةٍ لله، بل خوفاً منها على دينها ـ أن يُفارقها بغير فديةٍ ولا جُعْلٍ. فإن شَحَّت نفسه بذلك، فلا يبلغ بما يأخذ منها جميع ما آتاها.

فأمـا ما قيل من أن هذا الحكم في جميع الآية منسوخ بقوله: ﴿وَإِنْ أَرَدْتُمُ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَكَانَ زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنْطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئاً﴾ فقولٌ لا معنى له، فنتشاغل بالإبانة عن خطئه، لمعنيين:

أحـدهمـا: إجمـاعُ الجميع من الصحـابـة والتـابعين ومَنْ بعدهم من المسلمين على تخطئته، وإجازةُ أخذِ الفدية من المفتديةِ نفسَها لزوجها، وفي ذلك الكفايةُ عن الاستشهاد على خطئه بغيره.

والآخر: أن الآية التي في «سورة النساء»، إنما حرم الله فيها على زوج المرأة أن يأخذ منها شيئاً مما آتاها، إنِ أراد الرجلُ استبدالَ زوجٍ بزوجٍ من غير أن يكون هنالك خوفٌ من المسلمين عليهما مُقامَ أحدهما على صاحبه أن لا يقيما حدود الله، ولا نشوزٌ من المرأة على الرجل. وإذا كان الأمر كذلك، فقد ثَبَتَ أنَّ أخذ الزوج من امرأتهِ مالاً على وجه الإكراه لها والإضرار بها حتى تعطيه شيئاً من مالها على فراقها حرامٌ، ولو كان ذلك حَبَّةَ فضةٍ فصاعداً.

وأما الآية التي في «سورة البقرة» فإنها إنما دلت على إباحةِ الله تعالى ذِكْرُهُ له أخذَ الفدية منها في حال الخوفِ عليهما أن لا يُقيما حدودَ الله، بنشوزِ المرأة وطلبها فِرَاقَ الرجل، ورغبته فيها. فالأمر الذي أذن به للزوج في أخذ

الفدية من المرأة في «سورة البقرة»، ضد الأمر الذي نهى من أجله عن أخذ الفدية في «سورة النساء»، كما الحظرُ في «سورة النساء»، غيرُ الإطلاق والإباحة في «سورة البقرة». وإنما يجوزُ في الحكمين أن يقال: أحدهما ناسخ، إذا اتفقت معاني المحكوم فيه، ثم خولف بين الأحكام فيه باختلاف الأوقات والأزمنة. وأما اختلاف الأحكام باختلاف معاني المحكوم فيه في حالٍ واحدة ووقتٍ واحد، فذلك هو الحكمة البالغة، والمفهوم في العقل والفطرة، وهو من الناسخ والمنسوخ بمعزل.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا ۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٢٩﴾﴾

يعني تعالى ذِكْرُهُ بذلك: تلك معالم فصُوله بين ما أَحَلَّ لكم وما حَرَّمَ عليكم أيها الناسُ، فلا تعتدُوا ما أحلَّ لكم من الأمور التي بيَّنها وفصَّلها لكم من الحلال، إلى ما حَرَّمَ عليكم، فتُجاوزوا طاعتَهُ إلى معصيتِهِ.

وإنما عنى تعالى ذِكْرُهُ بقوله: «تِلْكَ حُدُودُ ٱللهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا»، هذه الأشياء التي بيِّنتُ لكم في هذه الآيات التي مضت: من نكاحِ المشركاتِ الوثنياتِ، وإنكاح المشركينَ المسلماتِ، وإتيانِ النساء في المحيضِ، وما قد بيِّن في الآيات الماضية قبل قوله: «تِلْكَ حُدُودُ ٱللهِ»، مما أحل لعباده وحرَّم عليهم، وما أمر ونهى. ثم قال لهم تعالى ذِكْرُهُ: هذه الأشياء ـ التي بَيَّنتُ لكم حلالَها من حرامِهَا ـ «حدودي» يعني به: معالم فصول ما بين طاعتي ومعصيتي «فَلَا تَعْتَدُوهَا» يقول: فلا تتجاوزوا ما أحْلَلْتُه لكم إلى ما حَرَّمْتُه عليكم، وما أمرتكم به إلى ما نهيتكم عنه، ولا طاعتي إلى معصيتي، فإنَّ مَنْ تَعَدَّى ذلك ـ يعني مَنْ تَخَطَّاهُ وتجاوزه ـ إلى ما حرمتُ عليه أو نهيته، فإنه هو الظالم وهو الذي

فعل ما ليس له فعله، ووضع الشيء في غير موضعه. وقد دللنا فيما مضى على معنى «الظلم» وأصله بشواهده الدالة على معناه، فكرهنا إعادته في هذا الموضع.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُۥ مِنۢ بَعْدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُۥ﴾

اختلف أهلُ التأويلِ فيما دل عليه هذا القول من الله تعالى ذِكْرُهُ.

فقال بعضهم: دلَّ على أنه إنْ طلق الرجلُ امرأته التطليقةَ الثالثة ـ بعد التطليقتين اللتين قال الله تعالى ذِكْرُهُ فيهما: «ٱلطَّلَاقُ مَرَّتَانِ» ـ فإنَّ امرأته تلك لا تحلُّ له بعد التطليقةِ الثالثة، حتى تنكح زوجاً غيره ـ يعني به: غيرَ المطلِّق.

وقال آخرون: بل دل هذا القولُ على ما يلزم مسرِّحَ امرأته بإحسان بعد التطليقتين اللتين قال الله تعالى ذِكْرُهُ فيهما: «ٱلطَّلَاقُ مَرَّتَانِ». قالوا: وإنما بيَّن الله تعالى ذِكْرُهُ بهذا القول عن حكم قوله: «أو تسريحٌ بإحسان»، وأعْلَمَ أنه إنْ سرَّح الرجلُ امرأته بعد التطليقتين، فلا تحلُّ له المُسَرَّحةُ كذلك إلا بعد زوج (وهو قول مجاهد).

والذي قاله مجاهدٌ في ذلك عندنا أولى بالصواب، للذي ذكرنا عن رسول الله ﷺ في الخبر الذي رويناه عنه أنه قال ـ أو سُئل فقيل: هذا قول الله تعالى ذِكْرُهُ: «ٱلطَّلَاقُ مَرَّتَانِ» فأين الثالثة؟ قال: «فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ»[1] فأخبر ﷺ أن الثالثة إنما هي قوله: «أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ». فإذْ كان

(١) يشير المؤلف إلى ثلاثة أحاديث أوردها في تفسيره بالأرقام ٤٧٩١ ـ ٤٧٩٣ هي حديث واحد مرسل لا يجوز الاحتجاجُ به، لعدم ثبوت صدوره عن النبي ﷺ، والتطليقة الثالثة ثابتة في الآية التي بعدها في سياق الكلام ﴿فإن طلقها فلا تحلُّ له من بَعْدُ حتى تنكح زوجاً غيره﴾ بموجب هذا الحديث ـ إنْ صَحَّ و لايصح ـ تصبح هذه طلقة رابعة، وهو خلاف الثابت المعلوم.

التسريحُ بالإحسان هو الثالثة، فمعلومٌ أن قوله: «فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِن بَعْدُ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجاً غَيْرَهُ»، من الدلالةِ على التطليقةِ الثالثة بمعزل، وأنه إنما هو بيانٌ عن الذي يحل للمسرِّح بالإحسان إنْ سَرَّحَ زوجته بعد التطليقتين، والذي يحرم عليه منها، والحال التي يجوز له نكاحها فيها، وإعلامٌ عبادَه أن بعد التسريح على ما وصفت، لا رجعةَ للرجلِ على امرأتِهِ.

فإن قال قائل: فأي النِّكاحين عنى الله بقوله: «فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِن بَعْدُ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجاً غَيْرَهُ»، النكاح الذي هو جماع، أم النكاح الذي هو عقد تزويج؟

قيل: كلاهما: وذلك أن المرأة إنْ نكحت رجلًا نكاحَ تزويجٍ، ثم لم يطأها في ذلك النكاح ناكحُها، ولم يجامعها حتى يطلقها، لم تَحِلَّ للأول. وكذلك إن وَطئها واطىءٌ بغير نكاحٍ، لم تحلَّ للأول بإجماعِ الأمة جميعاً. فإذْ كان ذلك كذلك، فمعلوم أنّ تأويل قوله: «فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِن بَعْدُ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجاً غَيْرَهُ» نكاحاً صحيحاً، ثم يجامعها فيه، ثم يطلِّقها.

فإن قال: فإنَّ ذكرَ الجماع غيرُ موجودٍ في كتاب الله تعالى ذِكْرُهُ، فما الدلالةُ على أنَّ معناه ما قلت؟

قيل: الدلالة على ذلك إجماعُ الأمة جميعاً على أنّ ذلك معناه. وبعدُ، فإن الله تعالى ذِكْرُهُ قال: «فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِن بَعْدُ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجاً غَيْرَهُ»، فلو نكحت زوجاً غيرَه بعقب الطلاق قبل انقضاء عدتها، كان لا شك أنها ناكحة نكاحاً بغير المعنى الذي أباح الله تعالى ذِكْرُهُ لها ذلك به، وإنْ لم يكن ذِكْرُ العدة مقروناً بقوله: «فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِن بَعْدُ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجاً غَيْرَهُ»، لدلالته على أن ذلك كذلك بقوله: «وَٱلْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ». وكذلك قوله: «فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِن بَعْدُ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجاً غَيْرَهُ»، وإن لم يكن مقروناً به ذِكْرُ الجماعِ والمباشرةِ والإفضاءِ، فقد دَلَّ على أن ذلك

كذلك، بوحيهِ إلى رسولِ الله ﷺ، وبيانه ذلك على لسانه لعباده.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يَتَرَاجَعَآ إِن ظَنَّآ أَن يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ﴾

يعني تعالى ذِكْرُهُ بقوله: «فَإِن طَلَّقَهَا»، فإن طلق المرأة ـ التي بانت من زوجها بآخرِ التطليقاتِ الثلاث، بعدما نَكَحَهَا مُطَلِّقُها الثاني ـ زوجُها الذي نكحها بعد بَيْنُونَتِهَا من الأول «فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: فلا حرجَ على المرأة التي طلقها هذا الثاني: من بعد بينونتها من الأول، وبعد نكاحه إياها ـ وعلى الزوجِ الأول الذي كانت حُرِّمَتْ عليه بينونتها منه بآخرِ التطليقاتِ أنْ يتراجعا بنكاحٍ جديد.

وأما قوله: «إن ظَنَّا أَن يُقِيمَا حُدُودَ ٱللهِ»، فإن معناه، إنْ رَجَوَا مطمعاً أن يقيما حدود الله. وإقامتهما حدود الله، العمل بها. وحدودُ الله ما أمرها به وأوجبَ لكلٍّ واحدٍ منهما على صاحبه، وألزم كُلَّ واحدٍ منهما بسبب النكاح الذي يكون بينهما.

وقد بينا معنى «الحدود»، ومعنى «إقامة» ذلك، بما أغنى عن إعادته في هذا الموضع.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ 

يعني تعالى ذِكْرُهُ بقوله: «وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللهِ»: هذه الأمور التي بَيَّنَها لعبادِه في الطلاق والرجعة والفدية والعِدَّة والإيلاء وغير ذلك، مما يبيِّنه لهم في هذه

الآيات. «حُدُودُ ٱللهِ»: معالم فصول حلاله وحرامه، وطاعته ومعصيته. «يُبَيِّنُهَا»: يفصِّلها فيميِّز بينها، ويعرِّفهم أحكامها، لقومٍ يعلمونها إذا بيَّنها الله لهم، فيعرفون أنها من عند الله فيصدقون بها، ويعملون بما أودعهم الله من علمه، دون الذين قد طبعَ الله على قلوبهم، وقضى عليهم أنهم لا يؤمنون بها، ولا يصدقون بأنها من عند الله، فهم يجهلون أنها من الله، وأنها تنزيلٌ من حكيم حميد. ولذلك خَصَّ القومَ الذين يعلمون بالبيان دون الذين يجهلون، إذْ كان الذين يجهلون أنها من عنده، قد آيس نبيَّه محمداً ﷺ من تصديقِ كثيرٍ منهم بها، وإنْ كان بيَّنها لهم من وَجْه الحجة عليهم، ولزومِ العملِ لهم بها. وإنما أخرجها من أن تكون بياناً لهم، من وجه تركهم الإقرارَ والتصديقَ به.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍۚ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا۟ۚ﴾

يعني تعالى ذِكْرُهُ بذلك: «وَإِذَا طَلَّقْتُمُ»، أيها الرجالُ نساءكم، «فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ»، يعني: ميقاتَهن الذي وقَّته لهن، من انقضاء الأقراء الثلاثة، إنْ كانت من أهل القُرء، وانقضاءِ الأشهرِ، إنْ كانت من أهل الشهور، «فَأَمْسِكُوهُنَّ»، يقول: فراجعوهنَّ إنْ أردتم رَجعتهن في الطلقة التي فيها رَجعة: وذلك إما في التطليقة الواحدة أو التطليقتين، كما قال تعالى ذِكْرُهُ: «ٱلطَّلَاقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ».

وأما قوله: «بِمَعْرُوفٍ»، فإنه عنى: بما أذِن به من الرجعة، من الإشهادِ على الرجعة قبل انقضاء العِدّة، دون الرجعة بالوطء والجماع، لأن ذلك إنما

يجوز للرجل بعد الرجعة، وعلى الصحبة مع ذلك والعِشرة بما أمر الله به وبيَّنه لكم أيها الناس، «أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ»، يقول: أو خَلُّوهُنَّ يقضين تمامَ عِدتهنّ وينقضي بقية أجلهن الذي أجلته لهنّ لعددهن، بمعروف. يقول: بإيفائهن تمام حقوقهن عليكم،» على ما ألزمتكم لهنّ من مهرٍ ومتعةٍ ونفقةٍ وغير ذلك من حقوقهنّ قِبَلكم، «وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِتَعْتَدُواْ» يقول: ولا تراجعوهن، إن راجعتموهنّ في عِدَدهن، مضارةً لهنّ، لتطوِّلوا عليهنّ مدة انقضاء عِددهنّ، أو لتأخذوا منهن بعض ما آتيتموهن بطلبهن الخُلع منكم، لمضارتكم إياهن، بإمساككم إياهنّ، ومراجعتكموهنّ ضراراً واعتداءً.

وقوله: «لِتَعْتَدُواْ»، يقول: لتظلموهن بمجاوزتكم في أمرهن حدودي التي بيَّنتها لكم.

وأصل «التسريح»، من «سَرْح القوم»، وهو ما أطلق من نَعَمهم للرعي. يقال للمواشي المرسلة للرعي: «هذا سَرْح القوم»، يراد به مواشيهم المرسلة للرعي. ومنه قول الله تعالى ذِكْرُهُ: ﴿وَٱلْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ * وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ﴾ [النحل: ٥-٦]، يعني بقوله: «حِينَ تَسْرَحُونَ»، حين ترسلونها للرعي. فقيل للمرأة إذا خَلَّاهَا زوجها فأبانها منه: «سرَّحها»، تمثيلاً لذلك بـ«تسريح» المسرِّحِ ماشيتَهُ للرعي، وتشبيهاً به.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ

يعني تعالى ذِكْرُهُ بذلك: ومَنْ يراجع امرأته ـ بعد طلاقه إياها في الطلاق الذي له فيه عليها الرجعة ـ ضِراراً بها، ليعتدي حدَّ الله في أمرها، «فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ»، يعني: فأكسبها بذلك إثماً، وأوجب لها من الله عقوبة بذلك.

البقرة: ٢٣١

وقد بينا معنى «الظلم» فيما مضى، وأنه وضع الشيء في غير موضعه، وفعل ما ليس للفاعل فعله.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوٗا﴾

يعني تعالى ذِكْرُهُ: ولا تتخذوا أعلامَ الله وفُصُوله بين حلاله وحرامه، وأمره ونهيه، في وحيه وتنزيله استهزاء ولعباً، فإنه قد بيَّن لكم في تنزيله وآي كتابه، ما لكم من الرجعةِ على نسائكم، في الطلاقِ الذي جعل لكم عليهن فيه الرجعة، وما ليس لكم منها، وما الوجهُ الجائزُ لكم منها، وما الذي لا يجوزُ، وما الطلاقُ الذي لكم عليهن فيه الرجعة، وما ليس لكم ذلك فيه، وكيف وجوه ذلك، رحمة منه بكم ونعمة منه عليكم، ليجعل بذلك لبعضكم - من مكروه، إنْ كان فيه من صاحبه ما يؤذيه - المخرَجَ والمخلَصَ بالطَّلاق والفراق، وجعلَ ما جعَلَ لكم عليهن من الرجعةِ سبيلاً لكم إلى الوصولِ إلى ما نازعه إليه ودعاه إليه هواه، بعد فراقه إياهن منهن، لتدركوا بذلك قضاءَ أوطاركم منهن، إنعاماً منه بذلك عليكم، لا لتتخذوا ما بيّنتُ لكم من ذلك في آيِ كتابي وتنزيلي - تفضُّلاً مني ببيانه عليكم وإنعاماً ورحمة مني بكم - لعباً وسُخريًّا.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَآ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْحِكْمَةِ﴾

يعني تعالى ذِكْرُهُ بذلك: واذكروا نعمةَ الله عليكم بالإسلامِ الذي أنعم عليكم به فهداكم له، وسائرَ نِعَمِهِ التي خَصَّكُمْ بها دونَ غيركم من سائرِ خلقه، فاشكروهُ على ذلك بطاعتهِ فيما أمركم به ونهاكم عنه، واذكروا أيضاً مع ذلك ما أنـزلَ عليكم من كتابهِ، وذلك: القرآن الذي أنزلَهُ على نَبيِّه محمد ﷺ، واذكروا ذلك فاعملُوا به واحفظوا حدودَهُ فيه؛ وَ«ٱلْحِكْمَةِ»، يعني: وما أنزلَ

عليكم مِن الحكمةِ، وهي السُّننُ التي عَلَّمَكُمُوها رسولُ الله ﷺ وسَنَّها لكم.

وقد ذكرتُ اختلاف المختلفين في معنى «الحكمة» فيما مضى قَبْلُ في قوله: ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَابَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ [البقرة: ١٢٩]، فأغنى عن إعادته في هذا الموضع.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَعِظُكُم بِهِۦ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٣١﴾﴾

يعني تعالى ذِكْرُهُ بقوله: «يَعِظُكُمْ بِهِ»، يعظكم بالكتابِ الذي أنزلَ عليكم، والهاء التي في قوله: «بِهِ»، عائدةٌ على الكتاب.

«وَٱتَّقُواْ ٱللهَ»، يقول: وخافوا الله فيما أمركم به وفيما نهاكم عنه في كتابهِ الذي أنزلَهُ عليكم، وفيما أنزله فبيَّنَهُ على لسانِ رسولهِ ﷺ لكم أنْ تضيعوه وتتعدوا حدودَهُ، فتستوجبوا ما لا قِبَلَ لكم به من أليمِ عقابه ونكالِ عذابهِ.

وقوله: «وَٱعْلَمُواْ أَنَّ ٱللهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ»، يقول: واعلموا أيها الناس أن ربكم الذي حَدَّ لكم هذه الحدود، وشرع لكم هذه الشرائعِ، وفرض عليكم هذه الفرائض، في كتابه وفي تنزيله على رسولهِ محمد ﷺ بِكُلِّ ما أنتم عاملوهُ - من خير وشر، وحسن وسيء، وطاعة ومعصية - عالمٌ لا يخفى عليه من ظاهرِ ذلك وخَفِيِّهِ، وسرِّهِ وجهره، شيءٌ، وهو مُجازيكم بالإحسانِ إحساناً وبالسيء سيِّئاً، إلا أن يعفوا ويصفح، فلا تَتَعَرَّضُوا لعقابهِ وتَظلموا أنفسكم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَٰجَهُنَّ إِذَا تَرَٰضَوْاْ بَيْنَهُم بِٱلْمَعْرُوفِ﴾

ذُكر أن هذه الآية نزلت في رجلٍ كانت له أختٌ كان زوَّجها من ابن عمٍّ لها فطلَّقها، وتركها فلم يراجعها حتى انقضت عدَّتها، ثم خطبها منه، فأبى أنْ يزوجها إياه ومنعها منه، وهي فيه راغبة.

وقال آخرون: نزلت هذه الآية دلالةً على نهي الرجل مضارَّةَ وَلِيَّتِهِ من النساء، يَعْضُلُها عن النكاحِ.

والصوابُ من القولِ في هذه الآية أن يقال: إن الله تعالى ذِكْرُهُ أنزلها دلالـةً على تحريمه على أولياء النساء مضارَّةَ مَنْ كانوا له أولياء من النساء، بِعَضْلِهِنَّ عَمَّنْ أَرَدْنَ نكاحَهُ من أزواجٍ كانوا لهن، فَبِنَّ منهم بما تَبِينُ به المرأةُ من زوجها من طلاقٍ أو فسخِ نكاحٍ. وقد يجوزُ أن تكون نزلت في أمر معقلِ ابن يسار وأمرِ أخته، أو في أمر جابر بن عبدالله وأمرِ ابنةِ عمه. وأيُّ ذلكَ كان، فالآيةُ دالَّة على ما ذكرت.

ويعني بقوله تعالى: «فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ»، لا تُضَيِّقُوا عليهن بمنعكم إياهن أيها الأولياءُ من مراجعةِ أزواجهن بنكاحٍ جديد، تبتغون بذلك مضارَّتهن.

ومعنى قوله: «إِذَا تَرَاضَوْاْ بَيْنَهُم بِٱلْمَعْرُوفِ»، إذا تراضى الأزواج والنساءُ بما يحلُّ ويجوز أن يكون عِوَضاً من أبضاعهن من المهور، ونكاح جديد مستأنف.

وفي هذه الآية الدلالةُ الواضحة على صحة قولِ مَنْ قال: «لانكاح إلا بوليٍّ من العَصَبة»[1]. وذلك أنَّ الله تعالى ذِكْرُهُ منع الولي من عَضْلِ المرأةِ إنْ أرادت النكاحَ ونهاه عن ذلك. فلو كان للمرأة إنكاحُ نَفْسِهَا بغير إنكاحِ وليِّها إياها، أو كان لها توليةُ مَنْ أرادت توليتَه في إنكاحها ـ لم يكن لِنَهْيِ وليِّها عن

(١) هذا قول مالـك والشافعي وأحمد وإسحاق وسفيان الثوري والأوزاعي وغيرهم، وبه قال قبلهم من الصحابة عمر بن الخطاب وعلي بن أبي طالب وابن عباس وأبو هريرة، وانظر الترمذي (١١٠٢).

عَضْلها معنى مفهوم، إذْ كان لا سبيلَ له إلى عضلها. وذلك أنها إنْ كانت متى أرادتِ النكاحَ جاز لها إنكاحُ نفسها، أو إنكاحُ مَنْ تُوَكِّلُه بإنكاحها، فلا عضلَ هنالك لها من أحدٍ فيُنهى عاضلها عن عضْلها. وفي فساد القول بأن لا معنى لنهي الله عما نهى عنه، صحةُ القول بأن لوليِّ المرأة في تزويجها حقًّا لايصحُّ عقده إلا به. وهو المعنى الذي أمر الله به الولي: - مِنْ تزويجها إذا خطبها خاطبُها ورضيت به، وكان رضى عند أوليائها، جائزاً في حكم المسلمين لمثلها أن تنكح مثله - ونهاه عن خلافه: مِن عَضْلها، ومنعها عما أرادت من ذلك، وتراضت هي والخاطب به.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى ذِكْرُهُ : ﴿ذَٰلِكَ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾

يعني تعالى ذِكْرُهُ بقوله ذلك، ما ذكر في هذه الآية من نَهْي أولياء المرأة عن عَضْلها عن النكاح، يقول: فهذا الذي نَهيتُكم عنه من عَضْلِهنّ عن النكاح، عِظَةٌ مني مَنْ كان منكم أيها الناس يؤمنُ بالله واليوم الآخر - يعني يُصَدِّقُ بالله، فيوحِّدُه ويقرُّ بربوبيته، - «وَٱلْيَوْمِ ٱلآخِرِ» يقول: ومَنْ يؤمن باليوم الآخر، فيصدِّق بالبعثِ للجزاء والثواب والعقاب، ليتقي الله في نفسه، فلا يظلمها بضرارِ وليَّتِه ومَنْعِها من نكاحِ مَنْ رَضِيَتْهُ لنفسها، ممن أذنتُ لها في نكاحه.

فإنْ قال لنا قائل: وكيف قيل: «ذلِكَ يُوعَظُ بِهِ»، وهو خطاب الجميع، وقد قال من قَبْلُ: «فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ»؟ وإذا جاز أن يقال في خطاب الجميع «ذلِكَ»، أفيجوزُ أن تقولَ لجماعةٍ من الناس وأنت تخاطبهم: «أيها القوم، هذا غلامك، وهذا خادمك»، وأنت تريد: هذا خادمكم، وهذا غلامكم؟

قيل: لا، إنَّ ذلك غير جائز مع الأسماء الموضوعات[1]، لأنَّ ما أضيف له الأسماءُ غيرها، فلا يفهم سامعٌ سمع قولَ قائلٍ لجماعةٍ: «أيها القوم، هذا غلامك»، أنه عنى بذلك هذا غلامكم - إلّا على استخطاء الناطق في منطقه ذلك. فإن طلبَ لمنطقه ذلك وجهاً في الصواب، صرف كلامه ذلك إلى أنه انصرف عن خطاب القوم بما أراد خطابهم به، إلى خطاب رجل واحد منهم أو من غيرهم، وترك محاورة القوم بما أراد محاورتهم به من الكلام. وليس ذلك كذلك في «ذلِكَ»، لكثرة جَرْيِ «ذلِكَ» على ألسُنِ العربِ في منطقها وكلامها، حتى صارت «الكاف - التي هي كناية اسم المخاطب فيها - كهيئة حرفٍ من حروف الكلمة التي هي متصلة. وصارت الكلمة بها كقول القائل: «هذا»، كأنها ليس معها اسمٌ مخاطَبٌ. فمن قال: «ذلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَن كَانَ مِنْكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلآخِرِ»، أقرّ «الكاف» من ﴿ذلِكَ﴾ موحَّدة مفتوحة في خطاب الواحدة من النساء، والواحد من الرجال، والتثنية، والجمع. ومن قال: «ذلِكُم يُوعَظُ بِهِ»، كسر «الكاف» في خطاب الواحدة من النساء، وفتَح في خطاب الواحد من الرجال، وقال في خطاب الاثنين منهم: «ذلكما»، وفي خطاب الجمع: «ذلكم».

وقد قيل إنّ قوله: «ذلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَن كَانَ مِنْكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللهِ»، خطاب للنبي ﷺ، ولذلك وَحَّدَ، ثم رجع إلى خطاب المؤمنين بقوله: «مَن كَانَ مِنْكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللهِ». وإذا وُجِّه التأويلُ إلى هذا الوجه، لم يكن فيه مؤونة.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ذَٰلِكُمْ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَأَطْهَرُ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٢﴾

---

(١) قال العلامة محمود شاكر: «الأسماء الموضوعات»، كأن «الاسم الموضوع»، هو «الاسم المتمكن، أو المعرب»، ضريع «الاسم غير المتمكن، أوالمبني».

يعني تعالى ذِكْرُهُ بقوله: «ذلِكُمْ»، ـ نكاحَهنَّ أزواجَهن ومراجعةَ أزواجهن إياهن، بما أباح لهن من نكاحٍ ومهرٍ جديد ـ «أَزْكَى لَكُمْ»، أيها الأولياء والأزواج والزوجات.

ويعني بقوله: «أَزْكَى لَكُمْ»، أفضلُ وخيرٌ عند الله من فُرقتهن أزواجَهن. وقد دللنا فيما مضى على معنى «الزكاة»، فأغنى ذلك عن إعادته.

وأما قوله: «وَاطْهَرُ»، فإنه يعني بذلك: أطهرُ لقلوبكم وقلوبهنّ وقلوب أزواجهنّ من الريبة. وذلك أنهما إذا كان في نفسِ كُلٍّ واحدٍ منهما ـ أعني الزوجَ والمرأة ـ عَلاقة حبٍّ، لم يُؤمَن أنْ يتجاوزا ذلك إلى غير ما أحلَّه الله لهما، ولم يؤمن من أوليائهما أن يسبق إلى قلوبهم منهما ما لَعَلَّهُمَا أنْ يكونا منه بريئين. فأمرَ الله تعالى ذِكْرُهُ الأولياء ـ إذا أراد الأزواج التراجعَ بعد البينونةِ، بنكاحٍ مُسْتأنَفٍ، في الحال التي أذن لهما بالتراجع؛ أنْ لا يعضلَ وليَّته عما أرادت من ذلك، وأن يزوجها، لأن ذلك أفضل لجميعهم، وأطهرُ لقلوبهم مما يُخاف سُبوقه إليها من المعاني المكروهة.

ثم أخبرَ تعالى ذِكْرُهُ عبادَه أنه يعلم من سرائرهم وخفيَّات أمورهم ما لا يعلمه بعضُهم من بعض، ودلَّهم بقوله لهم ذلك في هذا الموضع، أنه إنما أمر أولياء النساء بإنكاح مَنْ كانوا أولياءه من النساء إذا تراضتِ المرأةُ والزوجُ الخاطبُ بينهم بالمعروف، ونهاهم عن عَضْلهن عن ذلك؛ لما علم مما في قلب الخاطب والمخطوبة من غَلَبةِ الهوى والميل من كُلٍّ واحدٍ منهما إلى صاحبه بالمودة والمحبة، فقال لهم تعالى ذِكْرُهُ: افعلوا ما أمرتكم به، إنْ كنتم تؤمنون بي، وبثوابي وبعقابي في معادكم في الآخرة، فإنيّ أعلمُ من قلبِ الخاطب والمخطوبة ما لا تعلمونه من الهوى والمحبة. وفعلكم ذلك أفضلُ لكم عند الله ولهم، وأزكى وأطهر لقلوبكم وقلوبهن في العاجل.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ﴾

يعني تعالى ذِكْرُهُ بذلك: والنساء اللواتي بِنَّ من أزواجِهِنَّ، ولهن أولادُ قد ولَدْنَهُمْ من أزواجهن قبل بَيْنُونَتِهِنَّ منهم بطلاق، أو وَلَدْنَهُمْ منهم بعد فراقهم إياهن، من وَطْءٍ كان منهم لهنّ قبل البينونة «يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ»، يعني بذلك: أنهن أحَقُّ برضاعهم من غيرهنَّ.

وليس ذلك بإيجابٍ من الله تعالى ذِكْرُهُ عليهن رضاعَهم، إذا كان المولودُ له ولدٌ، حياً موسراً. لأن الله تعالى ذِكْرُهُ قال في «سورة النساء القُصرى»[1] ﴿وَإِنْ تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُ أُخْرَى﴾ [الطلاق: ٦]، فأخبر تعالى ذِكْرُهُ: أن الوالدةَ والمولودَ له إنْ تعاسَرا في الأجرةِ التي تُرْضِعُ بها المرأةُ ولَدَها، أنَّ أُخرى سِواها تُرْضِعُه، فلم يُوجِبْ عليها فرضاً رَضَاعَ ولدها. فكان معلوماً بذلك أنّ قوله: «وَٱلْوالِداتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ»، دلالةً على مبلغ غاية الرضاع التي متى اختلف الوالدان في رَضاع المولود بعده، جُعل حدًّا يُفصل به بينهما، لا دلالة على أن فرضاً على الوالداتِ رضاعُ أولادِهن.

وأما قوله: «حَوْلَيْنِ»، فإنه يعني به سنتين.

وأصل «الحوْل» من قول القائل: «حالَ هذا الشيء»، إذا انتقل. ومنه قيل: «تحوَّلَ فلانٌ من مكانِ كذا»، إذا انتقل عنه.

فإن قال لنا قائل: وما معنى ذِكْرِ «كَامِلَيْنِ»، في قولِهِ: «وَٱلْوالِداتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ»، بعد قوله: «يرضعن حولين»، وفي ذكرِهِ «الحولين»

(١) هي سورة الطلاق، وسموها «القصرى» لتسميتهم سورة النساء «الطولى»، للفرق بينهما.

مستغنًى عن ذكـر «الكاملين»، إذْ كان غير مُشْكِلٍ على سامعٍ سَمِعَ قولَهُ: «وَٱلْوالِداتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ» ما يُراد به؟ فما الوجه الذي من أجله زِيد ذِكْرُ «كَامِلَيْنِ»؟

قيل: إنَّ العربَ قد تقول: «أقام فلانٌ بمكان كذا حولين، أو يومين، أو شهرين»، وإنما أقام به يوماً وبعض آخر، أو شهراً وبعض آخر، أو حولاً وبعض آخـر، فقيل: «حَـوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ» ليعرف سامعو ذلك أنّ الذي أُريدَ به حولان تامَّان، لا حول وبعض آخر. وذلك كما قال الله تعالى ذِكْرُهُ: ﴿وَٱذْكُرُواْ ٱللهَ فِي أَيَّامٍ مَعْدُودَاتٍ فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَنْ تَأَخَّرَ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ [البقرة:٢٠٣]. ومعلومٌ أنَّ المُتَعَجِّلَ إنما يتعجلُ في يوم ونصف، وكذلك ذلك في اليوم الثالث من أيام التشريق، وأنه ليس منه شيء تام، ولكن العرب تفعل ذلك في الأوقات خاصة فتقول: «اليوم يومان منذ لم أره»، وإنما تعني بذلك يوماً وبعضَ آخر. وقد تُوقع الفعل الذي تفعله في الساعة أو اللحظة، على العام والزمان واليوم، فتقول: «زُرتُه عام كذا ـ وقَتل فلان فلاناً زمانَ صِفِّين»، وإنما تفعل ذلك، لأنها لا تقصد بذلك الخبرَ عن عدد الأيام والسنين، وإنما تعني بذلـك الإخبـارَ عن الـوقتِ الـذي كان فيه المخبَـرُ عنـه، فجـاز أن ينـطق «بالحولين»، و«اليومين»، على ما وصفت قبلُ. لأن معنى الكلام في ذلك: فعلته إذ ذاك، وفي ذلك الوقت.

فكذلك قوله: «وَٱلْوالِداتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ»، لما جاز الرضاعُ في الحولين وليسا بالحولين ـ وكان الكلامُ لو أُطْلِقَ في ذلك، بغير تبيين الحولين بالكمال، وقيل: «وَٱلْوالِداتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ»، محتمِلاً أنْ يكونَ معنيًّا به حولٌ وبعضُ آخر ـ نفَى اللبسَ عن سامعيه بقوله: «كَامِلَيْنِ» أن يكون مراداً به حولٌ وبعضُ آخر، وأُبين بقوله: «كَامِلَيْنِ» عن وقتِ تمامِ حدِّ الرضاع، وأنه تمام الحولين بانقضائهما، دون انقضاء أحدهما وبعض الآخر.

ثم اختلف أهلُ التأويلِ في الذي دَلَّت عليه هذه الآية، من مبلغ غاية رضاع المولودين: أهو حدٌّ لكل مولود، أو هو حدٌّ لبعض دون بعض؟

فقال بعضهم: هو حَدٌّ لبعضٍ دون بعض.

وقال آخرون: بل ذلك حدُّ رضاع كل مولود اختلفَ والداه في رضاعه، فأراد أحدهما البلوغَ إليه، والآخرُ التقصيرَ عنه.

وقال آخرون: بل دلّ الله تعالى ذِكْرُهُ بقوله: «وَٱلْوالِداتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ»، على أنْ لا رضاعَ بعد الحولين، فإنَّ الرضاع إنما هو ما كان في الحولين.

وقال آخرون: بل كان قوله: «وَٱلْوالِداتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ»، دلالةً من الله تعالى ذِكْرُهُ عِبادَه، على أنَّ فرضاً على والداتِ المولودين أنْ يُرْضِعْنَهُمْ حولين كاملين. ثم خَفَّفَ تعالى ذِكْرُهُ ذلك بقوله: «لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ»، فجعل الخيارَ في ذلك إلى الآباء والأمهات، إذا أرادوا الإتمامَ أكْمَلُوا حولين، وإنْ أرادوا قبل ذلك فَطْم المولود، كان ذلك إليهم على النظرِ منهم للمولود.

وأولى الأقوال بالصواب في قوله: «وَٱلْوالِداتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ»، هو أنه دلالة على الغاية التي ينتهي إليها في رَضَاع المولود إذا اختلف والداه في رضاعه، وأنْ لا رَضَاعَ بعد الحولين يُحَرِّمُ شيئاً، وأنه معنيٌّ به كلُّ مولود، لستة أشهر كان وِلادُه أو لسبعة أو لتسعة.

فأما قولنا: «إنه دلالة على الغاية التي ينتهي إليها في الرضاع عند اختلاف الوالدين فيه»، فلأن الله تعالى ذِكْرُهُ لما حَدَّ في ذلك حداً، كان غير جائز أن يكون ما وراء حدِّه موافقاً في الحكم ما دونَهُ. لأن ذلك لو كان كذلك،

لم يكن للحدِّ معنى معقول. وإذْ كان ذلك كذلك، فلا شك أنَّ الذي هو دون الحولين من الأجل، لما كان وقت رضاع، كان ما وراءه غيرَ وقتٍ له، وأنه وقتٌ لترك الرضاع، وأنَّ تمامَ تمامِ الرضاعِ لما كان تمام الحولين، وكان التام من الأشياء لا معنى إلى الزيادة فيه، كان لا معنى للزيادة في الرضاع على الحولين، وأنّ ما دون الحولين من الرضاع لما كان محرِّماً، كان ما وراءه غير محرِّم.

وإنما قلنا: «هو دلالة على أنه معنيّ به كل مولود، لأيّ وقت كان وِلادُه، لستةِ أشهرٍ أو سبعةٍ أو تسعةٍ»، لأن الله تعالى ذِكْرُهُ عمَّ بقوله: «وَٱلْوالِدات يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ»، ولم يخصِّص به بعضَ المولودين دون بعض.

وقد دللنا على فساد القول بالخصوص بغير بيان الله تعالى ذِكْرُهُ ذلك في كتابه، أو على لسانِ رسوله ﷺ - في كتابنا «كتاب البيان عن أصول الأحكام»، بما أغنى عن إعادته في هذا الموضع.

فإنْ قال لنا قائل: فإنَّ الله تعالى ذِكْرُهُ: قد بيَّن ذلك بقوله: ﴿وَحَمْلُه وفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْراً﴾ [الأحقاف: ١٥]، فجعل ذلك حداً للمعنيين كليهما، فغيرُ جائزٍ أن يكون حملٌ ورضاعٌ أكثر من الحدّ الذي حدَّه الله تعالى ذِكْرُهُ. فما نقص من مدة الحمل عن تسعة أشهر، فهو مزيد في مدة الرضاع، وما زِيدَ في مدة الحمل، نقص عن مدة الرضاع. وغير جائز أن يُجَاوَز بهما كليهما مدة ثلاثين شهراً، كما حَدَّهُ الله تعالى ذِكْرُهُ.

قيل له: فقد يجب أن تكون مدة الحمل - على هذه المقالة - إن بلغت حولين كاملين، أن لا يرضع المولود إلا ستة أشهر، وإن بلغت أربع سنين، أن يبطل الرضاع فلا يرضع، لأن الحمل قد استغرق الثلاثين شهراً وجاوز غايته -

أو يزعم قائل هذه المقالة: أنّ مدة الحمل لن تجاوز تسعة أشهر، فيخرج من قول جميع الحجة، ويكابرَ الموجود والمشاهَد، وكفى بهما حجة على خطأ دعواه إن ادَّعى ذلك. فإلى أيِّ الأمرين لجأ قائلُ هذه المقالة، وضح لذوي الفهم فساد قوله.

فإن قال لنـا قائـل: فما معنى قوله ـ إن كان الأمر على ما وصفت ـ: «وَحَمْلُه وَفِصَالُهُ ثَلاَثُونَ شَهْراً»، وقد ذكرت آنفاً أنه غير جائز أن يكون ما جاوز حد الله تعالى ذِكْرُهُ، نظيرَ ما دون حَدِّهِ في الحكم؟ وقد قلت: إن الحمل والفصال قد يجاوزان ثلاثين شهراً؟

قيل: إن الله تعالى ذِكْرُهُ لم يجعل قوله: «وحمله وفصَاله ثلاثون شهراً»، حدًّا تعبَّدَ عِبادَهُ بأنْ لايجاوزوه كما جعل قوله: «وَٱلْوالِداتُ يُرْضِعْنَ أَوْلاَدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ»، حدًّا لرضاع المولود الثابت الرضاع، وتعبّد العبادَ بحمل والديه عند اختلافهما فيه، وإرادة أحدهما الضرار به. وذلك أن الأمر من الله تعالى ذِكْرُهُ إنما يكون فيما يكون للعباد السبيلُ إلى طاعته بفعله والمعصية بتركه. فأما ما لم يكنْ لهم إلى فِعْله ولا إلى تَرْكِهِ سبيلٌ، فذلك مما لا يجوز الأمرُ به ولا النهيُ عنه ولا التعبُّدُ به.

فإذا كان ذلك كذلك، وكان الحملُ مما لا سبيلَ للنساء إلى تقصير مُدَّتِهِ ولا إلى إطالتها، فَيَضَعْنَهُ متى شِئْنَ، ويتركن وَضعه إذا شئن ـ كان معلوماً أن قوله: «وَحَمْلُه وَفِصَالُهُ ثَلاَثُونَ شَهْراً»، إنما هو خبرٌ من الله تعالى ذِكْرُهُ عن أن مِنْ خَلْقِهِ مَنْ حَمَلَتْهُ أمُّه وولدته وفصَلته في ثلاثين شهراً ـ لا أمرٌ بأن لا يُتجاوَز في مدة حمله وفصَاله ثلاثون شهراً، لما وصفناه. وكذلك قال ربنا تعالى ذِكْرُهُ في كتـابه: ﴿وَوَصَّيْنَا الإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَاناً حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهاً وَوَضَعَتْهُ كُرْهاً وَحَمْلُه وَفِصَالُهُ ثَلاثُونَ شَهْراً﴾ [الأحقاف: ١٥].

فإنْ ظَنَّ ذو غباء أن الله تعالى ذِكْرُهُ إذْ وَصف أن من خلْقه مَنْ حملته أمه ووضعته وَفصلته في ثلاثين شهراً، فواجبٌ أن يكون جميعُ خَلْقِه ذلك صفتُهم ـ وأن ذلك دلالةٌ على أن حَملَ كل عباده وفصالَه ثلاثون شهراً ـ فقد يجب أن يكون كل عباده صفتهم أن يقولوا إذا بلغوا أشُدَّهُمْ وبلغوا أربعين سنة: ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحاً تَرْضَاهُ﴾ [الأحقاف: ١٥]، على ما وَصَف الله به الذي وُصف في هذه الآية.

وفي وُجودنا منْ يستحكم كفرُه بالله، وكفرانه نِعمَ رَبِّهِ عليه، وجرأته على والديه بالقتل والشتم وضروب المكاره، عند استكماله الأربعين من سِنِيهِ وبلوغه أشُدَّه ـ ما يُعلم أنه لم يَعْنِ الله بهذه الآية صفة جميع عباده، بل يُعلم أنه إنما وصف بها بعضاً منهم دون بعض، وذلك ما لا ينكره ولا يدفعه أحدٌ. لأن من يولد من الناس لسبعة أشهر، أكثر ممن يولد لأربع سنين ولسنتين؛ كما أن من يولد لتسعة أشهر، أكثر ممن يولد لستة أشهر ولسبعة أشهر.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَـالَى: وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ

يعني تعـالى ذِكْـرُهُ بقـولـه: «وَعَلَى ٱلْمَـوْلُودِ لَهُ»، وعلى آباء الصبيان للمراضع «رِزْقُهُنَّ»، يعني: رزقُ والدتهن.

ويعني بـ«الرزق»: ما يَقُوتهنَّ من طعامٍ، وما لا بُدَّ لَهُنَّ من غذاء ومطعم.

و «وَكِسْوَتُهُنَّ»، ويعني: بـ «الكسوة»: الملبس.

ويعني بقـوله: «بِٱلْمَعْرُوفِ»، بما يجب لمثلها على مثله، إذ كان الله تعـالى ذِكْـرُهُ قد علم تفاوتَ أحوالِ خَلْقِه بالغنى والفقر، وأنَّ منهم الموسِع والمقتِر وبين ذلك. فأمر كلًّا أن ينفق على مَنْ لزمته نفقتُه من زوجتِهِ ووَلده على قدر مَيْسَرته، كما قال تعالى ذِكْرُهُ: ﴿لِيُنْفِقْ ذُو سَعَةٍ مِنْ سَعَتِهِ وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ الله لَا يُكَلِّفُ الله نَفْسًا إلاّ مَا آتَاهَا﴾ [الطلاق: ٧].

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا

يعني تعالى ذِكْرُهُ بذلك: لا تحمَّل نفسٌ من الأمور إلا مالا يضيقُ عليها، ولا يتعذر عليها وجوده إذا أرادت. وإنما عنى الله تعالى ذِكْرُهُ بذلك: لا يُوجِبُ الله على الرجال من نفقةِ مَنْ أرضع أولادَهم من نسائهم البائنات منهم، إلاّ ما أطاقُوه ووَجدوا إليه السبيل، كما قال تعالى ذِكْرُهُ: ﴿لِيُنْفِقْ ذُو سَعَةٍ مِنْ سَعَتِهِ وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ الله﴾ [الطلاق: ٧].

فمعنى قوله: «لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا»، هو ما وصفت: من أنها لا تكلَّف إلا ما يتسع لها بذل ما كُلِّفَتْ بَذْلَهُ، فلا يضيق عليها ولا يَجْهَدها ـ لا ما ظنَّه جهلةُ أهلِ القدَر من أنَّ معناه: لا تكلف نفس إلا ما قد أعطيت عليه القدرةَ من الطاعاتَ. لأن ذلكَ لو كان كما زعمتْ، لكان قوله تعالى ذِكْرُهُ: ﴿انْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلاً﴾ [الإسراء: ٤٨، الفرقان: ٩]، ـ إذ كان دالاًّ على أنهم غير مستطيعي السبيل إلى ما كُلِّفوه ـ واجباً أن يكون القوم في حالٍ واحدة، قد أعطوا الاستطاعة على ما مُنعوها عليه. وذلك من قائله إن قاله، إحالةٌ في كلامه، ودعوى باطلٍ لايُخِيل بُطوله[1]. وإذْ كان بيِّناً فسادُ هذا القول، فمعلومٌ أنَّ الذي أخبر تعالى ذِكْرُهُ أنه كلَّف النفوس

(١) لايخيل بُطُولُه: أي لايُشْكِل.

من وُسعها، غيرُ الذي أخبر أنه كلَّفها مما لا تستطيع إليه السبيل.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: لَا تُضَآرَّ وَٰلِدَةُۢ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُۥ بِوَلَدِهِۦ

وقال بعضهم: «الوالدة» التي نهىَ الرجلَ عن مضارّتها: ظِئْرُ الصبي. ذكر من قال ذلك: حدثني المثنى قال، حدثنا مسلم بن إبراهيم قال، حدثنا هٰرون النحوي قال، حدثنا الزبير بن الخِرِّيت، عن عكرمة في قوله: «لَا تُضارَّ والِدَةٌ بِوَلَدِهَا»، قال: هي الظئر.

يعني: لايُضـارِرْ والدُ مولودٍ والدتَه بمولودهِ منها، ولا والدةُ مولودٍ والدَه بمولودِهَا منه. ثم ترك ذكر الفاعل في «يضار»، فقيل: لا تضارَرْ والدةٌ بولدها ولا مولود له بولده، كما يقال إذا نُهي عن إكرام رجلٍ بعينه فيما لم يسمَّ فاعله، ولم يقصد بالنهي عن إكرامه قصد شخص بعينه: «لايُكرم عمرو، ولا يُجلس إلى أخيه»، ثم تُرك التضعيف فقيل: «لَا تُضارَّ» فحركت الراء الثانية التي كانت مجزومة ـ لو أُظهر التضعيف ـ بحركة الراء الأولى.

فإذْ كان الله تعالى ذِكْرُهُ قد نهى كُلَّ واحدٍ من أبوي المولود عن مضارة صاحبه بسبب ولدهما، فحقٌّ على إمام المسلمين ـ إذا أراد الرجلُ نزعَ ولده من أُمهِ بعد بينونتها منه، وهي تحضنه وتكفله وتُرضعه، بما يحضنه به غيرها ويكفُله به ويُرضعه من الأجرة ـ أن يأخذ الوالدَ بتسليم ولدها، ما دام محتاجاً الصبيُّ إليها في ذلك بالأجرة التي يُعطاها غيرها وحقٌّ عليه ـ إذا كان الصبيُّ لا يقبلُ ثديَ غيرِ والدته، أو كان المولود له لا يجد مَنْ يرضع ولده وإنْ كان يقبلُ ثديَ غيرِ أمه، أو كان معدِماً لا يجدُ ما يستأجر به مرضعاً، ولا يجد مَنْ يتبرع عليه برضاع مولودِهِ ـ أن يأخذ والدته البائنة من والده برضاعه وحضانته.

لأن الله تعـالى ذِكْرُهُ إنْ حرّم على كل واحد من أبويه ضرار صاحبه بسببه، فالإضرار به أحرى أن يكون محرَّماً، مع ما في الإضرار به من مضارة صاحبه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَعَلَى ٱلْوَارِثِ مِثْلُ ذَٰلِكَ

اختلف أهلُ التأويلِ في «ٱلْوَارِثِ» الذي عنى الله تعالى ذِكْرُهُ بقوله: «وَعَلَى ٱلْوَارِثِ مِثْلُ ذلِكَ»، وأي وارثٍ هو: ووارث مَن هو؟

فقال بعضهم: هو وارث الصبي. وقالوا معنى الآية: وعلى وارث الصبيّ إذا كان أبوه ميتاً، مِثْلُ الذي كان على أبيه في حياته.

ثم اختلف قائلو هذه المقالة في وارث المولود، الذي ألزمه الله تعالى مثل الذي وصف.

فقال بعضهم: هو وارث الصبي من قبل أبيه من عصَبته، كائناً مَنْ كان، أخاً كان، أو عمًّا، أو ابن عم، أو ابن أخ.

وقال آخرون منهم: بل ذلك على وارث المولود مَنْ كان، من الرجال والنساء.

وقال آخرون منهم: هو مِنْ ورثته، مَنْ كان منهم ذا رَحِمٍ محرم للمولود، فأما مَنْ كان ذا رحم منه وليس بمحرم، كابن العم والمولى ومَنْ أشبههما، فليس من عناه الله بقوله: «وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذلِكَ». والذين قالوا هذه المقالة: أبو حذيفة وأبو يوسف ومحمد.

وقالت فرقة أخرى: بل الذي عنى الله تعالى ذِكْرُهُ بقوله: «وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذلِكَ»، المولود نفسه.

قال أبو جعفر: وتأويل ذلك على ما تأوّله هؤلاء: وعلى الوارث المولود،

مثلَ ما كان على المولود له.

وقال آخرون: بل هو الباقي من والدي المولود، بعد وفاةِ الآخر منهما.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مِثْلُ ذَٰلِكَ﴾

اختلف أهلُ التأويلِ في تأويل قوله: «مِثْلُ ذلِكَ».

فقال بعضهم: تأويله: وعلى وارث الصبي بعد وفاة أبويه، مثل الذي كان على والدِه من أجرِ رضاعهِ ونفقتِه، إذا لم يكن للمولود مالٌ.

وقال آخرون بل تأويل ذلك: وعلى الوارث مثلُ ذلك: أن لا يضارَّ. ذكر من قال ذلك.

وقال آخرون: بل تأويل ذلك: وعلى وارث المولود، مثلُ الذي كان على المولود له، مِنْ رزقِ والدتِه وكِسوتها بالمعروف.

وقال آخرون: معنى ذلك: وعلى الوارث مثلُ ما ذَكَرَهُ الله تعالى ذِكْرُهُ.

وأولى الأقوال بالصواب في تأويل قوله: «وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذلِكَ»: أن يكون المعنيّ بالوارث المولود، وفي قوله: «مِثْلُ ذلِكَ»، أن يكون معنيًّا به: مثل الذي كان على والده من رزق والدته وكِسوتها بالمعروف، إن كانتْ من أهلِ الحاجة، ومَنْ هي ذات زَمانةٍ وعاهة، ومن لا احترافَ فيها، ولا زوج لها تستغني به، وإنْ كانت من أهل الغنى والصحة، فمثل الذي كان على والده لها من أجر رضاعه.

وإنما قلنا: هذا التأويل أولى بالصواب مما عداه من سائرِ التأويلاتِ التي ذكرنا، لأنه غيرُ جائز أن يقال في تأويل كتاب الله تعالى ذِكْرُهُ قولٌ إلا بحجةٍ واضحة، على ما قد بيّنا في أول كتابنا هذا. وإذْ كان ذلك كذلك، وكان قوله:

«وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذلِكَ»، محتملاً ظاهره: وعلى وارث الصبي المولودِ مثلُ الذي كان على المولود له ـ ومحتملاً: وعلى وارثِ المولودِ له مثلُ الذي كان عليه في حياتـه من تَرْكِ ضرارِ الـوالـدةِ ومن نفقـةِ المـولـود، وغير ذلك من التأويلات، على نحو ما قد قدمنا ذكرها ـ وكان الجميع[1] من الحجة قد أجمعوا على أن من ورثةِ المولود من لا شيءَ عليه من نفقته وأجر رضاعه ـ صحَّ بذلك من الدلالة على أن سائر ورثته، غيرآبائه وأمهاته وأجداده وجداته من قبل أبيه أو أمه، في حكمه في أنهم لا يلزمهم له نفقة ولا أجر رضاع، إذ كان مولى النعمة من ورثته، وهو ممن لا يلزمه له نفقةٌ ولا أجرُ رضاعٍ. فوجب بإجماعهم على ذلك أنّ حكم سائر ورثته غير من استثنى ـ حكمُه.

وكـان إذا بطل أن يكون معنى ذلك ما وصفنا ـ من أنه معنيٌّ به ورثة المولود ـ فَبُطُول القولِ الآخر ـ وهو أنه معنيٌّ به ورثة المولود له سوى المولود ـ أحـرَى. لأنّ الذي هو أقرب بالمولود قرابة ممن هو أبعد منه ـ إذا لم يَصِحَّ وجوبُ نفقتهِ وأجرُ رضاعهِ عليه ـ فالذي هو أبعد منه قرابةً، أحرَى أن لا يصحّ وجوبُ ذلك عليه.

وأما الذي قلنا من وجوبِ رزقِ الوالدة وكِسوتها بالمعروف على ولدها ـ إذا كانت الوالدة بالصفة التي وصفنا ـ على مثل الذي كان يجب لها من ذلك على المولود له، فما لا خلافَ فيه من أهل العلم جميعاً.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا

(١) قوله: «وكان الجميع» معطوف على قوله: «وإذ كان ذلك كذلك».

يعني تعالى ذِكْرُهُ بقوله: «فَإِنْ أَرَادَا»، إنْ أراد والدُ المولودِ ووالدته «فِصَالاً»، يعني: فصالَ ولدهما من اللبن.

ويعني بـ «الفصال»، الفِطام، وهو مصدر من قول القائل: «فاصَلتُ فلاناً أفاصِله مفاصلةً وفِصالاً إذا فارقه من خُلطة كانت بينهما. فكذلك «فصال الفطيم»، إنما هو مَنْعُهُ اللبنَ، وقطعهُ شربه، وفراقه ثدي أمه إلى الاغتذاء بالأقواتِ التي يغتذي بها البالغُ من الرجال.

وأما قوله: «عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ»، فإنه يعني بذلك: عن تراضٍ من والدي المولود وتشاوُرٍ منهما.

ثم اختلف أهلُ التأويلِ في الوقت الذي أسقط الله الجناح عنهما، إنْ فطماه عن تراضٍ منهما وتشاور، وأيُّ الأوقات الذي عناه الله تعالى ذِكْرُهُ بقوله: «فَإِنْ أَرَادَا فِصَالاً عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِمَا».

فقال بعضهم: عنى بذلك، فإنْ أرادا فصالاً في الحولين عن تراضٍ منهما وتشاورٍ فلا جناحَ عليهما.

وقال آخرون: معنىَ ذلك: «فَإِنْ أَرَادَا فِصَالاً عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِمَا»، في أيِّ وقتٍ أرادا ذلك، قبل الحولين أرادا أم بعد ذلك.

وأما قوله: «عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ»، فإنه يعني: عن تراضٍ منهما وتشاور فيما فيه مصلحةُ المولودِ لفطمه.

وأولى التأويلين بالصواب تأويلُ مَنْ قال: «فإنْ أرادا فصالاً في الحولين عن تراضٍ منهما وتشاور»، لأنَّ تمامَ الحولين غايةٌ لتمامِ الرضاع وانقضائه، ولا تشاورَ بعدَ انقضائه، وإنما التشاورُ والتراضي قبل انقضاء نهايته.

فإنْ ظنّ ذو غفلة أن للتشاور بعد انقضاء الحولين معنًى صحيحاً - إذْ كان من الصبيان مَنْ تكونُ به عِلَّةٌ يُحتاجُ من أجلها إلى تركه والاغتذاء بلبنِ أُمِّهِ - فإنَّ ذلك إذا كان كذلك، فإنما هو علاجٌ، كالعلاجِ بشرب بعضِ الأدويةِ، لا رضـاعٌ. فأمـا الرضاعُ الذي يكون في الفصال منه قبل انقضاء آخره تراضٍ وتشـاور من والدي الطفل الذي أسقط الله تعالى ذِكْرُهُ لفطمِهما إياه الجُنَاحَ عنهما، قبل انقضاء آخر مدته، فإنما حدُّه الحدُّ الذي حدَّه الله تعالى ذِكْرُهُ بقوله: «وَٱلْوالِداتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ»، على ما قد أتينا على البيان عنه فيما مضى قبل.

وأما الجُنَاح، فالحرج.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَإِنْ أَرَدتُّمْ أَن تَسْتَرْضِعُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُم مَّآ ءَاتَيْتُم بِٱلْمَعْرُوفِ

يعني تعالى ذِكْرُهُ بذلك: وإن أردتم أن تسترضعوا أولادكم مَراضعَ غير أمهاتهم - إذا أبَتْ أُمَّهاتُهم أنْ يُرْضِعْنَهُمْ بالذي يرضعنهم به غيرُهن من الأجر، أو من خيفة ضَيْعة منكم على أولادكم بانقطاع ألبانِ أمهاتهم، أو غير ذلك من الأسباب - فلا حَرَجَ عليكم في استرضاعهن، إذا سلَّمتم ما آتيتم بالمعروف.

واختلفوا في قوله: «إِذَا سَلَّمْتُم مَّا آتَيْتُم بِٱلْمَعْرُوفِ».

فقال بعضهم: معناه: إذا سلمتم لأمهاتهم ما فارقتموهن عليه من الأجرة على رضاعهن، بحساب ما استحقته إلى انقطاعِ لبنها - أو الحال التي عُذِر أبو الصبي بطلب مرضعٍ لولدِهِ غير أُمِّهِ، واسترضاعه له.

وقال آخرون: معنى ذلك: إذا سلمتم للاسترضاع، عن مشورة منكم ومن

أمهات أولادكم الذين تسترضعون لهم، وتراض منكم ومنهنّ باسترضاعهم.

وقال آخرون: بل معنى ذلك: إذا سلمتم ما آتيتم بالمعروف إلى التي استرضعتموها بعد إباء أمّ المرضَعِ، من الأجرة، بالمعروف.

وأولى الأقوال بالصواب في تأويل ذلك، قولُ مَنْ قال: تأويله: وإنْ أردتم أن تسترضعوا أولادكم إلى تمام رضاعهن، ولم تتّفقوا أنتم ووالداتهم على فصالهم، ولم تروا ذلك من صلاحهم، فلا جناح عليكم أن تسترضعوهم ظُؤورة[1]، إن امتنعت أمهاتهم من رضاعهم لعلةٍ بهن أو لغيرِ علةٍ - إذا سلمتم إلى أمهاتهم وإلى المسترضَعَة الآخرة حقوقهن التي آتيتموهن بالمعروف. يعني بذلك المعنى: الذي أوجبه الله لهنّ عليكم، وهو أن يوفيهن أجورهن على ما فارقهنّ عليه، في حال الاسترضاع ووقت عقد الإجارة.

وإنما قضينا لهذا التأويل أنه أولى بتأويل الآية من غيره، لأن الله تعالى ذِكْرُهُ ذكر قبل قوله: ﴿وَإِنْ أَرَدتُّمْ أَن تَسْتَرْضِعُواْ أَوْلَادَكُمْ﴾ أمْرَ فِصَالِهم، وبَيَّنَ الحُكْمَ في فِطامهم قبل تمام الحولين الكاملين فقال: «فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا» في الحولين الكاملين «فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا». فالذي هو أولى بحكم الآية - إذ كان قد بيَّن فيها وجه الفصالِ قبل الحولين - أنْ يكون الذي يتلو ذلك حكم تركِ الفصال وإتمامِ الرضاع إلى غاية نهايته - وأن يكون - إذْ كان قد بيَّن حكم الأمِّ إذا هي اختارت الرضاع بما يرضع به غيرها من الأجرة - أن يكون الذي يتلو ذلك من الحكم، بيان حكمها وحكم الولد إذا هي امتنعت من رضاعه، كما كان ذلك كذلك في غير هذا الموضع من كتاب الله تعالى، وذلك في قوله: ﴿فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَأْتَمِرُوا بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍ وَإِنْ

---

(١) الظِؤورة جمع ظئر (بكسر فسكون): وهي المرضعةُ غيرَ ولَدِهَا.

تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُ أُخْرَى﴾ [الطلاق: ٦] فأتبع ذِكْرَ بيانِ رضا الوالداتِ برضاع أولادهن، ذكرَ بيان امتناعهن من رضاعهن. فكذلك ذلك في قوله: «وَإِنْ أَرَدتُّمْ أَن تَسْتَرْضِعُواْ أَوْلَادَكُمْ».

وإنما اخترنا ـ في قوله: «إِذَا سَلَّمْتُم مَّا آتَيْتُم بِالْمَعْرُوفِ» ـ ما اخترنا من التأويل، لأن الله تعالى ذِكْرُهُ فرَض على أبي المولود تسليمَ حقٍّ والدته إليها مما آتاها من الأجرة على رضاعها له بعد بَيْنُونتها منه، كما فرض عليه ذلك لمن استأجره لذلك ممن ليس منْ مولده بسبيل، وأمره بإيتاء كل واحدةٍ منهما حَقَّها بالمعروفِ على رضاعِ ولده. فلم يكن قوله: «إِذَا سَلَّمْتُم» بأن يكون معنيًّا به: إذا سلمتم إلى أمهاتِ أولادكم الذين يرضعون حقوقَهنّ، بأولى منه بأن يكون معنيًّا به: إذا سلمتم ذلك إلى المراضع سِواهُنَّ ـ ولا الغرائبُ من المولود، بأولى أنْ يَكُنَّ معنيَّاتٍ بذلك من الأمهات[1] ـ إذْ كان الله تعالى ذِكْرُهُ قد أوجب على أبي المولود لكل من استأجره لرضاع ولده، من تسليم أجرتها إليها مثلَ الذي أوجبَ عليه من ذلك للأخرى. فلم يكن لنا أن نُحِيلَ ظاهر تنزيل إلى باطن، ولا نقلَ عامٍّ إلى خاصٍّ، إلا بحجةٍ يجبُ التسليمُ لها ـ فصحَّ بذلك ما قلنا.

وأما معنى قوله: «بِالْمَعْرُوفِ»، فإنَّ معناه: بالإجمال والإحسان، وترك البخس والظلم فيما وجب للمراضع.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ۝﴾



(١) هذه الجملة بين الخطين، معطوفة على الجملة الأولى، فيكون سياق معناها: ولم يكن الغرائب من المولود بأولى أن يكن معنيات بذلك من الأمهات.

يعني تعالى ذِكْرُهُ بقوله: «وَٱتَّقُواْ ٱللهَ»، وخافوا الله فيما فرضَ لبعضكم على بعض من الحقوق، وفيما ألزم نساءَكم لرجالِكم ورجالَكم لنسائِكم، وفيما أوجبَ عليكم لأولادِكم، فاحذروه أنْ تخالفوه فتعتَدُوا في ذلك - وفي غيرِه من فرائضه وحقوقه - حدودَه، فتستوجبوا بذلك عقوبته - «وَٱعْلَمُواْ أَنَّ ٱللهَ بِمَا تَعْمَلُونَ» من الأعمال، أيّها الناس، سرِّها وعلانيتها، وخَفِيِّها وظاهرها، وخَيْرِها وشرها - «بَصِيرٌ»، يراهُ ويعلمه، فلا يخفى عليه شيءٌ، ولا يَتَغيَّبُ عنه منه شيءٌ، فهو يُحصِي ذلك كله عليكم، حتى يجازيكم بخيرِ ذلك وشَرِّهِ.

ومعنى «بَصِيرٌ»، ذو إبصار، وهو في معنى «مُبصر».

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَـالَى: وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا

يعني تعالى ذِكْرُهُ بذلك: والذين يتوفَّون منكم، من الرجال، أيها الناس، فيموتون، ويذرون أزواجاً، يتربَّصُ أزواجُهن بأنفسهن.

فإن قال قائل: فأين الخبر عن «وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ»؟

قيل: متروك، لأنه لم يقصد قَصْدَ الخبر عنهم، وإنما قصدَ قصد الخبر عن الواجب على المعتدَّاتِ من العدَّة في وفاة أزواجهن، فَصَرَفَ الخبرَ عن الذين ابتدأ بذكرهم من الأموات، إلى الخبرِ عن أزواجهم والواجب عليهنّ من العدة، إذْ كان معروفاً مفهوماً معنى ما أُريدَ بالكلام. وهو نظيرُ قولِ القائل في الكلام: «بعضُ جُبَّتك متخرِّقة»، في ترك الخبر عما ابتدئ به الكلام، إلى الخبر عن بعض أسبابه، وكذلك الأزواج اللواتي عليهن التربُّص، لمّا كان إنما ألزمهن التربُّص بأسباب أزواجهن، صرَف الكلامَ عن خبر من ابتدئ بذكره، إلى الخبر عمن قصدَ قصدَ الخبر عنه.

وأما قوله: «يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ»، فإنه يعني به: يحتبسن بأنفسهن - معتدَّاتٍ عن الأزواج، والطِّيب، والزينة، والنُّقلة عن المسكن الذي كُنّ يسكنه في حياة أزواجهن - أربعة أشهر وعشراً، إلا أن يكنّ حوامل، فيكون عليهنّ من التربُّص كذلك إلى حين وَضع حملهنّ. فإذا وضعن حملهنّ، انقضت عددُهنّ حينئذ.

فإن قال لنا قائل: وكيف قيل: «يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْراً»، ولم يقل: وعشرة؟ وإذ كان التنزيل كذلك: أفَبِاللَّيالي تعتدُّ المُتَوفَّى عنها العشرَ، أم بالأيامِ؟

قيل: بل تعتدُّ بالأيامِ بلياليها.

فإن قال: فإذْ كان ذلك كذلك، فكيف قيل: «وَعَشْراً»؟ ولم يقل: وعشرة؟ والعشر بغير «الهاء» من عدد الليالي دون الأيام؟ فإنْ جاز ذلك المعنى فيه ما قلت، فهل تجيز: «عندي عشر»، وأنت تريد عشرةً من رجال ونساء؟

قلت: ذلك جائزٌ في عدد الليالي والأيام، وغير جائز مثله في عدد بني آدم من الرجال والنساء، وذلك أن العرب في الأيام والليالي خاصة، إذا أبهمت العدد، غلبت فيه الليالي، حتى إنهم فيما روي لنا عنهم ليقولون: «صُمنا عشراً من شهر رمضان»، لتغليبهم الليالي على الأيام. وذلك أن العدد عندهم قد جرى في ذلك بالليالي دون الأيام. فإذا أظهروا مع العدد مفسِّره، أسقطوا من عدد المؤنث «الهاء»، وأثبتوها في عدد المذكر، كما قال تعالى ذِكْرُهُ: ﴿سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُوماً﴾ [الحاقة: ٧]، فأسقط «الهاء» من «سبع» وأثبتها في «الثمانية».

وأما بنو آدم، فإنَّ من شأن العرب إذا اجتمعت الرجالُ والنساء، ثم أبهمت عددها: أن نخرجه على عدد الذُّكران دون الإناث. وذلك أن الذُّكران

من بني آدم مَوْسومٌ واحدُهم وجمعه بغير سمة إناثهم، وليس كذلك سائر الأشياء غيرهم. وذلك أن الذكور من غيرهم ربما وُسم بسِمة الأنثى، كما قيل للذكر والأنثى «شاة»، وقيل للذكور والإناثِ من البقر: «بقر»، وليس كذلك في بني آدم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِيٓ أَنفُسِهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِۗ﴾

يعني تعالى ذِكْرُهُ بذلك: فإذا بلغن الأجلَ الذي أبيح لهن فيه ما كان حُظِر عليهنّ في عددهن من وفاة أزواجهن ـ وذلك بعد انقضاء عِدَدهن، ومضيِّ الأشهرِ الأربعة والأيام العشرة ـ «فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ»، يقول: فلا حرجَ عليكم أيها الأولياء ـ أولياء المرأة ـ فيما فعل المُتوفَّى عنهن حينئذٍ في أنفسهن، من تطيُّبٍ وتزيُّن ونُقْلة من المسكنِ الذي كُنَّ يعتددن فيه، ونكاح من يجوز لهن نكاحُه، «بِالْمَعْرُوفِ»، يعني بذلك: على ما أذِن الله لهن فيه وأباحه لهنّ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ٢٣٤﴾

يعني تعالى ذِكْرُهُ بذلك: «وَٱللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ»، أيها الأولياء، في أمر من أنتم وليُّه من نسائكم، من عَضْلِهنّ وإنكاحهنّ ممن أردن نكاحَه بالمعروف، ولغير ذلك من أموركم وأمورهم، «خَبِيرٌ»، يعني ذو خبرة وعلم، لايخفى عليه منه شيء.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِۦ مِنْ خِطْبَةِ ٱلنِّسَآءِ﴾.

يعني تعالى ذِكْرُهُ بذلك: ولا جناحَ عليكم، أيها الرجالُ، فيما عرَّضتم به من خطبةِ النساء، للنساء المعتدَّات من وفاةِ أزواجهن في عِددهن، ولم تُصَرِّحُوا بعقد نكاح.

«والخِطبة» عندي هي «الفِعْلة» من قول القائل: «خطبت فلانة» كـ«الجِلسة»، من قوله: «جلس» أو «القِعدة» من قوله «قعد».

ومعنى قولهم: «خطب فلانٌ فلانة»، سألها خَطْبه إليها في نفسها، وذلك حاجته، من قولهم: «ماخَطْبك»؟ بمعنى: ما حاجتك، وما أمرك؟

وأما «التعريض»، فهو ما كان من لَحْن الكلام الذي يفهم به السامعُ الفَهِم ما يُفهم بصريحه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَوْ أَكْنَنتُمْ فِيٓ أَنفُسِكُمْۚ﴾

يعني تعالى ذِكْرُهُ بقوله: «أَوْ أَكْنَنْتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ»، أو أخفيتم في أنفسكم فأسررتموه، من خِطبتهن، وعَزْمِ نكاحهن وهن في عِددهن، فلا جُناحَ عليكم أيضاً في ذلك، إذا لم تعزموا عقدةَ النكاح حتى يبلغ الكتابُ أجله.

وفي إباحة الله تعالى ذِكْرُهُ ما أباحَ من التعريضِ بنكاح المعتدة لها في حال عدتها وحظره التصريح، ما أبان عن افتراقِ حكمِ التعريضِ في كل معاني الكلام وحكم التصريح، منه. وإذا كان ذلك كذلك، تبيّن أنَّ التعريضَ بالقذف غيرُ التصريح به، وأنَّ الحدَّ بالتعريض بالقذف لو كان واجباً وجوبَه بالتصريح به، لوجب من الجناح بالتعريض بالخطبة في العِدّة، نظيرُ الذي يجب بعزم عقدة النكاح فيها. وفي تفريق الله تعالى ذِكْرُهُ بين حكميهما في ذلك، الدلالة الواضحة على افتراق أحكام ذلك في القذف.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ﴾

يعني تعالى ذِكْرُهُ بذلك: عَلِمَ الله أنكم ستذكرون المعتدَّاتِ في عِددهن بالخطبة في أنفسكم وبألسنتكم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَٰكِن لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا﴾

اختلف أهلُ التأويلِ في معنى «السر» الذي نهى الله تعالى عباده عن مواعدةِ المعتداتِ به.

فقال بعضهم: هو الزِّنا.

وقال آخرون: بل معنى ذلك لا تأخذوا ميثاقهنّ وعهودهن في عِددهن أنْ لا ينكحن غيركم.

وقال آخرون: بل معنى ذلك: أن يقول لها الرجل: «لا تسبقيني بنفسك».

وقال آخرون: بل معنى ذلك: ولا تنكحوهن في عدتهن سراً.

وأولى الأقوال بالصواب في تأويل ذلك، تأويلُ مَنْ قال: «السر»، في هذا الموضع، الزنا. وذلك أن العرب تسمي الجماعَ وغشيانَ الرجلِ المرأة «سِراً»، لأن ذلك مما يكون بين الرجال والنساء في خفاءٍ غير ظاهرٍ مُطَّلَعٍ عليه، فَيُسَمَّى لخفائهِ «سِراً».

وكذلك يقال لِكُلِّ ما أخفاهُ المرءُ في نفسه: «سِراً». ويقال: «هو في سر قومه»، يعني: في خيارهم وشرفهم.

فلما كان «السر» إنما يوجه في كلامها إلى أحد هذه الأوجه الثلاثة، وكان

معلوماً أن أحدهن غير معنيٍّ به قوله: «وَلَكِن لا تُوَاعِدُوهُنَّ سِراً»، وهو السر الذي هو معنى الخيار والشرف، فلم يبق إلا الوجهان الآخران، وهو «السر» الذي بمعنى ما أخفته نفس المواعد بين المتواعدين، و«السر» الذي بمعنى الغشيان والجماع.

فلما لم يبق غيرهما، وكانت الدلالة واضحة على أن أحدهما غير معنيٍّ به، صحَّ أن الآخر هو المعنيُّ به.

فإن قال [قائل]: فما الدلالةُ على أنَّ مواعدةَ القولِ سراً، غير معنيٍّ به ـ على ما قال مَنْ قال إن معنى ذلك: أخذُ الرجلِ ميثاقَ المرأة أنْ لا تنكحَ غَيْرَهُ، أو على ما قال من قال: قول الرجل لها: «لاتسبقيني بنفسك»؟

قيل: لأن «السر» إذا كان المعنى الذي تأوَّله قائلو ذلك، فلن يخلو ذلك «السر» من أن يكون هو مواعدة الرجل المرأة ومسألته إيَّاها أنْ لا تنكحَ غيره، أو يكون هو النكاح الذي سألها أن تجيبه إليه، بعد انقضاء عدتها، وبعد عقده له، دون الناس غيره. فإن كان «السر» الذي نهى الله الرجلَ أنْ يُواعدَ المعتدَّاتِ، هو أخذُ العهدِ عليهنَّ أنْ لاينكحن غيره، فقد بطل أن يكون «السرُّ» معناه: ما أُخفِيَ من الأمور في النفوس، أو نطق به فلم يطَّلَع عليه، وصارت العلانية من الأمر سراً. وذلك خلاف المعقول في لغة من نزل القرآن بلسانه.

إلا أن يقول قائلُ هذه المقالة: إنما نهى الله الرجالَ عن مواعدتهن ذلك سراً بينهم وبينهن، لا أن نفس الكلام بذلك ـ وإن كان قد أعلن ـ سرٌّ.

فيقال له إن قال ذلك: فقد يجبُ أن تكون جائزة مواعدتهن النكاحَ والخطبةَ صريحاً علانية، إذ كان المنهيُّ عنه من المواعدة، إنما هو ما كان منها سراً.

فإن قال: إن ذلك كذلك، خرج من قول جميع الأمة. على أنّ ذلك ليس من قِيل أحدٍ ممن تأول الآية أن «السر» ها هنا بمعنى المعاهدة أنْ لا تنكحَ غير المعاهد.

وإن قال: ذلك غير جائز.

قيل له: فقد بطل أن يكون معنى ذلك: إسرارُ الرجل إلى المرأة بالمواعدة. لأن معنى ذلك، لو كان كذلك، لم يحرِّم عليه مواعدتها مجاهرة وعلانية، وفي كون ذلك عليه محرَّماً سرًّا وعلانية، ما أبان أنّ معنى «السر» في هذا الموضع، غير معنى إسرار الرجل إلى المرأة بالمعاهدة أن لا تنكح غيره إذا انقضت عدتها، أو يكون، إذا بطل هذا الوجهُ، معنى ذلك: الخطبة والنكاحُ الذي وعدت المرأة الرجل أن لا تعدوَه إلى غيره. فذلك إذا كان، فإنما يكون بوليٍّ وشهود علانية غير سرٍّ. وكيف يجوز أن يسمى سراً، وهو علانية لا يجوزُ إسراره؟

وفي بُطُولِ هذه الأوجه أن تكون تأويلاً لقوله: «وَلَكِن لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِراً» بما عليه دللنا من الأدلة. وضوحُ صِحَّةِ تأويلِ ذلك أنه بمعنى الغِشيان والجماع.

وإذْ كان ذلك صحيحاً، فتأويل الآية: ولا جُناحَ عليكم، أيها الناس، فيما عرَّضتم به للمعتداتِ من وفاةِ أزواجهن، من خطبةِ النساء، وذلك حاجتُكم إليهن، فلم تُصَرِّحوا لهنَّ بالنكاح والحاجة إليهن، إذْ أكننتم في أنفسكم، فأسررتم حاجتَكم إليهن وخِطبتكم إياهن في أنفسكم، ما دُمْن في عِددهن؛ علم الله أنكم ستذكرون خِطبتهن وهُنَّ في عِددهن، فأباح لكم التعريضَ بذلك لهن، وأسقط الحرَج عما أضمرته نفوسُكم ـ حكمٌ منه ـ ولكن حرَّم عليكم أنْ تُواعِدُوهن جِماعاً في عِددهن، بأن يقول أحدكم لإحداهن في عِدتها: «قد

تزوجتك في نفسي، وإنما أنتظُر انقضاء عدتك»، فيسألها بذلك القول إمكانه من نفسها الجماعَ والمباضَعة، فحرَّم الله تعالى ذِكْرُهُ ذلك.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِلَّآ أَن تَقُولُواْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾

ثم قال تعالي ذِكْرُهُ: «إِلَّآ أَنْ تَقُولُواْ قَوْلاً مَّعْرُوفاً»، فاستثنى القولَ المعروفَ مما نهى عنه من مواعدة الرَّجل المرأة السرَّ، وهو من غير جنسه، ولكنه من الاستثناء الذي قد ذكرت قبل: أنه يأتي بمعنى خلاف الذي قبله في الصِّفة خاصة، وتكون «إلَّا» فيه بمعنى «لكن»، فقوله: «إِلَّآ أَنْ تَقُولُواْ قَوْلاً مَّعْرُوفاً» منه ـ ومعناه: ولكن قولوا قولاً معروفاً. فأباح الله تعالى ذِكْرُهُ أن يقولَ لها المعروفَ من القول في عِدتها، وذلك هو ما أُذِنَ له بقوله: «وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِ مِنْ خِطْبَةِ ٱلنِّسَاءِ».

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَعْزِمُواْ عُقْدَةَ ٱلنِّكَاحِ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْكِتَٰبُ أَجَلَهُۥ﴾

يعني تعالى ذِكْرُهُ بقوله: «وَلَا تَعْزِمُواْ عُقْدَةَ ٱلنِّكَاحِ »، ولا تُصحِّحوا عقدة النكاح في عدة المرأة المعتدة، فتُوجِبُوها بينكم وبينهن وتعقدوها قبل انقضاء العدة؛ «حَتَّى يَبْلُغَ ٱلْكِتَابُ أَجَلَهُ»، يعني: يبلغن أجل الكتاب الذي بيَّنه الله تعالى ذِكْرُهُ بقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْواجاً يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْراً﴾، فجعل بلوغَ الأجل للكتاب، والمعنى للمتناكحين، أن لاينكح الرجلُ المرأةَ المعتدة، فيعزم عقدة النكاح عليها حتى تنقضي عدتها، فيبلغ الأجل الذي أجَّله الله في كتابه لانقضائها.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ فَٱحْذَرُوهُ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿٢٣٥﴾﴾

يعني تعالى ذِكْرُهُ بذلك: واعلموا، أيها الناس، أنَّ الله يعلم ما في أنفسكم من هواهُنَّ ونكاحهنّ وغير ذلك من أموركم، فاحذروه. يقول: فاحذروا الله واتقوه في أنفسكم أنْ تأتوا شيئاً مما نهاكم عنه، من عزم عُقدة نكاحهن، أو مُواعَدَتِهنَّ السرَّ في عِددهن، وغير ذلك مما نهاكم عنه في شأنهنّ في حال ما هُنَّ مُعْتدَّاتٍ، وفي غير ذلك ـ «وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللهَ غَفُورٌ»، يعني: أنه ذو سترٍ لذنـوبِ عباده وتغطيةٍ عليها، فيما تُكِنُّهُ نفوسُ الرجال من خطبةِ المعتدات، وذكرهم إياهنّ في حال عِددهنّ، وفي غير ذلك من خطاياهم، وقوله: «حَلِيمٌ»، يعني: أنه ذو أناةٍ لا يعجَلُ على عبادهِ بعقوبتهم على ذنوبهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ﴾

يعني تعالى ذِكْرُهُ بقوله: «لَّا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ»، لا حرج عليكم إنْ طلقتُم النســاء. يقـول: لا حرج عليكم في طلاقكم نسـاءَكم وأزواجَكم، «مَا لَمْ تُماسُّوهن»، يعني بذلك: ما لم تجامعوهن.

و«المماسَّة»، في هذا الموضع، كناية عن اسم الجماع.

وإنما عنى الله تعالى ذِكْرُهُ بقوله: «لَّا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إن طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَاءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ»، المـطلقـات قبل الإفضاء إليهن في نكاح قد سُمِّيَ لهن فيه الصَّدَاقُ. وإنماقلنا: إنَّ ذلك كذلك، لأنَّ كل منكوحةٍ فإنما هي إحدى اثنتين: إما مسمًّى لها الصداقُ، أو غير مسمًّى لها ذلك، فعلمنا بالذي يتلو ذلك من

قوله تعالى ذِكْرُهُ، أنّ المعنيةَ بقوله «لَّا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إن طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَاءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ»، إنما هي المُسَمَّى لها. لأن المعنية بذلك، لو كانت غيرَ المفروض لها الصداق، لما كان لقوله: «أَوْ تَفْرِضُواْ لَهُنَّ فَرِيضَةً»، معنىً معقول. إذ كان لا معنى لقـول قائل: «لا جناح عليكم إذا طلقتم النساء ما لم تفرضوا لهن فريضة في نكاح لم تُماسُّوهن فيه، أو ما لم تفرضوا لهن فريضة». فإذْ كان لا معنى لذلك، فمعلوم أنَّ الصحيحَ من التأويل في ذلك: لا جناح عليكم إن طلقتم المفروضَ لهن من نسائكم الصداقُ قبل أن تماسوهن، وغير المفروض لهن قبل الفرض.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: أَوْتَفْرِضُواْلَهُنَّ فَرِيضَةً

يعني تعـالى ذِكْرُهُ بقوله: «أَوْ تَفْرِضُواْ لَهُنَّ»، أو تُوجِبُوا لهن. ويقوله: «فَرِيضَةً»، صداقاً واجباً.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَـالَى: وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى ٱلْمُوسِعِ قَدَرُهُۥ وَعَلَى ٱلْمُقْتِرِ قَدَرُهُۥ

يعني تعـالى ذِكْـرُهُ بقـولـه: «وَمَتِّعُـوهُنَّ»، وأَعْطُوهُنَّ ما يتمتَّعن به من أموالكم، على أقداركم ومنازلكم من الغنى والإقتار.

ثم اختلف أهلُ التأويلِ في مَبْلَغِ ما أمرَ الله به الرجالَ من ذلك.

فقال بعضهم: أعلاه الخادمُ، ودون ذلك الوَرِقُ[1] ودونه الكُسوة.

---

(١) الوَرِق (بفتح فكسر): الدراهم المضروبة. والوَرَق (بفتحتين): المال الناطق من الإبل والغنم.

وقـال آخرون: مبلغ ذلك ـ إذا اختلف الزوجُ والمرأة فيه ـ قَدْرُ نصفِ صَدَاقِ مثل تلك المرأة المنكوحة بغير صداقٍ مُسَمًّى في عقده. وذلك قول أبي حنيفة وأصحابه.

والصواب من القول في ذلك: إنَّ الواجبَ من ذلك للمرأةِ المطلقةِ على الرجلِ على قَدْرِ عُسْرِهِ ويُسْرِهِ، كما قال الله تعالى ذِكْرُهُ: «عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدَرُهُ»، لا على قدر المرأة. ولو كان ذلك واجباً للمرأة على قدر صداق مثلها إلى قدر نصفه، لم يكن لقيله تعالى ذِكْرُهُ: «عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدَرُهُ»، معنىً مفهوم، ولكان الكلام: ومَتِّعوهُنَّ على قدرِهن وقدر نصف صَداق أمثالهن.

وفي إعلام الله تعالى ذِكْرُهُ عبادَه أن ذلك على قَدْرِ الرجلِ في عُسْرِهِ ويُسْرِهِ، لا على قدرها وقدر نصف صَداق مثلها، ما يُبين عن صحة ما قلنا، وفسادِ ما خالفه. وذلك أن المرأة قد يكون صَداقُ مثلها المال العظيم، والرجل في حال طلاقه إياها مقترٌ لا يملك شيئاً، فإن قُضيَ عليه بقَدْرِ نصفِ صَداقِ مثلها، أُلزِم ما يعجزُ عنه بعضُ مَنْ قد وُسِّع عليه، فكيف المقدورُ عليه؟[1] وإذا فُعل ذلك به، كان الحاكمُ بذلك عليه قد تعدَّى حُكمَ قولِ الله تعالى ذِكْرُهُ: «عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدَرُهُ» ـ ولكن ذلك على قَدْر عُسرِ الرجل ويُسره، لا يجاوز بذلك خادمٌ أو قيمتُها، إن كان الزوج موسَّعاً. وإن كان مُقتِراً، فأطـاق أدنى ما يكون كسوة لها، وذلك ثلاثة أثواب ونحو ذلك، قُضي عليه بذلك. وإن كان عاجزاً عن ذلك، فعلى قدر طاقته. وذلك على قدر اجتهاد الإمام العادل عند الخصومة إليه فيه.

---

(١) المقدور عليه: المضيق عليه رزقه.

واختلف أهـلُ التـأويلِ في تأويل قولـه: «وَمَتِّعُوهُنَّ»، هلِ هو على الوجوبِ، أو على الندب؟

فقال بعضهم: هو على الوجوب، يُقضى بالمتعة في مال المطلِّق، كما يقضى عليه بسائر الديون الواجبة عليه لغيره. وقالوا: ذلك واجب عليه لكل مطلقة، كائنة من كانت من نسائه.

وقال آخرون: المتعةُ للمطلقة على زوجها المطلِّقِها واجبةٌ، ولكنها واجبةٌ لكل مطلقةٍ سوى المطلَّقة المفروض لها الصداق. فأما المطلقة المفروضُ لها الصداق إذا طُلِّقت قبل الدخول بها، فإنها لا مُتعةَ لها، وإنما لها نصف الصَّداق المسمَّى.

وقال آخرون: المتعة حَقٌّ لكل مطلَّقةٍ، غير أنّ منها ما يُقْضَى به على المطلِّق، ومنها ما لا يُقْضَى به عليه، ويلزمه فيما بينه وبين الله إعطاؤه.

وقال آخرون: لا يقضي الحاكمُ ولا السلطان بشيء من ذلك على المطلِّق، وإنما ذلك من الله تعالى ذِكْرُهُ نَدْبٌ وإرشادٌ إلى أن تُمتِّعَ المطلَّقةُ.

وكأنَّ قائِلي هذا القول ذهبوا في تركهم إيجابَ المتعة فرضاً للمطلقات، إلى أنَّ قولَ الله تعالى ذِكْرُهُ: «حَقًّا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ»، وقوله: «حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ»، دلالة على أنها لو كانت واجبةً وجوبَ الحقوق اللازمة الأموالَ بكل حال، لم يُخصص المتقون والمحسنون بأنها حَقٌّ عليهم دون غيرهم، بل كان يكون ذلك معموماً به كلُّ أحدٍ من الناس.

وأما موجبوها على كُلِّ أحدٍ سوى المطلقة المفروض لها الصداق، فإنهم اعتلُّوا بأنَّ الله تعالى ذِكْرُهُ لما قال: «وللمُطَلقَاتِ مَتَاعٌ بِٱلْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ»، كان ذلك دليلاً على أنَّ لكلِّ مطلقةٍ متاعاً سوى مَن استثناهُ الله تعالى ذِكْرُهُ في كتابه أو على لسانِ رسوله ﷺ. فلما قال: «وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أن

تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ»، كان في ذلك دليل عندهم على أنَّ حَقَّها النصفُ مما فرض لها، لأن المتعة جعلها الله في الآية التي قبلها عندهم، لغير المفروض لها. فكان معلوماً عندهم بخصوص الله بالمتعة غير المفروض لها، أنَّ حكمها غير حُكم التي لم يفرض لها إذا طلَّقها قبل المسيس، فيما لها على الزوج من الحقوق.

والذي هو أولى بالصواب من القول في ذلك عندي، قولُ مَنْ قال: «لكل مطلَّقةٍ متعةٌ». لأن الله تعالى ذِكْرُهُ قال: «وَلِلْمُطَلَّقَاتِ مَتَاعٌ بِٱلْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ»، فجعل الله تعالى ذِكْرُهُ ذلك لكل مطلقة، ولم يخصص منهم بعضاً دون بعض، فليس لأحد إحالةُ ظاهرِ تنزيلٍ عام، إلى باطنٍ خاص، إلا بحجة يجبُ التسليمُ لها.

فإن قال قائل: فإن الله تعالى ذِكْرُهُ قد خَصَّ المطلقةَ قبل المسيس، إذا كان مفروضاً لها، بقوله: «وإنْ طَلَّقْتموهن من قبل أن تمسُّوهنَّ وقد فرضتُمْ لهن فريضةً فنصفُ ما فرضتم»، إذْ لم يجعل لها غيرَ النصف من الفريضة؟

قيل: إن الله تعالى ذِكْرُهُ إذا دلّ على وجوب شيء في بعض تنزيله، ففي دلالته على وجوبه في الموضع الذي دل عليه، الكفايةُ عن تكريره، حتى يدل على بُطُولِ فرضه. وقد دلّ بقوله: «وَلِلْمُطَلَّقَاتِ مَتَاعٌ بِٱلْمَعْرُوفِ»، على وجوب المتعة لكلِّ مطلقة، فلا حاجةَ بالعبادِ إلى تكريرِ ذلك في كل آية وسورة. وليس في دلالتـه على أن للمطلقةِ قبلَ المسيس المفروضِ لها الصداقُ نصف ما فرض لها، دلالةٌ على بُطُولِ المتعة عنه. لأنه غير مستحيلٍ في الكلام لو قيل: «وإنْ طَلَّقْتموهن من قبل أن تمسُّوهنَّ وقد فرضتُمْ لهن فريضةً فنصفُ ما فرضتم» والمتعة[1]. فلما لم يكن ذلك محالاً في الكلام، كان معلوماً أنّ نصف الفريضة

---

(١) يعني: بعطف «والمتعة» على قوله: ﴿فنصف ما فرضتم﴾.

إذا وجب لها، لم يكن في وجوبه لها نفيٌ عن حقها من المتعة، ولما لم يكن اجتماعهما للمطلقة محالاً ـ وكان الله تعالى ذِكْرُهُ قد دل على وجوبِ ذلك لها، وإن كانت الدلالة على وجوب أحدهما في آية غير الآية التي فيها الدلالة على وجوب الأخرى ـ ثبت وصحَّ وجوبُهما لها.

هذا، إذا لم يكن على أنَّ للمطلقة المفروض لها الصداق إذا طُلِّقت قبل المسيس، دلالـةٌ غير قول الله تعالى ذِكْرُهُ: «وَلِلمُطَلَّقَاتِ مَتَاعٌ بِٱلْمَعْرُوفِ»، فكيف وفي قول الله تعـالى ذِكْرُهُ: «لَّا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إن طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَاءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُواْ لَهُنَّ فَرِيضَةً وَمَتِّعُوهُنَّ»، الدلالةُ الواضحةُ على أن المفروضَ لها إذا طُلِّقَتْ قبل المسيس، لها من المتعةِ مثلُ الذي لغير المفروضِ لها منها؟ وذلك أن الله تعالى ذِكْرُهُ لما قال: «لَّا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إن طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَاءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُواْ لَهُنَّ فَرِيضَةً»، كان معلوماً بذلك أنه قد دلَّ به على حكم طلاق صِنفين من طلاق النسـاء: أحـدهما المفروض له، والآخر غيرُ المفروض له. وذلك أنه لما قال: «أَوْ تَفْرِضُواْ لَهُنَّ فَرِيضَةً»، عُلِمَ أنَّ الصنف الآخر هو المفروضُ له، وأنها المطلقةُ المفروضُ لها قبل المسيس. لأنه قال: «لَّا جُنَـاحَ عَلَيْكُمْ إن طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَـاءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ»، ثم قال تعالى ذِكْرُهُ: «وَمَتِّعُـوهُنَّ»، فأوجبَ المتعـة للصِّنفين منهن جميعاً، المفروضِ لهنَّ، وغيرِ المفروضِ لهن، فمن ادَّعى أن ذلك لأحدِ الصنفين، سُئِلَ البرهانَ على دعواه من أصلٍ أو نظيرٍ، ثم عُكس عليه القولُ في ذلك. فلن يقول في شيء منه قولاً إلا أُلزم في الآخر مثله.

وأرى أنَّ المتعة للمرأة حَقٌّ واجبٌ، إذا طلقت، على زوجها المطلِّقِها، على ما بيَّنا آنفاً ـ يؤخذ بها الزوج كما يؤخذ بصداقها، لا يُبرئه منها إلا أداؤه إليها أو إلى مَنْ يقوم مقامها في قبضها منه، أو ببراءة تكون منها له. وأرى أن سبيلها سبيل صداقها وسائر ديونها قِبَله، يحبس بها إن طلقها فيها، إذا لم يكن

له شيء ظاهر يُباع عليه، إذا امتنع من إعطائها ذلك.

وإنما قلنا ذلك، لأن الله تعالى ذِكْرُهُ قال: «وَمَتِّعُوهُنَّ»، فأمر الرجال أن يمتعوهن، وأمرُهُ فرضٌ إلا أنْ يُبَيِّنَ تعالى ذِكْرُهُ أنه عنى به الندبَ والإرشاد، لما قد بينا في كتابنا المسمى بـ«لطيف البيان عن أصول الأحكام»، لقوله: «وَلِلمُطَلَّقَاتِ مَتَاعٌ بِٱلْمَعْرُوفِ». ولا خلافَ بين جميعِ أهلِ التأويل أنَّ معنى ذلك: وللمطلقاتِ على أزواجِهن متاعٌ بالمعروف. وإذا كان ذلك كذلك، فلن يبرأ الزوجُ مما لها عليه إلاّ بمَا وصفنا قَبْلُ، من أداءٍ أو إبراءٍ على ما قد بيَّنّا.

فإنْ ظَنَّ ذو غباءٍ أنَّ الله تعالى ذِكْرُهُ إذ قال: «حَقًّا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ»، و«حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ»، أنها غير واجبةٍ، لأنها لو كانت واجبةً لكانت على المحسِن وغير المحسن، والمتَّقِي وغير المتقي، فإن الله تعالى ذِكْرُهُ قد أمرَ جميعَ خَلْقِه بأن يكونوا من المحسنين ومن المتقين، وماوَجَبَ من حقٍّ على أهلِ الإحسان والتُّقى، فهو على غيرهم أوجبُ ولهم ألزمُ.

وبعد فإن في إجماع الحجة على أن المتعة للمطلقة غير المفروض لها قبل المسيس واجبةٌ بقوله: «وَمَتِّعُوهُنَّ»، وجوبَ نصفِ الصَّدَاقِ للمطلقة المفروضِ لها قبل المسيس بقول الله تعالى ذِكْرُهُ: «فنصفُ ما فرضتم»، فيما أوجب لهما من ذلك، الدليلُ الواضح أن ذلك حَقٌّ واجبٌ لكل مطلقة بقوله: «وَلِلمُطَلَّقَاتِ مَتَاعٌ بِٱلْمَعْرُوفِ»، وإن كان قال: «حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ».

ومَنْ أنكر ما قلنا في ذلك، سئل عن المتعة للمطلقة غير المفروض لها قبلَ المسيس. فإنْ أنكر وجوب ذلك خرج من قول جميع الحجة، ونُوظِرَ مُناظَرَتَنا المنكرينَ في عشرين ديناراً زكاة، والدافعين زكاة العروض إذا كانت للتجارة، وما أشبه ذلك. فإن أوجبَ ذلك لها، سُئِلَ الفرق بين وجوب ذلك لها، والوجوب لكل مطلَّقة، وقد شرط فيما جعل لها من ذلك بأنه حق على

المحسنين، كما شرط فيما جعل للآخر بأنه حقٌّ على المتقين. فلن يقول في أحدهما قولاً إلا أُلْزِمَ في الآخر مثله.

وأجمع الجميع على أن المطلقة غيرَ المفروض لها قبل المسيس، لا شيء لها على زوجها المُطَلِّقها غير المتعة.

وأما «ٱلْمُوسِعِ»، فهو الذي قد صار من عيشه إلى سَعَةٍ وغنًى، يقال منه: «أوسع فلانٌ فهو يُوسِع إيساعاً وهو مُوسِع».

وأما «ٱلْمُقْتِرِ»، فهو المُقِلُّ من المال، يقال: «قد أقْتَر فهو يُقتر إقتاراً، وهو مُقْتِر».

فتأويلُ الآية إذاً: لا حرج عليكم، أيها الناس، إن طلقتم النساء وقد فرضتم لهن ما لم تماسوهن، وإن طلقتموهن ما لم تماسوهن قبل أنْ تفرضوا لهن، ومَتِّعُوهن جميعاً على ذي السعة والغِنى منكم من متاعهن حينئذٍ بِقَدْرِ غناه وسعته، وعلى ذي الإقتار والفاقة منكم منــه بقدر فاقته وإقتاره.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: مَتَـٰعًۢا بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ



يعني تعالى ذِكْرُهُ بذلك: ومتعوهنّ متاعاً. وقد يجوز أن يكون «مَتَاعاً» منصوباً قطعاً من «القَدَر». لأن «المتاع» نكرة، و«القَدر» معرفة.

ويعني بقوله: «بِٱلْمَعْرُوفِ»، بما أمركم الله به من إعطائكم إياهن ذلك، بغير ظلمٍ ولا مدافعةٍ منكم لهن به.

ويعني بقــولــه: «حَقًّـا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ»، متــاعاً بالمعروف الحق على المحسنين فلمــا دل إدخــال «الألف والــلام» على «الحق»، وهــو من نعت

«المعروف»، و«المعروف» معرفة و«الحق» نكرة، نُصب على القطع منه، كما يقال: «أتاني الرجل راكباً».

ويعني بقوله: «ٱلْمُحْسِنِينَ»، الذين يحسنون إلى أنفسهم في المسارعة إلى طاعة الله فيما ألزمهم به، وأدائهم ما كلَّفهم من فرائضه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّآ أَن يَعْفُونَ

وهذا الحكم من الله تعالى ذِكْرُهُ، إبانةٌ عن قوله: «لَّا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إن طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَاءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفرِضُواْ لَهُنَّ فَرِيضَةً». وتأويلُ ذلك: لا جُناح عليكم أيها الناس إن طلقتم النساء ما لم تُماسُّوهنَّ وقد فرضتم لهنّ فريضة، فلهن عليكم نصفُ ما كنتم فرضتم لهنّ من قبل طلاقكم إياهنّ، يعني بذلك: فلهن عليكم نصفُ ما أَصْدَقْتُموهن.

وإنما قلنا إن تأويل ذلك كذلك، لما قد قدمنا البيانَ عنه من أن قوله: «أَوْ تَفْرِضُواْ لَهُنَّ فَرِيضَةً»، بيانٌ من الله تعالى ذِكْرُهُ لعبادِه حُكْمَ غير المفروضِ لهنّ إذا طلقهنّ قبل المسيس. فكان معلوماً بذلك أن حكم اللواتي عطف عليهنّ بـ «أو»، غير حكم المعطوف بهنّ بها.

وإنما كرّر تعالى ذِكْرُهُ قوله: «وإنْ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً»، وقد مضى ذكرهنّ في قوله: «لَّا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إن طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَاءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ»، ليزول الشك عن سامعيه واللبس عليهم، من أنْ يظنُّوا من أن التي حُكْمُهَا الحكمُ الذي وصفه في هذه الآية، هي غير التي ابتدأ بذكرها وذكر حكمها في الآية التي قبلَها.

وأما قوله: «إلَّا أَن يَعْفُونَ»، فإنه يعني: إلاّ أن يعفو اللواتي وجبَ لهن

عليكم نصف تلك الفريضة، فَيَتْرُكنهُ لكم ويَصْفَحْنَ لكم عنه تفضُّلاً منهنّ بذلك عليكم، إنْ كُنَّ ممن يجوز حكمه في ماله وهنّ بوالغ رشيدات، فيجوز عفوهنّ حينئذٍ ما عفون عنكم من ذلك، فيسقط عنكم ما كُنَّ عفون لكم عنه منه. وذلك النصفُ الذي كان وجب لهنّ من الفريضة بعد الطلاق وقبل العفو إنْ عَفَتْ عنه ـ أو ما عفت عنه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تعالى: أَوْيَعْفُوَاْ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ عُقْدَةُ ٱلنِّكَاحِ

اختلف أهلُ التأويلِ فيمن عنى الله تعالى ذِكْرُهُ بقوله: «ٱلَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ ٱلنِّكَاحِ».

فقال بعضهم: هو وليُّ البكر. وقالوا: ومعنى الآية: أو يترك، الذي يلي على المرأةِ عقدَ نكاحها من أوليائها، للزوج النصفَ الذي وجب للمطلَّقة عليه قبل مسيسه فيصفحَ له عنه، إنْ كانت الجارية ممن لا يجوز لها أمرٌ في مالها.

وقال آخرون: بل الذي بيده عقدةُ النكاح، الزوج. قالوا: ومعنى ذلك: أو يعفو الذي بيده نكاح المرأة فيعطيها الصداقَ كاملاً.

وأولى القولين في ذلك بالصواب قولُ مَنْ قال: المعنيُّ بقوله: «ٱلَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ ٱلنِّكَاحِ»، الزوجُ، وذلك لإجماع الجميع على أن وليَّ جاريةٍ بِكْرٍ أو ثَيِّبٍ، صبيةً صغيرةً كانت أو مدركة كبيرة، لو أبرأ زوجها من مهرها قبل طلاقه إياها، أو وهبه له أو عفا له عنه ـ أنّ إبراءه ذلك وعفوه له عنه باطلٌ، وأنَّ صَدَاقها عليه ثابت ثبوته قبل إبرائه إياه منه. فكان سبيلُ ما أبرأه من ذلك بعد طلاقه إياها، سبيلَ ما أبرأه منه قبل طلاقه إياها.

وأخرى: أن الجميع مُجْمِعُونَ على أنَّ وليَّ امرأةٍ محجورٍ عليها أو غير محجور عليها، لو وهب لزوجها المطلِّقها بعد بينونتها منه درهماً من مالها، على

غير وجه العفو منه عما وجب لها من صداقها قِبَله، أنَّ هبته ما وهبَ من ذلك مردودةٌ باطلةٌ. وهم مع ذلك مجمعون على أنَّ صداقها مالٌ من مالها، فحكمه حكم سائر أموالها.

وأخرى: أن الجميع مجمعون على أن بني أعمام المرأة البكر وبني إخوتها من أبيها وأمها من أوليائها، وأن بعضهم لو عفا عن مالها [لزوجها، قبل دخوله بها] أو بعد دخوله بها: أنَّ عفوهُ ذلك عما عفا له عنه منه باطل، وأنّ حق المرأة ثابتٌ عليه بحاله. فكذلك سبيلُ عفو كلِّ وليٍّ لها كائناً مَنْ كان من الأولياء، والداً كان أو جَداً أو خالاً. لأن الله تعالى ذِكْرُهُ لم يخصص بعضَ الذين بأيديهم عُقد النكاح دون بعضٍ في جوازِ عفوهِ، إذا كانوا ممن يجوزُ حكمه في نفسه وماله.

ويقال لمن أبى ما قلنا ـ ممن زعم أنَّ «ٱلَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ ٱلنِّكَاحِ»، وليُّ المرأة ـ: هل يخلو القول في ذلك من أحد أمرين، إذ كان الذي بيده عقدة النكاح هو الولي عندك: إما أن يكون ذلك كلّ ولي جاز له تزويج وَلِيَّتِهِ، أو يكون ذلك بعضهم دون بعض؟ فلن يجد إلى الخروج من أحد هذين القسمين سبيلاً.

فإن قال: إن ذلك كذلك.

قيل له: فأي ذلك عُني به؟

فإن قال: لكل وليّ جاز له تزويج وليَّته.

قيل له: أفجائزٌ للمعتقِ أمةً تزويج مولاته بإذنها بعد عتقه إياها؟

فإن قال: نعم!

قيل له: أفجائزٌ عَفْوهُ إنْ عفا عن صَدَاقِها لزوجها بعد طلاقه إياها قبل المسيس؟

فإن قال: نعم خرجَ من قولِ الجميع. وإنْ قال: لا! قيل له: ولِمَ؟ وما الذي حظَر ذلك عليه وهو وليها الذي بيده عقدةُ نكاحها؟

ثم يعكس القول عليه في ذلك، ويسأل الفرقَ بينه وبين عفو سائر الأولياء غيره.

وإن قال: لبعضٍ دون بعض.

سُئِل البرهانَ على خصوصِ ذلك، وقد عَمَّهُ الله تعالى ذِكْرُهُ فلم يخصصْ بعضاً دون بعض.

ويقال له: مَن المعنيُّ به، إنْ كان المراد بذلك بعضَ الأولياء دون بعض؟

فإنْ أومأ في ذلك إلى بعض منهم، سُئل البرهان عليه، وعُكس القولُ فيه، وعُورِضَ في قوله ذلك بخلافِ دعواه. ثم لن يقولَ في ذلك قولاً إلا ألزم في الآخر مثله.

فإن ظنّ ظان أن المرأة إذا فارقها زوجها فقد بطل أن يكون بيده عُقدة نكاحها، والله تعالى ذِكْرُهُ إنما أجاز عفوَ الذي بيده عقدة نكاحِ المطلَّقةِ، فكانَ معلوماً بذلك أنَّ الزوجَ غير معنيٍّ به. وأن المعنيَّ به هو الذي بيده عقدةُ نكاحِ المطلَّقة بعد بَيْنُونتها من زوجها. وفي بُطُولِ ذلك أن يكونَ حينئذ بيد الزوج، صحةُ القول أنه بيد الولي الذي إليه عَقْدُ النكاحِ إليها. وإذا كان ذلك كذلك، صَحَّ القولُ بأنَّ الذي بيده عقدة النكاح هو الولي ـ فقد أغفل وظن خطأ.

وذلك أن معنى ذلك: أو يعفوَ الذي بيده عُقدة نكاحه، وإنما أدخلت «الألف والـلام» في «ٱلنِّكَـاحِ» بدلاً من الإضـافـة إلى «الهـاء» التي كان «ٱلنِّكَاحِ» ـ لو لم يكونا فيه ـ مضافاً إليها، كما قال الله تعالى ذِكْرُهُ: ﴿فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِيَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ [النازعات: ٤١]، بمعنى: فإنَّ الجنةَ مأواهُ.

فتأويلُ الكلام: إلا أن يعفونَ أو يعفوَ الذي بيده عقدة نكاحه، وهو الزوجُ الذي بيده عقدةُ نكاحِ نفسهِ في كل حال قبل الطلاق وبعده؛ لا أن معناه: أو يعفوَ الذي بيده عقدة نكاحهن، فيكون تأويل الكلام ما ظنه القائلون أنه الولي وليُّ المرأة. لأن وليَّ المرأةِ لايملكُ عقدة نكاح المرأة بغير إذنها، إلا في حالِ طُفولتها، وتلك حالٌ لا يملكُ العقدَ عليها إلا بعضُ أوليائها، في قول أكثر مَنْ رأى أنّ الذي بيده عُقدة النكاح الولي. ولم يخصص الله تعالى ذِكْرُهُ بقوله: «أَوْ يَعْفُوَاْ ٱلَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ ٱلنِّكَاحِ» بعضاً منهم، فيجوزُ توجيه التأويل إلى ما تأوّلوه، لو كانَ لِمَا قالوا في ذلك وَجْهٌ.

وبعد، فإن الله تعالى ذِكْرُهُ إنما كنى بقوله: «وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّآ أَن يَعْفُونَ» عن ذكر النساء اللاتي قد جرى ذكرهنّ في الآية قبلها، وذلك قوله: «لَّا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ»، والصبايا لا يُسَمَّيْنَ «نساء»، وإنما يسمين صَبايا أو جواري، وإنما «ٱلنِّسَآءَ» في كلام العرب أجمع، اسم المرأة، ولا تقول العرب للطفلة والصبية والصغيرة «امرأة»، كما لا تقول للصبي الصغير «رجل».

وإذا كان ذلك كذلك، وكان قوله: «أَوْ يَعْفُوَاْ ٱلَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ ٱلنِّكَاحِ»، عند الزاعمين أنه الوليُّ إنما هو: أو يعفو الذي بيده عقدة النكاح عما وجب لوليته التي تستحق أن يولِّي عليها مالَها إمّا الصغرُ وإمّا السفهُ، والله تعالى ذِكْرُهُ إنما اقتص في الآيتين قَصص النساء المطلقاتِ لعمومِ الذِّكْرِ دون خصوصه، وجعل لهن العفو بقوله: «إِلَّآ أَن يَعْفُونَ»، كان معلوماً بقوله: «إِلَّآ أَن يَعْفُونَ»، أنَّ المعنياتِ منهن بالآيتين اللتين ذكرهن فيهما جميعهنّ دون بعض، إذْ كان معلوماً أنَّ عفو مَنْ تولّى عليه ماله منهن باطل.

وإذْ كان ذلك كذلك، فبيِّنٌ أنَّ التأويلَ في قوله: أو يعفو الذي بيده عقدة

نكاحهن. يوجبُ أنْ يكونَ لأولياء الثَّيِّبَاتِ الرُّشَّدِ البوالغ، من العفو عما وَجَبَ لهنّ من الصَّـدَاقِ بالطلاق قبل المسيس، مثل الذي لأولياء الأطفال الصِّغار المولِّي عليهن أموالَهنّ السفهُ. وفي إنكار القائلين: «إن الذي بيده عقدة النكاح الـوليّ»، عفـو أولياء الثيبـات الـرشَّـد البوالغ على ما وصفنا، وتفريقهم بين أحكامهم وأحكام أولياء الأخرَ - ما أبانَ عن فسادِ تأويلهم الذي تأولوه في ذلك.

ويسأل القائلون بقولهم في ذلك، الفرقَ بين ذلك من أصلٍ أو نظيرٍ، فلن يقولوا في شيء من ذلك قولاً إلا ألزموا في خلافه مثله.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَأَن تَعْفُوٓاْ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ

اختلف أهلُ التأويلِ فيمن خوطب بقوله: «وَأَنْ تَعْفُواْ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى».

فقال بعضهم: خُوطِبَ بذلك الرجالُ والنساء.

وقال آخرون: بل الذين خوطبوا بذلك أزواجُ المطلقات.

والذي هو أولى القولين بتأويل الآية عندي في ذلك: وأنْ يعفو بعضُكم لبعضٍ - أيها الأزواج والزوجات، بعد فراق بعضكم بعضاً عما وَجَبَ لبعضكم قِبَلَ بعضٍ، فيتركه له إنْ كان قد بقي له قِبَله. وإن لم يكن بقيَ له، فَبِأَنْ يُوفيه بتمامهِ - أقربُ لكم إلى تقوى الله.

فإن قال قائل: ما في الصفحِ عن ذلك من القُرْب من تقوى الله، فيقال للصافح العافي عما وجب له قِبَل صاحبِهِ: فِعْلُكَ ما فعلتَ أقربُ لكَ إلى تقوى الله؟

قيل له: الذي في ذلك من قربه من تقوى الله، مسارعتُه في عفوه ذلك إلى ما نَدَبَهُ الله إليه، ودعاه وحضَّه عليه. فكان فِعْلُهُ ذلك - إذا فعله ابتغاء

مرضاة الله، وإيثارَ ما ندبه إليه على هوى نفسه ـ معلوماً به، إذْ كان مُؤْثِراً فِعْلَ ما ندبه إليه مما لم يفرضه عليه على هوى نفسه: أنه لِمَا فَرَضَهُ عليه وأوجبه أشدّ إيثاراً، ولِمَا نهاهُ أشد تجنباً. وذلك هو قربه من التقوى.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَنسَوُا۟ ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْ﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: ولا تُغفلوا، أيها الناسُ، الأخذَ بالفضلِ بعضكم على بعض فتتركوه، ولكن ليتفضّل الرجلُ المطلق زوجتَه قبلَ مسيسها، فيكمل لها تمامَ صَدَاقها إنْ كان لم يُعْطِها جَميعَهُ، وإنْ كان قد ساق إليها جميعَ ما كان فَرَضَ لها، فليتفضلْ عليها بالعفو عما يجبُ له ويجوز له الرجوعُ به عليها، وذلك نصفه، فإنْ شحَّ الرجل بذلك وأبى إلا الرجوعَ بنصفه عليها، فلتتفضل المرأة المطلَّقة عليه بردِّ جميعهِ عليه، إنْ كانت قد قبضته منه، وإنْ لم تكن قبضته، فتعفو [عن] جميعه. فإن هما لم يفعلا ذلك وشحَّا وتركا ما نَدَبَهُمَا الله إليه ـ من أخْذِ أحدهما على صاحبه بالفضلِ ـ فلها نصفُ ما كان فرض لها في عقد النكاح وله نصفه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ٢٣٧﴾

يعني تعالى ذِكْرُهُ بذلك: «إِنَّ آللهَ بِمَا تَعْمَلُونَ»، أيها الناس مما نَدَبكم إليه وحضَّكم عليه، من عفوِ بعضكم لبعضٍ عما وَجَبَ له قِبلَه من حَقٍّ بسببِ النكاحِ الذي كان بينكم وبين أزواجكم، وتفضُّلِ بعضكم على بعضٍ في ذلك، وفي غيره مما تأتون وتذرون من أموركم في أنفسكم وغيركم مما حثَّكم الله عليه وأمركم به أو نهاكم عنه؛ «بَصِيرٌ»، يعني بذلك: ذو بصر، لا يخفى عليه منه شيء من ذلك، بل هو يُحصيه عليكم ويحفظه، حتى يجازي ذا الإحسانِ منكم على إحسانِهِ، وذا الإساءةِ منكم على إساءته.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ: حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ

يعني تعالى ذِكْرُهُ بذلك: واظِبوا على الصلواتِ المكتوباتِ في أوقاتهن، وتعاهَدُوهُنَّ والزَمُوهن، وعلى الصلاة الوسطى منهنّ.

ثم اختلفوا في «وَٱلصَّلَاةِ ٱلْوُسْطَى». فقال بعضهم: هي صلاةُ العصر.

وقال آخرون: بل الصلاةُ الوسطى صلاةُ الظهر.

وقال آخرون: بل الصلاة الوسطى صلاةُ المغرب.

وقال آخرون: بل هي صلاة الغَداة.

وقال آخرون: هي إحدى الصلوات الخمس، ولا نعرفها بعينها.

والصوابُ من القولِ في ذلك ما تظاهرتْ به الأخبارُ عن رسولِ الله ﷺ هو أنها العصر.

والذي حثَّ الله تعالى ذِكْرُهُ عليه من ذلك، نظيرُ الذي رُوِي عن رسول الله ﷺ في الحَثِّ عليه.

وإنما قيل لها «ٱلْوُسْطَى» لِتَوَسُّطِها الصلواتِ المكتوباتِ الخمس، وذلك أن قبلها صلاتين، وبعدها صلاتين، وهي بين ذلك وُسطاهنّ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ ﴿٢٣٨﴾

اختلف أهلُ التأويلِ في معنى قوله: «قَانِتِينَ».

فقال بعضهم: معنى «القنوت»، الطاعة. ومعنى ذلك: وقوموا لله في

صلاتكم مُطيعين له فيما أمركم به فيها ونهاكم عنه.

وقال آخرون: «القنوت» في هذه الآية، السكوتُ. وقالوا: تأويل الآية: وقوموا لله ساكتين عما نَهاكُم الله أنْ تتكلموا به في صلاتكم.

وقال آخرون: «القنوت» في هذه الآية، الركودُ في الصلاة والخشوعُ فيها. وقالوا في تأويل الآية: وقوموا لله في صلاتكم خاشعينَ، خافضي الأجنحةِ، غيرَ عابثينَ ولا لاعبينَ.

وقال آخرون: بل «القنوت»، في هذا الموضع، الدُّعَاءُ. قالوا: تأويل الآية: وقوموا لله راغبين في صَلاتكم.

وأولى هذه الأقوال بالصواب في تأويل قوله: «وَقُومُواْ لله قَانِتِينَ»، قولُ مَنْ قال: تأويله: «مطيعين».

وذلك أنّ أصل «القنوت»، الطاعة، وقد تكون الطاعة لله في الصلاة بالسكوت عما نهاه الله عنه من الكلام فيها[1]. ولذلك وجَّه مَنْ وجّه تأوِيلَ «القنوت» في هذا الموضع، إلى السكوت في الصلاة - أحد المعاني التي فرضها الله على عباده فيها - إلاّ عن قراءةِ قرآنٍ أو ذكرٍ له بما هو أهله.

وقد تكون الطاعةُ لله فيها بالخشوعِ، وخفضِ الجناح، وإطالةِ القيام، وبالدعاء، لأنَّ كل ذلك غير خارج من أحدِ معنيين[2]: من أنْ يكونَ مما أُمِرَ به المصلِّي، أو مما نُدِبَ إليه، والعبدُ بكل ذلك لله مطيعٌ، وهو لربه فيه قانتٌ.

---

(١) في المطبوعة: «عما نهى الله من الكلام»، وفي المخطوطة «عما نهاه الله»، والزيادة بين القوسين لابد منها، كأنها سقط من ناسخ.

(٢) في المطبوعة: «لأن كلًا غير خارج»، وفي المخطوطة: «لأن كل غير خارج»، فرجحت سقوط «ذلك» من ناسخ المخطوطة، واجتهد مصحح المطبوعة.

و«القنوت» أصله الطاعة لله، ثم يستعمل في كل ما أطاع الله به العبدُ.

فتأويل الآية إذاً: حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى، وقوموا لله فيها مطيعين، بتركِ بعضِكم فيها كلام بعض وغير ذلك من معاني الكلام، سوى قراءةِ القرآن فيها، أو ذكرِ الله بالذي هو أَهْلُهُ، أو دعائه فيها، غيرَ عاصين لله فيهـا بتضييعِ حدودها، والتفريطِ في الواجبِ لله عليكم فيها وفي غيرها من فرائضِ الله.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا﴾

يعني تعالى ذِكْرُهُ بذلك: وقوموا لله في صلاتكم مطيعين له ـ لما قد بَيَّناه من معناه ـ فإنْ خفتم من عدوٍّ لكم، أيها الناس، تخشونهم على أنفسكم في حال التقائكم معهم أنْ تصلُّوا قياماً على أرجلكم بالأرض قانتين لله ـ فصلوا «رجالاً»، مُشَاةً على أرجلكم، وأنتم في حربكم وقتالكم وجهاد عدوكم ـ «أَوْ رُكْبَاناً»، على ظهورِ دوابكم، فإنَّ ذلك يجزيكم حينئذٍ من القيام منكم، قانتين.

والخوفُ الذي للمصلِّي أن يصلِّي من أجله المكتوبةَ ماشياً راجلاً، وراكباً جائلاً، الخوفُ على المهجةِ عند السَّلَّة والمسايفة[1] في قتال مَنْ أمر بقتاله، من عدوٍ للمسلمين، أو محارب، أو طَلب سبع، أو جملٍ صائل، أو سيلٍ سائل فخاف الغرقَ فيه.

وكل ما الأغلبُ من شأنهِ هلاك المرء منه إنْ صلى صلاة الأمن، فإنه

---

(١) المهجة: الروح، وخالص النفس. والسلة: استلالُ السيوف، يقال: «أتيناهم عند السلة»، أي عند استلال السيوف إذا حميَ الوطيس.

إذا كان ذلك كذلك، فله أنْ يُصلِّي صلاةَ شِدَّةِ الخوفِ حيثُ كان وجهُهُ، يُومئُ إيماء لعمومِ كتابِ الله: «فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالاً أَوْ رُكْبَاناً»، ولم يخص الخوف على ذلك على نوعٍ من الأنواع، بعد أن يكونَ الخوفُ، صفته ما ذكرت.

وأما عدد الركعات في تلك الحال من الصلاة، فإني أحب أنْ لا يُقصِّر من عَددها في حال الأمن، وإن قصَّر عن ذلك فصلى ركعة، رأيتها مجزئة.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٩﴾

وتأويل ذلك: «فَإِذَا أَمِنْتُمْ»، أيها المؤمنون، من عدوِّكم أنْ يقدِرَ على قتلكم في حال اشتغالِكم بصلاتِكم التي فرضها عليكم ـ ومن غيره ممن كنتم تخافونه على أنفسكم في حال صلاتكم ـ فاطمأننتم، «فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ» في صلاتكم وفي غيرها بالشكرِ له والحمدِ والثناءِ عليه، على ما أنعم به عليكم من التوفيقِ لإصابة الحق الذي ضَلَّ عنه أعداؤكم من أهلِ الكفر بالله، كما ذكَركم بتعليمه إياكم من أحكامِه، وحلالِه وحرامِه، وأخبارِ مَنْ قَبْلكم من الأممِ السالفة، والأنباءِ الحادثةِ بعدكم ـ في عاجل الدنيا وآجل الآخرة، التي جَهِلَهَا غيرُكم وبصَّركم، من ذلك وغيره، إنعاماً منه عليكم بذلك، فعلَّمكم منه ما لم تكونوا مِنْ قَبْلِ تعليمِهِ إياكم تعلمون.

وقوله هٰهنا: «فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ»، قال: الصلاة، «كَمَا عَلَّمَكُمْ مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ».

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَـالَى: وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِّأَزْوَاجِهِم مَّتَاعًا إِلَى ٱلْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ

يعني تعالى ذِكْرُهُ بذلك: «وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ»، أيها الرجال ويذرُون أزواجاً - يعني زوجات كن له نساءً في حياته، بنكاح - لا ملك يمين. ثم صرف الخبر عن ذكر من ابتدأ الخبر بذكره. نظيرَ الذي مضى من ذلك في قوله: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْواجاً يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْراً﴾ [البقرة: ٢٣٤] إلى الخبر عن ذكر أزواجهم. وقد ذكرنا وجه ذلك، ودللنا على صحة القولِ فيه في نظيره الذي قد تقدم قبله، فأغنى ذلك عن إعادته في هذا الموضع.

ثم قال تعالى ذكره: «وَصِيَّةً لأَزْواجِهِمْ». فاختلفت القَرَأَةُ في قراءة ذلك:

فقرأ بعضهم: «وَصِيَّةً لأَزْواجِهِمْ»، بنصب «الوصية»، بمعنى: فليوصوا وصيةً لأزواجهم، أو: عليهم [أن يوصوا] وصية لأزواجهم.

وقرأ آخرون: ﴿وَصِيَّةٌ لأَزْواجِهِمْ﴾ برفع «الوصية».

وأولى القراءتين بالصواب في ذلك عندنا قراءة من قرأه رفعاً، لدلالةِ ظاهر القرآن على أن مُقام المتوفى عنها زوجها في بيت زوجها المتوفَّى حولاً كاملاً، كان حقاً لها قبل نزول قوله: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْواجاً يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْراً﴾ [البقرة: ٢٣٤]، وقبل نزول آية الميراث، ولتظاهرِ الأخبارِ عن رسولِ الله ﷺ بنحو الذي دل عليه الظاهرُ من ذلك، أوصى لهنَّ أزواجهنَّ بذلك قبل وفاتهن، أوْ لم يوصوا لهن به.

فإن قال قائل: وما الدلالة على ذلك؟

قيل: لمّا قال الله تعالى ذِكْرُهُ: «وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْواجاً وَصِيَّةً لأَزْواجِهِمْ»، وكان الموصي لاشك، إنما يُوصي في حياته بما يأمر بإنفاذه بعد وفاته، وكان محالاً أن يوصي بعد وفاتِه، وكان الله تعالى ذِكْرُهُ إنما جعل لامرأةِ الميتِ سكنَ الحول بعد وفاته، علمنا أنه حقٌّ لها وَجَبَ في ماله بغير

وصية منه لها، إذ كان الميت مستحيلاً أن تكون منه وصيةٌ بعد وفاته.

ولـو كان معنى الكلام على ما تأوله مَنْ قال: «فليوص وصية»، لكان التنزيل والذين تَحْضُرهُمُ الوفاةُ ويَذَرُونَ أزواجاً، وصيةٌ لأزواجهم، كما قال: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا ٱلْوَصِيَّةُ﴾ [البقرة:١٨].

وبعدُ، فلو كان ذلك واجباً لهن بوصيةٍ من أزواجهن المتوفَّين، لم يكن ذلك حقاً لهن إذا لم يوص أزواجهن لهن به قبل وفاتهم، ولكان قد كان لورثتهم إخراجهن قبل الحول، وقد قال الله تعالى ذِكْرُهُ: «غَيْرَ إِخْرَاجٍ». ولكن الأمر في ذلك بخلاف ما ظنه في تأويله قارئُه: «وَصِيَّةً لأَزْوَاجِهِمْ»، بمعنى: أن الله تعالى كان أمر أزواجهن بالوصية لهنّ. وإنما تأويل ذلك: والذين يُتوفَّون منكم ويذرون أزواجاً، كتب الله لأزواجهم عليكم وصيةً منه لهن أيها المؤمنون ـ أنْ لا تُخْرِجُوهن من منازل أزواجهن حولاً، كما قال تعالى ذِكْرُهُ في «سورة النساء» ﴿غَيْرَ مُضَارٍّ وَصِيَّةً مِنَ ٱللهِ﴾ [النساء:١٢]، ثم ترك ذكر: «كتب الله»، اكتفاءً بدلالةِ الكلامِ عليه، ورفعت «الوصية» بالمعنى الذي قلنا قبل.

وقـال بعضهم: إنَّ سُكنى حولٍ كامـل كان حقاً لأزواج المتوفَّين بعد موتهم ـ على ما قلنا ـ أوصَى بذلك أزواجهن لهن أو لم يوصوا لهن به، وأنّ ذلك نُسخ بما ذكرنا من الأربعة الأشهر والعَشْر والميراث.

وقال آخرون: كان ذلك يكون لهن بوصية من أزواجهن لهن به.

وقال آخرون: نَسخ ذلك ما كان لهن من المتاع إلى الحول، من غير تبيينه على أيٍّ وجهٍ كان ذلك لهن.

وقال آخرون: هذه الآية ثابتةُ الحكم، لم ينسخ منها شيء.

وأولى هذه الأقوال عندي في ذلك بالصواب أن يقال: إن الله تعالى ذِكْرُهُ كان جعل لأزواج مَنْ مات من الرجال بعد موتهم، سُكنى حولٍ في منزله،

ونفقتها في مال زوجها الميت إلى انقضاء السنة، ووَجَبَ على ورثةِ الميت أنْ لا يُخرجوهن قبل تمامِ الحولِ من المسكن الذي يَسْكُنَّهُ، وإنْ هن تركن حقهنّ من ذلك وخرجن، لم تكن ورثة الميت من خروجهن في حرج. ثم إن الله تعالى ذِكْرُهُ نَسَخَ النفقةَ بآيةِ الميراث، وأبطل ما كان جعل لهن من سكنى حول سبعة أشهر وعشرين ليلة، وردَّهن إلى أربعة أشهر وعشر، على لسانِ رسول الله ﷺ.

وأما قوله: «مَّتَاعاً»، فإنَّ معناه: جعل ذلك لهن متاعاً، أي الوصية التي كتبها الله لهنّ.

وقوله: «غَيْرَ إِخْرَاجٍ»، فإن معناه أنَّ الله تعالى ذِكْرُهُ جعل ما جعل لهن من الوصيةِ متاعاً منه لهنّ إلى الحول، لا إخراجاً من مسكن زوجها - يعني: لا إخراجَ فيه منه حتى ينقضي الحول. فنصب «غيْرَ» على النعت لِـ «المتاع»، كقول القائل: «هذا قيامٌ غير قعود»، بمعنى: هذا قيامٌ لا قعودَ معه، أو: لا قعودَ فيه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنفُسِهِنَّ مِن مَّعْرُوفٍ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٤٠﴾﴾

يعني تعالى ذِكْرُهُ بذلك: أنَّ المتاعَ الذي جعله الله لهنّ إلى الحول في مال أزواجهن بعد وفاتهم وفي مساكنهم، ونهى ورثته عن إخراجهن، إنما هو لهنَّ ما أقمنَ في مساكن أزواجهنَّ، وأن حقوقهن من ذلك تَبْطُلُ بخروجهنَّ إنْ خرجنَ من منازل أزواجهن قَبْلَ الحول من قِبَلِ أنفسهن، بغير إخراجٍ من ورثةِ الميت.

ثم أخبر تعالى ذِكْرُهُ: أنه لا حَرَجَ على أولياءِ الميتِ في خروجهن وتركهنّ

الحدادَ على أزواجهن. لأنَّ المقامَ حولا في بيوت أزواجهن والحدادَ عليه تمام حولٍ كامل، لم يكنْ فرضاً عليهنّ، وإنما كان ذلك إباحة من الله تعالى ذِكْرُهُ لهن إنْ أقمن تمامَ الحولِ مُحِدَّات. فأما إنْ خرجن، فلا جناح على أولياء الميت ولا عليهن فيما فعلن في أنفسهن من معروف، وذلك ترك الحداد. يقول: فلا حرج عليكم في التزيُّن إنْ تَزَيَّنَّ وتَطَيَّبْنَ وتزوجن، لأن ذلك لهن.

وإنما قلنا: «لا حرج عليهن في خروجهن»، وإن كان إنما قال تعالى ذِكْرُهُ: «فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ»، لأن ذلك لو كان عليهن فيه جناحٌ، لكان على أولياء الرجلِ فيه جناحٌ بتركهم إياهن والخروجَ، مع قدرتهم على مَنْعِهِنَّ من ذلك. ولكن لمّا لم يكن عليهن جناحٌ في خروجهن وترك الحداد، وُضِعَ عن أولياءِ الميتِ وغيرهم الحرجُ فيما فعلن من معروف، وذلك في أنفسهن.

وأما قوله: «وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ»، فإنه يعني تعالى ذِكْرُهُ: «وَٱللَّهُ عَزِيزٌ»، في انتقامهِ مِمَّنْ خالفَ أمرَهُ ونهيَهُ وتعدَّى حدودَهُ من الرجال والنساء، فمنع مَنْ كان من الرجال نساءَهم وأزواجهم ما فرض لهنّ عليهم في الآيات التي مضت قبلُ: من المتعة والصداق والوصية، وإخراجهن قبل انقضاء الحول، وترك المحافظة على الصلوات وأوقاتها، ومنع مَنْ كان من النساء ما ألزمهنّ الله من التربُّص عند وفاةِ أزواجهن عن الأزواجِ، وخالف أمره في المحافظة على أوقات الصلوات؛ «حَكِيمٌ» فيما قضى بين عباده من قضاياه التي قد تقدمت في الآيات قبل قوله: «وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ»، وفي غير ذلك من أحكامه وأقضيته.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ جَلَّ ذِكْرُه: وَلِلْمُطَلَّقَٰتِ مَتَٰعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٤١﴾

يعني تعالى ذِكْرُهُ بذلك: ولمن طُلِّق من النساء على مطلِّقها من الأزواج،

«مَتَاعٌ». يعني بذلك: ما تستمتعُ به من ثيابٍ وكسوة أو نفقة أو خادمٍ، وغير ذلك مما يستمتع به.

وقد اختلف أهل العلم في المعنية بهذه الآية من المطلَّقات.

والصواب من القول في ذلك أن الله تعالى ذِكْرُهُ أنزلها دليلاً لعباده على أنَّ لِكُلِّ مطلقةٍ متعة، لأن الله تعالى ذِكْرُهُ ذَكَرَ في سائر آي القرآن التي فيها ذكر متعة النساء، خصوصاً من النساء، فبيَّن في الآية التي قال فيها: ﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَاءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُواْ لَهُنَّ فَرِيضَةً﴾ [البقرة: ٢٣٦]، وفي قوله: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ ٱلْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ﴾[الأحزاب: ٤٩]، ما لهن من المتعة إذا طُلِّقْنَ قبل المسيس، وبقوله: ﴿يَاأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ إِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَاةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ﴾ [الأحزاب: ٢٨]، حُكْمَ المدخولِ بهن، وبقي حُكْمُ الصبايا إذا طُلِّقْنَ بعد الابتناءِ بهنّ، وحكمُ الكوافر والإماء. فَعَمَّ الله تعالى ذِكْرُهُ بقوله: «وَلِلْمُطَلَّقَاتِ مَتَاعٌ بِٱلْمَعْرُوفِ» ذكر جميعهن، وأخبر بأنَّ لهن المتاع، كما خصَّ المطلقات الموصوفات بصفاتهن في سائر آي القرآن، ولذلك كرر ذِكْرَ جميعهن في هذه الآية.

وأما قوله: ﴿حَقاً عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ﴾، فإنا قد بيَّنا معنى قوله: «حَقاً»، ووجهَ نَصْبِهِ، والاختلاف من أهل العربية فيه في قوله: ﴿حَقًّا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة: ٢٣٦]، ففي ذلك مستغنًى عن إعادته في هذا الموضع.

فأما «المتقون»: فهم الذين اتقوا الله في أمرِهِ ونهيِهِ وحدودِهِ، فقاموا بها على ما كلَّفهم القيامَ بها خشيةً منهم له، ووجلاً منهم من عقابه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٤٢﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: كما بَيَّنْتُ لكم ما يلزمكم لأزواجكم ويلزم أزواجكم لكم، أيها المؤمنون، وعرَّفتكم أحكامي والحقَّ الواجبَ لبعضِكم على بعضٍ في هذه الآيات، فكذلك أبيِّنُ لكم سائرَ الأحكام في آياتي التي أنزلتها على نبيِّي محمدٍ ﷺ في هذا الكتاب، لتعقلوا ـ أيها المؤمنون بي وبرسولي ـ حدودي، فتفهموا اللازم لكم من فرائضي، وتعرفوا بذلك ما فيه صلاحُ دينكم ودنياكم، وعاجلكم وآجلكم، فتعملوا به ليصلح ذات بينكم، وتنالوا به الجزيلَ من ثوابي في معادكم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُوا۟ ثُمَّ أَحْيَـٰهُمْ﴾

يعني تعالى ذِكْرُهُ: «أَلَمْ تَرَ»، ألم تعلم، يا محمد؟، وهو من «رؤية القلب» لا رؤية العين، لأن نبينا محمداً ﷺ لم يُدرك الذين أخبر الله عنهم هذا الخبر، و«رؤية القلب» ما رآه، علمه به. فمعنى ذلك: ألم تعلم يا محمد، الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف؟

ثم اختلف أهل التأويل في تأويل قوله: «وَهُمْ أُلُوفٌ».

فقال بعضهم: في العدد، بمعنى جِماع «ألف».

وقال آخرون: معنى قوله: «وَهُمْ أُلُوفٌ»، وهم مؤتلفون.

وأولى القولين في تأويل قوله: ﴿وَهُمْ أُلُوفٌ﴾ بالصواب، قولُ مَنْ قال: «عنى بالألوفِ كثرةَ العددِ» ـ دون قولِ مَنْ قال: «عنى به الائتلاف»، بمعنى ائتلاف قلوبهم، وأنهم خرجوا من ديارهم من غيرِ افتراقٍ كان منهم ولا تباغضٍ، ولكن فراراً: إمَّا مِنَ الجهادِ، وإما من الطاعون ـ لإجماع الحجة على أن ذلك تأويل الآية، ولا يعارَض بالقول الشاذ ما استفاض به القول من

الصحابة والتابعين.

وأولى الأقوال ـ في مبلغ عدد القوم الذين وصف الله خروجهم من ديارهم ـ بالصواب، قولُ مَنْ حدَّ عددهم بزيادة عن عشرة آلاف، دونَ مَنْ حَدَّهُ بأربعة آلاف، وثلاثة آلاف، وثمانية آلاف. وذلك أن الله تعالى ذِكْرُهُ أخبر عنهم أنهم كانوا ألوفاً، وما دون العشرة آلاف لا يقال لهم: «ألوف». وإنما يقال «هم آلاف»، إذا كانوا ثلاثةَ آلافٍ فصاعداً إلى العشرة آلاف، وغير جائز أن يقال هم خمسة ألوف، أو عشرة ألوف.

وأما قوله: «حَذَرَ ٱلْمَوْتِ»، فإنه يعني أنهم خرجوا من حَذَرِ الموت، فراراً منه.

وإنما حَثَّ الله تعالى ذِكْرُهُ عبادَه بهذه الآية، على المواظبة على الجهادِ في سبيله، والصبرِ على قتالِ أعداء دينه. وشَجَّعَهُم بإعلامه إياهم وتذكيره لهم، أنَّ الإماتةَ والإحياءَ بيديه وإليه، دون خلقه ـ وأنّ الفرارَ من القتال والهربَ من الجهاد ولقاء الأعداء، إلى التحصُّن في الحصون، والاختباء في المنازل والدور، غيرُ مُنْجٍ أحداً من قضائه إذا حَلَّ بساحته، ولا دافعٍ عنه أسبابَ منيته إذا نزل بعَقْوته[1]، كما لم ينفع الهاربين من الطاعون ـ الذين وصف الله تعالى ذِكْرُهُ صِفَتَهُم في قوله: «أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ» فرارُهم من أوطانهم، وانتقالهم من منازلهم إلى الموضع الذي أمَّلوا بالمصير إليه السلامةَ، وبالموئل النجاةَ من المنية، حتى أتاهم أمرُ الله فتركهم جميعاً خموداً صرعى، وفي الأرض هَلْكَى، ونجا مما حلّ بهم الذين باشروا كَرْبَ الوباء، وخالطوا بأنفسهم عظيمَ البلاء.

---

(١) عقوةُ الدار: ساحتها وما حولها قريباً منها. يقال: نزل بعقوته، ونزلت الخيلُ بعقوة العدو.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٢٤٣﴾﴾

يعني تعالى ذِكْرُهُ بذلك: إن الله لذو فضل ومَنٍّ على خلقه، بتبصيرهِ إياهم سبيلَ الهدى، وتحذيرِه لهم طريقَ الرَّدَى، وغير ذلك من نعمهِ التي يُنْعمها عليهم في دنياهم ودينهم، وأنفسهم وأموالهم - كما أحيا الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوفٌ حَذَرَ الموتِ بعد إماتته إياهم، وجعلهم لخلقه مثلاً وعِظةً يتعظون بهم، وعبرة يعتبرون بهم، وليعلموا أن الأمور كلها بيده، فيستسلموا لقضائهِ، ويصرفوا الرغبة كلها والرهبة إليه.

ثم أخبر تعالى ذِكْرُهُ أنَّ أكثرَ مَنْ يُنعم عليه من عباده بنعمه الجليلة، ويَمُنُّ عليه بمننه الجسيمة، يكفُر به ويصرف الرغبة والرهبة إلى غيره، ويتخذ إلهاً من دونه، كفراناً منه لنِعَمِهِ التي يُوجِبُ أصغرُها عليه من الشكر ما يفدَحُه، ومن الحمدِ ما يُثقله، فقال تعالى ذِكْرُهُ: «وَلَكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ»، يقول: لا يشكرون نعمَتي التي أنعمتها عليهم، وفضلي الذي تفضَّلتُ به عليهم، بعبادتهم غيري، وصرفهم رغبتهم ورهبتهم إلى مَنْ دوني مِمَّنْ لا يملكُ لهم ضَراً ولا نفعاً، ولا يملكُ موتاً ولا حياةً ولا نُشوراً.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٤﴾﴾

يعني تعالى ذِكْرُهُ بذلك: وقاتلوا ، أيها المؤمنون «فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ»، يعني: في دينه الذي هداكم له، لا في طاعة الشيطان - أعداءَ دينكم، الصادِّينَ عن سبيلِ ربِّكم، ولاتحتموا عن قتالهم عند لقائهم، ولا تَجْبُنُوا عن حربهم، فإنَّ بيدي حياتكم وموتكم، ولا يمنعنَّ أحدَكُم من لقائهم وقتالهم حَذَرُ الموت

وخـوفُ المنيةِ على نفسه بقتالهم، فيدعوه ذلك إلى التَّعْريد [١] عنهم والفرار منهم، فتذلوا، ويأتيكم الموتُ الذي خِفْتُموه في مأمنكم الذي وَأَلْتُمْ [٢] إليه، كمـا أتى الذين خرجوا من ديارهم فراراً من الموت، الذين قصصتُ عليكم قصتهم، فلم يُنْجِهم فرارُهم منه من نزولِهِ بهم حين جاءهم أمري، وحَلَّ بهم قضـائي؛ ولا ضَرَّ المتخلِّفين وراءهم ما كانـوا لم يحذروه، إذ دافعت عنهم مناياهم، وصرفتُها عن حوبائهم [٣]، فقاتِلُوا في سبيلِ الله مَنْ أمرتكم بقتالِهِ من أعدائي وأعداء ديني، فإنّ من حَيِيَ منكم فأنا أحْيَيْتُهُ، ومَنْ قُتِلَ منكم فبقضائي كان قتلُه.

ثم قال تعالى ذِكْرُهُ لهم: واعلموا، أيها المؤمنون، أنَّ ربَّكم «سَمِيعٌ» لقول مَنْ يقول من منافقيكم لمن قُتِلَ منكم في سبيلي: لو أطاعونا فجلسوا في منـازلهم ما قُتِلُوا؛ «عَلِيمٌ» بما تجنُّهُ صدورهم من النفاق والكفر وقلة الشكر لنعمتي عليهم، وآلائي لديهم في أنفسهم وأهليهم، ولغير ذلك من أمورهم وأمور عبادي.

يقول تعالى ذِكْرُهُ لعباده المؤمنين: فاشكروني أنتم بطاعتي فيما أمَرْتُكُمْ من جهادِ عدوكم في سبيلي، وغير ذلك من أمرِي ونهيي، إذ كَفَرَ هؤلاء نِعَمِي. واعلموا أنَّ الله سميعٌ لقولهم، وعليمٌ بهم وبغيرهم وبما هُم عليه مقيمون من الإيمـان والكفـر، والـطاعة والمعصية، محيطٌ بذلك كله، حتى أجازي كلاً بعمله، إنْ خيراً فخيراً، وإنْ شراً فشراً.

---

(١) التعريد: الفرار وسرعة الذهاب في الهزيمة. يقال: عرد الرجل عن قرنه: إذا أحجم عنه ونكل وفرّ.

(٢) وأل إلى المكان يَئِلُ: لجأ إليه طلب النجاة، والموئل: الملجأ.

(٣) الحوباء: النفس، أو روع القلب.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾

يعني تعالى ذِكْرُهُ بذلك: من هذا الذي ينفق في سبيل الله، فيُعين مُضعِفاً. أو يُقوِّي ذا فاقةٍ أراد الجهادَ في سبيل الله، ويُعْطِي منهم مقتراً؟ وذلك هو القرض الحسن الذي يقرض العبدُ ربَّه.

وإنما سماه الله تعالى ذِكْرُهُ «قَرْضاً»، لأن معنى «القرض» إعطاء الرجلِ غيرَهُ مالَهُ مملَّكاً له، ليقضيه مِثْلَهُ إذا اقتضاه. فلما كان إعطاءُ مَنْ أعطى أهلَ الحاجة والفاقة في سبيل الله، إنما يُعطيهم ما يُعطيهم من ذلك ابتغاءَ ما وَعَدَهُ الله عليه من جزيلِ الثوابِ عنده يوم القيامة، سماه «قَرْضاً»، إذ كان معنى «القرض» في لغة العرب ما وصفنا.

وإنما جعله تعالى ذِكْرُهُ «حسناً»، لأنَّ المُعْطِي يُعطي ذلك عن نَدْبِ الله إياهُ وحثِّهِ له عليه، احتساباً منه، فهو لله طاعة، وللشيطان معصية. وليس ذلك لحاجة بالله إلى أحدٍ من خلقه، ولكن ذلك كقول العرب: «عندي لك قَرْضُ صِدْق، وقَرْضُ سَوْءٍ»، للأمر تأتي فيه للرجل مسرَّته أو مساءته.

فقرض المرء: ما سلف من صالحِ عمله أو سَيِّئه. وهذه الآية نظيرة الآية التي قال فيها تعالى ذِكْرُهُ: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِئَةُ حَبَّةٍ وَٱللهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَٱللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦١].

وأما قوله: «فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافاً كَثِيرَةً»، فإنه عِدَةٌ من الله تعالى ذِكْرُهُ مُقرِضَهُ ومنفقَ مالِهِ في سبيل الله من إضعافِ الجزاءِ له على قرضِهِ ونفقتِهِ، ما لاحَدَّ له ولا نهاية.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَٱللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُۜطُ﴾

يعني تعالى ذِكْرُهُ بذلك: أنه الذي بيده قبضُ أرزاقِ العبادِ وبَسْطها، دونَ غيرِهِ ممن ادّعى أهلُ الشرك به أنهم آلهة، واتخذوه رَباً دونه يعبدونه.

وإنما أراد تعالى ذِكْرُهُ بقِيلِه ذلك، حَثَّ عبادِه المؤمنين ـ الذين قد بسَط عليهم من فضله، فوسَّع عليهم من رزقه ـ على تقويةِ ذوي الإقتار منهم بماله، ومعـونتـه بالإنفاق عليه وحمولته على النهوض لقتالِ عدوه من المشركين في سبيله، فقال تعالى ذِكْرُهُ: مَنْ يقدِّم لنفسه ذُخراً عندي بإعطائه ضُعَفاءَ المؤمنين وأهل الحاجةِ منهم ما يستعينُ به على القتالِ في سبيلي، فأضاعف له من ثوابي أضعافاً كثيرةً مما أعطاهُ وقوَّاه به؟ فإني ـ أيها الموسع ـ الذي قبضتُ الرزقَ عَمَّنْ نَدَبْتُكَ إلى معونتهِ وإعطائهِ، لأبتليه بالصبرِ على ما ابتليته به ـ والذي بسطتُ عليكَ لأمتحنَـكَ بعملكَ فيما بسطتُ عليك، فأنظر كيف طاعتكَ إيايَ فيه، فأجازي كل واحدٍ منكما على قدر طاعتكما فيما ابْتَلَيْتُكُما فيه وامْتَحَنْتُكُما به، من غنىً وفاقة، وسَعَةٍ وضيق، عند رجوعكما إليَّ في آخرتكما، ومصيركما إليَّ في معادكما.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ۝٢٤٥﴾

يعني تعالى ذِكْرُهُ بذلك: وإلى الله معادكم، أيها الناسُ، فاتقوا الله في أنفسكم أنْ تُضيعوا فرائضه وتتعدَّوا حدوده، وأن يعمل مَنْ بُسِطَ عليه منكم في رزقهِ بغير ما أَذِنَ له بالعملِ فيه رَبُّه، وأن يحمل المقتر منكم ـ إذ قبضَ عنه رزقه ـ إقتارُه على معصيته والتقدّم على ما نهاه، فيستوجب بذلك عند مصيره إلى خالقه، ما لا قِبَلَ له به من أليم عقابه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلْمَلَإِ مِنۢ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰٓ إِذْ قَالُواْ لِنَبِيٍّ لَّهُمُ ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَٰتِلْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾

يعني تعالى ذِكْرُهُ بقوله: «أَلَمْ تَرَ»، ألم تر، يا محمد، بقلبك، فتعلم بخبري إياك، يا محمد. «إِلَى ٱلْمَلأ»، يعني: إلى وجوه بني إسرائيل وأشرافهم ورؤسائهم. «مِن بَعْدِ مُوسَى»، يقول: من بعد ما قُبض موسى فمات. «إِذْ قَالُواْ لِنَبِيٍّ لَّهُمُ ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَاتِلْ فِي سَبِيلِ ٱللهِ».

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ أَلَّا تُقَٰتِلُواْ ۖ قَالُواْ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبْنَآئِنَا ۖ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ تَوَلَّوْاْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٤٦﴾﴾

يعني تعالى ذِكْرُهُ بذلك: قال النبيُّ الذي سألوه أن يبعث لهم مَلِكاً يقاتلوا في سبيل الله: «هَلْ عَسَيْتُمْ»، هل تَعِدُونَ «إِن كُتِبَ»، يعني: إنْ فُرض عليكم القتال «أَلَّا تُقَاتِلُواْ»، يعني: أن لا تَفُوا بما تَعِدون الله من أنفسكم، من الجهاد في سبيله، فإنكم أهلُ نَكْثٍ وغدْرٍ وقلَّةِ وفاء بما تَعِدُون؟ «قَالُواْ وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ ٱللهِ»، يعني: قال الملأ من بني إسرائيل لنبيهم ذلك: وأيّ شيء يمنعنا أنْ لا نقاتلَ في سبيل الله عدوَّنا وعدوَّ الله. «وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا»، بالقهرِ والغلبة؟

وأما تأويل قوله: «وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا»، فإنه يعني: وقد أُخْرِجَ مَنْ غُلِبَ عليه من رجالنا ونسائنا من ديارهم وأولادهم، ومن سُبي. وهذا الكلام ظاهره العموم وباطنه الخصوص، لأن الذين قالوا لنبيهم: «ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَاتِلْ

فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ»، كانوا في ديارهم وأوطانهم، وإنما كان أخرج من داره وولده من أُسِر وقُهر منهم.

وأما قوله: «فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ تَوَلَّوْاْ إِلَّا قَلِيلاً مِّنْهُمْ»، يقول: فلّما فُرِضَ عليهم قتالُ عدوهم والجهادُ في سبيله «تَوَلَّوْاْ إِلَّا قَلِيلاً مِّنْهُمْ»، يقول: أدبروا مولِّين عن القتال، وضَيَّعُوا ما سألوه نَبِيَّهم من فرضِ الجهاد.

والقليل الذين استثناهم الله منهم، هم الذين عبروا النهر مع طالوت.

يقول الله تعالى ذِكْرُهُ: «وَٱللَّهُ عَلِيمٌ بِٱلظَّالِمِينَ»، يعني: والله ذو عِلْمٍ بمن ظلم منهم نفسَهُ، فأخلفَ الله ما وعَدَهُ من نفسِه، وخالف أمرَ ربه فيما سأله ابتداءً أن يوجبه عليه.

وهذا من الله تعالى ذِكْرُهُ تقريعٌ لليهود الذين كانوا بين ظهرانَيْ مُهاجَرِ رسولِ الله ﷺ، في تكذيبهم نَبِيَّنا محمداً ﷺ، ومخالفتهم أمرَ ربهم. يقول الله تعالى ذِكْرُهُ لهم: إنكم، يا معشرَ اليهود، عصيتمُ الله وخالفتم أمرَهُ فيما سألتموه أن يفرضه عليكم ابتداء، من غير أنْ يبدِئَكُم ربكم بفرضٍ ما عصيتموه فيه، فأنتم بمعصيته ـ فيما ابتدأكم به من إلزام فرضه ـ أحرى.

وفي هذا الكلام متروك قد استُغني بذكر ما ذكر عما ترك منه. وذلك أن معنى الكلام: «قالوا: وما لنا ألا نقاتلَ في سبيل الله وقد أُخرجنا من ديارنا وأبنائنا» ـ فسأل نبيُّهم ربَّهم أنْ يبعث لهم ملكاً يقاتلون معه في سبيل الله، فبعث لهم ملكاً، وكتب عليهم القتال ـ «فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ تَوَلَّوْاْ إِلَّا قَلِيلاً مِّنْهُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ بِٱلظَّالِمِينَ».

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكاً قَالُوٓاْ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِ

يعني تعالى ذِكْرُهُ بذلك: وقال للملأ من بني إسرائيل نبيُّهم شمويل: إن الله قد أعطاكم ما سألتم، وبعثَ لكم طالوتَ ملكاً. فلما قال لهم نبيهم شمويل ذلك، قالوا: أنّى يكونُ لطالوتَ المُلْكُ علينا، وهو من سبطِ بنيامين بن يعقوب - وسبط بنيامين سبطٌ لا مُلْكَ فيهم ولا نبوَّة - ونحنُ أحَقُّ بالمُلْكِ منه لأنَّا من سبط يهوذا بن يعقوب، «وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِ»، يعني: ولم يؤت طالوتُ كثيراً من المال، لأنه سَقَّاء، وقيل: كان دبَّاغاً.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ

يعني تعالى ذِكْرُهُ بقوله: «إِنَّ ٱللهَ ٱصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ»، قال نبيُّهم شمويل لهم: «إِنَّ ٱللهَ ٱصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ»، يعني: اختاره عليكم.

وأما قوله: «وزاده بسطةً في العلم والجسم»، فإنه يعني بذلك أن الله بسَط له في العلم والجسم، وآتاه من العلم فضلاً على ما آتى غيره من الذين خُوطبوا بهذا الخطاب، وذلك أنه ذكر أنه أتاه وحي من الله، وأما «في الجسم»، فإنه أُوتيَ من الزيادةِ في طوله عليهم ما لم يُؤْته غيرُه منهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَٱللَّهُ يُؤْتِى مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٧﴾

يعني تعالى ذكره بذلك: إن الملك لله وبيده دون غيره، «يؤتيه»، يقول: يُؤتِي ذلك مَنْ يشاء، فيضعه عنده ويخصهُ به، ويمنحه[1] مَنْ أحبَّ من خَلقه.

---

(١) في المطبوعة «ويمنحه»، وفي المخطوطة: «يمنعه».

يقول: فلا تستنكروا، يامعشر الملأ من بني إسرائيل، أن يبعث الله طالوتَ ملكاً عليكم، وإنْ لم يَكُنْ من أهل بيتِ المملكة، فإنَّ الملك ليس بميراثٍ عن الآباء والأسلاف، ولكنه بيَدِ الله يُعطيه مَنْ يشاء من خلقه، فلا تتخيَّروا على الله.

وأما قوله: «والله واسعٌ عليم»، فإنه يعني بذلك: «والله واسع» بفضله فَيُنْعِمُ به على مَنْ أحَبَّ، ويزيد فيه من يشاء. «عليم» بمن هو أهلٌ لِمُلْكِهِ الذي يؤتيه، وفَضْلِهِ الذي يُعطِيه، فيعطيه ذلك لعلمه به، وبأنه لِمَا أعطاهُ أَهْلٌ: إما للإصلاحِ به، وإما لأن ينتفع هو به.

القَوْلُ فِي تَأْوِيل قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ﴾

وهذا الخبر من الله تعالى ذكره عن نَبِيِّهِ الذي أخبر عنه به، دليلٌ على أنَّ الملأ من بني إسرائيل الذين قيل لهم هذا القولُ، لم يُقِرُّوا ببعثةِ الله طالوتَ عليهم ملكاً إذْ أخبرهم نبيهم بذلك، وعَرَّفهم فضيلتَهُ التي فضَّلَهُ الله بها، ولكنهم سألوه الدِّلالةَ على صِدْقِ ما قالَ لهم من ذلك وأخبرهم به. فتأويلُ الكلام، إذْ كان الأمرُ على ما وصفنا: «واللهُ يُوتي مُلْكَهُ مَنْ يشاءُ واللهُ واسعٌ عليم»، فقالوا له: ما آيةُ ذلك إنْ كنتَ من الصادقين؟ «قال لهم نبيهم إنَّ آيَةَ مُلكه أنْ يأتيكم التابوت».

وهذه القصة وإنْ كانتْ خبراً من الله تعالى ذكره عن الملأ من بني إسرائيل ونَبيِّهِم، وما كان من ابتدائهم نبيهم بما ابتدأوا به من مسألته أنْ يسأل الله لهم أن يبعث لهم ملكاً يقاتلون معه في سبيله، ونَبَأً عما كان منهم مِنْ تَكذِيبهم نبيهم بعد عِلْمِهم بنبوتِهِ، ثم إخلافهم الموعدَ الذي وعدوا الله ووعدوا

رسوله، من الجهادِ في سبيل الله، بالتخلُّفِ عنه حين استُنْهِضُوا لحربِ من اسْتُنْهِضُوا لحربهِ، وفتح الله على القليلِ من الفئة، مع تخذيلِ الكثير منهم عن ملكهم وقعودهم عن الجهاد معه فإنه تأديبٌ لمن كان بين ظهراني مُهاجَرِ رسولِ الله ﷺ من ذراريهم وأبنائهم يهود قُرَيظة والنضير، وأنهم لن يَعْدُوا في تكذيبهم محمداً ﷺ فيما أمرهم به ونهاهم عنه ـ مع عِلْمِهم بصدقهِ، ومعرفتهم بحقيقةِ نُبُوَّتِهِ، بعد ما كانوا يستنصرون الله به على أعدائهم قبل رسالته، وقبل بِعْثَةِ الله إياه إليهم وإلى غيرهم أن يكونوا كأسلافهم وأوائلهم الذين كذبوا نبيهم شمويل بن بالي، مع عِلْمِهم بصدقهِ، ومعرفتهم بحقية نبوته، وامتناعهم من الجهاد مع طالوت لمّا ابتعثه الله ملكاً عليهم، بعد مسألتهم نبيَّهم ابتعاثَ ملكٍ يقاتلون معه عَدُوَّهم ويجاهدونَ معه في سبيل ربهم، ابتداءً منهم بذلك نبيَّهم، وبعد مراجعة نبيهم شمويل إياهم في ذلك؛ وحَضٌّ لأهلِ الإيمان بالله وبرسوله من أصحاب محمد ﷺ على الجهادِ في سبيله، وتحذيرٌ منه لهم أن يكونوا في التخلف عن نبيهم محمد ﷺ عند لقائه العدو، ومناهضته أهل الكفر بالله وبه، على مِثْلِ الذي كان عليه الملأُ من بني إسرائيل في تخلفهم عن ملكهم طالوت إذْ زحفَ لحربِ عدوِّ الله جالوت، وإيثارهم الدَّعَةَ والخفض على مباشرة حَرِّ الجهاد والقتال في سبيل الله؛ وشحذٌ منه لهم على الإقدامِ على مناجزةِ أهلِ الكفرِ به الحربَ، وترك تهيُّبِ قتالهم أنْ قلَّ عَدَدُهم وكَثُرَ عَدَدُ أعدائِهم واشتدت شوكتهم بقوله: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَاقُو ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٤٩]، وإعلامٌ منه تعالى ذِكْرُه عبادَه المؤمنين به أنَّ بيدهِ النصر والظفر والخير والشر.

وأما تأويل قوله: «قال لهم نبيهم»، فإنه يعني: للملأ من بني إسرائيل الذين قالوا لنبيهم: «ابعث لنا ملكاً نقاتل في سبيل الله».

وقوله: «إنَّ آيةَ مُلْكِه»، إنَّ علامةَ مُلْكِ طالوتَ التي سألتُمونيها دلالةً،

على صدقي في قولي: إن الله بعثه عليكم ملكاً، وإنّ كان من غير سبط المملكة: «أنْ يأتيكمُ التابوتُ فيه سكينةٌ من ربكم»، وهو التابوتُ الذي كانت بنو إسرائيل إذا لَقُوا عدوًّا لهم قَدَّمُوه أمامهم، وزحفوا معه، فلا يقومُ لهم معهم عدوٌّ، ولا يظهر عليهم أحدٌ ناوأَهُم، حتى ضَيَّعُوا أمرَ الله، وكَثُرَ اختلافهم على أنبيائهم، فسلبهمُ اللهُ إياه مرةً بعد مرة، يردُّه إليهم في كل ذلك، حتى سلبهم آخرَها مرةً فلم يردّه عليهم، ولن يردَّه إليهم آخر الأبد.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾

يعني تعالى ذكره بقوله: «فيه»، في التابوت «سكينة من ربكم».

واختلف أهل التأويل في معنى «السكينة».

وأولى الأقوالِ بالحقِّ في معنى «السكينة»: من الشيء تسكنُ إليه النفوسُ من الآياتِ التي يعرفونها. وذلك أن «السكينةَ» في كلامِ العرب **«الفعيلة»**، من قول القائل: «سكن فلان إلى كذا وكذا» إذا اطمأنَّ إليه وهدأتْ عنده نفسه «فهو يسكن سكوناً وسَكينة»، مثل قولك: «عزم فلان على هذا الأمر عزماً وعزيمة»، و«قضى الحاكم بين القوم قضاءً وقضية».

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ﴾

يعني تعالى ذكره بقوله: «وبقية»، الشيء الباقي، من قولِ القائل: «قد بقيَ من هذا الأمرِ بقية»، وهي **«فعيلة»** منه، نظيرُ «السكينة» من «سكن».

وقوله: «مما تَرَكَ آلُ موسى وآل هرون»، يعني به: من تَرِكَةِ آلِ موسى وآل هرون.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿تَحۡمِلُهُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُۚ﴾

اختلف أهلُ التأويل في صفة حمل الملائكة ذلك التابوت.

فقال بعضهم: معنى ذلك: تحمله بين السماء والأرض، حتى تضعه بين أظهُرِهم.

وقال آخرون: معنى ذلك: تسوق الملائكة الدوابَّ التي تحمله.

وأولى القولين في ذلك بالصواب قولُ مَنْ قال: «حملت التابوتَ الملائكةُ حتى وضعته لها في دار طالوت قائماً بين أظهر بني إسرائيل». وذلك أنَّ الله تعالى ذِكْرُه قال: «تحمله الملائكة»، ولم يقل: تأتي به الملائكة. وما جرَّته البقرُ على عجَل، وإنْ كانت الملائكة هي سائقتُها، فهي غيرُ حاملته. لأنَّ «الحمل» المعروف، هو مباشرةُ الحاملِ بنفسِه حَمْلَ ماحَمَلَ، فأما ما حمله على غيره، وإنْ كان جائزاً في اللغة أن يقال «حَمله» بمعنى: معونته الحامل، وبأن حَمله كان عن سببه، فليس سبيلُه سبيلَ ما باشر حَمْله بنفسه، في تعارفِ النـاسِ إياهُ بينهم. وتوجيهُ تأويلِ القرآنِ إلى الأشْهرِ من اللغاتِ، أولى من توجيههِ إلى الأنكَرِ، ماوُجِدَ إلى ذلك سبيلٌ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لَّكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ٢٤٨﴾

يعني تعـالى ذكـره بذلك: أنَّ نَبِيَّهُ شمويل قال لبني إسرائيل: إن في مجيئكم التابوتُ فيه سكينةٌ من رَبِّكُم وبقيةٌ مما تَرِكَ آلُ موسى وآلُ هرون حاملته الملائكة «لآيةً لكم»، يعني: لعلامةً لكم ودلالة، أيها الناس، على صِدْقي فيمـا أخبرتُكم: أنّ الله بعث لكم طالوتَ ملكاً، أنْ كنتم قد كذَّبتموني فيما

أخبرتُكم به من تمليكِ الله إياهُ عليكم، واتَّهمتُموني في خبري إياكم بذلك «إن كنتم مؤمنين»، يعني بذلك: إنْ كنتم مصدقيَّ عند مجيء الآية التي سألتمونيها على صدقي فيما أخبرتكم به من أمر طالوت ومُلْكه.

وإنما قلنا ذلك معناه، لأنَّ القومَ قد كانوا كفروا بالله في تكذيبهم نبيَّهم وردِّهم عليه قولَهُ: «إنَّ الله قد بعث لكم طالوت ملكاً»، بقولِهم: «أنىَّ يكونُ له المُلْكُ علينا ونحنُ أحَقُّ بالمُلْكِ منه»، وفي مسألتِهم إياهُ الآيةَ على صِدْقهِ. فإذْ كان ذلك منهم كفراً، فغيرُ جائزٍ أن يقال لهم وهم كفارٌ: لكم في مجيء التابوتِ آيةٌ إنْ كنتم من أهلِ الإيمان بالله ورسوله: وليسوا من أهل الإيمان بالله ولا برسوله. ولكن الأمرَ في ذلك على ما وصفنا من معناه، لأنهم سألوا الآيةَ على صِدْقِ خبرهِ إياهم ليقرُّوا بصدقه، فقال لهم: في مجيء التابوت - على ماوصفه لهم - آيةٌ لكم إنْ كنتم عند مجيئهِ كذلك مصدقيَّ بما قلتُ لكم وأخبرتكم به.

القوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: **فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ ۚ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۚ**

وفي هذا الخبر من الله تعالى ذكره، متروك قد استُغني بدلالة ماذكر عليه عن ذكره. ومعنى الكلام: «إنَّ في ذلك لآيةً لكم إنْ كنتم مؤمنين»، فأتاهم التابوتُ فيه سكينةٌ من ربهم وبقيةٌ مما ترك آلُ موسى وآلُ هرون تحمله الملائكة، فصدَّقوا عند ذلك نَبِيَّهم وأقرُّوا بأنَّ الله قد بعث طالوت ملكاً عليهم، وأذعنوا له بذلك. يدل على ذلك قوله: «فلما فصَل طالوتُ بالجنود». وما كان ليفصل بهم إلا بعد رِضَاهم به وتسليمهم المُلْكَ له، لأنه لم يكن ممن يقدرُ

على إكراههم على ذلك، فيظنّ به أنه حملهم على ذلك كرهاً.

وأما قوله: «فصَل» فإنه يعني به: شَخَصَ بالجُنْدِ ورَحَلَ بهم.

قال أبو جعفر: فلما فصَل بهم طالوت على ما وصفنا، قال: «إن الله مُبْتَلِيكم بنهَر»، يقول: إنَّ اللهَ مُخْتَبِركم بنهر، ليعلمَ كيف طاعتكم له.

وأما قوله: «فمن شرب منهُ فليس مني ومَنْ لم يَطْعَمْهُ فإنه مني إلاَّ مَنِ اغترفَ غرْفةً بيده فشربوا منه إلاّ قليلاً منهم» فإنه خبرٌ من الله تعالى ذكره عن طالوتَ بما قال لجنوده، إذْ شكوا إليه العطشَ، فأخبرهم أنّ الله مبتليهم بنهر، ثم أعلمهم أنَّ الابتلاءَ الذي أخبرهم عن الله به من ذلك النهر، هو أنّ مَنْ شربَ من مائه فليس هو منه، يعني بذلك: أنه ليس من أهلِ وَلايتهِ وطاعتهِ، ولا من المؤمنين بالله وبلقائه. ويدلُّ على أنَّ ذلك كذلك قولُ الله تعالى ذِكْرُه: ﴿فَلَمَّا جَاوزَه هُوَ وَٱلذِينَ آمَنوا مَعَه﴾، فأخرج مَنْ لم يجاوز النهر من الذين آمنوا، ثم أخلصَ ذكر المؤمنين بالله ولقائه عند دُنُوِّهم من جالوتَ وجنوده بقوله: ﴿قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلاَقُوا ٱللهِ كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ ٱللهِ﴾، وأخبرهم أنه مَنْ لم يَطْعَمْهُ، يعني: مَنْ لم يطعم الماء من ذلك النهر. «والهاء» في قوله: «فمن شرب منه»، وفي قوله: «ومن لم يطعمه»، عائدة على «النهر»، والمعنى لمائه. وإنما ترك ذكر «الماء» اكتفاءً بفهمِ السامعِ بذكر النهر لذلك: أنّ المراد به الماء الذي فيه.

ومعنى قوله: «لم يطعمه»، لم يَذُقْهُ، يعني: ومَنْ لم يذق ماءَ ذلك النهر فهو منّي، يقول: هو من أهل ولايتي وطاعتي، والمؤمنين بالله وبلقائه، ثم استثنى مِن «مَنْ» في قوله: «ومن لم يطعمه»، المغترفينَ بأيديهم غرفةً، فقال: ومن لم يَطْعَمْ ماءَ ذلك النهر. إلا غرفةً يغترفها بيده، فإنه مني.

ثم اختلفت القَرَأَةُ في قراءة قوله: «إلا مَنِ اغترفَ غرفةً بيده».

فقـرأه عامـةُ قَرَأَةِ أهلِ المدينة والبصرة: ﴿غَرْفَةً﴾ بنصب «الغين» من «الغـرفة» بمعنى الغَرفة الواحدة، من قولك، «اغترفت غَرفة»، و«الغرفة» هي الفعل بعينه من «الاغتراف».

وقـرأه آخـرون بالضم، بمعنى المـاء الـذي يصيرُ في كف المغترف. فـ «الغُرفة» «الاسم»، و«الغَرفة» المصدر.

وأعجب القراءتين في ذلك إليَّ، ضم «الغين» في «الغُرفة»، بمعنى: إلا من اغترف كفاً من ماء لاختلاف «غرفة» إذا فتحت غينها، وما هي له مصدر. وذلك أنّ مصدر «اغترف»، «اغترافة»، وإنما «غَرفة» مصدر: «غرفت». فلما كانت «غَرْفة» مخالفة مصدر «اغترف»، كانت «الغُرفة» التي بمعنى الاسم على ما قد وصفنا، أشبه منها بـ«الغَرفة» التي هي بمعنى الفعل.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: فَلَمَّا جَاوَزَهُۥ هُوَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ قَالُواْ لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦۚ

يعني تعـالى ذكره بقوله: «فلما جاوَزَهُ هو»، فلما جاوز النهرَ طالوتُ. «والهـاء» في «جاوزه» عائدة على «النهر»، و«هو» كناية اسم طالوت، وقوله: «والذين آمنوا معه»، يعني: وجاوز النهرَ معه الذين آمنوا، قالوا: لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده.

وقد جاوز النهر مع طالوت المؤمنُ الذي لم يشربْ من النهر إلّا الغرفة، والكافرُ الذي شرب منه الكثير. ثم وقَع التمييز بينهم بعد ذلك برؤية جالوت ولقائِه، وانخزَل عنه أهلُ الشرك والنفاق وهم الذين قالوا: «لا طاقةَ لنا اليوم بجـالـوتَ وجنوده»، ومضى أهلُ البصيرة بأمرِ الله على بصائرهم، وهم أهلُ

الثباتِ على الإيمان، فقالوا: «كم من فئةٍ قليلةٍ غَلبتْ فئةً كثيرةً بإذن الله والله مع الصابرين».

فإنْ ظَنَّ ذو غفلةٍ أنه غير جائز أن يكون جاوز النهرَ مع طالوت إلا أهلُ الإيمان الذين ثبتوا معه على إيمانهم، ومَنْ لم يشرب منَ النهر إلا الغرفة، لأن الله تعالى ذكره قال: «فلما جاوَزه هو والذين آمنوا معه»، فكان معلوماً أنه لم يجاوز معه إلا أهلُ الإيمان، لأن أهلَ الكفر لو كانوا جاوزوا النهرَ كما جاوزه أهلُ الإيمان، لما خص الله بالذكر في ذلك أهل الإيمان فإن الأمر في ذلك بخلاف ماظن، وذلك أنه غير مستنكر أن يكون الفريقان ـ أعني فريقَ الإيمان وفريقَ الكفر ـ جاوزوا النهر. وأخبر الله نبيه محمداً ﷺ عن المؤمنين بالمجاوزة، لأنهم كانوا من الذين جاوزوه مع ملكهم، وترَكَ ذِكْرَ أهلِ الكفر، وإن كانوا قد جاوزوا النهر مع المؤمنين.

والذي يدل على صحة ما قلنا في ذلك، قول الله تعالى ذكره: «فلما جاوزَه هو والذين آمنوا معه قالوا: لا طاقةَ لنا اليوم بجالوتَ وجنوده قال الذين يظنون أنهم مُلاقُو الله كم مَنْ فئةٍ قليلةٍ غلبت فئةً كثيرة بإذن الله»، فأوجب الله تعالى ذكره أن «الذين يظنون أنهم ملاقو الله»، هم الذين قالوا: عند مجاوزة النهر: «كم من فئةٍ قليلةٍ غلبتْ فئةً كثيرة بإذن الله»، دون غيرهم الذين لا يظنون أنهم ملاقو الله ـ وأنَّ الذين لا يظنون أنهم ملاقو الله، هم الذين قالوا: «لا طاقةَ لنا اليوم بجالوتَ وجنوده». وغيرُ جائز أنْ يضافَ الإيمانُ إلى مَنْ جحد أنه ملاقي الله، أو شَكَّ فيه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَالُواْ لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦۚ قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ٢٤٩﴾

اختلف أهلُ التأويل في أمر هذين الفريقين؛ أعني القائلين: «لا طاقةَ لنا اليوم بجالوت وجنوده»، والقائلين: «كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله»، مَنْ هما؟

والأولى بالصواب أنهم أهلُ كفرٍ بالله ونفاق، وليسوا مِمَّنْ شهدَ قتالَ جالوتَ وجنوده، لأنهم انصرفوا عن طالوتَ ومَنْ ثبتَ معه لقتالِ عدوٍّ الله جالوتَ ومَنْ معه، وهم الذين عصَوْا أمرَ الله لشربهم من النهر.

وأما تأويل قوله: «قال الذين يظنون أنهم ملاقو الله»، فإنه يعني: قال الذين يعلمون ويستيقنون أنهم ملاقو الله.

فتأويلُ الكلام: قال الذين يُوقِنُونَ بالمَعَادِ ويصدِّقون بالمرجع إلى الله، للذين قالوا: «لا طاقةَ لنا اليوم بجالوت وجنوده» - «كم من فئة قليلة»، يعني بـ «كم»، كثيراً، غلبت فئةٌ قليلة - «فئة كثيرة بإذن الله»، يعني: بقضاء الله وقدره؛ «والله مع الصابرين»، يقول: مع الحابسين أنفسهم على رضاه وطاعته.

وأما «الفئة»، فإنهم الجماعة من الناس، لا واحدَ له من لفظه، وهو مثل «الرَّهْط» و«النفَر».

وأما قوله: «والله مع الصابرين» فإنه يعني: والله معينُ الصابرينَ على الجهادِ في سبيله وغير ذلك من طاعته، وظهورهم ونصرهم على أعدائه الصادِّين عن سبيله، المخالفين منهاج دينه.

وكذلك يقال لكل مُعين رجلاً على غيره: «هو معه»، بمعنى هو معه بالعَوْن له والنصرة.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَمَّا بَرَزُوا۟ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالُوا۟ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ۝٢٥٠﴾

يعني تعالى ذكره بقوله: «ولما برزُوا لجالوتَ وجنوده»، ولما برز طالوتُ وجنودُه لجالوتَ وجنوده.

ومعنى قوله: «برزوا» صاروا بالبَراز من الأرض، وهو ما ظهر منها واستوى. ولذلك قيل للرجل القاضي حاجته «تبرَّز»، لأن الناس قديماً في الجاهلية، إنما كانوا يقضون حاجتهم في البَرازِ من الأرض، فقيل: «قد تبرَّز فلان»، إذا خرج إلى البَراز من الأرض. وذلك كما قِيل: «تغوَّط»، لأنهم كانوا يقضون حاجَتهم في «الغائط» من الأرض، وهو المطمئنُّ منها، فقيل للرجل: «تغوَّط» أي صار إلى الغائط من الأرض.

وأما قوله: «رَبَّنَا أفرِغْ علينا صَبرًا»، فإنه يعني أنَّ طالوتَ وأصحابه قالوا: «ربنا أفرغ علينا صبراً»، يعني: أَنْزِلْ علينا صبراً.

وقوله: «وثَبِّتْ أقدامَنا»، يعني: وقَوِّ قلوبنا على جهادهم، لتثبت أقدامنا فلا ننهزم عنهم، «وانصرنا على القوم الكافرين»، الذين كفروا بك فجحدوك إلهاً وعبدوا غيركَ، واتخذوا الأوثان أرباباً.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ﴾

يعني تعالى ذكره بقوله «فهزموهم»، فهزم طالوت وجنوده أصحابَ جالوت، وقتل داودُ جالوتَ.

وفي هذا الكلام متروك، ترك ذكره اكتفاءً بدلالة ما ظهر منه عليه. وذلك أن معنى الكلام: «ولما برزوا لجالوتَ وجنودهِ قالوا ربنا أفرغ علينا صبراً وثبِّت أقدامنا وانصرنا على القومِ الكافرين»، فاستجابَ لهم ربهم، فأفرغَ عليهم صبرَهُ وثبَّتَ أقدامهم، ونصرهم على القوم الكافرين، «فهزموهم بإذن الله»، ولكنه ترك ذِكْرَ ذلك اكتفاء بدلالةِ قولهِ: «فهزموهم بإذن الله»، على أنَّ الله قد أجاب دعاءهم الذي دعوه به.

ومعنى قوله: «فهزموهم بإذن الله»، فَلُّوهم بقضاءِ الله وقدرهِ. يقال منه: «هزم القومُ الجيش هزيمة وهِزِّيمَى».

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ

يعني تعالى ذكره بذلك: وأعطى الله داودَ المُلْكَ والحكمةَ وعلمه مما يشاء، «والهاء» في قوله: «وآتاه الله»، عائدة على داود، «والملك»: السلطان، «والحكمة»: النبوة. وقوله: «وعَلَّمه مما يشاء»، يعني: علّمه صنعةَ الدروعِ والتقديرَ في السَّرْدِ، كما قال الله تعالى ذكره: ﴿وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ لِتُحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ﴾ [الأنبياء: ٨٠].

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٥١﴾

يعني تعالى ذكره بذلك: ولولا أنَّ الله يدفعُ ببعضِ الناس ـ وهم أهلُ الطاعة له والإيمان به ـ بعضاً ـ وهم أهلُ المعصية لله والشرك به ـ كما دفعَ عن

المتخلِّفين عن طالوتَ يوم جالوت من أهلِ الكفر بالله والمعصية له، وقد أعطاهم ما سألوا ربَّهم ابتداءً: من بَعْثة مِلِكٍ عليهم ليجاهدوا معه في سبيله ـ بمن جاهدَ معه من أهلِ الإيمان بالله واليقين والصبر ـ جالوتَ وجنوده «لفسدت الأرض»، يعني: لهلك أهلُها بعقوبةِ الله إياهم، ففسدت بذلك الأرضُ ولكن الله ذو مَنٍّ على خلقه وتطوُّلٍ عليهم، بدفعه بالبَرِّ من خلقه عن الفاجر، وبالمطيع عن العاصي منهم، وبالمؤمن عن الكافر.

وهذه الآية إعلامٌ من الله تعالى ذكره أهلَ النفاق الذين كانوا على عهد رسول الله ﷺ، المتخلِّفين عن مَشاهدِه والجهادِ معه للشكِّ الذي في نفوسهم ومرض قلوبهم، والمشركين وأهل الكفر منهم، وأنه إنما يدفع عنهم معاجَلَتهم العقوبةَ على كفرهم ونفاقهم بإيمان المؤمنين به وبرسوله، الذين هم أهلُ البصائر والجدّ في أمر الله، وذوو اليقين بإنجاز الله إياهم وَعْدَهُ على جهادِ أعدائهِ وأعداء رسوله، من النصر في العاجل، والفوزِ بجنانه في الآجل.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ۚ وَإِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٢٥٢﴾

يعني تعالى ذكره بقوله: «تلك آياتُ الله»، هذه الآيات التي اقتصَّ الله فيها أمرَ الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوفٌ حَذَرَ الموتِ، وأمرَ الملأ من بني إسرائيل من بعدِ موسى الذين سألوا نبيَّهم أنْ يبعثَ لهم طالوتَ ملكاً، وما بعدها من الآيات إلى قوله: «والله ذو فضل على العالمين».

ويعني بقوله: «آيات الله»، حججه وأعلامه وأدلته.

يقول الله تعالى ذكره: فهذه الحججُ التي أخبرتكَ بها، يامحمد،

وأعلمتُك ـ من قدرتي على إماتةِ مَنْ هَرب من الموتِ في ساعة واحدة وهم ألوفٌ، وإحيائي إياهم بعد ذلك، وتمليكي طالوتَ أمرَ بني إسرائيلَ بعد إذْ كان سَقَّاءً أو دَبَّاغاً من غيرِ أهلِ بيتِ المملكة، وسلبي ذلك إياهُ بمعصيتهِ أمري، وصَرْفي مُلْكَهُ إلى داودَ لطاعته إيايَ، ونصرتي أصحابَ طالوت مع قِلَّةِ عددهم وضَعْفِ شوكتهم على جالوتَ وجنوده مع كثرةِ عَدَدهم وشِدَّةِ بطشهم ـ حججي على مَنْ جحد نعمتي، وخالفَ أمري، وكفرَ برسولي من أهلِ الكتابين التوراة والإنجيل، العالمين بما اقتصصتُ عليكَ من الأنباء الخفية التي يعلمون أنها من عندي، لم تتخرَّصْهَا ولم تتقوَّلْهَا أنتَ يامحمد، لأنك أميٌّ ولستَ ممن قرأ الكتبَ فيلتبس عليهم أمرُكَ، ويَدَّعُوا أنكَ قرأتَ ذلك فعلمته من بعضِ أسفارهم، ولكنها حججي عليهم أتلوها عليك يامحمد، بالحقِّ اليقين كما كان، لا زيادة فيه ولا تحريف ولا تغيير شيء منه عما كان؛ «وإنك» يامحمدُ «لَمِنَ المُرْسَلِينَ»، يقول: إنك لمرسَل متَّبعٌ في طاعتي وإيثار مرضاتي على هواك، فسالكٌ في ذلك من أمرك سبيلَ من قَبْلَكَ من رُسُلِي الذين أقاموا على أمري، وآثروا رضايَ على هواهم، ولم تغيِّرهم الأهواءُ ومطامعُ الدنيا، كما غيَّر طالوتَ هواهُ وإيثارُه مُلْكَهُ على ما عندي لأهل ولايتي، ولكنك مؤثر أمري كما آثره المُرْسَلُونَ الذين قبلكَ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ﴾

يعنى تعالى ذكره بقوله: «تلك»، الرسل الذين قصَّ اللهُ قَصَصهم في هذه السورة، كموسى بن عمران، وإبراهيم، وإسمعيل، وإسحق، ويعقوب، وشمويل، وداود، وسائر مَنْ ذكر نبأهم في هذه السورة. يقول تعالى ذِكْرُه: هؤلاء رُسلي فَضَّلْتُ بعضَهم على بعض، فكلَّمتُ بعضَهم ـ والذي كلمته منهم

موسى ﷺ - ورفعتُ بعضَهم درجاتٍ على بعض، بالكرامة ورِفْعةِ المنزلةِ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ﴾

يعني تعالى ذكره بقوله: «وآتينا عيسى ابن مريم البينات»، وآتينا عيسى ابن مريم الحججَ والأدلة على نبوّته: من إبراءِ الأكمهِ والأبرصِ وإحياءِ الموتى وما أشبه ذلك، مع الإنجيل الذي أنزلته إليه، فَبيَّنْتُ فيه مافرضتُ عليه.

ويعني تعالى ذكره بقوله: «وأيَّدناه»، وقويناه وأعنّاهُ «بروح القدس»، يعني بروح الله، وهو جبريل.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ﴾

يعني تعالى ذكره بذلك: ولو أراد الله «ما اقتتلَ الذين من بعدهم» يعني: من بعد الرسل الذين وصفهم بأنه فَضَّلَ بعضهم على بعض ورفع بعضهم درجات، وبعد عيسى ابن مريم، وقد جاءهم من الآياتِ بما فيه مُزدَجَرٌ لمن هَدَاهُ الله ووفَّقه.

ويعني بقوله: «من بعد ما جاءتهم البينات»، يعني: من بعد ما جاءهم من آياتِ الله ما أبان لهم الحقَّ وأوضَحَ لهم السبيلَ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَٰكِنِ ٱخْتَلَفُوا۟ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿٢٥٣﴾﴾

يعني تعالى ذكره بذلك: ولكن اختلفَ هؤلاء الذينَ من بعد الرسل، لمّا لم يشأ الله منهم تعالى ذِكْرُه أن لا يقتتلوا، فاقتتلوا من بعد ما جاءتهم البيناتُ من عند ربهم بتحريمِ الاقتتالِ والاختلافِ، وبعد ثبوتِ الحجة عليهم بوحدانيةِ الله ورسالةِ رسله ووحي كتابه، فكفرَ باللهِ وبآياتهِ بعضُهم، وآمن بذلك بعضُهم. فأخبر تعالى ذِكْرُه أنهم أتَوْا ما أتوا من الكفرِ والمعاصي، بعد علمهم بقيامِ الحجةِ عليهم بأنهم على خطأ، تَعَمُّداً منهم للكفرِ بالله وآياته.

ثم قال تعالى ذكره لعباده: «ولو شاء الله ما اقتتلوا»، يقول: ولو أراد اللهُ أنْ يحجزَهم ـ بعِصْمتهِ وتوفيقهِ إياهم ـ عن معصيتهِ فلا يقتتلوا، ما اقتتلوا ولا اختلفوا، «ولكنّ الله يفعل ما يريد». بأن يوفق هذا لطاعته والإيمان به فيؤمن به ويطيعه، ويخذل هذا فيكفر به ويَعصيه.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَـالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَٰعَةٌ وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٥٤﴾﴾

يعني تعـالى ذكـره بذلك: ياأيها الذين آمنوا أنفقوا في سبيل الله مما رَزَقَناكم من أموالكم، وتصدقوا منها، وآتوا منها الحقوق التي فرضناها عليكم «من قبل أن يأتي يومٌ لا بيعٌ فيه ولا خُلة ولا شفاعة»، يقول: ادَّخِرُوا لأنفسكم عندَ اللهِ في دنياكم من أموالكم، بالنفقةِ منها في سبيل الله، والصدقةِ على أهلِ المَسْكَنةِ والحاجةِ، وإيتاءِ ما فَرَضَ اللهُ عليكم فيها، وابتاعوا بها ما عِنْدَهُ مما أعدَّهُ لأوليائهِ من الكرامة، بتقديم ذلك لأنفسكم مادام لكم السبيلُ إلى ابتياعه بما نَدَبْتُكُم إليه وأمرتكم به من النفقةِ من أموالكم «من قبل أنْ يأتيَ يومٌ لا بيع فيه»، يعني: من قبلِ مجيء يومٍ لا بيع فيه، يقول: لا تقدرون فيه على ابتياع

ما كنتم على ابتياعه ـ بالنفقة من أموالكم التي رَزَقْتُكُموها ـ بما أمرتكم به أو ندبتكم إليه في الدنيا، قادرين، لأنه يومُ جزاءٍ وثوابٍ وعقاب، لا يومُ عملٍ واكتسابٍ وطاعة ومعصية، فيكون لكم إلى ابتياع منازل أهل الكرامة بالنفقة حينئذ ـ أو بالعمل بطاعة الله سبيلٌ.

ثم أعلمهم تعالى ذكره أنّ ذلك اليومَ ـ مع ارتفاعِ العملِ الذي ينال به رضى الله أو الوصول إلى كرامته بالنفقة من الأموال، إذْ كان لا مالَ هنالك يمكن إدراك ذلك به ـ يومٌ لا مُخالَّة فيه نافعةٌ كما كانت في الدنيا، فإنَّ خليلَ الرجل في الدنيا قد كان ينفعه فيها بالنصرة لهُ على مَنْ حاوله بمكروهٍ وأراده بسوء، والمظاهرة له على ذلك. فآيَسهم تعالى ذِكْرُه أيضاً من ذلك، لأنه لا أحدَ يوم القيامة ينصرُ أحداً من الله، بل ﴿ٱلْأَخِلَّاءُ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ﴾ كما قال الله تعالى ذكره، وأخبرهم أيضاً أنهم يومئذ ـ مع فَقْدِهم السبيلَ إلى ابتياعِ ما كان لهم إلى ابتياعه سبيلٌ في الدنيا بالنفقة من أموالهم، والعمل بأبدانهم، وعدمهم النُّصراء من الخُلَّان، والظُّهراء[1] من الإخوان ـ لا شافعَ لهم يشفع عند الله، كما كان ذلك لهم في الدنيا، فقد كان بعضُهم يشفعُ في الدنيا لبعضٍ بالقرابة والجوار والخُلة وغير ذلك من الأسباب، فبطل ذلك كله يومئذٍ، كما أخبر تعالى ذكره عن قِيل أعدائهِ من أهلِ الجحيم في الآخرة إذا صاروا فيها: ﴿فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ﴾ [الشعراء: ١٠٠، ١٠١].

وهذه الآية مخرجها في الشفاعة عامٌّ، والمراد بها خاص، وإنما معناه: «مِنْ قبلِ أنْ يأتيَ يومٌ لا بَيْعٌ فيه ولا خلة ولا شفاعة»، لأهل الكفر بالله، لأن أهل ولاية الله والإيمان به، يشفع بعضهم لبعض.

وأما قوله: «والكافرون هم الظالمون»، فإنه يعني تعالى ذكره بذلك:

(١) جمع ظهير، وهو المُعينُ.

والجاحدون لله المكذبون به وبرسله، «هم الظالمون»، يقول: هُمُ الواضعون جحودَهم في غير موضعه، والفاعلون غيرَ ما لهم فِعْلُه، والقائلون ما ليس لهم قوله.

وفي قوله تعالى ذكره في هذا الموضع: «والكافرون هم الظالمون»، دلالةٌ واضحة على صحة ما قلناه، وأنَّ قوله: «ولا خلةٌ ولا شفاعة»، إنما هو مرادٌ به أهل الكفر، فلذلك أتبع قوله ذلك: «والكافرون هم الظالمون». فدل بذلك على أنَّ معنى ذلك: حَرَمْنَا الكفار النُّصْرةَ من الأخلاء، والشفاعةَ من الأولياء والأقرباء، ولم نكن لهم في فعلنا ذلك بهم ظالمين، إذْ كان ذلك جزاءً منا لما سلف منهم من الكفر بالله في الدنيا، بل الكافرون هم الظالمون أنفسهم بما أتوا من الأفعال التي أوجبوا لها العقوبة من ربهم.

فإن قال قائل: وكيف صرف الوعيدَ إلى الكفار، والآية مبتدأةٌ بِذِكْرِ أهلِ الإيمان؟

قيل له: إنّ الآية قد تَقَدَّمَهَا ذِكْرُ صنفين من الناس: أحدهما أهل كفر، والآخرُ أهل إيمان، وذلك قوله: «ولكن اختلفوا فمنهم من آمن ومنهم من كفر»، ثم عقّب الله تعالى ذِكْرُه الصنفين بما ذكرهم به، بحضِّ أهلِ الإيمانِ به على ما يقربهم إليه من النفقة في طاعته، وفي جهادِ أعدائه من أهل الكفر به، قبل مجيء اليوم الذي وصف صفته، وأخبر فيه عن حال أعدائه من أهل الكفر به، إذ كان قتالُ أهل الكفر به في معصيته، ونفقتهُم في الصدِّ عن سبيله، فقال تعالى ذكره: يا أيها الذين آمنوا أنفقوا أنتم مما رزقناكم في طاعتي، إذ كان أهل الكفر بي يُنفقونَ في معصيتي - مِنْ قبل أن يأتيَ يومٌ لا بيع فيه، فيدرك أهل الكفر فيه ابتياعَ ما فَرَّطُوا في ابتياعه في دنياهم - ولا خلة لهم يومئذٍ تنصرهم مني، ولا شافع لهم يشفع عندي فتنجيهم شفاعته لهم من عقابي.. وهذا يومئذٍ

فعِلي بهم جزاءً لهم على كفرهم، وهم الظالمون أنفسهم دوني، لأني غيرُ ظلّام لعبيدي.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ﴾

تأويل قوله: «لا إله إلّا هو»، معناه: النهي عن أن يُعبد شيءٌ غير الله الحيِّ القيوم الذي صفته ما وصفَ به نفسَهُ تعالى ذِكْرُه في هذه الآية. يقول: «الله» الذي له عبادة الخلق، «الحي القيوم»، لا إله سواه، لا معبودَ سواه. يعني: ولا تعبدوا شيئاً سوَى الحي القيوم الذي لا تأخذه سِنَةٌ ولا نوم، والذي صفته ما وصف في هذه الآية.

وهذه الآية إبانة من الله تعالى ذِكْرُه للمؤمنين به وبرسوله عما جاءت به المختلفين البيناتُ ـ من بعد الرسل الذين أخبرنا تعالى ذِكْرُه أنه فضّل بعضهم على بعض ـ واختلفوا فيه، فاقتتلوا فيه، كفراً به من بعض، وإيماناً به من بعض. فالحمد لله الذي هدانا للتصديق به، ووفقنا للإقرار به.

وأما قوله: «الحيّ»، فإنه يعني: الذي له الحياةُ الدائمة، والبقاء الذي لا أوّل له بحدٍّ، ولا آخرَ له بأمدٍ، إذْ كان كُلُّ ما سواه فإنه وإنْ كان حياً فلحياته أولٌ محدود، وآخر ممدود ينقطع بانقطاع أمدها، وينقضي بانقضاء غايتها.

وقد اختلف أهل البحث في تأويل ذلك.

فقال بعضهم: إنما سمى الله نفسه «حياً»، لصرفه الأمور مصَارفها، وتقديره الأشياءَ مقاديرها، فهو حيٌّ بالتدبيرِ لا بحياة.

وقال آخرون: بل هو حي بحياةٍ هي له صفة.

وقال آخرون: بل ذلك اسمٌ من الأسماء تسمَّى به، فقلنا تسليماً لأمره.

ومعنى قوله: «القيوم»، القائم برزق ما خلق وحفظه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ

يعني تعالى ذكره بقوله: «لا تأخذه سِنَةٌ»، لا يأخذه نُعاسٌ فينعسُ، ولا نومٌ فيستثقل نوماً.

وإنما عنى تعالى ذكره بقوله: «لا تأخذه سنة ولا نوم»، لاتحُلّه الآفاتُ ولا تنالُه العاهاتُ. وذلك أن «السِنَةَ» و«النومَ»، معنيان يغمُران فَهْمَ ذي الفهم، ويُزيلان مَنْ أصاباهُ عن الحال التي كان عليها قبل أن يُصيباه.

فتأويل الكلام، إذْ كان الأمرُ على ماوصفنا: «الله لا إله إلا هو الحي» الذي لا يموتُ؛ «القيوم» على كُلِّ ماهو دونه بالرزقِ والكلاءةِ والتدبير والتصريفِ من حالٍ إلى حال، «لاتأخذه سِنَةٌ ولا نوم»، لا يغيِّرهُ ما يُغيِّرُ غيرَهُ، ولا يُزيله عما لم يزَل عليه تنقُّلُ الأحوالِ وتصريفُ الليالي والأيام، بل هو الدائمُ على حال، والقيُّوم على جميع الأنام. لو نام كان مغلوباً مقهوراً، لأن النومَ غالبُ النائمِ قاهرُه. ولو وَسَن لكانتِ السمواتُ والأرضُ وما فيهما دكاً، لأنّ قيام جميع ذلك بتدبيره وقدرته. والنومُ شاغلُ المُدَبِّرَ عن التدبيرِ، والنعاسُ مَانعُ المُقَدِّرَ عن التقدير بوَسَنِهِ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ

يعني تعالى ذكره بقوله: «له ما في السموات وما في الأرض»، أنه مالكُ جميعَ ذلك بغيرِ شريكٍ ولا نديد، وخالقُ جميعه دون كل آلهة ومعبود. وإنما

يعني بذلك: أنه لا تنبغي العبادةُ لشيءٍ سواهُ، لأنَّ المملوكَ إنما هو طَوْعُ يَدِ مالكهِ، وليس له خِدْمة غيره إلا بأمره. يقول: فجميع ما في السموات والأرض ملكي وخلقي، فلا ينبغي أن يَعْبُدَ أحدٌ من خلقي غيري وأنا مالكه، لأنه لا ينبغي للعبد أن يَعْبُدَ غيرَ مالكهِ، ولا يطيعَ سوى مولاه.

وأما قوله: «مَنْ ذا الذي يشفعُ عنده إلّا بإذنه»، يعني بذلك: من ذا الذي يشفع لمماليكه إنْ أراد عقوبتهم، إلا أن يُخَلِّيه ويأذن له بالشفاعة لهم. وإنما قال ذلك تعالى ذِكْرُه، لأنَّ المشركين قالوا: مانعبُد أوثاننا هذه إلا لِيُقَرِّبُونَا إلى الله زُلفى! فقال الله تعالى ذكره لهم: لي ما في السموات وما في الأرض مع السموات والأرض مِلْكاً، فلا تنبغي العبادةُ لغيري، فلا تعبدوا الأوثان التي تزعمون أنها تُقَرِّبكم مني زُلْفى، فإنها لاتنفعكم عندي ولا تغني عنكم شيئاً، ولا يشفع عندي أحدٌ لأحدٍ إلّا بتخليتي إياه والشفاعة لمن يشفع له، من رُسُلي وأوليائي وأهل طاعتي.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: **يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ**

يعني تعالى ذكره بذلك: أنه المحيطُ بكل ما كان وبكل ماهو كائن، علماً لا يخفى عليه شيء منه.

وأما قوله: «ولا يُحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء»، فإنه يعني تعالى ذكره: أنه العالمُ الذي لا يخفى عليه شيء، محيط بذلك كله، مُحصٍ له دون سائر مَن دونه، وأنه لا يعلم أحدٌ سواه شيئاً إلا بما شاء هو أن يُعْلمه، فأراد فعلَّمه. وإنما يعني بذلك: أنَّ العبادةَ لا تنبغي لمن كان بالأشياء جاهلاً، فكيف يُعبد مَنْ لا يعقل شيئاً البتة من وثنٍ وصنم؟! يقول: فأخلصوا العبادة

لمن هو محيطٌ بالأشياء كلها، يعلمها، لا يخفى عليه صغيرُها وكبيرها.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾

اختلف أهلُ التأويل في معنى «الكرسي» الذي أخبر الله تعالى ذكرُه في هذه الآية أنه وَسِعَ السمواتِ الأرض.

فقال بعضهم: هو عِلْمُ الله تعالى ذِكْرُه (وهو قول ابن عباس).

حدثني به عبدالله بن أبي زياد القطواني قال، حدثنا عبيدالله بن موسى قال، أخبرنا إسرائيل، عن أبي إسحق، عن عبدالله بن خليفة قال: أتت امرأةٌ النبيَّ ﷺ فقالت: ادعُ الله أن يدخلني الجنة! فعظَّم الربَّ تعالى ذكره، ثم قال: إنَّ كُرْسِيَّهُ وَسِعَ السمواتِ والأرضَ، وإنه ليقعدُ عليه فما يَفضُل منه مقدار أربع أصابع ـ ثم قال بأصابعه فجمعها ـ وإن له أطيطاً كأطيطِ الرَّحلِ الجديد إذا رُكب، من ثِقْله.

وقال آخرون: «الكرسي» موضع القدمين.

وقال آخرون: «الكرسي»، هو العرشُ نفسه.

ولكل قول من هذه الأقوال وَجْهٌ ومذهب، غير أنَّ الذي هو أولى بتأويل الآية ما جاء به الأثرُ عن رسولِ الله ﷺ.

حدثني عبدالله بن أبي زياد قال، حدثنا يحيى بن أبي بكير، عن إسرائيل، عن أبي إسحق، عن عبدالله بن خليفة، عن عمر، عن النبي ﷺ بنحوه.

حدثنا أحمد بن إسحق قال، حدثنا أبو أحمد قال، حدثنا إسرائيل، عن

أبي إسحق، عن عبدالله بن خليفة قال: جاءت امرأة، فذكر نحوه[1].

وأما الذي يدلُّ على صحته ظاهرُ القرآن، فقولُ ابن عباس الذي رواه جعفر ابن أبي المغيرة، عن سعيد بن جبير، عنه أنه قال: «هو عِلْمُه»[2]. وذلك لدلالةِ قولِه تعالى ذِكْرُه: «ولا يَؤُودُه حِفْظُهما» على أن ذلك كذلك: فأخبر أنه لا يؤوده حفظُ ما علم وأحاط به مما في السموات والأرض، وكما أخبر عن ملائكته أنهم قالوا في دعائهم: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْماً﴾ [غافر: ٧]، فأخبر تعالى ذكره: أنَّ عِلْمَهُ وسع كل شيء، فكذلك قوله: «وسع كرسيه السموات والأرض».

وأصل «الكرسي» العلم. ومنه قيل للصحيفة يكونُ فيها علمٌ مكتوب «كُرّاسة»[3].

---

(١) قال بشار: هذه ثلاثة أسانيد لخبر واحد لايصح ولا يجوز الاحتجاج به، ومداره على عبدالله بن خليفة الهمداني الكوفي، قال الذهبي في الميزان: لايكاد يُعرف (٢/الترجمة ٤٢٩٠) وانظر تهذيب الكمال: ١٤/الترجمة ٣٢٤٥، وفي سماعه من عمر بن الخطاب نظر (انظر تفسير ابن كثير: ٢/١٣) فهو مرسل، أو موقوف كما رواه الطبري في الإسناد الأول وفي الخبر تجسيمٌ لا يُقبل.

(٢) قال العلامة محمود شاكر: العجب لأبي جعفر، كيف تناقض قولُه في هذا الموضع! فإنه بدأ فقال: إن الذي هو أولى بتأويلِ الآية ما جاء به الأثرُ عن رسولِ الله ﷺ، من الحديث في صفة الكرسي، ثم عاد في هذا الموضع يقول: وأما الذي يدل على صحته ظاهر القرآن، فقول ابن عباس أنه عِلْمُ الله سبحانه. فإما هذا وإما هذا، وغير ممكنٍ أن يكون أولى التأويلات في معنى «الكرسي» هو الذي جاء في الحديث الأول، ويكون معناه أيضاً «العلم»، كما زعم أنه دل على صحته ظاهرُ القرآن. وكيف يجمع في تأويل واحد، معنيان مختلفان في الصفة والجوهر!! وإذا كان خبر جعفر ابن أبي المغيرة، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، صحيح الإسناد، فإن الخبر الآخر الذي رواه مسلم البطين، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، صحيح الإسناد

على شرط الشيخين، كما قال الحاكم، وكما في مجمع الزوائد ٦: ٣٢٣ «رواه الطبراني، ورجاله رجال الصحيح»، كما بينته في التعليق على الأثر: ٥٧٩٢. ومهما قيل فيهما، فلن يكون أحدهما أرجح من الآخر إلا بمرجح يجبُ التسليم له. وأما أبو منصور الأزهري فقد قال في ذكر الكرسي: «والصحيح عن ابن عباس مارواه عمار الدهني، عن مسلم البطين، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس أنه قال: «الكرسي موضع القدمين، وأما العرش فإنه لا يقدر قدره. قال: وهذه رواية اتفق أهلُ العلم على صحتها. قال: ومن روى عنه في الكرسي أنه العلم، فقد أبطل». وهذا هو قول أهل الحق إن شاء الله.

وقد أراد الطبري أن يستدل بعد بأن الكرسي هو «العلم»، بقوله تعالى: «ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلماً»، فَلِمَ لَمْ يجعل «الكرسي» هو «الرحمة»، وهما في آية واحدة؟ ولم يجعلها كذلك لقوله تعالى في سورة الأعراف: ١٥٦: «قال عذابي أصيبُ به من أشاء ورحمتي وسعت كل شيء»؟ واستخراج معنى الكرسي من هذه الآية كما فعل الطبري، ضعيف جداً، يجل عنه منْ كان مثله حذراً ولطفاً ودقة.

وأما ما ساقه بعد من الشواهد في معنى «الكرسي»، فإن أكثره لا يقوم على شيء، وبعضه منكر التأويل، كما سأبينه بعد إن شاء الله. وكان يحسبه شاهداً ودليلاً أنه لم يأتِ في القرآن في غير هذا الموضع، بالمعنى الذي قالوه، وأنه جاء في الآية الأخرى بما ثبت في صحيح اللغة من معنى «الكرسي»، وذلك قوله تعالى في «سورة ص»: «ولقد فتنا سليمان وألقينا على كرسيه جسداً ثم أناب».

قال بشار: الأفضل الأصوب في كل هذا القول ان الكرسي مخلوق استأثر الله تعالى بعلمه فنفوض علم حقيقته إليه مع كمال تنزيهه عن الجسمية وعن مشابهة المحدثات

(٣) قال العلامة محمود شاكر: أخشى أن يكون الصواب: «وأصل الكرس: العلم» (بفتح الكاف وسكون الراء) مما رواه ابن الأعرابي من قولهم: «كرِس الرجل» (بفتح ثم كسر): إذا ازدحم علمه على قلبه. وجعل أبي جعفر هذا أصلاً، عجبٌ أي عجب! فمادة اللغة تشهد على خلافه، وتفسير ابن الأعرابي هذا أيضاً شاهد على خلافه. وإنما أصل المادة (كرس) من تراكم الشيء وتلبد بعضه على بعض وتجمعه. وقوله بعد: «ومنه قيل للصحيفة كراسة»، والأجود أن يقال: إنه من تجمع أوراقه بعضها على بعض، أو ضم بعضها إلى بعض.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا ۚ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ٢٥٥﴾

يعني تعالى ذكره بقوله: «ولا يؤوده حفظهما»، ولا يشقُّ عليه ولا يُثْقله.

يقال منه: «قد آدَنِي هذا الأمرُ فهو يؤودني أوْداً وإياداً»، ويقال: «ما آدَك فهو لي آئد»، يعني بذلك: ما أثقلك فهو لي مثقل.

«والهاء»، و«الميم» و«الألف» في قوله: «حِفْظُهما»، من ذكر «السموات والأرض». فتأويل الكلام: وسِع كرسيه السموات والأرض، ولا يثقل عليه حفظ السموات والأرض.

وأما تأويل قوله: «وهو العليُّ»، فإنه يعني: والله العليّ.

و«العلي» «الفعيل» من قولك: «علا يعلو عُلوًّا»، إذا ارتفع، «فهو عال وعليّ»، «والعلي» ذو العلو والارتفاع على خَلْقِه بقدرته.

وكـذلك قوله: «العظيم»، ذو العظمة الذي كل شيء دونه، فلا شيءَ أعظم منه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ ۚ﴾

اختلف أهل التأويل في معنى ذلك.

فقال بعضهم: نزلت هذه الآيةُ في قوم من الأنصار ـ أو في رجل منهم ـ كان لهم أولادٌ قد هَوَّدُوهم أو نَصَّروهم، فلما جاء الله بالإسلام أرادوا إكراههم عليه، فنهاهم الله عن ذلك حتى يكونوا هم يختارون الدُّخول في الإسلام.

وقال آخرون: بل معنى ذلك: لا يُكرهُ أهلُ الكتابِ على الدين إذا بذلوا الجزية، ولكنهم يُقَرُّون على دينهم. وقالوا: الآية في خاصٍّ من الكفار، ولم

ينسخ منها شيء.

وقال آخرون: هذه الآية منسوخة. وإنما نزلت قبل أن يُفرضَ القتالُ.

وأولى هذه الأقوال بالصواب قولُ مَنْ قال: نزلت هذه الآية في خاصٍّ من الناس ـ وقال: عنى بقوله تعالى ذِكْرُه: «لا إكراه في الدين» أهل الكتابين والمجوسَ وكلَّ مَنْ جاء إقرارُه على دينه المخالف دين الحقّ وأخْذَ الجزية منه، وأنكروا أن يكون شيء منها منسوخاً.

وإنما قلنا: هذا القول أولى الأقوال في ذلك بالصواب، لما قد دللنا عليه في كتابنا «كتاب اللطيف من البيان عن أصول الأحكام»: من أنّ الناسخ غير كائن ناسخاً إلا مانفى حكم المنسوخ فلم يجز اجتماعهما. فأما ما كان ظاهرَه العمومُ من الأمر والنهي، وباطنه الخصوص، فهو من الناسخ والمنسوخ بمعزل.

وإذْ كان ذلك كذلك ـ وكان غير مستحيل أن يقال: لا إكراه لأحد ممن أُخِذَتْ منه الجزيةُ في الدين، ولم يكن في الآية دليلٌ على أنَّ تأويلها بخلاف ذلك، وكان المسلمون جميعاً قد نقلوا عن نبيهّم ﷺ أنه أكره على الإسلام قوماً فأبى أنْ يقبل منهم إلا الإسلام، وحكم بقتلهم إن امتنعوا منه، وذلك كَعَبَدةِ الأوثان من مشركي العرب، وكالمرتد عن دينه دين الحق إلى الكفر ومَنْ أشبههم، وأنه ترك إكراه آخرين على الإسلام بقبوله الجزية منه وإقراره على دينه الباطل، وذلك كأهل الكتابين ومن أشبههم ـ كان بيناً بذلك أنّ معنى قوله: «لا إكراه في الدين»، إنما هو لا إكراه في الدين لأحدٍ ممن حلَّ قبولُ الجزيةِ منه بأدائه الجزيةَ، ورِضَاهُ بحكمِ الإسلام.

ولا معنى لقول من زعم أنّ الآية منسوخة الحكم، بالإذن بالمحاربة.

فإنْ قال قائل: فما أنت قائلٌ من أنها نزلت في قومٍ من الأنصار أرادوا أن يُكْرِهُوا أولادَهم على الإسلام؟

قلنا: ذلك غير مدفوعة صحته، ولكن الآية قد تنزل في خاصٍّ من الأمر،

ثم يكون حكمها عاماً في كل ما جانس المعنى الذي أنزلت فيه. فالذين أنزلت فيهم هذه الآية إنما كانوا قوماً دانوا بدينِ أهلِ التوراة قبل ثبوتِ عقد الإسلام لهم، فنهى تعالى ذكره عن إكراههم على الإسلام، وأنزل بالنهي عن ذلك آيةً يَعُمُّ حُكْمها كلَّ مَنْ كان في مثل معناهم، ممن كان على دينٍ من الأديان التي يجوز أخذُ الجزية من أهلها، وإقرارهُم عليها، على النحو الذي قلنا في ذلك.

ومعنى قوله: «لا إكراه في الدين»، لا يكره أحد في دين الإسلام عليه. وإنما أدخلت «الألف واللام» في «الدين»، تعريفاً للدين الذي عنى الله بقوله: «لا إكراه فيه»، وأنه هو الإسلام.

وقد يحتمل أن يكون أدخلتا عقيباً من «الهاء» المنوية في «الدين»، فيكون معنى الكلام حينئذ: وهو العلي العظيم، لا إكراه في دينه، قد تبين الرشد من الغي. وكأن هذا القول أشبه بتأويل الآية عندي.

وأما قوله: «قد تبين الرشد»، فإنه مصدر من قول القائل: «رشِدت فأنا أرشَد رَشَداً ورُشْداً ورَشاداً»، وذلك إذا أصاب الحق والصواب.

وأما «الغي»، فإنه مصدر من قول القائل: «قد غَوَى فلان فهو يغوَى غَيًّا وغَواية»، وبعض العرب يقول: «غَوِي فلان يغوَى»، والذي عليه قراءة القَرَأَةِ: ﴿مَاضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى﴾ [النجم: ٢] بالفتح، وهي أفصح اللغتين، وذلك إذا عَدَا الحق وتجاوزه، فضلَّ.

فتأويلُ الكلام إذاً: قد وَضح الحق من الباطل، واستبان لطالبِ الحق والرشاد وَجْهُ مَطلبِه، فتميَّزَ من الضلالة والغَواية، فلا تكرهوا من أهل الكتابين ـ ومن أبحتُ لكم أخذَ الجزية منه ـ، [أحداً] على دينكم دين الحق، فإن مَنْ حاد عن الرشادِ بعد استبانتهِ له، فإلى ربه أمرُهُ، وهو وليُّ عقوبته في معاده.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ

البقرة: ٢٥٦

اختلف أهل التأويل في معنى «الطاغوت».

فقال بعضهم: هو الشيطان.

وقال آخرون: «الطاغوت» هو الساحر.

وقال آخرون: بل «الطاغوت» هو الكاهن.

والصواب من القول عندي في «الطاغوت»، أنه كُلُّ ذي طغيانٍ على الله، فعُبِد من دونه، إما بقهرٍ منه لمن عَبَدَهُ، وإما بطاعةٍ ممن عبده له، إنساناً كان ذلك المعبودُ، أو شيطاناً، أو وَثناً، أو صنماً، أو كائناً ما كان من شيء.

فتأويل الكلام إذاً: فمن يجحد رُبوبيةَ كُلِّ معبودٍ من دون الله، فيكفر به ـ «ويؤمن بالله»، يقول: ويصدق بالله أنه إلهه وربّه ومعبوده ـ «فقد استمسك بالعروة الوثقى»، يقول: فقد تَمَسَّكَ بأوثقِ ما يتمسَّكُ به مَنْ طَلَبَ الخلاصَ لنفسه من عذاب الله وعقابه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ﴾

«والعـروة»، في هذا المكـان، مَثَلٌ للإيمان الذي اعتصم به المؤمن، فشبهه في تعلُّقه به وتمسُّكه به، بالمتمسك بعُروة الشيء الذي له عروة يُتَمسَّك بها، إذْ كان كلّ ذي عروة فإنما يتعلق من أراده بعروته.

وجعل تعالى ذِكْرُه الإيمانَ الذي تمسَّك به الكافرُ بالطاغوتِ المؤمنُ بالله، من أوثق عُرى الأشياء بقوله: «الوثقى».

و«الوثقى»، «فُعلى» من «الوثاقة». يقال في الذكر: «هو الأوثق»، وفي الأنثى: «هي الوثقى»، كما يقال: «فلان الأفضل، وفلانة الفضلى».

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ﴾

يعني تعالى ذكره بقوله: «لا انفصامَ لها»، لا انكسار لها. «والهاء والألف»، في قوله: «لها» عائدة على «العروة».

ومعنى الكلام: فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله، فقد اعتصمَ من طاعةِ الله بما لا يخشى مع اعتصامه خذلانَه إياه، وإسلامَه عند حاجته إليه في أهوال الآخرة، كالمتمسك بالوثيق من عُرَى الأشياء التي لا يخشى انكسار عُراها.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ٢٥٦﴾

يعني تعالى ذكره: «والله سميع»، إيمانَ المؤمن بالله وحدَه الكافرِ بالطاغوت، عند إقراره بوحدانية اللهِ وتبرُّئِه من الأنداد والأوثان التي تعبد من دون الله، «عليم» بما عَزَمَ عليه من توحيدِ الله وإخلاصِ ربوبيته قلبُه، وما انطوَى عليه من البراءة من الآلهةِ والأصنامِ والطواغيتِ ضميرُه، وبغير ذلك مما أخفته نفسُ كلِّ أحدٍ من خَلْقِه، لا ينكتم عنه سر، ولا يخفى عليه أمرٌ، حتى يجازي كلًّا يوم القيامة بما نَطَقَ به لسانُه، وأضمرته نفسه، إنْ خيراً فخيراً، وإن شرًّا فشرًّا.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِۗ﴾

يعني تعالى ذكره بقوله: «الله وليُّ الذين آمنوا»، نصيرهم وظهيرهم، ويتولاهم بعونه وتوفيقه، «يخرجهم من الظلمات»: يعني بذلك: يخرجهم من

ظلماتِ الكفرِ إلى نورِ الإيمان. وإنما عنى: بـ «الظلمات» في هذا الموضع، الكفرَ. وإنما جعل «الظلمات» للكفر مثلاً، لأن الظلمات حاجبةٌ للأبصار عن إدراكِ الأشياء وإثباتها، وكذلك الكفرُ حاجبٌ أبصارَ القلوب عن إدراك حقائق الإيمان والعلم بصحته وصحة أسبابه. فأخبر تعالى ذكره عبادَه أنه وليُّ المؤمنين، ومُبصِّرهم حقيقةَ الإيمان وسُبُله وشرائعه وحججه، وهاديهم فموفِّقهم لأدلته المزيلة عنهم الشكوك، بكشفهِ عنهم دواعيَ الكفر، وظُلَم سواتره عن أبصار القلوب.

ثم أخبر تعالى ذكره عن أهل الكفر به فقال: «والذين كفروا»، يعني: الجاحدين وحدانيته، «أولياؤُهُم»، يعني: نصراؤهم وظهراؤهم الذين يتولَّونهم، «الطاغوت»، يعني: الأنداد والأوثانُ الذين يعبدونهم من دون الله، «يخرجونهم من النور إلى الظلمات»، يعني: بـ «النور» الإيمان، على نحو ما بينا، «إلى الظلمات»، ويعني بـ «الظلمات» ظلمات الكفر وشكوكَه الحائلة دون أبصار القلوب ورؤية ضياء الإيمان، وحقائق أدلته وسُبُله.

وقد نزلت هذه الآية فيمن كفر من النصارى بمحمد ﷺ، وفيمن آمن بمحمد ﷺ من عَبَدَةِ الأوثان الذين لم يكونوا مُقِرِّين بنبوة عيسى، وسائر الملل التي كان أهلها يكذِّب بعيسى.

فإن قال قائل: أَوَ كانت النصارى على حقٍّ قبل أن يبعث محمد ﷺ فكذَّبوا به؟

قيل: من كان منهم على ملّة عيسى بن مريم ﷺ، فكان على حقّ، وإياهم عنى الله تعالى ذكره بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِالله وَرَسُولِهِ﴾ [النساء: ١٣٧].

فإن قال قائل: فهل يحتمل أن يكون قوله: «والذين كفروا أولياؤُهُم

الطاغوتُ يخرجونهم من النور إلى الظلمات»، أن يكون معنيًا به غيرُ المؤمنين بعيسى، أو غير أهل الرِّدة في الإسلام؟

قيل: نعم، يحتمل أن يكون معنى ذلك: والذين: كفروا أولياؤُهُم الطاغوت، يحولون بينهم وبين الإيمان، ويضلُّونهم فيكفرون، فيكون تضليلهم إياهم حتى يكفروا، إخراجاً منهم لهم من الإيمان، يعني صدّهم إياهم عنه، وحرمانهم إياهم خيرَهُ، وإنْ لم يكونوا كانوا فيه قبل، كقول الرجل: «أخرجني والدي من ميراثه»، إذا مَلَك ذلك في حياته غيرُه، فحرمه منه حظَّه، ولم يملك ذلك القائل هذا الميراث قطُّ فيخرج منه، ولكنه لما حُرِمَهُ وحِيلَ بينه وبين ما كان يكون له لو لم يُحرَمْهُ، قيل «أخرجه منه»، وكقول القائل: «أخرجني فلان من كتيبته»، يعني: لم يجعلني من أهلها، ولم يكن فيها قط قبل ذلك. فكذلك قوله: «يخرجونهم من النور إلى الظلمات»، محتملٌ أن يكون إخراجهم من الإيمان إلى الكفر على هذا المعنى، وإن كان الذي قاله مجاهد وعبدة أشبه بتأويل الآية.

فإن قال لنا قائل: وكيف قال: «والذين كفروا أولياؤُهُم الطاغوتُ يُخرجونهم من النور»، فجمع خبر «الطاغوت» بقوله: «يخرجونهم»، و«الطاغوت» واحد؟

قيل: إن «الطاغوت» اسم لجماعٍ وواحدٍ، وقد يجمع «طواغيت». وإذا جُعِلَ واحِدُه وجَمْعُه بلفظٍ واحد، كان نظير قولهم: «رجل عدل، وقوم عدل» و«رجل فِطر وقوم فِطر»، وما أشبه ذلك من الأسماء التي يأتي موحَّداً في اللفظ واحدُها وجمعها.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٢٥٧﴾

يعني تعالى ذكره بذلك: هؤلاء الذين كفروا «أصحاب النار»، أهلُ النار الذين يخلدون فيها ـ يعني في نار جهنم ـ دون غيرهم من أهل الإيمان، إلى غير غاية ولا نهاية أبداً.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ﴾

يعني تعالى ذكره بقوله: «ألم تر إلى الذي حَاجَّ إبراهيمَ في رَبِّه»، ألم تر، يامحمد، بقلبك «الذي حاج إبراهيم»، يعني: الذي خاصم «إبراهيم»، يعني: إبراهيم نبي الله ﷺ «في رَبِّه أن آتاه الله الملك»، يعني بذلك: حاجَّه فخاصمه في ربّه، لأنّ الله آتاه الملك.

وهذا تعجيبٌ من الله تعالى ذِكْرُه نبيَّه محمداً ﷺ، من الذي حاجّ إبراهيم في ربه. ولذلك أدخلت «إلى» في قوله: «ألم تر إلى الذي حاج»، وكذلك تفعل العرب إذا أرادت التعجيب من رجل في بعضِ ما أنكرتْ من فعله، قالوا: «ما ترى إلى هذا»؟! والمعنى: هل رأيت مثلَ هذا، أو كهذا؟!

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٢٥٨﴾﴾

يعني تعالى ذكره بذلك: ألم تر، يامحمد، إلى الذي حاج إبراهيم في ربه حين قال له إبراهيم: «ربي الذي يحيي ويميت»، يعني بذلك: ربي الذي

بيده الحياة والموت، يُحيي مَنْ يشاء، ويميتُ مَنْ أراد بعد الإحياء. قال: أنا أفعل ذلك، فأحيي وأمِيت، أستحيي مَنْ أردتُ قتله فلا أقتله، فيكون ذلك مني إحياءً له، وذلك عند العرب يسمى «إحياء»، كما قال تعالى ذكره: ﴿وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعاً﴾ [المائدة: ٣٢]، وأقتُل آخر، فيكونُ ذلك مني إماتةً له. قال إبراهيم ﷺ: فإن الله الذي هو ربي يأتي بالشمس من مشرقها، فَأْتِ بها ـ إن كنتَ صادقاً أنك إلهٌ ـ من مغربها! قال الله تعالى ذكره: «فَبُهِتَ الذي كفرَ»، يعني: انقطع وبطلت حُجَّتُهُ.

وقوله: «والله لا يهدي القوم الظالمين»، يقول: والله لا يهدي أهلَ الكفر إلى حجةٍ يُدحضون بها حجةَ أهلِ الحق عند المحاجّةِ والمخاصمة، لأن أهلَ الباطل حججهم داحضة.

وقد بينا أن معنى «الظلم» وضع الشيء في غير موضعه، والكافرُ وضع جحوده ماجحد في غير موضعه، فهو بذلك من فعله ظالمٌ لنفسه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ﴾

يعني تعالى ذكره بقوله: «أو كالذي مرّ على قرية»، نظيرَ الذي عنى بقوله: «ألم تر إلى الذي حَاجَّ إبراهيمَ في ربه»، من تعجيب محمد ﷺ منه.

وإنّ الله تعالى ذِكْرُه عجَّب نبيَّه ﷺ ممن قال ـ إذْ رأى قرية خاوية على عروشها ـ «أنَّى يُحيي هذهِ اللهُ بعد موتها»، مع علمه أنه ابتدأ خلقها من غير شيء، فلم يقنعه علمه بقدرته على ابتدائها حتى قال: أنَّى يحييها الله بعد موتها! ولا بيانَ عندنا من الوجه الذي يصحّ من قِبله البيانُ على اسم قائل ذلك. وجائزٌ أن يكون ذلك عُزَيراً، وجائز أن يكون أو رميا، ولا حاجة بنا إلى معرفة اسمه، إذْ لم يكن المقصود بالآية تعريف الخلق اسم قائل ذلك، وإنما

المقصود بها تعريف المنكرين قُدْرَةَ الله على إحيائه خلقَه بعد مماتهم، وإعادتهم بعد فنائهم، وأنه الذي بيده الحياة والموت ـ من قريش ومن كان يكذب بذلك من سائر العرب ـ وتثبيت الحجة بذلك على مَنْ كان بين ظهرانَيْ مُهاجَرِ رسولِ الله ﷺ من يهود بني إسرائيل، بإطلاعه نبيَّه محمداً ﷺ على مايُزيل شكهم في نبوته، ويقطعُ عذرهم في رسالته، إذْ كانت هذه الأنباء التي أوحاها إلى نبيه محمد ﷺ في كتابه، من الأنباء التي لم يكن يعلمها محمد ﷺ وقومُه، ولم يكن عِلْمُ ذلك إلاّ عند أهل الكتاب، ولم يكن محمد ﷺ وقومه منهم، بل كان أميًّا وقومه أمِّيُّون. فكان معلوماً بذلك عند أهلِ الكتابِ من اليهود الذين كانوا بين ظهراني مهاجَرِه، أنّ محمداً ﷺ لم يعلم ذلك إلا بوحي من الله إليه. ولو كان المقصودُ بذلك الخبرَ عن اسم قائل ذلك، لكانت الدلالة منصوبةً عليه نصباً يقطعُ العذرَ ويزيلُ الشك، ولكن القصد كان إلى ذم قِيله، فأبان تعالى ذكره ذلك لخلقه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا

يعني تعالى ذكره بقوله: «وهي خاوية»، وهي خالية من أهلها وسكانها.

وأما «العُـرُوش»، فإنهـا الأبنيةُ والبيوت واحدها «عَرْش»، وجَمْعُ قليلهِ «أعرُش». وكل بناء فإنه: «عرش». ويقال: «عَرَش فلان داراً يعرِش ويعرُش عرشاً»، ومنه قول الله تعالى ذكره: ﴿وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٧]، يعني يبنون، ومنه قيل: «عريش مكة»، يعني به: خيامها وأبنيتها.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِائَةَ عَامٍ

ومعنى ذلك فيما ذُكر لنا: أنَّ قائله لما مرَّ ببيت المقدس ـ أو بالموضع الذي ذكر الله أنه مرّ به ـ خراباً بعد ماعَهِدَهُ عامراً قال: أنَّى يُحْيِي هذه الله بعد خرابها؟

وقال بعضهم: كان قِيله ما قالَ مِنْ ذلك شكًّا في قدرةِ الله على إحيائه، فأراه الله قُدْرَتَهُ على ذلك بضربه المثلَ له في نفسه، ثم أراه الموضعَ الذي أنكر قُدرته على عمارته وإحيائه، أحيا ما رآه قبل خرابه، وأعمرَ ما كان قبل خرابه.

وذلك أنَّ قائلَ ذلك كان ـ فيما ذكر لنا ـ عَهِدَهُ عامراً بأهلِهِ وسكانه، ثم رآه خاوياً على عروشه قد بادَ أهلُه، وشتَّتهم القتلُ والسباء، فلم يبق منهم بذلك المكان أحدٌ، وخربت منازلهم ودورهم فلم يبقَ إلاّ الأثر. فلما رآه كذلك بعد الحالِ التي عهده عليها، قال: على أيِّ وَجهٍ يُحيي هذه الله بعد خرابها فيعمُرها، استنكاراً ـ فيما قاله بعض أهل التأويل ـ فأراهُ كيفية إحيائه ذلك بما ضربه له في نفسهِ، وفيما كان في إداوته وفي طعامه، ثم عَرَّفَهُ قُدْرَتَهُ على ذلك وعلى غيره، بإظهاره على إحيائه ما كان عَجباً عنده في قدرة الله إحياءَهُ رَأْيَ عينه حتى أبصره ببصره. فلما رأى ذلك قال: «أعلمُ أنَّ الله على كل شيء قدير».

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ بَعَثَهُۥۖ قَالَ كَمْ لَبِثْتَۖ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍۖ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِاْئَةَ عَامٍ﴾

يعني تعالى ذكره بقوله: «ثم بعثه»، ثم أثاره حيًّا من بعد مماته.

وأما معنى قوله «كم لبثت»، فإن «كم» استفهام في كلام العرب عن مبلغ العدد، وهو في هذا الموضع نصب بـ «لبثت»، وتأويله: قال الله له: كم قدرُ

الزمان الذي لبثتَ ميتاً قبل أنْ أبعثكَ من مماتك حيًّا؟ قال المبعوث بعد مماته: لبثتُ ميتاً إلى أن بعثتني حيًّا يوماً واحداً أو بعضَ يوم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَٱنظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ﴾

يعني تعالى ذكره بقوله: «فانظر إلى طعامك وشرابك لم يتسنّه»، لم تُغَيِّرهُ السِّنون التي أتت عليه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَٱنظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ﴾

إن الله تعالى ذكره بعث قائل: «أنّى يحيي هذه الله بعد موتها» من مماتهِ، ثم أراه نظيرَ ما استنكر من إحياءِ الله القريةَ التي مَرَّ بها بعد مماتها، عياناً من نفسهِ وطعامهِ وحماره. فجعل تعالى ذِكْرُه ما أراه من إحيائه نفسه وحماره، مثلاً لما استنكر من إحيائه أهل القرية التي مرّ بها خاويةً على عروشها، وجعل ما أراه من العِبرة في طعامه وشرابه، عبرةً له وحجة عليه في كيفية إحيائه منازل القرية وجنانها.

وإنما ذلك أولى بتأويل الآية، لأنّ قوله: «وانظر إلى العظام»، إنما هو بمعنى: وانظر إلى العظام التي تراها ببصرك، كيف ننشزُها ثم نكسوها لحماً. وقد كان حمارُه أدركه من البلى ـ في قول أهل التأويل جميعاً ـ نظيرُ الذي لحق عظامَ مَنْ خُوطب بهذا الخطاب، فلم يمكن صرف معنى قوله: «وانظر إلى العظام»، إلى أنه أمرٌ له بالنظر إلى عظامِ الحمارِ دون عظامِ المأمور بالنظر إليها، ولا إلى أنه أمر له بالنظر إلى عظام نفسه دون عظام الحمار. وإذْ كان ذلك كذلك، وكان البِلَى قد لَحِقَ عظامَهُ وعظامَ حماره، كان الأولى بالتأويل

أن يكون الأمرُ بالنظر إلى كل ما أدركه طرفه مما قد كان البلى لحقه، لأن الله تعالى ذكره جعل جميع ذلك عليه حجة، وله عبرةً وعظةً.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِّلنَّاسِ﴾

يعني تعالى ذكره بذلك: «ولنجعلك آيةً للناس»، أمتناك مئة عام ثم بعثناك.

وإنما عنى بقوله: «ولنجعلك آية»، ولنجعلك حُجَّةً على مَنْ جَهِلَ قُدرتي وشكَّ في عظمتي، وأنا القادرُ على فعل ما أشاء من إماتةٍ وإحياء، وإفناءٍ وإنشاء، وإنعامٍ وإذلال، وإقتارٍ وإغناء، بيدي ذلك كلُّه، لا يملكهُ أحد دوني، ولا يقدر عليه غيري.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَٱنظُرْ إِلَى ٱلْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا﴾

قد دللنا فيما مضى قَبْلُ على أن العظام التي أُمِر بالنظرِ إليها، هي عظام نفسه وحماره.

وأما قوله: «كيف ننشزُها»، فإن القَرَأَةَ اختلفت في قراءته.

فقرأه بعضهم: ﴿وَٱنْظُرْ إِلَى ٱلْعِظَامِ كَيْفَ نُنْشِزُهَا﴾، بضم النون، وبالزاي. وذلك قراءةُ عامةِ قَرَأَةِ الكوفيين، بمعنى: وانظر كيف نركِّبُ بعضَها على بعض، وننقل ذلك إلى مواضع من الجسم.

وقرأ ذلك آخرون: ﴿وَٱنْظُرْ إِلَى ٱلْعِظَامِ كَيْفَ نُنْشِرُهَا﴾ بضم النون (وبالراء). قالوا: من قول القائل، «أنشرَ اللهُ الموتى فهو يُنشِرهم إنشاراً»، وذلك قرأه عامة قَرَأَةِ أهلِ المدينة، بمعنى: وانظر إلى العظام كيف نحييها، ثم نكسوها لحماً.

واحتـج بعض قرأةِ ذلـك بالـراء وضم نون أوله، بقوله: ﴿ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنْشَرَهُ﴾ [عبس: ٢٢]، فرأى أنَّ من الصوابِ إلحاق قوله: «وانظر إلى العظام كيف ننشرها» به.

والقول في ذلك عندي أنّ معنى «الإنشاز». ومعنى «الإنشار» متقاربان. لأن معنى «الإنشاز» التركيبُ والإثبات ورَدُّ العظام إلى العظام، ومعنى «الإنشار» إعادة الحياة إلى العظام. وإعادتها لا شك أنه ردُّها إلى أماكنها ومواضعها من الجسد بعد مفارقتها إياها. فهما، وإن اختلفا في اللفظ، فمتقاربا المعنى. وقد جاءت بالقـراءة بهمـا الأمـة مجيئاً يقطعُ العذر ويُوجِبُ الحجة. فبأيِّهما قرأ القـارىء فمصيبٌ، لانقيادِ معنييهمـا، ولا حجـة توجبُ لإحـداهمـا القضـاءَ بالصواب على الأخرى.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا﴾

يعني تعـالى ذكره بقوله: «ثم نكسوها»، أي العظام «لحماً»، «والهاء» التي في قوله: «ثم نكسوها لحماً»، من ذكر العظام.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٥٩﴾﴾

يعني تعـالى ذكره بقوله: «فلما تبيَّنَ له»، فلما اتَّضَحَ له عياناً ما كان مستنكراً من قدرةِ الله وعظمته عنده قبل عيانه ذلك «قال أعلم» الآن بعد المعاينة والإيضاح والبيان «أن الله على كل شيء قدير».

ثم اختلفت القَرَأَةُ في قراءة قوله: «قال أعلم أن الله».

فقـرأه بعضهم: ﴿قَـالَ ٱعْلَمْ﴾ على معنى الأمـر بوصـل «الألف» من «اعلم»، وجزم «الميم» منها، وهي قراءة عامة قَرَأَةِ أهلِ الكوفة.

وقرأ ذلك آخرون: ﴿قَالَ أَعْلَمُ﴾، على وجه الخبر عن نفسه للمتكلم به، بهمز ألف «أعلم» وقَطْعِها، ورفع «الميم»، بمعنى: فلما تَبَيَّنَ له ما تَبَيَّنَ من قدرةِ اللهِ وعظيمِ سلطانه بمعاينته ما عايَنَهُ، قال: المتبيِّنُ ذلك: أعلم الآن أنا أنّ الله على كل شيء قدير.

وبذلك قرأ عامة قَرَأَةِ أهلِ المدينة، وبعض قَرَأَةِ أهلِ العراق.

وأولى القراءتين بالصواب في ذلك قراءة من قرأ ﴿ٱعْلَمْ﴾ بوصل «الألف» وجزم «الميم»، على وجه الأمر من الله تعالى ذكره للذي قد أحياه بعد مماته، بالأمر بأن يعلم أن الله ـ الذي أَراهُ بعينيه ما أراه من عظيمِ قدرتهِ وسلطانه، من إحيائه إياه وحمارَه بعد موتِ مئةِ عامٍ وبَلائه، حتى عادَا كهيئتهما يوم قبض أرواحهما، وحفظهِ عليه طعامه وشرابه مئة عام حتى ردّه عليه كهيئته يوم وضعه غير متغيرـ على كل شيء قادرٌ كذلك.

وإنما اخترنا قراءة ذلك كذلك، وحكمنا له بالصواب دون غيره، لأنَّ ما قبله من الكلام أمرٌ من الله تعالى ذكره: قولاً للذي أحياه الله بعد مماته، وخطاباً له به، وذلك قوله: «فانظر إلى طعامك وشرَابك لم يتسنَّه وانظر إلى حمارك. . . وانظر إلى العظام كيف ننشزها»، فلما تبين ذلك له جواباً عن مسألته ربَّه: «أنى يحيي هذه الله بعد موتها»، قال الله له: «اعلم أن الله» ـ الذي فعل هذه الأشياء على ما رأيتَ ـ على غير ذلك من الأشياء قديرٌ كقدرته على مارأيت وأمثاله، كما قال تعالى ذكره لخليله إبراهيم ﷺ ـ بعد أنْ أجابه عن مسألته إياه في قوله: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي ٱلْمَـوْتَى﴾ ـ ﴿وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾، فأمـر إبراهيمَ بأنْ يعلمَ، بعد أنْ أراهُ كيفيةَ إحيائه الموتى، أنه عزيز حكيم. فكذلك

أمر الذي سأل فقال: «أنى يحيي هذه الله بعد موتها»؟ بعد أن أراه كيفية إحيائه إياها ـ أن يعلم أنّ الله على كل شيء قدير.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَـٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى ۖ﴾

يعني تعالى ذكره بذلك: ألم تر إذْ قال إبراهيمُ: ربِّ أرني.

وإنما صلح أن يعطف بقوله: «وإذ قال إبراهيم» على قوله: «أو كالذي مرَّ على قرية»، وقوله: «ألم تر إلى الذي حاجّ إبراهيم في ربه»، لأن قوله: «ألم تر» ليس معناه: ألم تر بعينيك، وإنما معناه: ألم تر بقلبك، فمعناه: ألم تعلم فتذكر، فهو وإنْ كان لفظه لفظ «الرؤية»، فيعطف عليه أحياناً بما يوافق لفظه من الكلام، وأحياناً بما يوافق معناه.

ومعنى قوله: «ليطمئن قلبي»: ليسكن ويهدأ باليقين الذي يستيقنه.

وأما تأويل قوله: «قال أَوَ لم تؤمن»، فإنه: أَوَ لَمْ تُصدق؟

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ﴾

يعني تعالى ذكره بذلك: قال الله له: «فَخُذْ أربعةً من الطير»، فُذكر أنَّ الأربعةَ من الطير: الديكُ، والطاوُوس، والغرابُ، والحَمَام.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ﴾

اختلفت القَرَأَةُ في قراءة ذلك، فقرأته عامة قرأةِ أهلِ المدينة والحجاز والبصرة: ﴿فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ﴾ بضم «الصاد»، من قول القائل: «صُرْت إلى هذا

الأمر» إذا ملتُ إليه: «أَصُورُ صَوَرًا»، ويقال: «إنِّي إليكم لأَصْوَرُ»، أي: مشتاق مائل.

فمعنى قولـه: «فصُرْهن إليك»، اضْمُمْهُنَّ إليكَ ووجههن نحوك، كما يقال: «صُرْ وجهك إليّ»، أي أَقْبِلْ به إليَّ. ومن وَجَّه قوله: فصرهن إليك إلى هذا التأويل، كان في الكلام عنده متروك قد ترك ذكرُهُ استغناءً بدلالة الظاهر عليه ويكون معناه حينئذ عنده: «قال فخذ أربعةً من الطير فصرهن إليك»، ثم قطعهن، «ثم اجعل على كل جبل منهن جزءاً».

وقرأ ذلك جماعة من أهل الكوفة ﴿فَصِرْهُنَّ إِلَيْكَ﴾ بالكسر، بمعنى: قطعهن.

وسـواءٌ قرأ القـارىء ذلك بضم «الصاد»: «فصُرْهن إليك»، أو كسرها «فصِـرْهن»، إذ كانتـا لغتين معـروفتين بمعنى واحد. غير أنَّ الأمر وإن كان كذلك، فإنَّ أحَبَّهُمَا إليَّ أنْ أقرأ به: «فصرْهن إليك»، بضم «الصاد»، لأنها أعلى اللغتين وأشهرهما، وأكثرهما في أحياء العرب.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا﴾

إن الله تعالى ذكره أمرَ إبراهيم بتفريقِ أعضاء الأطيارِ الأربعة، بعد تقطيعه إياهن، على جميع الأجبالِ التي كان يصل إبراهيم في وقت تكليف الله إياه تفريقَ ذلك وتبديدَها عليها أجزاء. لأن الله تعالى ذِكْرُه قال له: «ثم اجعلْ على كل جبلٍ منهن جزءاً»، و«الكل» حرف يدل على الإحاطة بما أضيف إليه، لفظه واحد ومعناه الجمع.

وأما قوله: «ثم ادْعُهنَّ»، فإن معناه: هو أنه أُمِرَ أنْ يقول لأجزاءِ الأطيار بعد تفريقهن على كل جبل: «تعالين بإذنِ الله».

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ٢٦٠﴾

يعني تعالى ذكره بذلك: «واعلم»، ياإبراهيمُ، أنَّ الذي أحيا هذه الأطيار، بعد تمزيقكَ إياهن، وتفريقكَ أجزاءهن على الجبال، فجمعهن وردَّ إليهن الروحَ حتى أعادهن **كهيئتهنَّ** قبل تفريقكَهُنَّ «عزيز»، في بطشه إذا بطش بمن بطش من الجبابرةِ والمتكبرة، الذين خالفوا أمرَه، وعصوا رُسله، وعبدوا غيره، وفي نقمته حتى ينتقمَ منهم، «حكيم» في أمره.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ﴾

وهذه الآية مردودة إلى قوله: ﴿مَنْ ذَا ٱلَّذِي يُقْرِضُ ٱللهَ قَرْضاً حَسَناً فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافاً كَثِيرَةً وَٱللهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [البقرة: ٢٤٥]. والآياتُ التي بعدها إلى قوله: «مَثَلُ الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله»، من قصص بني إسرائيل وخبرهم مع طالوت وجالوت، وما بعد ذلك من نبأ الذي حاجَّ إبراهيمَ مع إبراهيم، وأمْرِ الذي مرَّ على القريةِ الخاويةِ على عروشها، وقصة إبراهيم ومسألته ربَّه ما سأل، مما قد ذكرناه قبل، اعتراض من الله تعالى ذِكْرُه بما اعترضَ به من قصصهم بين ذلك، احتجاجاً منه ببعضه على المشركين الذين كانوا يكذبون بالبعثِ وقيام الساعة، وحضاً منه ببعضه للمؤمنين على الجهاد في سبيله الذي أمرهم به في قوله: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ ٱللهِ وَٱعْلَمُوا أَنَّ ٱللهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٤٤]، يُعَرِّفُهم فيه أنه ناصرهم وإنْ قَلَّ عددهم وكثر

عدَدُ عدوِّهم، ويَعِدُهم النُّصْرَةَ عليهم، ويعلّمهم سنته فيمن كان على منهاجهم من ابتغاء رضوان الله أنه مؤيدهم، وفيمن كان على سبيل أعدائهم من الكفار بأنه خاذلهم ومفرِّقُ جمعهم ومُوهِنُ كيدهم، وقطعاً منه ببعضه عذرَ اليهود الذين كانوا بين ظهرَانْي مُهاجَر رسول الله ﷺ بما أطلع نبيَّه عليه من خفيِّ أمورهم لأنه كان عنها.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ﴾

والذي هو أولى بتأويل قوله: «والله يضاعفُ لمن يشاء»، والله يضاعف على السبعمئة إلى ما يشاء من التضعيف، لمن يشاء من المنفقين في سبيله. لأنه لم يَجْرِ ذكر الثوابِ والتضعيف لغيرِ المنفق في سبيل الله، فيجوز لنا توجيه ماوعد تعالى ذكره في هذه الآية من التضعيف، إلى أنه عِدَة منه على العمل (في غير سبيله، أو) على غير النفقة في سبيل الله.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ٢٦١﴾

يعني تعالى ذكره بذلك: «والله واسع»، أن يزيد من يشاء من خلقه المنفقين في سبيله على أضعاف السبعمئة التي وعده أن يزيده؛ «عليم» من يستحق منهم الزيادة.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُوا۟ مَنًّا وَلَآ أَذًى لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ٢٦٢﴾

يعني تعالى ذكره بذلك: المعطيَ مالَه المجاهدين في سبيل الله معونةً لهم على جهاد أعداء الله. يقول تعالى ذكره: الذي يعين المجاهدين في سبيل الله بالإنفاق عليهم وفي حَمُولاتهم وغير ذلك من مؤنهم، ثم لم يُتْبِعْ نفقتَهُ التي أنفقها عليهم، منًّا عليهم بإنفاق ذلك عليهم، ولا أذى لهم. فامتنانه به عليهم، بأن يظهر لهم أنه قد اصطنع إليهم، بفعله وعطائه الذي أعطاهموه تقويةً لهم على جهاد عدوهم، معروفاً، ويبدي ذلك إما بلسان أو فعل. وأما «الأذى» فهو شكايته إياهم بسبب ما أعطاهم وقوَّاهم من النفقة في سبيل الله، أنهم لم يقوموا بالواجب عليهم في الجهاد، وما أشبه ذلك من القول الذي يؤذي به من أنفقَ عليه.

وإنما شَرَط ذلك في المنفق في سبيل الله، وأوجبَ الأجر لمن كان غير مانٍّ ولا مؤذٍ مَن أنفق عليه في سبيل الله، لأن النفقة التي هي في سبيل الله: ما ابتغى به وجه الله وطلب به ماعنده. فإذا كان معنى النفقة في سبيل الله هو ما وصفنا، فلا وجه لمنِّ المنفق على مَنْ أنفق عليه، لأنه لايدَ له قِبَله ولا صَنيعة يستحق بها عليه ـ إنْ لم يكافئه عليها ـ المنَّ والأذى، إذ كانت نفقته ما أنفق عليه احتساباً وابتغاءَ ثواب الله وطلبَ مرضاته، وعلى الله مثوبته، دون من أنفق ذلك عليه.

ومعنى قوله: «لهم أجرهم عند ربهم»، لهم ثوابهم وجزاؤهم على نفقتهم التي أنفقوها في سبيل الله، ثم لم يُتْبِعُوها منًّا ولا أذى.

وقوله: «ولا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون»، يقول: وهم مع ما لهم من الجزاءِ والثوابِ على نفقتهم التي أنفقوها على ما شرطنا: «لا خوفٌ عليهم» عند مقدمهم على الله وفراقهم الدنيا، ولا في أهوالِ القيامة، وأنْ ينالهم من مكارِهها

أو يصيبهم فيها من عقابِ الله «ولا هم يحزنون» على ما خلفوا وراءهم في الدنيا.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَـالَى: ﴿قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى وَٱللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ ﴿٢٦٣﴾﴾

يعني تعالى ذكره بقوله: «قول معروف»، قولٌ جميل، ودعاءُ الرجل لأخيه المسلم، «ومغفـرة»، يعني: وسترٌ منه عليه لما علم من خَلّته وسوءِ حالته، «خيرٌ» عند الله «من صدقةٍ» يتصدقها عليه «يتبعها أذى»، يعني: يشتكيه عليها، ويُؤْذِيه بسببها.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَـالَى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُبْطِلُوا۟ صَدَقَـٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ﴾

يعني تعالى ذكره بذلك: «يا أيها الذين آمنوا»، صدقوا الله ورسوله، «لا تبطلوا صدقاتكم»: يقول: لا تُبْطِلُوا أجورَ صدَقاتكم بالمنّ والأذى، كما أبطل كفر الذي ينفق ماله «رئاء الناس»، وهو مراآته إياهم بعمله، وذلك أنْ ينفقَ مالَهُ فيما يرى الناسُ في الظاهر أنه يريدُ اللهَ تعالى ذكره فيحمدونه عليه، وهو غيرُ مريدٍ به الله ولا طالب منه الثواب، وإنما ينفقه كذلك ظاهراً ليحمده الناس عليه فيقولوا: «هو سَخِيٌّ كريم، وهو رجل صالحٌ»، فيحسنوا عليه به الثناء، وهم لا يعلمون ماهو مستبطنٌ من النيةِ في إنفاقه ما أنفق، فلا يدرون ماهو عليه من التكذيبِ بالله تعالى ذكره واليوم الآخر.

وأما قوله: «ولا يؤمن بالله واليوم الآخر»، فإنَّ معناه: ولا يصدقُ بوحدانيةِ الله ورُبوبيته، ولا بأنه مبعوثٌ بعد مماتِه فمجازى على عمله، فيجعل عمله لوجه الله وطلب ثوابه وما عنده في معاده. وهذه صفة المنافق. وإنما قلنا إنه منافق، لأن المُظْهِرَ كُفْرَهُ والمُعْلِنَ شِرْكَهُ، معلومٌ أنه لا يكون بشيء من أعماله مرائياً. لأن المرائي هو الذي يرائي الناس بالعمل الذي هو في الظاهر لله، وفي الباطن مريبةٌ سريرةُ عامله، مرادٌ به حمد الناس عليه. والكافر لايُخيلُ على أحدٍ أمرُه أن أفعاله كلها إنما هي للشيطان ـ إذا كان مُعْلِناً كفرَهُ ـ لا لله. ومن كان كذلك، فغير كائن مرائياً بأعماله.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ فَتَرَكَهُۥ صَلْدًا لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٦٤﴾﴾

يعني تعالى ذكره بذلك: فَمَثَلُ هذا الذي يُنفقُ مالَهُ رئاء الناس ولا يؤمن بالله واليوم الآخـر، «والهـاء» في قوله «فمثله»، عائدةٌ على «الذي»؛ «كمثل صفوانٍ»، «والصفوان» واحدٌ وجميعٌ، فمن جعله جميعاً فالواحدة «صفوانة»، بمنزلة «تمرة وتمر» و«نخلة ونخل». ومن جعله واحداً، جمعه «صِفْوان، وصُفِيّ، وصِفِيّ».

«والصفوان» هو «الصفا»، وهي الحجارة الملس.

وقـولـه: «عليه تراب»، يعني: على الصفوان ترابٌ، «فأصابه» يعني: أصابَ الصفوانَ. «وابلٌ»، وهو المطرُ الشديد العظيم.

وقوله: «فتركه صلداً» يقول: فترك الوابلُ الصفوانَ صَلداً.

«والصلد» من الحجارة، الصلبُ الذي لا شيءَ عليه من نباتٍ ولا غيره، وهو من الأَرَضين ما لاينبتُ فيه شيء، وكذلك من الرؤوس.

ثم رجع تعالى ذكره إلى ذكر المنافقين الذين ضرب المثلَ لأعمالهم، فقال: فكذلك أعمالهم بمنزلةِ الصَّفوان الذي كان عليه تراب، فأصابه الوابلُ من المطر فذهب بما عليه من التراب، فتركه نقيًّا لا ترابَ عليه ولا شيء، يراهمُ المسلمون في الظاهر أنَّ لهم أعمالاً ـ كما يُرى الترابُ على هذا الصفوان ـ بما يُرَاؤُونَهُمْ به، فإذا كان يوم القيامة وصاروا إلى الله، اضمحلَّ ذلك كله، لأنه لم يكن لله، كما ذهب الوابلُ من المطر بما كانَ على الصفوانِ من الترابِ، فتركه أملسَ لا شيءَ عليه.

فذلك قوله: «لا يقدرون»، يعني به: الذين ينفقون أموالهم رِئاءَ الناسِ، ولا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر، يقول: لا يقدرون يوم القيامة على ثوابِ شيء مما كسبوا في الدنيا، لأنهم لم يعملوا لمعادهم، ولا لطلبِ ما عندَ الله في الآخرة، ولكنهم عملوه رِئاءَ الناسِ وطلبَ حمدهم، وإنما حظهم من أعمالهم، ما أرادوه وطلبوه بها.

ثم أخبر تعالى ذكره أنه «لا يهدي القوم الكافرين»، يقول: لا يُسَدِّدُهم لإصابةِ الحقِّ في نفقاتهم وغيرها، فيوفقهم لها، وهم للباطل عليها مُؤْثِرُونَ، ولكنه يتركهم في ضلالتهم يعمهون.

فقال تعالى ذكره للمؤمنين: لا تكونوا كالمنافقين الذين هذا المثل صفةُ أعمالهم، فَتُبْطِلُوا أجورَ صدقاتكم بمنِّكم على مَنْ تصدقتم بها عليه وأذاكم لهم، كما بطل أجر نفقة المنافق الذي أنفق ماله رئاء الناس، وهو غير مؤمن بالله واليوم الآخر، عند الله.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾

يعني بذلك جل ثناؤه: «ومثل الذين ينفقون أموالهم» فيصَّدَّقون بها، ويحملون عليها في سبيل الله، ويقوُّون بها أهلَ الحاجة من الغزاة والمجاهدين في سبيل الله، وفي غير ذلك من طاعات الله، طَلَبَ مرضاتِهِ.

«وتثبيتاً من أنفسهم» يعني بذلك: وتثبيتاً لهم على إنفاق ذلك في طاعةِ الله وتحقيقاً، من قول القائل: «ثَبَّتُّ فلاناً في هذا الأمر» - إذا صححتُ عَزْمَهُ، وحققته، وقويت فيه رأيه - «أثبته تثبيتاً».

وإنما عنى الله جل وعز بذلك: أنّ أنفسهم كانت موقنةً مصدقة بوعد الله إياها فيما أنفقتْ في طاعته بغير مَنٍّ ولا أذى، فَثَبَّتَتْهُمْ في إنفاق أموالهم ابتغاء مرضاة الله، وصَحَّحَتْ عَزْمَهُمْ وآراءهم، يقيناً منها بذلك، وتصديقاً بوعدِ الله إياها ما وعدها. ولذلك قال مَنْ قال من أهل التأويل في قوله: «وتثبيتاً»، وتصديقاً؛ ومن قال منهم: ويقيناً لأن تثبيتَ أنفسِ المنفقين أموالَهم ابتغاء مرضاة الله إياهم، إنما كان عن يقينٍ منها وتصديقٍ بوعدِ الله.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَـَٔاتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ﴾

يعني بذلك جل وعز: ومثل الذين ينفقون أموالهم فيتصدقون بها ويُسبِّلُونها في طاعةِ الله بغير مَنٍّ على مَنْ تَصَدَّقُوا بها عليه، ولا أذى منهم لهم بها، ابتغاءَ رضوانِ الله وتصديقاً من أنفسهم بوعده، «كمثل جنة».

والجنة: البستان. «بربْوَة»، و«الرَّبوة» من الأرض: ما نشز منها فارتفع عن السيلِ. وإنمـا وصفها بذلك جَلَّ ثناؤه، لأنَّ ما ارتفع عن المسايل **والأودية** أغلظ، وجنانُ ما غلُظ من الأرض أحسنُ وأزكى ثمراً وغرساً وزرعاً، مما رقَّ منها.

وأما قوله: «أصابها وابلٌ»، فإنه يعني جَلَّ ثناؤه: أصابَ الجنةَ التي بالربوة من الأرض، وابلٌ من المطر، وهو الشديد العظيم القطر منه.

وقـولـه: «فآتت أُكلَها ضِعفين»، فإنه يعني الجنة: أنها أضعف ثَمَرُهَا ضِعفين حين أصابها الوابلُ من المطر.

وأما قوله: «فإنْ لم يُصِبْهَا وابلٌ فطلّ»، فإنَّ «الطَّلَّ»، هو النَّدَى، واللِّين من المطر.

وإنما يعني تعالى ذكره بهذا المثل: كما ضعَّفتُ ثمرة هذه الجنة التي وصفتُ صفتها حين جاد الوابل، فإن أخطأ هذا الوابل، فالطل كذلك. يضعِّف الله صَدقةَ المتصدِّق والمنفق ماله ابتغاء مرضاته وتثبيتاً من نفسه، من غير مَنٍّ ولا أذى، قلَّت نفقته أو كثرت، لا تخيب ولا تُخلِف نفقته، كما تضعَّف الجنة التي وصف جل ثناؤه صفتها، قَلَّ ما أصابها من المطر أو كثُر، لا يُخلِف خيرُها بحال من الأحوال.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ ٢٦٥﴾

يعني بذلك جل ثناؤه: «والله بما تعملون»، أيها الناس، في نفقاتكم التي تنفقونها «بصيرٌ» لا يخفى عليه منها ولا من أعمالكم فيها وفي غيرها شيء، يعلم مَنِ المنفق منكم بالمنّ والأذى، والمنفق ابتغـاءَ مرضـاةِ الله وتثبيتاً من نفسـه، فيُحصي عليكم حتى يجـازيَ جميعَكم جزاءه على عمله، إنْ خيراً

فخيراً، وإن شرًّا فشرًّا.

وإنما يعني بهذا القول جل ذكره، التحذيرَ من عقابه في النفقات التي ينفقها عباده وغير ذلك من الأعمال: أن يأتيَ أحدٌ من خَلْقِهِ ما قد تقدَّم فيه بالنهي عنه، أو يفرِّطَ فيما قد أمر به، لأن ذلك بمرأى من الله ومَسمَع، يعلمه ويحصيه عليهم، وهو لخلقه بالمرصاد.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ لَهُۥ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَأَصَابَهُ ٱلْكِبَرُ وَلَهُۥ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَآءُ فَأَصَابَهَآ إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَٱحْتَرَقَتْ﴾

ومعنى ذلك: «يا أيها الذين آمنوا لا تُبْطِلُوا صدقاتكم بالمنّ والأذى كالذي ينفق ماله رئاءَ الناس ولا يؤمن بالله واليوم الآخر، فمثله كمثل صَفوان عليه تراب فأصابه وابلٌ فتركه صلداً لا يقدرون على شيء مما كسبوا»، «أيودُّ أحدكم أنْ تكونَ له جنةٌ من نخيل وأعناب تجري من تحتها الأنهار له فيها من كل الثمرات وأصَابه الكبر»، الآية.

ومعنى قوله: «أيود أحدكم» أيُحِبُّ أحدكم، «أنْ تكونَ له جنة»، يعني: بستاناً «من نخيلٍ وأعناب تجري من تحتها الأنهار»، يعني: من تحتِ الجنة «وله فيها من كل الثمرات». و«الهاء» في قوله «له» عائدة على «أحد»، و«الهاء» و«الألف» في «فيها» على «الجنة». «وأصابه»، يعني: وأصابَ أحدكم «الكبر وله ذرية ضعفاء».

وإنما جعل جل ثناؤه البستانَ من النخيل والأعناب ـ الذي قال جل ثناؤه لعباده المؤمنين: أيود أحدكم أن تكون له ـ مَثَلاً لنفقةِ المنافقِ التي يُنفقها رئاء الناس، لا ابتغاءَ مرضاةِ الله، فالناس ـ بما يظهر لهم من صدقته وإعطائه لما

يعطي وعمله الظاهر ـ يُثْنُونَ عليه ويحمدونه بعملهِ ذلك أيامَ حياته، في حُسْنِهِ كَحُسْنِ البستان، وهي الجنةُ التي ضربها الله عز وجل لعمله مثلاً، من نخيل وأعناب له فيها من كل الثمرات، لأنَّ عمله ذلك الذي يعمله في الظاهر في الدنيا فيه من كُلِّ خيرٍ من عاجل الدنيا، يدفع به عن نفسه ودمه وماله وذريته، ويكتسبُ به المحمَدةَ وحُسْنَ الثناء عند الناس، ويأخذ به سهمَهُ من المغنم، مع أشياء كثيرة يكثر إحصاؤها، فله في ذلك من كل خير في الدنيا، كما وصف جل ثناؤه الجنة التي وصف مَثَلاً لعمله، بأنَّ فيها من كل الثمرات.

ثم قال جل ثناؤه: «وأصابه الكبر وله ذرية ضعفاء»، يعني أنَّ صاحبَ الجنـة أصـابـه الكبر «وله ذرية ضعفاء»: صغارٌ أطفال، «فأصابها»، يعني: فأصابَ الجنةَ ـ «إعصارٌ فيه نار فاحترقت»، يعني بذلك أنَّ جنته تلك أحرقتها الريحُ التي فيها النارُ، في حال حاجتهِ إليها وضرورتهِ إلى ثمرتها بكبرهِ، وضَعْفِهِ عن عمارتها، وفي حال صغر ولده وعجزهِ عن إحيائها والقيامِ عليها. فبقي لا شيءَ له، أحوجَ ما كان إلى جنتهِ وثمارها، بالآفةِ التي أصابتها من الإعصار الذي فيه النار.

يقـول: فكذلك المنفقُ مالَهُ رِئاءَ الناس، أطفأ الله نورَهُ، وأذهبَ بهاءَ عمله، وأحبطَ أجره، حتى لقيه وعاد إليه أحوجَ ما كان إلى عمله، حين لا مُسْتَعْتَبَ له، ولا إقالةَ من ذنوبهِ، ولا توبةَ، واضْمَحَلَّ عملُه، كما احترقت الجنة التي وصف جل ثنـاؤه صفتها عند كبر صاحبها وطفولة ذريته، أحوجَ ما كان إليها، فبطلت منافعها عنه.

وهذا المثل الذي ضربه الله للمنفقين أموالَهم رِئاء الناس في هذه الآية، نظير المثـل الآخـر الذي ضربه لهم بقوله: «فمثله كمثل صفوان عليه ترابٌ فأصابه وابلٌ فتركه صلدًا لا يقدرُون على شيء مما كسبوا».

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْأَيَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ۝٢٦٦﴾

يعني بذلك جل ثناؤه: كما بيَّن لكم ربُّكم تبارك وتعالى أمرَ النفقة في سبيله، وكيف وجْهُها، وما لكم وما ليس لكم فِعْلُهُ فيها، كذلك يبين لكم الآيات سوى ذلك، فيعرِّفُكم أحكامَها وحلالَها وحرامها، ويوضح لكم حُجَجها، إنعاماً منه بذلك عليكم «لعلكم تتفكرون»، يقول: لتتفكروا بعقولكم، فتتدبَّروا وتعتبروا بحججِ الله فيها، وتعملوا بما فيها من أحكامها، فتطيعوا الله به.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنفِقُوا۟﴾

يعني جل ثناؤه بقوله: «ياأيها الذين آمنوا»، صَدِّقوا بالله ورسوله وآيِ كتابه. ويعني بقوله: «أنفقوا»، زكُّوا وتصدقوا.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبْتُمْ﴾

يعني بذلك جل ثناؤه: زَكُّوا من طَيِّب ما كسبتم بتصرُّفكم إما بتجارةٍ، وإما بصناعة من الذهب والفضة.

ويعني بـ«الطيبات»، الجياد، يقول: زكوا أموالكم التي اكتسبتموها حلالاً وأعطوا في زكاتكم الذهبَ والفضة، الجيادَ منها دون الرديء.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾

يعني بذلك جل ثناؤه: وأنفقوا أيضاً مما أخرجنا لكم من الأرض،

فتصدَّقوا وزكُّوا من النخلِ والكرم والحنطة والشعير، وما أوجبتُ فيه الصدقةَ من نباتِ الأرض.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ﴾

يعني بقوله جل ثناؤه: «ولا تيمموا الخبيث»، ولا تَعَمَّدُوا، ولا تقصدوا.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ﴾

يعني جل ثناؤه بـ «الخبيث»، الرديء، غير الجيد، يقول: لاتعمَّدوا الرديء من أموالكم في صدقاتكم فتصدقوا منه، ولكن تصدَّقوا من الطيبِ الجيد.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَسْتُم بِآخِذِيهِ إِلَّا أَن تُغْمِضُوا فِيهِ﴾

يعني بذلك جل ثناؤه: ولستم بآخذي الخبيثِ في حقوقكم. «إلا أن تغمضوا فيه»، يعني: إلا أن تتجافوا في أخذِكم إياهُ عن بعض الواجبِ لكم من حقكم، فترخِّصوا فيه لأنفسكم. والذي هو أولى بتأويل ذلك عندنا، أن يقال:

إن الله عز وجل حَثَّ عباده على الصدقة وأداء الزكاة من أموالهم، وفرضَها عليهم فيها[1]، فصار ما فَرَضَ من ذلك في أموالهم، حقًّا لأهلِ سُهمانِ الصَّدقة. ثم أمرهم تعالى ذكره أن يُخْرِجُوا من الطَّيِّبِ ـ وهو الجيد من أموالهم ـ الطَّيِّبَ. وذلك أنَّ أهل السُّهمان شُركاء أرباب الأموال في أموالهم، بما وَجَبَ

(١) يعني: فرض عليهم الزكاة في أموالهم.

لهم فيها من الصدقة بعد وجوبها. فلا شك أنَّ كل شريكين في مال، فلكلٍّ واحدٍ منهما بقدر ملكه، وليس لأحدهما منعُ شريكه من حقه من الملك الذي هو فيه شريكه، بإعطائه ـ بمقدار حقه منه ـ من غيره مما هو أردأ منه وأخسُّ. فكذلك المزكّي مالَه، حرّم الله عليه أن يعطي أهل السهمان ـ مما وجبَ لهم في ماله من الطيبِ الجيدِ من الحق فصاروا فيه شركاء ـ من الخبيث الرديء غيره، ويمنعهم ما هو لهم من حقوقهم في الطيِّبِ من ماله الجيد. كما لو كان مال ربِّ المال رديئاً كله غير جيد، فوجبت فيه الزكاة وصارَ أهل سهمان الصدقة فيه شركاءَ بما أوجبَ اللهُ لهم فيه، لم يكن عليه أن يعطيهم الطيب الجيد من غير مالهِ الذي منه حقُّهم.

فقال تبارك وتعالى لأرباب الأموال: زكُّوا من جَيِّدِ أموالكم الجيّدَ، ولا تيمموا الخبيثَ الرديء تعطونه أهلَ سُهْمان الصدقة، وتمنعوهم الواجب لهم من الجيد الطيب في أموالكم، ولستم بآخذِيَ الرديء لأنفسكم مكانَ الجيد الواجبِ لكم قبل من وجب لكم عليه ذلك من شركائكم وغرمائكم وغيرهم، إلّا عن إغماضٍ منكم وهَضْمٍ لهم وكراهةٍ منكم لأخذهِ. يقول: ولا تأتوا من الفعل إلى مَنْ وجبَ له في أموالكم حقٌّ، ما لا ترضون من غيركم أنْ يأتيه إليكم في حقوقكم الواجبة لكم في أموالهم.

فأما إذا تطوّع الرجلُ بصَدقَة غيرِ مفروضةٍ، فإنِّي وإنْ كرهتُ له أن يعطي فيها إلا أجودَ ماله وأطيبه، لأنَّ الله عز وجل أحقّ مَنْ تُقُرِّبَ إليه بأكرمِ الأموال وأطيبها، والصّدَقة قُرْبان المؤمن ـ فلستُ أحرِّمُ عليه أن يعطي فيها غيرَ الجيد، لأنّ ما دون الجيد ربما كان أعمَّ نفعاً لكثرته أو لعظمَ خطره ـ وأحسنَ موقعاً من المسكين، وممن أعطيه قُرْبةً إلى الله عز وجل ـ من الجيد، لِقلّتِهِ أو لصغرِ خطره وقلة جدوى نفعه على مَنْ أُعْطِيَهُ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ٢٦٧﴾

يعني بذلك جل ثناؤه: واعلموا، أيها الناس، أن الله عز وجل غنيٌّ عن صدقاتكم وعن غيرها، وإنما أمركم بها وفرضَها في أموالكم، رحمة منه لكم ليُغنيَ بها عائلكم[1]، ويُقَوِّي بها ضعيفَكم، ويُجْزِل لكم عليها في الآخرة مثوبتكم، لا من حاجة به فيها إليكم.

ويعني بقوله: «حميد»، أنه محمود عند خَلْقِه بما أولاهم من نعمه، وبسط لهم من فضله.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا ۗ﴾

يعني بذلك تعالى ذكره: «الشيطانُ يَعدكم»، أيها الناس - بالصدقة[2] وأدائكم الزكاة الواجبةَ عليكم في أموالكم - أنْ تَفْتَقِرُوا «ويأمركم بالفحشاء»، يعني: ويأمركم بمعاصي الله عز وجل وترك طاعته، «والله يَعِدُكم مغفرةً منه»، يعني: إن الله عز وجل يَعدكم، أيها المؤمنون، أن يستر عليكم فحشاءكم، بصفحِهِ لكم عن عقوبتكم عليها، فيغفر لكم ذُنوبكم بالصدقة التي تتصدّقون؛ «وفضلاً» يعني: ويعدكم أنْ يخلفَ عليكم من صَدَقتكم، فيتفضل عليكم من عطاياه، ويُسبغ عليكم في أرزاقكم.

---

(١) العائل: الفقير.

(٢) قوله: بالصدقة: أي بسبب الصدقة.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ۝٢٦٨﴾

يعني تعالى ذكره: «والله واسع» الفضل الذي يعدكم أن يُعْطِيكموهُ من فضلهِ وسَعةِ خزائنه؛ «عليم» بنفقاتكم وصدقاتكم التي تُنفقون وتصَّدَّقون بها، يحصيها لكم حتى يجازيكم بها عند مقدَمكم عليه في آخرتكم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يُؤْتِى ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ﴾

يعني بذلك جل ثناؤه يؤتي الله الإصابةَ في القول والفعل مَنْ يشاء من عباده، ومن يُؤتَ الإصابةَ في ذلك منهم فقد أوتي خيراً كثيراً.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ۝٢٦٩﴾

يعني بذلك جل ثناؤه: وما يتَّعظُ بما وعظ به ربُّه في هذه الآيات ـ التي وعَظ فيها المنفقين أموالَهم بما وعظهم به وغيرهم ـ فيها وفي غيرِها من آيِ ـ كتابه فيذكر وَعْدَهُ ووعيدَهُ فيها، فينزجر عما زَجره عنه ربه، ويطيعه فيما أمره به ـ «إلّا أولو الألباب»، يعني: إلّا أولو العقول، الذين عَقلوا عن الله عز وجل أمره ونهيه.

فأخبر جل ثناؤه أن المواعظ غيرُ نافعةٍ إلا أولي الحِجا والحُلوم، وأنَّ الذكرى غيرُ ناهيةٍ إلّا أهلَ النُّهى والعقول.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُهُۥ ۗ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ۝٢٧٠﴾

يعني بذلك جل ثناؤه: وأيّ نَفقة أنفقتم - يعني: أيّ صدَقة تصدّقتم - أو أيّ نَذْرٍ نذرتم يعني «بالنذر»، ما أوجبه المرءُ على نفسه تبرُّراً في طاعة الله، وتقرُّباً به إليه: منْ صدقةٍ أو عملِ خيرٍ، «فإن اللهَ يَعلمهُ»، أي أن جميع ذلك يعلمه الله، لايعزُبُ عنه منه شيءٌ، ولا يَخْفَى عليه منه قليلٌ ولا كثير، ولكنه يحصيه أيها الناس عليكم حتى يجازيكم جميعَكم على جميع ذلك. فمنْ كانت نفقتُه منكم وصدَقتهُ ونَذْرهُ ابتغاءَ مرضاةِ الله وتثبيتاً من نفسه، جازاه بالذي وعده من التضعيفِ، ومَنْ كانت نفقته وصدقته رئاءَ الناس ونذورُه للشيطان، جازاه بالذي أوْعدَه من العقابِ وأليم العذاب.

ثم أوعد جل ثناؤه مَنْ كانت نفقته رياءً ونذورُه طاعةً للشيطان فقال: «وَما للظالمين من أنصار»، يعني: وما لِمَنْ أنفقَ مالَهُ رِئاءَ الناس وفي معصية الله، وكانت نذوره للشيطان وفي طاعته «من أنصار»، وهم جمع «نصير»، كما «الأشرافُ» جمع «شريف». ويعني بقوله: «من أنصَار»، مَنْ ينصرهم من الله يوم القيامة، فيدفعُ عنهم عقابَهُ يومئذٍ بقوةٍ وشدّة بطش، ولا بفدية.

وقد دللنا على أن «الظالم» هو الواضع للشيء في غير موضعه.

وإنما سَمَّى اللهُ المنفقَ رئاءَ الناس والناذرَ في غير طاعته، ظالماً، لوضعهِ إنفاق مالهِ في غير موضعه، ونذره في غيرِ مَالَهُ وَضْعُهُ فيه، فكان ذلك ظُلمَه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: إِن تُبْدُواْ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِىَ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ

يعني بقوله جل ثناؤه: «إنْ تُبْدُوا الصَّدَقات»، إنْ تُعلنوا الصدقات فَتُعطوها مَنْ تصدقتم بها عليه «فنعِمَّا هي»، يقول: فنعم الشيء هي «وإنْ تُخفوها»، يقول: وإن تستروها فلم تعلنوها «وتؤتوها الفقراء»، يعني: وتعطوها الفقراء في

السر «فهو خيرٌ لكم»، يقول: فإخفاؤكم إياها خيرٌ لكم من إعلانها. وذلك في صَدَقة التطوّع.

وقال آخرون: إنما عنى الله عز وجل بقوله: «إنْ تُبْدوا الصدقات فنعمّا هي»، إنْ تبدُوا الصدقاتِ على أهل الكتابين من اليهود والنصارى فنعِمَّا هيَ، وإنْ تُخفوها وتؤتوها فقراءَهم فهو خيرٌ لكم. قالوا: وأما ما أعطى فقراءَ المسلمين من زكاةٍ وصدقةِ تطوُّع، فإخفاؤه أفضلُ من علانيته.

ولم يخصص الله من قوله: «إن تبدوا الصدقات فنعما هي» [شيئاً دون شيء]، فذلك على العموم إلا ما كان من زكاةٍ واجبة، فإنَّ الواجبَ من الفرائض قد أجمع الجميعُ على أنَّ الفضل في إعلانه وإظهاره، سوى الزكاة التي ذكرنا اختلافَ المختلفين فيها، مع إجماعِ جميعهم على أنها واجبة، فحُكمها في أنّ الفضل في أدائها علانية، حكمُ سائر الفرائض غيرها.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّئَاتِكُمْ﴾

اختلفت القَرَأةُ في قراءة ذلك.

فَرُوِيَ عن ابنِ عباس أنه كان يقرؤه: ﴿وتُكَفِّرُ عَنْكُمْ﴾ بالتاء. ومَنْ قرأه كذلك فإنه يعني به: وتكفِّرُ الصدقاتُ عنكم من سيئاتكم.

وقرأ آخرون: ﴿ويُكَفِّرُ عَنْكُمْ﴾ بالياء، بمعنى: ويكفر الله عنكم بصدقاتكم، على ما ذُكر في الآية، من سيئاتكم.

وقرأ ذلك بعدُ عامة قَرأةِ أهلِ المدينة والكوفة والبصرة، ﴿ونُكَفِّرْ عَنْكُمْ﴾ بالنون وجزم الحرف، يعني: وإنْ تُخفوها وتؤتوها الفقراءَ نُكفر عنكم من سيئاتكم - بمعنى مجازاة الله عز وجل مخفِي الصدقة بتكفيرِ بعض سيئاته

بصدَقته التي أخفاها.

وأولى القراءات في ذلك عندنا بالصواب قراءةُ مَنْ قرأ: ﴿ونُكَفِّرْ عَنْكُمْ﴾ بالنون وجزم الحرف، على معنى الخبر من الله عن نفسه أنه يُجازي المخفي صدقتَه من التطوّع ابتغاءَ وجهه من صدقته، بتكفير سيئاته. وإذا قرىء كذلك، فهو مجزوم على موضع «الفاء» في قوله: «فَهو خير لكم». لأن «الفاء» هنالك حلت محلّ جواب الجزاء.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٧١﴾﴾

يعني بذلك جل ثناؤه: «والله بما تعملون» في صَدَقاتكم، من إخفائها، وإعلانٍ وإسرارٍ بها وجهار، وفي غير ذلك من أعمالكم «خبير» يعني بذلك: ذو خبرة وعلم، لا يخفى عليه شيءٌ من ذلك، فهو بجميعهِ محيطٌ، ولكله مُحْصٍ على أهله، حتى يوفّيهم ثوابَ جميعه، وجزاءَ قليلهِ وكثيرهِ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۗ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنفُسِكُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ ٱللَّهِ ۚ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٢﴾﴾

يعني تعالى ذكره بذلك: ليس عليك، يامحمد، هُدى المشركين إلى الإسلام، فتمنعهم صَدَقة التطوُّع ولا تُعطيهم منها، ليدخلوا في الإسلام حاجةً منهم إليها، ولكن الله هو يهدي مَنْ يشاءُ من خلقه إلى الإسلام فيوفقهم له، فلا تمنعهم الصّدَقة.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحْصِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِى ٱلْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ

﴿ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَٰهُمْ لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا ۗ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴾ ٢٧٣

أما قوله: «للفقراء الذين أُحْصِرُوا في سبيل الله»، فبيانٌ من الله عز وجل عن سبيلِ النفقة ووجهِها. ومعنى الكلام: وما تُنْفِقُوا من خير، فلأنفسكم تنفقون للفقراء الذين أحصروا في سبيل الله.

«واللام» التي في «الفقراء» مردودة على موضع «اللام» في «فلأنفسكم» كأنه قال: «وما تنفقوا من خير» يعني به: وما تتصدقوا به من مالٍ فللفقراء الذين أُحصروا في سبيل الله. فلما اعترض في الكلام بقوله: «فلأنفسكم»، فأدخل «الفاء» التي هي جوابُ الجزاء فيه، تُركت إعادتها في قوله: «للفقراء»، إذ كان الكلام مفهوماً معناه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ عزَّ وجلَّ: ﴿ٱلَّذِينَ أُحْصِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾

يعني تعالى ذكره بذلك: الذين جَعلهم جهادُهم عدوَّهم يُحْصِرُونَ أنفسَهم فيحبسونها عن التصرُّفِ، فلا يستطيعون تصرّفاً.

وقد دللنا فيما مضى قَبْلُ على أن معنى «الإحصار»، تصيير الرجل المحصَر بمرضه أو فاقته أو جهاده عدوَّه، وغير ذلك من علله، إلى حالة يحبس نفسَه فيها عن التصرُّف في أسبابه، بما فيه الكفاية فيما مضى قبل.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِى ٱلْأَرْضِ﴾

يعني بذلك جل ثناؤه: لا يستطيعون تقلُّباً في الأرض وسفراً في البلاد، ابتغاءَ المعاش وطَلبَ المكاسب، فيستغنوا عن الصدقات، رهبةَ العدوِّ وخوفاً

على أنفسهم منهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ﴾

يعني بذلك: «يحسبهم الجاهل» بأمرهم وحالهم «أغنياء» من تَعَفُّفِهم عن المسألةِ، وتَرْكِهم التعرضَ لما في أيدي الناس، صبراً منهم على البأساء والضراء.

ويعني بقوله: «مِنَ التعفف»، من تَرْك مسألة الناس.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿تَعْرِفُهُم بِسِيمَٰهُمْ﴾

إن الله عز وجل أخبر نبيَّه ﷺ أنه يعرفهم بعلاماتهم وآثار الحاجة فيهم. وإنما كان النبيُّ ﷺ يدركُ تلك العلاماتِ والآثار منهم عند المشاهدةِ بالعيان، فيعرفُهم وأصحابه بها، كما يُدرك المريض فيعلم أنه مريضٌ بالمعاينة. وقد يجوز أن تكون تلك السيما كانت تخشُّعاً منهم، وأن تكون كانت أثر الحاجة والضرِّ، وأن تكون كانت رثاثةَ الثيابِ، وأن تكون كانت جميعَ ذلك. وإنما تُدرك علامات الحاجة وآثار الضر في الإنسان ويعلم أنها من الحاجة والضر، بالمعاينة دون الوصف. وذلك أن المريض قد يصير به في بعض أحوال مرضه من المرض، نظيرُ آثار المجهود من الفاقةِ والحاجة. وقد يلبس الغنيُّ ذو المال الكثير الثيابَ الرثة، فيتزيًّا بزيِّ أهلِ الحاجة، فلا يكون في شيء من ذلك دلالة بالصفَّة على أنّ الموصوفَ به مختلٌّ ذو فاقة. وإنما يدري ذلك عند المعاينة بسيماه كما وصف الله، نظير ما يُعرف أنه مريضٌ عند المعاينة، دون وَصْفه بصفته.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا﴾

يقال: «قد ألحف السائل في مسألته»، إذا ألحّ «فهو يُلْحِفُ فيها إلحافاً».

فإن قال قائل: أفكان هؤلاء القوم يسألون الناس غيرَ إلحاف؟

قيل: غير جائز أن يكون كانوا يسألون الناس شيئاً على وجه الصدقة إلحافاً أو غير إلحافٍ. وذلك أن الله عز وجل وصفهم بأنهم كانوا أهلَ تَعَفُّفٍ، وأنهم إنما كانوا يُعرفون بسيماهم. فلو كانت المسألةُ من شأنهم، لم تكن صفتُهم التعففَ، ولم يكن بالنبيِّ ﷺ إلى عِلْمِ معرفتهم بالأدلة والعلامة حاجةٌ، وكانت المسألةُ الظاهرة تُنبيء عن حالهم وأمرهم.

فإن قال قائل: فإن كان الأمر على ما وصفتَ، فما وجهُ قوله: «لا يسألون الناس إلحافاً»، وهم لا يسألون الناس إلحافاً أو غير إلحاف.

قيل له: وجه ذلك: أنّ الله تعالى ذكره لما وصفهم بالتعفف، وعَرَّفَ عبادَه أنهم ليسوا أهلَ مسألةٍ بحالٍ بقوله: «يحسبهم الجاهلُ أغنياءَ من التعفف»، وأنهم إنما يُعرفون بالسيما ـ زاد عبادَه إبانةً لأمرهم وحُسْنَ ثناءٍ عليهم، بنفي الشَّره والضراعة التي تكون في المُلِحِّينَ من السُّؤَّال، عنهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٤﴾﴾

(قيل):

عنى بذلك قوماً أنفقوا في سبيل الله في غير إسرافٍ ولا تقتير.

وقد قيل إنّ هذه الآيات من قوله: «إن تُبدوا الصّدقات فنعما هي» إلى

قوله: «ولا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون»، كان مما يُعمل به قبل نُزول ما في «سورة براءة» من تفصيل الزَّكوات، فلما نزلت «براءة»، قُصِروا عليها.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ﴾

يعني بذلك جل ثناؤه: الذين يُرْبون.

و«الإرباء» الزيادة على الشيء، يقال منه: «أرْبى فلانٌ على فلان»، إذا زاد عليه، «يُرْبي إرباءً»، والزيادة هي «الربا».

وإنما قيل للمربي: «مُرْبٍ»، لتضعيفهِ المالَ، الذي كان له على غريمهِ حالًا، أو لزيادته عليه فيه لسبب الأجل الذي يؤخره إليه فيزيده إلى أجله الذي كان له قبلَ حَلّ دينه عليه. ولذلك قال جل ثناؤه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافاً مُضَاعَفَةً﴾ [آل عمران: ١٣١].

فقال جل ثناؤه: الذين يُرْبون الربا الذي وصفنا صفته في الدنيا، «لا يقومون» في الآخرة من قبورهم، «إلا كما يقومُ الذي يتخبَّطه الشيطانُ من المس»، يعني بذلك: يتخبَّله[1] الشيطان في الدنيا، وهو الذي يخنقه فيصرعه «من المَسِّ»، يعني: من الجنون.

ومعنى قوله: «يتخبطه الشيطانُ من المسّ»، يتخبله من مَسِّه إياه.

يقال منه: «قد مُس الرجل وأُلِقَ، فهو مَمسوس ومَألوق»، كل ذلك إذا ألمّ به اللَّمَمُ فجُنَّ. ومنه قول الله عز وجلّ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا﴾ [الأعراف: ٢٠١].

---

(١) تَخبَّلَهُ: أفسد عقله وأعضاءه.

فإن قال لنا قائل: أفرأيتَ مَنْ عمل ما نهى اللهُ عنه من الرِّبا في تجارته ولم يأكله، أيستحقُّ هذا الوعيدَ من الله؟

قيل: نعم، وليس المقصود من الربا في هذه الآية الأكلُ، إلا أنّ الذين نزلت فيهم هذه الآيات يوم نزلت، كانت طُعمتهم ومأكلُهم من الربا، فذكرهم بصفتهم، معظّماً بذلك عليهم أمرَ الرّبا، ومقبِّحاً إليهم الحال التي هم عليها في مطاعمهم. وفي قوله جل ثناؤه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِين * فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللهِ وَرَسُولِه﴾ [البقرة: ٢٧٨، ٢٧٩] الآية، مايُنْبِىءُ عن صِحَّةِ ما قلنا في ذلك، وأنّ التحريم من الله في ذلك كان لكل معاني الرّبا، وأنّ سواءً العملُ به وأكلُه وأخذُه وإعطاؤُه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰاْ﴾

يعني بـ «ذلك» جَلَّ ثناؤه: ذلك الذي وصفهم به من قيامهم يوم القيامة من قبورهم، كقيام الذي يتخبطه الشيطان من المسِّ من الجنون. فقال تعالى ذكره: هذا الذي ذكرنا أنه يصيبهم يوم القيامة من قُبح حالهم، ووَحشةِ قيامهم من قبورهم، وسوءِ ما حلَّ بهم، من أجل أنهم كانوا في الدنيا يكذبون ويفترون ويقولون: «إنما البيعُ» الذي أحَلَّهُ اللهُ لعبادِهِ «مثلُ الرّبا». وذلك أن الذين كانوا يأكلون الرّبا من أهل الجاهلية، كان إذا حلّ مالُ أحدهم على غريمه، يقول الغَريم لغريم الحق: «زدني في الأجل وأزيدكَ في مالك». فكان يقال لهما إذا فعلا ذلك: «هذا رباً لا يحل». فإذا قيل لهما ذلك قالا: «سواءٌ علينا زِدْنا في أولِ البيع، أو عند مَحِلّ المال»! فكذَّبهم الله في قيلهم فقال: وأحلّ الله البيع».

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰا۟ فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٧٥﴾﴾

يعني جل ثناؤه: وأحلَّ اللهُ الأرباحَ في التجارة والشراء والبيع، «وحرّم الربا»، يعني الزيادةَ التي يزاد رب المال بسبب زيادته غريمه في الأجل، وتأخير دَيْنه عليه. يقول عز وجل: فليست الزيادتان اللتان إحداهما من وجه البيع، والأخرى من وجه تأخيرِ المال والزيادة في الأجل، سواء. وذلك أنِّي حرّمتُ إحدى الزيادتين وهي التي من وجه تأخيرِ المالِ والزيادةِ في الأجل، وأحللتُ الأخرى منهما، وهي التي من وجه الزيادة على رأس المال الذي ابتاع به البائع سلعته التي يبيعها، فيستفضلُ فَضْلها. فقال الله عز وجل: ليست الزيادةُ من وجه البيع نظيرَ الزيادة من وجه الربا، لأنّي أحللتُ البيعَ وحرَّمتُ الرّبا، والأمر أمري والخلق خلقي، أقضي فيهم ما أشاء، وأستعبدهم بما أريد، ليس لأحدٍ منهم أن يعترضَ في حكمي، ولا أن يخالفَ أمري، وإنما عليهم طاعتي والتسليمُ لحكمي.

ثم قال جل ثناؤه: «فمن جاءه موعظة من ربه فانتهى»، يعني بـ«الموعظة»: التذكير، والتخويفَ الذي ذكرهم وخوَّفهم به في آيِ القرآن، وأوعدهم على أكلهم الربا من العقاب. يقول جل ثناؤه: فمن جاءه ذلك، «فانتهى» عن أكل الربا وارتدعَ عن العملِ به وانزجر عنه، «فله ماسَلفَ»، يعني: ما أكل وأخذ فمَضَى، قبل مجيءِ الموعظةِ والتحريمِ من ربه في ذلك «وأمرُه إلى الله»، يعني: وأمر آكله بعد مجيئه الموعظة من ربه والتحريم، وبعد انتهاء آكله عن أكله، إلى الله في عصمته وتوفيقه، إنْ شاء عصمه عن أكله وثبّته في انتهائه عنه، وإن شاء خَذَله عن ذلك «ومن عاد»، يقول: ومَنْ عاد

لأكـلِ الـربـا بعد التحريم، وقال ما كان يقوله قبل مجيء الموعظة من الله بالتحـريم، من قوله: «إنما البيعُ مثل الربا» «فأولئك أصْحابُ النار هم فيها خالدون»، يعني: ففاعلو ذلك وقائلوهُ هم أهلُ النار، يعني نار جهنم، فيها خالدون.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرْبِي ٱلصَّدَقَٰتِۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ۝٢٧٦﴾

يعني عز وجل بقوله: «يمحق الله الربا»، ينقُصُ الله الرّبا فَيُذْهِبُهُ.

وأما قوله: «ويُرْبي الصّدَقات»، فإنه جل ثناؤه يعني أنه يُضاعف أجرهَا، يَرُبُّها وينمِّيها له.

فإن قال لنا قائل: وكيف إرباء الله الصدقات؟

قيل: إضعـافـهُ الأجرَ لربِّها، كما قال جل ثناؤه: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِئَةُ حَبَّةٍ﴾ [البقرة: ٢٦١]، وكما قال: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللهَ قَرْضاً حَسَناً فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعافاً كَثِيرَةً﴾ [البقرة: ٢٤٥].

وأما قوله: «والله لا يحبّ كل كفار أثيم»، فإنه يعني به: والله لا يحب كل مُصرٍّ على كفرٍ بربه مقيمٍ عليه، مستحِلٍّ أكلَ الربا وإطعامه «أثيم»، مُتَمادٍ في الإثم، فيما نهاهُ عنه من أكلِ الربا والحرام وغير ذلك من معاصيه، لا ينزجرُ عن ذلك ولا يرعوي عنه، ولا يَتَّعِظُ بموعظةِ ربه التي وعظه بها في تنزيله وآيِ كتابه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝٢٧٧﴾

وهـذا خبر من الله عز وجل بأنَّ الذين آمنوا، يعني الذين صَدَّقوا بالله وبرسوله، وبما جاء به من عند ربهم، من تحريم الربا وأكله، وغير ذلك من سائر شرائع دينه، «وعملوا الصالحات» التي أمرهم اللهُ عز وجل بها، والتي نَدَبهم إليهـا، «وأقـامـوا الصلاة» المفروضةَ بحدودِهَا، وأدّوها بسننها، «وآتوا الزكاة» المفروضةَ عليهم في أموالهم، بعد الذي سَلَفَ منهم من أكلِ الرِّبا قبل مجيءِ المـوعـظةِ فيه من عنـد ربهم، «لهم أجـرهم»، يعني ثوابِ ذلك من أعمالهم وإيمانهم وصَدَقتهم، «عند ربهم» يوم حاجَتِهم إليه في معادهم، «ولا خوفٌ عليهم» يومئذٍ من عقابه على ما كان سلف منهم في جاهليتهم، وكفرهم قبل مجيئهم موعظة ربهم، من أكلِ ما كانوا أكلوا من الربا، بما كان من إنابتهم وتوبتهم إلى الله عز وجل من ذلك عند مجيئهم الموعظة من ربهم، وتصديقهم بوعدِ الله ووعيده، «ولا هُمْ يحزنون» على تركِهم ما كانوا تركوا في الدنيا من أكـلِ الربا والعمل به، إذا عاينوا جزيلَ ثوابِ الله تبارك وتعالى، وهم على تَرْكِهم ماتركُوا من ذلك في الدنيا ابتغاءَ رضوانه في الآخرة، فوصلوا إلى ما وعدوا على تركه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾﴾

يعني جل ثناؤه بذلك: «يا أيها الذين آمنو»، صدّقوا بالله وبرسوله؛ «اتقوا الله»، يقول: خافوا الله على أنفسكم، فاتقوه بطاعته فيما أمركم به، والانتهاء عما نهاكم عنه، «وذَرُوا»، يعني: ودَعُوا، «مابقي من الربا»، يقول: اتركوا طَلَبَ ما بقيَ لكم من فَضْلٍ على رؤوسِ أموالكم التي كانت لكم قبلَ أن تُربوا عليها، «إنْ كنتم مؤمنين»، يقول: إنْ كنتم مُحقِّقينَ إيمانكم قولاً وتصديقكم

بألسنتكم، بأفعالكم[١]

وذكر أنَّ هذه الآية نزلت في قومٍ أسلموا ولهم على قومٍ أموالٌ من رباً كانوا أرْبوه عليهم، فكانوا قد قبضوا بعضَهُ منهم، وبقي بعضٌ، فعفا الله جل ثناؤه لهم عما كانوا قد قبضوه قبل نُزول هذه الآية، وحرّم عليهم اقتضاءَ ما بقيَ منه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ فَأْذَنُوا۟ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾

يعني جل ثناؤه بقوله: «فإنْ لم تفعلوا»، فإنْ لم تذَروا ما بقي من الربا.

واختلف القَرَأَةُ في قراءةِ قوله: «فأذنوا بحرب من الله ورسوله».

فقرأته عامةُ قَرَأَةِ أهلِ المدينة: ﴿فَأْذَنُوا۟﴾ بقصر الألف من «فأذنوا»، وفتح ذالها، بمعنى: كونوا على علم وإذْن.

وقرأه آخرون، وهي قراءةُ عامةِ قَرَأَةِ الكوفيين: ﴿فَآذِنُوا﴾ بمدّ الألف من قوله: «فآذنوا»، وكسر ذالها، بمعنى: فآذنوا غيركم: أعلِمُوهم وأخبروهم بأنكم على حَرْبهم.

وأولى القراءتين بالصواب في ذلك قراءة مَنْ قرأ: «فأذَنوا» بقصر ألفها وفتح ذالها، بمعنى: اعلموا ذلك واستيقنوه، وكونوا على إذن من الله عز وجل لكم بذلك.

وإنما اخترنا ذلك، لأن الله عز وجل أمر نبيّه ﷺ أن يَنبِذ إلى مَنْ أقام على شِرْكهِ الذي لا يُقَرُّ على المقام عليه، وأن يقتُل المرتدَّ عن الإسلام منهم

---

(١) أي: محققين ذلك بأفعالكم.

بكل حال إلا أن يراجع الإسلام، آذنه المشركون بأنهم على حربه أو لم يُؤذنوه. فإذْ كان المأمور بذلك لا يخلو من أحد أمرين: إما أن يكون كان مشركاً مقيماً على شركه الذي لا يُقَرُّ عليه، أو يكون كان مسلماً فارتدَّ وأذِن بحرب. فأي الأمرين كان، فإنما نُبذ إليه بحرب، لا أنه أمر بالإيذان بها إن عَزَم على ذلك. لأن الأمر إنْ كان إليه، فأقام على أكل الربا مستحلاً له ولم يُؤْذَنِ المسلمون بالحربِ، لم يَلْزمهم حرْبُه. وليس حُكمه في واحدة من الحالين. فقد علم أنه المأذون بالحرب، لا الآذن بها.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ﴾

يعني جل ثناؤه بذلك: «إن تبتم» فتركتم أكلَ الربا وأنبتم إلى الله عز وجل، «فلكم رؤوس أموالكم» من الديون التي لكم على الناس، دون الزيادة التي أحدثتموها على ذلك رباً منكم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ٢٧٩﴾

يعني بقوله: «لا تَظلمون» بأخْذِكُم رؤوسَ أموالكم التي كانت لكم قبلَ الإرباء على غُرمائكم منهم، دون أرباحها التي زدتموها رباً على مَنْ أخذتم ذلك منه من غرمائكم، فتأخذوا منهم ما ليس لكم أخذُه، أو لم يكن لكم قبلُ، «ولا تُظلمون»، يقول: ولا الغريم الذي يعطيكم ذلك دون الرّبا الذي كنتم ألزمتموه من أجل الزيادة في الأجل، يبخسُكم حقًّا لكم عليه فَيَمْنَعكُمُوه، لأن مازاد على رؤوسِ أموالكم لم يكنْ حقًّا لكم عليه، فيكون بمنعه إياكم ذلك ظالماً لكم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ﴾

يعني جل ثناؤه بذلك: «وإنْ كان» ممن تقبضون منه من غرمائكم رؤوس أموالكم، «ذو عُسْرة» يعني: معسراً برؤوس أموالكم التي كانت لكم عليهم قبلَ الإرباء: فأنظروهم إلى ميسرتهم.

وأما قوله: «فنظرة إلى ميسرة»، فإنه يعني: فعليكم أن تُنظِروه إلى مَيسرة، كما قال: ﴿فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضاً أَوْ بِهِ أَذًى مِنْ رَأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِنْ صِيامٍ﴾ [البقرة: ١٩٦]، وقد ذكرنا وجه رفعِ ما كان من نظائِرها فيما مضى قبلُ، فأغنى عن تكريره.

«والميسرة»، «المفعلة» من «اليُسر»، مثل «المرْحمة» و«المشأمة».

ومعنى الكلام: وإنْ كان من غرمائِكم ذُو عسرة، فعليكم أن تنظروه حتى يُوسر بالدَّين الذي لكم، فيصيرَ من أهل اليُسر به.

وقال آخرون: هذه الآية عامة في كل مَنْ كان له قِبَلَ رجلٍ معسر حقٌّ، من أيِّ وجهة كان ذلك الحق، من دَيْنٍ حَلال أو رباً.

والصوابُ من القول في قوله: «وإن كان ذو عسرة فنظرة إلى ميسرة»، أنه معنيٌّ به غرماء الذين كانوا أسلموا على عهدِ رسول الله ﷺ، ولهم عليهم ديونٌ قد أربَوْا فيها في الجاهلية، فأدركهم الإسلامُ قبل أن يقبضوها منهم، فأمر الله بوضعِ مابقي من الربا بعد ما أسلموا، وبقبضِ رؤوس أموالهم ممن كان منهم من غرمائهم مُوسراً، أو إنظارِ مَنْ كان منهم مُعسراً برؤوس أموالهم إلى ميسرتهم.

فذلك حكمُ كُلِّ مَنْ أسلم وله رباً قد أربى على غريم له، فإن الإسلام يبطل عن غريمه ما كان له عليه من قَبْل الربا، ويلزمه أداء رأس ماله ـ الذي كان أخَذَ منه أو لزمه من قبل الإرباء ـ إليه، إن كان موسراً. وإن كان مُعسراً، كان منظراً برأسِ مالِ صاحبه إلى ميسرته، وكان الفضلُ على رأس المال مبطلاً عنه.

غير أن الآية وإنْ كانت نزلت فيمن ذكرنا، وإياهم عَنى بها، فإنَّ الحكم الذي حكم الله به: من إنظارهِ المُعْسِرَ برأسِ مالِ المربي بعد بُطُولِ الرّبا عنه، حكمٌ واجبٌ لكلِّ مَنْ كان عليه دَيْنٌ لرجلٍ قد حلَّ عليه، وهو بقضائه مُعسر: في أنه مُنظر إلى ميسرته. لأنّ دَيْنَ كلِّ ذي دَيْنٍ، في مال غريمه، وعلى غريمه قضاؤه منه ـ لا في رقبته. فإذا عُدم ماله، فلا سبيلَ له على رقبته بحبسٍ ولا بيع. وذلك أن مالَ ربِّ الدَّينِ لن يخلو من أحدِ وجوهٍ ثلاثة: إما أن يكون في رقبة غريمه، أو في ذمّته يقضيه من ماله، أو في مال بعينه.

فإن يكن في مال له بعينه، فمتى بطل ذلك المال وعُدِم، فقد بطل دَيْنُ ربِّ المال. وذلك ما لا يقوله أحد.

أو يكون في رَقبته، فإن يكن كذلك، فمتى عُدِمت نفسهُ، فقد بطل دَيْنُ ربِّ الدين، وإن خَلَّف الغريم وفاءً بحقه وأضعافَ ذلك. وذلك أيضاً لا يقوله أحدٌ.

فقد تبين إذاً، إذْ كان ذلك كذلك، أنَّ دَيْنَ ربِّ المال في ذمةِ غريمهِ يقضيه من ماله، فإذا عُدم ماله فلا سبيلَ له على رقبته، لأنه قد عُدم ما كان عليه أن يؤدِّي منه حقَّ صاحبهِ لو كان موجوداً. وإذا لم يكن على رقبته سبيلٌ، لم يكن إلى حبسه وهو معدوم بحقه، سبيل. لأنه غير مانعه حقًّا، له إلى قضائه سبيل، فيعاقب بمَطْلهِ إياه بالحبس.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَأَن تَصَدَّقُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٨٠﴾

يعني جل وعز بذلك: وأن تتصدقوا برؤوس أموالكم على هذا المعسر، «خيرٌ لكم» أيها القوم من أن تنظرُوه إلى ميسرته، لتقبضوا رؤوس أموالكم منه

إذا أيسر، «إنْ كنتم تعلمون» موضعَ الفضل في الصدقة، وما أوجبَ الله من الثوابِ لمن وضع عن غريمه المعسر دَينه.

واختلف أهل التأويل في تأويل ذلك.

فقال بعضهم: معنى ذلك: «وأن تصدقوا» برؤوس أموالكم على الغنيِّ والفقير منهم؛ «خيرٌ لكم».

وقال آخرون: معنى ذلك: وأن تصدقوا به على المعسِر، خير لكم ـ نحو ما قلنا في ذلك.

وأولى التأويلين بالصواب تأويل مَنْ قال: معناه: «وأن تصدَّقُوا على المُعْسرِ برؤوسِ أموالكم خير لكم». لأنه يَلي ذكرَ حُكمه في المعنيين. وإلحاقُه بالذي يليه، أحبّ إليَّ من إلحاقهِ بالذي بَعُدَ منه.

وقد قيل إن هذه الآيات في أحكام الربا، هنّ آخر آيات نزلت من القرآن.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٨١﴾

وقيل: هذه الآية أيضاً آخر آية نزلت من القرآن.

يعني بذلك جل ثناؤه: واحذروا أيها الناس «يوماً تُرْجعون فيه إلى الله»، فتلقونه فيه، أن تَرِدُوا عليه بسيئاتٍ تُهْلِكُكم، أو بمخزياتٍ تُخْزِيكم، أو بفاضحاتٍ تفضحكم فتهتك أستاركم، أو بموبقاتٍ تُوبقكم فتوجب لكم من عقابِ الله ما لا قِبَلَ لكم به، وإنه يوم مجازاةٍ بالأعمال، لا يوم استعتابٍ، ولا يوم استقالة وتوبة وإنابة، ولكنه يوم جزاء وثواب ومحاسبة، توفَّى فيه كلُّ نفسٍ

أجرَها على ما قَدَّمَتْ واكتسبت من سيّءٍ وصالح، لا تُغادَر فيه صغيرة ولا كبيرة من خير وشرّ إلا أُحضِرت، فوُفِّيَتْ جزاءَها بالعدلِ من ربها، وهم لا يظلمون. وكيف يُظلم مَنْ جُوزيَ بالإساءة مثلها، وبالحسنةِ عشر أمثالها؟! كلاَّ، بل عَدَل عليك أيها المسيء، وتَكَرَّمَ عليك فأفضل وأسبغَ أيها المحسن. فاتقى امرؤٌ ربه، وأخذ منه حذره، وراقبه أن يهجُم عليه يَومُه وهو من الأوزارِ ظهرهُ ثقيلٌ، ومن صالحاتِ الأعمالِ خفيفٌ، فإنه عز وجل حَذَّر فأعذرَ، ووعظَ فأبلغ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾

يعني بذلك جل ثناؤه: يا أيها الذين صدّقوا الله ورسوله: «إذا تداينتم»، يعني: إذا تبايعتم بدينٍ، أو اشتريتم به، أو تعاطيتم أو أخذتم به، «إلى أجل مسمى»، يقول: إلى وقتٍ معلوم وقتّمُوه بينكم ـ وقد يدخلُ في ذلك القَرضُ والسَّلَم، وكلّ ما جاز [فيه] السلَم مُسمىً أجلُ بيعهِ، يصيرُ دَيْناً على بائع ما أسلم إليه فيه. ويحتملُ بيعَ الحاضرِ الجائزِ بيعهُ من الأملاك بالأثمان المؤجلة. كلٌّ ذلك من الديون المؤجَّلة إلى أجل مسمى، إذا كانت آجالُها معلومةً بحدٍّ موقوف عليه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَٱكْتُبُوهُ﴾

يعني جَلَّ ثناؤه بقوله: «فاكتبوه»، فاكتبوا الدَّيْنَ الذي تداينتموه إلى أجلٍ مسمى، من بيعٍ كان ذلك أو قرض.

واختلف أهلُ العلم في اكتتاب الكتاب بذلك على مَنْ هو عليه، هل هو واجبٌ أو هو نَدْبٌ.

فقال بعضهم: هو حق واجبٌ وفرضٌ لازم.

وقال آخرون: كان اكتتابُ الكتَاب بالدَّين فرضاً، فنسخه قوله: ﴿فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُمْ بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ﴾.

القَوْلُ فِي تَأْوِيل قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبُۢ بِٱلْعَدْلِۚ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَن يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُۚ﴾

يعني بذلك جل ثناؤه: وليكتب كتابَ الدَّيْنِ إلى أجلٍ مسمى بين الدائن والمدين «كاتبٌ بالعَدْل»، يعني: بالحق والإنصاف في الكتاب الذي يكتبه بينهما، بما لا يتحيَّف ذا الحق حقه ولا يَبخسه، ولا يوجب له حُجةً على مَنْ عليه دينه فيه بباطلٍ، ولا يُلزمه ما ليس عليه.

وأما قوله: «ولا يَأبَ كاتبٌ أنْ يكتب كما علمه الله»، فإنه يعني: ولا يأبينَّ كاتبٌ استُكْتِبَ ذلك، أن يكتب بينهم كتابَ الدّين، كما عَلَّمَهُ الله كتابته فخصَّهُ بعلم ذلك، وحَرَمه كثيراً مِنْ خَلْقِه.

وقد اختلف أهلُ العلم في وجوب الكتاب على الكاتب إذا استكتِب ذلك، نَظير اختلافهم في وجوب الكتاب على الذي له الحق.

وقال آخرون: هو على الوجوب، ولكنه واجبٌ على الكاتب في حال فراغه.

والصواب من القول في ذلك عندنا: أنّ الله عز وجل أمر المتداينين إلى إجلٍ مسمى باكتتاب كُتُب الدَّيْنِ بينهم، وأمر الكاتب أن يكتبَ ذلك بينهم بالعدل. وأمرُ الله فرضٌ لازم، إلا أنْ تقومَ حجةٌ بأنه إرشادٌ ونَدْبٌ. ولا دلالةَ

تدلُّ على أنَّ أمرَهُ جل ثناؤه باكتتاب الكُتُبِ في ذلك، وأنَّ تقدّمه إلى الكاتب أن لا يأبى كتابة ذلك، ندبٌ وإرشادٌ. فذلك فرضٌ عليهم لا يَسَعُهم تضييعهُ، ومَنْ ضَيَّعه منهم كان حَرِجاً[1] بتضييعه.

ولا وجه لاعتلال من اعتلَّ بأنَّ الأمر بذلك منسوخ بقوله: «فإن أَمِنَ بعضُكم بعضاً فليؤدِّ الذي ائتُمِنَ أمانته». لأن ذلك إنما أذِن الله تعالى ذكره به حيثُ لا سبيلَ إلى الكتاب أو إلى الكاتب. فأما والكتابُ والكاتبُ موجودان، فالفرضُ ـ إذا كان الدَّيْنُ إلى أجلٍ مسمى ـ ما أمرَ اللهُ تعالى ذكره به في قوله: «فاكتبوه وليكتبْ بينكم كاتبٌ بالعدل ولا يأبَ كاتبٌ أن يكتب كما علمه الله».

وإنما يكون الناسخُ، ما لم يجزْ اجتماعُ حُكمه وحكم المنسوخ في حالٍ واحدة، على السبيل التي قد بَيَّنَّاها. فأما ما كان أحدهما غير نافٍ حُكْمَ الآخر، فليس من الناسخِ والمنسوخِ في شيء.

ولو وجب أن يكون قولُه: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ عَلَى سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِباً فَرِهَانٌ مَقْبُوضَةٌ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُمْ بَعْضاً فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمَانَتَه﴾ ناسخاً قولَهُ: «إذا تداينتم بدينٍ إلى أجلٍ مسمى فاكتبوه وليكتبْ بينكم كاتبٌ بالعدل ولا يأبَ كاتبٌ أن يكتب كما علمه الله» ـ لوجب أن يكون قولُه: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّباً﴾ [المائدة: ٦] ناسخاً الوضوء بالماء في الحضر عند وجود الماء فيه وفي السفر الذي فرضه الله عز وجل بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ﴾ [المائدة: ٦]، وأن يكون قوله في كفارة الظِّهار: ﴿فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ﴾ [المجادلة: ٤] ناسخاً قولَه ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا﴾ [المجادلة: ٣].

(١) حرجاً: أي: آثماً.

فيُسْأل القائلُ إنَّ قولَ الله عز وجل: «فإنْ أمِنَ بعضُكم بعضاً فليؤدِّ الذي اؤتُمن أمـانته» ناسخٌ قولَهُ: «إذا تداينتم بدينٍ إلى أجلٍ مسمى فاكتبوه»: ما الفرقُ بَينه وبين قائلٍ في التيمم وما ذكرنا قوله، فزعم أنَّ كل ما أُبيحَ في حال الضرورة لعلَّةِ الضرورة، ناسخ حكمُه في حال الضرورة حكمَه في كل أحواله: نظيرَ قوله في أنّ الأمر باكتتابِ كُتُبِ الديون والحقوق منسوخٌ بقوله: «وإن كنتم عَلى سَفر ولم تجدُوا كاتباً فرهانٌ مقبوضة فإن أمن بعضُكم بعضاً فليؤدّ الذي اؤتُمن أمانته»؟

فإن قال: الفـرق بيني وبينه أن قوله: «فإنْ أمِنَ بعضُكم بعضاً» كلام منقطع عن قوله: «وإنْ كنتم على سَفرٍ ولم تجدوا كاتباً فرهان مقبوضة»، وقد انتهى الحكمُ في السفر إذا عُدم فيه الكاتبُ بقوله: «فرِهَانٌ مقبوضة». وإنما عنى بقوله: «فإنْ أمِنَ بعضكم بعضاً»: «إذا تداينتم بدَينٍ إلى أجلٍ مسمى»، فأمن بعضكم بعضاً، فليؤدِّ الذي اؤتمن أمانته.

قيل له: وما البرهان على ذلك من أصلٍ أو قياس، وقد انقضى الحكمُ في الدَّين الذي فيه إلى الكاتب والكتاب سبيلٌ بقوله: «ويُعلِّمكمُ اللهُ واللهُ بكل شيء عليم»؟[1].

وأما الذين زعموا أن قوله: «فاكتبوا»، وقوله: «ولا يأبَ كاتبٌ» على وجه الندب والإرشاد، فإنهم يُسألون البرهانَ على دعواهم في ذلك، ثم يعارَضون بسائر أمر الله عز وجل الذي أمر في كتابه، ويُسألون الفرقَ بين ما ادَّعوا في ذلك وأنكروه في غيره. فلم يقولوا في شيء من ذلك قولاً إلا ألزموا في الآخر مثله.

---

(١) قال العلامة محمود شاكر: هذه حُجَّةُ رَبَّانيٍّ بصيرٍ بمعاني الكلام.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْـًٔا﴾

يعني بذلـك: «فليكتب» الكـاتب، «وليملل الـذي عليه الحقُّ»، وهو الغريمُ المدينُ يقول: ليتولَّ المَدِينُ إملالَ كتاب ما عليه من دين ربِّ المالِ على الكاتب، «وليتق الله ربه» المملي الذي عليه الحقّ، فليحذر عقابه في بَخْسِ الـذي له الحق من حقه شيئاً، أنْ ينقُصَه منه ظلماً أو يذهب به منه تعدّياً، فيؤخذ به حيث لا يقدرُ على قضائه إلاّ من حسناتهِ، أو أنْ يتحمل من سيئاته.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَإِن كَانَ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُۥ بِٱلْعَدْلِ﴾

يعني بقوله جل ثناؤه: «فإنْ كان الذي عليه الحق سفيهاً أو ضعيفاً»، فإنْ كان المدين الذي عليه المال «سفيهاً»، يعني: جاهلاً بالصواب في الذي عليه أن يُملَّه على الكاتب.

وأما قوله: «فليملل وليه بالعدل»، فإنه يعني: بالحق.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَٱسْتَشْهِدُوا۟ شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ﴾

يعني بذلك جل ثناؤه: واستشهدوا على حقوقكم شاهِدَيْنِ.

وأمـا قولـه: «مِنْ رجـالكم»، فإنه يعني من أحراركم المسلمين، دون عبيدكم، ودون أحراركم الكفار.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَٱمْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ﴾

يعني بذلك جل ثناؤه: فإنْ لم يكونا رجلين، فليكن رجلٌ وامرأتان على الشهادة. ورفع «الرجل والمرأتان»، بالرّد على «الكون». وإنْ شئتَ قلتَ: فإنْ لم يكونا رجلين، فليشهدْ رجلٌ وامرأتان على ذلك. وإنْ شئت: فإن لم يكونا رجلين فرجلٌ وامرأتان يُشهدون عليه. وإن قلت: فإن لم يكونا رجلين فهو رجلٌ وامرأتان،[1] كان صواباً. كل ذلك جائز.

وقوله: «ممن ترضون من الشهداء»، يعني: من العدول المرتضَى دِيْنُهُم وصلاحُهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَىٰهُمَا ٱلْأُخْرَىٰ﴾

(يعني): فإنْ لم يكونا رجلين، فليشهد رجلٌ وامرأتان، كي إنْ ضَلَّتْ إحداهما ذكرَّتها الأخرى.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا يَأْبَ ٱلشُّهَدَآءُ إِذَا مَا دُعُوا۟﴾

اختلف أهل التأويل في الحال التي نَهى الله الشهداءَ عن إباء الإجابة إذا دعوا بهذه الآية.

وأولى هذه الأقوال بالصواب قول من قال: «(معنى) ذلك: ولا يأبَ

---

(١) انظر معاني القرآن للفراء: ١/١٨٤.

الشهداء من الإجابة، إذا دُعُوا لإقامةِ الشهادةِ وأدائها عند ذي سلطانٍ أو حاكم يأخذُ من الذي عليه ما عليه، للذي هو له».

وإنما قلنا هذا القول بالصواب أولى في ذلك من سائر الأقوال غيره، لأن الله عز وجل قال: «ولا يأب الشهداء إذا ما دُعوا»، فإنما أمرهم بالإجابةِ للدعاءِ للشهادةِ وقد ألزمهم اسم «الشهداء». وغير جائز أنْ يلزمهم اسم «الشّهداء» إلا وقد استُشهدوا قبل ذلك فشهدوا على ما ألزمتهم شهادتهم عليه اسم «الشهداء». فأما قبل أن يُستشهدوا على شيءٍ، فغيرُ جائزٍ أنْ يقال لهم «شهداء».. لأن ذلك الاسم لو كان يلزمهم ولمَّا يستشهدوا على شيء يستوجبون بشهادتهم عليه هذا الاسم، لم يكن على الأرض أحدٌ له عقلٌ صحيح إلا وهو مستحق أن يقال له «شاهد»، بمعنى أنه سيشهد، أو أنه يصلح لأَنْ يشهد. وإذْ كان خطأً أن يسمى بذلك الاسم إلاّ مَنْ عنده شهادةٌ لغيره، أو من قد أقام شهادته فلزمه لذلك هذا الاسم، كان معلوماً أن المعنيَّ بقوله: «ولا يأبَ الشهداءُ إذا مادُعُوا»، من وصفنا صفته ممن قد استُرْعيَ شهادةً، أو شَهد، فدعي إلى القيام بها. لأن الذي لم يُستشْهد ولم يُسترْعَ شهادةً قبل الإشهاد، غيرُ مستحقٍ اسمَ «شهيد» ولا «شاهد»، لما قد وصفنا قَبْلُ.

مع أن في دخول «الألف واللام» في «الشهداء»، دلالةً واضحةً على أن المسمَّى بالنهي عن ترك الإجابة للشهادة، أشخاصٌ معلومون قد عُرِفوا بالشهادة، وأنهم الذين أمر الله عز وجل أهلَ الحقوق باستشهادهم بقوله: «واستشهدوا شهيدين من رجالكم فإنْ لم يكونا رجلين فرجلٌ وامرأتان ممن ترضونَ من الشهداء». وإذْ كان كذلك، كانَ معلوماً أنهم إنما أُمِرُوا بإجابةِ داعيهم لإقامةِ شهادتهم بعد ما استُشْهدوا فشهدوا. ولو كان ذلك أمراً لمن أعرضَ من الناس فدُعيَ إلى الشهادة يشهد عليها، لقيل: ولا يأبَ شاهد إذا ما دعيَ.

غيرَ أنّ الأمر وإن كان كذلك، فإنّ الذي نقولُ به في الذي يُدعى لشهادةٍ ليشهدَ عليها إذا كان بموضعٍ ليس به سواه ممن يصلحُ للشهادة، فإنَّ الفرضَ عليه إجابةُ داعيه إليها، كما فَرضٌ على الكاتب إذا استُكْتِبَ بموضعٍ لا كاتبَ به سواه، ففرضٌ عليه أن يكتب، كما فرضٌ على مَنْ كان بموضع لا أحدَ به سواه يعرف الإيمان وشرائع الإسلام. فحضره جاهلٌ بالإيمان وبفرائض الله، فسأله تعليمه وبيان ذلك له، أنْ يعلمه ويبيِّنه له. ولم نُوجِبْ ما أوجبنا على الرجلِ من الإجابةِ للشهادة إذا دُعِيَ ابتداءً ليشهد على ما أشْهِد عليه بهذه الآية، ولكن بأدلة سواها، وهي ما ذكرنا. وإنَّ فرْضاً على الرجل إحياءُ ما قَدَر على إحيائهِ من حَقٍّ أخيه المسلم.

«والشهداء» جمع «شهيد».

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَلَا تَسْـَٔمُوٓاْ أَن تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰٓ أَجَلِهِۦۚ

يعني بذلك جل ثناؤه: ولا تسأموا، أيها الذين تُداينون الناسَ إلى أجلٍ، أن تكتبوا صغيرَ الحق يعني: قليله، أو كبيره، يعني: أو كثيره إلى أجله إلى أجل الحق، فإنَّ الكتابَ أحصى للأجلِ والمالِ.

ومعنى قوله: «ولا تسأموا»: لا تملوا. يقال منه: «سئمتُ فأنا أسأم سَآمة وَسأمةً».

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ

يعني جل ثناؤه: «ذلكم»، اكتتابُ كتابِ الدَّيْنَ إلى أجله.

ويعني بقوله: «أقسطُ»، أعدلُ عند الله.

يقال منه: «أقسطَ الحاكمُ فهو يُقسط إقساطاً، وهو مُقسط»، إذا عَدَلَ في حكمهِ وأصابَ الحقَّ فيه. فإذا جار قيل: «قَسَط فهو يَقْسِط قُسوطاً». ومنه قول الله عز وجل: ﴿وَأَمَّا القَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَباً﴾ [الجن: ١٥]، يعني: الجائرون.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَقْوَمُ لِلشَّهَـٰدَةِ﴾

يعني بذلك جل ثناؤه: وأصوبُ للشهادة.

وأصله من قول القائل: «أقمتُ من عَوَجِه»، إذا سَوَّيتهُ فاستوى.

وإنما كان الكتابُ أعدل عند الله، وأصوب لشهادة الشهود على ما فيه، لأنه يحوي الألفاظ التي أقرّ بها البائعُ والمشتري وربُّ الدَّيْنِ والمستدينُ على نفسه، فلا يَقع بين الشهود اختلافٌ في ألفاظهم بشهادتهم، لاجتماع شهادتهم على ماحواه الكتاب. وإذا اجتمعت شهادتهم على ذلك، كان فصلُ الحكم بينهم أبينَ لمن احتُكم إليه من الحكام، مع غير ذلك من الأسباب. وهو أعدل عند الله، لأنه قد أمر به. واتباعُ أمرِ الله لا شَكّ أنه عند الله أقسطُ وأعدلُ من تركهِ والانحرافِ عنه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَدْنَىٰٓ أَلَّا تَرْتَابُوٓاْ﴾

يعني جل ثناؤه بقوله: «وأدنى»، وأقرب، من «الدنو»، وهو القرب.

ويعني بقوله: «أن لا ترتابوا»، أن لا تَشكوا في الشهادة.

ومعنى الكلام: ولا تملُّوا أيها القومُ أنْ تكتبوا الحقّ الذي لكم قِبَلَ مَنْ

دَاينتموهُ من الناس من أجل، صغيراً كان ذلك الحق أو كبيراً، قليلاً أو كثيراً، فإن كتـابكم ذلك أعدل عند الله، وأصوبُ لشهادة شهودكم عليه، وأقربُ لكم أن لا تشكوا فيما شهد به شهودكم عليكم من الحق والأجل إذا كان مكتوباً.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَـالَى: ﴿إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَـٰرَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا﴾

ثم استثنى جل ذكره مما نهاهم عنه أن يسأموه من اكتتاب كتب حقوقهم على غرمائهم بالحقوق التي لهم عليهم ما وجب لهم قِبَلَهم من حقّ عن مُبايعةٍ بالنقودِ الحاضرة يداً بيد، فرخَّص لهم في ترك اكتتاب الكُتب بذلك. لأن كُلَّ واحدٍ منهم، أعني من الباعة والمشترين، يقبض ـ إذا كان الواجب بينهم فيما يتبايعونه نقداً ـ ما وجَبَ له قِبَلَ مُبَايِعيهِ قبْلَ المفارقةِ، فلا حاجةَ لهم في ذلك إلى اكتتابِ أحدِ الفريقين على الفريقِ الآخر كتاباً بما وَجَبَ لهم قبلهم، وقد تقـابضوا الواجبَ لهم عليهم. فلذلك قال تعالى ذِكْرُه: «إلاّ أنْ تكونَ تجارةً حاضرةً تُديرونها بينكم»، لا أجلَ فيها ولا تأخيرَ ولا نَسَاء، «فليس عليكم جُناح أن لا تكتبوها»، يقول: فلا حرجَ عليكم أن لا تكتبوها ـ يعني التجارة الحاضرةَ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَشْهِدُوٓاْ إِذَا تَبَايَعْتُمْ﴾

يعني بذلــك جل ثنـاؤه: وأَشْهِـدُوا على صغيرِ ما تبـايعتم وكبيرهِ من حقوقكم، عاجلِ ذلك وآجلِه، ونقدهِ ونَسَائهِ، فإنَّ إرخاصي لكم في ترك اكتتابِ الكتب بينكم فيما كان من حقوقٍ تجري بينكم لبعضكم من قبل بعض عن تجارةٍ حاضرةٍ دائرةٍ بينكم يداً بيدٍ ونقداً، ليس بإرخاصٍ مني لكم في ترك الإشهاد منكم على مَنْ بعتموه شيئاً أو ابتعتم منه. لأن في ترككم الإشهاد على

ذلك خوفَ المضرّة على كل من الفريقين: أما على المشتري، فأنْ يجحد البائعُ البيعَ، وله بيِّنةٌ على ملكه ما قد باعَ، ولا بيِّنة للمشتري منه على الشراء منه، فيكون القولُ حينئذٍ قولَ البائع مع يمينه ويُقضَى له به، فيذهب مالُ المشتري باطلاً ـ وأما على البائع، فأنْ يجحد المشتري الشراءَ وقد زال مُلْكُ البائعِ عما باعَ، ووجب له قِبَلَ المبتاع ثمن ما باع، فيحلفُ على ذلك، فيبطل حقّ البائع قِبَلَ المشتري من ثمن ما باعه. فأمر الله عز وجل الفريقين بالإشهاد، لئلا يضيعَ حَقُّ أحدِ الفريقين قِبَلَ الفريقِ الآخر.

ثم اختلفوا في معنى قوله: «وأشهدوا إذا تبايعتم»، أَهُوَ أمرٌ من الله واجبٌ بالإشهادِ عند المبايعة، أم هو نَدْبٌ؟

فقال بعضهم: «هو نَدْبٌ، إن شاء أَشْهَدَ، وإنْ شاء لم يُشهد».

وقال آخرون: «الإشهاد على ذلك واجب».

وأولى الأقوال في ذلك بالصواب: أنَّ الإشهادَ على كل مَبيع ومُشترًى، حقٌّ واجبٌ وفرضٌ لازم، لما قد بيَّنا: من أن كلَّ أمرٍ لله، ففرضٌ، إلا ما قامت حُجته من الوجه الذي يحبُ التسليم لهُ بأنه ندبٌ وإرشاد.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ

اختلف أهلُ التأويل في تأويل ذلك.

وأولى الأقوال في ذلك بالصواب قولُ مَنْ قال: معنى ذلك: «ولا يضار كاتب ولا شهيد»، بمعنى: ولا يضارهما من استكتَبَ هذا أو استشهدَ هذا، بأن يأبى على هذا إلا أن يكتبَ له وهو مشغول بأمر نفسه، ويأبى على هذا إلّا أن يجيبه إلى الشهادة وهو غير فارغ.

وإنما قلنا هذا القول أولى بالصواب من غيره، لأنَّ الخطابَ من الله عز وجل في هذه الآية من مُبتدئها إلى انقضائها على وجه: «افعلوا أو: لا تفعلوا»، إنما هو خطابٌ لأهلِ الحقوق والمكتوب بينهم الكتابُ، والمشهود لهم أو عليهم بالذي تَدَايُنوه بينهم من الديون. فأما ما كان من أمرٍ أو نهي فيها لغيرهم، فإنما هو على وجهِ الأمرِ والنهي للغائب غير المخاطب، كقوله: «وليكتب بينكم كاتب»، وكقوله: «ولا يأبَ الشهداءُ إذا مادُعُوا»، وما أشبه ذلك. فالوجهُ إذْ كان المأمورون فيها مخاطَبين بقوله: «وإنْ تفعلوا فإنه فُسوقٌ بكم» [بأن يكون الأمر مردوداً على المستكتب والمستشهد]، أشبه منه بأن يكون مردوداً على الكاتب والشهيد. ومع ذلك، فإنَّ الكاتبَ والشهيدَ لو كانا هما المنهيَّين عن الضرار لقيل: وإنْ يفعلا فإنه فسوقٌ بهما. لأنهما اثنان، وأنهما غير مخاطبين بقوله: «ولا يضارّ»، بل النهي بقوله: «ولا يضار»، نهيٌ للغائبِ غير المخاطب. فتوجيهُ الكلام إلى ما كان نظيراً لما في سياق الآية، أولى من توجيهه إلى ما كان مُنعدِلاً عنه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِن تَفْعَلُواْ فَإِنَّهُۥ فُسُوقُۢ بِكُمْ﴾

يعني بذلك جل ثناؤه: وإن تضارّوا الكاتب أو الشاهدَ، .وما نُهيتم عنه من ذلك، «فإنه فسوقٌ بكم»، يعني: إثمٌ بكم ومعصيةٌ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٨٢﴾﴾

يعني بقوله جل ثناؤه: «واتقوا الله»، وخافوا الله، أيها المتداينون في الكتاب والشهود، أن تضاروهم، وفي غير ذلك من حدود الله أن تُضيعوه،

ويعني بقوله: «ويُعلِّمكم الله»، ويبينُ لكم الواجبَ لكم وعليكم، فاعملوا به «والله بكل شيء عليم»، يعني: (بكل شيء)[1] من أعمالكم وغيرها، يحصيها عليكم، ليجازيكم بها.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَإِن كُنتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهَٰنٌ مَّقْبُوضَةٌ

يعني بذلك جل ثناؤه: وإن كنتم، أيها المتداينون، في سفر بحيث لا تجدون كاتباً يكتبُ لكم، ولم يكنْ لكم إلى اكتتاب كتاب الدين الذي تداينتموه إلى أجلٍ مسمى بينكم الذي أَمَرْتُكُم باكتتابهِ والإشهادِ عليه سبيلٌ، فارتهنوا بديونكم التي تَدَاينتمُوها إلى الأجلِ المسمى رهوناً تقبضونها ممن تُدَايِنُونَهُ كذلك، ليكون ثقةً لكم بأموالكم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِى اؤْتُمِنَ أَمَٰنَتَهُۥ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُۥ

يعني بذلك جل ثناؤه: فإنْ كان المدينُ أميناً عند رب المال والدَّين فلم يرتهن منه في سفره رَهْناً بدينه لأمانتهِ عنده على ماله وثقته، «فليتق الله»، المدينُ «رَبّه»، يقول: فَلْيَخَفِ الله ربَّهُ في الذي عليه من دَيْنِ صاحبهِ أن يجحده، أو يَلُطّ دونه[2]، أو يحاول الذهاب به، فيتعرّض من عقوبة الله لما لا قِبَلَ له به، وليؤدِّ دَيْنَهُ الذي ائتمنه عليه، إليه.

(١) زيادة اقترحها العلامةُ محمود شاكر.

(٢) يعني: دفع ومنع الحق.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ۝٢٨٣﴾

وهذا خطابٌ من الله عز وجل للشهود الذين أمر المستدينَ وربَّ المال بإشهادهم، فقال لهم: «ولا يأبَ الشهداءُ إذا مادُعُوا»، ولا تكتموا، أيها الشهود، بعد ماشهدتم شهادَتكم عند الحكام، كما شهدتم على ماشهدتم عليه، ولكنْ أجيبوا مَنْ شَهدتُم له إذا دعاكم لإقامة شهادتكم على خصمه على حقه عند الحاكم الذي يأخذُ له بحقه.

ثم أخبر الشاهدَ جَلَّ ثناؤه ما عليه في كتمان شهادته، وإبائهِ من أدائها والقيام بها عند حاجة المستشهد إلى قيامه بها عند حاكمٍ أو ذي سلطانٍ، فقال: «ومن يَكتمها». يعني: ومن يكتم شهادته «فإنه آثمٌ قَلبه»، يقول: فاجرٌ قلبه، مكتسبٌ بكتمانه إياها معصيةَ الله.

وأما قوله: «والله بما تعملون عليمٌ»، فإنه يعني: «بما تعملون» في شهادتكم من إقامتها والقيام بها، أو كتمانكم إياها عند حاجة مَن استشهدكم إليها، وبغير ذلك من سرائرِ أعمالكم وعلانيتها، «عليمٌ»، يحصيه عليكم، ليجزيكم بذلك كله جزاءَكم، إما خيراً وإما شراً على قدر استحقاقكم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لِّلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِن تُبْدُوا مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ اللَّهُ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ﴾

يعني جل ثناؤه بقوله: «لله ما في السموات وما في الأرض»، لله مُلْكُ كُلِّ ما في السمواتِ وما في الأرضِ من صغيرٍ وكبيرٍ، وإليه تدبيرُ جميعهِ، وبيده

صَرْفُه وتقليبهُ، لا يخفى عليه منه شيء، لأنه مُدَبِّرهُ ومالكه ومصرّفه.

وإنمـا عنى بذلك جل ثناؤه كتمانَ الشهودِ الشهادةَ، يقول: لا تكتموا الشهادة أيها الشهود، ومَنْ يكتمها يفجُرْ قلبه؛ ولن يخفى عليَّ كتمانه ذلك، لأني بكل شيءٍ عليم، وبيدي صَرْفُ كل شيء في السموات والأرض وملكه، أعلمُ خفيَّ ذلك وجَليَّهُ، فاتقوا عقابي إياكم على كتمانكم الشهادة وعيداً من الله بذلك منْ كتمها، وتخويفاً منه له به.

ثم أخبرهم عما هو فاعلٌ بهم في آخرتهم وبمن كان من نظرَائهم ممن انطوى كشحاً على معصيةٍ فأضمرها، أو أظهر مُوبقةً فأبداها من نفسه ـ من المحاسبة عليها فقال: «وإن تُبدُوا ما في أنفسكم أو تُخفوه»، يقول: وإن تظهروا فيما عندكم من الشهادة على حقٍّ ربِّ المالِ الجحودَ والإنكار، أو تخفوا ذلك فتضمروه في أنفسكم، وغير ذلك من سيّئ أعمالكم «يحاسبكم به الله»، يعني بذلـك: يحتسب به عليكم من أعمـالكم، فمجـازٍ مَنْ شاء منكم من المسيئين بسوء عمله، وغافرٌ لمن شاء منكم من المسيئين.

ثم اختلف أهلُ التأويل فيما عنى بقوله: «وإن تُبدُوا ما في أنفسكم أو تُخْفُوه يحاسبكم به الله».

فقال بعضهم بما قلنا: من أنه عنى به الشهودَ في كتمانهم الشهادةَ، وأنه لاحقٌ بهم كل مَنْ كان من نُظرائِهم ممن أضمر معصيةً أو أبداها.

وقال آخرون: «بل نزلت هذه الآية إعلاماً من الله تبارك وتعالى عبادَه أنه مؤاخذهم بما كسبته أيديهم وحدثتهم به أنفسهم مما لم يعملوه».

ثم اختلف متأوِّلو ذلك كذلك.

فقال بعضهم: «ثم نسخ الله ذلك بقوله: ﴿لا يُكلِّفُ الله نَفْسًا إلاَّ وُسْعَهَا

لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾ [البقرة: ٢٨٦].

وقال آخرون ممن قال معنى ذلك: «الإعلامُ من الله عز وجل عبادَه أنه مُؤاخِذُهم بما كسبتهُ أيديهم وعملته جوارحهم، وبما حدثتهم به أنفسهم مما لم يعملوه»: «هذه الآية محكمة غيرُ منسوخة، والله عز وجل محاسبُ خَلْقَهُ على ما عملوا من عملٍ وعلى ما لم يعملوه مما أصرُّوه في أنفسهم ونَوَوْهُ وأرادُوه، فيغفره للمؤمنين، ويؤاخذ به أهلَ الكفر والنفاق».

وقـال آخـرون ـ ممن قال: «هذه الآية مُحْكَمةٌ، وهي غير منسوخة»، ووافقوا الذين قالوا: «معنى ذلك: أن الله عز وجل أعلم عبادَه ماهو فاعلٌ بهم فيما أبدَوْا وأخفوا من أعمالهم» ـ معناها: إنَّ الله محاسبُ جميعَ خلقه بجميع ما أبدَوْا من سيِّئِ أعمالهم وجميع ما أسروه، ومُعاقبهم عليه. غيرَ أن عقوبته إياهم على ما أخفوه مما لم يعملوه، ما يحدث لهم في الدنيا من المصائب والأمور التي يحزنون عليها ويألمون منها.

وأولى الأقـوال التي ذكرناها بتأويل الآية قول مَنْ قال: «إنها محكمة، وليست بمنسوخة». وذلك أن النسخ لا يكون في حُكْمٍ إلاّ بنفيهِ بآخرَ، هو له نافٍ من كُلِّ وجوهِهِ. وليس في قوله جل وعز: «لا يكلفُ الله نَفْساً إلا وُسْعَها لها ما كَسَبَتْ وعليها ما اكتسبت»، نفي الحكم الذي أعلم عبادَه بقوله: «أو تُخْفُوه يحاسبكم به الله». لأنَّ المحاسبةَ ليست بموجبةٍ عقوبةً ولا مؤاخذةً بما حُوسِبَ عليه العبدُ من ذنوبه.

وقـد أخبـر الله عز وجل عن المجرمين أنهم حين تعرض عليهم كتب أعمالهم يوم القيامة يقولون: ﴿يَا وَيْلَتَنَا مَا لِهَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا﴾ [الكهف: ٤٩]. فأخبر أنَّ كتبهم مُحْصِيَةٌ عليهم صغائرَ أعمالهم وكبائرها، فلم تكن الكتب ـ وإنْ أحصت صغائرَ الذنوب وكبائرها ـ

بموجبٍ إحصاؤها على أهلِ الإيمان بالله ورسوله، وأهل الطاعة له، أن يكونوا بكل ما أحصتهُ الكتبُ من الذنوب معاقبين. لأنَّ الله عز وجل وعَدهم العفوَ عن الصغائر، باجتنابهم الكبائر فقال في تنزيله: ﴿إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُمْ مُدْخَلاً كَرِيماً﴾ [النساء: ٣١]. فذلك محاسبةُ الله عبادَه المؤمنين بما هو مُحاسِبُهم به من الأمور التي أخفتها أنفسهم، غيرَ موجبٍ لهم منه عقوبة، بل محاسبته إياهم - إن شاء الله - عليها، لِيُعَرِّفَهُمْ تَفَضُّلَهُ عليهم بعفوِهِ لهم عنها. وأن الله يفعل بعبده المؤمن: من تعريفهِ إياهُ سيئات أعمالِهِ، حتى يعرّفه تفضّله عليه بعفوه له عنها. فكذلك فِعْلُه تعالى ذِكْرُه في محاسبته إياه بما أبداه من نفسه وبما أخفاه من ذلك، ثم يغفر له كلّ ذلك بعد تعريفه تفضُّلَهُ وتكرُّمَهُ عليه، فيستره عليه. وذلك هو المغفرة التي وَعَدَ الله عبادَهُ المؤمنين فقال: «فيغفر لمنْ يَشاء».

فإن قال قائل: فإنَّ قوله: «لها ما كسبت وعليها ما اكتسبتْ»، يُنْبِىءُ عن أنَّ جميعَ الخَلْقِ غير مؤاخذين إلا بما كسبته أنفسهم من ذنب، ولا مُثابين إلا بما كسبته من خير؟

قيل: إن ذلك كذلك، وغيرُ مؤاخَذٍ العبدُ بشيء من ذلك إلا بفعل ما نُهي عن فعله، أو تَرْكِ ما أُمِرَ بفعله.

فإن قال: فإذْ كان ذلك كذلك، فما معنى وعيدِ الله عز وجل إيَّانا على ما أخفته أنفسنا بقوله: «ويُعَذِّبُ مَنْ يشاء»، إنْ كان لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت، وما أضمرته قلوبنا وأخفته أنفسنا -: من همّ بذنب، أو إرادةٍ لمعصية - لم تكتسبه جوارحُنا؟

قيل له: إن الله جل ثناؤه قد وعد المؤمنين أن يعفوَ لهم عما هو أعظم مما هَمَّ به أَحَدُهم من المعاصي فلم يفعله، وهو ما ذكرنا من وَعْده إياهم العفوَ

عن صغائر ذنوبهم إذا هم اجتنبوا كبائرها. وإنما الوعيد من الله عز وجل بقوله: «ويعذب من يشاء»، على ما أخفته نفوسُ الذين كانت أنفسُهم تخفي الشكَّ في الله، والمريةَ في وحدانيته، أو في نبوّةِ نبيه ﷺ وما جاء به من عند الله، أو في المعادِ والبعث ـ من المنافقين، على نحوِ ما قال ابنُ عباس ومجاهد ومَنْ قال بمثل قولهما، إن تأويل قوله: «أو تخفوه يحاسبكم به الله»، على الشك واليقين.

غير أنا نقولُ إنَّ المُتَوَعَّدَ بقولِهِ: «ويعذب من يشاء»، هو مَن كان إخفاءُ نفسه ماتخفيه الشكَّ والمريةَ في الله، وفيما يكون الشك فيه بالله كفراً ـ والموعودَ الغفران بقوله: «فيغفر لمن يشاء» هو الذي إخفاءُ مايخفيه، الهمّة بالتقدم على بعض مانهاه الله عنه من الأمور التي كان جائزاً ابتداءً تحليلهُ وإباحته، فحرّمه على خلقه جل ثناؤه ـ أو على تركِ بعضِ ما أمر الله بفعله، مما كان جائزاً ابتداءً إباحةُ تركه، فأوجب فعله على خلقه، فإنّ الذي يهمّ بذلك من المؤمنين ـ إذا هو لم يصحح همَّه بما يهمّ به، ويحقق ما أخفته نفسه من ذلك بالتقدم عليه، لم يكن مأخوذاً به.

فهذا الذي وصفنا هو الذي يحاسب الله به مؤمني عباده، ثم لا يعاقبهم عليه. فأما مَنْ كان ما أَخْفَتْهُ نَفْسُهُ شكاً في الله وارتياباً في نبوة أنبيائه، فذلك هو الهالكُ المُخَلَّدُ في النار الذي أوعده جَلَّ ثناؤه العذاب الأليم بقوله: «ويعذب من يشاء».

فتأويل الآية إذاً: «وإنْ تُبْدُوا ما في أنفسكم»، أيها الناس، فتظهروه، «أو تخفوه»، فتنطوي عليه نفوسكم «يحاسبكم به الله»، فيعرِّفُ مؤمنكم تَفَضُّلَهُ بعفوِهِ عنه ومغفرتَهُ له فيغفره له، ويعذّب مُنَافِقَكم على الشك الذي انطوت عليه نفسه في وحدانيةِ خالقهِ ونبوّةِ أنبيائه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تعَالَى: ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ٢٨٤﴾

يعني بذلك جل ثناؤه: والله عز وجل على العفو عما أخفته نفسُ هذا المؤمن من الهمَّةِ بالخطيئة، وعلى عقابِ هذا الكافر على ما أخفته نفسه من الشكِّ في توحيدِ الله عز وجل ونبوة أنبيائه، ومجازاةِ كل واحدٍ منهما على ما كان منه، وعلى غيرِ ذلك من الأمور قادرٌ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ﴾

يعني بذلك جل ثناؤه: صَدَّقَ الرسولُ ـ يعني رسولَ الله ﷺ، فأقرَّ «بما أُنْـزِلَ إليه»، يعني: بما أوحيَ إليه من ربه من الكتاب، وما فيه من حلالٍ وحرام، ووعدٍ وعيد، وأمرٍ ونهي، وغير ذلك من سائر مافيه من المعاني التي حوَاها.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ جَلَّ ثناؤهُ: ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ۚ﴾

وأما قوله: «لا نفرق بين أحد من رسله»، فإنه أخبر جل ثناؤه بذلك عن المؤمنين أنهم يقولون ذلك. ففي الكلام في قراءة مَنْ قرأ «لا نُفرّق بين أحدٍ من رسله» بالنون، متروكٌ، قد استغنى بدلالة ماذكر عنه. وذلك المتروك هو: «يقـولـون». وتأويل الكلام: والمؤمنون كلٌّ آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله، يقولون: لا نفرق بين أحد من رسله. وترك ذكر «يقولون» لدلالةِ الكلام عليه، كما ترك ذِكْرَهُ في قوله: ﴿وَالْمَلاَئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ* سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ﴾ [الرعد: ٢٣، ٢٤]، بمعنى: يقولون: سلامٌ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ۝٢٨٥﴾

يعني بذلك جل ثناؤه: وقال الكل من المؤمنين «سمعنا» قولَ رَبِّنَا وأمْرَهُ إيَّانا بما أمرنا به، ونهيه عما نهانا عنه «وأطعنا» يعني: أطعنا رَبنا فيما ألزمنا من فرائضهِ واستعبَدَنَا به من طاعته، وسلمنا له، وقوله: «غُفرانك ربنا»، يعني: وقالوا: «غفرانك رَبنا»، بمعنى: اغفر لنا ربنا غُفرانك، كما يقال: «سبحانك»، بمعنى: نُسَبِّحُكَ سبحانكَ.

وقد بينا فيما مضى أن «الغفران» و «المغفرة»: السترُ من الله على ذنوب من غفر له، وصفحه له عن هتكِ سترهِ بها في الدنيا والآخرة، وعفوه عن العقوبة ـ عليه.

وأما قوله: «وإليك المصير»، فإنه يعني جل ثناؤه أنهم قالوا: وإليك ياربنا مَرْجِعُنَا وَمَعَادُنَا، فاغفرْ لنا ذنوبنا.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾

يعني بذلك جل ثناؤه: لا يكلِّفُ الله نفساً فيتعبَّدها إلاّ بما يَسَعها، فلا يُضيق عليها ولا يَجهدها.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾

يعني بقوله جل ثناؤه: «لها» للنفس التي أخبر أنه لا يكلفها إلا وسعها. يقول: لكلِّ نَفْسٍ ما اجترحَت وعملتْ من خيرٍ «وعليها»، يعني: وعلى كل نفسٍ «ما اكتسبت»، ماعَمِلَتْ من شرّ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا

وهـذا تعليمٌ من الله عز وجل عبادَه المؤمنين دعاءَه كيف يدعونه، وما يقولونه في دعائهم إياه. ومعناه: قولوا: «رَبَّنَا لاتؤاخذنا إنْ نسينا» شيئاً فرضتَ علينا عَمَلَهُ فلم نَعْمَلْهُ، «أو أخطأنا» في فِعْلِ شيءٍ نهيتَنا عن فعله ففعلناه، على غيرِ قصدٍ منا إلى معصيتك، ولكن على جَهالة منا به وخطأ.

إن قال لنا قائل: وهل يجوزُ أن يُؤاخذ الله عز وجل عبادَهُ بما نسوا أو أخطأوا، فيسألوه أنْ لا يؤاخذهم بذلك؟

قيل: إنّ «النسيان» على وجهين: أحدُهما على وجه التضييعِ من العبدِ والتفـريطِ، وَالآخـرُ على وجه عَجز الناسي عن حفظِ ما استُحْفِظَ ووكِّل به، وضعف عقله عن احتماله.

فأما الذي يكون من العبد على وجه التضييعِ منه والتفريط، فهو تَركٌ منه لما أُمِرَ بفعله. فذلك الذي يرغب العبدُ إلى الله عز وجل في تركه مُؤَاخَذَتَهُ به، وهو «النسيانُ» الذي عاقب الله عز وجل به آدم صَلوات الله عليه فأخرجه من الجنة، فقال في ذلك: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً﴾ [طه: ١١٥]، وهو «النسيان» الذي قال جل ثناؤه: ﴿فَٱلْيَوْمَ نَنْسَاهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا﴾ [الأعراف: ٥١]. فرغبةُ العبدِ إلى الله عز وجل بقوله: «ربنا لاتؤاخذنا إنْ نسينا أو أخطأنا»، فيما كان من نسيانٍ منه لما أُمِرَ بفعله على هذا الوجه الذي وصفنا، ما لم يكن تركُهُ ما ترك من ذلك تفريطاً منه فيه وتضييعاً، كفراً بالله عز وجل. فإنَّ ذلك إذا كان كفراً بالله، فإن الرغبة إلى الله في تركهِ المؤاخذةَ به غير جائزة، لأن الله عز وجل قد أخبر عبادَهُ أنه لا يغفرُ لهم الشركَ

به، فمسألته فِعْلَ ماقد أعلمهم أنه لايفعله، خطأ. وإنما تكون مسألته المغفرة، فيما كان من مثل نسيانه القرآنَ بعد حفظهِ بتشاغلهِ عنه وعن قراءته، ومثل نسيانهِ صلاةً أو صياماً باشتغاله عنهما بغيرهما حتى ضيَّعهما.

وأما الذي العبدُ به غيرُ مؤاخذٍ، لعجز بِنْيته عن حفظهِ، وقلةِ احتمالِ عقلهِ ماوُكّل بمراعاته، فإنَّ ذلك من العبد غيرُ معصيةٍ، وهو به غير آثمٍ. فذلك الذي لا وجه لمسألة العبد ربَّه أنْ يغفره له، لأنه مسألة منه له أن يغفر له ماليس له بذنب. وذلك مثل الأمر يُغْلَبُ عليه وهو حريصٌ على تَذَكُّرِهِ وحفظه، كالرجل يحرصُ على حِفْظِ القرآن بجدّ منه فيقرأه، ثم ينساهُ بغيرِ تشاغلٍ منه بغيره عنه، ولكن بعجز بنيته عن حفظه، وقِلَّةِ احتمالِ عقله ذكرَ ما أودع قلبه منه، وما أشبه ذلك من النسيان، فإنَّ ذلك ما لا تجوزُ مسألة الربِّ مغفرته، لأنه لا ذنبَ للعبد فيه فيغفر له باكتسابه.

وكذلك لـ «الخطأ» وجهان:

أحدهما: من وجه ما نُهي عنه العبد فيأتيه بقصدٍ منه وإرادة، فذلك خطأ منه، وهو به مأخوذ. يقال منه: «خَطِئَ فلان وأخطأ» فيما أتى من الفعل، و«أثم»، إذا أتى ما يأثم فيه وركبه، وهذا الوجه الذي يرغب العبد إلى ربه في صَفح ما كان منه من إثم عنه، إلا ما كان من ذلك كفراً.

والآخر منهما: ما كان منه على وجه الجهل به، والظنّ منه بأن له فعله، كالذي يأكل في شهر رمضان ليلاً وهو يحسب أن الفجرَ لم يطلع، أو يؤخِّر صلاةً في يوم غيمٍ وهو ينتظرُ بتأخيره إياها دخولَ وقتها، فيخرج وقتها وهو يرى أنَّ وقتَها لم يدخل. فإنَّ ذلك من الخطأ الموضوعِ عن العبدِ، الذي وضعَ الله عز وجل عن عبادِهِ الإثمَ فيه، فلا وجهَ لمسألةِ العبدِ ربَّهُ أنْ لا يؤاخذه به.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا﴾

ويعني بذلك جل ثناؤه: قولوا: «ربنا لا تحمل علينا إصراً»، يعني بـ «الإصر» العهد، كما قال جل ثناؤه: ﴿قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي﴾ [آل عمران: ٨١]. وإنما عنى بقوله: «ولا تحمل علينا إصراً» ولا تحمِلْ علينا عهداً فنعجز عن القيامِ به ولا نستطيعه؛ «كما حملته على الذين من قبلنا»، يعني: على اليهودِ والنصارى الذين كُلِّفوا أعمالاً، وأخذت عهودهم ومواثيقهم على القيامِ بها، فلم يقوموا بها فَعُوجِلُوا بالعقوبة. فعلَّم الله عز وجل أمةَ محمدٍ ﷺ الرغبةَ إليه بمسألته أن لا يُحَمِّلَهُمْ من عهودهِ ومواثيقهِ على أعمالٍ - إنْ ضَيَّعُوها أو أخطأوا فيها أو نسوها - مثل الذي حَمَّلَ مَنْ قَبْلَهُمْ، فيحلُّ بهم بخطئهم فيه وتضييعهم إياه، مِثْلَ الذي أحَلَّ بمن قبلهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ﴾

يعني بذلك جل ثناؤه: وقولوا أيضاً: ربنا لا تكلفنا من الأعمالِ ما لانطيقُ القيامَ به، لِثِقَل حمله علينا.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا﴾

وفي هذا أيضاً، من قول الله عز وجل، خبراً عن المؤمنين من مسألتهم إياه ذلك الدلالةُ الواضحة أنهم سألوه تيسيرَ فرائضهِ عليهم بقوله: «ولا تُحَمِّلْنا مالا طاقةَ لنا به»، لأنهم عَقَّبُوا ذلك بقولهم: «واعفُ عنا»، مسألةً منهم ربَّهم أنْ يعفوَ لهم عن تقصيرٍ إنْ كان منهم في بعض ما أمرهم به من فرائضهِ،

فيصفح لهم عنه ولا يعاقبهم عليه، وإنْ خَفَّ ما كلَّفهم من فرائضه على أبدانهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَٱرْحَمْنَآ﴾

يعني بذلك جل ثناؤه: تَغَمَّدْنَا منك برحمةٍ تُنجينا بها من عقابك، فإنه ليس بناجٍ من عقابك أحدٌ إلاّ برحمتك إياه دُون عمله، وليست أعمالنا مُنْجِيتنا إنْ أنتَ لم ترحمنا، فَوَفِّقْنَا لما يُرضيكَ عنا.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٨٦﴾﴾

يعني بقوله جل ثناؤه: «أنت مَوْلانا»، أنت ولِّينا بنصرك، دون مَنْ عاداكَ وكَفَرَ بك، لأنا مؤمنون بك، ومُطِيعوكَ فيما أمرتنا ونهيتنا، فأنتَ وليُّ مَنْ أطاعكَ، وعدُو مَنْ كَفَرَ بكَ فعصاك. «فانصرنا»، لأنا حِزْبك «على القوم الكافرين»، الذين جحدوا وحدانيتك، وعبدوا الآلهةَ والأندادَ دونك، وأطاعوا في معصيتك الشيطان.

تفسير سورة آل عمران

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: الٓمٓ ۝١ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ

قد أتينا على البيان عن معنى قوله: «ألم» فيما مضى، بما أغنى عن إعادته في هذا الموضع. وكذلك البيان عن قوله: «الله».

وأما معنى قوله: «لا إله إلّا هو»، فإنه خبرٌ من الله جل وعز، أخبرَ عبادَه أنَّ الألوهيةَ خاصةٌ به دون ماسواه من الآلهةِ والأنداد، وأنَّ العبادة لاتصلحُ ولا تجوزُ إلا له، لانفرادهِ بالربوبية وتوحُّدهِ بالألوهية، وأن كُلَّ مادونَهُ فملْكُهُ، وأنَّ كل ماسواه فَخَلْقُهُ، لا شريكَ له في سلطانه ومُلكه، احتجاجاً منه تعالى ذكره عليهم بأنَّ ذلك إذْ كان كذلك، فغيرُ جائزةٍ لهم عبادةُ غيره، ولا إشراكُ أحد معه في سلطانه، إذْ كان كل معبودٍ سواه فملكه، وكلّ مُعَظَّمٍ غيرُه فخلقهُ، وعلى المملوكِ إفرادُ الطاعةِ لمالكه، وصرفُ خدمته إلى مولاه ورازقه؛ ومعرِّفاً مَنْ كان مِنْ خَلْقِهِ ـ يَوم أنزل ذلك إلى نبيه محمد ﷺ بتنزيله ذلك إليه، وإرساله به إليهم على لسانه صلوات الله عليه وسلامه ـ مقيماً على عبادةِ وثنٍ أو صنم أو شمس أو قمر أو إنسي أو مَلَك أو غير ذلك من الأشياء التي كانت بنو آدم مقيمةً على عبادته وإلاهته[1] ـ ومُتَّخِذَهُ دون مالكهِ وخالقهِ إلهاً وربًّا ـ أنه مقيمٌ على ضلالةٍ، ومُنعدلٌ[2] عن المحجة، وراكبٌ غيرَ السبيلِ المستقيمة، بصرفهِ العبادةَ إلى غيرهِ، ولا أحدَ له الألوهةُ غيره.

---

(١) الإلاهة: عبادةُ إله.

(٢) منعدل: منحرف.

وقد ذُكر أن هذه السورة ابتدأ الله بتنزيله فاتحتها بالذي ابتدأ به: من نَفْيِ «الألوهية» أنْ تكونَ لغيرِهِ، ووصفه نفسه بالذي وصَفها به في ابتدائها، احتجاجاً منه بذلك على طائفة من النصارىَ قَدِمُوا على رسولِ الله ﷺ من نَجْرَان فحاجُّوه في عيسى صلواتُ الله عليه، وألحدوا في الله. فأنزل الله عز وجل في أمرهم وأمرِ عيسى من هذه السورة نيفاً وثمانين آية من أولها، احتجاجاً عليهم وعلى مَنْ كان على مِثْل مقالتهم، لنبيّه محمد ﷺ، فأبوا إلا المقامَ على ضلالتهم وكفرهم، فدعاهم إلى المباهلةِ، فأبوا ذلك، وسألوا قَبولَ الجزية منهم، فقبلها ﷺ منهم، وانصرفوا إلى بلادهم.

غير أن الأمرَ وإنْ كان كذلك، وإياهم قصد بالحِجاج، فإنَّ مَنْ كان معناه من سائر الخلق معناهم في الكفر بالله، واتخاذ ماسوى الله ربًّا وإلهاً معبوداً، معمومون بالحجةِ التي حَجَّ اللهُ تبارك وتعالى بها من نزلت هذه الآياتِ فيه، ومحجوجون في الفُرْقان الذي فَرَق به لرسوله ﷺ بينه وبينهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۝٢﴾

(ومعنى الحي) عندي: أنه وصف نفسه بالحياة الدائمة التي لا فناءَ لها ولا انقطاع، ونفى عنها ماهو حالٌّ بكل ذي حياةٍ من خلقه من الفناء وانقطاع الحياة عند مجيء أجله. فأخبر عبادَه أنه المستوجبُ على خَلْقِه العبادة والألوهة، والحي الذي لا يموت ولا يبيد، كما يموتُ كل من اتخذ من دونه ربًّا، ويبيد كلُّ مَنِ ادَّعى من دونه إلهاً. واحتج على خَلْقِه بأنَّ من كان يبيد فيزول ويموت فيفنى، فلا يكونُ إلهاً يستوجبُ أنْ يعبد دون الإله الذي لايبيد ولا يموت وأنّ الإله، هو الدائم الذي لا يموتُ ولا يبيد ولا يفنى، وذلك الله الذي لا إله إلّا هو.

(ومعنى القيوم) أنَّ ذلك وصفٌ من الله تعالى ذكره نفسه بأنه القائمُ بأمر كل شيء، في رزقه والدفع عنه، وكلاءَته وتدبيره وصرفه في قدرته، من قول العرب: «فلان قائم بأمر هذه البلدة»، يعني بذلك: المتولى تدبيرَ أمرها.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾

يقول جل ثناؤه: يامحمد، إنَّ ربك وربَّ عيسى وربَّ كل شيء، هو الرّبُّ الذي أنزل عليك الكتاب. يعني: بـ«الكتاب»: القرآن «بالحق» يعني: بالصّدق فيما اختلف فيه أهلُ التوراة والإنجيل، وفيما خالفكَ فيه محاجُّوكَ من نصارى أهل نجران وسائر أهل الشرك غيرهم. «مُصَدّقاً لما بين يديه»، يعني بذلك القرآن، أنه مصدّق لما كان قَبْلَهُ من كُتُبِ الله التي أنزلها على أنبيائهِ ورسله، ومُحَقِّقٌ ما جاءتْ به رُسل الله من عنده. لأن مُنَزِّلَ جميعِ ذلك واحدٌ، فلا يكون فيه اختلاف، ولو كان من عند غيره كان فيه اختلافٌ كثير.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ جَلَّ ثناؤهُ: ﴿وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ۝٣ مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ﴾

يعني بذلك جل ثناؤه: «وأنزل التوراة»، على موسى، «والإنجيل» على عيسى. «من قَبْلُ»، يقول: من قبل الكتاب الذي نزله عليك. ويعني بقوله: «هُدًى للناس»، بياناً للناس من الله فيما اختلفوا فيه من توحيد الله وتصديق رسله، ونَعْتيك يامحمد بأنك نبيّي ورسولي، وفي غير ذلك من شرائع دين الله.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَنزَلَ ٱلْفُرْقَانَ﴾

يعني جل ثناؤه بذلك: وأنزل الفصْل بين الحق والباطل فيما اختلفت فيه الأحزابُ وأهلُ الملل في أمر عيسى وغيره.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٤﴾﴾

يعني بذلك جل ثناؤه: إنَّ الذين جحدوا أعلام الله وأدلته على توحيده وألوهته، وأن عيسى عبدٌ له، واتخذوا المسيح إلهاً وربًّا أو ادَّعوه لله ولداً، لهم عذاب من الله شديدٌ يوم القيامة.

و«الذين كفروا»، هم الذين جحدوا آيات الله. و«آيات الله»: أعلامُ الله وأدلته وحججه.

وهذا القول من الله عز وجل يُنْبِئُ عن معنى قوله: «وأنزلَ الفرقانَ» أنه معنِيٌّ به الفصل الذي هو حجة لأهل الحق على أهل الباطل. لأنه عقب ذلك بقـوله: «إن الذين كفروا بآياتِ الله»، يعني: إن الذين جحدوا ذلك الفصل والفرقانَ الذي أنزله فرقاً بين المُحِقِّ والمُبْطِلِ. «لهم عذاب شديدٌ»: وعيدٌ من الله لمن عانـد الحقَّ بعد وضوحِهِ له، وخالف سبيلَ الهدى بعد قيام الحجة عليه. ثم أخبرهم أنه «عزيز» في سلطانه لا يمنعه مانعٌ ممن أرادَ عذابه منهم، ولا يحولُ بينه وبينه حائلٌ، ولا يستطيع أن يعانده فيه أحدٌ، وأنه «ذو انتقام» مِمَّنْ جحدَ حججه وأدلته بعد ثبوتها عليه، وبعد وضوحها له ومعرفته بها.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ ﴿٥﴾﴾

يعني بذلك جل ثناؤه: إن الله لا يخفى عليه شيءٌ هو في الأرض ولا شيء هو في السمـاء. يقول: فكيف يخفى عليَّ يامحمدُ ـ وأنا علاَّمُ جميع الأشياء ـ مايُضَاهي به هؤلاء الذين يجادلونك في آيات الله من نصارى نجران في عيسى بن مريم، في مقالتهم التي يقولونها فيه؟!

القَوْلُ فِي تَأْويلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ﴾

يعني بذلك جل ثناؤه: الله الذي يُصَوِّركم فيجعلكم صوراً أشباحاً في أرحام أمهاتكم كيف شاء وأَحَبَّ، فيجعل هذا ذكراً وهذا أنثى، وهذا أسود وهذا أحمر، يُعَرِّفُ عبادَهُ بذلك أنّ جميع مَنِ اشتملتْ عليه أرحامُ النساء، فَمِمَّنْ صَوَّرَهُ وخلقه كيف شاء، وأنَّ عيسى بن مريم ممن صوَّره في رَحِمِ أمهِ وخلقه فيها كيف شاء وأحبّ، وأنه لو كان إلهاً لم يكن ممن اشتملتْ عليه رَحِمُ أمه، لأن خَلاَّقَ ما في الأرحامِ لا تكون الأرحامُ عليه مُشْتَمِلة، وإنما تشتمل على المخلوقين.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٦﴾

وهذا القولُ تنزيهٌ من الله تعالى ذكره نفسَه أن يكون له في ربوبيته ندٌّ أو مِثْلٌ، أو أن تَجوز الألوهة لغيره، وتكذيبٌ منه للذين قالوا في عيسى ما قالوا، من وفد نجران الذين قَدِمُوا على رسول الله ﷺ، وسائر مَنْ كان على مثل الذي كانوا عليه من قولهم في عيسى، ولجميع من ادّعى مع الله معبوداً أو أقرَّ بربوبية غيره. ثم أخبر جل ثناؤه خلقه بصفته، وعيداً منه لمن عَبَدَ غَيْرَهُ، أو أشركَ في

عبادته أحداً سواه، فقال: «هو العزيزُ» الذي لا ينصر من أرادَ الانتقام منه أحدٌ، ولا ينجيه منه وَأْلٌ ولا لَجَأٌ[1]، وذلك لعزته التي يذلُّ لها كل مخلوقٍ، ويخضعُ لها كل موجود. ثم أعلمهم أنه «الحكيمُ» في تدبيره.وإعذاره إلى خلقه، ومتابعة حججه عليهم، ليهلك مَنْ هلك منهم عن بَيِّنةٍ، ويحيا مَنْ حَيَّ عن بينة.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ﴾

يعني بقوله جل ثناؤه: «هو الذي أنزل عليك الكتاب»: إن الله الذي لايخفى عليه شيءٌ في الأرض ولا في السماء، هو الذي أنزل عليك الكتاب، يعني بـ «الكتاب»: القرآن.

وأما قوله: «منه آياتٌ محكمات» فإنه يعني: من الكتاب آيات. يعني بـ «الآيات»: آيات القرآن.

وأما «المحكمات»: فإنَّهُنَّ اللواتي قد أُحْكِمْنَ بالبيانِ والتفصيلِ، وأُثْبِتَتْ حججهن وأدلتهن على ماجُعلن أدلـةً عليه من حلالٍ وحرام، ووعدٍ ووعيد، وثواب وعقاب، وأمرٍ وزجر، وخبر ومثل، وعظة وعِبر، وما أشبه ذلك.

ثم وصف جل ثنـاؤه: هؤلاء «الآيات المحكمـات»، بأنهن: «هُنّ أمّ الكتاب». يعني بذلك: أنهن أصلُ الكتابِ الذي فيه عماد الدين والفرائض والحدود، وسائر ما بالخلقِ إليه الحاجةُ من أمرِ دينهم، وما كُلِّفُوا من الفرائض في عاجلهم وآجلهم.

---

(١) الوأل: الموئل، وهو الملجأ الذي يفر إليه الخائف. واللجأ: الملجأ.

وأما قوله: «وأُخَرُ»: فإنها جمعُ أُخْرَى.

وأما قوله: «متشابهات»، فإن معناه: متشابهاتٌ في التلاوة، مختلفاتٌ في المعنى، كما قال جل ثناؤه: ﴿وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهاً﴾ [البقرة: ٢٥]، يعني في المنظر، مختلفاً في المطعم، وكما قال مخبراً عمن أخبر عنه من بني إسرائيل أنه قال: ﴿إِنَّ البَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا﴾ [البقرة: ٧٠]، يعنون بذلك: تشابه علينا في الصفة، وإن اختلفت أنواعه.

فتأويل الكلام إذاً: إن الذي لا يخفى عليه شيءٌ في الأرض ولا في السماء، هو الذي أنزل عليك يامحمد القرآن، منه آياتٌ محكمات بالبيان، هُنَّ أصلُ الكتاب الذي عليه عمادُك وعماد أمتك في الدِّين، وإليه مفزعُك ومفزعهم فيما افترضتُ عليك وعليهم من شرائعِ الإسلام، وآيات أخر، هنّ متشابهاتٌ في التلاوة، مختلفات في المعاني.

وقد اختلف أهل التأويل في تأويل قوله: «منه آياتٌ محكمات هنّ أم الكتاب وأخر متشابهات»، وما المحكم من آي الكتاب، وما المتشابه منه؟

فقال بعضهم: «المحكمات» من آي القرآن، المعمولُ بهن، وهُنَّ الناسخاتُ أو المثبتاتُ الأحكام، «والمتشابهات» من آيِه، المتروكُ العملُ بهنّ، المنسوخاتُ.

وقال آخرون: «المحكمات» من آي الكتاب: ما أحكم الله فيه بيانَ حلالِه وحرامِه، «والمتشابه» منها: ما أَشْبَهَ بعضُهُ بعضاً في المعاني، وإن اختلفت ألفاظه.

وقال آخرون: «المحكمات» من آي الكتاب: مالم يحتملْ من التأويلِ غير وجهٍ واحدٍ، «والمتشابه» منها: ما احتمل من التأويل أوجهاً.

وقال آخرون: معنى «المحكم»: ما أحكم الله فيه من آي القرآن، وقَصَص الأمم ورسُلهم الذين أرسلوا إليهم، ففصّله ببيان ذلك لمحمدٍ وأمته، «والمتشابه»، هو ما اشتبهت الألفاظُ به من قَصَصهم عند التكرير في السور، بقَصِّهِ باتفاق الألفاظِ واختلافِ المعاني، وبقصّه باختلافِ الألفاظ واتفاق المعاني.

وقال آخرون: بل «المحكم» من آي القرآن: ماعرف العلماءُ تأويله، وفهموا معناه وتفسيره ـ و«المتشابه»: ما لم يكنْ لأحدٍ إلى علمه سبيلٌ، مما استأثر الله بعلمه دون خلقه، وذلك نحو الخبر عن وقت مَخْرج عيسى بن مريم، ووقت طُلوع الشمس من مغربها، وقيام الساعة، وفناءِ الدنيا، وما أشبه ذلك، فإن ذلك لا يعلمه أحدٌ. وقالوا: إنما سمى الله من آي الكتاب «المتشابه»، الحروف المقطّعة التي في أوائلِ بعض سور القرآن، من نحو «ألم» و«ألمص»، و«ألمر»، و«ألر»، وما أشبه ذلك، لأنهن متشابهاتٌ في الألفاظ، وموافقاتٌ حروفَ حسابِ الجُمَّل. وكان قومٌ من اليهود على عهد رسول الله ﷺ طَمِعوا أن يدركوا من قِبَلها معرفة مدّة الإسلام وأهله، ويعلموا نهايةَ أُكْلِ محمد وأمته، فأكْذَبَ الله أُحْدُوثَتَهم بذلك، وأعلمهم أنَّ ما ابتغوا علمه من ذلك من قِبَل هذه الحروفِ المتشابهة لايدركونه ولا من قبل غيرها، وأن ذلك لا يعلمه إلا الله.

وهذا القول الذي ذكرناه (أخيراً) أشبه بتأويل الآية؛ وذلك أن جميع ما أنزل الله عز وجل من آي القرآن على رسوله ﷺ، فإنما أنزله عليه بياناً له ولأمته وهدى للعالمين. وغيرُ جائز أنْ يكونَ فيه ما لا حاجة بهم إليه، ولا أن يكون فيه مابهم إليه الحاجةُ، ثم لا يكون لهم إلى عِلْمِ تأويلهِ سبيلٌ. فإذْ كان ذلك كذلك، فكل مافيه بخلقه إليه الحاجة، وإن كان في بعضه مابهم عن بعض معانيه الغنى، [وإن اضطرته الحاجة إليه في معان كثيرة]، وذلكَ كقول الله عز وجل: ﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ

أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا﴾ [الأنعام: ١٥٨]، فأعلم النبيُّ ﷺ أمته أنَّ تلك الآية التي أخبر الله جل ثناؤه عبادَه أنها إذا جاءت لم ينفع نفساً إيمانُها لم تكن آمنتْ من قبل ذلك، هي طُلوع الشمس من مغربها. فالذي كانت بالعباد إليه الحاجةُ من علم ذلك، هو العلمُ منهم بوقت نَفع التوبةِ بصفته، بغير تحديده بعدد السنين والشهور والأيام. فقد بَيَّنَ اللهُ ذلك لهم بدلالة الكتاب، وأوضحه لهم على لسانِ رسوله ﷺ مفسَّراً. والذي لا حاجة بهم إلى علمه منه، هو العلمُ بمقدارِ المدةِ التي بين وقتِ نزولِ هذه الآيةِ ووقتِ حدوث تلك الآية، فإنَّ ذلك مما لا حاجةَ بهم إلى عِلْمِهِ في دين ولا دنيا. وذلك هو العِلْمُ الذي استأثر اللهُ جل ثناؤه به دون خَلْقِهِ، فحجبه عنهم. وذلك وما أشبهه، هو المعنى الذي طلبت اليهودُ معرفته في مدّة محمد ﷺ وأمته من قبل قوله: «ألم» و«ألمص» و«ألر» و«ألمر» ونحو ذلك من الحروف المقطّعة المتشابهات، التي أخبر الله جل ثناؤه أنهم لا يدركون تأويلَ ذلك من قبله، وأنه لا يعلم تأويله إلا الله.

فإذْ كان المتشابه هو ماوصفنا، فَكُلُّ ماعَدَاهُ فَمُحْكَمٌ. لأنه لن يخلو من أن يكون محكماً بأنه بمعنى واحد لا تأويلَ له غير تأويلٍ واحد، وقد استغنى بسماعه عن بيانٍ يُبينه، أو يكون محكماً، وإن كان ذا وُجوه وتأويلات وتصرف في معانٍ كثيرة. فالدلالة على المعنى المراد منه، إما من بيان الله تعالى ذكره عنه، أو بيان رسوله ﷺ لأمته. ولن يذهبَ علم ذلك عن علماء الأمة لما قد بيَّنّا.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ﴾

يعني بذلك جل ثناؤه: فأما الذين في قلوبهم ميل عن الحق وانحرافٌ عنه.

يقال منه: «زاغَ فلانٌ عن الحَقِّ، فهو يَزيغُ عنه زَيْغاً وزيَغاناً وزيْغوغَة وزُيوغاً»، و«أزاغه الله» - إذا أماله - «فهو يُزيغه»، ومنه قوله جل ثناؤه: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا﴾ لاتُمِلْها عن الحق ﴿بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا﴾ [آل عمران: ٨].

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ﴾

يعني بقوله جل ثناؤه: «فيتبعون ما تشابه»، ما تشابهت ألفاظهُ وتصرَّفت معانيه بوجوه التأويلات، ليحققوا - بادّعائهم الأباطيلَ من التأويلات في ذلك - ماهم عليه من الضلالةِ والزّيغِ عن محجة الحقّ، تلبيساً منهم بذلك على مَنْ ضَعُفَتْ معرفتهُ بوجوه تأويلِ ذلك وتصاريفِ معانيه.

واختلف أهل التأويل فيمن عني بهذه الآية. والذي يدل عليه ظاهر هذه الآية، أنها نزلت في الذين جادَلوا رسولَ الله ﷺ بمتشابه ما أُنْزِلَ إليه من كتابِ الله، إمّا في أمر عيسى، وإما في مدة أُكله وأُكْل أمته[1]. وهو بأن تكون في الذين جادلوا رسول الله ﷺ بمتشابهه في مدّته ومدّةِ أُمته، أشبهُ. لأن قوله: «وما يعلَمُ تأويله إلّا الله»، دالٌ على أن ذلك إخبارٌ عن المدةِ التي أرادوا عِلْمَها من قِبَل المتشابه الذي لا يعلمه إلّا الله. فأما أمرُ عيسى وأسبابه، فقد أعْلَمَ اللهُ ذلك نَبِيَّهُ محمداً ﷺ وأمته، وبَيَّنَهُ لهم. فمعلومٌ أنه لم يعن به إلا ما كان عليه خفيًّا من الآجال.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ﴾

(يعني): فأما الذين في قلوبهم مَيْلٌ عن الحق وحَيْفٌ عنه، فيتبعون من

---

(١) الأُكْل: الرزق، يقال للميت: انقطع أُكْلُه: أي: انقضت مدته وفني عمره.

آي الكتابِ ماتَشابهتْ ألفاظهُ، واحتمل صَرْف صارفه في وجوه التأويلات ـ باحتماله المعاني المختلفة ـ إرادةَ اللبس على نفسه وعلى غيره، احتجاجاً به على باطله الذي مالَ إليه قلبه، دون الحق الذي أبانه الله فأوضحه بالمحكماتِ من آيِ كتابه.

وهذه الآية وإن كانت نزلت فيمن ذكرنا أنها نزلت فيه من أهلِ الشركِ، فإنه معنيّ بها كُلُّ مبتدع في دينِ الله بدعةً فمال قلبُه إليها، تأويلاً منه لبعض مُتشابه آي القرآن، ثم حاجّ به وجادل به أهلَ الحق، وعدل عن الواضحِ من أدلة آيهِ المحكمات، إرادةً منه بذلك اللبسَ على أهل الحق من المؤمنين، وطلباً لعلم تأويل ماتشابه عليه من ذلك، كائناً من كان، وأيّ أصناف المبتدعة كان: من أهل النصرانية كان أو اليهودية أو المجوسية، أو كان سَبئياً[1]، أو حروريًّا[2]، أو قدريًّا[3]، أو جهميًّا[4].

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ﴾

(يعني جل ثناؤه بذلك): إنَّ «ابتغاء التأويل» الذي طلبه القوم من المتشابه، هو معرفةُ انقضاء المدةِ ووقتِ قيام الساعة وأنهم طلبوا وأرادوا معرفة وقَتٍ هو جَاءٍ قبل مجيئه.

(١) نسبة إلى عبدالله بن سبأ ـ رأس البلاء في تاريخ الإسلام ـ وهم غُلاةُ الشيعة.

(٢) الحرورية: فرقة من الخوارج.

(٣) هم نُفاةُ القدر والصفات، ومنهم المعتزلة.

(٤) نسبةً إلى جهم بن صفوان، والمعتزلة هم مخانيث الجهمية كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية يرحمه الله.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾

يعني جل ثناؤه بذلك: وما يعلم وقت قيام الساعة، وانقضاء مدة أُكْلِ محمد وأمته، وما هو كائنٌ، إلا الله، دون مَنْ سواه من البشر الذين أمَّلوا إدراك علم ذلك من قبل الحساب والتنجيم والكهانة. وأما الراسخون في العلم فيقولون: «آمنا به، كُلٌّ من عندِ ربنا» ـ لا يعلمون ذلك، ولكن فَضْلَ عِلمهم في ذلك على غيرهم، العلمُ بأن الله هو العالم بذلك دون مَنْ سواه من خلقه.

واختلف أهلُ التأويل في تأويل ذلك، وهل «الراسخون» معطوفٌ على اسم «الله»، بمعنى إيجابِ العلمِ لهم بتأويلِ المتشابهِ، أمْ هم مستأنَفٌ ذكرهم، بمعنى الخبر عنهم أنهم يقولون: آمنا بالمتشابه وصَدَّقْنا أنَّ عِلْمَ ذلك لا يعلمهُ إلا الله؟

فقال بعضهم: معنى ذلك: وما يعلمُ تأويلَ ذلك إلا الله وحده منفرداً بعلمه. وأما الراسخون في العلم، فإنهم ابتُدِئَ الخبرُ عنهم بأنهم يقولون: آمنا بالمتشابه والمحكم، وأنَّ جميع ذلك من عند الله.

وقال آخرون: بل معنى ذلك: وما يعلمُ تأويلَهُ إلا الله والراسخون في العلم، وهم مع عِلْمِهم بذلك ورسوخِهم في العلم يقولون: «آمنا به كلّ من عند ربنا».

فمن قال القول الأول في ذلك، وقال: إن الراسخين لا يعلمون تأويلَ ذلك، وإنما أخبر الله عنهم بإيمانهم وتصديقهم بأنه من عند الله، فإنه يرفع «الراسخين في العلم» بالابتداء في قول البصريين، ويجعل خبره: «يقولون آمنا به». وأما في قول بعض الكوفيين، فبالعائد من ذكرهم في «يقولون». وفي قول

بعضهم: بجملة الخبر عنهم، وهي: «يقولون».

ومن قال القول الثاني، وزعم أنّ الراسخين يعلمون تأويله، عطف بـ «الراسخين» على اسم «الله»، فرفعهم بالعطف عليه.

والصواب عندنا في ذلك أنهم مرفوعون بجملة خبرهم بعدهم وهو: «يقولون»، لما قد بينا قَبْلُ من أنهم لا يعلمون تأويل المتشابه الذي ذكره الله عز وجل في هذه الآية. وهو فيما بلغني مع ذلك في قراءة أبيّ: ﴿وَيَقُولُ ٱلرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾، وعن ابن عباس أنه كان يقرأه، وفي قراءة عبدالله: ﴿إنْ تَأْوِيلُهُ إلاَّ عِنْدَ آللهِ وَٱلرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمَ يَقُولُونَ﴾.

وأما معنى «التأويل» في كلام العرب، فإنه التفسيرُ والمرجعُ والمصيرُ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ

يعني بـ «الراسخين في العلم»، العلماء الذين قد أتقنوا علمهم ووَعَوْه فحفظوه حفظاً، لا يدخلهم في معرفتهم وعلمهم بما علموه شَكٌّ ولا لبس.

وأما تأويل قوله: «يقولون آمنا به»، فإنه يعني أنّ الراسخين في العلم يقولون: صَدَّقْنا بما تشابه من آيِ الكتاب، وأنه حقٌّ وإن لم نَعلمْ تأويله.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: كُلٌّ مِّنۡ عِندِ رَبِّنَاۗ

يعني بقوله جل ثناؤه: «كُلٌّ من عند ربنا»، كلُّ المُحْكَمِ من الكتابِ والمتشابه منه «من عندِ ربنا»، وهو تنزيلهُ ووحيهُ إلى نَبيِّهِ محمدٍ ﷺ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ۝٧﴾

يعني بذلك جل ثناؤه: وما يتذكر ويتَّعِظُ وينزجر عن أن يقول في متشابه آيِ كتاب الله مالا عِلْمَ له به، إلّا أولو العقول والنهى.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ۝٨﴾

يعني بذلك جل ثناؤه: أنَّ الراسخين في العلم يقولون: آمنا بما تشابه من آيِ كتابِ الله، وأنه والمحكم من آيِهِ من تنزيلِ رَبِّنا ووحيِهِ. ويقولون أيضاً: «ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذْ هديتنا»، يعني أنهم يقولون رغبةً منهم إلى ربهم في أن يصرفَ عنهم ما ابتلى به الذين زاغتْ قلوبُهم من اتِّباعِ متشابه آي القرآن، ابتغاءَ الفتنةِ وابتغاءَ تأويله الذي لا يعلمه غيرُ الله: ياربنا، لا تجعلنا مثلَ هؤلاء الذين زاغتْ قلوبهم عن الحق فصدوا عن سبيلك «لا تزغ قلوبنا»، لا تُمِلْهَا فتصرفها عن هُدَاكَ بعد إذْ هديتنا له، فَوَفِّقْتنا للإيمانِ بمُحْكَمِ كتابكَ ومتشابهِهِ، «وهَبْ لنا» ياربنا «مِنْ لَدُنْكَ رحمةً»، يعني: مِنْ عِنْدِكَ رحمة، يعني بذلـك: هب لنا من عندك توفيقاً وثباتاً للذي نحنُ عليه من الإقرار بمحكم كتابك ومتشابهه «إنك أنتَ الوهاب»، يعني: إنك أنت المعطي عبادَكَ التوفيقَ والسدادَ للثباتِ على دينك، وتصديق كتابك ورسلك.

وفي مدح الله جل ثناؤه هؤلاء القوم بما مدحهم به من رغبتهم إليه في أنْ لا يزيغَ قلوبَهم، وأن يعطيهم رحمةً منه معونةً لهم للثبات على ماهُم عليه من حُسْنِ البصيرةِ بالحق الذي هم عليه مقيمون، ما أبانَ عن خطأ قولِ الجهَلةِ من القدَرية: ـ أنَّ إزاغةَ الله قلبَ مَنْ أزاغ قلبَهُ من عباده عن طاعته وإمالته له

عنها، جَوْرٌ. لأنَّ ذلك لو كان كما قالوا، لكان الذين قالوا: «ربنا لا تزغ قلوبنا بعدَ إذْ هدَيتنا»، بالذمِّ أولى منهم بالمدح. لأن القولَ لو كان كما قالوا، لكان القومُ إنما سألوا ربَّهم ـ بمسألتهم إياهُ أنْ لا يزيغَ قلوبَهم ـ أنْ لا يظلمهم ولا يجورَ عليهم. وذلك من السائل جهلٌ، لأن الله جل ثناؤه لا يظلم عبادَه ولا يجورُ عليهم. وقد أعلم عبادَه ذلك ونَفاه عن نفسهِ بقولِه: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [فصلت: ٤٦]. ولا وجهَ لمسألتهِ أن يكونَ بالصفةِ التي قد أخبرهم أنَّهُ بها. وفي فسادِ ما قالوا من ذلك، الدليلُ الواضح على أن عدلاً من الله عز وجل: إزاغةُ من أزاغَ قلبه من عباده عن طاعته، فلذلك استحقّ المدحَ مَنْ رغب إليه في أنْ لا يُزيغه، لتوجيههِ الرغبةَ إلى أهلها، ووضعهِ مسألتَهُ مَوْضِعَها، مع تظاهرِ الأخبارِ عن رسولِ الله ﷺ برغبتهِ إلى ربه في ذلك، مع محله منه وكرامته عليه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ جَامِعُ ٱلنَّاسِ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ۝٩﴾

يعني بذلك جل ثناؤه أنهم يقولون أيضاً مع قولهم: آمنا بما تشابه من آيِ كتابِ ربِّنا، كلّ المحكم والمتشابه الذي فيه من عند ربنا: ياربنا، «إنك جامعُ الناسِ ليومٍ لا ريبَ فيه إنَّ الله لا يُخْلِفُ الميعاد».

وهذا من الكلام الذي استُغني بذكر ماذكر منه عما ترك ذكره. وذلك أن معنى الكلام: ربنا إنك جامعُ الناسِ ليوم القيامة، فاغفر لنا يومئذٍ واعْفُ عنا، فإنك لا تُخْلِفُ وعْدَكَ: أنّ مَنْ آمن بك، واتَّبع رَسُولَكَ، وعمل بالذي أمرتَه به في كتابك، أنك غافِرُهُ يومئذٍ.

وإنما هذا من القوم مسألة ربِّهم أنْ يُثَبِّتَهُمْ على ماهم عليه من حُسْنِ

بَصيرتهم، بالإيمان بالله ورسوله، وما جاءهم به من تنزيله، حتى يقبضَهُمْ على أحسنِ أعمالهم وإيمانهم، فإنه إذا فعل ذلك بهم، وجبتْ لهمُ الجنةُ، لأنه قد وعد مَنْ فعل ذلك به من عباده أنه يُدخله الجنة.

فالآية، وإنْ كانت قد خرجت مخرج الخبر، فإن تأويلهَا من القوم: مسألةٌ ودعاءٌ ورغبة إلى ربهم.

وأما معنى قوله: «ليوم لا ريب فيه»، فإنه: لا شك فيه.

ومعنى قوله: «ليوم»، في يوم. وذلك يومٌ يجمع الله فيه خَلْقَهُ لفصلِ القضاءِ بينهم في موقف العَرْض والحساب.

«والميعاد» «المفعال»، من «الوعد».

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمْ وَقُودُ ٱلنَّارِ ۝١٠﴾

يعني جل ثناؤه بقوله: «إنّ الذين كفروا»، إن الذين جحدوا الحقَّ الذي قد عرفوه من نبوّةِ محمد ﷺ من يهود بني إسرائيل ومنافقيهم ومنافقي العرب وكفارهم، الذين في قلوبهم زَيغٌ فهم يتَّبعون من كتابِ الله المتشابهَ ابتغاءَ الفتنةِ وابتغاءَ تأويلهِ «لنْ تُغنيَ عنهم أموالُهم ولا أولادُهم من الله شيئاً»، يعني بذلك أنَّ أموالَهم وأولادَهم لن تُنجيهم من عقوبةِ الله إنْ أحَلَّها بهم ـ عاجلاً في الدنيا على تكـذيبهم بالحق بعـد تَبيُّنِهم، واتباعهم المتشابهَ طَلَبَ اللبس ـ فتدفعها عنهم؛ ولا يغني ذلك عنهم منها شيئاً، وهم في الآخرةِ «وَقُودُ النار»، يعني بذلك: حَطبُها.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ۝١١﴾

يعني بذلك جل ثناؤه: إن الذين كفروا لن تغني عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئاً عند حلولِ عقوبتنا بهم، كسُنَّةِ آلِ فرعون وعادتهم[(١)] «والذين من قبلهم» من الأمم الذين كَذَّبُوا بآياتنا، فأخذناهم بذنوبهم، فأهلكناهم حين كَذَّبُوا بآياتنا، فلم تُغْنِ عنهم أموالُهم ولا أولادهم من الله شيئاً حين جاءهم بأسنا، كالذين عُوجِلُوا بالعقوبة على تكذيبهم ربَّهم من قبل آل فرعون: من قوم نوح وقوم هود وقوم لوط وأمثالهم.

وأما قوله: «واللهُ شديدُ العقاب»، فإنه يعني به: والله شديدٌ عقابهُ لمن كفر به وكذّب رُسُلَهُ بعد قيامِ الحجة عليه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ١٢﴾

(يعني بذلك جل ثناؤه): قل يامحمد للذين كفروا من يهود بني إسرائيل الذين يتبعون ماتشابه من آي الكتاب الذي أنزلته إليك ابتغاءَ الفتنة وابتغاءَ تأويله «سَتُغْلَبُونَ وتُحشرون إلى جهنمَ وبِئْسَ المِهاد».

ومعنى قوله: «وتحشرون»، وتُجْمَعُونَ، فَتُجْلَبونَ إلى جهنم.

وأما قوله: «وبئس المهاد»، وبئس الفراش جهنم التي تحشرون إليها.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ﴾

---

(١) انظر مجاز القرآن لأبي عبيد: ١/٨٧.

آل عمران: ١٣

يعني بذلك جل ثناؤه: قُلْ، يامحمد، للذين كفروا من اليهود الذين بين ظهرانَيْ بلدك: «قد كان لكم آية»، يعني: علامةٌ ودلالةٌ على صدق ما أقولُ: إنكم سَتُغْلَبُونَ، وعبرةٌ «في فئتين»، يعني: في فرقتين وحزبين، و«الفئة»: الجماعة من الناس. «الْتَقَتَا» للحربِ، وإحدى الفئتين رسولُ الله ﷺ ومَنْ كان معه ممن شَهِدَ وقعةَ بدر، والأخرى مشركو قريش. «فئة تُقاتل في سبيل الله»، جماعةٌ تقاتل في طاعة الله وعلى دينه، وهم رسولُ الله ﷺ وأصحابه، «وأخرى كافرة»، وهم مشركو قريش.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْىَ ٱلْعَيْنِ﴾

(يعني جل ثناؤه): قد كان لكم، يامعشر اليهود، آيةٌ في فئتين التقتا: إحداهما مسلمةٌ والأخرى كافرةٌ، كثيرٌ عددُ الكافرةِ، قليلٌ عددُ المسلمة، ترى الفئة القليلُ عددُها الكثيرَ عددُها أمثالاً، أنها إنما تكثر من العدد بمثل واحد، فهم يرونهم مِثْلَيْهِم. فيكون أحدُ المثلين عند ذلك، العدد الذي هو مثل عدد الفئة التي رأتهم، والمثل الآخر الضعف الزائد على عددهم. فهذا أحد معنيي التقليل الذي أخبر الله عز وجل المؤمنين أنه قلَّلهم في أعينهم.

والمعنى الآخر منه: التقليل الثاني، على ماقاله ابن مسعود: وهو أنْ أراهم عددَ المشركين مثل عددهم، لا يزيدون عليهم. فذلك التقليل الثاني الذي قال الله جل ثناؤه: ﴿وإذْ يُريكُمُوهُمْ إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلاً﴾.

وأما قوله: «رأيَ العين»، فمعنى ذلك: يرونهم ـ حيث تلحقهم أبصارُهم وتراهم عيونُهم ـ مِثْلَيْهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ١٣﴾

يعني بقوله جل ثناؤه: «والله يؤيد»، يقوِّي «بنصره من يشاء».

وتأويلُ الكلام: قد كان لكم ـ يامعشرَ اليهود، في فئتين التقتا، إحداهما تقاتل في سيل الله وأخرى كافرة، يِراهم المسلمون مِثْلَيْهم رأيَ أعينهم، فأيدنا المسلمةَ وهم قليلُ عَدَدُهم، على الكافرةِ وهم كثيرٌ عدَدُهم حتى ظفروا بهم ـ مُعْتَبَرٌ ومُتَفكَّرٌ، والله يُقَوِّي بنصرهِ مَنْ يشاء[1].

وقال جل ثناؤه «إنّ في ذلك»، يعني: إنَّ فيما فعلنا بهؤلاء الذين وصفنا أمرهم: من تأييدِنَا الفئةَ المسلمة مع قِلَّةِ عَدَدِهَا، على الفئةِ الكافرةِ مع كثرةِ عددها «لعبرة»، يعني: لَمُتَفَكَّراً ومُتَّعظاً لمن عَقَلَ وادَّكَرَ فأبصرَ الحق.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيل قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ﴾

يعني تعالى ذِكْرُهُ: زُيِّن للناس محبةُ مايشتهون من النساء والبنين وسائر ماعدّ. وإنما أراد بذلك توبيخَ اليهودِ الذين آثرُوا الدنيا وحبَّ الرياسة فيها، على اتِّباعِ محمدٍ ﷺ بعد عِلْمِهم بصِدْقهِ.

وأما «القناطير» فإنها جمع « قنطار».

واختلف أهل التأويل في مبلغ القنطار.

والصواب في ذلك أن يقال: هو المال الكثير، ولا يُحَدُّ قَدْرُ وزنه بحدٍّ على تَعسُّف.

وأمـا «المقنطرة»، فهي المضعَّفة، وكأن «القناطير» ثلاثة، و«المقنطرة»

---

(١) أعاد المؤلف هنا شيئاً مما سبق لضرورته في ربط الكلام.

تسعة[1]. وهو: المال الكثيرُ بعضه على بعض.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ﴾

اختلف أهل التأويل في معنى «المسوَّمة».

وأولى الأقـوالِ بالصواب في تأويل قوله: «والخيل المسوّمة»، المعلمَةُ بالشِّياتِ، الحِسَانُ، الرائعةُ حُسْناً مَنْ رآها. لأن «التسويم» في كلام العرب: هو الإعـلامُ. فالخيلُ الحِسَـان مُعلمَـةٌ بإعلامِ الله إياها بالحُسْنِ من ألوانها وشياتها وهيئاتها، وهي «المُطَهَّمةُ»، أيضاً.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِۗ﴾

«الأنعام»: جمع «نَعَم»، وهي الأزواجُ الثمانية التي ذكرها في كتابه[2]: من الضّأن والمعزِ والبقر والإبل.

وأما «الحرث»، فهو: الزّرع.

وتأويل الكلام: زُيِّن للناس حُبُّ الشهواتِ من النساء، ومن البنين، ومِن كذا، ومن كذا، ومن الأنعام والحَرْث.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَاۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ١٤﴾

(١) انظر معاني القران للفرّاء: ١/١٩٥.

(٢) في سورة الأنعام: ١٤٢ ـ ١٤٤.

يعني بقوله جَل ثناؤه: «ذلك»، جميعَ ماذُكر في هذه الآية من النساء والبنين والقناطير المقنطرةِ من الذهب والفضّة والخيل المسوّمة والأنعام والحرث. فكنى بقوله: «ذلك» عن جميعِهن. وهذا يدل على أن «ذلك» يشتملُ على الأشياء الكثيرةِ المختلفةِ المعاني، ويكنى به عن جميع ذلك.

وأما قوله: «متاع الحياة الدنيا»، فإنه خبرٌ من الله عن أنَّ ذلك كله مما يَستمتع به في الدنيا أهلها أحياءً، فيتبلَّغون به فيها، ويجعلونه وصلْةً في معايشهم، وسبباً لقضاء شهواتهم التي زُيِّن لهم حُبُّهَا في عاجل دنياهم، دون أن تكون عدّة لمعادهم، وقُرْبةً لهم إلى ربهم، إلّا ماأُسلِكَ في سبيله، وأُنْفِقَ منه فيما أمرَ به.

وأما قوله: «والله عنده حسن المآب»، فإنه يعني بذلك جَلَّ ثناؤه: وعند الله حُسْنُ المآب ـ يعني: حُسْن المرجْعِ.

فإن قال قائل: وكيف قيل: «والله عنده حسن المآب»، وقد علمتَ ماعنده يومئذٍ من أليمِ العذابِ وشديدِ العقاب؟

قيل: إن ذلك معنيٌّ به خاصٌّ من الناس، ومعنى ذلك: والله عنده حسن المآب للذين اتقوا رَبَّهُم. وقد أنبأنا عن ذلك في هذه الآية التي تليها.

فإن قال: وما «حُسْنُ المآب»؟ قيل: هو ماوصفه به جَلَّ ثناؤه، وهو المرجعُ إلى جناتٍ تجري من تحتها الأنهارُ مُخلَّداً فيها، وإلى أزواجٍ مُطَهَّرة ورضوان من الله.

القَوْلُ فِي تَأْوِيل قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ ۚ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴿١٥﴾﴾

يعني جل ثناؤه: قل، يامحمد، للناس الذين زُيِّنَ لهم حُبُّ الشهواتِ من النساء والبنين، وسائر ماذكر ربنا جَلَّ ثناؤه: «أَؤُنَبئكم»، أأُخبركم وأعلمكم «بخيرٍ من ذلكم»، يعني: بخير وأفضل لكم «من ذلكم»، يعني: مما زُيِّنَ لكم في الدنيا حبُّ شهوتهِ من النساءِ والبنين والقناطير المقنطرةِ من الذهب والفضة، وأنواعِ الأموال التي هي متاعُ الدنيا.

ثم اختلف أهل العربية في الموضع الذي تناهى إليه الاستفهام من هذا الكلام.

وأولى الأقوال عندي بالصواب، قول من جعل الاستفهام متناهياً عند قوله: «بخيرٍ من ذلكم»، والخبر بعده مبتدأ عَمَّنْ له الجنات بقوله: «للذين اتقوا عند ربهم جناتٌ»، فيكون مخرج ذلك مخرج الخبر، وهو إبانة عن معنى «الخير» الذي قال: أؤنبئكم[1] به؟ فلا يكون بالكلام حينئذ حاجة إلى ضمير.

وأما قوله: «خالدين فيها»، فمنصوب على القطع[2].

ومعنى قوله: «للذين اتقوا»: للذين خافوا الله فأطاعوه بأداءِ فرائضهِ واجتنابِ معاصيه، «عند ربهم»، يعني بذلك: لهم جناتٌ تجري من تحتها الأنهار عند ربهم.

«والجنات»: البساتين، وأنَّ قوله: «تجري من تحتها الأنهار»، يعني به: من تحتِ الأشجار، وأنَّ «الخلودَ» فيها دوامُ البقاء فيها، وأنَّ «الأزواج المطهرة»، هُنَّ نساء الجنة اللواتي طُهِّرْنَ من كُلِّ أذى يكون بنساء أهلِ الدنيا، من الحيضِ والمنيِّ والبوْلِ والنفاسِ وما أشبه ذَلك من الأذى.

---

(١) انظر معاني القرآن للفراء: ١/١٩٥ ـ ١٩٨ ففيه تفصيل.

(٢) القطع: يعني الحال.

وقولـه: «ورِضْوَانٌ من الله»، يعني: ورضى الله، وهو مصدر من قول القائل: «رَضي اللهُ عن فلان فهو يَرْضى عنه رِضىً» منقوص «ورِضْواناً ورُضْواناً ومَرْضاةً». فأما «الرُّضوان» بضم الراء، فهو لغةُ قَيْسٍ، وبه كان عاصم يقرأ.

وإنما ذكر الله جل ثناؤه فيما ذكر للذين اتقوا عنده من الخير رِضْوانَه، لأنَّ رضوانَهُ أعلى منازلِ كرامةِ أهل الجنة.

وقوله: «والله بصير بالعباد»، يعني بذلك: واللهُ ذو بصر بالذي يتقيه من عباده فيخافه، ـ فيطيعه، ويُؤْثِر ماعنده مما ذكر أنه أعدَّهُ للذين اتقوه على حُبِّ مازُيِّنَ له في عاجل الدنيا من شهواتِ النساء والبنين وسائر ماعدّد منها تعالى ذِكْرُه ـ وبالذي لايتقيه فيخافه، ولكنه يعصيه ويطيعُ الشيطانَ ويؤثر مازُيِّنَ له في الدنيا من حُبِّ شهوةِ النساء والبنين والأموال، على ماعنده من النعيمِ المقيمِ ـ عالمٌ تعـالى ذِكْـرُه بكـلِّ فريقٍ منهم، حتى يجـازي كلَّهم عند معادِهم إليه جزاءَهم، المحسَنَ بإحسانهِ، والمسيءَ بإساءته.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ١٦﴾

ومعنى ذلـك: قل هَلْ أُنَبِّئُكُم بخيرٍ من ذلكم للذين اتقـوا، (الـذين) يقولون: «ربنا إننا آمنا فاغفرْ لنا ذنوبنا وقنا عذاب النار».

ومعنى قوله: «الذين يقولون ربنا إننا آمنا فاغفر لنا ذنوبنا»: الذين يقولون: إننا صَدَّقْنَا بكَ وبنبيك وما جاء به من عندك «فاغفر لنا ذنوبنا»، يقول: فاسترْ علينا ذُنوبَنا، بعفوكَ عنها، وتَرْكِكَ عقوبَتَنا عليها، «وقِنَا عذابَ النارِ». ادفع عنا عذابكَ إيَّاها بالنارِ أنْ تعذبنا بها. وإنما معنى ذلك: لاتعذبنا ياربنا بالنار.

وإنما خصّوا المسألةَ بأنْ يقيهم عذاب النار، لأن مَنْ زُحْزِحَ يومئذٍ عن النار فقد فاز بالنجاةِ من عذابِ الله وحسن مآبه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْمُنفِقِينَ﴾

يعني بقوله «الصابرين»: الذين صبروا في البأساء والضراء وحين البأس.

ويعني بـ «الصادقين»: الذين صدقوا الله في قولهم بتحقيقهم الإقرارَ به وبرسوله وما جاء به من عنده، بالعملِ بما أمَرَهُ به والانتهاءِ عما نهاهُ عنه.

ويعني بـ «القانتين»: المطيعين له.

وأما «المنفقون»، فهم: المُؤْتونَ زكواتِ أموالهم، وواضعوها على ما أمرهم الله بإتيانها، والمنفقون أموالهم في الوجوه التي أَذِنَ اللهُ لهم جل ثناؤه بإنفاقها فيها.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ ١٧﴾

اختلف أهلُ التأويل في القومِ الذين هذه الصفةُ صِفَتُهم.

وأظهرُ معاني ذلك أنْ تكونَ مسألتهم إياهُ بالدعاء. وقد يحتمل أن يكون معناه: تعرّضهم لمغفرتهِ بالعملِ والصلاةِ، غيرَ أنَّ أظهرَ معانيهِ ماذكرنا من الدُّعاء.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ١٨﴾

يعني بذلك جل ثناؤه: شَهِدَ اللهُ أنه لا إله إلا هو، وشهدت الملائكةُ وأولُو العلم.

وأما قوله: «قائماً بالقسط»، فإنه بمعنى: أنه الذي يلي العدلَ بين خَلْقِه.

«والقسط»، هو العدل من قولهم: «هو مقسط» و«قد أقسط»، إذا عَدَل.

وأما تأويل قوله: «لا إله إلّا هو العزيز الحكيم»، فإنه نفى أن يكون شيء يستحقُّ العُبودَة غير الواحد الذي لا شريكَ له في مُلْكِه.

ويعني بـ «العزيز»، الذي لايمتنعُ عليه شيءٌ أراده، ولا ينتصر منه أحد عاقبه أو انتقم منه، «الحكيم» في تدبيره، فلا يدخله خَلل.

وإنما عنى جل ثناؤه بهذه الآية نَفْيَ ما أضافت النصارَى الذين حاجُّوا رسولَ الله ﷺ في عيسى من البنوّة، وما نَسَبَ إليه سائرُ أهلِ الشرك من أنَّ له شريكاً، واتخاذهم دونه أرباباً. فأخبرهم الله عن نفسه أنه الخالقُ كلّ ماسواه، وأنه ربُّ كلِّ ما اتخذه كُلُّ كافرٍ وكل مشرك ربًّا دونه، وأنّ ذلك مما يشهد به هو وملائكته وأهلُ العلم به من خلقه. فبدأ جل ثناؤه بنفسه، تعظيماً لنفسه وتنزيهاً لها عما نَسَبَ الذين ذكرنا أمرهم من أهلِ الشرك به ـ مانسبوا إليها، كما سَنَّ لعباده أنْ يبدأوا في أمورهم بذكره قبل ذكر غيره، مؤدِّباً خلقه بذلك.

والمرادُ من الكلام، الخبرُ عن شهادةِ مَن ارتضاهم من خلقه فقدَّسُوه: من ملائكتهِ وعلماء عبادهِ. فأعْلَمهم أنَّ ملائكَتَهُ ـ التي يعظِّمها العابدون غيره من أهل الشرك ويعبدُها الكثير منهم ـ وأهْلَ العلمِ منهم، مُنْكِرون ماهم عليه مقيمون من كفرهم وقولهم في عيسى، وقولَ مَن اتخذ ربًّا غيره من سائر الخلق، فقال: شهدتِ الملائكةُ وأولُو العلم أنه لا إله إلا هو، وأن كل من اتخذ ربًّا دون الله فهو كاذبٌ احتجاجاً منه لنبيه عليه السلام على الذين حاجُّوه من

وفد نجران في عيسى.

واعترض بذكر الله وصفته، على مابيَّنتُ، كما قال جل ثناؤه: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ للهِ خُمُسَه﴾ [الأنفال: ٤١]، افتتاحاً باسمه الكلام، فكذلك افتتح باسمه والثناء على نفسهِ الشهادةَ بما وصفناه: من نَفْيِ الألوهة عن غيره، وتكذيبِ أهلِ الشرك به.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾

ومعنى «الدين»، في هذا الموضع: الطاعةُ والذِّلَّةُ.

وكذلك «الإسلام»، وهو الانقيادُ بالتذلل والخشوع، والفعلُ منه: «أسلم» بمعنى: دخل في السلم، كما يقال: «أقحط القومُ»، إذا دخلوا في القحط، «وأَرْبَعُوا»، إذا دخلوا في الربيع، فكذلك «أسلموا»، إذا دخلوا في السلم، وهو الانقيادُ بالخضوعِ وترك الممانعة.

فإذْ كان ذلك كذلك، فتأويل قوله: «إنَّ الدِّينَ عند الله الإسلام»: إنَّ الطاعةَ التي هي عنده، الطاعةُ له، وإقرار الألسن والقلوب له بالعبودية والذّلة، وانقيادُها له بالطاعة فيما أمرَ ونَهى، وتذلُّلها له بذلك، من غير استكبارٍ عليه، ولا انحرافٍ عنه، دون إشراك غيره من خَلْقِه معه في العبودة والألوهة.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ﴾

يعني بذلك جل ثناؤه: وما اختلف الذين أوتوا الإنجيل ـ وهو «الكتاب» الذي ذكره الله في هذه الآية ـ في أمر عيسى، وافترائهم على الله فيما قالوه

فيه من الأقوالِ التي كثر بها اختلافُهم بينَهُم، وتَشَتَّتَتْ بها كلمتُهم، وبايَنَ بها بعضُهم بعضاً حتى استحلَّ بها بعضُهم دماءَ بعضٍ «إلاّ مِنْ بعد ما جَاءهم العلمُ بغياً بينهم»، يعني: إلا من بعد ماعلموا الحقَّ فيما اختلفوا فيه من أمرِهِ، وأيقنوا أنهم فيما يقولون فيه من عظيمِ الفِرْية مُبْطِلُونَ، فأخبر الله عباده أنهم أتوا ما أَتَوْا من الباطلِ، وقالوا من القولِ الذي هو كفرٌ بالله، على علمٍ منهم بخطأ ماقالوه، وأنهم لم يقولوا ذلك جهلاً منهم بخطئه، ولكنهم قالوه واختلفوا فيه الاختلافَ الذي هُمْ عليه، تعدِّياً من بعضِهم على بعض، وطلبَ الرياساتِ والملك والسلطان.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: **وَمَن يَكْفُرْ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٩﴾**

يعني بذلك: ومَنْ يجحد حججَ الله وأعلامه التي نصَبها ذكرَى لمن عقل، وأدلةً لمن اعتبر وتذكَّرَ، فإنَّ الله مُحْصٍ عليه أعمالَهُ التي كان يعملها في الدنيا، فمجازيهِ بها في الآخرة، فإنه جَلَّ ثناؤه «سريعُ الحساب»، يعني: سريع الإحصاء. وإنما معنى ذلك أنه حافظٌ على كل عاملٍ عملَهُ، لا حاجة به إلى عقد كما يعقده خَلْقُه بأكُفِّهم، أو يَعُونَهُ بقلوبهم، ولكنه يحفظ ذلك عليهم، بغير كلفةٍ ولا مؤونة، ولا معاناةٍ لما يعانيه غيرُه من الحساب.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: **فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِىَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِ**

يعني بذلك جل ثناؤه: فإنْ حاجُّك: يامحمد، النفرُ من نصارى أهل نجران في أمر عيسى صلواتُ الله عليه، فخاصموك فيه بالباطل، فقل: انقدتُ

لله وحده بلساني وقلبي وجميع جوارحي. وإنما خَصّ جَلَّ ذِكْرُه بأمره بأنْ يقول: «أسلمتُ وجهي لله»، لأن الـوجـه أكـرمُ جوارحِ ابن آدم عليه، وفيه بهـاؤه وتعظيمه، فإذا خضع وجههُ لشيءٍ، فقد خضع له الذي هو دونه في الكرامة عليه من جوارح بدنه.

وأما قوله: «ومن اتبعني»، فإنه يعني: وأسلم مَنِ اتَّبعني أيضاً وجهَهُ لله معي. و«من» معطوف بها على «التاء» في «أسلمت».

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْأُمِّيِّـۧنَ ءَأَسْلَمْتُمْ ۚ فَإِنْ أَسْلَمُوا۟ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟﴾

يعني بذلك جل ثناؤه: «وقل»، يامحمد، للذين أُوتُوا الكتابَ من اليهود والنصارى «والأميين» الذين لا كتابَ لهم من مشركي العربِ «أأسلمتم»، يقول: قُلْ لهم: هل أفردتمُ التوحيدَ وأخلصتم العبادةَ والألوهةَ لربِّ العالمين، دونَ سائرِ الأنـدادِ والأشـراكِ التي تشـركـونهـا معـه في عبـادتكم إياهم وإقراركم بربوبيتهم، وأنتم تعلمون أنه لا ربَّ غيرهُ ولا إله سواهُ «فإنْ أسلموا»، يقول: فإن انقـادُوا لإفرادِ الوحدانية لله وإخلاصِ العبادةِ والألوهةِ له «فقد اهتدوا»، يعني: فقد أصابوا سبيلَ الحق، وسلكوا مَحَجَّةَ الرشد.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَـٰغُ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ۝٢٠﴾

يعني جل ثناؤه بقوله: «وإن تولوا»، وإنْ أدبروا مُعرضين عما تدعوهم إليه من الإسلام وإخلاصِ التوحيدِ لله رب العالمين، فإنما أنت رسولٌ مبلِّغٌ، وليس عليك غير إبلاغ الرسالة إلى من أرسلتك إليه من خلقي، وأداء ما كلَّفتُكَ من

طاعتي. «والله بصيرٌ بالعباد»، يعني بذلك: والله ذو علمٍ بمن يقبلُ من عباده ما أرسلتُكَ به إليه فيطيعك بالإسلام، وبمن يتولَّى منهم عنه معرضاً فيردّ عليكَ ما أرسلتك به إليه، فيعصيكَ بإبائه الإسلامَ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَـالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾

يعني بقوله جل ثناؤه: «إن الذين يكفرون بآيات الله»، أي: يجحدون حججَ الله وأعلامه فيُكَذِّبونَ بها، من أهلِ الكتابين التوراة والإنجيل، من اليهود والنصارى فقال: «إنّ الذين يكفرون بآياتِ الله ويقتلون النبيينَ بغير حقّ» إلى قوله: «قُلِ اللهم مالكَ الملك تُؤْتي المُلْكَ مَنْ تشاء».

وأمـا قوله: «ويقتلون النبيين بغير حقٍّ»، فإنه يعني بذلك ـ أنهم كانوا يقتلون رُسَل الله الذين كانوا يُرسَلون إليهم بالنهي عما يأتون من معاصي الله، وركوب ما كانوا يركبونه من الأمورِ التي قد تقدم الله إليهم في كتبهم بالزجر عنها، نحو زكريا وابنه يحيى، وما أشبههما من أنبياء الله.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَيَقْتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِٱلْقِسْطِ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾

(يعني تعالى ذكرُه): إنّ الذين يكفرون بآياتِ الله ويقتلون النبيين بغير حق، ويقتلون آمريهم بالعدلِ في أمر الله ونهيه، الذين يَنهونهم عن قتل أنبياء الله وركوب معاصيه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢١﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٢﴾﴾

يعني بقوله جل ثناؤه: «فبشِّرهم بعذابٍ أليم»، فأخبرهم يامحمدُ وأعْلِمهم: أنَّ لهم عند الله عذاباً مؤلماً لهم، وهو الموجع.

وأما قوله: «أولئك الذين حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة»، فإنه يعني: بقوله: «أولئك»، الذين يكفرون بآياتِ الله. ومعنى ذلك: أنّ الذين ذكرناهم، هم «الذين حبطت أعمالهم»، يعني: بطلت أعمالُهم. «في الدنيا والآخرة». فأما في الدنيا، فلم ينالوا بها مَحْمدةً ولا ثناءً من الناس، لأنهم كانوا على ضلالٍ وباطل، ولم يرفع الله لهم بها ذِكْراً، بل لعنهم وهتكَ أستارَهم، وأبدى ما كانوا يُخْفُونَ من قبائحِ أعمالهم على ألسنِ أنبيائهِ ورسله في كتبه التي أنزلها عليهم، فأبقى لهم ما بقيتِ الدنيا مذمّةً، فذلك حبوطها في الدنيا. وأما في الآخرة، فإنه أعَدَّ لهم فيها من العقابِ ماوصَفَ في كتابه، وأعلم عباده أنَّ أعمالهم تصير بُوراً لا ثوابَ لها، لأنها كانت كفراً بالله، فجزاءُ أهلها الخلودُ في الجحيم.

وأما قوله: «وما لهم من ناصرين»، فإنه يعني: وما لهؤلاء القوم من ناصرٍ ينصرُهم من الله، إذا هو انتقم منهم بما سَلَفَ من إجرامهم واجترائهم عليه، فيستنقذُهم منه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾

يعني بذلك جل ثناؤه: «ألم تر»، يامحمد «إلى الذين أُوتُوا نصيباً من الكتاب»، يقول: الذين أُعْطُوا حظًّا من الكتاب «يُدْعون إلى كتابِ الله».

واختلف أهل التأويل في «الكتاب» الذي عنى الله بقولِه: «يُدْعَوْنَ إلى كتابِ الله».

فقال بعضهم: هو التوراة، دعاهم إلى الرضى بما فيها، إذ كانت الفِرَق المنتحِلةُ الكتبَ تُقِرُّ بها وبما فيها: أنها كانت أحكامَ الله قبل أن ينسخ منها مانُسخ.

وقال بعضهم: بل ذلك كتابُ الله الذي أنزله على محمد، وإنما دُعِيت طائفةٌ منهم إلى رسول الله ﷺ ليحكم بينهم بالحقّ، فأبتْ.

وأولى الأقوال في تأويل ذلك عندي بالصواب أن يقال: إن الله جل ثناؤه أخبر عن طائفةٍ من اليهود الذين كانوا بين ظَهراني مُهاجَرِ رسولِ الله ﷺ في عهده، ممن قد أُوتيَ عِلْماً بالتوراة أنهم دُعوا إلى كتابِ الله الذي كانوا يقرّون أنه من عند الله ـ وهو التوراة ـ في بعض ماتنازعوا فيه هم ورسولُ اللهِ ﷺ.

ومعنى قوله: «ثم يتولى فريقٌ منهم وهم مُعْرِضون»، ثم يستدبرُ عن كتابِ الله الذي دعا إلى حكمه، معرضاً عنه منصرفاً، وهو بحقيقته وحجته عالم.

وإنما قلنا إن ذلك «الكتاب» هو التوراة، لأنهم كانوا بالقرآن مكذبين، وبالتوراة بزعمهم مصدّقين، فكانت الحجةُ عليهم بتكذِيبهم بما هم به في زعمهم مُقِرُّونَ، أبلغَ، وللعذرِ أقطعَ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ وَغَرَّهُمْ فِى دِينِهِم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ٢٤﴾

يعني جل ثناؤه بقوله: «بأنهم قالوا»، بأنّ هؤلاء الذين دُعُوا إلى كتابِ الله ليحكُمَ بينهم بالحقِّ فيما نازعوا رسول الله ﷺ، إنما أبوا الإجابةَ إلى حكمِ

التوراةِ وما فيها من الحق: من أجل قولهم: «لَنْ تَمسَّنا النارُ إلّا أياماً معدودات» وهي أربعون يوماً، وهُنَّ الأيام التي عبدوا فيها العِجْلَ، ثم يخرجنا منها رَبُّنَا، اغتراراً منهم «بما كانوا يفترون»، يعني: بما كانوا يختلقون من الأكاذيب والأباطيل، في ادعائهم أنهم أبناء الله وأحِبّاؤه، وأن الله قد وعد أباهم يعقوبَ أنْ لا يُدْخلَ أحَداً من ولدهِ النارَ إلّا تَحِلَّةَ القسم. فأكْذَبهمُ الله على ذلك كله من أقوالهم، وأخبر نبيه محمداً ﷺ أنهم هم أهل النار هم فيها خالدون، دونَ المؤمنين بالله ورُسله وما جاؤوا به من عنده.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَاهُمْ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ۝٢٥﴾

يعني بقوله جل ثناؤه: «فكيف إذا جمعناهم»، فأيُّ حال يكون حالُ هؤلاء القوم الذين قالوا هذا القولَ، وفعلوا مافعلوا من إعراضِهم عن كتابِ الله، واغترارِهم بربهم، وافترائهم الكذب؟ وذلك من الله عز وجل وعيدٌ لهم شديد، وتهديدٌ غليظٌ.

وإنما يعني بقوله: «فكيف إذا جمعناهم» الآية: فما أعظمَ ما يَلْقَوْنَ من عقوبةِ الله وتنكيله بهم، إذا جمعهم ليوم ٍ يُوفَّى كلُّ عاملٍ جزاءَ عمله على قدر استحقاقه، غير مظلوم فيه، لأنه لا يُعاقبُ فيه إلّا على ما اجترمَ، ولا يؤاخذُ إلا بما عملَ، يُجزَى المحسنُ بإحسانهِ، والمسيءبإساءتهِ، لا يخافُ أحدٌ من خَلْقِهِ منه يومئذٍ ظُلماً ولا هَضْماً.

وأما تأويل قوله: «لا ريبَ فيه»، فإنه: لا شَكَّ في مجيئه.

وعنى بقوله: «ووُفِّيتْ»، ووَفَّى الله «كلَّ نفس ماكسبت»، يعني:

ماعملت من خيرٍ وشر، «وهم لا يظلمون»، يعني أنه لا يبخسُ المحسنَ جزاءَ إحسانه، ولا يعاقب مسيئاً بغير جرمه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ﴾

أما تأويل: «قل اللهم»، فإنه: قل يامحمد: ياالله.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ﴾

يعني بذلك: يامالكَ المُلْكِ، يامَنْ له مُلكُ الدنيا والآخرة خالصاً دون غيره.

وأما قوله: «تؤتي الملك مَنْ تشاء»، فإنه يعني: تُعطي الملك مَنْ تَشاء، فتملكه وتسلِّطه على مَنْ تشاء.

وقوله: «وتنزع الملك ممن تشاء»، يعني: وتنزعُ الملك ممن تشاء أنْ تَنْزَعَهُ منه، فتركَ ذكر «أن تنزعه منه»، اكتفاءً بدلالة قوله: «وتنزعُ الملك ممن تشاء»، عليه، كما يقال: «خُذْ ماشئتَ وكنْ فيما شئت»، يُرادُ: خُذْ ماشئت أنْ تأخذه، وكن فيما شئتَ أن تكونَ فيه؛ وكما قال جل ثناؤه: ﴿فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ﴾ [الانفطار: ٨]، يعني: في أيِّ صورةٍ شاءَ أنْ يُرَكِّبَكَ فيها رَكَّبكَ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾﴾

يعني جل ثناؤه: «وتُعِزُّ مَنْ تشاءُ»، بإعطائه المُلْكَ والسلطان، وبَسْطِ القدرةِ له. «وتذلُّ من تشاء» بسلبك مُلْكَهُ، وتسليط عدوِّه عليه. «بيدك الخيرُ»، أي: كُلُّ ذلك بيدكَ وإليكَ، لا يقدرُ على ذلك أحدٌ، لأنك على كل شيءٍ قديرٌ دون سائرِ خلقك، ودونَ مَنِ اتَّخَذَهُ المشركون من أهلِ الكتاب والأميِّين من العربِ إلهاً وربًّا يعبدونه من دونك، كالمسيحِ والأندادِ التي اتخذها الأميونَ ربًّا.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: **﴿تُولِجُ ٱلَّيْلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيْلِ﴾**

ويعني بقوله: «تولج الليل في النهار» تُدْخِلُ مانقصتَ من ساعاتِ الليل في ساعات النهار، فتزيدُ من نقصانِ هذا في زيادةِ هذا. «وتولج النهارَ في الليل»، وتدخلُ مانقصتَ من ساعاتِ النهار في ساعات الليل، فتزيد في ساعات الليل مانقصت من ساعات النهار.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: **﴿وَتُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَيِّ﴾**

وأولى التأويلات التي ذكرناها في هذه الآية بالصواب، تأويل مَنْ قال: يُخْرِجُ الإنسانَ الحيَّ والأنعامَ والبهائم الأحياءَ من النُّطفِ الميتةِ وذلك إخراجُ الحيِّ من الميت، ويخرجُ النطفةَ الميتةَ من الإنسانِ الحيِّ والأنعام والبهائم الأحياء، وذلك إخراج الميت من الحيِّ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: **﴿وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾**



يعني بذلك جل ثناؤه: أنه يُعطي مَنْ يشاء من خلقه فيجود عليه، بغير محاسبةٍ منه لمن أعطاهُ، لأنه لا يخاف دخولَ انتقاصٍ في خزائنِه، ولا الفناءَ على مابيده.

فتـأويل الآية إذاً: اللهمَّ يامالكَ الملك تُؤتي الملكَ مَنْ تَشاء، وتنزع الملكَ ممن تشاء، وتعزّ من تشاء، وتذل من تشاء، بيدكَ الخيرُ إنك على كل شيء قدير، دون مَنِ ادَّعى الملحـدون أنـه لهم إلهٌ وربٌّ وعَبَدُوه دونكَ، أو اتَّخَذُوه شريكاً معك، أو أنه لكَ ولدٌ، وبيدك القدرةُ التي تفعلُ هذه الأشياء وتقدر بها على كل شيء، تُولج الليلَ في النهار وتُولج النهارَ في الليل، فَتنْقصُ من هذا وتزيد في هذا، وتنقص من هذا وتزيد في هذا، وتُخْرِجُ من ميِّتٍ حيًّا ومن حيٍّ ميِّتاً وترزقُ مَنْ تشاء بغير حسابٍ من خلقك، لا يقدر على ذلك أحدٌ سواك، ولا يستطيعه غيرك.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: **لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً**

وهـذا نهيٌ من الله عز وجل المؤمنين أن يتخذوا الكفارَ أعواناً وأنصاراً وظهوراً، ولذلك كَسَرَ «يتخذِ»، لأنه في موضع جزم بالنهي، ولكنه كسر «الذال» منه، للساكن الذي لقيه وهي ساكنة.

ومعنى ذلـك: لاتتخذوا، أيها المؤمنون، الكفارَ ظهراً وأنصاراً تُوالُونهم على دينهم، وتُـظاهرونهم على المسلمين من دون المؤمنين، وتدلُّونهم على عوراتِهم، فإنه مَنْ يفعل ذلك، «فليس من الله في شيء»، يعني بذلك: فقد بَرِئَ من الله وبَرِئَ اللهُ منه، بارتدادهِ عن دينه ودخولهِ في الكفر. «إلا أن تتقوا

منهم تُقَاةً»، إلّا أن تكونوا في سلطانهم فَتخافُوهم على أنفسِكم، فَتُظْهِرُوا لهم الولايةَ بألسنتكم، وتُضْمِرُوا لهم العداوةَ، ولا تُشَايعوهم على ماهُمْ عليهِ من الكفرِ، ولا تُعِينُوهم على مُسلمٍ بفعل.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ۝٢٨﴾

يعني تعالى ذِكْرُه بذلك، ويُخَوِّفُكم اللهُ من نفسه أن تَرْكبوا معاصيه، أو تُوالُوا أعداءَهُ، فإنَّ لله مرجعكم ومَصيركم بعد مماتِكم، ويوم حشركم لموقف الحساب. يعني بذلك: متى صرتم إليه وقد خالفتم ما أَمَرَكُم به، وأتيتم مانهاكم عنهُ من اتخاذِ الكافرينَ أولياءَ مِنْ دون المؤمنين، نالكم من عقابِ ربِّكم ما لا قِبَلَ لكم به. يقول: فاتقوه واحذرُوه أنْ ينالكم ذلك منه، فإنه شديدُ العقاب.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ إِن تُخْفُوا۟ مَا فِى صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝٢٩﴾

يعني بذلك جَلَّ ثناؤه: «قل» يامحمد، للذين أَمَرْتهُم أنْ لايتخذوا الكافرينَ أولياءَ من دون المؤمنين. «إن تُخْفُوا ما في صدوركم» من موالاةِ الكفار فتُسِرُّوه، أو تُبْدُوا ذلكم من نفوسكم بألسنتكم وأفعالكم فتظهروه. «يعلمه الله»، فلا يَخفى عليه. يقول: فلا تُضمروا لهم مودّةً ولا تُظْهِرُوا لهم مُوالاةً، فينالكم من عقوبةِ ربِّكم ما لا طاقةَ لكم به، لأنه يعلم سِرِّكُم وعلانِيَتكُم، فلا يخفى عليه شيءٌ منه، وهو مُحْصِيه عليكم حتى يجازيَكم عليه بالإحسانِ إحساناً، وبالسيئةِ مِثْلَها.

وأما قوله: «ويعلمُ ما في السموات وما في الأرض»، فإنه يعني أنه إذْ كان لا يخفى عليه شيءٌ هو في سماءٍ أو أرضٍ أو حيثُ كان، فكيف يَخْفَى عليه ـ أيها القومُ الذين يَتَّخذونَ الكافرينَ أولياء من دون المؤمنين ـ ما في صدورِكم من الميْلِ إليهم بالمودةِ وَالمحبةِ، أو ما تُبدونه لهم بالمعونةِ فِعلاً وقولاً؟

وأما قوله: «والله على كل شيء قدير»، فإنه يعني: والله قديرٌ على مُعَاجلتكُم بالعقوبةِ على مُوالاتِكم إيَّاهم ومُظَاهرتكُموهم على المؤمنينَ، وعلى ما يشاء من الأمور كلها، لا يتعذَّر عليه شيءٌ أراده، ولا يمتنعُ عليه شيءٌ طَلَبَهُ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: **يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا**

يعني بذلك جل ثناؤه: ويُحَذِّرُكم الله نفسَهُ في يومٍ تجدُ كُلُّ نفسٍ ماعملتْ من خيرٍ مُحْضَراً موفَّراً، «وما عملت من سوءٍ تَوَدُّ لو أنَّ بينها وبينه أمداً بعيداً» يعني غايةً بعيدة، فإنَّ مصيركم أيها القومُ يومئذٍ إليه، فاحذروه على أنفسكم من ذنوبكم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: **وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ٣٠**

يقول جل ثناؤه: ويحذركم الله نفسَهُ: أن تُسْخِطُوها عليكم بركوبكم ما يسخـطه عليكم، فتوافونه يومَ تَجِدُ كلُّ نفسٍ ما عملت من خيرٍ مُحْضَراً وما عملتْ من سوءٍ تود لو أن بينها وبينه أمداً بعيداً، وهو عليكم ساخطٌ، فينالكم من أليم عقابه ما لاقِبَلَ لكم به.

ثم أخبر عز وجل أنه رؤوف بعباده رحيمٌ بهم، وأنَّ من رأفته بهم، تحذيرهُ إياهم نفسه، وتخويفهم عقوبته، ونهيه إياهم عما نهاهم عنه من معاصيه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾﴾

(يعني بذلك جَلَّ ثناؤه): قل يامحمد، للوفدِ من نصارى نجران: إنْ كنتم كما تزعمون أنكم تحبون الله، وأنكم تُعَظِّمون المسيحَ وتقولون فيه ما تقولون، حُبًّا منكم ربَّكم فَحَقِّقُوا قولَكُم الذي تقولونه، إنْ كنتم صادقين، باتِّباعكم إيَّايَ، فإنكم تعلمون أنّي لله رسولٌ إليكم، كما كان عيسى رسولاً إلى مَنْ أُرسل إليه، فإنه إن اتَّبَعْتُمُوني وصدّقتموني على ما أتيتكم به من عند الله. يغفرُ لكم ذنوبكم، فيصفح لكم عن العقوبة عليها، ويعفو لكم عما مضى منها، فإنه غفورٌ لذنوبِ عباده المؤمنين، رحيمٌ بهم وبغيرهم من خَلْقِهِ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٢﴾﴾

يعني بذلك جل ثناؤه: قل، يامحمد، لهؤلاء الوفد من نصارى نجران: أطيعوا الله والرسول محمداً، فإنكم قد علمتم يقيناً أنه رسولي إلى خلقي، ابتعثتُه بالحق، تجدونه مكتوباً عندكم في الإنجيل؛ فإنْ تَوَلَّوْا فاستدبروا عما دعوتهم إليه من ذلك، وأعْرضُوا عنه، فأعلمهم أنَّ الله لا يحبُّ مَنْ كفرَ فَجَحَدَ ما عرفَ من الحق، وأنكرِه بعد علمه، وأنهم منهم، بجحودهم نُبُوَّتَك، وإنكارِهم الحقَّ الذي أنتَ عليه، بعد عِلْمِهم بصحةِ أمركَ، وحقيقةِ نبوتك.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾﴾

يعني بذلك جل ثناؤه: إنَّ الله اجتبى آدمَ ونوحاً واختارهما لدينهما وآلَ إبراهيمَ وآلَ عمران لدينهم الذي كانوا عليه، لأنهم كانوا أهل الإسلام. فأخبرَ الله عز وجل أنه اختار دين مَنْ ذَكَرْنَا على سائرِ الأديان التي خالفته. وإنما عنى بـ «آل إبراهيم وآل عمران»، المؤمنين.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنۢ بَعْضٍۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾﴾

يعني بذلك: إن الله اصطفى آلَ إبراهيم وآل عمران «ذريةً بعضها من بعض».

وإنما جعل «بعضهم من بعض» في الموالاة في الدين، والمؤازرة على الإسلام والحق، كما قال جل ثناؤه: ﴿وَالمُؤْمِنُونَ وَالمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِياءُ بَعْضٍ﴾ [التوبة: ٧١]، وقال في موضع آخر: ﴿المُنَافِقُونَ وَالمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ﴾ [التوبة: ٦٧]، يعني: أنّ دينهم واحدٌ وطريقتهم واحدة، فكذلك قوله: «ذرية بعضها من بعض»، إنما معناه: ذرية دِينُ بعضِها دينُ بعضٍ، وكلمتهم واحدةٌ، وملتهم واحدة في توحيد الله وطاعته.

وقوله: «والله سميعٌ عليمٌ»، يعني بذلك: والله ذُو سَمْعٍ لقولِ امرأة عمران، وذو علمٍ بما تُضْمِرُه في نفسها، إذ نذَرتْ له ما في بطنها مُحرَّراً.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّيٓۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٥﴾﴾

يعني بقوله جل ثناؤه: «إذ قالت امرأةُ عمران ربِّ إني نذرتُ لك ما في بطني محرّراً فتقبل مني»، فـ «إذْ» من صلة «سميع».

وأمّا «امرأة عمران»، فهي أمُّ مريمَ ابنةِ عمران، أم عيسى بن مريم صلوات الله عليه.

وأما قوله: «رَبِّ إني نذرتُ لك مافي بطني محرّراً»، فإنَّ معناه: إني جعلت لك يارب نَذْراً أنَّ لك الذي في بطني محرّراً لعبادتك. يعني بذلك: حبستُه على خدمتكَ وخدمةِ قُدْسكَ في الكنيسة، عتيقةً من خدمة كلِّ شيء سواك، مفرّغة لك خاصة.

«فتقبل مني»، أي: فَتَقَبَّلْ مني مانذرتُ لك ياربّ «إنكَ أنتَ السميع العليم»، يعني: إنك أنتَ يارب «السميع» لما أقولُ وأدعو «العليمُ» لما أنوي في نفسي وأريدُ، لا يخفى عليك سرُّ أمرِي وعلانيته.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ جَلَّ ثناؤهُ: **فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ**

ومعنى قوله: «وضعتها»، ولَدْتُها. يقال منه: «وضعت المرأةُ تَضَعُ وضْعاً».

«قالت ربِّ إني وضعتها أنثى»، أي: ولدت النذيرة أنثى. «والله أعلمُ بما وضعت».

فتأويل الكلام إذاً: واللهُ أعلمُ من كل خَلْقِه بما وضعت، ثم رجع جَلَّ ذِكْرُه إلى الخبر عن قولها، وأنها قالت ـ اعتذاراً إلى رَبِّها مما كانت نذرتْ في حملها فَحَرَّرَتْهُ لخدمةِ ربها ـ: «وليس الذكرُ كالأنثى»، لأن الذَّكَرَ أقوى على الخـدمـةِ وأقوم بها، وأنَّ الأنثى لاتصلحُ في بعض الأحوال لدخول القُدْس

والقيامِ بخدمة الكنيسةِ، لما يعتريها من الحيضِ والنفاسِ. «وإني سميتها مريم».

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ جَلَّ ثناؤهُ: ﴿وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ٣٦﴾

تعني بقولها: «وإني أُعِيذُهَا بكَ وذُريتها»، وإني أجعلُ مَعاذها ومَعاذَ ذُرِّيتها من الشيطانِ الرجيم، بكَ.

وأصل «المعاذ»، المَوْئِلُ والملجأ والمعقلُ.

فاستجابَ الله لها، فأعاذها الله وذرِّيَتَها من الشيطانِ الرجيم، فلم يجعلْ له عليها سبيلاً.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا﴾

يعني بذلك: أنّ الله جل ثناؤه تقبّل مريمَ من أمها حَنَّة، وتحريرَها إياها للكنيسةِ وخِدْمَتَها وخدمةَ ربِّها، «بقبولٍ حَسن».

وأما قوله: «وأنبتها نباتاً حسناً»، فإنَّ معناه: وأنبتها رَبُّها في غذائهِ ورزْقهِ نباتاً حسناً، حتى تَمَّتْ فكملتْ امرأةً بالغةً تامة.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا﴾

اختلفت القَرَأَةُ في قراءة قوله: «وكَفَّلها».

فقرأته عامةُ قَرَأَةِ أهْلِ الحجاز والمدينة والبصرة: ﴿وكَفَلَها﴾ مُخَفَّفَة

«الفاء». بمعنى: ضمها زكريا إليه، اعتباراً بقول الله عز وجل: ﴿يُلْقُون أقْلاَمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ﴾ [آل عمران: ٤٤].

وقرأ ذلك عامة قَرَأَةِ الكوفيين. ﴿وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا﴾، بمعنى: وكفَّلها الله زكريا.

قال أبو جعفر: وأولى القراءتين بالصواب في ذلك عندي، قراءةُ من قرأ: ﴿وَكَفَّلَهَا﴾ مشددة «الفاء»، بمعنى: وكفَّلها اللهُ زكريا، بمعنى: وضَمَّها اللهُ إليه. لأنَّ زكريا أيضاً ضمها إليه بإيجابِ اللهِ له ضمَّها إليه بالقُرْعة التي أخرجها اللهُ له، والآية التي أظهرَها لخصومهِ فيها، فجعله بها أولى منهم، إذْ قَرَعَ فيها من شاحَّه فيها[1].

وذلك أنه بلغنا أنَّ زكريا وخصومَه في مريمَ إذْ تنازعوا فيها أيّهم تكونُ عنده، تَسَاهموا بقِدَاحهم، فرموا بها في نهر الأردنّ. فقال بعضُ أهل العلم: ارتزّ قدح زكريا، فقام ولم يَجْرِ به الماءُ، وجرى بِقِدَاحِ الآخرينَ الماءُ. فجعل الله ذلك لزكريا عَلَماً أنه أحق المتنازعين فيها بها.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا

يعني بذلك جل ثناؤه: أن زكريا كان كلما دخل عليها المحرابَ، بعد إدخالهِ إياها المحرابَ، وَجَدَ عندها رِزْقاً من الله لغذائها.

(١) قال العلامة محمود شاكر: قرع (بفتح القاف والراء): أصابته القرعة دونهم. يقال: قارعني فلان فقرعته: خرجت لي القرعة دونه. وشاحه في الأمر وعليه، وتشاحًا عليه وفيه (بتشديد الحاء): إذا تنازعاه، لا يريد كل واحدٍ منهما أن يفوته، كأن بعضهم يشح على بعض فيه.

وأما «المحراب»، فهو مُقَدَّمُ كُلِّ مجلسٍ ومصلًّى، وهو سيدُ المجالس وأشرفُها وأكرمُها، وكذلك هو من المساجد.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ۝٣٧﴾

يعني بذلك جل ثناؤه: «قال» زكريا: «يامريم أنَّى لك هذا»؟ من أيِّ وجهٍ لك هذا الذي أرَى عندك من الرزق؟ قالت مريمُ مجيبةً له: «هو من عندِ الله»، تعني: أن الله هو الذي رَزَقها ذلك فساقه إليها وأعطاها.

وأما قوله: «إنَّ الله يَرْزُقُ مَن يشاء بغير حساب»، فخبرٌ من الله أنه يسوقُ إلى مَنْ يشاء من خَلْقِه رزقَه، بغيرِ إحصاءٍ ولا عدد يحاسب عليه عبدَه. لأنه جَلَّ ثناؤه لا ينقصُ سَوْقُه ذلك إليه كذلك خَزائِنَهُ، ولا يزيدُ إعطاؤه إياه ومحاسَبته عليه في مُلْكِه وفيما لديه شيئاً، ولا يَعْزُبُ[1] عنه علمُ مايرزقه؛ وإنما يُحاسب مَنْ يعطي مَا يعطيه، مَنْ يخشى النقصانَ من مُلكِه، ودخولَ النفاد عليه بخروج ما خرجَ من عندهِ بغيرِ حسابٍ معروف، ومَنْ كان جاهلاً بما يعطي على غيرِ حساب.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ ۖ قَالَ رَبِّ هَبْ لِى مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً ۖ إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ۝٣٨﴾

وأما قوله: «هنالك دعا زكريا ربه»، فمعناها: عند ذلك، أي: عند رؤية زكريا مارأى عند مريمَ من رزقِ الله الذي رَزَقها، وفضله الذي آتاها من غير تسبُّبِ أحدٍ من الآدميين في ذلك لها، ومعاينته عندَها الثمرةَ الرّطبةَ التي لا

(١) العزوب: الغيبة، يَعْزُبُ ويَعْزِبُ، والذهاب.

تكون في حين رؤيته إياها عندها في الأرض، طمع بالولدِ، مع كِبَرِ سِنِّه، من المرأة العاقر. فرجا أنْ يرزقه اللهُ منها الولدَ، مع الحالِ التي هما بها، كما رزقَ مريمَ على تَخَلِّيها من الناسِ مارَزَقها من ثمرةِ الصيفِ في الشتاء وثمرةِ الشتاء في الصيف، وإنْ لم يكن مثله مما جَرَتْ بوجودِه في مثل ذلك الحين العاداتُ في الأرض، بل المعروفُ في الناسِ غيرُ ذلك، كما أنَّ ولادةَ العاقرِ غيرُ الأمر الجارية به العاداتُ في الناس. فرغب إلى الله جل ثناؤه في الولد، وسأله ذرّيةً طيبة.

وأما قوله: «ربِّ هَبْ لي من لَدُنْكَ ذريةً طيبة»، فإنه يعني بـ«الذرية» النسل، وبـ«الطيبة» المباركة.

وأما قوله: «من لدنك»، فإنه يعني: من عندكَ.

وأما «الذرية»، فإنها جمع، وقد تكون في معنى الواحد، وهي في هذا الموضع واحد. وذلك أنّ الله عز وجل قال في موضع آخر، مُخْبِراً عن دعاء زكريا: ﴿فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا﴾ [مريم: ٥]، ولم يَقُلْ: أولياءَ ـ فدلَّ على أنه سأل واحداً. وإنما أَنَّثَ «طيبة»، لتأنيثِ الذرّية.

وأما قوله: «إنك سميع الدعاء»، فإنَّ معناه: إنكَ سامعُ الدعاءِ، غير أنّ «سميع»، أمدَحُ، وهو بمعنى: ذُو سمعٍ له.

فتأويل الآية: فعند ذلك دعا زكريا رَبَّهُ فقال: رَبِّ هَبْ لي من عندك ولداً مباركاً، إنك ذو سَمعٍ دُعاءَ مَنْ دعَاكَ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: فَنَادَتْهُ الْمَلَٰٓئِكَةُ

(يعني): إن الله جل ثناؤه أخبر أنّ الملائكةَ نادته. والظاهرُ من ذلك، أنها جماعةٌ من الملائكة دون الواحد.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّي فِي ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ

وتأويل قوله: «وهو قائم» فنادته الملائكة في حالِ قيامه مصلّياً. فقوله: «وهو قائم»، خَبَرٌ عن وقتِ نداءِ الملائكةِ زكريا.

وقوله: «يُصَلي» في موضع نصب على الحال من «القيام»، وهو رفع بالياء.

وأما «المحراب»، فقد بَيَّنا معناه، وأنه مُقَدَّمُ المسجدِ.

وأما قوله: «بيحيى»، فإنه اسم، أصله يفعل، من قول القائل: حيي فلانٌ فهو يحيا، وذلك إذا عاش. «فيحيى» «يفعل» من قولهم «حيي».

وقيل: إن الله جَلَّ ثناؤه سَمَّاهُ بذلك، لأنه يتأوّل اسمه: أحياه بالإيمان.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ

يعني بذلك جل ثناؤه: أنَّ الله يبشرك يازكريا بيحيى ابناً لك، «مصدّقاً بكلمةٍ من الله»، يعني: بعيسى بن مريم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَسَيِّدًا

يعني بقوله جل ثناؤه: «وسَيِّداً»، وشريفاً في العِلْمِ والعبادة.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّالِحِينَ ﴿٣٩﴾

حصوراً: يعني بذلك: مُمْتَنِعاً من جماعِ النساء، من قول القائل: «حَصِرْتُ من كذا أَحْصَر»، إذا امتنع منه.

وأمّا قوله: «ونبيًّا من الصالحين» فإنه يعني: رسولاً لربه إلى قومه، ينبئهم عنه بأمرهِ ونهيِهِ، وحلالهِ وحرامهِ، ويبلِّغهم عنه ما أرسله به إليهم.

ويعني بقوله: «من الصّالحين»، من أنبيائه الصالحين.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ ٱلْكِبَرُ وَٱمْرَأَتِي عَاقِرٌ﴾

يعني أنّ زكـريا قال إذْ نادتهُ الملائكةُ: «أنّ الله يُبشّرك بيحيى مصدّقاً بكلمةٍ من الله وسيداً وحصوراً ونبيًّا من الصالحين» «أنَّى يكونُ لي غلامٌ وقد بلغني الكبر»؟ يعني: مَنْ بلغ من السن ما بلغتُ لم يولد لهُ «وامرأتي عاقر».

«والعاقر» من النساء التي لا تَلِدُ. يقال منه: «امرأة عاقر، ورجلٌ عاقرٌ».

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَالَ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ۝٤٠﴾

يعني جل ثناؤه بقوله: «كذلك الله»، أي هو ما وصفَ به نَفْسَهُ أنه هَيِّنٌ عليه أنْ يخلقَ ولداً من الكبيرِ الذي قد يَئِسَ من الولدِ، ومن العاقرِ التي لا يُرْجى من مِثْلِهَا الولادةُ، كما خلقك يازكريا من قبل خَلْقِ الولدِ منك ولم تَكُ شيئاً، لأنه الله الذي لا يتعذر عليه خَلْقُ شيءٍ أرادَهُ، ولا يمتنعُ عليه فِعْلُ شيءٍ شاءَه، لأنَّ قدرتَه القدرةُ التي لا تُشبهها قُدْرةٌ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّيٓ ءَايَةً﴾

يعني بذلك جل ثناؤه، خبراً عن زكريا، قال زكريا: ربّ إنْ كان هذا النداءُ الذي نُودِيتُهُ، والصوتُ الذي سمعتُهُ، صوتَ ملائكتك وبشارةً منك لي،

فاجعلْ لي آيةً يقول: علامةً أنَّ ذلكَ كذلك، ليزول عنِّي ما قد وسوس إليَّ الشيطانُ فألقاه في قلبي، من أنَّ ذلك صوتُ غير الملائكة، وبشارةٌ من عند غيرك.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا﴾

فعاقبه الله بمسألته الآيَةَ، بعد مشافهةِ الملائكةِ إياهُ بالبشارةِ، فجعل آيتَهُ ـ على تحقيق ماسمع من البشارة من الملائكة بيحيى أنه مِنْ عندِ الله ـ آيةً من نفسه، جمعَ تعالى ذِكْرُه بها العلامةَ التي سألها ربَّه على ما يبيِّنُ له حقيقةَ البشارةِ أنها من عند الله، وتمحيصاً له من هفوته وخطأ قِيْلِهِ ومسألتهِ.

وأما «الرّمز»، فإنَّ الأغلب من معانيه عند العرب: الإيماءُ بالشفتين، وقد يُستعملُ في الإيماءِ بالحاجبين والعينين أحياناً، وذلك غير كثير فيهم. وقد يقال للخَفِيِّ من الكلام الذي هو مثلُ الهمس بخفض الصّوت: «الرمز».

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ ۝٤١﴾

يعني بذلك: قال الله جل ثناؤه لزكريا: يازكريا، «آيتكَ أنْ لاتكلمَ الناسَ ثلاثةَ أيام إلّا رمزاً»، بغير خرسٍ ولا عاهةٍ ولا مرض، «واذكر ربك كثيراً»، فإنك لا تُمْنَعُ ذِكْرَهُ، ولا يُحالُ بينك وبين تسبيحه وغير ذلك من ذِكْرِه.

وأمـا قوله: «وسَبِّح بالعشي»، فإنه يعني: عَظِّمْ ربَّكَ بعبادتهِ بالعشي. والعشي: من حينِ نزولِ الشمس إلى أنْ تغيبَ.

وأما «الإبكار» فإنه مصدرٌ من قولِ القائل: «أبكر فلان في حاجةٍ فهو يُبْكِر إبكاراً»، وذلك إذا خرجَ فيها مِن بينِ مطلعِ الفجرِ إلى وقتِ الضُّحى.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٢﴾﴾

يعني بذلك جل ثناؤه: «والله سميعٌ عليم* إذ قالت امرأةُ عمران ربِّ إنِّي نذرتُ لك ما في بطني محرَّراً»، «وإذ قالت الملائكة يامريمُ إن الله اصطفاك».

ومعنى قوله: «اصطفاك»، اختاركِ واجتباكِ لطاعتهِ وما خَصَّك به من كرامته.

وقوله: «وطهَّرك»، يعني: طهَّر دِينكِ من الرِّيبِ والأدناسِ التي في أديانِ نساء بني آدم.

«واصطفاكِ على نساء العالمين»، يعني: اختاركِ على نساءِ العالمين في زمانك، بطاعتكِ إياهُ، ففضَّلكِ عليهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِى وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾﴾

(يعني): يامريم أخلصي عبادَة ربك لوجهه خالصاً، واخشعي لطاعته وعبادته مع مَنْ خشع له من خلقه، شكراً له على ما أكرمكِ به من الاصطفاء والتَّطهيرِ من الأدناسِ، والتفضيل على نساء عالم دهَرك.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ﴾

يعني جل ثناؤه بقوله ذلك: الأخبارَ التي أخبرَ بها عبادَه عن امرأة عمران وابنتها مريم، وزكريا وابنه يحيى، وسائر ماقصَّ في الآيات من قوله: «إنَّ الله اصطفى آدمَ ونوحاً»، ثم جمعَ جميعَ ذلك تعالى ذِكْرُه بقوله: «ذلك»، فقال: هذه الأنباء من «أنباء الغيب»، أي: من أخبار الغيب.

ويعني بـ «الغيب»، أنهـا من خفيٍّ أخبـارِ القـوم التي لم تطَّلع أنتَ، يامحمدُ، عليها ولا قومك، ولم يعلمها إلا قليلٌ من أحبارِ أهلِ الكتابين ورهبانهم.

ثم أخبر تعالى ذكره نبيه محمداً ﷺ أنه أوحى ذلك إليه، حجةً على نبـوتـهِ، وتحقيقـاً لِصِـدْقهِ، وقطعاً منه به عُذْرَ منكري رسالتهِ من كفارِ أهلِ الكتابين، الذين يعلمون أنّ محمداً لم يصل إلى عِلْمِ هذه الأنباء مع خفائها، ولم يدرك معرفتها مع خُمولها عند أهلها، إلا بإعلامِ الله ذلك إياه. إذ كان معلوماً عندهم أنَّ محمداً ﷺ أميٌّ لا يكتبُ فيقرأ الكتبَ، فيصل إلى علم ذلك من قِبَلِ الكتب، ولا صاحبَ أهل الكتُبِ فيأخذ عِلْمَهُ من قِبَلِهم.

وأما قوله: «نُوحيه إليك»، فإن تأويله: نُنْزله إليكَ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ

يعني جل ثناؤه بقوله: «وما كنتَ لديهم»، وما كنتَ، يامحمدُ، عندهم فتعلم ما نعلِّمكهُ من أخبارِهم التي لم تَشْهدها، ولكنك إنما تعلمُ ذلك فتدركُ معرفته، بتعريفناكهُ.

ومعنى قوله: «لديهم»، عندهم.

ومعنى قوله: «إذْ يُلْقُون»، حينَ يُلْقُون أقلامَهم.

وأما «أقلامهم»، فَسِهامُهم التي استهم بها المُسْتَهِمُونَ من بني إسرائيلَ على كفالةِ مريمَ، على ماقد بَيَّنا قَبْلُ في قوله: «وكفَّلها زكريا».

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٤﴾

يعني بذلك جل ثناؤه: وما كنتَ، يامحمدُ، عند قومِ مريم، إذْ يختصمون فيها أيُّهم أحقُّ بها وأولى.

وذلك من الله عز وجل، وإنْ كان خطاباً لنبيه ﷺ، فتوبيخٌ منه عز وجل للمكذبين به من أهلِ الكتابين. يقول: كيف يشكُّ أهلُ الكفر بكَ منهم وأنتَ تُنبِّئُهم هذه الأنباءَ ولم تَشْهَدْهَا، ولم تَكُنْ معهم يوم فعلوا هذه الأمورَ، ولستَ ممن قرأ الكتبَ فعَلِمَ نبأهم، ولا جالَسَ أهلَها فسمع خبَرَهم؟

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ

(يعني): وما كنتَ، يامحمدُ، عند القومِ إذ قالتِ الملائكةُ لمريمَ: يامريمُ إنَّ الله يبشرك ببُشرى من عندهِ، هي ولدٌ لكِ اسمهُ المسيحُ عيسى بن مريم.

فسماه الله عز وجل «كلمته»، لأنه كان عن كلمتهِ، كما يقال لما قدّر الله من شيء: «هذا قدَرُ الله وقضاؤه»، يعني به: هذا عَنْ قَدَرِ الله وقضائهِ حَدَثَ، وكما قال جل ثناؤه: ﴿وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا﴾ [النساء: ٤٧/ والأحزاب: ٣٧]، يعني به: ما أمر الله به، وهو المأمور به الذي كان عن أمر الله عز وجل.

وأما قوله: «اسمهُ المسيح عيسى بن مريم»، فإنه جَلَّ ثناؤه أنبأ عباده عن نسبة عيسى، وأنه ابنُ أمِّهِ مريم، ونَفَى بذلك عنه ما أضافَ إليه الملحدون في الله جل ثناؤه من النصارى، من إضافَتِهِم بُنُوَّتَهُ إلى الله عز وجل، وما قَرَفَتْ أُمَّهُ به المفتريةُ عليها من اليهود[1]

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَجِيهًا فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ۝٤٥﴾

يعني بقوله: «وجيهاً»، ذا وَجْهٍ ومنزلةٍ عاليةٍ عند الله، وشرفٍ وكرامة.

وأما قوله: «ومنَ المُقَرَّبين»، فإنه يعني أنه ممن يُقَرِّبُهُ الله يوم القيامة، فيسكنه في جوارهِ ويُدْنِيه منه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِي ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝٤٦﴾

وإنما عنى جل ثناؤه بقوله: «ويُكَلِّمُ الناسَ في المهد وكهلاً»، ويكلم الناس طفلاً في المهد ـ دلالةً على براءَةِ أمهِ مما قَرَفها به المفترون عليها، و حجةً له على نبوّته ـ وبالغاً[2] كبيراً بعد احتناكهِ، بوحيِ الله الذي يُوحيهِ إليه، وأمرهِ ونهيه، وما ينزِّل عليه من كتابه.

وإنما أخبر الله عز وجل عبادَه بذلك من أمرِ المسيح، وأنه كذلك كان، وإنْ كان الغالبُ من أمرِ الناس أنهم يتكلمون كهولاً وشيوخاً، احتجاجاً به على القائلين فيه من أهل الكفر بالله من النصارى الباطلَ، وأنه كان ـ منذ أنشأه مولوداً طفلا، ثم كهلاً ـ يتقلبُ في الأحداثِ، ويتغير بمرُور الأزمنةِ عليه

(١) قَرَفَ الرجلَ بسوءٍ: رَمَاهُ به واتهمه فهو مقروف. وقوله: «المفتريةُ» مرفوعة فاعل «قرفت أمه به».

(٢) قوله: «وبالغاً» معطوف على قوله آنفاً: طفلاً.

والأيام، من صِغـرٍ إلى كِبَرٍ، ومن حالٍ إلى حال وأنه لو كان، كما قال الملحدون فيه، كان ذلك غيرَ جائزٍ عليه. فكذَّبَ بذلك ما قاله الوفدُ من أهلِ نجران الذين حاجُّوا رسولَ الله ﷺ فيه، واحتج به عليهم لنبيه محمد ﷺ، وأعلمهم أنه كان كسائرِ بني آدم، إلاّ ماخصه الله به من الكرامة التي أبانه بها منهم.

وأما قوله: «ومن الصالحين»، فإنه يعني: من عِدَادهم وأوليائهم، لأنَّ أهلَ الصلاحِ بعضُهم من بعضٍ في الدين والفضل.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَٰلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٧﴾﴾

يعني بذلك جل ثناؤه: قالت مريم ـ إذْ قالت لها الملائكةُ إنَّ الله يبشرك بكلمةٍ منه ـ: «ربِّ أنَّى يكونُ لي ولد»، من أيِّ وجهٍ يكونُ لي ولد؟ أمِن قِبَلِ زوجٍ أتزوجهُ وبعلٍ أنكحه، أمْ تبتدىء فيَّ خَلْقَهُ من غير بعلٍ ولا فحلٍ، ومن غير أن يمسَّني بشر؟ فقال الله لها: «كذلك الله يخلقُ مايشاء»، يعني: هكذا يخلقُ الله منك ولداً لكِ من غير أن يمسَّك بشرٌ، فيجعله آيةً للناس وعبرة، فإنه يخلقُ مايشاء ويصنعُ مايريد، فيعطي الولد من يشاء من غير فحلٍ ومن فحلٍ، ويحرِمُ ذلك من يشاءُ من النساء وإنْ كانت ذات بعلٍ، لأنه لا يتعذر عليه خلقُ شيءٍ أرادَ خَلْقَهُ، إنما هو أن يأمر إذا أراد شيئاً ماأراد خلقه فيقول له: «كن فيكون» ماشاء، مما يشاء، وكيف شاء.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ ﴿٤٨﴾﴾

وهذا ابتداءُ خبرٍ من الله عز وجل لمريم ماهو فاعلٌ بالولد الذي بَشَّرها به من الكرامةِ ورفعةِ المنزلةِ والفضيلةِ، فقال: كذلك الله يخلقُ منكِ ولداً من غير فحلٍ ولا بعلٍ، فيعلمه الكتاب، وهو الخطّ الذي يخطه بيده. والحكمة، وهي السنة التي يُوحيها إليه في غيرِ كتابٍ. والتوراة، وهي التوراة التي أنزلت على موسى، كانت فيهم من عهد موسى. والإنجيل، إنجيل عيسى ولم يكن قبله، ولكن الله أخبر مريمَ قبل خَلْقِ عيسى أنه مُوحِيهِ إليه.

وإنما أخبرها بذلك فسمَّاه لها، لأنها قد كانت علمتْ فيما نزلَ من الكتبِ أنَّ الله باعثٌ نبياً، يُوحِي إليه كتاباً اسمهُ الإنجيل، فأخبرها الله عز وجل أن ذلك النبي ﷺ الذي سَمعتْ بصفتهِ الذي وعد أنبياءه من قبل أنه منزلٌ عليه الكتابَ الذي يُسَمَّى إنجيلاً، هو الولد الذي وهبه لها وبشَّرها به.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾

يعني بقوله جل ثناؤه: «ورسولاً»، ونجعله رسولاً إلى بني إسرائيل، فترك ذكر «ونجعله» لدلالةِ الكلامِ عليه.

وقوله: «أني قد جئتكم بآيةٍ من ربكم»، يعني: ونجعله رسولاً إلى بني إسرائيل بأنه نبيِّي وبشيري ونذيري وحُجَّتي على صِدْقي في ذلك: «أني قد جئتكم بآيةٍ من ربكم»، يعني: بعلامةٍ من ربكم تحققُ قولي، وتصدقُ خبري أني رسولٌ من ربكم إليكم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَنِّيٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾

آل عمران: ٤٩

(يعني): ورسولاً إلى بني إسرائيل بأني قد جئتكم بآيةٍ من ربكم، بأنْ أخلق لكم من الطينِ كهيئةِ الطير.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ﴾

يعني بقوله: «وأبرىء»، وأشفي.

والمعروف عند العرب من معنى «الكمه»، العَمى.

وإنما أخبر الله عز وجل عن عيسى صلوات الله عليه أنه يقول ذلك لبني إسرائيل، احتجاجاً منه بهذه العِبر والآيات عليهم في نبوته. وذلك أن: الكَمَه والبرصَ لا علاجَ لهما فيقدرَ على إبرائه ذو طِبٍّ بعلاجٍ. فكان ذلك من أدلته على صِدْقِ قِيْلِه: إنه لله رسولٌ، لأنه من المعجزات، مع سائرِ الآياتِ التي أعطاه الله إياها دلالةً على نبوته.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ جَلَّ ثناؤُهُ: ﴿وَأُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِۖ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْۚ﴾

وكان إحياءُ عيسى الموتَى بدعاءِ الله، يدعو لهم، فيستجيب له.

وأما قوله: «وأنبئكم بما تأكلون»، فإنه يعني: وأخبرُكم بما تأكلون، مما لم أعاينه وأشاهده معكم في وقتِ أَكْلِكُمُوه «وما تَدَّخِرُون»، يعني بذلك: وما ترفعونه فَتَخْبَأُونَهُ ولا تأكلونَهُ.

يعلمهم أنّ من حجته أيضاً على نبوته ـ مع المعجزاتِ التي أعلمهم أنه يأتي بها حجةً على نبوتِهِ وصِدْقِهِ في خبرِهِ أنّ الله أرسله إليهم: من خَلْقِ الطيرِ من الطينِ، وإبراءِ الأكمه والأبرص وإحياء الموتى بإذنِ الله، التي لا يُطِيقُها أحدٌ

من البشر، إلاّ مَنْ أعطاهُ الله ذلك عَلَماً له على صدْقِهِ، وآيةً له على حقيقة قوله: من أنبيائهِ ورسله ومَنْ أحبَّ من خَلْقِه ـ إنباءَه[1] عن الغيبِ الذي لا سبيلَ لأحدٍ من البشر، الذين سبيلُهم سبيلُه، عليه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٤٩﴾﴾

يعني بذلك جل ثناؤه: إنّ في خلقي من الطين الطيرَ بإذن الله، وفي إبرائي الأكمهَ والأبرصَ، وإحيائي الموتى، وإنبائيَ إياكم بما تأكلون وما تَدَّخِرُونَ في بيوتكم، ابتداءً من غير حسابٍ وتنجيم، ولا كهانةٍ وعرافة لعبرةً لكم ومُتَفَكَّراً، تتفكرون في ذلك فتعتبرون به أنّي محق في قولي لكم: «إني رسولٌ من ربكم إليكم»، وتعلمون به أني فيما أدعوكم إليه من أمر الله ونهيه صادق «إن كنتم مؤمنين»، يعني: إنْ كنتم مصدّقين حججَ الله وآياته، مُقِرِّينَ بتوحيدهِ، وبنبيه موسى والتوراة التي جاءكم بها.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾

يعني بذلك جل ثناؤه: وبأني قد جئتكم بآيةٍ من ربكم، وجئتكم مصدقاً لما بين يديّ من التوراة، ولذلك نصب «مصدّقاً» على الحال من «جئتكم».

وإنما قيل: «ومصدّقاً لما بين يديَّ من التوراة»، لأن عيسى صلوات الله عليه، كان مؤمناً بالتوراة مُقِرّاً بها، وأنها من عندِ الله. وكذلك الأنبياء كلهم،

(١) قوله: «إنباءه» خبر «أنَّ» في أول الفقرة.

يُصَدِّقُون بكل ما كان قبلهم من كتبِ الله ورسلهِ، وإنْ اختلف بعضُ شرائع أحكامهم، لمخالفةِ الله بينهم في ذلك. مع أنَّ عيسى كان ـ فيما بلغنا ـ عاملاً بالتوراةِ لم يخالفْ شيئاً من أحكامِهَا، إلا ما خَفَّفَ اللهُ عن أهلها في الإنجيل، مما كان مشدداً عليهم فيها.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَجِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾

يعني بذلك: وجئتكم بحجةٍ وعبرةٍ من ربكم، تعلمون بها حقيقةَ ما أقولُ لكم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ۝٥٠ إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ۝٥١﴾

يعني بذلك: وجئتكم بآيةٍ من ربكم تعلمون بها يقيناً صدقي فيما أقولُ. «فاتقوا الله»، يامعشرَ بني إسرائيل، فيما أمرَكُم به ونهاكم عنه في كتابهِ الذي أنزله على موسى، فأوفوا بعهدهِ الذي عاهدتُموه فيه، «وأطيعون»، فيما دعوتكم إليه من تصديقي فيما أرسلني به إليكم ربي وربكم، فاعبدوه، فإنه بذلك أرسلني إليكم، وبإحلالِ بعضِ ما كان مُحَرَّماً عليكم في كتابكم، وذلك هو الطريقُ القويمُ، والهدى المتينُ الذي لا اعوجاجَ فيه.

وهذه الآية وإنْ كان ظاهرُها خبراً، ففيه الحجةُ البالغة من الله لرسوله محمد ﷺ على الوفدِ الذين حاجُّوه من أهلِ نجران، بإخبار الله عزّ وجل عن أن عيسى كان بريئاً مما نَسَبَهُ إليه مَنْ نَسَبَهُ إلى غيرِ الذي وصفَ به نَفْسَهُ، من أنه لله عبدٌ كسائرِ عبيدهِ من أهلِ الأرضِ، إلا ما كان الله جل ثناؤه خَصَّهُ به من النبوةِ والحججِ التي آتاهُ دليلاً على صدقه ـ كما آتى سائرَ المرسلين غيره

من الأعلام والأدلة على صِدْقِهم ـ وحُجةً على نبوته.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ عزَّ وجلَّ: ﴿فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٥٢﴾﴾

فلما وجَد عيسى ـ من بني إسرائيل الذين أرسله الله إليهم ـ جحوداً لنبوّته، وتكذيباً لقوله، وصدًّا عما دَعَاهم إليه من أمرِ الله، قال: «مَن أنصاري إلى الله»؟، يعني بذلك: قال عيسى: مَنْ أعواني على المُكَذِّبين بحجةِ الله، والمولِّين عن دينه، والجاحدين نبوةَ نبيهِ، «إلى الله» عز وجل؟

ويعني بقوله: ﴿إلى الله﴾، مع الله.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٣﴾﴾

وهذا خبرٌ من الله عز وجل عن الحواريين أنهم قالوا: «ربنا آمنا»، أي: صَدَّقْنَا «بما أنزلتَ»، يعني: بما أنزلتَ على نبيك عيسى من كتابك. «واتبعنا الرسول»، يعني بذلك: صرنا أتباعَ عيسى على دينكَ الذي ابْتَعَثْتَهُ به، وأعوانه على الحق الذي أرسلتَهُ به إلى عبادكَ. وقوله: «فاكتبنا مع الشاهدين»، يقول: فأَثْبِتْ أسماءنا مع أسماءِ الذين شهدوا بالحق، وأقَرُّوا لكَ بالتوحيد، وصدَّقُوا رسلك، واتبعوا أمْرَكَ ونهيكَ، فاجعلنا في عِدادهم ومعهم فيما تكرمهم به من كرامتك، وأحِلَّنا محلهم، ولا تجعلنا مِمَّنْ كفرَ بك، وصدَّ عن سبيلك، وخالف أمرك ونهيك.

يُعرِّفُ خَلْقَهُ جَلَّ ثناؤه بذلك سبيلَ الذين رضيَ أقوالَهم وأفعالَهم، ليحتَذُوا طرِيقَهم، ويتبعـوا منهاجهم، فيصلوا إلى مِثْلِ الذي وصلوا إليه من درجات كرامته، ويكذِّب بذلك الذين انتحلوا من الملل غير الحنيفية المسلمة، في دعـواهم على أنبياءِ الله أنهم كانوا على غيرِهَا، ويحتجُّ به على الوفدِ الذين حاجوا رسولَ الله ﷺ من أهل نجران: بأنَّ قِيلَ مَنْ رضي الله عنه من أتباع عيسى كان خلاف قِيْلِهم، ومنهاجُهم غير منهاجِهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ٥٤﴾

يعني بذلك جل ثناؤه: ومكر الذين كفروا من بني إسرائيل، وهم الذين ذكر الله أنّ عيسى أحسَّ منهم الكفر.

وكان مكرهم الذي وصفهم الله به، مُواطأة بعضهم بعضاً على الفتكِ بعيسى وقَتْله. وذلك أن عيسى صلوات الله عليه، بعد إخراجِ قومه إياه وأمَّهُ من بين أظهُرِهم، عاد إليهم.

وأما مكرُ الله بهم: فإنه إلقاؤه شَبَه عيسى على بعضِ أتباعه حتى قتله الماكرون بعيسى، وهم يحسبونه عيسى، وقد رفع الله عز وجل عيسى قبل ذلك.

وقـد يحتمـل أن يكـون معنى «مكر الله بهم»، استدراجهُ إيَّاهُم ليبلغ الكتابُ أجَلَهُ، كما قد بينا ذلك في قوله الله: ﴿اللهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾ [البقرة: ١٥].

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ

وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا

يعني بذلك جل ثناؤه: ومكر الله بالقوم الذين حاولوا قتلَ عيسى مع كفرهم بالله، وتكذيبهم عيسى فيما أتاهم به من عند ربهم إذ قال الله جل ثناؤه: «إني متوفيك»، فـ «إذ» صلةٌ من قوله: «ومكر الله»، يعني: ومكر الله بهم حين قال الله لعيسى إنِّي مُتَوفِّيكَ ورافعك إليَّ، فتوفاهُ ورفعه إليه.

ثم اختلف أهل التأويل في معنى «الوفاة» التي ذكرها الله عز وجل في هذه الآية.

وأولى الأقوال بالصحة عندنا، قولُ مَنْ قال: معنى ذلك: إني قابِضُكَ من الأرضِ ورافعك إليَّ، لتواترِ الأخبارِ عن رسولِ الله ﷺ أنه قال: ينزلُ عيسى بن مريم فيقتلُ الدجال، ثم يمكث في الأرضِ مدة ذكرهَا[1]، اختلفت الرواية في مبلغها، ثم يموتُ فيصلي عليه المسلمون ويدفنونه.

ومعلومٌ أنه لو كان قد أماته الله عز وجل، لم يكن بالذي يُميتهُ ميتةً أخرى، فيجمعُ عليه مِيتتين، لأنَّ الله عز وجل إنما أخبر عباده أنه يخلقهم ثم يُميتهم ثم يُحييهم، كما قال جلّ ثناؤه: ﴿اللهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَفْعَلُ مِنْ ذَلِكُمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ [الروم: ٤٠].

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ عزَّ وجلَّ: وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ

(١) الأحاديث في نزول عيسى عليه السلام كما قال المؤلف متواترة وهي معروفة في الصحيحين. وانظر كتاب «التصريح بما تواتر في نزول المسيح» من تحقيق علاّمة البلاد الشامية الشيخ عبد الفتاح أبو غُدة حفظه الله.

يعني بذلك جل ثناؤه: وجاعل الذين اتبعوك على منهاجِكَ ومِلَّتكَ من الإسلامِ وفطرته، فوق الذين جحدوا نبوّتكَ وخالفوا سبيلهم من جميعِ أهلِ المللِ، فكذّبوا بما جئتَ به وصَدُّوا عن الإقرارِ به، فَمُصَيِّرُهُم فوقَهم ظاهرين عليهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٥٥﴾﴾

يعني بذلـك جل ثناؤه: «ثم إليَّ»، ثم إلى الله، أيها المختلفون في عيسى. «مـرجعكم»، يعني: مصيركُم يومَ القيامة. «فأحكم بينكم»، يقول: فأقضي حينئذٍ بين جَميعكم في أمرِ عيسى بالحق. «فيما كنتم فيه تختلفون» من أمرِهِ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ ﴿٥٦﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿٥٧﴾﴾

يعني بقـوله جل ثناؤه: «فأما الذين كفروا»، فأما الذين جَحدوا نبوَّتَكَ ياعيسى، وخالفوا مِلَّتكَ، وكذَّبُوا بما جئتهم به من الحق، وقالوا فيك الباطلَ، وأضـافوكَ إلى غيرِ الذي ينبغي أن يُضيفوكَ إليه، من اليهود والنصارى وسائرِ أصنـافِ الأديان، فإنّي أُعَذِّبُهم عذاباً شديداً، أما في الدنيا فبالقتلِ والسباء والذِلَّةِ والمسكنة، وأما في الآخرة فبنارِ جهنمَ خالدين فيها أبداً. «وما لهم من ناصرين»، يقول: وما لهم من عذابِ الله مانعٌ، ولا عن أليمِ عقابهِ لهم دافعٌ بقوة ولا شفاعة، لأنه العزيز ذُو الانتقام.

وأما قوله: «وأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات»، فإنه يعني تعالى ذكره: وأما الذين آمنوا بك ياعيسى ـ يقول: صَدَّقُوك ـ فأقَرُّوا بنبوتك وبما جِئْتَهم به من الحقِّ من عندي، ودانوا بالإسلام الذي بعثتك به، وعملوا بما فرضتُ من فرائضي على لسانك، وشرعتُ من شرائعي، وسننتُ من سنني. «فيوفيهم أجورَهم»، يقول: فيعطيهم جزاءَ أعمالهِم الصالحة كاملاً، لا يُبْخَسُون منه شيئاً ولا يُنقصونه.

وأما قوله: «والله لا يحب الظالمين»، فإنه يعني: والله لا يحبُّ مَنْ ظلم غيرَه حقاً له، أو وضع شيئاً في غير موضعه.

فنفى جل ثناؤه عن نفسه بذلك أن يظلم عبادَه، فيجازي المسيءُ ممن كفر جزاءَ المحسنين ممن آمنَ به، أو يجازي المحسنَ ممن آمن به واتبعَ أمره وانتهى عما نهاه عنه فأطاعه، جزاءَ المسيئين ممن كفر به وكذَّبَ رُسُلَهُ وخالفَ أمْرَهُ ونهيه. فقال: إني لا أحبُّ الظالمين، فكيف أظلم خَلْقي؟

وهذا القولُ من الله تعالى ذكره، وإنْ كان خرج مخرجَ الخبرِ، فإنه وعيدٌ منه للكافرين به وبرسله، ووعدٌ منه للمؤمنين به وبرسله، لأنه أعلم الفريقين جميعاً أنه لا يبخسُ هذا المؤمنَ حَقَّهُ، ولا يظلمُ كرامَتهُ فيضعها فيمن كفر به وخالف أمره ونهيه، فيكون لها بوضعها في غيرِ أهلِها ظالماً.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَـالَى: ﴿ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ ٱلْآيَٰتِ وَٱلذِّكْرِ ٱلْحَكِيمِ ۝٥٨﴾

يعني بقوله جل ثناؤه: «ذلك»، هذه الأنباءَ التي أنبأ بها نبيه عن عيسى وأمِّه مريم، وأمِّها حَنَّة وزكريا وابنه يحيى، وما قصَّ من أمرِ الحواريين واليهود من بني إسرائيل «نتلوها عليك»، يامحمدُ، يقول: نقرؤها عليك يامحمدُ على

لسانِ جبريلَ ﷺ، بِوَحْيِنَاهَا إليكَ «من الآياتِ»، يقول: من العبر والحجج على مَنْ حاجَّك من وفد نصارى نجران، ويهود بني إسرائيل الذين كذَّبوك وكذبوا ماجئتهم به من الحق من عندي، «والذكر»، يعني: والقرآن. «الحكيم»، يعني: ذي الحكمة الفاصلة بين الحقّ والباطل، وبينك وبين ناسبي المسيحِ إلى غيرِ نَسَبِهِ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ جَلَّ ثناؤهُ: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ٥٩﴾

يعني جل ثناؤه: إن شبه عيسى في خَلْقِي إياهُ من غير فحلٍ عندي، كَشَبهِ آدمَ الذي خلقتُه من ترابٍ ثم قلتُ له: «كُنْ»، فكان من غير فحلٍ ولا ذكرٍ ولا أنثى. يقول: فليس خلقي عيسى من أمِّهِ من غير فحل، بأعجب من خلقي آدمَ من غير ذكرٍ ولا أنثى، وأمري إذْ أمرته أن يكون فكان لحماً. يقول: فكذلك خلقي عيسى: أمرتُه أن يكون فكانَ.

وذكر أهل التأويل أن الله عز وجل أنزل هذه الآية احتجاجاً لنبيه ﷺ على الوفد من نصارى نجران الذين حاجُّوه في عيسى.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ٦٠﴾

يعني بذلك جل ثناؤه: الذي أنبأتك به من خبر عيسى، وأنَّ مَثَلَهُ كمثل آدم خلقهُ من تراب ثم قال له ربه «كن». هو الحقُّ من ربك. يقول: هو الخبر الذي هو من عِنْدِ رَبِّكَ. «فلا تكن من المُمْتَرينَ»، يعني: فلا تكن من الشاكِّين في أنّ ذلك كذلك.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ ﴿٦١﴾﴾

يعني بقوله جل ثناؤه: «فمن حاجَّكَ فيه»، فمن جادلَك، يامحمدُ، في المسيح عيسى بن مريم.

ويعني بقوله: «من بعد ما جاءك من العلم»، من بعد ما جاءك من العلم الذي قد بيَّنتهُ لكَ في عيسى أنه عبدُ الله. «فقل تعالوا»، هلموا فَلْنَدْعُ «أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم ثم نبتهل»، يقول: ثم نلتعن. «فنجعل لعنة الله على الكاذبين» منا ومنكم في أنه عيسى.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٦٢﴾ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ ﴿٦٣﴾﴾

يعني بذلك جل ثناؤه: إن هذا الذي أنبأتك به، يامحمد، من أمر عيسى فَقَصَصْتُه عليك من أنبائهِ، وأنه عبدي ورسولي وكلمتي ألقيتُهَا إلى مريم وروح منّي، لَهُوَ القَصَصُ والنبأُ الحَقُّ، فاعلمْ ذلك. واعلمْ أنه ليس للخَلْقِ معبودٌ يستوجبُ عليهم العبادةَ بملكه إياهم إلاّ معبودك الذي تعبُدُه، وهو الله العزيز الحكيم.

ويعني بقوله: «العزيز»، العزيز في انتقامه مِمَّنْ عَصَاهُ وخالفَ أمره، وادَّعى معه إلهاً غيرَه، أو عَبَدَ ربًّا سواه، «الحكيم» في تدبيره، لا يدخل ما دَبَّرَهُ وَهَنٌ، ولا يلحقه خللٌ.

«فإن تولوا»، يعني: فإن أدبر هؤلاء الذين حاجُّوك في عيسى، عما جاءك من الحق من عند ربك في عيسى وغيره من سائر ما آتاك الله من الهدى والبيان، فأعرضوا عنه ولم يقبلوه. «فإنَّ الله عليمٌ بالمفسدين»، يقول: فإن الله ذو علم بالذين يعصون ربهم، ويعملون في أرضه وبلاده بما نهاهم عنه، وذلك هو إفسادهم. يقول تعالى ذِكْرُه: فهو عالمٌ بهم وبأعمالهم، يُحْصِيها عليهم ويحفظها، حتى يجازيهم عليها جزاءَهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًۭٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًۭا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾﴾

يعني بذلك جل ثناؤه: «قل»، يامحمد، لأهل الكتاب، وهم أهلُ التوراة والإنجيل. «تعالوا»، هلموا. «إلى كلمة سواء»، يعني: إلى كلمة عَدْلٍ بيننا وبينكم. والكلمة العدل: هي أن نُوحِّدَ اللهَ فلا نعبدَ غيره، ونبرأ من كل معبودٍ سواه، فلا نشرك به شيئاً.

وقوله: «ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً»، يقول: ولا يدين بعضُنا لبعض بالطاعة فيما أمر به من معاصي الله، ويعظِّمه بالسجودِ له كما يسجدُ لربه. «فإن تولوا»، يقول: فإن أعرضوا عما دعوتَهُمْ إليه من الكلمةِ السواء التي أمرتُكَ بدعائهم إليها، فلم يُجيبوكَ إليها، «فقولوا»، أيها المؤمنون، للمتولِّين عن ذلك: «اشهدوا بأنا مسلمون».

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَالَى: ﴿يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوْرَىٰةُ وَٱلْإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٥﴾﴾

يعني تعالى ذكره بقوله: «ياأهل الكتاب»، ياأهل التوراة والإنجيل. «لِمَ تُحاجون»، لِمَ تجادلون. «في إبراهيم» وتُخاصِمُونَ فيه، يعني: في إبراهيمَ خليلِ الرحمن صلوات الله عليه.

وكان حِجاجهم فيه: ادّعاءُ كُلِّ فريقٍ من أهل هذين الكتابين أنه كان منهم، وأنه كان يَدِينُ دِينَ أهلِ نِحْلته. فعابهم الله عز وجل بادِّعائهم ذلك، ودلَّ على مُناقضتهم ودعواهم، فقال: وكيف تَدَّعُونَ أنه كان على مِلَّتكم ودِينكم، ودِينُكم إما يهودية أو نصرانية، واليهودي منكم يزعمُ أنّ دينه إقامةُ التوراة والعملُ بما فيها، والنصراني منكم يزعم أنّ دينه إقامةُ الإنجيل وما فيه، وهذان كتابان لم ينزلا إلّا بعد حينٍ من مَهلِكِ إبراهيمَ ووفاتهِ؟ فكيف يكونُ منكم؟ وما وجهُ اختصامكم فيه. وادعاؤكم أنه منكم، والأمر فيه على ما قد علمتم؟

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ٦٦﴾

يعني بقوله جل ثناؤه: «ها أنتم»، القومَ الذين قالوا في إبراهيم ما قالوا. «حاججتم»، خاصمتم وجادلتم. «فيما لكم به علم»، من أمرِ دينكم الذي وجدتموه في كتبكم، وأتتكم به رُسُلُ اللهِ من عنده، وفي غير ذلك مما أُوتيتُموهُ وثبتت عندكم صِحَّتُهُ. «فَلِمَ تُحاجُّونَ»، يقول: فَلِمَ تُجادلون وتخاصمون. «فيما ليسَ لكم به علمٌ»، يعني: في الذي لا علمَ لكم به من أمرِ إبراهيمَ ودينه، ولم تَجِدُوهُ في كتب الله، ولا أتتكم به أنبياؤكم، ولا شاهدتموه فتعلموه؟

وقوله: «والله يعلم وأنتم لا تعلمون»، يقول: والله يعلم ما غَاب عنكم فلم تشاهدوه ولم تروه، ولم تأتكم به رسلُه من أمر إبراهيم وغيره من الأمور ومما

تجادلون فيه، لأنه لا يغيبُ عنه شيءٌ، ولا يعزُبُ عنه عِلْمُ شيءٍ في السمواتِ ولا في الأرض «وأنتم لاتعلمون»، من ذلك إلا ماعاينتم فشاهدتم، أو أدركتم عِلْمَهُ بالإخبارِ والسَّماع.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ عزَّ وجلَّ: ﴿مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٦٧﴾

وهذا تكذيبٌ من الله عز وجل دعوَى الذين جادلوا في إبراهيم وملته من اليهود والنصارى، وادَّعوا أنه كان على ملتهم، وتبرئةٌ لهم منه، وأنهم لدينه مخالفون، وقضاءٌ منه عَزَّ وجل لأهلِ الإسلام ولأمةِ محمدٍ ﷺ أنهم هم أهلُ دينهِ، وعلى منهاجهِ وشرائعهِ، دونَ سائرِ أهلِ المللِ والأديانِ غيرهم.

يقول الله عز وجل: ما كان إبراهيمُ يهوديًّا ولا نصرانيًّا ولا كان من المشركين، الذين يعبدون الأصنامَ والأوثانَ أو مخلوقاً دون خالقه الذي هو إله الخلق وبارئهم، «ولكن كان حنيفاً»، يعني: مُتَّبعاً أمرَ الله وطاعته، مستقيماً على محجَّةِ الهدى التي أُمِرَ بلزومها، «مسلماً»، يعني: خاشعاً لله بقلبه، متذللاً له بجوارحه، مُذْعِناً لما فَرَض عليه وألزمه من أحكامه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ جَلَّ ثناؤُهُ: ﴿إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٦٨﴾

يعني جل ثناؤه بقوله: «إنَّ أوْلَى الناس بإبراهيم»، إنّ أحقَّ الناسِ بإبراهيمَ ونُصْرَتهِ وولايته «لَلَّذينَ اتَّبعوه»، يعني: الذين سلكوا طريقَه ومنهاجه، فوحَّدوا الله مخلصين له الدين، وسنُّوا سنُته، وشرَعُوا شرائعه، وكانوا لله حنفاء مسلمين غير مشركين به. «وهذا النبي»، يعني: محمداً ﷺ. «والذين آمنوا»،

يعني: والذين صدّقوا محمداً، وبما جاءهم به من عند الله. «والله ولي المؤمنين»، يقول: والله ناصرُ المؤمنين بمحمد، المصدِّقين له في نبوّتِه وفيما جاءهم به من عنده، على مَنْ خالَفَهُمْ من أهلِ المللِ والأديان.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَدَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ٦٩﴾

يعني بقوله جل ثناؤه: «ودّت»، تَمَنَّتْ. «طائفةٌ»، يعني جماعةٌ. «من أهل الكتاب»، وهم أهلُ التوراة من اليهود، وأهلُ الإنجيل من النصارى. «لو يضلُّونكم»، يقولون: لو يصدُّونكم أيها المؤمنون، عن الإسلامِ ويردُّونكم عنه إلى ما هُمْ عليهِ من الكفرِ، فيهلكونكم بذلك.

«والإضلال» في هذا الموضع، الإهلاكُ، من قول الله عز وجل: ﴿وَقَالُوا أَئِذَا ضَلَلْنَا فِى الْأَرْضِ أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [السجدة: ١٠].

«وما يُضِلُّون إلا أنفسهم»، وما يهلكون ـ بما يفعلون من محاولتهم صدّكم عن دينكم ـ أحداً غيرَ أنفسهم، يعني بـ «أنفسهم»: أتباعَهم وأشياعَهم على ملَّتِهم وأديانهم، وإنما أهلكوا أنفسَهم وأتباعهم بما حاولوا من ذلك، لاستيجابهم من الله بفعلهم ذلك سخَطَهُ، واستحقاقهم به غَضَبهُ ولعنته، لكفرهم بالله، ونقضهِم الميثاقَ الذي أخذ الله عليهم في كتابهم، في اتِّباعِ محمدٍ ﷺ وتصديقه، والإقرار بنبوّته.

ثم أخبر جلّ ثناؤه عنهم أنهم يفعلون ما يفعلون، من محاولة صَدِّ المؤمنين عن الهدى إلى الضلالة والردى، على جهلٍ منهم بما الله بهم مُحِلٌّ من عقوبته، ومدَّخِرٌ لهم من أليمِ عذابه، فقال تعالى ذكره: «وما يشعرون» أنهم لا يُضِلُّونَ إلّا أنفسَهُم، بمحاولتهم إضلالكم أيها المؤمنون.

ومعنى قوله: «وما يشعرون»، وما يدرون ولا يَعلمون.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ جَلَّ ثناؤُهُ: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَأَنتُمۡ تَشۡهَدُونَ ٧٠﴾

يعني بذلك جل ثناؤه: «ياأهل الكتاب»، من اليهود والنصارى «لم تكفرون»، يقول: لِمَ تَجْحدون «بآيات الله»، يعني: بما في كتاب الله الذي أنزله إليكم على ألسن أنبيائكم، من آيِه وأدلتِه «وأنتم تشهدون» أنه حَقٌّ من عند ربكم.

وإنما هذا من الله عز وجل، توبيخٌ لأهلِ الكتابين على كفرهم بمحمد ﷺ وجحودهم نبوَّتَهُ، وهم يجدونه في كتبهم، مع شَهادتهم أن ما في كتبهم حقٌّ، وأنه من عند الله.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تَلۡبِسُونَ ٱلۡحَقَّ بِٱلۡبَٰطِلِ﴾

يعني بذلك جل ثناؤه: ياأهل التوراة والإنجيل «لم تلبسون»، يقول: لِمَ تخلطون «الحق بالباطل».

وكان خلطهم الحقَّ بالباطلِ، إظهارهم بألسنتهم من التصديقِ بمحمدٍ ﷺ وما جاء به من عند الله، غيرَ الذي في قلوبهم من اليهودية والنصرانية.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَتَكۡتُمُونَ ٱلۡحَقَّ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ٧١﴾

يعني بذلك جل ثناؤه: ولم تكتمون، ياأهلَ الكتاب، الحقّ؟

و«الحق» الذي كتموه: ما في كتُبهم من نعتِ محمدٍ ﷺ ومبعثه ونبوّته.

وأما قوله: «وأنتم تعلمون»، فإنه يعني به: وأنتم تعلمون أنّ الذي تكتمونه من الحقِّ حقٌّ، وأنه من عند الله.

وهذا القول من الله عز وجل، خبرٌ عن تعمُّدِ أهلِ الكتابِ الكفرَ به، وكتمانِهم ماقد عَلِمُوا من نبوّةِ محمدٍ ﷺ وَوَجدوه في كتبهم، وجاءَتهم به أنبياؤهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ جَلَّ ثناؤهُ: ﴿وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ءَامِنُواْ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكْفُرُوٓاْ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ٧٢﴾

وأما قوله: «واكفروا آخره»، فإنه يعني به، أنهم قالوا: واجحدوا ما صَدَّقْتُمْ به من دينهم في وجه النهار، في آخر النهار «لعلهم يرجعون»: يعني بذلك: لعلهم يرجعون عن دينهم معكم ويَدَعونه:

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿وَلَا تُؤْمِنُوٓاْ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ﴾

يعني بذلك جل ثناؤه: ولا تُصَدِّقُوا إلا مَنْ تبِعَ دِينَكُم فكان يهوديًا.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ جَلَّ ثناؤهُ: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ أَن يُؤْتَىٰٓ أَحَدٌ مِّثْلَ مَآ أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَآجُّوكُمْ﴾

اختلف أهل التأويل في تأويل ذلك، وأولى الأقوال في ذلك بالصواب أن يكون قوله: «قلْ إن الهدى هُدى الله» معترضاً به. وسائر الكلام متَّسِقٌ على سياقٍ واحد. فيكون تأويله حينئذٍ: ولا تُؤمنوا إلاّ لمن تَبِعَ دينكُم، ولا تؤمنوا أن يُؤتَى أحدٌ مثل ما أُوتيتم، بمعنى: لا يُؤتى أحدٌ مثل ما أوتيتم، «أو يحاجوكم

عند ربكم»، بمعنى: أو أن يحاجوكم عند ربكم حسداً لما آتاكم، لأنكم أكرمُ على الله بما فضلكم به عليهم[1].

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿عِندَ رَبِّكُمْ قُلْ إِنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ۝٧٣﴾

يعني بذلك جل ثناؤه: «قل» يامحمد، لهؤلاء اليهود الذين وصفتُ قولهم لأوليائهم: «إنَّ الفضلَ بيد الله»، إنَّ التوفيق للإيمان والهدايةَ للإسلام، بيدِ الله وإليه، دونكم ودون سائرِ خلقه، «يؤتيه مَنْ يشاء» مِنْ خَلْقِهِ، يعني: يعطيه مَنْ أراد من عباده، تكذيباً من الله عز وجل لهم في قولهم لتُبَّاعِهم: «لا يُؤتَى أحدٌ مثلَ ما أُوتيتم». فقال الله عز وجل لنبيه ﷺ: قل لهم: ليس ذلكَ إليكم، إنما هو إلى الله الذي بيده الأشياء كلها، وإليه الفضلُ وبيده، يُعطيه مَنْ يشاء. «والله واسع عليم»، يعني: والله ذُو سعةٍ بفضله على مَنْ يشاء أنْ يتفضَّلَ عليه. «عليم»، ذو عِلْمٍ بمن هو منهم للفضل أهل.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ۝٧٤﴾

يعني بقوله: «يختص برحمته من يشاء»، «يفتعل» من قول القائل: «خصصت فلاناً بكذا، أخُصُّه به».

وأما «رحمته»، في هذا الموضع، فالإسلام والقرآن، مع النبوّة.

«والله ذو الفضل العظيم»، يقول: ذُو فضلٍ يتفضَّلُ به على مَنْ أحبَّ

(١) انظر أيضاً: «الأساس في التفسير» للعلامة الشيخ سعيد حوى: ٢/٨٠٠ ـ ٨٠١.

وشاء من خَلْقِه. ثم وصف فضله بالعظم فقال: «فضله عظيم»، لأنه غير مُشَبَّهٍ في عِظَمِ موقعه ممن أفضله عليه فضلٌ من إفضالِ خلقه، ولا يقاربه في جلالة خطره ولا يُدانيه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ جَلَّ ثناؤُهُ: **وَمِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًا**

(يعني): ومن أهل الكتاب الذي إنْ تَأْمَنْهُ، يامحمدُ، على عظيمٍ من المال كثيرٍ، يؤدِّه إليك ولا يخنْك فيه، ومنهم الذي إنْ تأمنه على دينارٍ يَخُنْكَ فيه فلا يؤدِّهِ إليك، إلا أنْ تُلِحَّ عليه بالتقاضي والمطالبة.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَالَى: **ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَيْسَ عَلَيْنَا فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ سَبِيلٌ**

يعني بذلك جل ثناؤه: أنَّ من استحلَّ الخيانةَ من اليهود، وجحودَ حقوق العربيِّ التي هي له عليه، فلم يؤدِّ ما ائتمنه العربيُّ عليه إلاّ مادامَ له متقاضياً مطالباً، من أجل أنه يقول: لا حرجَ علينا فيما أصبنا من أموالِ العربِ ولا إثمَ، لأنهم على غير الحق، وأنهم مشركون.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: **وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾**

يعني بذلك جل ثناؤه: إن القائلين منهم: «ليس علينا في أموالِ الأميين من العرب حَرَجٌ أن نختانهم إياه»، يقولون الكذبَ على الله عامدين الإثمَ بِقِيلِ الكذبِ على الله، إنه أحلَّ ذلك لهم. وذلك قوله عز وجل: «وهم يعلمون».

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ وَٱتَّقَىٰ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٧٦﴾﴾

يقول: بلى مَنْ أوفى بعهدِ الله الذي عاهده في كتابه، فآمن بمحمدٍ ﷺ وصَدَّق به وبما جاء به من الله، من أداءِ الأمانةِ إلى مَنْ ائتمنَهُ عليها، وغير ذلك من أمرِ الله ونهيه. «واتقى»، يقول: واتقى مانهاهُ اللهُ عنه من الكفر به، وسائر معاصيه التي حَرَّمها عليه، فاجتنبَ ذلك مراقبةَ وعيدِ الله وخوفَ عقابِهِ. «فإنَّ الله يحبُّ المتقين»، يعني: فإن الله يحب الذين يتقونه فيخافون عقابه ويحذرون عذابه، فيجتنبون مانهاهم عنه وحرَّمه عليهم، ويُطيعونه فيما أمرهم به.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَـٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُوْلَـٰٓئِكَ لَا خَلَـٰقَ لَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٧﴾﴾

يعني بذلك جل ثناؤه: إنَّ الذين يستبدلون ـ بتَرْكِهم عهدَ الله الذي عَهِدَ إليهم، ووصيته التي أوصاهم بها في الكتب التي أنزلها الله إلى أنبيائه، باتباع محمدٍ وتصديقهِ والإقرارِ به وما جاء به من عند الله ـ وبأيمانهم الكاذبة التي يستحلون بها ماحرّم الله عليهم من أموالِ الناس التي ائتُمِنُوا عليها. «ثمناً»، يعني: عِوَضاً وبدلاً خَسيساً من عَرَضِ الدنيا وحُطامها. «أولئك لا خَلاقَ لهم في الآخرة»، يقول: فإن الذين يفعلون ذلك لاحَظَّ لهم في خيرات الآخرة، ولا نصيبَ لهم من نعيم الجنةِ وما أعدَّ اللهُ لأهلها فيها دون غيرهم.

وأما قوله: «ولا يكلمهم الله»، فإنه يعني: ولا يكلمهم الله بما يسرُّهم «ولا ينظر إليهم»، يقول: ولا يعطفُ عليهم بخير، مَقْتاً من الله لهم.

وقولـه: «ولا يُزكيهم»، يعني: ولا يطهرهم من دنَسِ ذنوبهم وكفرهم «ولهم عذاب أليم»، يعني: ولهم عذابٌ موجع.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ جَلَّ ثناؤُهُ: ﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُۥنَ أَلْسِنَتَهُم بِٱلْكِتَٰبِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمَا هُوَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٨﴾﴾

يعني بذلـك جل ثناؤه: وإنَّ من أهل الكتاب وهم اليهود الذين كانوا حوالى مدينة رسولِ الله ﷺ على عهده، من بني إسرائيل.

و«الهـاء والميم» في قوله: «منهم»، عائدةٌ على «أهل الكتاب» الذين ذكرهم في قوله: «ومن أهل الكتاب مَنْ إن تأمنه بقنطار يؤدّه إليك».

وقوله «لفريقاً»، يعني: جماعة. «يلوون»، يعني: يحرِّفون. «ألسنتهم بالكتاب لتحسبوه من الكتاب»، يعني: لتظنوا أن الذي يحرّفونه بكلامهم من كتاب الله وتنزيله. يقول الله عز وجل: وما ذلك الذي لوَوْا به ألسنتهم فحرَّفُوه وأحدثوه من كتاب الله، ويزعمون أنَّ ما لَوَوْا به ألسنَتَهُم من التحريفِ والكذبِ والباطلِ فألحقوهُ في كتابِ الله «من عندِ الله»، يقول: مماأنزلَهُ اللهُ على أنبيائهِ «وما هو من عندِ الله»، يقول: وما ذلك الذي لووا به ألسنتهم فأحدثوه، مما أنزله اللهُ إلى أحدٍ من أنبيائه، ولكنه مما أحدثوه من قِبَلِ أنفسهم افتراءً على الله.

يقول عز وجل: «ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون»، يعني بذلك: أنهم يتعمدون قِيلَ الكذبِ على الله، والشهادة عليه بالباطل، والإلحاقَ بكتاب الله ماليس منه، طلباً للرياسة والخسيس من حطام الدنيا.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾

يعني بذلك جل ثناؤه: وما ينبغي لأحد من البشر.

و«البشر» جمع بني آدم لا واحدَ له من لفظِهِ مثل: «القوم» و«الخلق». وقد يكونُ اسماً لواحد «أن يؤتيه الله الكتاب» يقول: أن يُنزلَ اللهُ عليه كتابَهُ «والحكم» يعني: ويعلمه فَصْلَ الحِكْمةِ. «والنبوة»، يقول: ويعطيه النبوّة. «ثم يقول للناس كونوا عباداً لي من دون الله»، يعني: ثم يدعو الناسَ إلى عبادةِ نفسهِ دونَ الله، وقد آتاهُ الله ما آتاه من الكتابِ والحكمِ والنبوة. ولكن إذا آتاه الله ذلك، فإنما يدعوهم إلى العلم بالله، ويحدوهم على معرفةِ شرائعِ دينه، وأن يكونوا رؤساء في المعرفة بأمرِ الله ونهيهِ، وأئمةً في طاعته وعبادته، بكونهم معلِّمي الناس الكتابَ، وبكونهم دَارِسيه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّۦنَ﴾

وأولى الأقوالِ عندي بالصواب في «الربانيين» أنهم جمع «رباني»، وأن «الرباني» المنسوب إلى «الرَّبَّان»، الذي يربُّ الناسَ، وهو الذي يُصْلِحُ أمورهم، و«يربّها»، ويقوم بها.

و«الربّاني» هو المنسوب إلى مَنْ كان بالصفةِ التي وصفتُ، وكان العالم بالفقه والحكمة من المصلحين يَرُبّ أمورَ الناس، بتعليمه إياهم الخيرَ، ودعائهم إلى مافيه مصلحتهم، وكان كذلك الحكيمُ التقيُّ لله، والوالي الذي يلي أمورَ الناس على المنهاج الذي وَليه المُقْسِطُونَ من المُصْلحين أمورَ الخلق، بالقيامِ فيهم بما فيه صلاحُ عاجلهم وآجلهم، وعائدةُ النفع عليهم في

دينهم، ودنياهم، كانوا جميعاً يستحقون أن [يكونوا] ممن دَخل في قوله عز وجل: «ولكن كونوا ربانيين».

فـ «الربانيون» إذاً، هم عمادُ الناسِ في الفقه والعلم وأمورِ الدين والدنيا. ولذلك قال مجاهد: «وهم فوق الأحبار»، لأنَّ «الأحبار» هم العلماء، و«الرباني» الجامعُ إلى العلم والفقه، البصرَ بالسياسةِ والتدبير والقيام بأمور الرعية، وما يصلحهم في دُنياهم ودينهم[1].

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ۝٧٩﴾

معنى الآية: ولكن يقول لهم: كونوا، أيها الناسُ، سادةَ الناس، وقادَتهم في أمر دينهم ودنياهم، ربَّانِيِّين بتعليمكم إياهم كتابَ الله وما فيه من حلالٍ وحرام، وفَرْضٍ ونَدْبٍ، وسائر ماحواه من معاني أمور دينهم، وبتلاوتكم إياه ودراستِكُمُوهُ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّۦنَ أَرْبَابًا ۗ أَيَأْمُرُكُم بِٱلْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ۝٨٠﴾

(يعني): وما كان للنبي أنْ يأمركم، أيها الناسُ، «أن تتخذوا الملائكةَ والنبيينَ أرباباً»، يعني بذلك آلهة يُعْبَدُون من دونِ الله، كما ليس له أن يقول لهم: كونوا عباداً لي من دونِ الله.

---

(١) قال العلامة محمود شاكر: هذا التفسير قَلَّ أنْ تجده في كتاب من كتب اللغة، وهو من أجود ماقرأت في معنى «الرباني»، وهو من أحسن التوجيه في فهم معاني العربية، والبصر بمعاني كتاب الله. فرحم الله أبا جعفر رحمةً ترفعه درجاتٍ عند ربه.

ثم قال جل ثناؤه ـ نافياً عن نبيّه ﷺ أن يأمرَ عبادَهُ بذلك ـ: «أيأمُركم بالكفر»، أيها الناسُ، نبيُّكم، بجحود وحدانيةِ الله. «بعد إذْ أنتم مسلمون»، يعني: بعد إذ أنتم له مُنقادون بالطاعةِ، مُتَذَلِّلُونَ له بالعبودةِ، أي أن ذلك غير كائنٍ منهُ أبداً.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ عزَّ وجلَّ: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ﴾

معنى ذلـك: الخبـرُ عن أخذ الله الميثاقَ من أنبيائه بتصديق بعضهم بعضاً، وأخذ الأنبياء على أُمَمِهَا وتُبَّاعها الميثاقَ بنحو الذي أخذَ عليها ربُّها من تصديقِ أنبياءِ الله ورسلهِ بما جاءتها به. لأنَّ الأنبياءَ عليهم السلام بذلك أُرْسِلَتْ إلى أممهـا. ولم يدَّعِ أحـدٌ ممن صدَّق المـرسلين، أن نبيًّا أُرسِلَ إلى أمةٍ بتكذيبِ أحدٍ من أنبياءِ الله عز وجل وحُجَجه في عباده، بل كُلُّها ـ وإنْ كَذَّبَ بعضُ الأمم بعضَ أنبياءِ الله، بجحودها نبوّته ـ مُقِرَّةٌ بأنَّ مَنْ ثبتت صحّة نبوته، فعليها الدينونةُ بتصديقهِ. فذلك ميثاقٌ مقرٌّ به جميعهم.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا﴾

يعني بذلك جل ثناؤه: وإذْ أخذ الله ميثاقَ النبيين بما ذكر فقال لهم تعالى ذِكْرُه: أأقررتم بالميثاقِ الذي واثقتموني عليه: مِنْ أنكم مهما أتاكم رسولٌ من عندي مُصَدِّقٌ لما معكم «لَتُؤْمِنُنَّ به ولتنصُرُنَّهُ» «وأخذتم على ذلكم إصري»؟ يقول: وأخذتم على ما واثقتموني عليه من الإيمان بالرسل التي تأتيكم بتصديقِ

مامعكم من عندي والقيام بنصرتهم «إصري». يعني عهدي ووصيتي، وقبلتم في ذلك منّي ورضيتموه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ



يعني بذلك جل ثناؤه: قال الله: فاشهدوا، أيها النبيون، بما أخذتُ به ميثاقكم من الإيمانِ بتصديقِ رُسلي التي تأتيكم بتصديقِ مامعكم من الكتابِ والحكمة، ونُصرتهم على أنفسكم وعلى أتباعكم من الأمم إذا أنتم أخذتم ميثاقهم على ذلك، وأنا معكم من الشاهدين عليكم وعليهم بذلك.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٨٢﴾

يعني بذلك جل ثناؤه: فمن أعرضَ عن الإيمان برسلي الذين أرسلتُهم بتصديقِ ما كان مع أنبيائي من الكتب والحكمة، وعن نصرتهم، فأدبر ولم يؤمن بذلك، ولم ينصر، ونكث عهدَه وميثاقه «بعد ذلك»، يعني بعد العهدِ والميثاقِ الذي أخذَهُ اللهُ عليه. «فأولئك هم الفاسقون»، يعني بذلك: أنَّ المتولِّينَ عن الإيمان بالرسل الذين وصف أمرَهم، ونُصرتهم بعد العهد والميثاق اللذين أخذَا عليهم بذلك. «هم الفاسقون»، يعني بذلك: الخارجونَ عن دينِ الله وطاعةِ ربهم.

وهاتان الآيتان، وإن كان مَخرَجُ الخبرِ فيهما من الله عز وجل بما أخبر أنه أشهدَ وأخذَ به ميثاقَ مَنْ أخذَ ميثاقَهُ به، عن أنبيائهِ ورسله، فإنه مقصودٌ به إخبارُ مَنْ كان حوالَي مهاجَرِ رسولِ الله ﷺ من يهود بني إسرائيل أيام حياته

ﷺ، عمَّا لله عليهم من العهـد في الإيمـان بنبوة محمد ﷺ، ومعنيٌّ [به] تذكيرُهم ما كانَ اللهُ آخذاً على آبائِهم وأسلافِهم من المواثيقِ والعهودِ، وما كانت أنبياءُ الله عَرَّفتهم وتقـدَّمَتْ إليهم في تصديقهِ واتِّباعه ونُصرته على مَنْ خالفه وكَذَّبه وتعريفهم ما في كتب الله، التي أنزلها إلى أنبيائه التي ابتعثها إليهم، من صفته وعلامته.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾﴾

وتـأويل الكلام: يامعشرَ أهل الكتاب «أفغيرَ دِينِ الله تبغون»، يقول: أفغيرَ طاعـةِ الله تلتمسون وتُريدون، «وله أسلم من في السموات والأرض»، يقول: وله خَشع مَنْ في السموات والأرض، فخضع له بالعبودةِ، وأقرَّ له بإفراد الربوبية، وانقادَ له بإخلاصِ التوحيدِ والألوهية. «طوْعاً وكرهاً»، يقول أسلم لله طائعاً مَنْ كان إسلامهُ منهم له طائعاً، وذلك كالملائكةِ والأنبياءِ والمرسلينَ، فإنهم أسلموا لله طائعين. «وكرهاً»، مَنْ كان منهم كارهاً.

وأما قوله: «وإليه تُرجعون»، فإنه يعني: «وإليه»، يامعشر مَنْ يبتغي غيرَ الإسـلام دينـاً من اليهـود والنصـارى وسـائر الناس. «تُرجَعُون»، يقول: إليه تَصِيُرونَ بعـد ممـاتِكم، فَمُجَـازِيكم بأعمـالِكم، المحسنَ منكم بإحسـانهِ، والمسيءَ بإساءَته.

وهذا من الله عز وجل تحذيرٌ خَلْقَهُ أنْ يرجعَ إليه أحدٌ منهم فيصيرَ إليه بعد وفاته على غير ملةِ الإسلام.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ

عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ



يعني بذلـك جل ثناؤه: «أفغير دين الله تبغون»، يامعشر اليهود، «وله أسلم مَنْ في السمواتِ والأرض طَوْعاً وكرهاً وإليه ترجعون» فإن ابتغوا غيرَ دين الله، يامحمد، فقل لهم، «آمنا بالله»، فَتَرَكَ ذِكْرُ قوله: فإن قالوا: نعم، أو ذِكْرَ قوله: «فإن ابتغوا غير دين الله»، لدلالةِ ماظهرَ من الكلام عليه.

وقوله: «قل آمنا بالله»، يعني به: قل لهم، يامحمد، صَدَّقْنَا باللهِ أنه ربنا وإلهنـا، لا إلهَ غيره، ولا نعبدُ أحداً سواه. «وما أُنْزِلَ علينا»، يقول: وقل: وصـدَّقنـا أيضاً بما أنزل علينا من وحَيه وتنزيله، فأقررنا به. «وما أنزل على إبراهيم»، يقول: وصدقنا أيضاً بما أنزل على إبراهيمَ خليلِ الله، وعلى ابنيه إسمعيل وإسحق، وابن ابنـه يعقوب، وبما أنزل على «الأسباطِ»، وهم ولد يعقوب الاثنا عشر. «وما أُوتيَ موسى وعيسى»، يقول: وصدّقنا أيضاً مع ذلك بالذي أنزل الله على موسى وعيسى من الكتب والوَحْي، وبما أنزل على النبيين من عنده.

والذي آتى الله موسى وعيسى ـ مما أمرَ الله عز وجل محمداً بتصديقهما فيه، والإيمان به ـ التوراة التي آتاها موسى، والإنجيل الذي آتاه عيسى.

«لا نفرق بين أحد منهم»، يقول: لا نُصَدِّقُ بعضَهم ونكذِّب بعضَهم، ولا نؤمن ببعضِهم ونكفرُ ببعضهم، كما كفرتِ اليهودُ والنصارى ببعض أنبياء الله وصدّقت بعضاً، ولكنا نؤمن بجميعهم ونصدّقهم. «ونحن له مسلمون». يعني: ونحنُ نَدينُ لله بالإسلام لا نَدينُ غيرَهُ، بل نتبرأُ إليه من كل دينٍ سواه، ومن كل ملة غيره.

ويعني بقوله: «ونحن له مسلمون». ونحن له منقادون بالطاعة، متذللون بالعبودة، مُقِرُّونَ لهُ بالألوهةِ والربوبيةِ، وأنه لا إله غيره.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَـٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ۝٨٥﴾

يعني بذلك جل ثناؤه: ومَنْ يطلب ديناً غيرَ دينِ الإسلام ليدينَ به، فلن يقبل الله منه. «وهو في الآخرة من الخاسرين»، يقول: من الباخسين أنفسَهم حُظوظَها من رحمةِ الله عز وجل.

وذُكر أنَّ أهلَ كلِّ ملةٍ ادّعوا أنهم هم المسلمون، لما نزلت هذه الآية، فأمرهم الله بالحج إن كانوا صادقين، لأن من سنُة الإسلام الحج، فامتنعوا، فأدحض الله بذلك حجتهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ عزَّ وجلَّ: ﴿كَيْفَ يَهْدِى ٱللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَـٰنِهِمْ وَشَهِدُوٓا۟ أَنَّ ٱلرَّسُولَ حَقٌّ وَجَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَـٰتُ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ۝٨٦ أُو۟لَـٰٓئِكَ جَزَآؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ۝٨٧ خَـٰلِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ۝٨٨ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٨٩﴾

يعني: كيف يُرشد اللهُ للصوابِ ويوفّق للإيمان، قوماً جَحَدُوا نبوّةَ محمدٍ ﷺ. ﴿بعد إيمانهم﴾ أي: بعد تصديقهم إياه، وإقرارهم بما جاءَهم به من عند ربه. «وشَهدوا أن الرسول حقّ»، يقول: وبعد أن أقرّوا أن محمداً رسول الله ﷺ إلى خلقه حقًّا. «وجاءهم البينات»، يعني: وجاءهم الحججُ من عندِ

الله والدلائلُ بصحة ذلك؟. «والله لا يهدي القوم الظالمين»، يقول: والله لا يوفّق للحق والصّوابِ الجماعةَ الظَّلمة، وهم الذين بَدَّلُوا الحقَّ إلى الباطلِ، فاختارُوا الكفرَ على الإيمان.

وقد دللنا فيما مضى قَبْلُ على معنى «الظلم»، وأنه وضعُ الشيء في غير موضعه، بما أغنى عن إعادته.

«أولئك جزاؤهم»، يعني: هؤلاء الذين كفروا بعد إيمانهم، وبعد أن شهدوا أن الرسول حَقٌّ. «جزاؤهم»، ثوابهم من عملهم الذي عملوه. «أنَّ عليهم لعنةَ الله»، يعني: أن يحلّ بهم من الله الإقصاء والبعد، ومن الملائكة والناس الدعاءُ بما يسوؤهم من العقاب. «أجمعين»، يعني: من جميعهم، لا من بعض مَنْ سمَّاه جَلَّ ثناؤه من الملائكة والناس، ولكن من جميعهم. وإنما جعل ذلك جل ثناؤه ثواب عملهم، لأن عملهم كان بالله كفراً.

«خالدين فيها» يعني: ماكثين فيها، يعني في عقوبة الله. «لا يخفَّفُ عنهم العذابُ»، لا ينقصون من العذاب شيئاً في حال من الأحوال، ولا ينفَّسون فيه. «ولا هم يُنْظَرُونَ»، يعني: ولا هم ينظرون لمعذرة يعتذرون. وذلك كله عَينُ الخلود في العقوبة في الآخرة.

ثم استثنى جل ثناؤه الذين تابوا، من هؤلاء الذين كفروا بعد إيمانهم فقال تعالى ذكره؛ «إلّا الذين تَابوا من بعد ذلك وأصلحوا»، يعني: إلا الذين تابوا من بعد ارتدادهم عن إيمانهم، فراجعوا الإيمان بالله وبرسوله، وصدّقوا بما جاءهم به نبيهم ﷺ من عند ربهم. «وأصلحوا»، يعني: وعملوا الصالحات من الأعمال. «فإنّ الله غفور رحيم»، يعني: فإنَّ الله لمن فعل ذلك بعد كفرهِ «غفورٌ»، يعني: ساترٌ عليه ذَنْبَهُ الذي كان منه من الرِّدَّةِ، فتاركُ عقوبته عليه، وفضيحتَهُ به يوم القيامة، غيرُ مؤاخذهِ به إذا مَات على التوبة منه «رحيم»، متعطِّف عليه بالرحمة.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ جَلَّ ثناؤُهُ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ ﴿٩٠﴾﴾

(يعني): إن الذين كفروا من اليهود بمحمدٍ ﷺ عند مَبعثه، بعد إيمانهم به قبل مبعثه، ثم ازدادوا كفراً بما أصابوا من الذنوب في كفرهم ومُقامهم على ضلالتهم، لن تُقْبَلَ توبتهم من ذنوبهم التي أصابوها في كفرهم، حتى يتوبوا من كفرهم بمحمدٍ ﷺ، ويراجعوا التوبة منه بتصديقه بما جاء به من عند الله.

وإنما قلنا ذلك لأن الآيات قَبْلَها وبعدها فيهم نزلت، فأولى أن تكون هي في معنى ماقَبْلَها وبعدها، إذ كانت في سياق واحد.

وإنما قلنا: معنى ازديادهم الكفر: ما أصابوا في كفرهم من المعاصي، لأنه جل ثناؤه قال: «لن تُقْبَلَ توبتهم»، فكان معلوماً أن معنى قوله: «لن تقبل توبتهم»، إنما هو معنيٌّ به: لن تقبل توبتهم مما ازدادوا من الكفرِ على كفرهم بعد إيمانهم، لا من كفرهم. لأن الله تعالى ذِكْرُه وَعَدَ أنْ يقبلَ التوبةَ من عبادهِ فقال: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ﴾ [الشورى: ٢٥]، فمحالٌ أنْ يقول عز وجل: «أقبلُ» و«لا أقبلُ» في شيءٍ واحد. وإذْ كان ذلك كذلك ـ وكان من حُكم اللهِ في عبـاده أنه قابلُ توبةَ كُلِّ تائبٍ من كُلِّ ذَنْبٍ، وكان الكفر بعد الإيمان أحدَ تلك الذنوب التي وَعَدَ قَبولَ التوبةِ منها بقوله: «إلّا الذين تابوا مِنْ بعدِ ذلك وأصلحوا فإنَّ الله غفورٌ رحيم» ـ علم أنّ المعنى الذي لا يقبل التوبةَ منه، غيرُ المعنى الذي يَقبل التوبة منه. وإذْ كان ذلك كذلك، فالذي لا يَقبلُ منه التوبةَ، هو الازديادُ على الكفرِ بعد الكفرِ، لا يقبلُ اللهُ توبةَ صاحبهِ ما أقامَ على كفرِهِ، لأنَّ الله لا يقبل من مشركٍ عملاً ما أقامَ على شِرْكِهِ وضلاله. فأما إنْ تابَ من شِرْكِهِ وكفره وأصلح، فإنّ الله ـ كما وصف به نفسه ـ غفورٌ رحيمٌ.

وأما قوله: «وأولئك هم الضالون»، فإنه يعني بذلك: وهؤلاء الذين كفرُوا بعد إيمانهم، ثم ازدادوا كفراً، هم الذين ضلوا سبيلَ الحقّ فأخطأوا منهجه، وتركوا نِصْف السبيل[1] وهُدَى الدين، حَيرةً منهم، وعَمىً عنه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ ٱلْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ ٱفْتَدَىٰ بِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ۝٩١﴾

يعني بذلك جل ثناؤه: «إنّ الذين كفروا»، أي: جحدوا نبوة محمدٍ ﷺ ولم يُصَدِّقُوا به وبما جاء به من عندِ الله من أهلِ كُلِّ ملةٍ، يهودها ونصاراها ومجوسها وغيرهم. «وماتوا وهم كفار»، يعني: وماتوا على ذلك من جحود نبوته وجحود ما جاء به. «فلن يُقبلَ من أحدهم مِلْءُ الأرضِ ذَهباً ولو افتدى به»، يقول: فلن يُقْبَلَ مِمَّنْ كان بهذه الصفةِ في الآخرة جَزَاءٌ ولا رِشْوةٌ على تركِ عقوبته على كفره، ولا جُعْلٌ على العفو عنه، ولو كان له من الذهبِ قَدْرُ ما يملأُ الأرضَ من مشرقها إلى مغربها، فرَشَا وجَزَى على ترك عقوبته وفي العفو عنه على كفرهِ عِوَضاً مما اللهُ مُحِلٌّ به من عذابهِ. لأنّ الرُّشا إنما يقبلها مَنْ كان ذَا حاجةٍ إلى مارُشي. فأما مَنْ له الدنيا والآخرة، فكيف يقبلُ الفديةَ، وهو خلاَّقُ كل فدية افتدَى بها مُفْتَدٍ منْ نفسه أو غيره؟

ثم أخبر عز وجل عما لهم عِنْدَهُ فقال: «أولئك»، يعني هؤلاء الذين كفروا وماتوا وهم كفار. «لهم عذابٌ أليم»، يقول: لهم عند الله في الآخرة عذابٌ مُوجِعٌ «وما لهم من ناصرين»، يعني: وما لهم من قريبٍ ولا حميم ولا صديق ينصرهُ فيستنقذه من الله ومن عذابهِ كما كانوا ينصرونه في الدنيا على مَنْ حاول أذاهُ ومكروهه؟

---

(١) قوله: «نصف السبيل»، يعني: وسطه، وهو سواءُ السبيل.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيْءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ٩٢﴾

يعني بذلك جل ثناؤه: لن تدركوا، أيها المؤمنون، البرَّ وهو «البر» من الله الذي يطلبونه منه بطاعتهم إياهُ وعبادتهم له ويرجونه منه، وذلك تَفضُّلهُ عليهم بإدخالِهم جَنَّتَهُ، وصَرْف عذابهِ عنهم.

ولذلك قال كثير من أهلِ التأويلِ «البر»: الجنة، لأن برَّ الربِّ بعبدهِ في الآخرة، إكرامه إياه بإدخاله الجنة.

فتأويل الكلام: لن تنالوا، أيها المؤمنون، جنةَ رَبِّكم «حتى تنفقوا مما تحبون»، يقول: حتى تتصدقوا مما تحبون وتهوَوْن أنْ يكون لكم، من نفيسِ أموالكم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوْرَىٰةُۗ قُلْ فَأْتُواْ بِٱلتَّوْرَىٰةِ فَٱتْلُوهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ٩٣﴾

يعني بذلك جل ثناؤه: أنه لم يكن حرَّم على بني إسرائيل وهم ولد يعقوب بن إسحق بن إبراهيم خليل الرحمن شيئاً من الأطعمةِ من قبل أن تُنَزَّلَ التوراةُ، بل كان ذلك كله لهم حلالاً إلّا ما كان يعقوبُ حَرَّمَهُ على نفسه، فإن وَلده حرَّموه استناناً بأبيهم يعقوب، من غيرِ تحريمِ الله ذلك عليهم في وحيٍ ولا تنزيلٍ، ولا على لسان رسولٍ له إليهم، من قبل نزول التوراة.

وأما قوله: «قُلْ فَأْتُوا بالتوراةِ فاتلوها إنْ كنتم صادقين»، فإن معناه: قل، يامحمد، للزاعمين من اليهود أنّ الله حرم عليهم في التوراة العروقَ ولحومَ الإبل

وألبانها: «ائتوا بالتوراة فاتلوها»، يقول: قل لهم: جِيئُوا بالتوراةِ فاتلُوها، حتى يتبين لمن خفيَ عليه كذبهم وقِيلهم الباطلَ على الله من أمرهم: أنَّ ذلك ليس مما أنزلته في التوراة. «إنْ كنتم صادقين»، يقول: إن كنتم مُحِقِّين في دعواكم أنّ الله أنزل تحريمَ ذلك في التوراة، فأتونا بها، فاتلوا تحريمَ ذلك علينا منها.

وإنما ذلك خبرٌ من الله عن كَذِبهم، لأنهم لا يجيئون بذلك أبداً على صحّته، فأعْلَمَ اللهُ بكذبهم عليه نبيَّهُ ﷺ، وجعلَ إعلامَهُ إياه ذلك حجةً له عليهم. لأن ذلك إذْ كان يخفى على كثيرٍ من أهلِ ملّتهم، فمحمدٌ ﷺ وهو أميٌّ من غيرِ ملتهم، لولا أنَّ الله أعْلَمَهُ ذلك بوحيٍ من عندهِ كان أحرَى أن لا يعلمَه. فكان ذلك لَهُ ﷺ، من أعظمِ الحجةِ عليهم بأنه نبيٌّ لله، ﷺ، إليهم. لأن ذلك من أخبار أوائلهم كان من خفيِّ عُلومهم الذي لا يعلَمُه غيرُ خاصةٍ منهم، إلاّ مَنْ أعْلَمَهُ الذي لا يخفى عليه خافيةٌ من نبيٍّ أو رسول، أو مَنْ أطلعه الله على علمه ممن شاء من خلقه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَمَنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۝٩٤﴾

يعني جل ثناؤه بذلك: فمن كذبَ على الله منا ومنكم، من بعد مجيئكم بالتوراة وتلاوتكم إياها، وَعَدَمِكم ما ادَّعيتم من تحريمِ الله العروقَ ولحومَ الإبل وألبانها فيها، «فأولئك هم الظالمون»، يعني: فمن فعل ذلك منهم، «فأولئك»، يعني: فهؤلاء الذين يفعلون ذلك، «هم الظالمون»، يعني: فهم الكافرون، القائلون على الله الباطل.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ جَلَّ ثناؤهُ: ﴿قُلْ صَدَقَ ٱللَّهُ فَٱتَّبِعُواْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۝٩٥﴾

آل عمران: ٩٥

يعني بذلك جل ثناؤه: «قل»، يامحمدُ «صَدَقَ الله»، فيما أخْبرَنَا به من قولِهِ: «كُلُّ الطعام كان حِلاً لبني إسرائيل»، وأن الله لم يحرم على إسرائيل ولا على ولده العروقَ ولا لحومَ الإبل وألبانَها، وأنَّ ذلك إنما كان شيئاً حرَّمه إسرائيلُ على نفسه وَوَلده بغير تحريمِ الله إياه عليهم في التوراة - وفي كل ما أخبر به عباده من خبر، دونكم. وأنتم، يامعشرَ اليهود، الكذبةُ في إضافتكم تحريم ذلك إلى الله عليكم في التوراة، المفتريةُ على الله الباطل في دعواكم عليه غير الحق، «فاتبعوا ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين»، يقول: فإنْ كنتم، أيها اليهودُ مُحِقِّينَ في دعواكم أنكم على الدِّينِ الذي ارتضاه الله لأنبيائه ورُسله، «فاتبعوا ملة إبراهيم»، خليل الله، فإنكم تعلمون أنه الحَقُّ الذي ارتضَاهُ اللهُ مِنْ خَلْقِه ديناً، وابتعث به أنبياءَه، ذلك الحنيفية - يعني: الاستقامة على الإسلام وشرائعه - دون اليهودية والنصرانية والمشركة.

وقوله: «وما كان من المشركين»، يقول: لم يكن يشرك في عبادته أحداً من خلقه. فكذلك أنتم أيضاً، أيها اليهود، فلا يتخذ بعضكم بعضاً أرباباً من دون الله تُطيعونهم كطاعةِ إبراهيمَ ربَّهُ وأنتم يامعشرَ عَبَدَةِ الأوثان، فلا تتخذوا الأوثانَ والأصنامَ أرباباً، ولا تعبدوا شيئاً من دونِ الله، فإنَّ إبراهيمَ خليل الرحمن كان دينُه إخلاصَ العبادةِ لربه وحدَه، من غير إشراك أحد معه فيه. فكذلك أنتم أيضاً، فأخلصوا له العبادةَ ولا تشركوا معه في العبادةِ أحداً، فإنَّ جميعكم مُقِرُّونَ بأنَّ إبراهيمَ كان على حقٍّ وهَدْي مستقيم، فاتبعوا ماقد أجمع جميعُكم على تصويبه من ملته الحنيفية، ودعوا ما اختلفتُمْ فيه من سائرِ الملل غيرها، أيها الأحزاب، فإنها بِدَعٌ ابتدعتموها إلى ماقد أجمعتم عليه أنه حق، فإن الذي أجمعتم عليه أنه صوابٌ وحقٌّ من ملةِ إبراهيم، هو الحق الذي ارتضيتُه وابتعثتُ به أنبيائي ورسلي، وسائرُ ذلك هو الباطل الذي لا أقبله من أحدٍ من خلقي جاءَني به يوم القيامة.

وإنمـا قال جل ثنـاؤه: «وما كان من المشركين»، يعني: وما كان من عَدَدهم وأوليائهم. وذلـك أن المشركين بعضهم من بعض في التظاهر على كفرهم. ونصرةِ بعضهم بعضاً. فبرأ الله إبراهيمَ خليله أن يكون منهم أو [من] نصـرائهم وأهل ولايتهم، وإنما عنى جل ثناؤه بالمشركين، اليهودَ والنصارَى وسـائـرَ الأديان، غير الحنيفية. قال: لم يكن إبراهيمُ من أهلِ هذه الأديان المشركة، ولكنه كان حنيفاً مسلماً.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٦﴾﴾

ومعنى ذلك: «إنَّ أول بيتٍ وضُعَ للناس»، أي: لعبادةِ الله فيه. «مباركاً وهـدًى»، يعني بذلـك: ومآباً لنُسْك الناسكين وطوافِ الطائفين، تعظيماً لله وإجلالاً له.

وأما قوله: «للذي ببكة مباركاً»، فإنه يعني: للبيت الذي بمُزْدَحم الناس لطوافهم في حجهم وعُمَرهم.

وأصلُ «البَكِّ» الزحم، يقال: منه: «بكَّ فلانٌ فلاناً» إذا زَحَمه وصَدَمه. «فهو يَبُكه بَكًّا، وهم يتباكُّون فيه»، يعني به: يتزاحمون ويتصادمون فيه فكأن «بَكَّة» «فَعْلة» من «بَكَّ فلان فلاناً» زحمه، سُميت البقعة بفعل المزدحمين بها.

فإذ كانت «بكة» ماوصفنا، وكان موضع ازدحام الناس حَوْل البيت، وكان لا طوافَ يجوزُ خارجَ المسجد كان معلوماً بذلك أن يكون ماحَوْل الكعبةِ من داخل المسجد، وأن ما كان خارجَ المسجد فمكة، لا «بكة». لأنه لا معنى خارجَه يُوجِبُ على الناس التَّباكَّ فيه. وإذْ كان ذلك كذلك، كان بَيِّناً بذلك فسادُ قولِ مَنْ قال: «بكة» اسم لبطنِ «مكة»، ومكة اسم للحرم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فِيهِ ءَايَٰتُۢ بَيِّنَٰتٞ مَّقَامُ إِبۡرَٰهِيمَۖ﴾

(يعني): إنّ أول بيت وضُع للناس مباركاً وهدًى للعالمين، للّذي ببكة، فيه علاماتٌ بيناتٌ من قدرةِ اللهِ وآثارِ خليله إبراهيم، منهن قَدَم خليله إبراهيم ﷺ في الحِجْرِ الذي قامَ عليه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنٗاۗ﴾

(يعني): فيه آيتٌ بينات مقامُ إبراهيم، ومَنْ يدخلهُ من الناسِ مستجيراً به، يكن آمناً مما استجارَ منه ما كانَ فيه، حتى يخرجَ منه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلۡبَيۡتِ مَنِ ٱسۡتَطَاعَ إِلَيۡهِ سَبِيلٗاۚ﴾

يعني بذلك جل ثناؤه: وفرضٌ واجبٌ لله ـ على مَنِ استطاع من أهلِ التكليفِ السبيلَ إلى حجّ بيته الحرام ـ الحجُّ إليه.

واختلف أهل التأويل في تأويل قوله عز وجل: «من استطاع إليه سبيلًا»، وما السبيل التي يجبُ مع استطاعتها فرض الحج؟

وأوْلى الأقوالِ في ذلك عندنا بالصواب: إنَّ ذلك على قَدْرِ الطاقة، لأنَّ «السبيلَ» في كلامِ العرب: الطريقُ، فَمَنْ كان واجداً طريقاً إلى الحج لا مانعَ له منه من زَمانةٍ، أو عَجْزٍ، أو عدوٍّ، أو قلةِ ماء في طريقه، أو زادٍ، أو ضَعْفٍ عن المشي، فعليه فرضُ الحج، لا يجزيه إلا أداؤهُ. فإنْ لم يكن واجداً سبيلاً ـ أعني بذلـك: فإن لم يكنْ مُطِيقاً الحجَّ، بتعذُّرِ بعضِ هذه المعاني التي

وصفناها عليه - فهو مِمَّنْ لا يجدُ إليه طريقاً ولا يستطيعه. لأنَّ الاستطاعةَ إلى ذلك، هو القُدرة عليه. ومَنْ كان عاجزاً عنه ببعضِ الأسبابِ التي ذكرنا أو بغير ذلك، فهو غير مُطيقٍ ولا مستطيعٍ إليه السبيلَ.

وإنما قلنا: هذه المقالة أوْلَى بالصحةِ مِمَّا خالفها، لأنَّ الله عَزَّ وجل لم يخصُص، إذ ألزم الناسَ فرضَ الحج، بعض مستطيعي السبيل إليه بسقوطِ فرضِ ذلك عنه. فذلك على كُلِّ مستطيعٍ إليه سبيلاً بعموم الآية.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ 

يعني بذلـك جل ثناؤه: ومَنْ جَحد ما ألزمه اللهُ من فَرْضِ حَجِّ بيته، فأنكرَهُ وكَفَرَ به، فإنَّ الله غنيٌّ عنه وعن حَجِّه وعملِهِ، وعن سائرِ خَلْقِه من الجن والإنس.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٨﴾﴾

يعني بذلـك: يامعشـر يهود بني إسرائيل وغيرهم من سائر مَنْ ينتحلُ الدِّيانة بما أنزلَ اللهُ عَزَّ وجَلَّ من كتبه، مِمَّنْ كفرَ بمحمدٍ ﷺ وجحد نبوَّته: «لِمَ تكفـرون بآيات الله»، يقول: لِمَ تجحدون حُججَ الله التي آتاها محمداً في كتبكم وغيرهـا، التي قد ثبتت عليكم بصدقهِ ونبوَّته وحُجتِهِ. وأنتم تعلمون: يقول: لِمَ تجحدون ذلك من أمرهِ، وأنتم تعلمون صِدْقَهُ؟ فأخبر جَلَّ ثناؤه عنهم أنهم متعمِّدون الكفرَ بالله وبرسوله على عِلْمٍ منهم، ومعرفةٍ من كفرهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنتُمْ شُهَدَآءُ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ 

يعني بذلك جل ثناؤه: يامعشر يهود بني إسرائيل وغيرهم ممن ينتحلُ التصديقَ بكتب الله: «لم تصدُّون عن سبيل الله»، يقول: لم تُضِلُّون عن طريقِ الله ومحجَّته التي شرَعها لأنبيائه وأوليائه وأهل الإيمان. «مَنْ آمن»، يقول: من صَدَّقَ باللهِ ورَسوله وما جاءَ به من عندِ الله. «تَبْغُونَها عِوَجاً»، يعني: تبغون لها عِوَجاً[1].

وأما قوله: «وأنتم شهداء». فإنه يعني: شهداء على أنَّ الذي تَصُدُّونَ عنه من السبيلِ حقٌّ، تَعْلَمُونَهُ وتَجِدُونَهُ في كتبكم. «وما اللهُ بغافلٍ عما تعملون»، يقول: ليس الله بغافلٍ عن أعمالكم التي تعملونها مِمَّا لا يرضاه لعبادهِ وغير ذلك من أعمالكم، حتى يعاجِلَكُم بالعقوبةِ عليها معجَّلة، أو يُؤَخِّرَ ذلك لكم حتى تلقَوْهُ فيجازيكم عليها.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تُطِيعُوا۟ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ كَٰفِرِينَ﴾ ﴿١٠٠﴾

فتأويل الآية: يا أيها الذين صَدَّقُوا الله ورسوله، وأقَرُّوا بما جاءهم به نَبيُّهم ﷺ من عند الله، إنْ تُطِيعوا جماعةً ممن ينتحلُ الكتابَ من أهلِ التوراةِ والإنجيلِ، فَتَقبلُوا منهم ما يأمرونكم به، يُضِلُّوكم فيردُّوكم بعد تصديقكم رسولَ

(١) انظر معاني القرآن للزجاج: ١/٤٤٧.

رَبِّكم، وبعد إقراركم بما جاء به من عندِ رَبِّكم، كافرينَ، يقول: جاحدينَ لما قد آمنتم به وصدَّقتُموه من الحقِّ الذي جاءكم من عند ربكم. فنهاهم جَلَّ ثناؤه: أنْ ينتصِحُوهم ويقبلوا منهم رأياً أو مشورةً، ويعلِّمهم تعالى ذِكْرُه أنهم لهم منطوُون على غِلٍّ وغِشٍ وحسدٍ وبُغْض.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ عزَّ وجلَّ: ﴿وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُۥ وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ١٠١﴾

يعني بذلك جَلَّ ثناؤه: «وكيف تكفرون»، أيها المؤمنون بعد إيمانِكم بالله وبرسوله، فترتدُّوا على أعقابِكم. «وأنتم تُتْلَى عليكم آياتُ الله»، يعني حججَ الله عليكم التي أنزلها في كتابِهِ على نبيهِ محمدٍ ﷺ. «وفيكم رسوله»، حجةٌ أخرَى عليكم لله، مع آيِ كتابه، يدعوكم جميعُ ذلك إلى الحقِّ، ويُبَصِّركُم الهدَى والرَّشاد، وينهاكم عن الغيِّ والضلال؟ يقول لهم تعالى ذِكْرُه: فما وجه عُذْرِكُم عند رَبِّكم في جحودكم نُبُوَّةَ نبيِّكم، وارتدادكم على أعقابكم، ورجوعكم إلى أمْرِ جاهِليَّتكم، إنْ أنتم راجعتم ذلك وكفرتم، وفيه هذه الحججُ الواضحة والآياتُ البينة على خطأ فِعْلِكم ذلك إنْ فعلمتوه؟

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ١٠٢﴾

يعني بذلك جل ثناؤه: يامَعْشَرَ مَنْ صَدَّقَ الله ورسوله. «اتقوا الله»، خَافُوا الله وراقبوه بطاعتهِ واجتناب معاصيه. «حَقَّ تُقاته»، حقَّ خوفِهِ، وهو أن يُطاع فلا يُعْصَى، ويُشكر فلا يُكْفَر، ويُذكر فلا يُنسى. «ولا تموتن»، أيها المؤمنون

بالله ورسوله. «إلا وأنتم مسلمون» لربكم، مُذْعِنُونَ له بالطاعة، مخلصون له الألوهة والعبادة.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا﴾

يعني بذلك جل ثناؤه: وتَعَلَّقُوا بأسبابِ الله جميعاً. يريد بذلك تعالى ذِكْرُه: وتمسَّكُوا بدين الله الذي أمركم به، وعهدِه[1] الذي عَهِدَهُ إليكم في كتابه إليكم، من الأُلْفَةِ والاجتماعِ على كلمة الحقِّ، والتسليمِ لأمر الله.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَا تَفَرَّقُواْ﴾

يعني جلَّ ثناؤه: بقوله: «ولا تفرقوا»، ولا تتفرقوا عن دينِ الله وعهدهِ الذي عَهِدَ إليكم في كتابِه، من الائتلافِ والاجتماعِ على طاعته وطاعة رسوله ﷺ، والانتهاء إلى أمره.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا﴾

وتأويل ذلك: واذْكُروا، أيها المؤمنونَ، نِعْمَةَ الله عليكم التي أنعمَ بها عليكم حين كنتم أعداء في شِرْكِكُم، يقتلُ بعضُكم بعضاً عصبيةً في غير طاعة الله ولا طاعةِ رسوله، فألَّفَ اللهُ بالإسلام بين قلوبكم، فجعل بعضكم لبعضٍ إخواناً بعد إذ كنتم أعداءً، تتواصلون بأُلْفَةِ الإسلامِ واجتماعِ كلمتِكم عليه.

---

(١) لأن الحبل في لغة العرب: العهد ويُنظر معاني القرآن للزجاج: ١/٤٥٠.

فَذَكَّرهم جَلَّ ثناؤه إذْ وَعَظَهُم، عظيمَ ما كانوا فيه في جاهليتهم من البلاءِ والشقاءِ بمعاداةِ بعضِهم بعضاً، وقَتْلِ بعضهم بعضاً، وخوفِ بعضِهم من بعض، وما صارُوا إليه بالإسلامِ واتباعِ الرَّسولِ ﷺ، والإيمانِ به وبما جاء به، من الائتلافِ والاجتماعِ، وأمْنِ بعضِهم من بعضٍ، ومصيرِ بعضِهم لبعضٍ إخواناً.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا﴾

يعني بقوله جل ثناؤه: «وكنتم على شفا حفرةٍ من النار»، وكنتم، يامعشرَ المؤمنينَ، من الأوسِ والخزرج، على حَرْف حُفرةٍ[1] من النار. وإنما ذلك مثَلٌ لِكُفْرِهم الذي كانوا عليه قبل أنْ يهديهم اللهُ للإسلام. يقول تعالى ذِكْرُه: وكنتم على طَرفِ جهنمَ بكفركم الذي كنتم عليه قبل أنْ يُنعم اللهُ عليكم بالإسلامِ، فتصيرُوا بائتـلافكم عليه إخواناً، ليس بينكم وبين الوقوع فيها إلَّا أنْ تَموتُوا على ذلك من كفركم، فتكونُوا من الخالدينَ فيها، فأنقذكم الله منها بالإيمان الذي هَدَاكُم له.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ۝١٠٣﴾

يعني جل ثناؤه بقوله: «كذلك»، كما بَيَّنَ لكم ربكم في هذه الآيات، أيهـا المؤمنـون من الأوس والخـزرج، من غِلِّ اليهـود الذي يُضْمِرُونَهُ لكم،

(١) الحرف: هو من كل شيء طرفه وشفيره وحده وجانبه.

وغِشّهم لكم، وأمره إيَّاكُم بما أمَرَكُم به فيها ونهيه لكم عَمَّا نهاكم عنه، والحال التي كنتم عليها في جاهليتكم، والتي صرتم إليها في إسلامكم ـ مُعَرِّفَكم في كل ذلك مواقعَ نِعَمِهِ قِبَلكُم وصنائعه لديكم ـ فكذلك يبينُ سائر حججِه لكم في تنزيله وعلى لسانِ رسولِه ﷺ. «لعلكم تهتدون»، يعني: لتهتدُوا إلى سبيلِ الرَّشاد وتَسْلكوها، فلا تَضِلُّوا عنها.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾﴾

يعني بذلك جل ثناؤه: «ولتكن منكم» أيها المؤمنون. «أمةٌ»، يقول: جماعةٌ. «يدعون» الناسَ. «إلى الخيرِ»، يعني إلى الإسلامِ وشرائعه التي شرعها الله لعباده. «ويأمرون بالمعروف»، يقول: يأمرون الناسَ باتباعِ محمدٍ ﷺ ودينه الذي جاء به من عند الله. «وينهون عن المنكر»، يعني: وينهون عن الكفر باللهِ والتكذيبِ بمحمدٍ وبما جاء به من عند الله، بجهادهم بالأيدي والجوارحِ حتى ينقادُوا لكم بالطاعة.

وقوله: «وأولئك هم المفلحون»، يعني المُنْجِحُونَ عند الله الباقون في جناته ونعيمه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ ۚ وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٥﴾﴾

يعني بذلك جَلَّ ثناؤه: «ولا تكونوا»، يامعشرَ الذين آمنوا. «كالذين تفرقوا» من أهلِ الكتاب. «واختلفوا» في دينِ الله وأمرِه ونهيِه. «من بعد

ماجاءهم البينات»، من حججِ الله فيما اختلفوا فيه، وعَلِموا الحقَّ فيه فتَعَمَّدُوا خِلافَهُ، وخالَفُوا أمرَ الله، ونقضوا عَهْدَهُ وميثاقَهُ جَرَاءةً على الله. «وأولئك لهم»، يعني: ولهؤلاء الذين تفرقوا واختلفوا من أهلِ الكتاب من بعد ماجاءهم. «عذابٌ» من عند الله. «عظيم»، يقول جل ثناؤه: فلا تتفرقوا، يامعشرَ المؤمنين، في دينكم تفرُّق هؤلاء في دينهم، ولا تفعلوا فِعْلَهُم، وتَسْتَنُّوا في دينكم بِسُنَّتِهم، فيكون لكم من عذابِ الله العظيم مثل الذي لهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿١٠٦﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِى رَحْمَةِ ٱللَّهِ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿١٠٧﴾﴾

(يعني): أولئك لهم عذاب عظيمٌ في يومٍ تبيضُّ وجوهُ قومٍ وتسودُّ وجوه آخرين. فأما الذين اسْوَدَّتْ وجوههم، فيقال: أجَحدتم توحيدَ الله وعهدَهُ وميثاقَهُ الذي واثقتموه عليه، بأنْ لا تُشْرِكُوا به شيئاً، وتُخْلِصُوا له العبادةَ ـ بعد إيمانكم ـ يعني: بعد تصديقكم به؟ «فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون»، يقول: بما كنتم تجحدونَ في الدنيا ما كان الله قد أخذ ميثاقكم بالإقرار به والتصديق. «وأما الذين ابيضَّت وجوههم» ممن ثبتَ على عهدِ الله وميثاقه، فلم يبدِّل دينه، ولم ينقلب على عَقِبيه بعد الإقرار بالتوحيد، والشهادةِ لربه بالألوهة، وأنه لا إله غيره. «ففي رحمة الله»، يقول: فهمْ في رحمةِ الله، يعني: في جنته ونعيمها وما أعَدَّ الله لأهلها فيها. «هم فيها خالدون»، أي: باقونَ فيها أبداً بغيرِ نهايةٍ ولا غاية.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿تِلْكَ ءَايَـٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ وَمَا

﴿ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَٰلَمِينَ ١٠٨﴾

وإنما يعني بقوله: «تلك آيات الله»، هذه الآيات التي ذكر فيها أمورَ المؤمنين من أنصارِ رسولِ الله ﷺ وأمور يهود بني إسرائيل وأهل الكتاب، وما هو فاعلٌ بأهلِ الوفاء بعهدهِ، وبالمبدِّلينَ دِينَهُ، والناقضينَ عهدَهُ بعد الإقرار به.

ثم أخبر عز وجل نبيه محمداً ﷺ أنه يتلو ذلك عليه بالحق، وأعلمه أنَّ مَنْ عاقبَ من خَلْقِه بما أخبر أنه مُعَاقِبُهُ به: من تسويدِ وجههِ، وتخليدهِ في أليمِ عذابهِ وعظيمِ عقابهِ ـ ومَنْ جازاه منهم بما جازاه: من تبييضِ وجههِ وتكريمهِ وتشريفِ منزلتهِ لديه، بتخليدهِ في دائمِ نعيمه، فبغيرِ ظلمٍ منه لفريقٍ منهم، بل بحقٍّ استوجبوه، وأعمالٍ لهم سلفت جازاهم عليها، فقال تعالى ذكره: «وما اللهُ يريدُ ظلماً للعالمين»، يعني بذلك: وليس الله يامحمد ـ بتسويدِ وجوهِ هؤلاء وإذاقَتِهم العذابَ العظيم، وتبييض وجوه هؤلاء وتنعيمه إيَّاهُم في جنته ـ طالباً وضعَ شيءٍ مما فعل من ذلك في غيرِ موضعهِ الذي هو موضعه ـ إعلاماً بذلك عبادَهُ أنه لَنْ يصلح في حكمته بخلقه غير ماوَعَدَ أهلَ طاعتهِ والإيمان به، وغير ما أوْعَدَ أهلَ معصيتهِ والكفر به، وإنذاراً منه هؤلاء، وتبشيراً منه هؤلاء.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ عزَّ وجلَّ: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ١٠٩﴾

يعني بذلك جل ثناؤه: أنه يعاقبُ الذين كفروا بعد إيمانهم بما ذكر أنه مُعَاقِبهم به من العذابِ العظيم وتسويدِ الوجوه، ويثيب أهلَ الإيمانِ به الذين ثبتُوا على التصديقِ والوفاءِ بعهودِهم التي عاهدوا عليها بما وصفَ أنه مُثِيبهم به من الخلودِ في جِنانهِ، من غيرِ ظلمٍ منه لأحدِ الفريقين فيما فعل، لأنه لا

حاجةَ به إلى الظلم. وذلك أنَّ الظالمَ إنما يظلمُ غيرَهُ ليزدادَ إلى عِزِّهِ عزةً بظلمهِ إياه، أو إلى سلطانهِ سلطاناً، أو إلى مُلْكِه ملكاً، أو إلى نقصانٍ في بعض أسبابه يتمم بها ظُلْمَ غيره فيه ما كان ناقصاً من أسبابهِ عن التمام. فأما مَنْ كان له جميع ما بينَ أقطارِ المشارقِ والمغاربِ، وما في الدنيا والآخرة، فلا معنى لِظُلْمِهِ أحداً، فيجوز أنْ يظلمَ شيئاً، لأنه ليس من أسبابه شيءٌ ناقصٌ يحتاجُ إلى تمامٍ، فيتم ذلك بظُلْمِ غيره، تعالى اللهُ عُلُوًّا كبيراً. ولذلك قال جل ثناؤه عَقِيب قولـه: «ومـا اللهُ يريدُ ظلماً للعالمين»، «ولله ما في السموات وما في الأرض وإلى الله تُرْجَعُ الأمورُ».

وأما قوله: «وإلى الله ترجع الأمور» فإنه يعني تعالى ذكره: إلى الله مصيرُ أمرِ جميعِ خَلْقِه، الصالح منهم والطالح، والمحسن والمسيء، فيجازي كلاًّ على قَدْرِ استحقاقهم منه الجزاء، بغير ظلمٍ منه أحداً منهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ جَلَّ ثناؤهُ: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾

اختلف أهل التأويل في تأويل قوله: «كنتم خير أمة أخرجت للناس».

فقال بعضهم: هم الذين هَاجَرُوا مع رسولِ الله ﷺ من مكةَ إلى المدينة خاصةً، من أصحابِ رسول الله ﷺ.

وقال آخرون: معنى ذلك: كنتم خير أمة أخرجت للناس، إذا كنتم بهذه الشروطِ التي وصفهم جَلَّ ثناؤه بها. فكان تأويل ذلك عندهم: كنتم خير أمة تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله، أُخْرِجُوا للناس في زمانكم.

وقال آخرون: إنما قيل: «كنتم خير أمة أخرجت للناس»، لأنهم أكثر الأمم استجابةً للإسلام.

وقال بعضهم: عَنَى بذلك أنهم كانوا خير أمة أخرجت للناس.

وأولى هذه الأقوال بتأويل الآية (قول من قال): إنهم كانوا خير أمةٍ أُخرجت للناس[1].

وأما قوله: «تأمرون بالمعروف»، فإنه يعني: تأمرون بالإيمانِ بالله ورسولهِ والعملِ بشرائعه. «وتنهون عن المنكر»، يعني: وتنهون عن الشركِ بالله، وتكذيبِ رسولهِ، وعن العملِ بما نهى عنه.

فإنْ سأل سائلٌ فقال: وكيف قِيلَ: «كنتم خير أمة»، وقد زَعَمْتَ أنَّ تأويلَ الآية: إنَّ هذه الأمةَ خيرُ الأممِ التي مضت، وإنما يقال: «كنتم خير أمة»، لقومٍ كانوا خياراً فتغيَّرُوا عما كانوا عليه؟

قيل: إنَّ معنى ذلك بخلافِ ماذهبتَ إليه: ، وإنما معناه: أنتم خير أمة، كما قيل: ﴿وَٱذْكُرُوا إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ﴾ [الأنفال: ٢٦]، وقد قال في موضع آخر: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلاً فَكَثَّرَكُمْ﴾ [الأعراف: ٨٦]، فإدخالُ «كان» في مِثْلِ هذا

---

(١) لحديث بهز بن حكيم عن أبيه عن جده، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ألا إنكم وفيتم سبعين أمة، أنتم آخرها وأكرمها على الله». وهو حديث حسن أخرجه الطبري (٨٧٣) و(٧٦٢١) و(٧٦٢٢)، وأحمد: ٣/٥ و٢٥، والدارمي: ٢/٣١٢، وابن ماجة (٤٢٨٧) و(٤٢٨٨)، والترمذي (٣٠٠١) وحسّنه، والحاكم: ٤/٨٤ وصححه ووافقه الذهبي. وبهز يُتابع عليه عند أحمد: ٤/٤٤٧، وينظر فتح الباري: ٨/٢٢٥. وجده هو الصحابي معاوية بن حيدة القشيري كما في تهذيب الكمال: ٢٨/١٧٢.

وإسقاطها بمعنىً واحد، لأنَّ الكلامَ معروف معناه[1].

ولو قال أيضاً في ذلك قائل: «كنتم»، بمعنى التمام، كان تأويله: خُلِقْتُم خيرَ أمةٍ، أو: وُجِدْتُم خيرَ أمة، كان معنى صحيحاً.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ ٱلْكِتَـٰبِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم ۚ مِّنْهُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ ﴿١١٠﴾﴾

يعني بذلك تعالى ذكره: ولو صدَّق أهلُ التوراةِ والإنجيل من اليهود والنصارى بمحمدٍ ﷺ وما جاءهم به من عند الله، لكان خيراً لهم عند الله في عاجلِ دُنْياهم وآجلِ آخرتهم. «منهم المؤمنون»، يعني: من أهلِ الكتابِ من اليهود والنصارى، المؤمنون المُصَدِّقُونَ رسولَ الله ﷺ فيما جاءهم به من عند الله، وهم: عبدالله بن سَلَام وأخوه، وثعلبة بن سَعْيَة وأخوه، وأشباههم مِمَّنْ آمنوا بالله وصَدَّقوا برسولِه محمدٍ ﷺ، واتَّبَعُوا ما جاءهم به من عندِ الله. «وأكثرهم الفاسقون»، يعني: الخارجون عن دينهم. وذلك أنَّ من دينِ اليهود اتباعُ ما في التوراةِ والتصديقُ بمحمدٍ ﷺ، ومن دينِ النصارى اتباعُ مافي الإنجيل، والتصديق به وبما في التوراة، وفي كلا الكتابين صفةُ محمدٍ ﷺ ونَعْته ومبعثه، وأنه نبيُّ الله. وكلتا الفرقتين - أعني اليهود والنصارى - مكذِّبةٌ، فذلك فِسْقُهم وخروجهم عن دينهم الذي يَدَّعُونَ أنهم يَدِينونَ به، الذي قال جَلَّ ثناؤه: «وأكثرهم الفاسقون».

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّآ أَذًى ۖ﴾

---

(١) ينظر معاني القرآن للفراء ١/ ٢٢٩.

يعني بذلك جل ثناؤه: لَنْ يضركم، ياأهلَ الإيمانِ باللهِ ورسولِهِ، هؤلاء الفاسقون من أهلِ الكتابِ بكفرهم وتكذيبهم نبيَّكم محمداً ﷺ شيئاً. «إلا أذى»، يعني بذلك: ولكنهم يُؤْذُونَكُم بشِرْكِهم، وإسماعِكُم كُفْرَهُم، وقولهم في عيسى وأمه وعُزير، ودعائِهم إيَّاكُم إلى الضلالةِ، ولَنْ يَضُرُّوكُم بذلك.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تعَالَى: ﴿وَإِن يُقَٰتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ ٱلْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ١١١﴾

يعني بذلك جل ثناؤه: وإنْ يقاتلكم أهلُ الكتابِ من اليهودِ والنصارى يُهْزَمُوا عنكم، فَيُولُّوكُم أدبارَهُم انهزاماً.

فقوله: «يولوكم الأدبار»، كناية عن انهزامهم، لأنَّ المنهزمَ يُحوِّلُ ظَهْرَهُ إلى جهةِ الطالبِ هرباً إلى ملجأ وموئلٍ يَئِلُ إليه منه، خوفاً على نفسه، والطالبُ في أثره. فدبُرُ المطلوبِ حينئذٍ يكون محاذيَ وجهِ الطالبِ الهازِمِه.

«ثم لا يُنْصَرُونَ»، يعني: ثم لا ينصرهم الله، أيها المؤمنون، عليكم، لكفرهم بالله ورسوله، وإيمانكم بما آتاكم نَبيكم محمد ﷺ. لأنَّ الله عز وجل قد ألقى الرُّعْبَ في قلوبِهم، فأيَّدكُم أيها المؤمنون بنصركم.

وهذا وَعْدٌ من الله تعالى ذِكْرُه نبيه محمداً ﷺ وأهلَ الإيمانِ، نصرَهم على الكَفَرَةِ به من أهلِ الكتاب.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تعَالَى: ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓاْ إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾

يعني بقوله جَلَّ ثناؤه: «ضُربت عليهم الذلةُ»، أُلزِمُوا الذلَّةَ. «أينما ثُقِفُوا»

حيثما لُقُوا.

يعني جل ثناؤه: أُلزِمَ اليهودُ المكذبون بمحمدٍ ﷺ الذلة أينما كانوا من الأرض، وبأيِّ مكانٍ من بقاعها، من بلاد المسلمين والمشركين «إلّا بحبلٍ من الله وحبلٍ من الناس».

وأما «الحبل» الذي ذكره الله في هذا الموضع، فإنه السبب الذي يأمنون به على أنفسهم من المؤمنين وعلى أموالهم وذراريهم، من عهدٍ وأمانٍ تَقَدَّمَ لهم عَقْدُه قبل أن يُثْقفُوا في بلاد الإسلام.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَالَى: ﴿وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْمَسْكَنَةُ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ۚ﴾

فتأويل الكلام: أُلْزِمُوا الذِلَّةَ بأيِّ مكانٍ لُقوا، إلا بذمةٍ من الله وذمةٍ من الناس، وانصرفوا بغضبٍ من الله مُتَحَمِّليه، وأُلْزِمُوا ذُلَّ الفاقةِ وخشوعَ الفَقْرِ، بدلًا مما كانوا يجحدون بآياتِ اللهِ وأدِلَّتهِ وحُجَجِهِ، ويقتلون أنبياءَهُ بغير حَقٍّ ظُلماً واعتداءً.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿١١٢﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: فَعَلْنا بهم ذلك بِكُفْرِهم، وقتلِهم الأنبياءَ، ومعصيتهم ربَّهم، واعتدائهم أمرَ رَبِّهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَيْسُوا سَوَآءً مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾﴾

وإنما قيل: «ليسوا سواء»، لأن فيه ذِكْرَ الفريقين من أهلِ الكتاب اللذين ذكرهما الله في قوله: ﴿وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الفَاسِقُونَ﴾ [آل عمران: ١١٠]، ثم أخبر جل ثناؤه عن حال الفريقين عنده، المؤمنة منهما والكافرة فقال: «ليسوا سواء»، أي: ليس هؤلاء سواء، المؤمنون منهم والكافرون. ثم ابتدأ الخبرَ جَلَّ ثناؤه عن صِفَةِ الفِرْقةِ المؤمنةِ من أهلِ الكتابِ، ومدحَهم وأثنى عليهم، بعد ما وصَفَ الفِرْقةَ الفاسقةَ منهم بما وصَفَهَا به من الهَلَعِ، ونَخْب[1] الجنان، ومحالفةِ الذلِّ والصَّغارِ، وملازمةِ الفاقةِ والمَسْكنةِ، وتحمل خِزْيِ الدنيا وفضيحةِ الآخرة، فقال: «مِنْ أهلِ الكتاب أمَّة قائمـةٌ يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون»، الآيات الثلاث إلى قوله: «والله عليم بالمتقين»، وغير ذلك من أسبابِ الخيرِ، من صفةِ أهلِ الاستقامةِ على كتابِ الله وسنةِ رسولِ الله ﷺ.

فتأويل الكلام: مِنْ أهلِ الكتابِ جماعةٌ معتصمةٌ بكتابِ الله، متمسكةٌ به، ثابتةٌ على العملِ بما فيه وما سَنَّ لهم رسولُه ﷺ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾﴾

يعني بقوله: «يتلون آيات الله»، يقرأون كتابَ الله آناءَ الليلِ. ويعني

---

(١) النخب: الجُبن وضَعْفُ القلب.

بقوله: «آيات الله»، ما أنزل في كتابه من العِبَر والمواعظِ. يقول: يتلون ذلك آناءَ الليلِ، يقول: في ساعاتِ الليلِ فيتدبَّرُونَهُ ويتفكَّرونَ فيه.

وأما «آناء الليل»، فساعاتُ الليل، واحدها «إنْيٌ».

واختلف أهل التأويل في تأويل ذلك:

فقال بعضهم: تأويله: ساعات الليل، كما قلنا.

وقال آخرون: «آناء الليل»، جوف الليل.

وقال آخرون: بل عُنِيَ بذلك قومٌ كانوا يُصَلُّونَ العشاء الآخرة.

وهذه الأقوال التي ذكرتُها على اختلافِها، متقاربةُ المعاني. وذلك أنَّ الله تعالى ذِكْرُه وصَفَ هؤلاء القوم بأنهم يتلونَ آياتِ اللهِ في ساعاتِ الليلِ، وهي آناؤه، وقد يكون تَالِيها في صلاةِ العشاء تالياً لها آناءَ الليل، وكذلك مَنْ تلاها فيما بين المغرب والعشاء، ومَنْ تلاها جوفَ الليل، فكلٌّ تالٍ له ساعات الليل. غير أنَّ أوْلى الأقوالِ بتأويلِ الآية، قولُ مَنْ قال: «عَنَى بذلك تلاوةَ القرآن في صلاة العشاء»، لأنها صلاةٌ لا يصليِّها أحدٌ من أهل الكتاب، فوصف اللهُ أمةَ محمدٍ ﷺ بأنهم يصلونها دونَ أهلِ الكتابِ الذين كفروا بالله ورسوله.

وأما قوله: «وهم يسجدون»، فإنَّ بعضَ أهلِ العربيةِ زعم أنَّ معنى «السجود» في هذا الموضع، اسمٌ للصلاة لا للسجود، لأنَّ التلاوةَ لا تكون في السجود ولا في الركوع. فكان معنى الكلام عنده: يتلون آياتِ الله آناءَ الليلِ وهم يُصَلُّونَ[1].

وليس المعنى على ماذهب إليه، وإنما معنى الكلام: مِنْ أهلِ الكتاب

---

(١) هذا هو قول الفراء في معاني القرآن: ١/٢٣١.

أمةٌ قائمة يتلون آياتِ الله آناء الليل في صلاتهم، وهم مع ذلك يسجدونَ فيها، فـ «السجود»، هو «السجود» المعروفُ في الصلاة.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَأُوْلَٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ١١٤﴾

يعني بقوله جل وعز: «يؤمنون بالله واليوم الآخر»، يُصَدِّقُونَ بالله وبالبعثِ بعد المماتِ، ويعلمون أنَّ الله مُجازِيهم بأعمالِهم، وليسوا كالمشركين الذين يَجْحدُون وحدانيةَ الله، ويعبدونَ معه غيره، ويكَذِّبون بالبعثِ بعد المماتِ، ويُنْكِرون المجازاة على الأعمال، والثوابَ والعقابَ.

وقوله: «ويأمرون بالمعروف»، يقول: يأمرون الناسَ بالإيمانِ بالله ورسولِهِ، وتصديق محمدٍ ﷺ وما جاءهم به. «وينهون عن المنكر»، يقول: وينهون الناسَ عن الكفرِ بالله، وتكذيبِ محمدٍ وما جاءهم به من عند الله، يعني بذلك: أنهم ليسوا كاليهود والنصارى الذين يأمرون الناس بالكفر وتكذيب محمد فيما جاءهم به، ويَنْهَونَهم عن المعروف من الأعمال، وهو تصديقُ محمدٍ فيما أتاهم به من عند الله. «ويسارعون في الخيرات»، يقول: ويبتدرون فِعْلَ الخيراتِ خشيةَ أنْ يفوتهم ذلك قبل معاجلتهم مَنَايَاهُم.

ثم أخبر جل ثناؤه أنَّ هؤلاء الذين هذه صِفَتُهم من أهلِ الكتابِ، هم من عِدَادِ الصالحينَ، لأنَّ مَنْ كان منهم فاسقاً، قد باء بغضبٍ من الله لِكُفْرِهِ بالله وآياتهِ، وقتلهم بغير حق، وعصيانهِ ربَّهُ واعتدائه في حدوده.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ ﴿١١٥﴾﴾

(يعني): وما تفعل هذه الأمةُ من خير، وتعملْ من عملٍ لله فيه رضىً، فلن يَكْفُرَهم اللهُ ذلك. يعني بذلك: فلن يُبْطِلَ اللهُ ثوابَ عملِهم ذلك، ولا يَدَعُهم بغيرِ جزاءٍ منه لهم عليه، ولكنه يُجْزِلُ لهم الثوابَ عليه، ويُسْنِي[1] لهم الكَرَامة والجزاء.

وأما قوله: «والله عليم بالمتقين»، فإنه يقول تعالى ذِكْرُه: والله ذُو عِلْمٍ بمن اتقاه، لطاعتهِ واجتنابِ معاصيه، وحافظٌ أعمالَهم الصالحةَ حتى يُثِيبَهُم عليها ويجازيهم بها، تبشيراً منه لهم جَلَّ ذِكْرُه في عاجلِ الدنيا، وحضًا لهم على التمسك بالذي هم عليه من صالحِ الأخلاقِ التي ارتضاها لهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١١٦﴾﴾

وهذا وعيدٌ من الله عَزَّ وجل للأمةِ الأخرى الفاسقة من أهلِ الكتابِ، الذين أخبرَ عنهم بأنهم فاسقون، وأنهم قد بَاؤوا بغضبٍ منه، ولمن كان من نُظَرائِهم من أهلِ الكفرِ بالله ورسوله وما جاء به محمدٌ ﷺ من عند الله.

يقول تعالى ذكره: «إن الذين كفروا»، يعني: الذين جَحَدوا نبوةَ محمدٍ ﷺ وكَذَّبُوا به وبما جاءهم به من عندِ الله. «لن تغني عنهم أموالُهم ولا أولادهم

(١) السناء: الرفعة. وأسناه: رفعه، فمعناه: يرفع لهم الكرامة والجزاء.

من الله شيئاً»، يعني: لَنْ تدفعَ أموالُه التي جمعها في الدنيا، وأولادُه الذين ربَّاهم فيها، شيئاً من عقوبةِ الله يومَ القيامةِ إنْ أخَّرَها لهم إلى يوم القيامة، ولا في الدنيا إنْ عَجَّلها لهم فيها.

وإنما خَصَّ أولادَهُ وأموالَهُ، لأنَّ أولادَ الرجلِ أقربُ أنسبائهِ إليه، وهو على مالهِ أَقْدَرُ منه على مالِ غيرِهِ، وأمرهُ فيه أجوزُ من أمرهِ في مالِ غيره. فإذا لم يُغْنِ عنه ولَدُهُ لِصُلْبهِ، ومالُه الذي هو نافذُ الأمرِ فيه، فغيرُ ذلك من أقربائهِ وسائرِ أنسبائهِ وأموالِهم، أبعد من أنْ تُغْنِيَ عنه من الله شيئاً.

ثم أخبرَ جَلَّ ثناؤه أنهم هم أهل النار الذين هم أهلها بقوله: «وأولئك أصحابُ النارِ»، وإنما جَعلهم أصحابَها، لأنهم أهلها الذينَ لا يخرجون منها ولا يفارقونها، كصاحبِ الرجلِ الذي لا يفارقه، وقرينهِ الذي لا يُزَايِلُه. ثم وَكَّدَ ذلك بإخبارهِ عنهم أنهم «فيها خالدون»، أنَّ صُحْبَتَهُم إياها صحبةٌ لا انقطاعَ لها، إذْ كان من الأشياء ما يفارقُ صاحبَهُ في بعض الأحوالِ، ويُزايله في بعض الأوقات، وليس كذلك صُحبةُ الذين كفروا النارَ التي أُصْلُوها، ولكنها صحبةٌ دائمةٌ لا نهايةَ لها ولا انقطاع. نعوذُ بالله مِنها ومما قَرَّبَ منها مِنْ قولٍ وعمل.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِي هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ﴾

يعني بذلك جل ثناؤه: شَبَهُ ما يُنْفِقُ الذين كفروا، أي: شَبَهُ ما يَتَصَدَّقُ به الكافرُ من مالِه، فيعطيه مَنْ يعطيه على وجه القُربةِ إلى ربِّهِ وهو لوحدانيةِ الله جاحِدٌ، ولمحمدٍ ﷺ مُكَذِّبٌ، في أنَّ ذلك غير نافعِهِ مع كُفْرِهِ، وأنه مُضْمَحِلٌّ عند حاجتهِ إليه، ذاهبٌ بعد الذي كان يرجو من عائدةِ نفعهِ عليه كَشَبه

ريحٍ فيهـا بردٌ شديدٌ، أصـابتْ هذه الـريحُ التي فيها البَرْد الشديد. «حَرْثَ قومٍ»، يعني: زَرْعَ قومٍ قد أَمَّلُوا إدراكَهُ، ورجَوْا رَيْعَهُ وعائدةَ نفعهِ. «ظلموا أنفسهم»، يعني: أصحـابَ الـزرع، عصـوا الله وتعدَّوا حدودَهُ. «فأهلكته»، يعني: فأهلكت الريحُ التي فيها الصِرُّ زَرْعَهم ذلك، بعد الذي كانوا عليه من الأملِ ورجاء عائدةِ نفعهِ عليهم.

يقول تعالى ذِكْرُه: فكذلك فَعَلَ اللهُ بنفقةِ الكافرِ وصدقتهِ في حياته، حين يلقاه، يبطل ثوابها ويخيب رجاؤه منها. وخرج المثَل للنفقة، والمراد بـ «المثل» صنيعُ اللهِ بالنفقةِ. فبيَّن ذلك قوله: «كَمَثَلِ ريحٍ فيها صِرٌّ»، فهو كما قد بيَّنَّا في مثله قوله: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي ٱسْتَوْقَدَ نَاراً﴾ [البقرة: ١٧]، وما أشبه ذلك.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَـٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ۝١١٧﴾

يعني بذلـك جل ثنـاؤه: وما فعلَ اللهُ بهؤلاء الكفارِ ما فَعَلَ بهم، من إحباطِهِ ثوابَ أعمالِهم وإبطاله أُجُورَها ظُلْماً منه لهم يعني: وضعاً منه لما فعل بهم من ذلك في غيرِ مَوْضِعه وعند غيرِ أهله، بل وضعَ فعله ذلك في موضعه، وفعل بهم ماهُمْ أهلُهُ. لأنَّ عملَهم الذي عملوه لم يَكُنْ لله وهُمْ له بالوحدانيةِ دائنـون، ولأمـره مُتَّبعـونَ، ولِـرُسُلِهِ مُصَـدِّقُـونَ، بل كان ذلك منهم وهم به مشركونَ، ولأمرِهِ مخالفون، ولرسله مُكَذِّبونَ، بعد تقدُّم منه إليهم أنه لايقبلُ عمـلاً من عامـلٍ إلّا مع إخـلاصِ التوحيدِ له والإقرارِ بنبوةِ أنبيائهِ، وتصديقِ ما جاؤوهم به، وتوكيدهِ الحُجَجَ بذلك عليهم. فلم يكن بفعلهِ ما فَعَلَ بمن كَفَرَ به وخالفَ أمْرَهُ في ذلك بعد الإعذارِ إليه، من إحباطِ وَفْرِ عملِهِ له ظالماً، بل

الكافرُ هو الظالمُ نَفْسَهُ، لإكسابِها من معصيةِ الله وخلافِ أمرِه، ما أوردها به نارَ جهنمَ، وأصْلاها به سعيرَ سقَر.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا۟ مَا عَنِتُّمْ﴾

يعني بذلك تعالى ذكره: ياأيها الذين صَدَّقُوا الله ورسوله، وأقَرُّوا بما جاءهم به نَبِيُّهم من عند ربهم. «لاتتخذوا بطانةً من دونكم»، يقول: لاتَتَّخِذُوا أولياءَ وأصدقاءَ لأنفسكم. «من دونكم» يقول: من دونِ أهلِ دينكم ومِلَّتكم، يعني من غير المؤمنين.

وإنما جعل «البطانَةَ» مثلاً لخليلِ الرجل، فَشَبَّهَهُ بما وَلِيَ بَطْنَهُ من ثيابِهِ، لحلوله منه - في اطِّلاعه على أسراره وما يطويه عَنْ أباعدِهِ وكثيرٍ من أقاربهِ - محلَّ ماوَلِيَ جَسده من ثيابه.

فنهى اللهُ المؤمنينَ به أنْ يَتَّخِذُوا من الكفارِ بهِ أخِلَّاء وأصفياء، ثم عَرَّفَهُم ماهُمْ عليه لهم مُنْطَوُونَ من الغِشِّ والخيانةِ، وبَغْيِهم إياهم الغوائلَ، فَحَذَّرهم بذلك منهم ومن مُخَالَّتِهم، فقال تعالى ذكره: «لا يألونكم خَبالاً»، يعني: لا يستطيعونكم شراً.

وأما قوله: «ودوا ماعنِتُّم»، فإنه يعني: وَدُّوا عَنَتَكم. يقول: يتمنون لكم العَنَتَ والشرَّ في دِينكم وما يسوؤكم ولا يسرُّكم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ﴾

يعني بذلك جل ثناؤه: قد بَدَتِ بغضاءُ هؤلاء الذين نهيتكم أيها

المؤمنــون، أنْ تَتَّخِـذُوهم بطانـةً من دُونِكم لكم. «من أفـواههم»، يعني: بألسنتهم والذي بدا لهم منهم بألسنتهم، إقامتهم على كُفْرِهم، وعَداوتهم مَنْ خالفَ ماهُمْ عليه مُقيمونَ من الضلالةِ. فذلك مِنْ أوكدِ الأسبابِ في معاداتِهم أهلَ الإيمانِ، لأنَّ ذلك عداوةٌ على الدين، والعداوةُ على الدين العداوةُ التي لا زوالَ لها إلَّا بانتقالِ أحد المُتَعَادِيَيْنِ إلى مِلَّةِ الآخرِ منهما، وذلك انتقال مِن هُدِيَ إلى ضلالة كانت عند المنتقل إليها ضلالة قبل ذلك. فكان في إبدائهم ذلك للمؤمنين، ومقامهم عليه، أبينُ الدلالةِ لأهلِ الإيمانِ على ماهُمْ عليه لهم من البغضاء والعداوة.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَمَا تُخۡفِي صُدُورُهُمۡ أَكۡبَرُۚ

يعني تعالى ذكره بذلك: والذي تُخْفِي صُدُورُهم يعني: صُدور هؤلاء الذين نَهاهُم عن اتِّخاذِهم بطانةً، فتخفيه عنكم، أيها المؤمنون «أكبر»، يقول: أكبرُ مِمَّا قد بَدَا لكم بألسِنَتِهم من أفواهِهم من البغضاءِ وأعظم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: قَدۡ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِۖ إِن كُنتُمۡ تَعۡقِلُونَ 

يعني بذلك جل ثناؤه: «قد بَيَّنَّا لكم» أيها المؤمنون. «الآيات»، يعني بـ «الآيات» العِبَر. قد بَيَّنا لكم من أمر هؤلاء اليهود الذين نهيناكم أنْ تَتَّخِذُوهم بطانةً من دون المؤمنين، ماتعتبرونَ وتَتَّعِظُونَ به من أمرهم. «إنْ كنتم تعقلون»، يعني: إنْ كنتم تعقلون عن اللهِ مواعظَهُ وأمْرَهُ ونَهْيَهُ، وتعرفون مواقعَ نفعِ ذلك منكم، ومبلغَ عائدتهِ عليكم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: هَٰٓأَنتُمْ أُوْلَآءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِٱلْكِتَٰبِ كُلِّهِۦ

يعني بذلك جل ثناؤه: ها أنتم، أيها المؤمنون، الذين تُحِبُّونَهم، يقول: تُحِبُّونَ هؤلاء الكفار الذين نَهَيْتُكم عن اتخاذهم بطانةً من دون المؤمنين، فتودُّونَهُم وتُواصِلُونَهم وهم لا يُحبونكم، بل يُبْطِنُونَ لكم العداوةَ والغِشَّ «وتؤمنون بالكتاب كله».

ومعنى «الكتاب» في هذا الموضع معنى الجمع، كما يقال: «كَثُرَ الدِّرهمُ في أيدي الناس»، بمعنى الدراهم.

فكذلك قوله: «وتؤمنون بالكتاب كله»، إنما معناه: بالكتبِ كُلِّها، كتابكم الذي أنزلَ اللهُ إليكم، وكتابهم الذي أنزلَهُ إليهم، وغير ذلك من الكتبِ التي أنزلها اللهُ على عباده.

يقول تعالى ذِكْرُه: فأنتم إذْ كنتم، أيها المؤمنون، تؤمنون بالكتبِ كُلِّها، وتعلمون أنَّ الذين نَهَيْتُكم عن أنْ تَتَّخِذُوهم بطانةً من دونكم كفارٌ بذلك كله، بجحودهم ذلك كله من عهودِ اللهِ إليهم، وتبديلهم مافيه من أمرِ الله ونهيه أَوْلَى بعداوتِكم إيَّاهم وبغضائهم وغشهم، منهم بعداوتكم وبغضائكم، مع جحودِهم بعضَ الكتبِ وتكذيبهم ببعضها.

وفي هذه الآية إبانةٌ من الله عَزَّ وجَلَّ عن حالِ الفريقين ـ أعني المؤمنين والكافرين، ورحمة أهل الإيمان ورأفتهم بأهلِ الخلاف لهم، وقساوة قلوبِ أهلِ الكفرِ وغِلْظَتهم على أهلِ الإيمان.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ عَضُّواْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِۚ

يعني بذلك تعالى ذكره: أنَّ هؤلاء الذين نَهى اللهُ المؤمنينَ أنْ يَتَّخِذُوهم بطانةً من دونِهم، ووَصَفَهم بِصِفَتِهم، إذا لَقُوا المؤمنينَ من أصحابِ رسولِ الله ﷺ أعطوهم بألسنتهم تقيةً حذراً على أنفسهم منهم فقالوا لهم: «قد آمنا وصَدَّقْنَا بما جاءَ به محمدٌ ﷺ»، وإذا هُمْ خَلَوْا فصاروا في خلاء حيث لا يراهمُ المؤمنونَ، عَضُّوا ـ على مايَرَوْنَ من ائتلافِ المؤمنين واجتماعِ كلمتهم وصلاحِ ذاتِ بينهم ـ أناملَهُم، وهي أطرافُ أصابعهم، تَغَيُّظاً مما بهم من المَوْجَدةِ عليهم، وأسىً على ظهرٍ يُسندون إليه لمكاشفتهم العداوة ومناجزتهم المحاربة.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ عزَّ وجلَّ: ﴿قُلْ مُوتُوا۟ بِغَيْظِكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ١١٩﴾

يعني بذلك جل ثناؤه: «قل»، يامحمد لهؤلاء اليهود الذين وصفتُ لك صِفَتَهم، وأخبرتكَ أنهم إذا لَقُوا أصحابكَ قالوا: آمنا، وإذا خَلَوْا عَضُّوا عليكمُ الأناملَ من الغيظِ: «موتوا بغيظكم» الذي بكم على المؤمنين لاجتماعِ كلمتهم وائتلاف جماعتهم.

وخَرَجَ هذا الكلام مخرج الأمر، وهو دعاءٌ من الله نبيَّه محمداً ﷺ بأنْ يدعوَ عليهم بأنْ يُهْلِكَهُم اللهُ، كَمَداً مما بهم من الغيظِ على المؤمنين، قبل أنْ يَرَوْا فيهم مايَتَمَنَّوْنَ لهم من العَنَتِ في دينهم، والضلالةِ بعد هُدَاهم، فقال لنبيه ﷺ: قل يامحمد: اهلكوا بغيظكم «إن الله عليم بذات الصدور»، يعني بذلك: إنَّ الله ذُو عِلْمٍ بالذي في صدورِ هؤلاء الذين إذا لَقُوا المؤمنين قالوا: «آمنـا»، ومـا ينطوونَ لهم عليه من الغِلِّ والغَمِّ، ويعتقدون لهم من العداوةِ والبغضاء، وبما في صدورِ جميعِ خلقه، حافظٌ على جميعهم ماهوَ عليه مُنْطَوٍ من خيرٍ وشر. حتى يجازي جميعَهُم على ما قَدَّمَ من خيرٍ وشر، واعتقد من

إيمانٍ وكفرٍ، وانطوى عليه لرسولِهِ وللمؤمنينَ من نصيحةٍ، أو غِلٍّ وغِمْرٍ[١].

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿١٢٠﴾﴾

يعني بقوله تعالى ذكره: «إنْ تمسسكم حسنة تسؤهم»، إنْ تنالوا، أيها المؤمنون، سروراً بظهورِكم على عَدُوِّكُم، وتَتَابُعِ الناسِ في الدخول في دينكم، وتصديقِ نَبِيِّكُم ومعاونتكم على أعدائكم يسؤهم. وإنْ تَنَلْكُم مساءةٌ بإخفاقِ سريةٍ لكم، أو بإصابةِ عدوٍّ لكم منكم، أو اختلافٍ يكون بين جماعتكم يَفْرَحُوا بها.

وأما قوله: «وإنْ تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئاً»، فإنه يعني بذلك جل ثناؤه: «وإنْ تَصْبِرُوا»، أيها المؤمنون، على طاعةِ اللهِ واتِّباعِ أمرِهِ فيما أمَرَكُم به، واجتنابِ مانهاكم عنه: من اتخاذِ بطانةٍ لأنفسكم من هؤلاءِ اليهودِ الـذين وَصَفَ اللهُ صِفَتَهُم من دونِ المؤمنين، وغير ذلك من سائرِ مانهاكم. «وتتقوا» ربكم، فتخافوا التقدمَ بين يديه فيما ألزمكم وأوجبَ عليكم من حَقِّهِ وحَقِّ رسولِهِ. «لا يضركم كيدهم شيئاً»، أي: كيدُ هؤلاء الذين وَصَفَ صِفَتَهُم.

ويعني بـ«كيدهم»، غَوائِلَهم التي يَبْتَغُونَها للمسلمين، ومَكْرَهم بهم، ليصدُّوهم عن الهدى وسبيلِ الحق.

---

(١) الغمر: الحقد والغِلُّ الذي يغمر القلب غمراً.

وقوله: «إنَّ اللهَ بما يعملون محيطٌ»، يقول جل ثناؤه: إنَّ الله بما يعملُ هؤلاء الكفار في عبادهِ وبلادهِ من الفسادِ والصَدِّ عن سبيلهِ، والعداوةِ لأهلِ دِينهِ، وغيرِ ذلك من معاصي الله. «محيطٌ» بجميعهِ، حافظٌ له، لا يَعْزُبُ عنه شيءٌ منه، حتى يُوَفِّيهم جزاءهم على ذلك كُلِّهِ، ويُذِيقَهُم عقوبَتَهُ عليه.

القَــوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَـالَى: ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ١٢١﴾

يعني جل ثنـاؤه بقوله: «وإذْ غدوتَ من أهلك تبوىء المؤمنين»، وإنْ تَصْبِرُوا وتَتَّقُوا لا يضرُّكُم، أيها المؤمنون، كَيْدُ هؤلاءِ الكفارِ من اليهودِ شيئاً، ولكنَّ الله ينصـرُكم عليهم إنْ صبـرتم على طاعتي واتبـاعِ أمرِ رسولي، كما نصرتكم ببدرٍ وأنتم أذِلَّةٌ. وإنْ أنتم خالفتم، أيها المؤمنون، أمري ولم تصبروا على ما كَلَّفْتُكم من فرائضي، ولم تَتَّقُـوا مانَهيتكم عنـه وخـالفتم أمري وأمرَ رسولي، فإنه نازلٌ بكم مانزل بكم بأحُدٍ. واذكروا ذلك اليومَ، إذ غدا نبيكم يبوىءُ المؤمنين.

فترك ذِكْرَ الخبرِ عن أمرِ القومِ إنْ لم يصبروا على أمرِ رَبِّهم ولم يتقوه، اكتفاءً بدلالةِ ماظهر من الكلامِ على معناه، إذ ذكر ماهو فاعلٌ بهم من صرفِ كيدِ أعدائهم عنهم إنْ صبروا على أمرهِ واتقوا محارِمَهُ، وتعقيبه ذلك بتذكيرهم ماحَلَّ بهم من البلاء بأحُدٍ، إذْ خالفَ بعضُهم أمرَ رسولِ الله ﷺ وتنازعوا الرأي بينهم.

وأخرج الخطاب في قوله: «وإذ غدوت من أهلك»، على وجه الخطاب لرسولِ الله ﷺ، والمراد بمعناه: الذين نهاهم أنْ يَتَّخِذُوا الكفارَ مِن اليهود بطانةً من دون المؤمنين. فقد بيَّن إذاً أن قوله: «وإذ»، إنما جرَّها في معنى الكلام

على ماقد بينتُ وأوضحتُ.

وقد اختلف أهل التأويل في اليوم الذي عَنَى الله عز وجل بقوله: «وإذْ غدوتَ من أهلك تُبَوِّىءُ المؤمنين مقاعدَ للقتال».

فقال بعضهم: عنَى بذلك يوم أحُدٍ.

وقال آخرون: عنَى بذلك يوم الأحزاب.

وأوْلى هذين القولين بالصواب قَولُ مَنْ قال: «عنَى بذلك يوم أحد». لأن الله عز وجل يقول في الآية التي بعدها: ﴿إذْ هَمَّتْ طَائِفَتَان مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا﴾، ولا خلافَ بين أهلِ التأويلِ أنه عُنِيَ بالطائفتين: بنو سَلِمة وبنو حارثة، ولا خلافَ بين أهلِ السير والمعرفةِ بمغازي رسولِ الله ﷺ، أنّ الذي ذكر الله من أمرهما إنما كان يوم أحد، دون يوم الأحزاب.

فتأويل الكلام: واذكرْ إذْ غدوتَ، يامحمد، من أهلك تتخذُ للمؤمنين معسكراً وموضعاً لقتال عدوهم.

وقوله: «والله سميع عليم»، يعني بذلك تعالى ذِكْرُه: «والله سميع»، لِمَا يقول المؤمنون لكَ فيما شاوَرْتَهُمْ فيه، من موضعِ لقائكَ ولقائِهم عَدُوَّكَ وعَدُوَّهم، من قولِ مَنْ قال: «اخرجْ بنا إليهم حتى نلقاهم خارجَ المدينة»، وقول مَنْ قال لك: «لا تخرج إليهم وأقم بالمدينةِ حتى يدخلوها علينا»، على ماقد بَيَّنا قَبْلُ، ولِمَا تشيرُ به عليهم أنت يامحمد. «عليم» بأصلح تلك الآراء لكَ ولهم، وبما تُخْفيه صُدورُ المشيرينَ عليك بالخروج إلى عدوك، وصدور المشيرين عليك بالمقام في المدينة، وغير ذلك من أمركَ وأمورهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٢٢﴾

يعني بذلك جل ثناؤه: والله سميع عليم، حين هَمَّتْ طائفتانِ منكم أنْ تفشلا.

والطائفتان اللتان هَمَّتا بالفشل، ذُكِرَ لنا أنهم بنو سَلِمة وبنو حارثة.

وأما قوله: «أنْ تفشلا»، فإنه يعني: هَمَّا أنْ يَضْعُفَا ويَجْبُنَا عن لقاءِ عَدُوِّهما.

وكان همُّهما الذي هَمَّا به من الفشلِ، الانصرافَ عن رسولِ الله ﷺ والمؤمنين حين انصرف عنهم عبدالله بن أُبيّ بن سَلُول بمن معه، جُبْناً منهم، من غيرِ شكٍّ منهم في الإسلامِ ولا نفاقٍ، فَعَصَمَهُم اللهُ مما هَمُّوا به من ذلك، ومَضَـوْا مع رسولِ الله ﷺ لوجههِ الذي مضى له، وتركوا عبدالله بن أبيّ بن سلول والمنـافقينَ معه، فأثنى الله عز وجل عليهما بثبوتهما على الحق، وأخبر أنه وليُّهُمَا وناصِرُهُمَا على أعدائِهما من الكفارِ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢٣﴾﴾

يعني بذلـك جل ثنـاؤه: وإن تصبـروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئاً، ويَنْصُرْكُم رَبُّكم، «ولقد نصركم الله ببدر» على أعدائِكم وأنتم يومئذٍ «أذلة» يعني: قليلون، في غير مَنَعَةٍ من الناسِ، حتى أظهركم الله على عدوكم، مع كثرةِ عددِهم وقلةِ عددكم، وأنتم اليوم أكثرُ عدداً منكم حينئذٍ، فإنْ تصبروا لأمرِ الله ينصركم كما نَصَرَكُم ذلك اليوم. «فاتقوا الله»، يقول تعالى ذِكْرُه: فاتقوا ربكم بطاعتهِ واجتنابِ محارمه. «لعلكم تشكرون»، يقول: لتشكروهُ على مامَنَّ به عليكم من النصر على أعدائِكم وإظهارِ دينكم، ولما هَدَاكُم له من الحَقِّ

الذي ضَلَّ عنه مُخَالِفُوكُم.

وأما قوله: «أذلة»، فإنه جمع «ذليل»، كما «الأَعِزَّةُ» جمع «عزيز» «والألِبَّةُ» جمع «لبيب».

وإنما سماهم الله عز وجل «أذلة»، لِقِلَّةِ عَدَدِهم، لأنهم كانوا ثلاث مئة نفسٍ وبضعةَ عشر، وعدوهم مابين التسع مئة إلى الألف.

القَوْلُ فِي تَأْوِيل قَوْلِهِ تَعَالَى: إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ ﴿١٢٤﴾ بَلَىٰٓ إِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٥﴾

يعني تعالى ذكره: ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة، إذْ تقولُ للمؤمنين بكَ من أصحابك: أَلَنْ يَكْفِيَكُم أنْ يُمِدَّكُم رَبُّكم بثلاثةِ آلافٍ من الملائكة منزلين؟ وذلك يوم بدر.

ثم اختلف أهلُ التأويل في حضورِ الملائكة يوم بدر حَرْبَهُم، في أيِّ يومٍ وُعِدُوا ذلكَ؟

فقال بعضهم: إن الله عز وجل كان وَعَدَ المؤمنينَ يومَ بَدْرٍ أنْ يُمِدَّهُم بملائكتهِ، إنْ أتاهم العدوُّ من فَوْرِهم، فلم يأتوهم، ولم يُمَدُّوا.

وقال آخرون: كان هذا الوعدُ من الله لهم يوم بدر، فصبرَ المؤمنونَ واتقوا الله، فأَمَدَّهُم بملائكتهِ على ماوَعَدَهُم.

وقال آخرون: إن الله عز وجلّ: إنما وعدهم يوم بدر أنْ يُمِدَّهُم إنْ صبروا عند طاعتهِ وجهادِ أعدائهِ، واتقوه باجتنابِ محارمهِ، أنْ يمدهم في حروبهم

كُلِّها، فلم يصبروا ولم يتقوا إلا في يوم الأحزاب، فأمدَّهم حين حاصروا قريظة.

وأوْلى الأقوالِ في ذلك بالصواب أنْ يُقالَ: إنَّ الله أخبرَ عن نبيه محمدٍ ﷺ أنه قال للمؤمنين: أَلَنْ يَكفيَكُم أنْ يمدكم رَبُّكم بثلاثةِ آلافٍ من الملائكة؟ فوعدهم الله بثلاثةِ آلافٍ من الملائكة مدداً لهم، ثم وعدهم بعد الثلاثةِ الآلاف، خمسة آلاف إنْ صبروا لأعدائهم واتقوا الله. ولا دِلالةَ في الآيةِ على أنهم أُمِدُّوا بالثلاثةِ آلافٍ ولا بالخمسةِ آلافٍ، ولا على أنهم لم يُمَدُّوا بهم. وقد يجوز أنْ يكون الله عز وجل أمَدَّهُم، على نحوِ ماروواه الذين أثبتوا أنه أمدهم، وقد يجوز أنْ يكون لم يمدهم على نحو الذي ذكره مَنْ أنكر ذلك. ولا خبرَ عندنا صَحَّ من الوجهِ الذي يثبت أنهم أُمِدُّوا بالثلاثةِ الآلاف ولا بالخمسة الآلاف. وغير جائزٍ أنْ يقالَ في ذلك قولٌ إلا بخبرٍ تقومُ الحجةُ به. ولا خبرَ به كذلك، فنسلِّم لأحدِ الفريقين قوله. غير أنَّ في القرآن دلالةً على أنهم قد أُمِدُّوا يومَ بدر بألف من الملائكة، وذلك قوله: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لكم أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾ [الأنفال: ٩]، فأما في يوم أُحُد فالدلالةُ على أنهم لم يمدوا أبينُ منها في أنهم أُمِدُّوا. وذلك أنهم لو أُمِدُّوا لم يُهْزَمُوا، ويُنالَ منهم ما نِيْلَ منهم. فالصوابُ فيه من القول أن يقال كما قال تعالى ذِكْرُه.

وأما قوله: «ويأتوكُم من فَوْرِهم هذا»، فإنَّ أهلَ التأويلِ اختلفوا فيه.

فقال بعضهم: معنى قوله: «من فورهم هذا»، من وَجْهِهم هذا.

وقال آخرون: معنى ذلك: من غضبهم هذا.

فالذي قال في هذه الآية: معنى قوله: «من فورهم هذا»، من «وجههم هذا». قصد إلى أنَّ تأويله: ويأتيكم كُرْز بن جابر وأصحابه يوم بدرٍ من ابتداء

مخرجهم الذي خَرَجُوا منه لنصرةِ أصحابِهم من المشركين.

وأما الذين قالوا: معنى ذلكِ: مِنْ غَضَبِهم هذا، فإنما عَنوا أنَّ تأويلَ ذلك: ويأتيكم كفارُ قريش وتُبَّاعهم يوم أحدٍ من ابتداء غضبِهم الذي غضبوه لِقَتْلَاهُم الذين قُتلوا يومَ بدر بها، يُمْدِدْكُم ربُّكم بخمسة آلاف.

ولذلك من اختلافِ تأويلِهم في معنى قوله: «ويأتوكم من فورهم هذا»، اختلف أهلُ التأويلِ في إمدادِ الله المؤمنين بأحُدٍ بملائكته.

فقال بعضهم: لم يُمَدُّوا بهم، لأنَّ المؤمنينَ لم يصبروا لأعدائِهم ولم يتقوا اللهَ عَزَّ وجل، بتركِ مَنْ تَرَكَ من الرُّمَاةِ طاعةَ رسولِ الله ﷺ في ثبوتِهِ في الموضعِ الذي أمَرَهُ رسولُ الله ﷺ بالثبوتِ فيه، ولكنهم أخلُّوا به طلبَ الغنائم، فَقُتِلَ مَنْ قُتِلَ من المسلمينَ ونالَ المشركونَ منهم ما نالوا، وإنما كان الله عز وجل وَعَدَ نَبِيَّهُ ﷺ إمدادَهم بهم إنْ صبروا واتقوا الله.

وأما الذين قالوا: كان ذلك يوم بدر بسبب كُرْز بن جابر، فإنَّ بعضهم قالوا: لم يأتِ كرزٌ وأصحابهُ إخوانَهم من المشركين مَدَداً لهم ببدر، ولم يمد الله المؤمنين بملائكته. لأنَّ الله عز وجل إنما وَعَدَهم أنْ يُمِدَّهم بملائكتهِ إنْ أتاهم كرز ومدد المشركين من فورهم، ولم يأتِهم المَدَدُ.

وأما الذين قالوا: إنّ الله تعالى ذِكْرُه أمَدَّ المسلمين بالملائكة يوم بدر، فإنهم اعْتَلُّوا بقولِ الله عز وجل: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ المَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾ [الأنفال: ٩]، قال: فالألف منهم قد أتاهم مدداً. وإنما الوعدُ الذي كانت فيه الشروط، فما زادَ على الألفِ، فأما الألفُ فقد كانوا أُمِدُّوا به، لأنَّ الله عز وجل كان قد وَعَدَهم ذلك، ولن يُخْلِفَ اللهُ وَعْدَهُ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ جَلَّ ثناؤُهُ: ﴿وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ١٢٦﴾

يعني تعالى ذِكْرُه: وما جعلَ اللهُ وَعْدَهُ إيَّاكم ما وعدكم من إمدادِهِ إياكم بالملائكةِ الذين ذكر عددهم. «إلا بُشْرى لكم»، يعني بشرى، يُبَشِّركم بها. «ولتطمئن قلوبكم به»»، يقول: وكي تطمئن بوعدِهِ الذي وعدكم من ذلك قلوبُكم، فتسكن إليه، ولا تجزع من كثرةِ عَدَدِ عَدُوِّكُم وقِلَّةِ عَدَدِكُم «وما النصر إلا من عند الله»، يعني: وما ظفركم إنْ ظفرتم بعدوِّكُم إلا بعونِ الله، لا مِنْ قِبَلِ المَدَدِ الذي يأتيكم من الملائكة. يقول: فعلى الله فتوكَّلُوا، وبه فاستعينوا، لا بالجموعِ وكثرةِ العَدَدِ، فإنَّ نصركم إنْ كانَ إنما يكونُ باللهِ وبعونهِ ومعكم من ملائكته خمسة آلاف، فإنه إلى أنْ يكون ذلك بعونِ الله وبتقويتهِ إياكم على عدوكم، وإنْ كان معكم من البشر جُموعٌ كثيرةٌ أُخْرَى، فاتقوا الله واصبروا على جهاد عدوكم، فإنَّ الله ناصركم عليهم.

وأما معنى قوله: «العزيز الحكيم»، فإنه جَلَّ ثناؤه يعني: «العزيزُ» في انتقامهِ من أهلِ الكُفْرِ به بأيدي أوليائه من أهلِ طاعته. «الحكيمُ» في تدبيره لكم، أيها المؤمنون، على أعدائكم من أهل الكفر، وغير ذلك من أموره، فأبشروا أيها المؤمنون، بتدبيري لكم على أعدائكم ونَصْرِي إياكم عليهم، إنْ أنتم أطعتموني فيما أمرتكم به، وصبرتم لجهادِ عدوِّي وعدوِّكم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنقَلِبُوا۟ خَآئِبِينَ ١٢٧﴾

فتأويلُ الكلام: ولقد نَصرَكم اللهُ ببدرٍ ليهلك فريقاً من الكفار بالسيفِ، أو يخزيهم بخيبتهم مما طَمِعُوا فيه من الظفر. «فينقلبوا خائبين»، يقول: فيرجِعُوا عنكم خائبينَ، لم يُصِيبُوا منكم شيئاً مما رجوا أنْ ينالوهُ منكم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَٰلِمُونَ ١٢٨﴾

وتأويل قوله: «ليس لك من الأمر شيء»، ليس إليكَ، يامحمد، من أمرِ خَلْقي إلاَّ أنْ تنفذ فيهم أمري، وتنتهيَ فيهم إلى طاعتي، وإنما أمرهم إليَّ، والقضاء فيهم بيدي دون غيري، أقضي فيهم وأحكمُ بالذي أشاء، من التوبةِ على مَنْ كفَرَ بي وعصاني وخالفَ أمري، أو العذاب إما في عاجلِ الدنيا بالقتل والنِّقَمِ المُبيرةِ، وإما في آجلِ الآخرة بما أعددتُ لأهلِ الكفر بي.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَـالَى: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ١٢٩﴾

يعني بذلك تعالى ذِكْرُه: ليس لكَ، يامحمد، من الأمر شيء، ولله جميع ما بين أقطارِ السموات والأرض مِنْ مَشْرقِ الشمسِ إلى مغربها. دونك ودونهم، يحكمُ فيهم بما يشاء، ويقضي فيهم ما أَحَبَّ، فيتوبُ على من أَحَبَّ من خَلْقِه العاصينَ أمرَهُ ونهيَهُ، ثم يغفر له، ويعاقبُ مَنْ شاء منهم على جُرْمِه فينتقم منه، وهو الغفورُ الذي يستر ذنوبَ مَنْ أَحَبَّ أنْ يسترَ عليه ذنوبَهُ من خَلْقِه بفضله عليهم بالعَفْو والصَّفْح، والرحيم بهم في تَرْكه عقوبتهم عاجلاً على عظيمِ ما يأتون من المآثم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ١٣٠﴾

يعني بذلك جل ثناؤه: يا أيها الذين آمنوا بالله ورسوله، لا تأكلوا الرِّبا في إسلامكم بعد إذْ هَدَاكم له، كما كنتم تأكلونَهُ في جاهليتكم.

وكان أكلهم ذلك في جاهليتهم: أنَّ الرجلَ منهم كان يكونُ له على الرجلِ مالٌ إلى أجلٍ، فإذا حَلَّ الأجلُ طلبه من صاحبه، فيقول له الذي عليه المال: أخِّرْ عني دَيْنَكَ وأَزِيدَكَ على مالِكَ. فيفعلان ذلك. فذلك هو «الربا أضعافاً مضاعفة»، فنهاهم الله عز وجل في إسلامهم عنه.

وأما قوله: «واتقوا الله لعلكم تفلحون»، فإنه يعني: واتقوا الله أيها المؤمنون في أمرِ الربا فلا تأكلوهُ، وفي غيره مما أمركم به أو نهاكم عنه، وأطيعوه فيه «لعلكم تفلحون»، يقول: لتنجحوا فتنجوا من عقابه، وتُدْرِكُوا ما رَغَّبَكُم فيه من ثوابِهِ والخلود في جِنانِهِ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ

﴾

يقول تعالى ذِكْرُه للمؤمنين: واتقوا، أيها المؤمنون، النارَ أنْ تَصْلَوْهَا بأكْلِكُم الربا بعد نَهْيِي إيَّاكم عنه التي أعددتُهَا لِمَنْ كَفَرَ بي، فتدخلوا مَدْخَلَهم بعد إيمانكم بي، بخلافِكم أمري، وترككم طاعتي.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ۝١٣٢﴾

يعني بذلك جل ثناؤه: وأطيعوا الله، أيها المؤمنون، فيما نهاكم عنه من أكل الرِّبَا وغيره من الأشياء، وفيما أمركم به الرسولُ. يقول: وأطيعوا الرسولَ أيضاً كذلك. «لَعَلَّكم تُرْحَمُونَ»، يقول: لِتُرْحَمُوا فلا تُعَذَّبُوا.

وقد قيل إنَّ ذلك معاتبةٌ من الله عز وجلِ أصحابَ رسولِ الله ﷺ الذين خالفوا أمرَهُ يومَ أُحدٍ، فأخَلُّوا بمراكزهم التي أُمِرُوا بالثباتِ عليها.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَسَارِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَـٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ۝١٣٣﴾

يعني تعالى ذِكْرُه بقوله: «وسارعوا»، وبادروا وسابقوا. «إلى مغفرةٍ من ربكم»، يعني: إلى مايسترُ عليكم ذنوبَكم من رحمته، وما يُغَطِّيها عليكم من عفوهِ عن عقوبتكم عليها. «وجنةٍ عَرْضُها السموات والأرض»، يعني: وسارعوا أيضاً إلى جنةٍ عرضها السمواتُ والأرض.

وذُكِرَ أن معنى ذلك: وجنةٍ عرضها كعرض السموات السبع والأرضين السبع، إذا ضُمَّ بعضها إلى بعض.

وإنما قيل: «وجنة عرضها السموات والأرض»، فوصف عَرْضَها بالسمواتِ والأرضين، والمعنى ماوصفنا: من وصف عرضها بعرضِ السمواتِ والأرض. تشبيهاً به في السَّعَةِ والعِظَم، كما قيل: ﴿مَاخَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ [لقمان: ٢٨]، يعني: إلَّا كَبَعْثِ نَفْسٍ واحدة.

وأما قوله: «أعدت للمتقين» فإنه يعني: أنَّ الجنةَ التي عَرْضُها كعرضِ السمواتِ والأرضين السبع، أعَدَّها اللهُ للمتقين، الذين اتقوا الله فأطاعوه فيما أمرهم ونهاهم، فلم يتعدوا حدودَهُ، ولم يُقَصِّرُوا في واجبِ حَقِّهِ عليهم فيضيِّعُوه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ جَلَّ ثنـاؤُهُ: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَـٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾



يعني جل ثناؤه بقوله: «الذين ينفقون في السراء والضراء»، أُعِدَّت الجنةُ التي عرضُهَا السمواتُ والأرض للمتقين، وهم المنفقونَ أموالَهم في سبيلِ الله، إما في صَرْفِهِ على محتاجٍ، وإما في تقويةِ مُضعِفٍ على النهوضِ لجهادِهِ في سبيل الله.

وأما في قوله: «في السراء»، فإنه يعني: في حال السرور، بكثرةِ المال ورخاء العيش.

«والضراء» مصدر من قولهم: «قد ضُرَّ فلان فهو يُضَرّ»، إذا أصابه الضُّر، وذلك إذا أصابه الضيقُ، والجَهْدُ في عيشه .

فأخبر جل ثناؤه أن الجنة التي وصف صِفَتَها، لِمَنِ اتَّقاهُ وأنفقَ مالَهُ في حال الرخاء والسعة، وفي حالِ الضيقِ والشدةِ، في سبيله.

وقوله: «والكاظمينَ الغيظ»، يعني: والجارعينَ الغيظَ عند امتلاء نُفوسِهم منه.

و«الغيظ» مصدر من قولِ القائل: «غاظني فلانٌ فهو يغيظني غيظاً»،

وذلك إذا أحفظه وأغضبه.

وأما قوله: «والعافينَ عن الناس»، فإنه يعني: والصافحينَ عن الناسِ عقوبَةَ ذُنوبِهم إليهم وهُمْ على الانتقامِ منهم قادرون، فتارِكُوهَا لهم.

وأما قوله: «والله يحب المحسنين»، فإنه يعني: فإنَّ الله يَحبُّ مَنْ عَمِلَ بهـذه الأمـور التي وصف أنه أعدَّ للعاملين بها الجنةَ التي عرضُها السمواتُ والأرض، والعاملون بها هم «المحسنون»، وإحسانهم، هو عملهم بها.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ ١٣٥﴾

يعني بقوله جل ثناؤه: «والذين إذا فعلوا فاحشة»، أنَّ الجنةَ التي وَصَفَ صِفَتَها أُعِدَّتْ للمتقين، المنفقينَ في السرَّاءِ والضَرَّاء، والذين إذا فعلوا فاحشةً. وجميعُ هذه النعوت من صفةِ «المتقين»، الذين قال تعالى ذِكْرُه: «وجنة عرضُها السموات والأرض أعدت للمتقين».

ومعنى «الفاحشة»، الفعلةُ القبيحةُ الخارجةُ عما أَذِنَ اللهُ عَزَّ وجَلَّ فيه. وأصلُ «الفحش»: القُبْح، والخروجُ عن الحَدِّ والمقدارِ في كل شيءٍ. ومنه قيل للطويل المُفْرطِ الطولِ: «إنه لفاحشُ الطول»، يُرادُ به: قبيحُ الطول، خارجٌ عن المقدار المُسْتَحْسَنِ. ومنه قيل للكلام القبيح غير القصد: «كلامٌ فاحش»، وقيل للمتكلم به: «أفحشَ في كلامه»، إذا نطق بفُحْشٍ.

وقيل: إن «الفاحشة» في هذا الموضع، معنيٌّ بها الزنا.

وقـوله: «أو ظلموا أنفسهم»، يعني به: فعلوا بأنفسهم غيرَ الذي كان

ينبغي لهم أنْ يفعلوا بها. والذي فعلوا من ذلك، ركوبهم من معصيةِ الله ما أوجبوا لها به عقوبته.

وقوله: «ذكروا الله»، يعني بذلك: ذكروا وعيدَ الله على ماأَتَوْا من معصيتهم إياه. «فاستغفروا لذنوبهم»، يقول: فسألوا رَبَّهُم أنْ يَسْتُرَ عليهم ذنوبَهُم بصفحهِ لهم عن العقوبة عليها. «ومن يغفر الذنوب إلا الله»، يقول: وهَلْ يغفرُ الذنوبَ ـ أي يعفو عن راكبها فيسترها عليه ـ إلاّ اللهُ. «ولم يصروا على ما فعلوا»، يقول: ولم يُقِيمُوا على ذنوبهم التي أتوها، ومَعْصِيَتِهم التي ركبوها. «وهم يعلمون»، يقول: لم يُقِيمُوا على ذنوبهم عامدينَ للمقام عليها، وهم يعلمون أنَّ الله قد تقدم بالنهي عنها، وأوعدَ عليها العقوبةَ مَنْ ركبها.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغۡفِرَةٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَجَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَنِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ ١٣٦﴾

يعني تعالى ذِكْرُه بقوله: «أولئك»، الذين ذكر أنه أَعَدَّ لهم الجنةَ التي عَرْضُها السمواتُ والأرض، من المتقين، ووصَفَهُم بما وصَفَهم به. ثم قال: هؤلاء الذين هذه صِفَتُهم. «جزاؤهم»، يعني: ثوابُهم من أعمالهم التي وصفَهم تعالى ذِكْرُه أنهم عَمِلُوها. «مغفرةٌ من ربهم»، يقول: عفوٌ لهم من الله عن عقوبتهم على ما سَلَفَ من ذنوبهم، ولهم على ما أطاعوا اللهَ فيه من أعمالِهم بالحسن منها. «وجناتٌ»، وهي البساتينُ. «تجري من تحتها الأنهار»، يقول: تجري خلالَ أشجارها الأنهارُ وفي أسافلها، جزاءً لهم على صالح أعمالهم. «خالدين فيها» يعني: دائمي المقامِ في هذه الجناتِ التي وصفها. «ونِعْمَ أجرُ العاملين»، يعني: ونِعْمَ جزاءُ العاملينَ لله، الجناتُ التي وصفها.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿١٣٧﴾﴾

يعني بقوله تعالى ذِكْرُه: «قد خلت من قبلكم سنن»، مَضَتْ وسَلَفَتْ مني فيمنْ كان قبلكم، يامعشرَ أصحابِ محمدٍ وأهل الإيمان به، من نحو قوم عادٍ وثمود وقومِ هودٍ وقوم لوط، وغيرهم من سُلَّافِ[1] الأمم قبلكم. «سنن» يعني: مَثُلات سِيرَ بها فيهم وفيمن كَذَّبُوا به من أنبيائهم الذين أُرسِلُوا إليهم، بإمهالي أهلَ التكذيب بهم، واستدراجي إياهم، حتى بلغ الكتابُ فيهم أَجَلَهُ الذي أَجَّلْتُه لإدالةِ أنبيائهم وأهلِ الإيمان بهم عليهم، ثم أحللتُ بهم عقوبتي، وأنزلتُ بساحتهم نِقَمِي، فتركتهم لمن بعدهم أمثالاً وعِبَراً. «فسيروا في الأرض فانظروا كيف كانَ عاقبة المكذبين»، يقول: فسيروا ـ أيها الظانُّونَ، أنَّ إدالتي مَنْ أَدَلْتُ من أهلِ الشركِ يوم أُحُدٍ على محمدٍ وأصحابه، لغيرِ استدراجٍ مني لمن أشـرك بي، وكفـرَ برسلي، وخالفَ أمري ـ في ديارِ الأممِ الذين كانوا قَبْلَكُم، ممنْ كان على مِثْلِ الذي عليه هؤلاء المكذِّبُونَ برسولي والجاحدون وحدانيتي، فانظروا كيف كان عاقبةُ تكذيبهم أنبيائي، وما الذي آلَ إليه غِبُّ[2] خلافِهم أمري، وإنكارهم وحدانيتي، فتعلَمُوا عند ذلك أنَّ إدالتي[3] مَنْ أدلتُ من المشركين على نبيي محمدٍ وأصحابه بأُحُدٍ، إنما هي استدراجٌ وإمهالٌ ليبلغ الكتابُ أجَلَهُ الذي أَجَّلْتُ لهم. ثم إما أنْ يؤولَ حالهم إلى مِثْلِ ما آلَ إليه حالُ الأمم الذين سَلَفُوا قَبْلَهم: من تعجيلِ العقوبةِ عليهم، أو يُنِيبُوا إلى طاعتي واتباعِ رسولي.

---

(١) جمع سلف، ويجمع أسلاف أيضاً.

(٢) الغب: العاقبة.

(٣) الإدالة: الغلبة.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ عزَّ وجلَّ: ﴿هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٨﴾﴾

قوله: «هذا»، إشارةٌ إلى ماتَقَدَّمَ هذه الآيةَ من تذكيرِ الله جَلَّ ثناؤه المؤمنينَ، وتعريفهم حُدودَهُ، وحضِّهم على لزومِ طاعتهِ والصبرِ على جهادِ أعدائهِ وأعدائهم. لأنَّ قوله: «هذا»، إشارةٌ إلى حاضرٍ: إمَّا مرئيّ وإما مسموع، وهو في هذا الموضع إلى حاضرٍ مسموع من الآيات المتقدمة.

فمعنى الكلام: هذا الذي أوضحتُ لكم وعرفتكموه، بيانٌ للناس ـ يعني بـ «البيان»، الشرح والتفسير.

وأما قوله: «وهدى وموعظة»، فإنه يعني بـ «الهُدى»، الدلالةَ على سبيل الحقِّ ومنهج الدين، وبـ «الموعظة»، التذكرة للصواب والرشاد.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾﴾

وهذا من الله تعالى ذِكْرُه تعزيةٌ لأصحابِ رسولِ الله ﷺ على ما أصابهم من الجراحِ والقتلِ بأُحُد.

قال: «ولا تهنوا ولا تحزنوا»، ياأصحابَ محمد، يعني: ولا تضعفوا بالذي نالكم من عَدُوِّكُم بأُحُد، من القتلِ والقروح ـ عن جهادِ عدوكم وحربهم. «ولا تحزنوا»، ولا تَأْسَوْا فتجزَعُوا على ما أصابكم من المصيبة يومئذٍ، فإنكم «وأنتم الأعلون»، يعني: الظاهرُونَ عليهم، ولكم العُقبى في الظفر والنُّصرة عليهم. «إنْ كنتم مؤمنين»، يقول: إنْ كنتم مُصَدِّقِي نَبِيِّي محمدٍ ﷺ فيما يَعِدُكُم، وفيما يُنْبِئُكُم من الخبر عما يؤولُ إليه أمركم وأمرهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ﴾

يعني: إنْ يَمْسَسْكُم القتلُ والجراح، يامعشرَ أصحابِ محمدٍ، فقد مَسَّ القومَ من أعدائِكم من المشركين قَرْحٌ - قَتْلٌ وجراحٌ - مِثْلُه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾

يعني تعالى ذِكْرُه بقوله: «وتلك الأيام نداولها بين الناس»، أيام بدرٍ وأُحُد.

ويعني بقوله: «نداولها بين الناس»، نجعلها دُوَلاً بين الناس مُصَرَّفة. ويعني بـ«الناس»، المسلمينَ والمشركينَ. وذلك أنَّ الله عَزَّ وجَلَّ أدالَ المسلمينَ من المشركين ببدر، فقتلوا منهم سبعينَ وأَسَرُوا سبعين. وأدالَ المشركين من المسلمين بأُحُدٍ، فقتلوا منهم سبعينَ، سوى مَنْ جرحوا منهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٤٠﴾

(يعني): «وليعلمَ الله الذين آمنوا» منكم، أيها القوم، من الذين نَافَقُوا منكم.

وأما قوله: «ويتخذ منكم شهداء»، فإنه يعني: «وليعلم الله الذين آمنوا» وليتَّخِذَ منكم شهداء، أي: ليكرم منكم بالشهادة مَنْ أراد أن يكرمه بها.

وأما قوله: «والله لا يحبُّ الظالمين»، فإنه يعني به: الذين ظَلَمُوا أَنْفسَهُم

بمعصِيتِهم رَبَّهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ ١٤١﴾

يعني تعالى ذِكْرُه بقوله: «وليمحِّصَ اللهُ الذين آمنوا»، وليختبرَ اللهُ الذين صَدَّقُوا الله ورسوله، فيبتليهم بإدالةِ المشركين منهم، حتى يَتَبَيَّنَ المؤمن منهم المخلصَ الصحيحَ الإِيمان، من المنافق.

وأما قوله: «ويمحق الكافرين»، فإنه يعني به: أنه يُنْقِصُهُم ويُفْنِيهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ ١٤٢﴾

يعني بذلك جَلَّ ثناؤه: «أم حسبتم»، يامعشرَ أصحابِ محمدٍ، وظننتم «أنْ تدخلوا الجنة»، وتنالوا كرامةَ رَبِّكم، وشرفَ المنازلِ عنده «ولَمَّا يَعْلَمِ اللهُ الذين جاهدوا منكم»، يقول: ولَمَّا يتبيَّنْ لعبادي المؤمنين المجاهدُ منكم في سبيلِ الله على ما أمَرَهُ به.

وقوله: «ويعلم الصابرين»، يعني: الصابرينَ عند البأسِ على ما ينالهم في ذاتِ الله من جرحٍ وألمٍ ومكروه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ١٤٣﴾

يعني بقوله جل ثناؤه: «ولقد كنتم تمنون الموت»، ولقد كنتم، يامعشرَ أصحابِ محمد. «تَمَنَّوْنَ الموتَ»، يعني أسبابَ الموت، وذلك: القتالُ. «فقد رأيتمـوه»، فقد رأيتم ماكنتم تمنونه ـ و«الهاء» في قوله: «رأيتموه» عائدةٌ على «الموت»، والمعنيُّ: القتال. «وأنتم تنظرون»، يعني: قد رأيتموه بمرأىً منكم ومنظر، أي بِقُرْبٍ منكم.

وإنما قيل: «ولقد كنتم تمنون الموت من قبل أنْ تَلْقَوْهُ»، لأنَّ قوماً من أصحابِ رسولِ الله ﷺ مِمَّنْ لم يشهدْ بدراً، كانوا يتمنون قبلَ أُحُدٍ يوماً مثل يوم بدر، فيُبْلُوا الله من أنفسِهم خيراً، وينالوا من الأجرِ مثلَ ما نالَ أهل بدر. فلما كان يوم أُحد فَرَّ بعضُهم، وصبرَ بعضُهم حتى أوفَى بما كانَ عَاهَدَ الله قبل ذلك، فعاتب الله مَنْ فَرَّ منهم فقال: «ولقد كنتم تمنون الموت من قبل أن تلقوه»، الآية، وأثنى على الصابرين منهم والموفين بعهدهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾﴾

يعني تعالى ذِكْرُه بذلك: وما محمدٌ إلا رسولٌ كبعضِ رُسُلِ الله الذين أرسلهم إلى خَلْقِه، داعياً إلى الله وإلى طاعته، الذين حين انْقَضَتْ آجالُهم ماتوا وقَبَضَهُم الله إليه. يقول جل ثناؤه: فمحمدٌ ﷺ إنما هو فيما الله به صانعٌ من قَبْضِهِ إليه عند انقضاءِ مدةِ أجله، كسائرِ رُسُلِه إلى خَلْقِه الذين مَضَوْا قبله، وماتوا عند انقضاءِ مدةِ آجالهم.

ثم قال لأصحاب محمد، مُعَاتِبَهُم على ما كانَ منهم من الهَلَعِ والجزع حين قيلَ لهم بأُحُد: «إنَّ محمداً قُتل»، ومُقَبِّحاً إليهم انصرافَ مَن انصرفَ

منهم عن عَدُوِّهم وانهزامه عنهم: أفإنْ ماتَ محمدٌ، أيها القومُ، لانقضاءِ مدةِ أجله، أو قَتَلَهُ عَدُوٌّ. «انقلبتم على أعقابكم»، يعني: ارتددتم عن دِينكم الذي بعث الله محمداً بالدعاء إليه ورجعتم عنه كفاراً بالله بعد الإيمانِ به، وبعد ماقد وَضَحتْ لكم صحةُ ما دَعَاكُم محمد إليه، وحقيقةُ ماجاءكم به من عند ربه. «ومَنْ ينقلب على عقبيه»، يعني بذلك: ومَنْ يَرْتَدِدْ منكم عن دِينِهِ ويرجع كافراً بعد إيمانه، «فَلَنْ يَضُرَّ الله شيئاً» يقول: فلن يُوهِنَ ذلك عِزَّةَ اللهِ ولا سلطانه، ولا يدخل بذاك نقصٌ في مُلْكِه، بَلْ نَفْسَهُ يَضُرُّ بردَّتِه، وحَظَّ نَفْسِه يُنْقِصُ بكُفْرِهِ. «وسيجزي الله الشاكرين»، يقول: وسَيُثِيبُ اللهُ مَنْ شَكَرَهُ على توفيقِهِ وهدايتِهِ إياه لدينه، بثبوتِهِ على ماجاء به محمدٌ ﷺ إنْ هو ماتَ أو قُتِلَ، واستقامته على منهاجه، وتمسكه بدينه وملته بعده.

وذُكِرَ أنَّ هذه الآية أُنزلتْ على رسول الله ﷺ فيمن انهزمَ عنه بأُحُدٍ من أصحابه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًا﴾

يعني تعالى ذِكْرُه بذلك: وما يموتُ محمدٌ ولا غيره من خَلْقِ الله إلا بعد بلوغ أجله الذي جعله الله غايةً لحياتِهِ وبقائه، فإذا بلغ ذلك من الأجلِ الذي كتبه اللهُ له، وأذِنَ له بالموت، فحينئذٍ يموتُ. فأما قَبْلَ ذلك، فلن يموتَ بكيدِ كائدٍ ولا بحيلةِ محتال[1].

(١) هذا مذهب أهل السنة والجماعة، وخالفهم المعتزلة برأي فاسد مفاده أن المقتول ليس بميت، لأن القتل فعل العبد، والموت فعل الله سبحانه، وأنه لو لم يقتل لعاش إلى أجله الذي هو الموت!

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ جَلَّ ثناؤُهُ: ﴿وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلْآخِرَةِ نُؤْتِهِۦ مِنْهَا ۚ وَسَنَجْزِى ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٥﴾﴾

يعني بذلك جَلَّ ثناؤه: ومَنْ يُرِدْ منكم، أيها المؤمنونَ، بعمله جزاءً منه بعضَ أعراضِ الدنيا، دونَ ماعندَ اللهِ من الكرامة لمن ابتغى بعملِه ماعِنْدَهُ. «نُؤْتِهِ منها»، يقول: نُعْطِهِ منها، يعني من الدنيا، يعني أنه يعطيه منها ماقُسِمَ له فيها من رزقٍ أيامَ حياته، ثم لا نصيبَ له في كرامةِ الله التي أعَدَّهَا لمن أطاعَهُ وطَلَبَ ماعِنْدَهُ في الآخرة. «ومَنْ يُرِدْ ثوابَ الآخرة»، يقول: ومَنْ يُرِدْ منكم بعمله جزاءً منه ثواب الآخرة، يعني: ماعِنْدَ الله من كرامته التي أعَدَّها للعاملين له في الآخرة. «نُؤْتِهِ منها»، يقول: نُعْطِه منها، يعني من الآخرة. والمعنى: من كرامةِ الله التي خصَّ بها أهلَ طاعته في الآخرة. فخرج الكلامُ على الدنيا والآخرة، والمعنيُّ ما فيهما.

وأما قوله: «وسنجزي الشاكرين»، يقول: وسأُثِيبُ مَنْ شكر لي ما أوْلَيْتُه من إحساني إليه بطاعتهِ إيَّايَ، وانتهائه إلى أمري، وتجنُّبه محارمي في الآخرة مثل الذي وعدتُ أوليائي من الكرامةِ على شكرِهم إياي.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ﴾

اختلفت القَرَأَةُ في قراءة ذلك:

فقرأه بعضهم: ﴿وَكَأَيِّنْ﴾، بهمز «الألف» وتشديد «الياء».

وقرأه آخرون بمدِّ «الألف» وتخفيفِ «الياء».

وهما قراءتـان مشهـورتـان في قَرَأَةِ المسلمين، ولغتـان معروفتان، لا اختلافَ في معناهما، فبأيِّ القراءتين قرأ ذلك قارئٌ فمصيبٌ. لاتفاق معنى

ذلك، وشهرتهما في كلام العرب. ومعناه: وكَمْ مِنْ نَبيٍّ[1].

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَـٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ﴾

اختلفت القَرَأةُ في قراءة قوله: «قتل معه ربيون».

فقرأ ذلك جماعة من قَرَأةِ الحجاز والبصرة: ﴿قُتِلَ﴾، بضم القاف.

وقرأهُ جماعةٌ أُخَر بفتح «القاف» و«بالألف». وهي قراءةُ جماعة من قَرَأةِ الحجاز والكوفة.

فأما من قرأ ﴿قَاتَلَ﴾، فإنه اختار ذلك، لأنه قال: لو قُتلوا لم يكنْ لقولهِ: «فما وهنوا»، وجهٌ معروف. لأنه يستحيلُ أن يُوصَفُوا بأنهم لم يَهِنوا ولم يضعفوا بعد ماقتلوا.

وأما الذين قرأوا ذلك: ﴿قُتِلَ﴾ فإنهم قالوا: إنما عنَى بالقتلِ النبيَّ وبعضَ مَنْ معه من الربِّيينَ دونَ جميعهم، وإنما نفى الوَهْنَ والضعفَ عمن بقِيَ من الربيين ممن لم يقتل.

وأوْلى القراءتين في ذلك عندنا بالصواب، قراءة مَنْ قرأ بضم «القاف»[2]: ﴿قُتِلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ﴾، لأنَّ الله عز وجل إنما عاتب بهذه الآية والآياتِ التي قبلها ـ من قوله: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الجنَّة ولمَّا يَعْلَمِ اللهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ﴾ ـ الذين انهزموا يوم أُحُد وتركوا القتال، أو سمعوا الصائحَ يصيح: «إن محمداً قد قُتِلَ». فَعَذَلهم الله عَزَّ وجل على فِرارهم وتَرْكهم القتال فقال: **أفإنْ**

---

(١) ينظر معاني القرآن للزجاج: ١/٤٧٥.

(٢) حَسّن الفراء هذه القراءة (معاني القُران: ١/٢٣٧)، وكذلك الزجاج في معاني القرآن: ١/٤٧٦.

مات محمدٌ أو قُتِلَ، أيها المؤمنون، ارْتَدَدْتُم عن دِينكم وانقلبتم على أعقابكم؟ ثم أخبرهم عما كان مِنْ فِعْلِ كثيرٍ من أتباع الأنبياء قبلهم، وقال لهم: هلاَّ فعلتم كما كان أهلُ الفضلِ والعلم من أتباعِ الأنبياء قَبْلَكُم يفعلونه إذا قُتِلَ نبيهم ـ من المُضِيِّ على منهاجِ نبيهم، والقتالِ على دينه أعداءَ دينِ الله، على نحو ماكانوا يقاتلون مع نبيهم ـ ولم تهنوا ولم تضعفوا، كما لم يَضْعُفِ الذين كانوا قَبْلَكُم من أهلِ العلم والبصائرِ من أتباعِ الأنبياء إذا قُتِلَ نبيهم، ولكنهم صَبروا لأعدائِهم حتى حكم الله بينهم وبينهم؟ وبذلك من التأويل جاء تأويلُ المتأوِّلين.

وأما «الربيون»، فإنهم مرفوعون بقوله: «معه» لا بقوله: «قتل». وإنما تأويل الكلام: وكأين من نبيٍّ قُتل، ومعه رِبِّيون كثير فما وَهَنُوا لِمَا أصابهم في سبيل الله. وفي الكلام إضمار «واو»، لأنها «واو» تدل على معنى حال قَتْل النبيِّ ﷺ، غير أنه اجتزأ بدلالةِ ماذكَرَ من الكلامِ عليها من ذِكْرِهَا، وذلك كقولِ القائلِ في الكلام: «قُتِلَ الأميرُ معه جيشٌ عظيم»، بمعنى: قُتِلَ ومعه جيشٌ عظيم[٢].

و«الربيون» عندنا، الجماعاتُ الكثيرة، واحدهم «رِبِّي»، وهم الجماعة.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَمَا وَهَنُوا۟ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا۟ وَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿١٤٦﴾﴾

يعني بقـوله تعالى ذِكْرُه: «فما وَهَنُوا لما أصابهم في سبيل الله»، فما

---

(١) لو كان محقق «معاني القرآن» للزجاج اطلع على هذا لما غَلّط رأي الزجاج بسبب خلو الجملة من واو الحال.

عجزوا ـ لِمَا نالهم من ألمِ الجِراحِ الذي نالهم في سبيل الله، ولا لقتلِ مَنْ قُتِلَ منهم ـ عن حربِ أعـداءِ الله، ولا نَكَلُوا عن جهادهم. «وما ضعفوا»، يقول: وما ضعفت قُواهم لقتلِ نبيهم. «وما استكانوا»، يعني وما ذَلُّوا فيتخشَّعُوا لعدوِّهم بالدخولِ في دِينهم ومداهنتهم فيه خِيفةً منهم، ولكن مضوا قُدُماً على بصائرهم ومنهاجِ نبيِّهم، صبراً على أمرِ الله وأمرِ نبيهم، وطاعةً لله واتباعاً لتنزيلهِ ووحيه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِىٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ١٤٧﴾

يعني تعالى ذكره بقوله: «وما كان قولَهم»، وما كان قول الرِّبِّيين ـ و«الهاء والميم» من ذكر أسماء الربيين. «إلا أنْ قالوا»، يعني: ما كان لهم قولٌ سوى هذا القول، إذْ قُتِلَ نبيهم. وقوله: «ربنا اغفر لنا ذنوبنا»، يقول: لم يعتصموا، إذ قُتِلَ نَبِيُّهم، إلا بالصبرِ على ما أصابهم، ومجاهدةِ عدوهم، وبمسألةِ رَبِّهم المغفرةَ والنصرَ على عَدُوِّهم. ومعنى الكلام: وما كان قولهم إلَّا أنْ قالوا ربنا اغفرْ لنا ذنوبنا.

وأما «الإسرافُ»، فإنه الإفراطُ في الشيء: يقال منه: «أسرف فلانٌ في هذا الأمر»، إذا تجاوزَ مِقْدَارَهُ فأفرطَ.

ومعناه ههنا: اغفرْ لنا ذنوبنا: الصغارَ منها، وما أسرفنا فيه منها فَتَخَطَّيْنَا إلى العِظام. وكان معنى الكلام: اغفرْ لنا ذنوبنا، الصغائرَ منها والكبائر.

وأما قوله: «وثَبِّتْ أقدامنا»، فإنه يقول: اجعلنا مِمَّنْ يَثْبُتُ لحربِ عَدُوِّكَ وقتـالهم، ولا تجعلنـا مِمَّنْ ينهـزمُ فيفرّ منهم ولا يثبتُ قَدَمُهُ في مكانٍ واحدٍ

لحربهم. «وانصرنا على القوم الكافرين»، يقول: وانصرنا على الذين جَحَدُوا وَحْدَانِيَّتَكَ ونُبُوَّةَ نبيك.

وإنما هذا تأنيبٌ من الله عز وجل عبادَه الذين فرُّوا عن العدو يوم أُحُدٍ وتركوا قتالهم، وتأديبٌ لهم. يقول الله عز وجل: هَلَّا فعلتم إذ قيل لكم: «قُتِلَ نبيكم» ـ كما فعل هؤلاء الرِّبِّيُّونَ الذين كانوا قَبْلَكُم من أتباعِ الأنبياء إذْ قُتِلَتْ أنبياؤُهم، فصبرتم لعدوكم صَبْرَهم، ولم تَضْعفُوا وتستكينوا لعدوكم فتحاولوا الارتدادَ على أعقابِكم، كما لم يضعفْ هؤلاء الرِّبِّيون ولم يستكينوا لعدوهم، وسألتم رَبَّكُم النصرَ والظفرَ كما سألوا، فينصركم الله عليهم كما نُصِرُوا، فإن الله يحب من صَبر لأمرِه وعلى جهادِ عدوه، فيعطيه النصرَ والظفرَ على عدوه؟

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْـَٔاخِرَةِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ١٤٨﴾

يعني بذلك تعالى ذكره: فأعطى اللهُ الذين وَصَفَهم بما وَصَفَهم، من الصبرِ على طاعةِ الله بعد مقتلِ أنبيائهم، وعلى جهادِ عدوهم، والاستعانةِ بالله في أمورهم، واقتفائِهم مناهجَ إمامِهم على ما أبلوا في الله ـ «ثوابَ الدنيا»، يعني: جزاء في الدنيا: وذلك: النصرُ على عَدُوِّهم وعَدُوِّ الله، والظفرُ، والفتح عليهم، والتمكين لهم في البلاد. «وحسن ثواب الآخرة»، يعني: وخير جزاء الآخرة على ما أسلفوا في الدنيا من أعمالهم الصالحة، وذلك: الجنةُ ونعيمُها.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تُطِيعُوا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ فَتَنقَلِبُوا۟ خَـٰسِرِينَ ١٤٩﴾

يعني بذلك تعالى ذِكْرُه: يا أيها الذين صَدَّقُوا الله ورسوله في وَعْدِ الله ووعيده وأمره ونهيه. «إنْ تُطِيعُوا الذين كفروا»، يعني: الذين جحدوا نبوة نبيكم محمد ﷺ من اليهود والنصارى ـ فيما يأمرونكم به وفيما ينهونكم عنه ـ فَتَقْبَلُوا رَأْيَهُم في ذلك وتَنْتَصِحُوهم فيما يزعمون أنهم لكم فيه ناصحون. «يردوكم على أعقابكم»، يقول: يَحْمِلُوكم على الرِّدَّةِ بعد الإيمانِ، والكفرِ بالله وآياتِهِ وبرسولِهِ بعد الإسلام. «فتنقلبوا خاسرين»، يقول: فترجعوا عن إيمانكم ودينكم الذي هداكم الله له. «خاسرين»، يعني: هالكين، قد خسرتم أنفسكم، وضَلَلْتُم عن دِينكم، وذهبتْ دُنْيَاكُم وآخرتكم.

ينهى بذلـك أهـلَ الإيمـانِ بالله أنْ يُطيعـوا أهـلَ الكفـر في آرائهم وينتصحوهم في أديانهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ جَلَّ ثناؤُهُ: ﴿بَلِ ٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلنَّٰصِرِينَ ١٥٠﴾

ويعني بقوله: «بل الله مولاكم»، وليُّكُم وناصركم على أعدائِكم الذين كفروا، «وهو خير الناصرين»، لا مَنْ فَرَرْتُم إليه من اليهودِ وأهلِ الكفرِ بالله. فبالله الذي هو نَاصِرُكُم ومولاكم فاعتصِمُوا، وإياهُ فاستنصروا، دونَ غيرِهِ ممن يبغيكم الغوائلَ، ويرصدكم بالمكاره.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَالَى: ﴿سَنُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ بِمَآ أَشْرَكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا ۖ وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۚ وَبِئْسَ مَثْوَى ٱلظَّٰلِمِينَ ١٥١﴾

يعني بذلك جل ثناؤه: سيلقي الله، أيها المؤمنون، «في قلوب الذين كفروا» بربهم، وجَحَدُوا نُبُوَّةَ محمدٍ ﷺ، ممن حاربكم بأُحُد، «الرعبَ»، وهو الجـزعُ والهلع. «بما أشركوا بالله»، يعني: بشركهم بالله وعبادَتِهم الأصنامَ، وطاعَتِهم الشيطانَ التي لم أجعلْ لهم بها حُجَّةً ـ وهي «السلطان» ـ التي أخبر عز وجل أنه لم ينزله بكفرهم وشركهم.

وهـذا وعـدٌ من الله جَلَّ ثنـاؤه أصحـابَ رسـولِ الله ﷺ بالنصر على أعـدائهم، والفَلْج[1] عليهم، ما استقاموا على عَهْدِهِ، وتَمَسَّكُوا بطاعته. ثم أخبـرهم ماهو فاعلٌ بأعدائِهم بعد مصيرِهِم إليه، فقال جل ثناؤه: «ومأواهم النار»، يعني: ومرجعهم الذي يرجعون إليه يوم القيامة، النارُ. «وبئس مثوى الظالمين»، يقول: وبئس مقام الظالمين ـ الذين ظلموا أنْفُسَهُم باكتسابِهم ما أوجبَ لها عقابَ الله ـ النارُ[2].

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ

يعني بقوله تعالى ذكره: «ولقد صَدَقكم الله»، أيها المؤمنون من أصحابِ محمدٍ ﷺ بأُحُد، وَعْدَهُ الذي وعدهم على لسان رسوله محمد ﷺ.

و«الوعد» الذي كان وعَدهم على لسانهِ بأُحُد، قولُه للرماة: «اثبتوا مكانكم ولا تَبْرَحُوا، وإنْ رأيتمونا قد هزمناهم، فإنَّا لن نزال غالبين ماثَبَتُّمْ مكانَكُم»[3]. وكان وعَدَهُم رسولُ الله ﷺ النصرَ يومئذٍ إن انتهوا إلى أمره.

---

(١) الفلج: الظفر والفوز.

(٢) تأمل أيها القارىء جيداً التحذير الرباني من موالاة الكافرين، وإعلام الله بولايته لنا ونصرته إيانا عاجلاً أو آجلاً.

(٣) أخرج البخاري ٤/٥٩ و ٥/١٠٠ و ١٢٦ و ٦/٤٨ وغيره من حديث البراء بن عازب بمعنى هذا الحديث.

آل عمران: ١٥٢

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ﴾

يعني تعالى ذِكْرُه بذلك: ولقد وَفَى اللهُ لكم، أيها المؤمنون من أصحابِ رسولِ الله ﷺ، بما وَعَدَكُم من النصرِ على عَدُوِّكم بأُحُد حين «تَحُسُّونهم»، يعني: حين تقتلونهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ جَلَّ ثناؤُهُ: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِي ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ﴾

يعني بقوله جَلَّ ثناؤُه: «حتى إذا فشلتم»، حتى إذا جبنتم وضَعُفْتُم. «وتنازعتم في الأمر»، يقول: واختلفتم في أمرِ الله، يقول: وعَصَيْتُم وخالفتم نبيكم، فتركتم أَمْرَهُ وما عَهِدَ إليكم. وإنما يعني بذلك الرماة الذين كان أَمَرَهُم ﷺ بلزومِ مركزِهم ومقعدِهم مِنْ فَمِ الشِّعْبِ بأُحُد بإزاءِ خالد بن الوليد ومَنْ كان معه من فرسانِ المشركين.

وأما قوله: «مِنْ بعد ما أراكم ماتحبون»، فإنه يعني بذلك: من بعد الذي أراكم الله، أيها المؤمنون بمحمدٍ، من النصرِ والظفرِ بالمشركين، وذلك هو الهزيمةُ التي كانوا هزموهم عن نسائهم وأموالهم قبل تَرْكِ الرُّمَاةِ مقاعِدَهُم التي كان رسولُ الله ﷺ أقعدهم فيها، وقبل خروجِ خيلِ المشركين على المؤمنين من ورائهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَ﴾

يعني جَلَّ ثناؤه بقوله: «منكم مَنْ يريد الدنيا»، الذين تركوا مقعدهم الذي

أقعدهم فيه رسولُ الله ﷺ في الشِّعب من أُحُد لخيلِ المشركين، ولَحِقُوا بعسكرِ المسلمين طَلَبَ النَّهْبِ إذْ رأوا هزيمةَ المشركين. «ومنكم مَنْ يريدُ الآخرة»، يعني بذلك: الذين ثبتوا من الرماة في مقاعدهم التي أقعدهم فيها رسولُ ﷺ: واتَّبعوا أمْرَهُ، محافظةً على عهدِ رسولِ الله ﷺ، وابتغاءَ ماعندَ الله من الثوابِ بذلك من فعلهم والدار الآخرة.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ﴾

يعني بذلك جَلَّ ثناؤه: ثم صَرَفَكُم، أيها المؤمنون، عن المشركين بعد ماأراكم ماتحبون فيهم وفي أنفسكم، من هزيمتِكُم إيَّاهم وظهوركم عليهم، فَرَدَّ وجوهَكُم عنهم لمعصيتكم أمرَ رسولي، ومخالفتكم طاعته، وإيثاركم الدنيا على الآخرة، عقوبةً لكم على مافعلتم، «ليبتليكم»، يقول: لِيَخْتَبِرَكُم، فيتميز المنافقُ منكم من المخلص الصادقِ في إيمانهِ منكم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥٢﴾﴾

يعني بقوله جَلَّ ثناؤه: «ولقد عفا عنكم»، ولقد عفا الله ـ أيها المخالفون أمرَ رسولِ الله ﷺ، والتاركونَ طاعته فيما تقدم به إليكم من لزومِ الموضعِ الذي أمركم بلزومه عنكم، فصفح لكم من عقوبةِ ذنبكم الذي أتيتموه، عما هو أعظم مما عاقبكم به من هزيمةِ أعدائِكم إياكم، وصرفِ وجوهكم عنهم، إذْ لم يستأصل جَمْعَكَم.

وأما قوله: «والله ذُو فضلٍ على المؤمنين»، فإنه يعني: والله ذو طَوْل على أهلِ الإيمانِ به وبرسوله، بعفوه لهم عن كثيرِ ما يستوجبون به العقوبةَ عليه من

ذنوبهم، فإنْ عاقبهم على بعضِ ذلك، فَذُو إحسانٍ إليهم بجميلِ أياديهِ عندهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُۥنَ عَلَىٰٓ أَحَدٍ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِىٓ أُخْرَىٰكُمْ﴾

يعني بذلك جَلَّ ثناؤه: ولقد عفا عنكم، أيها المؤمنون، إذْ لم يستأصلكم إهلاكاً منه جَمْعَكُم بذنوبكم وهربكم. «إذ تصعدون ولا تلوون على أحد».

وأما قوله: «ولا تلوون على أحد»، فإنه يعني: ولا تعطفون على أحدٍ منكم، ولا يلتفت بعضُكم إلى بعضٍ، هَرَباً من عدوِّكم مصْعْدينَ في الوادي.

ويعني بقوله: «والرسولُ يدعوكم في أُخْرَاكم» ورسول الله ﷺ يدعوكم أيها المؤمنون به من أصحابه. «في أخراكم»، يعني: أنه يناديكم من خَلْفِكم: «إليَّ عبادَ الله، إليَّ عِبادَ الله[1]»!

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَأَثَٰبَكُمْ غَمًّۢا بِغَمٍّ لِّكَيْلَا تَحْزَنُواْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَآ أَصَٰبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٥٣﴾﴾

معنى قوله: «فأثابكم غمًّا بغم» أيها المؤمنون، بحرمانِ الله إياكم غنيمةَ المشركين والظفر بهم والنصر عليهم، وما أصابكم من القتلِ والجراحِ يومئذٍ - بعد الذي كان قد أراكم في كُلِّ ذلك ماتحبون - بمعصيتكم ربَّكم وخلافكم أمْـرَ نبيكم ﷺ، غمَّ ظنِّكم أنَّ نبيكم ﷺ قد قتـل، وميل العدوِّ عليكم بعد فلولكم منهم».

(١) في المطبوع: «عبدالله»، لعله من غلط الطبع.

وأما قوله: «والله خبير بما تعملون»، فإنه يعني جل ثناؤه: والله بالذي تعملون، أيها المؤمنون ـ من إصعادِكم في الوادي هرباً من عَدُوِّكُم، وانهزامكم منهم، وتركِكم نبيكم وهو يَدْعُوكُم في أُحراكم، وحزنكم على مافاتكم من عدوكم وما أصابكم في أنفسكم ـ ذُو خبرةٍ وعِلْمٍ، وهو مُحْصٍ ذلك كله عليكم، حتى يجازيكم به: المحسنَ منكم بإحسانِهِ، والمسيءَ بإساءته، أو يعفو عنه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ﴾

يعني بذلك جل ثناؤه: ثم أنزل الله. أيها المؤمنون. مِنْ بعد الغَمِّ الذي أثابكم رَبُّكم بعد غَمٍّ تقدمه قبله. «أمنةً»، وهي الأمانُ. على أهلِ الإخلاصِ منكم واليقين، دون أهلِ النفاق والشك.

ثم بَيَّنَ جَلَّ ثناؤه، عن «الأمنة» التي أنزلها عليهم، ماهي؟ فقال: «نعاساً»، بنصب «النعاس» على الإبدال من «الأمنة»[1].

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ﴾

يعني بذلك جل ثناؤه: «وطائفة منكم»، أيها المؤمنون. «قد أَهَمَّتْهُم أنفسهم»، يقول: هم المنافقون، لا همَّ لهم غير أنفسهم، فهم من حَذَرِ القتل على أنفسهم وخوفِ المنية عليها في شغل، قد طار عن أعينهم الكرى، يظنون

(١) ينظر معاني القرآن للزجاج: ١/٤٧٩.

بالله الظنونَ الكاذبة، ظَنَّ الجاهليةِ من أهلِ الشرك بالله، شكاً في أمر الله، وتكذيباً لنبيه ﷺ، ومَحْسَبَةً منهم أنَّ الله خاذلٌ نبيه ومُعْلٍ عليه أهلَ الكفرِ به، يقولون: هَلْ لنا من الأمرِ من شيء!

وأما قوله: «ظنّ الجاهلية»، فإنه يعني أهل الشرك.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: **﴿يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَيْءٍۗ قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِۗ يُخْفُونَ فِيٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَۖ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَاۗ﴾**

يعني بذلك الطائفةَ المنافقةَ التي قد أهمَّتهم أنفسهم، يقولون: ليس لنا من الأمرِ من شيءٍ، قُلْ إنَّ الأمرَ كُلَّهُ لله، ولو كان لنا من الأمرِ شيءٌ ماخرجنا لقتالِ مَنْ قاتلنا فقتلونا.

وهذا أمر مبتدأ من الله عز وجل، يقولُ لنبيهِ محمدٍ ﷺ: قُلْ، يامحمد، لهؤلاء المنافقين: «إنَّ الأمرَ كله لله»، يُصرفه كيف يشاء ويُدَبِّرُهُ كيف يحبُّ.

ثم عاد إلى الخبر عن ذِكْرِ نفاقِ المنافقين، فقال: «يُخْفُونَ في أنفسهم مالا يُبْدُونَ لك» يقول: يُخْفِي، يامحمدُ، هؤلاء المنافقون الذين وَصَفْتُ لك صِفَتهم، في أنفسهم من الكفرِ والشَّكِّ في الله، مالا يُبْدُونَ لكَ. ثم أظهر نبيَّهُ ﷺ على ماكانوا يُخْفُونَهُ بينهم من نِفَاقِهم، والحسرة التي أصابتهم على حضورهم مع المسلمين مشهدهم بأُحد، فقال مخبراً عن قِيلهم الكفرَ وإعلانِهم النفاقَ بينهم: «يقولون لو كان لنا من الأمرِ شيءٌ ماقُتِلْنَا ههنا»، يعني بذلك، أنَّ هؤلاء المنافقين يقولون: لو كان الخروجُ إلى حربِ مَنْ خَرَجْنَا لحربهِ من المشركينَ إلينا، ماخرجنا إليهم، ولا قُتِلَ مِنَّا أَحدٌ في الموضعِ الذي قُتِلُوا فيه بأُحُد.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُل لَّوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ ۖ وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿١٥٤﴾﴾

يعني بذلك جل ثناؤه: قُلْ، يامحمد، للذين وَصَفْتُ لكَ صِفَتَهم من المنافقين: لو كنتم في بيوتكم لم تَشْهَدُوا مع المؤمنين مشهدَهم، ولم تحضروا معهم حربَ أعدائِهم من المشركين، فيظهرَ للمؤمنين ماكنتم تُخْفُونَهُ من نِفاقِكم، وتكتمونه من شَكِّكُم في دِينكم - «لبرَزَ الذين كُتِبَ عليهم القَتْلُ»، يقول: لَظَهَرَ للموضعِ الذي كُتب عليه مَصْرَعُه فيه، مَنْ قد كُتِبَ عليه القتلُ منهم، ولخرجَ من بيتهِ إليه حتى يُصْرَعَ في الموضع الذي كُتب عليه أن يُصْرَعَ فيه.

ويعني بقوله: «وليبتليَ الله ما في صدوركم»، وليختبر الله الذي في صدوركم من الشك، فيميِّزَكُم - بما يُظْهِرُه للمؤمنين من نِفَاقِكم - من المؤمنين. «وليمحص ما في قلوبكم»، يقول: وليتبينوا مافي قلوبكم من الاعتقاد لله ولرسوله ﷺ وللمؤمنين من العداوة أو الولاية[1]. «والله عليمٌ بذات الصدور»، يقول: والله ذُو عِلْمٍ بالذي في صدور خَلْقِه من خيرٍ وشر، وإيمانٍ وكفر، لا يخفى عليه شيءٌ من أمورهم، سرائرها وعلانيتها، وهو لجميع ذلك حافظٌ، حتى يجازي جميعهم جزاءهم على قَدْرِ استحقاقهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا ۖ وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ

---

(١) انظر لزاماً ماكتبه صاحب «الظلال» عن «التمحيص» عند تفسيره لهذه الآية ففيه فائدة وبعد نظر.

حَلِيمٌ ﴿١٥٥﴾

يعني بذلك جَلَّ ثناؤه: إنَّ الذين ولَّوا عن المشركين، من أصحابِ رسولِ الله ﷺ يوم أُحُد وانهزموا عنهم.

وقوله: «يوم التقى الجمعان»، يعني: يوم التقى جمعُ المشركينَ والمسلمين بأُحُدٍ «إنما استزلهم الشيطان»، أي: إنما دعاهم إلى الزلَّة الشيطانُ. «ببعض ماكسبوا»، يعني ببعضِ ماعَمِلُوا من الذنوبِ. ﴿ولقد عفا الله عنهم»، يقول: ولقد تجاوز اللهُ عن عقوبة ذنوبهم فصفحَ لهم عنه. «إن الله غفور»، يعني به: مُغَطٍّ على ذنوب مَنْ آمنَ به واتَّبَعَ رسولَهُ، بعفوهِ عن عقوبتهِ إياهم عليها. «حليم»، يعني أنه ذُو أَنَاةٍ لا يعجلُ على مَنْ عصاه وخالفَ أمره بالنقمة.

وأما قوله: «ولقد عفا الله عنهم»، فإنَّ معناه: ولقد تجاوز اللهُ عن الذين وَلَّوا منكم يوم التقى الجمعان، أنْ يعَاقِبَهُم بتولِّيهم عن عَدُوِّهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَقَالُوا۟ لِإِخْوَٰنِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ كَانُوا۟ غُزًّى لَّوْ كَانُوا۟ عِندَنَا مَا مَاتُوا۟ وَمَا قُتِلُوا۟ لِيَجْعَلَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِى قُلُوبِهِمْ

يعني بذلك جل ثناؤه: يا أيها الذين صدَّقوا الله ورسولَهُ وأقرُّوا بما جاء به محمدٌ من عندِ الله، لاتكونوا كَمَنْ كَفَرَ بالله وبرسوله، فجحدَ نبوَّةَ محمدٍ ﷺ، وقال لإخوانه من أهل الكفر. «إذا ضَرَبُوا في الأرض» فخرجوا من بلادهم سَفَراً في تجارة. «أو كانوا غُزًّى»، يقول: أو كانَ خروجُهم مِنْ بلادِهم غُزَاةً فهلكوا فماتوا في سفرهم، أو قُتِلُوا في غزوهم. «لو كانوا عندنا ما ماتوا وما

قُتِلُوا»، يخبر بذلك عن قولِ هؤلاء الكفار أنهم يقولون لمن غزا منهم فَقُتِلَ، أو ماتَ في سفر خرج فيه في طاعةِ الله، أو تجارةٍ: لو لم يكونوا خرجوا من عندنا وكانوا أقاموا في بلادهم ما ماتوا وما قُتِلُوا. «ليجعلَ الله ذلك حَسْرةً في قلوبهم»، يعني: أنهم يقولون ذلك، كي يجعل الله قولَهم ذلك حُزْناً في قلوبهم وغَمًّا، ويجهلون أنَّ ذلك إلى اللهِ جَلَّ ثناؤُه وبيدهِ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ جَلَّ ثناؤُهُ: ﴿وَٱللَّهُ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١٥٦﴾﴾

يعني جل ثناؤه بقوله: «والله يُحْيِي ويميتُ»، واللهُ المُعَجِّلُ الموتَ لمن يشاءُ من حيثُ يشاء، والمميتُ مَنْ يشاءُ كُلَّمَا شاء، دونَ غيرِهِ من سائرِ خَلْقِه.

وهذا من الله عز وجل ترغيبٌ لعباده المؤمنينَ على جهادِ عَدُوِّهِ والصبر على قتالهم، وإخراجِ هَيْبَتِهم من صدورهم، وإنْ قَلَّ عَدَدُهم وكَثُرَ عَدَدُ أعدائِهم وأعداءِ الله، وإعلامٌ منه لهم أنَّ الإماتةَ والإحياءَ بيدهِ، وأنه لَنْ يموتَ أحدٌ ولا يقتل إلا بعد فناءِ أَجَلِهِ الذي كتب له، ونهيٌ منه لهم، إذْ كان كذلك، أنْ يَجْزَعُوا لموتِ مَنْ مات منهم أو قتل مَنْ قُتِلَ منهم في حربِ المشركين.

ثم قال جل ثناؤه: «والله بما تعملون بصيرٌ»، يقول: إنَّ الله يرى ماتعملون من خيرٍ وشر، فاتقوه أيها المؤمنون، إنه مُحْصٍ ذلك كُلّه، حتى يجازي كُلَّ عاملٍ بعمله على قَدْرِ استحقاقه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ جَلَّ ثناؤُهُ: ﴿وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿١٥٧﴾﴾

يخاطب جَلَّ ثناؤه عباده المؤمنين، يقول لهم: لاتكونوا، أيها المؤمنون، في شَكٍّ من أنَّ الأمورَ كُلَّها بيدِ الله، وأنَّ إليه الإحياء والإماتة، كما شَكَّ المنافقون في ذلك، ولكنْ جاهدوا في سبيل الله وقاتلوا أعداءَ الله، على يقينٍ منكم بأنه لا يُقْتَلُ في حربٍ ولا يموتُ في سفرٍ إلا مَنْ بلغَ أجلَهُ وحانت وفاتُه. ثم وَعَدَهُم على جهادِهم في سبيله المغفرةَ والرحمةَ، وأخبرهم أنَّ موتاً في سبيلِ الله أو قَتْلاً في الله، خيرٌ لهم مما يجمعون في الدنيا من حُطامها ورَغيدِ عَيْشِها الذي من أجله يتثاقلون عن الجهادِ في سبيلِ الله، ويتأخرون عن لقاءِ العدو.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى ٱللَّهِ تُحْشَرُونَ

﴾

يعني بذلك جل ثناؤه: ولَئِنْ مُتم أو قُتلتم، أيها المؤمنون، فإنَّ إلى الله مَرْجعكم ومحشركم، فيجازيكم بأعمالِكُم، فآثروا مايُقَرِّبُكم من الله ويوجبُ لكم رِضَاهُ ويقربكم من الجنة، من الجهادِ في سبيلِ الله والعملِ بطاعته، على الركونِ إلى الدنيا وما تجمعون فيها مِنْ حُطامِهَا الذي هو غير باقٍ لكم، بل هو زائلٌ عنكم، وعلى تَرْكِ طاعةِ الله والجهاد، فإنَّ ذلك يُبْعِدُكم عن رَبِّكم، ويوجبُ لكم سخطه، ويقرِّبكم من النار.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ﴾

يعني جل ثناؤه بقوله: «فبما رحمة من الله»، فبرحمةٍ من الله، و«ما» صلة.

وأما قوله: «ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك»، فإنه يعني بـ «الفظ» الجافي، وبـ «الغليظ القلب»، القاسي القلب، غير ذي رحمة ولا رأفة. وكذلك كانت صفته ﷺ، كما وصفه الله به: ﴿بالمؤمنين رؤوفٌ رحيم﴾. [التوبة: ١٢٨].

فتأويل الكلام: فبرحمة الله، يامحمد، ورأفته بك وبمن آمن بك من أصحابك «لِنْتَ لهم»، لتبَّاعِكَ وأصحابِكَ، فَسَهُلَتْ لهم خلائِقُكَ، وحَسُنَتْ لهم أخلاقك، حتى احتملتَ أذى مَنْ نالك منهم أذاهُ، وعفوتَ عن ذي الجرم منهم جرمَهُ، وأغضيتَ عن كثيرٍ ممن لو جفوتَ به وأغلظتَ عليه لتركَكَ ففارقكَ ولم يتَّبعكَ ولا مابُعثت به من الرحمة، ولكنَّ الله رحمهم ورحمك معهم، فبرحمةٍ من الله لِنْتَ لهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾﴾

إن الله عز وجل أمرَ نبيه ﷺ بمشاورة أصحابه فيما حَزَبَهُ من أمر عدوه ومكايدِ حربه، تألُّفاً منه بذلك مَنْ لم تكن بصيرتُه بالإسلام البصيرةَ التي يُؤْمَنُ عليه معها فتنةُ الشيطان وتعريفاً منه أُمَّتَهُ مأْتى الأمور التي تَحْزُبُهم من بعده ومطلبها، ليقتدوا به في ذلك عند النوازلِ التي تنزلُ بهم، فيتشاوروا فيما بينهم، كما كانوا يرونه في حياته ﷺ يفعله. فأما النبيُّ ﷺ، فإنَّ الله كان يُعَرِّفه مطالبَ وجوهِ ماحَزَبَهُ من الأمورِ بوحيِهِ أو إلهامِهِ إياه صوابَ ذلك. وأما أمته، فإنهم إذا تشاوروا مُسْتَنِّينَ بفعله في ذلك، على تصادُقٍ وتأخٍ[1] للحقِّ، وإرادةِ جميعهم

---

(١) توخّى الأمر: تحراه وقَصَدَهُ ويَمَّمَهُ.

للصوابِ، من غير ميلٍ إلى هوى، ولا حَيْدٍ عن هدى، فالله مُسَدِّدُهم وموفِّقُهم[(١)].

وأما قوله: «فإذا عزمت فتوكل على الله»، فإنه يعني: فإذا صحَّ عَزْمُكَ بتَثْبيتِنَا إياكَ، وتَسْدِيدِنَا لكَ فيما نَابَكَ وحَزَبَكَ من أمرِ دينكَ ودُنياكَ، فامضِ لما أمرناك به على ما أمرناك به، وافقَ ذلك آراءَ أصحابِكَ وما أشاروا به عليكَ، أو خالفها. «وتوكل»، فيما تأتي من أمورِكَ وتَدَع، وتحاول أو تزاول، على ربك، فَثِقْ به في كل ذلك، وارضَ بقضائهِ في جميعه، دون آراء سائرِ خَلْقِه ومعونتهم «فإنَّ الله يحب المتوكلين»، وهم الراضونَ بقضائهِ، والمستسلمونَ لِحُكْمِه فيهم، وافق ذلك منهم هوىً أو خالفه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِن يَنصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا الَّذِي يَنصُرُكُم مِّن بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ١٦٠﴾

يعني تعالى ذكره بذلك: «إن ينصركم الله»، أيها المؤمنون بالله ورسوله، على مَنْ ناوأكم وعاداكم من أعدائه والكافرين به. «فلا غالب لكم» من الناس، يقول: فَلَنْ يغلبكم مع نَصْرِه إياكم أحدٌ، ولو اجتمع عليكم مَن بين أقطارِها من خَلْقِه، فلا تهابُوا أعداءَ الله لقلةِ عَدَدِكُم وكثرةِ عَدَدِهم، ماكنتم على أمرِهِ واستقمتم على طاعتهِ وطاعةِ رسوله، فإنَّ الغَلَبَة لكم والظَّفر، دونهم. «وإن يخذُلكم فمن ذا الذي ينصركم من بعده»، يعني: إنْ يخذلكم رَبُّكم بخلافِكم أمره وترككم طاعتَهُ وطاعةَ رسوله، فَيَكِلَكُم إلى أنفسكم، «فمن ذا الذي ينصركم من بعده»، يقول: فَأَيِّسُوا من نُصْرَة الناسِ، فإنكم لاتجدون ناصراً من بعد

(١) لذلك ذهب ابن تيمية إلى أن المشاورة بين المسلمين مأمور بها، وأن الحاكم اذا استشار أهل المشورة فعليه اتباع ذلك، إن كان موافقاً للكتاب والسنة (انظر السياسة الشرعية: ١٨٣ ـ ١٨٤).

خِذْلانِ الله إياكم إنْ خَذَلكم، يقول: فلا تتركوا أمري وطاعتي وطاعة رسولي فتهلكـوا بخِذْلاني إياكم. «وعلى الله فليتوكل المؤمنون»، يعني: ولكن على ربكم، أيها المؤمنون، فتوكَّلُوا دونَ سائرِ خلقه، وبه فارضوا من جميع مَنْ دونه، ولقضائهِ فاستسلموا، وجاهدوا فيه أعداءَهُ، يَكْفِكُم بعونهِ، ويُمْدِدْكُم بنصرهِ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ﴾

إن معنى ذلك هو أنَّ الله عَزَّ وجل نفى بذلك أنْ يكون الغُلُولُ والخيانةُ من صفاتِ أنبيائه، ناهياً بذلك عبادَه عن الغُلُول، وآمراً لهم بالاستنان بمنهاجِ نبيهم، ثم عقَّب تعالى ذِكْرُه نهيَهم عن الغُلُولِ بالوعيدِ عليه فقال: «ومَنْ يغللْ يأتِ بما غَلَّ يوم القيامة»، الآيتين معاً.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾

يعني بذلك تعالى ذكره: ومَنْ يَخُنْ من غنائمِ المسلمين شيئاً وفيئهم وغير ذلك، يأتِ به يومَ القيامة في المحشر.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦١﴾﴾

يعني بقوله جل ثناؤه: «ثم تُوفَّى كل نفس»، ثم تُعطَى كُلُّ نفسٍ جزاءَ ماكسبت بكسبها، وافياً غيرَ منقوصٍ مما استحقهُ واستوجبَهُ من ذلك. «وهُمْ لايُظلمون»، يقول: لايُفْعَلُ بهم إلا الذي ينبغي أنْ يُفعَلَ بهم، من غير أنْ يُعْتَدَى عليهم فيُنقصوا عما استحقُّوه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَفَمَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَ اللَّهِ كَمَنْ بَاءَ بِسَخَطٍ مِنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١٦٢﴾﴾

معنى قوله: «أفمن اتبع رضوان الله كمن باء بسخط من الله» إذاً: أفمن تركَ الغلولَ وما نهاه الله عنه من معاصيه، وعَمِلَ بطاعةِ الله في تَرْكِهِ ذلك، وفي غيرِهِ مما أمرهُ به ونهاه من فرائضه، مُتَّبِعاً في كُلِّ ذلك رضى الله، ومجتنباً سخطه «كمن باء بسخط من الله»، يعني: كمن انصرف متحمِّلاً سَخَطَ الله وغضبه، فاستحق بذلك سُكْنَى جهنم؟ يقول: ليسا سواءً.

وأما قوله: «وبئس المصير»، فإنه يعني: وبئس المصير ـ الذي يصيرُ إليه ويؤوبُ إليه مَنْ باء بسخط من الله ـ جهنم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿هُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٣﴾﴾

يعني تعالى ذكره بذلك: أنَّ مَنِ اتَّبَعَ رِضوانَ الله ومَنْ باء بسَخَطٍ من الله، مختلفو المنازل عند الله. فلمن اتبع رِضوان الله، الكرامةُ والثوابُ الجزيلُ، ولمن باءَ بسَخَطٍ من الله، المهانةُ والعقابُ الأليمُ.

وأما قوله: «والله بصير بما يعملون»، فإنه يعني: والله ذُو عِلْمٍ بما يعملُ أهلُ طاعتهِ ومعصيته، لايخفى عليه من أعمالهم شيءٌ، يُحْصِي على الفريقين جميعاً أعمالَهم، حتى تُوَفَّى كُلُّ نفسٍ منهم جزاء ماكسبتْ من خيرٍ وشر.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ

﴿وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾﴾

يعني بذلك: لقد تَطَوَّلَ[1] اللهُ على المؤمنين «إذْ بعث فيهم رسولا»، حين أرسل فيهم رسولاً. «مِن أنفسهم»، نبيًّا من أهلِ لسانهم، ولم يجعله من غيرِ أهلِ لسانهم فلا يفقهوا عنه مايقول. «يتلو عليهم آياته»، يقول: يقرأ عليهم آيَ كتابِهِ وتنزيله. «ويُزَكِّيهم»، يعني: يُطَهِّرُهُم من ذنوبهم باتباعهم إياه وطاعتهم له فيما أمرهم ونهاهم. «ويعلمهم الكتاب والحكمة»، يعني: ويعلمهم كتابَ الله الذي أنزله عليه، ويبين لهم تأويله ومعانيه. «والحكمة»، ويعني بالحكمة، السُّنةَ التي سَنَّها اللهُ جل ثناؤه للمؤمنين على لسان رسولِ الله ﷺ، وبيانَه لهم. «وإنْ كانوا من قَبْلُ لفي ضلالٍ مبين»، يعني: وإنْ كانوا من قبل أنْ يَمُنَّ اللهُ عليهم بإرساله رسوله الذي هذه صفته. «لفي ضلال مبين»، يقول: في جهالةٍ جهلاء، وفي حيرةٍ عن الهدى عمياء لا يعرفون حقًّا، ولا يبطلون باطلاً.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ جَلَّ ثناؤُهُ: ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا ۖ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٦٥﴾﴾

يعني تعالى ذِكْرُه بذلك: أوَ حِينَ أصابتكُم، أيها المؤمنون، «مصيبةٌ»، وهي القتلى الذين قُتِلُوا منهم يوم أُحُد، والجرحى الذين جرحوا منهم بأُحُد، وكان المشركون قَتَلُوا منهم يومئذٍ سبعين نفراً ـ «قد أصبتم مِثْلَيْهَا»، يقول: قد أصبتم، أنتم أيها المؤمنون، من المشركين مثلي هذه المصيبة التي أصابوا هم

(١) هي معنى «مَنَّ»، والتطول: التفضل، كما في معجمات اللغة.

منكم، وهي المصيبةُ التي أصابَها المسلمونَ من المشركينَ ببدر، وذلك أنهم قتلوا منهم سبعين وأسروا سبعين. «قلتم أنَّى هذا»، يعني: قلتم لما أصابتكم مصيبتكم بأُحُد. «أنَّى هذا»، من أيِّ وجه هذا؟ ومِنْ أين أصابنا هذا الذي أصابنـا، ونحن مسلمـون وهم مشركون، وفينا نبيُّ اللهِ ﷺ يأتيه الوحيُ من السمـاء، وعـدوُّنـا أهـل كفـر بالله وشرك؟. «قل» يامحمد للمؤمنين بك من أصحـابـك. «هـو مِنْ عنـدِ أنفسِكُم»، يقول: قل لهم: أصابكم هذا الذي أصـابكم من عنـد أنفسكم، بخـلافِكُم أمـري وتَرْكِكم طاعتي، لا من عندِ غيركم، ولا مِنْ قِبَلِ أحدٍ سواكم. «إن الله على كل شيء قدير»، يقول: إن الله على جميع ماأراد بخلقهِ من عفوٍ وعقوبةٍ، وتفضلٍ وانتقام. «قدير»، يعني: ذو قدرة.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَمَآ أَصَٰبَكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٦٦﴾ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟

يعني تعالى ذِكْرُه بذلك: والذي أصابكم «يوم التقى الجمعان»، وهو يوم أُحُـد، حين التقى جَمْـع المسلمين والمشركين. ويعني بـ «الذي أصابهم»، مانالَ من القتل مَنْ قُتِلَ منهم، ومن الجِراحِ مَنْ جُرِحِ منهم. «فبإذن الله»، يقول: فهو بإذن الله كانَ، يعني: بقضائه وقَدَرِهِ فيكم.

«وليعلَمَ المؤمنين * وليعلَمَ الذين نافقوا»، بمعنى: وليعلم اللهُ المؤمنين، وليعلم الذين نافقوا، أصابكم ما أصابكم يوم التقى الجمعان بأُحُد، ليميِّز أهلَ الإيمانِ بالله ورسوله: المؤمنينَ منكم من المنافقين فيعرفونهم، لا يخفى عليهم أمرُ الفريقين.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ جَلَّ ثناؤهُ: وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ قَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ

ٱدْفَعُواْۖ قَالُواْ لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّٱتَّبَعْنَٰكُمْۗ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَٰنِۚ يَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْۗ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ ﴿١٦٧﴾

يعني تعالى ذِكْرُه بذلك عبدَالله بن أبيّ بن سلول المنافق وأصحابَه، الذين رجعوا عن رسولِ الله ﷺ وعن أصحابه، حين سار نبيُّ اللهِ ﷺ إلى المشركينَ بأُحُد لقتالهم، فقال لهم المسلمون: تعالوا قاتِلُوا المشركينَ معنا، أو ادفعوا بتكثيركُم سَوَادَنَا! فقالوا: لو نعلمُ أنكم تقاتلونَ لَسِرْنَا معكم إليهم، ولكنَّا معكم عليهم، ولكنْ لا نرى أنه يكونُ بينكم وبين القومِ قتالٌ! فأبدوْا من نفاقِ أنفسهم ماكانوا يكتمونه، وأبدوا بألسنتهم بقولهم: «لو نعلم قتالاً لاتبعانكم»، غيرَ ماكانوا يكتمونه ويُخْفُونَهُ من عداوةِ رسولِ الله ﷺ وأهلِ الإيمان به.

وأما قوله: «والله أعلم بما يكتمون»، فإنه يعني به: والله أعلم من هؤلاء المنافقين الذين يقولون للمؤمنين: «لو نعلمُ قتالاً لاتبعناكم»، بما يُضْمِرُونَ في أنفسهم للمؤمنين ويكتمونه فَيَسْتُرونَهُ من العداوةِ والشنآنِ، وأنهم لو علموا قتالاً ماتَبِعُوهم ولا دافعوا عنهم، وهو تعالى ذِكْرُه محيطٌ بما هم مُخْفُوهُ من ذلك، مُطَّلِعٌ عليه، ومُحْصِيه عليهم، حتى يهتكَ أستارهم في عاجل الدنيا فيفضحهم به، ويُصليهم به الدركَ الأسفلَ من النار في الآخرة.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ جَلَّ ثناؤُهُ: ٱلَّذِينَ قَالُواْ لِإِخْوَٰنِهِمْ وَقَعَدُواْ لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُواْۗ قُلْ فَٱدْرَءُواْ عَنْ أَنفُسِكُمُ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٦٨﴾

معنى الآية: وليعلم اللهُ الذين قالوا لإخوانِهم الذين أُصِيبُوا مع المسلمينَ في حربهم المشركينَ بأُحُدٍ يوم أحد فقتلوا هنالك من عشائرهم وقومهم

«وقعدوا»، يعني: وقعد هؤلاء المنافقون القائلون ماقالوا ـ مما أخبر اللهُ عَزَّ وجل عنهم من قِيلِهم ـ عن الجهادِ مع إخوانهم وعشائرهم في سبيل الله. «لو أطاعونا»، يعني: لو أطاعنا مَنْ قُتِلَ بأحُدٍ من إخواننا وعشائرنا. «ماقُتِلُوا» يعني: ماقُتِلُوا هنالك ـ قال الله عَزَّ وجَلَّ لنبيه محمدٍ ﷺ: «قُلْ»، يامحمد، لهؤلاء القائلينَ هذه المقالةَ من المنافقين ـ «فادْرَأُوا»، يعني: فادفعوا.

يقول تعالى ذِكْرُه: قل لهم: فادفعوا ـ إنْ كنتم، أيها المنافقون، صادقين في قِيلِكم: لو أطاعنا إخواننا في تَرْكِ الجهادِ في سبيل الله مع محمدٍ ﷺ وقتالهم أبا سفيان ومَنْ مَعَهُ من قريش، ماقُتِلُوا هنالك بالسيف، ولكانوا أحياء بقعودِهم معكم، وتَخَلُّفهم عن محمدٍ ﷺ وشهود جهادِ أعداءِ الله معه ـ عن أنفسكم الموتَ، فإنكم قد قعدتم عن حربهم وقد تَخَلَّفْتُم عن جهادِهم، وأنتم لا محالةَ ميتون

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ جَلَّ ثناؤُهُ: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾

يعني تعالى ذكره: «ولا تحسبن»، ولا تَظُنَّنَّ.

وقوله: «الذين قتلوا في سبيل الله»، يعني: الذين قُتِلُوا بأُحُدٍ من أصحاب رسولِ الله ﷺ[1]. «أمواتاً»، يقول: ولا تحسبنَّهم، يامحمد، أمواتاً لايُحِسُّون شيئاً ولا يلتذُّونَ ولا يَتَنَعَّمُونَ، فإنهم أحياء عندي، متنعمون في رزقي، فَرِحُونَ مسرورون بما آتَيْتُهم من كرامتي وفضلي، وحَبَوْتُهم به من جزيلِ ثوابي وعطائي.

---

(١) وكذلك كل من مات في سبيل الله، أي من أجل أن تكون كلمة الله هي العليا، لتواتر الأحاديث النبوية الشريفة في ذلك.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ جَلَّ ثناؤُهُ: ﴿وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾﴾

يعني بذلك تعالى ذِكْرُه: يفرحون بمن لم يَلْحَقْ بهم من إخوانهم الذين فارقوهم وهم أحياء في الدنيا على مناهجهم من جهادِ أعداءِ الله مع رسوله، لعلمهم بأنهم إن استشهدوا فَلَحِقُوا بهم صارُوا من كرامةِ الله إلى مِثْلِ الذي صاروا هم إليه، فهم لذلك مستبشرون بهم، فَرِحُونَ أنهم إذا صاروا كذلك. «ألا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون»، يعني بذلك: لا خوف عليهم، لأنهم قد أُمِنُوا عقابَ الله، وأيقنوا برضاه عنهم، فقد أَمِنُوا الخوفَ الذي كانوا يخافونه من ذلك في الدنيا، ولا هم يحزنون على ماخَلَّفُوا وراءهم من أسبابِ الدنيا ونَكَدِ عيشها، للخفضِ الذي صارُوا إليه والدَّعَةِ والزُّلْفَةِ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٧١﴾﴾

يقول جَلَّ ثناؤُه: «يستبشرون»، يفرحون. «بنعمة من الله»، يعني: بما حَبَاهم به تعالى ذِكْرُه من عظيم كرامتِهِ عند ورودهم عليه. «وفضل» يقول: وبما أسبغ عليهم من الفضلِ وجزيلِ الثوابِ على ماسَلَفَ منهم من طاعةِ الله ورسوله ﷺ وجهادِ أعدائه، «وأنَّ الله لا يضيع أجر المؤمنين».

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٢﴾﴾

يعني بذلك جَلَّ ثناؤه: «وأنَّ الله لايضيعُ أجر المؤمنين»، المستجيبين لله

والرسول من بعد ما أصابهم الجراح والكُلُوم.

فوعد تعالى ذكره، مُحْسِنَ مَنْ ذكرنا أمْرَهُ من أصحابِ رسولِ الله ﷺ، الذين استجابوا لله والرسولِ من بعد ما أصابهم القَرْح، إذا اتقى الله فَخَافَهُ، فأدَّى فرائِضَـهُ وأطاعه في أمره ونهيِهِ فيما يستقبلُ من عمره ـ «أجراً عظيما»، وذلك الثوابُ الجزيل، والجزاءُ العظيم على ماقَدَّمَ من صالحِ أعماله في الدنيا.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَـٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾﴾

يعني تعالى ذكره: «وأنَّ الله لا يضيع أجر المؤمنين»، «الذين قال لهم الناس إنَّ الناس قد جمعوا لكم».

و«الـذين» في موضعِ خفض مردود على «المؤمنين»، وهذه الصفةُ من صفةِ الذين استجابوا لله والرسول.

و«الناس» الأوّل، هم قومٌ ـ فيما ذُكِرَ لنا ـ كان أبو سفيان سألهم أن يُثَبِّطُوا رسولَ الله ﷺ وأصحابه الذين خرجوا في طلبه بعد مُنْصَرَفِهِ عن أُحُدٍ إلى حمراء الأسد.

و«الناس» الثاني، هم أبو سفيان وأصحابهُ من قريش، الذين كانوا معه بأُحُد.

ويعني بقوله: «قد جمعوا لكم»، قد جمعوا الرجالَ لِلقَائِكُم والكرَّة إليكم لحربكم. «فاخشوهم»، يقول: فاحذروهم، واتقوا لقاءَهُم، فإنه لا طاقةَ لكم بهم «فـزادهم إيماناً»، يقول: فزادهم ذلك من تخويف مَنْ خَوَّفهم أمرَ أبي سفيان وأصحابه من المشركين، يقيناً إلى يقينهم، وتصديقاً لله ولَوَعْدِهِ ووعدِ

رسولِه إلى تصديقهم، ولم يُثْنِهم ذلك عن وجههم الذي أمرهم رسولُ الله ﷺ بالسيرِ فيه، ولكن ساروا حتى بَلَغُوا رضوانَ الله منه «وقالوا» ثقةً بالله وتوكلاً عليه، إذْ خوَّفهم مَنْ خَوَّفهم أبا سفيان وأصحابه من المشركين: «حَسْبُنَا اللهُ ونعم الوكيل»، يعني بقوله: «حسبنا الله»، كفانا الله، يعني: يكفينا الله. «ونعم الوكيل»، يقول: ونعم المولى لمنْ وليَهُ وكَفِلَهُ.

وإنما وصف تعالى نفسَهُ بذلك، لأنَّ «الوكيل»، في كلام العرب، هو المسنَدُ إليه القيامُ بأمرِ مَنْ أسند إليه القيامُ بأمره. فلما كان القوم الذين وَصَفَهم الله بما وصفهم به في هذه الآيات، قد كانوا فَوَّضُوا أمرَهُم إلى اللهِ ووثِقُوا به، وأسندوا ذلك إليه، وصف نفسه بقيامِهِ لهم بذلك، وتفويضِهِم أمْرَهُم إليهِ بالوكالةِ فقال: ونعم الوكيلُ الله تعالى لهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَانقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾﴾

يعني جل ثناؤه بقوله: «فانقلبوا بنعمة من الله»، فانصرفَ الذين استجابُوا للهِ والرسولِ من بعد ما أصابَهُمُ القَرْحُ، من وجههم الذي تَوَجَّهُوا فيه ـ وهو سيرهم في أثرِ عدوهم ـ إلى حمراءِ الأسد. «بنعمةٍ من الله»، يعني: بعافيةٍ من ربهم، لم يَلْقَوْا بها عدوًّا. «وفضلٍ»، يعني: أصابوا فيها من الأرباح بتجارتهم التي تَجَرُوا بها، الأجرَ الذي اكتسبوه: «لم يمسسهم سوء» يعني: لم يَنَلْهُمْ بها مكروهٌ من عدوِّهم ولا أذىً. «واتبعوا رضوان الله»، يعني بذلك: أنهم أرضوا اللهَ بفعلِهم ذلك، واتباعِهم رسولَهُ إلى مادَعَاهم إليه من اتباع أثرِ العدوِّ، وطاعتهم. «والله ذو فضلٍ عظيم»، يعني: والله ذو إحسان وطَوْل عليهم ـ بِصَرْفِ عَدُوِّهم الذي كانوا قد همُّوا بالكرةِ إليهم، وغير ذلك من أياديه عندهم وعلى غيرهم ـ بنعَمِهِ. «عظيم» عند من أنعم به عليه من خَلْقِه

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ﴾

يعني بذلك تعالى ذِكْرُه: إنما الذي قال لكم، أيها المؤمنون: «إن الناس قد جمعوا لكم»، فَخَوَّفُوكم بجموعِ عدوِّكم ومسيرِهم إليكم، من فِعْلِ الشيطانِ ألقاهُ على أفواه مَنْ قال ذلك لكم، يخوفكم بأوليائه من المشركين ـ أبي سفيان وأصحابه من قريش ـ لترهبوهم وتجبُنوا عنهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٥﴾﴾

يقول: فلا تخافوا، أيها المؤمنون، المشركين، ولا يعظُمَنَّ عليكم أمرهم، ولا تَرْهَبُوا جَمْعَهم، مع طاعتكم إياي، ما أطعتموني واتبعتم أمري، وإني متكفِّلٌ لكم بالنصر والظفر. ولكنْ خافونِ واتقوا أنْ تعصوني وتخالفوا أمري فتهلكوا «إن كنتم مؤمنين»، يقول: ولكن خافونِ دون المشركينَ ودون جميع خَلْقي، أنْ تُخَالِفُوا أمري، إنْ كنتم مُصَدِّقي رسولي وما جاءكم به من عندي.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْكُفْرِ ۚ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ﴾

يقول جل ثناؤه: ولا يحزنك، يامحمد، كُفْرُ الذين يسارعون في الكُفْر مرتدِّين على أعقابهم من أهلِ النفاق، فإنهم لن يضروا الله بمسارعتهم في الكُفر شيئاً، وكما أنَّ مسارعتهم لو سارعوا إلى الإيمان لم تكن بنافعته. كذلك مسارعتهم إلى الكفر غير ضارَّته.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِي ٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٦﴾﴾

يعني بذلك جَلَّ ثناؤه: يريد الله أنْ لا يجعلَ لهؤلاء الذين يسارعون في الكفر، نصيباً في ثوابِ الآخرة، فلذلك خَذَلهم فسارعوا فيه. ثم أخبر أنهم مع حرمانهم ماحرموا من ثواب الآخرة، لهم عذابٌ عظيمٌ في الآخرة، وذلك عذابُ النار.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٧﴾﴾

يعني بذلك جَلَّ ثناؤه المنافقين الذين تقدَّم إلى نبيه ﷺ فيهم: أنْ لا يُحْـزِنَهُ مُسَارَعَتُهم إلى الكفر، فقال لنبيه ﷺ: إنَّ هؤلاء الذين ابتاعوا الكفرَ بإيمانهم فارتدوا عن إيمانِهم بعد دخولهم فيه، ورَضُوا بالكفرِ بالله وبرسوله عوضاً من الإيمـان، لن يَضُـرُّوا اللهَ بكفرِهم وارتدادِهم عن إيمانهم شيئاً، بَلْ إنَّما يضرون بذلك أنفسَهُم، بإيجابِهم بذلك لها من عقابِ الله مالا قِبَلَ لها به.

وإنما حَثَّ الله جَلَّ ثناؤه بهذه الآيات من قوله: ﴿وما أَصَابكم يَوْمَ ٱلْتقَى الجَمْعَانِ فَبِإذْنِ الله﴾ إلى هذه الآية، عبادَه المؤمنين على إخلاصِ اليقين، والانقطاع إليه في أمورهم، والرضى به ناصراً وحدَهُ دونَ غيرِهِ من سائر خلقه، ورغَّب بها في جهادِ أعدائه وأعداء دينه، وشجَّع بها قلوبهم، وأعلمهم أنَّ مَنْ وليه بنصره فلن يخذل ولو اجتمع عليه جميعُ مَنْ خالفه وحادَّهُ، وأنَّ مَنْ خذله فَلَنْ يَنْصُرَهُ ناصرٌ ينفعُه نصرُه، ولو كَثُرَتْ أعوانُه ونصراؤه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ ۚ إِنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِثْمًا ۚ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٧٨﴾﴾

يعني بذلك تعالى ذِكْرُه: ولا يَظُنَّنَّ الذين كفروا بالله ورسوله وما جاء به

من عند الله، أنَّ إملاءنا لهم خيرٌ لأنفسهم.

وتأويل قوله: «إنما نُملي لهم ليزدادوا إثماً»، إنما نُؤَخِّرُ آجالهم فَنُطِيلُها ليزدادوا إثمـاً، يقول: ليكتسبوا المعاصي فتزداد آثامُهم وتَكْثُر. «ولهم عذاب مهين»، يقول: ولهؤلاء الذين كفروا بالله ورسوله في الآخرة عقوبة لهم مهينة مذلة.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ﴾

يعني بقوله: «ما كان الله ليذر المؤمنين»، ما كان الله لِيَدَعَ المؤمنين. «على ماأنتم عليه» من التباسِ المؤمنِ منكم بالمنافقِ، فلا يعرف هذا من هذا. «حتى يميز الخبيثَ من الطيب»، يعني بذلك: «حتى يميز الخبيث» وهو المنافق المُسْتَسِرُّ للكفرِ. «من الطيب»، وهو المؤمنُ المخلصُ الصادقُ الإيمان بالمحن والاختبار، كما ميَّز بينهم يوم أُحُد عند لقاء العدوِّ عند خروجهم إليهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجْتَبِي مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾

وما كان الله لِيُطْلِعَكُم على ضمائرِ قلوبِ عباده فتعرفوا المؤمنينَ منهم من المنافقِ والكافرِ، ولكنه يميزُ بينهم بالمحن والابتلاء ـ كما مَيَّزَ بينهم بالبأساءِ يوم أُحُد ـ وجهاد عدوه، وما أشْبَهَ ذلك من صنوفِ المحن، حتى تعرفوا مؤمنهم وكافرهم ومنافقهم. غير أنه تعالى ذِكْرُه يجتبي من رُسُلِه مَنْ يشاء فيصطفيه، فَيُطْلِعُه على بعض مافي ضمائرِ بعضِهم، بوحيِهِ ذلك إليه ورسالته[1].

(١) فهذا خاص بالرسلِ عليهم السلام لا يتعدى إلى أحدٍ من خلقه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَإِن تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٩﴾﴾

يعني جل ثناؤه بقوله: «وإن تؤمنوا»، وإنْ تُصَدِّقُوا من اجتبيتهُ من رُسلي بعلمي وأطلعتهُ على المنافقين منكم. «وتتقوا» رَبَّكُم بطاعته فيما أمركم به نبيكم محمد ﷺ وفيما نهاكم عنه. «فلكم أجر عظيم»، يقول: فلكم بذلك من إيمانِكم واتقائِكم رَبَّكُم، ثوابٌ عظيم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَّهُم بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ﴾

(يعني): ولا تحسبن، يامحمد، بُخْلَ الذين يبخلون بما أعطاهم الله في الدنيا من الأموال، فلا يُخْرِجُونَ منه حَقَّ الله الذي فَرَضَهُ عليهم فيه من الزكواتِ، هو خيراً لهم عندَ اللهِ يومَ القيامةِ، بَلْ هو شَرٌّ لهم عنده في الآخرة.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾

يعني بقوله جل ثناؤه: «سيطوَّقون»، سيجعل الله مابَخِلَ به المانعونَ الزكاةَ، طوقاً في أعناقهم كهيئةِ الأطواقِ المعروفة.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٨٠﴾﴾

يعني بذلك جل ثناؤه: أنه الحَيُّ الذي لا يموتُ، والباقي بعد فَناء جميع

خَلْقِه.

فإنْ قالَ قائـلٌ: فمـا معنى قولـه: «ولله ميراثُ السمـوات والأرض»، و«الميراث» المعروف، هو ما انتقلَ مِن مُلْكِ مالكٍ إلى وارثِه بموتِه، ولله الدنيا قبل فناء خَلْقِه وبعده؟

قيل: إنَّ معنى ذلك ماوصفنا، مِنْ وَصْفِهِ نَفْسَهُ بالبقاء، وإعلام خَلْقِه أنه كُتِبَ عليهم الفناءُ. وذلك أنَّ مُلْكَ المالكِ إنما يصيرُ ميراثاً بعد وفاته، فإنما قال جل ثنـاؤه: «ولله ميراثُ السموات والأرض»، إعلاماً بذلك منه عبادَه أنَّ أملاكَ جميع خَلْقِه منتقلة عنهم بموتهم، وأنه لا أحدَ إلَّا وهو فانٍ سواه، فإنه الذي إذا أهلك جميع خَلْقِه فزالت أملاكُهم عنهم، لم يَبْقَ أحدٌ يكون له ما كانوا يملكونه غيره.

وإنما معنى الآية: «لاتحسبن الذين يبخلون بما آتاهم اللهُ من فضلهِ هو خيراً لهم بَلْ هو شَرٌّ لهم سيطوقون مابخلوا به يوم القيامة»، بعد ما يهلكون وتـزولُ عنهم أمـلاكُهم، في الحين الذي لا يملكون شيئاً، وصار لله ميراثه وميراث غيره من خلقه.

ثم أخبر تعالى ذِكْرُه أنه بما يعمل هؤلاء الذين يبخلون بما آتاهمُ اللهُ من فضل وغيرهم من سائرِ خَلْقِه، ذُو خبرةٍ وعلم، محيط بذلك كله، حتى يجازيَ كلًّا منهم على قَدْرِ استحقـاقـه، المحسنَ بالإحسان، والمسيءَ على مايرى تعالى ذِكْرُه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُواْ وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾

ذُكِرَ أنَّ هذه الآية وآيات بعدها نَزَلَتْ في بعضِ اليهود الذين كانوا على

عهدِ رسولِ الله ﷺ.

فتأويل الآية إذاً: لقد سمع الله قولَ الذين قالوا من اليهود: «إنَّ الله فقيرٌ إلينا ونحنُ أغنياء عنه»، سنكتبُ ماقالوا من الإفكِ والفِرْيةِ على ربهم، وقتلهم أنبياءَهُم بغير حق.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَنَقُولُ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿١٨١﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿١٨٢﴾﴾

يعني بذلك جل ثناؤه: «ونقول» للقائلين بأنَّ الله فقيرٌ ونحنُ أغنياء، القائلينَ أنبياءَ الله بغير حقٍّ يوم القيامة. «ذوقوا عذاب الحريق»، يعني بذلك: عذاب نار محرقة ملتهبة.

و«النار» اسمٌ جامع للمُلْتَهِبَةِ منها وغير الملتهبة، وإنما «الحريق» صفةٌ لها يراد أنها محرقة، كما قيل: «عذابٌ أليم» يعني: مؤلم، و«وجيع»، يعني: موجع.

وأما قوله: «ذلك بما قدمت أيديكم»، أي: قولنا لهم يوم القيامة، «ذوقوا عذاب الحريق»، بما أسلفت أيديكم واكتسبتها أيام حياتكم في الدنيا، وبأن الله عَدْلٌ لايجورُ فيعاقب عبداً له بغير استحقاقٍ منه العقوبةَ، ولكنه يجازي كُلَّ نفسٍ بما كسبت، ويوفّي كُلَّ عاملٍ جزاءَ ما عَمِلَ، فجازى الذين قال لهم ذلك يوم القيامة من اليهود الذين وَصَفَ صِفَتَهُم، فأخبر عنهم أنهم قالوا: «إنَّ الله فقير ونحن أغنياء»، وقتلوا الأنبياءَ بغير حَقٍّ بما جازاهم به من عذاب الحريق، بما اكتسبوا من الآثامِ، واجترحوا من السيئاتِ، وكذبوا على الله بعد الإعذار إليهم بالإنذار. فلم يكن تعالى ذِكْرُه بما عاقبهم به من إذاقَتِهم عذابَ الحريق ظالماً، ولا واضعاً عقوبَتَهُ في غير أهلها. وكذلك هو جَلَّ ثناؤه، غيرُ ظَلَّامٍ أحداً

من. خَلْقِه، ولكنه العادلُ بينهم، والمتفضلُ على جميعهم بما أحبَّ من فَوَاضلِه ونِعمه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ عَهِدَ إِلَيۡنَآ أَلَّا نُؤۡمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأۡتِيَنَا بِقُرۡبَانٖ تَأۡكُلُهُ ٱلنَّارُۗ قُلۡ قَدۡ جَآءَكُمۡ رُسُلٞ مِّن قَبۡلِي بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَبِٱلَّذِي قُلۡتُمۡ فَلِمَ قَتَلۡتُمُوهُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ١٨٣﴾

يعني بذلك جل ثناؤه: لقد سمع اللهُ قولَ الذين قالوا: «إن الله عهد إلينا أن لانؤمن لرسول».

وقوله: «الذين قالوا إن الله»، في موضعِ خفض ردًّا على قوله: «الذين قالوا إن الله فقيرٌ».

ويعني بقوله: «قالوا إنَّ الله عهد إلينا أنْ لا نؤمنَ لرسول»، أوصانا، وتقدم إلينا في كتبه وعلى ألسن أنبيائه «أن لا نؤمن لرسول»، يقول: أن لا نصدّق رسولاً فيما يقول إنه جاء به من عند الله من أمرٍ ونهي وغير ذلك. «حتى يأتينا بقربانٍ تأكله النار»، يقول: حتى يجيئنا بقربانٍ: وهو ماتَقَرَّبَ به العبدُ إلى ربه من صَدَقة.

فقال الله تعالى لنبيه محمد ﷺ: قل، يامحمد، للقائلين: إنَّ الله عَهِدَ إلينا أنْ لا نؤمنَ لرسولٍ حتى يأتينا بقربان تأكله النار: «قد جاءكم رُسُلٌ من قبلي بالبينـات»، يعني: بالحجـج الـدالـة على صِدْقِ نبوتهم وحقيقة قولهم «وبالذي قلتم»، يعني: وبالذي ادَّعيتم أنه إذا جاءَ به لزمكم تَصْدِيقهُ والإقرار بنبوتهِ، من أكلِ النار قُربانَهُ إذا قرَّب لله دلالةً على صِدْقِه، «فَلِمَ قتلتموهم إنْ كنتم صادقين»، يقول له: قل لهم: قد جاءتكم الرسلُ الذين كانوا من قبلي بالذي زعمتم أنه حُجَّةٌ لهم عليكم، فقتلتموهم، فَلِمَ قتلتموهم وأنتم مُقِرُّونَ بأنَّ

الذي جاؤوكم به من ذلك كان حجةً لهم عليكم. «إنْ كنتم صادقين» في أنَّ الله عَهِدَ إليكم أنْ تؤمنوا بمن أتاكم من رُسُلِه بقُربانٍ تأكلهُ النارُ حجةً له على نبوته؟

وإنما أعلمَ اللهُ عبادَهُ بهذه الآية: أنَّ الذين وصف صِفَتهم من اليهودِ الذين كانوا على عهدِ رسولِ الله ﷺ، لن يَعْدُوا أنْ يكونوا في كَذِبهم على الله وافترائهم على ربهم وتكذيبهم محمداً ﷺ، وهم يعلمونه صادقاً محقًّا، وجحودهم نُبُوَّتَهُ وهم يجدونه مكتوباً عندهم في عهدِ الله تعالى إليهم أنه رسولُه إلى خَلْقِه، مفروضة طاعته إلاَّ كمن مضى مِنْ أسلافِهم الذين كانوا يقتلون أنبياءَ الله بعد قَطْعِ الله عُذْرَهُم بالحججِ التي أيَّدَهُم اللهُ بها، والأدلة التي أبانَ صِدْقَهُم بها، افتراءً على الله، واستخفافاً بحقوقه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ جَلَّ ثناؤُهُ: ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ جَآءُو بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ ﴿١٨٤﴾﴾

وهذا تعزيةٌ من الله جَلَّ ثناؤه نبيَّه محمداً ﷺ على الأذى الذي كان ينالُه من اليهودِ وأهلِ الشركِ باللهِ من سائرِ أهلِ المللِ. يقول الله تعالى له: لايحزنك، يامحمد، كَذِبُ هؤلاء الذين قالوا: «إن الله فقير»، وقالوا: «إنَّ الله عَهِدَ إلينا أنْ لا نؤمنَ لرسولٍ حتى يأتينا بقربان تأكله النار»، وافتراؤهم على رَبِّهم اغتراراً بإمهالِ اللهِ إياهم، ولا يَعْظُمَنَّ عليكَ تكذيبُهم إياكَ، وادعاؤهم الأباطيلَ من عهودِ الله إليهم، فإنهم إنْ فعلوا ذلك بك فَكَذَّبوكَ وكذبُوا على الله، فقد كذَّبتْ أسلافُهم من رُسُلِ الله قَبْلَكَ مَنْ جاءهم بالحججِ القاطعةِ العُذْرَ، والأدلةِ الباهرةِ العقلَ، والآياتِ المعجزة الخَلْقَ، وذلك هو البينات.

وأما «الزبر» فإنه جمع «زبور»، وهو الكتابُ، وكل كتاب فهو: «زبور».

وإنمـا قال: «تأكله النار»، لأنَّ أكلَ النارِ ما قَرَّبَهُ أحَدُهم لله في ذلك الزمان، كان دليلاً على قَبُولِ الله منه ماقُرِّبَ له، ودلالةً على صِدْقِ المُقَرِّبِ فيما ادَّعى أنه مُحِقٌّ فيما نازَعَ أو قال.

ويعني: بـ«الكتاب»، التوراة والإنجيل. وذلك أنَّ اليهودَ كذَّبَتْ عيسى وما جاء به، وحرَّفتْ ماجاء به موسى عليه السلام من صِفَةِ محمدٍ ﷺ، وبَدَّلَتْ عَهْدَهُ إليهم فيه، وأن النصـارى جحـدت مافي الإنجيل من نَعْتِـه، وغَيَّرتْ ماأمرهم به في أمره.

وأما قوله: «المنير»، فإنه يعني: الذي يُنير فيبينُ الحَقَّ لمن التبسَ عليه ويُوَضِّحه.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَـالَى: كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِۖ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَۗ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَـٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿١٨٥﴾

يعني بذلك تعالى ذِكْرُه: أنَّ مصيرَ هؤلاء المفترين على الله من اليهود، المُكَذِّبينَ برسوله، الذين وَصَفَ صِفَتَهُم، وأخبر عن جراءتهم على ربهم ومصير غيرهم من جميع خَلْقِه تعالى ذِكْرُه، ومرجع جميعهم، إليه. لأنه قد حَتم الموت على جميعهم، فقال لنبيه ﷺ: لا يحزنك تكذيبُ مَنْ كَذَّبكَ، يامحمد، من هؤلاء اليهود وغيرهم، وافتراء مَنِ افترى عليَّ، فقد كُذِّب قبلك رُسُلٌ جاؤوا من الآياتِ والحجج من أرسلوا إليه، بمثلِ الذي جئتَ مَنْ أُرْسِلْتَ إليه. فَلَكَ فيهم أسوةٌ تَتَعزَّى بهم، ومصيرُ مَنْ كذَّبك وافترى عليَّ وغيرهم ومرجعهم إليَّ، فأوفِّي كُلَّ نفسٍ منهم جزاءَ عمله يوم القيامـة، كمـا قال جل ثناؤه: «وإنما تُوَفَّوْنَ أجوركم يوم القيامة»، يعني: أجورَ أعمالِكم، إنْ خيراً فخيرٌ، وإن شرًّا فشر.

«فمن زُحزِحَ عن النار»، يقول: فمن نُحِّيَ عن النار وأُبْعِدَ منها. «فقد فاز»، يقول: فقد نجا وظفر بحاجته.

وإنما معنى ذلك: فمن نُحِّيَ عن النار فأُبْعِدَ منها وأُدخلَ الجنة، فقد نجا وظفر بعظيم الكرامة. «وما الحياةُ الدنيا إلَّا متاع الغرور»، يقول: وما لذَّاتُ الدنيا وشهواتها وما فيها من زينتها وزخارفها. «إلا متاعُ الغرور»، يقول: إلا متعة يُمَتِّعُكُموها الغرورُ والخِداعُ المضمحلُّ الذي لا حقيقةَ له عند الامتحان، ولا صحةَ له عند الاختبار. فأنتم تلتذون بما مَتَّعكم الغرورُ من دنياكم، ثم هو عائدٌ عليكم بالفجائع والمصائب والمكاره. يقول تعالى ذِكْرُه: ولا تركَنُوا إلى الدنيا فتسكنوا إليها، فإنما أنتم منها في غرورٍ تُمَتَّعُونَ، ثم أنتم عنها بعد قليل راحلون.

القَولُ في تأويلِ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿لَتُبْلَوُنَّ فِىٓ أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَذًى كَثِيرًا ۚ وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ١٨٦﴾

يعني بقوله تعالى ذِكْرُه: «لَتُبْلَوُنَّ في أموالكم»، لَتُخْتَبَرُنَّ بالمصائبِ في أموالكم. «وأنفسكم»، يعني: وبهلاكِ الأقرباءِ والعشائرِ من أهلِ نُصْرتِكم ومِلَّتكم. «ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم»، يعني: من اليهودِ وقولهم: «إنَّ الله فقير ونحن أغنياء»، وقولهم: «يَدُ الله مغلولة»، وما أشْبَهَ ذلك من افترائِهم على الله. «ومن الذين أشركوا»، يعني النصارى. «أذىً كثيراً»، والأذى من اليهود ماذكرنا، ومن النصارى قولهم: «المسيحُ ابن الله»، وما أشبه ذلك من كفرهم بالله. «وإنْ تصبروا وتتقوا»، يقول: وإن تصبروا لأمرِ الله الذي أمركم به فيهم وفي غيرِهم من طاعتهِ. «وتتقوا»، يقول: وتتقوا اللهَ فيما أمركم

ونهاكم، فتعملُوا في ذلك بطاعته. «فإنّ ذلك من عزم ِ الأمور»، يقول: فإنّ ذلك الصبرَ والتقوى مما عزم الله عليه وأمركم به.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ وَٱشْتَرَوْاْ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴿١٨٧﴾﴾

يعني بذلك تعالى ذِكْرُه: واذْكُرْ أيضاً من أمرِ هؤلاء اليهود وغيرهم من أهلِ الكتابِ منهم، يامحمد، إذ أخذ الله ميثاقهم لَيُبَيِّنُنَّ للناس ِ أمْرَكَ الذي أخـذ ميثـاقَهم على بيانـهِ للناسِ في كتابهم الذي في أيديهم، وهو التوراةُ والإنجيل، وأنكَ لله رسولٌ مُرْسَلٌ بالحقِّ ولا يكتمونه. «فنبذوه وراء ظهورهم»، يقول: فتركوا أمْرَ اللهِ وضَيَّعُوه، ونقضوا ميثاقَهُ الذي أخذ عليهم بذلك، فكتموا أمرك، وكذبوا بك. «واشتروا به ثمناً قليلاً»، يقول: وابتاعوا بكتمانهم ما أخذَ عليهم الميثاق أنْ لا يكتموه من أمرِ نُبُوَّتِكَ، عِوَضاً منه خسيساً قليلاً من عَرَض ِ الدنيا، ثم ذَمَّ جَلَّ ثناؤه شراءهم ما اشتروا به من ذلك فقال: «فبئس مايشترون».

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَواْ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُواْ بِمَا لَمْ يَفْعَلُواْ فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ ٱلْعَذَابِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨٨﴾﴾

(يعني): لا تحسبن، يامحمد، الذين يفرحون بما أتوا من كتمانِهم الناسَ أمركَ، وأنكَ لي رسولٌ مرسلٌ بالحق، وهم يجدونك مكتوباً عندهم في كتبهم، وقد أخذتُ عليهم الميثاقَ بالإقرارِ بنبوتك، وبيانِ أمْرِكَ للناس ِ، وأنْ لا يكتموهم

ذلك، وهم مع نقضِهم ميثاقي الذي أخذتُ عليهم بذلك، يفرحونَ بمعصيتهم إياي في ذلك، ومخالفتهم أمري، ويحبون أنْ يَحْمَدَهُمُ الناسُ بأنهم أهلُ طاعةِ الله وعبادةٍ وصلاةٍ وصومٍ، واتباعٍ لوحيِهِ وتنزيلِهِ الذي أنزله على أنبيائه، وهم من ذلك أبرياء أخلياء، لتكذِيبِهِم رسولَهُ، ونَقْضِهم ميثاقَهُ الذي أخذ عليهم، لم يفعلوا شيئاً مما يحبون أنْ يَحْمَدَهم الناسُ عليه. «فلا تحسبنهم بمفازة من العذاب ولهم عذاب أليم».

وقوله: «فلا تحسبنهم بمفازة من العذاب»، فلا تَظُنَّهُم بِمَنْجَاةٍ من عذابِ الله الذي أعَدَّهُ لأعدائِهِ في الدنيا، من الخَسْفِ والمَسْخِ والرَّجفِ والقتل، وما أشبه ذلك من عقابِ الله، ولا هم ببعيد منه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٨٩﴾

وهذا تكذيبٌ من الله جل ثناؤه الذين قالوا: «إنَّ الله فقيرٌ ونحنُ أغنياء». يقول تعالى ذِكْرُه، مُكَذِّباً لهم: لله مُلْكُ جميع ماحوته السمواتُ والأرض. فكيف يكون، أيها المفترون على الله، من كان مُلْكُ ذلك له فقيراً؟

ثم أخبر جل ثناؤه أنه القادرُ على تعجيلِ العقوبةِ لقائلي ذلك، ولِكُلِّ مُكَذِّبٍ به ومُفْتَرٍ عليه، وعلى غير ذلك مما أرادَ وأحَبَّ، ولكنه تفضل بحلمهِ على خلقه فقال: «والله على كل شيء قدير»، يعني: من إهلاك قائلي ذلك، وتعجيل عقوبته لهم، وغير ذلك من الأمور.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾

وهذا احتجاجٌ من الله تعالى ذِكْرُه على قائلِ ذلك، وعلى سائرِ خَلْقِه، بأنه المُدَبِّرُ المُصَرِّفُ الأشياءَ والمسخِّرُ ماأَحَبَّ، وأنَّ الإغناءَ والإفقارَ إليه وبيده، فقال جَلَّ ثناؤه: تَدَبَّرُوا أيها الناسُ واعتبروا، ففيما أنشأته فخلقته من السمواتِ والأرض لمعاشكم وأقواتكم وأرزاقكم، وفيما عَقَّبْتُ بينه من الليلِ والنهارِ فجعلتهما يختلفان ويعتقبان عليكم، تتصرفون في هذا لمعاشكم، وتسكنون في هذا راحةً لأجسادكم مُعْتَبَرٌ ومُدَّكَرٌ وآياتٌ وعِظَاتٌ. فمن كان منكم ذا لُبٍّ وعقلٍ، يعلم أنَّ مَنْ نَسَبني إلى أنِّي فقيرٌ وهو غنيٌّ، كاذبٌ مُفْتَرٍ، فإنَّ ذلك كله بيدي أقلِّبه وأصرِّفه، ولو أبطلتُ ذلك لهلكتم، فكيف يُنْسَبُ إلى فقرٍ مَنْ كان كُلُّ مابه عيشُ مافي السمواتِ والأرضِ بيدهِ وإليهِ؟ أَمْ كيف يكونُ غنيًّا مَنْ كان رِزْقُه بيدِ غيرِهِ، إذا شاء رزقه، وإذا شاء حَرَمه؟ فاعتبروا ياأولي الألباب.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾

معنى الآية: إنَّ في خَلْقِ السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب، الذاكرينَ اللهَ قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم يعني بذلك: قياماً في صلاتهم، وقعوداً في تَشَهُّدِهم وفي غير صلاتهم، وعلى جنوبهم نياماً.

وأما قوله: «ويتفكرون في خلق السموات والأرض»، فإنه يعني بذلك أنهم يعتبرون بصنعةِ صانعِ ذلك، فيعلمون أنه لايصنعُ ذلك إلا مَنْ ليس كمثله شيءٌ، ومَنْ هو مالكُ كُلِّ شيءٍ ورازقُه، وخالقُ كُلِّ شيءٍ ومُدَبِّرُه، ومَنْ هو على كل شيء قدير، وبيده الإغناءُ والإفقارُ، والإعزازُ والإذلالُ، والإحياءُ والإماتةُ، والشقاءُ والسعادة.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ١٩١﴾

يعني بذلك تعالى ذِكْرُه: «ويتفكرون في خلق السموات والأرض» قائلينَ: «ربنا ماخلقت هذا باطلاً»، فتَرَكَ ذِكْرَ «قائلين»، إذْ كان فيما ظهرَ من الكلام دلالةٌ عليه.

وقوله: «ما خلقت هذا باطلاً»، يقول: لم تَخْلُقْ هذا الخَلْقَ عَبَثاً ولا لعباً، ولم تَخْلُقه إلَّا لأمرٍ عظيمٍ من ثوابٍ وعقابٍ ومحاسبةٍ ومُجازاة، وإنما قال «ماخلقتَ هذا باطلاً»، ولم يقل: «ماخلقت هذه، ولا: هؤلاء»، لأنه أراد بـ «هذا» ألخَلْقَ الذي في السموات والأرض. يَدلُّ على ذلك قوله: «سبحانك فقنا عذاب النار»، ورغبتهم إلى ربهم في أنْ يَقِيهم عذابَ الجحيم. ولو كان المعنيّ بقوله: «ماخلقت هذا باطلاً»، السموات والأرض، لما كان لقوله عَقِيبَ ذلك: «فقنا عذاب النار»، معنىً مفهوم. لأنَّ «السموات والأرض» أدلةٌ على بارئها، لا على الثوابِ والعقاب، وإنما الدليلُ على الثواب والعقاب، الأمرُ والنهي.

وإنما وصف جَلَّ ثناؤه: «أولي الألباب» الذين ذكرهم في هذه الآية: أنهم إذا رأوا المأمورين المنهِيِّينَ قالوا: «ياربنا لم تَخْلُقْ هؤلاء باطلاً عبثاً سبحانك»، يعني: تنزيهاً لكَ من أن تفعلَ شيئاً عبثاً، ولكنكَ خلقتهم لعظيمٍ من الأمرِ، لجنةٍ أو نار.

ثم فَزِعوا إلى ربهم بالمسألة أنْ يُجيرهم من عذابِ النار، وأنْ لا يجعلهم مِمَّنْ عَصَاهُ وخالفَ أمْرَهُ، فيكونوا من أهلِ جهنم.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَالَى: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ

﴿وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ۝١٩٢﴾

(يعني): إنَّ مَنْ أُدْخِلَ النار فقد أُخزيَ بدخوله إياها وإنْ أُخْرِجَ منها. وذلك أنَّ «الخزي» إنما هو هَتْكُ ستر المخزيِّ وفضيحته، ومَنْ عاقبه رَبُّهُ في الآخرةِ على ذنوبِهِ، فقد فَضَحَهُ بعقابِهِ إياه، وذلك هو «الخزي».

وأما قوله: «وما للظالمين من أنصار»، يقول: وما لِمَنْ خالفَ أمرَ الله فعصاه، من ذِي نُصرةٍ له ينصرهُ من الله، فيدفع عنه عقابه، أو ينقذه من عذابه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَـٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا ۚ رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ ۝١٩٣﴾

(يعني): رَبَّنَا سمعنا داعياً يدعو إلى الإيمانِ يقول: إلى التصديق بكَ، والإقرارِ بوحدانيتكَ، واتباعِ رسولكَ، وطاعته فيما أمرنا به ونهانا عنه مما جاء به من عندك «فآمنا ربنا»، يقول: فَصَدَّقْنَا بذلك يارَبَّنَا. «فاغفرْ لنا ذنوبنا»، يقول: فاسترْ علينا خَطايانا، ولا تفضحنا بها في القيامةِ على رؤوسِ الأشهادِ، بعقوبتكَ إيَّانا عليها، ولكن كَفِّرْهَا عَنَّا، وسيئات أعمالنا، فامْحُهَا بفضلكَ ورحمتكَ إيانا. «وتَوَفَّنَا مع الأبرار»، يعني بذلك: واقبضنا إليكَ إذا قَبَضْتَنَا إليكَ، في عِدَادِ الأبرارِ، واحْشُرْنَا مَحْشَرَهُم ومعهم.

و«الأبرار» جمع «بَرّ» وهم الذين بَرُّوا الله تبارك وتعالى بطاعَتِهم إياهُ وخدمتهم له، حتى أرضوه فرضي عنهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا

﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ ١٩٤﴾

(يعني): ربنا أعْطِنَا ما وَعَدْتَنَا على أَلْسُنِ رسلك: أنكَ تُعْلي كلمتكَ كلمة الحق، بتأييدنا على مَنْ كَفَرَ بكَ وحادَّك وعَبَدَ غيرَكَ وعجِّلْ لنا ذلك، فإنَّا قد عَلِمنا أنَّك لا تُخْلِفُ ميعادك، ولا تُخْزِنَا يومَ القيامة فتفضحنا بذنوبنا التي سلفت منا، ولكن كَفِّرْهَا عنا، واغفر لنا.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ﴾

يعني تعالى ذكره: فأجابَ هؤلاء الداعينَ ـ بما وصف من أدعيتهم أنهم دعوا به ـ رَبُّهم: بأنِّي لا أضيعُ عملَ عاملٍ منكم عَمِلَ خيراً ذكراً كان العاملُ أو أنثى.

وأما قوله: «بعضكم من بعض»، فإنه يعني: بعضكم أيها المؤمنون الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم من بعضٍ، في النُّصْرَةِ والمِلَّةِ والدين، وحُكْم جميعكم فيما أنا بكم فاعلٌ، على حُكْمِ أحدكم في أنِّي لا أضيعُ عَمَلَ ذكرٍ منكم ولا أنثى.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ ١٩٥﴾

يعني بقوله جل ثناؤه: «فالذين هاجروا» قومَهم من أهلِ الكُفْرِ وعشيرتهم

في الله، إلى إخوانِهم من أهلِ الإيمانِ باللهِ والتصديقِ برسوله. «وأُخْرِجُوا من ديارهم»، وهم المهاجرونَ الذين أخرجهم مشركو قريش من ديارِهم بمكةَ. «وأُوذُوا في سبيلي»، يعني: وأُوذُوا في طاعتهم ربَّهم، وعبادتِهم إياه مُخلصين له الدِّينَ، وذلك هو «سبيل الله» التي آذى فيها المشركون من أهلِ مكةَ المؤمنينَ برسولِ الله ﷺ من أهلها. «وقاتلوا» يعني: وقاتلوا في سبيل الله. «وقُتِلُوا» فيها. «لأُكَفِّرَنَّ عنهم سيئاتِهم»، يعني: لأَمْحُوَنَّها عنهم، ولأتَفَضَّلَنَّ عليهم بعفوي ورحمتي، ولأغْفِرَنَّها لهم. «ولأُدْخِلَنَّهم جناتٍ تجري من تحتها الأنهار ثواباً»، يعني: جزاء لهم على ماعَمِلُوا وأبلوا في الله وفي سبيله. «من عند الله»، يعني: من قِبَلِ اللهِ لهم. «والله عنده حُسْنُ الثواب»، يعني: أنَّ الله عنده من جزاء أعمالهم جميع صنوفه، وذلك ما لايبلغه وَصْفُ واصفٍ، لأنه مما لا عينٌ رأتْ، ولا أُذُنٌ سمعتْ، ولا خَطَر على قلبِ بَشَر.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ ۝١٩٦ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ۝١٩٧﴾

يعني بذلك جل ثناؤه: «ولا يغرنك» يامحمد «تَقَلُّبُ الذين كفروا في البلاد»، يعني: تَصَرُّفُهم في الأرض وضَرْبُهم فيها.

فنهى الله تعالى ذِكْرُه نبيَّهُ ﷺ عن الاغترارِ بضربِهم في البلاد، وإمهالِ اللهِ إيَّاهُم، مع شِرْكِهم، وجُحودِهم نِعَمَهُ، وعبادَتِهم غَيْرَهُ. وخرج الخطابُ بذلك للنبي ﷺ، والمعنيُّ به غيره من أتباعِهِ وأصحابه، كما قد بَيَّنا فيما مضى قَبْلُ من أمرِ الله، ولكن كان بأمر الله صادعاً، وإلى الحق داعياً.

وأما قوله: «متاع قليل»، فإنه يعني: أنَّ تَقَلُّبَهُم في البلاد وتَصَرُّفَهُم فيها، متعةٌ يُمَتَّعُونَ بها قليلاً حتى يبلُغُوا آجالَهم، فتخترمهم مَنِيَّاتُهم. «ثم مأواهم

جهنم»، بعد مماتهم.

و«المأوى»: المصير الذي يأوونَ إليه يومَ القيامة، فيصيرون فيه.

ويعني بقوله: «وبئس المهاد»، وبئس الفراش والمضجع جهنم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ ﴿١٩٨﴾

يعني بقوله جل ثناؤه: «لكن الذين اتقوا ربهم»، لَكِنِ الذين اتقوا اللهَ بطاعتهِ واتِّباعِ مَرْضَاتهِ، في العمل بما أمرهم به، واجتنابِ مانهاهم عنه. «لهم جناتٌ» يعني: بساتين: «تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها»، يقول: باقينَ فيها أبداً. «نُزُلاً من عند الله»، يعني: إنزالاً من الله إياهم فيها، أنزلوها.

وقـولـه: «من عند الله»، يعني: مِنْ قِبَلِ الله، ومن كرامةِ الله إياهم، وعطاياه لهم.

وقوله: «وما عند الله خيرٌ للأبرار»، يقول: وما عند الله من الحياةِ والكرامةِ وحُسْنِ المآب، «خيرٌ للأبرار»، مما يتقلَّبُ فيه الذين كفروا، فإن الذي يتقلبون فيه زائلٌ فانٍ، وهو قليلٌ من المتاع خسيس، وما عندَ الله من كرامتهِ للأبرار ـ وهم أهلُ طاعته ـ باقٍ، غيرُ فانٍ ولا زائل.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَٰشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۗ

(يعني بقوله جل ثناؤه): «وإن من أهل الكتاب»: التوراة والإنجيل. «لَمَنْ يؤمنُ بالله» فيقرُّ بوحدانيته. «وما أنزل إليكم»، أيها المؤمنون، يقول: وما أنزل إليكم من كتابه ووحيه على لسانِ رسولِهِ محمدٍ ﷺ. «وما أنزل إليهم»، يعني: وما أُنزلَ على أهلِ الكتابِ من الكتبِ، وذلك التوراة والإنجيل والزبور. «خاشعينَ لله»، يعني: خاضعين لله بالطاعة، مستكينينَ له بها متذلِّلين.

(وقوله): «لا يشترون بآيات الله ثمناً قليلا»: لا يُحَرِّفون ما أنزلَ إليهم في كتبه من نعتِ محمدٍ ﷺ فَيُبَدِّلُونَهُ، ولا غيرَ ذلك من أحكامِهِ وحُججه فيه، لعَرَضٍ من الدنيا خَسيسٍ يُعْطَوْنَهُ على ذلك التبديلِ، وابتغاءَ الرياسةِ على الجُهَّالِ، ولكن ينقادون للحقِّ، فيعملون بما أمرهم الله به فيما أُنزلَ إليهم من كُتُبِه، وينتهون عما نَهاهم عنه فيها، ويُؤْثِرُونَ أمرَ الله تعالى على هَوَى أنفسهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ١٩٩﴾

يعني بقوله جل ثناؤه: «أولئك لهم أجرهم»، هؤلاء الذين يؤمنونَ باللهِ وما أُنزلَ إليكم وما أنزلَ إليهم. «لهم أجْرُهُم عند ربهم»، يعني: لهم عِوَضُ أعمالِهم التي عملوها، وثوابُ طاعتهم ربَّهم فيما أطاعوهُ فيه. «عند ربهم» يعني: مذخورٌ ذلك لهم لديه، حتى يَصِيرُوا إليه في القيامة، فيُوَفِّيهم ذلكَ. «إنَّ الله سريعُ الحساب»، وسرعةُ حسابه تعالى ذِكْرُه: أنه لا يَخْفَى عليه شيءٌ من أعمالهم قبل أنْ يعملوها وبعد ماعملوها، فلا حاجةَ به إلى إحصاء عَدَدِ ذلك، فيقع في الإحصاء إبطاءٌ، فلذلك قال: «إنَّ اللهَ سريعُ الحساب».

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱصْبِرُوا۟ وَصَابِرُوا۟

وَرَابِطُوا۟

(يعني): يا أيها الذين صَدَقُوا الله ورسولَهُ. «اصبروا» على دينكم وطاعةِ رَبِّكم. وذلك أنَّ الله لم يُخصِّص من معاني «الصبر» على الدين والطاعة شيئاً، فيجوز إخراجهُ من ظاهرِ التنزيل. فلذلك قلنا إنَّهُ عَنَى بقوله: «اصبروا»: الأمرَ بالصَّبرِ على جميعِ معاني طاعةِ الله فيما أمَرَ ونَهَى، صَعْبِها وشديدِها، وسَهْلِها وخفيفِها.

«وصابروا»، يعني: وصابروا أعداءَكُم من المشركين.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٢٠٠﴾

يعني بذلـك تعـالى ذِكْـرُه: «واتقوا الله»، أيها المؤمنون، واحذروه أنْ تُخالِفُوا أمْرَهُ أو تتقدَّموا نَهْيَهُ. «لعلكم تفلحون»، يقول: لِتُفْلِحُوا فتبقوا في نعيمِ الأبدِ، وتَنْجحوا في طلباتِكم عنده.

تَفْسِيرُ سُورَةِ النِّسَاءِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ عزَّ وجلَّ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾

يعني بقـوله تعالى ذكره: «يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفسٍ واحدة»، احذروا، أيها الناسُ، رَبَّكُم. في أنْ تخَالِفُوهُ فيما أمركم وفيما نهاكم، فيحلّ بكم من عقوبتهِ مالا قِبَلَ لكم به.

ثم وصف تعالى ذكره نفسه بأنه المتوحِّدُ بخلْقِ جميعِ الأنام من شخص واحد، مُعَرِّفاً عبادَهُ كيف كان مُبْتَدَأُ إنشائهِ ذلك من النفسِ الواحدة، ومُنَبِّهَهُم بذلك على أنَّ جميعهم بَنُو رجلٍ واحدٍ وأمٍّ واحدة، وأنَّ بعضَهم من بعضٍ، وأنَّ حَقَّ بعضِهم على بعضٍ واجبٌ وجوبَ حَقِّ الأخِ على أخيه، لاجتماعهم في النسبِ إلى أبٍ واحدٍ وأمٍ واحدةٍ، وأنَّ الذي يلزمهم من رعايةِ بعضِهم حَقَّ بعضٍ، وإنْ بَعُـدَ التـلاقي في النسب إلى الأبِ الجامع بينهم، مثل الذي يلزمهم من ذلك في النسب[1].

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ جَلَّ ثناؤُهُ: ﴿وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً﴾

(١) هذه قاعدة عظمى لوحدة النوع الانساني يفاخر بها المسلمون على مر الدهور.

يعني بقوله جل ثناؤه: «وخلق منها زوجها»، وخلق من النفسِ الواحدةِ زَوْجَها يعني بـ «الزوج»، الثاني لها. وهو فيما قال أهل التأويل، امرأتها حواء.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ جَلَّ ثناؤُهُ: وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ

تأويله: واتقوا الله، أيها الناسُ، الذي إذا سأل بعضُكم بعضاً سأل به، فقال السائلُ للمسؤول: «أسْألُكَ بالله، وأنشدكَ بالله، وأعزِمُ عليكَ بالله»، وما أشبه ذلك. يقول تعالى ذِكرُه: فكما تُعَظِّمُون، أيها الناس، رَبَّكم بألسنتكم حتى تروا أنَّ مَنْ أعطاكم عَهْدَهُ فأخفركُمُوهُ[1]، فقد أتى عظيماً. فكذلك فعظِّمُوه بطاعتكم إياه فيمـا أمـركم، واجتنـابكم ما نهـاكم عنـه، واحذروا عقابَهُ من مخالفتِكم إياهُ فيما أمركم به أو نهاكم عنه.

وأما قوله: «والأرحام»، فإن معناه: واتقوا الأرحام أن تقطعوها.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا ﴿١﴾

يعني بذلك تعالى ذكره: إنَّ الله لم يَزَلْ عليكم رقيباً.

ويعني بقوله: «عليكم»، على الناس الذين قال لهم جَلَّ ثناؤُه: «يا أيها الناس اتقوا ربكم».

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَءَاتُواْ ٱلۡيَتَٰمَىٰٓ أَمۡوَٰلَهُمۡۖ وَلَا تَتَبَدَّلُواْ ٱلۡخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِۖ

يعني بذلـك تعالى ذكره أوصياءَ اليتامى. يقول لهم: وأعطوا، يامعشر أوصياءِ اليتامى أموالَهم إذا هم بَلَغُوا الحُلُمَ، وأُونِسَ منهم الرشد. «ولا تتبدلوا

(١) أخفرَ الذمة والعهد: نقضه وغدره وخاسَ به، ولم يَفِ بعهده.

الخبيثَ بالطيب»، يقول: ولا تستبدلوا الحرامَ عليكم من أموالهم بأموالِكم الحلال لكم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَهُمْ إِلَىٰٓ أَمْوَٰلِكُمْ﴾

يعني بذلك تعالى ذِكْره: ولا تَخْلِطُوا أموالَهم - يعني أموالَ اليتامى بأموالكم - فتأكلُوها مع أموالِكم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا ۝٢﴾

يعني تعالى ذِكْرُه بقوله: «إنه كان حُوباً كبيراً»، إنَّ أكْلَكُم أموالَ أيتامِكم، حُوبٌ كبير. والحُوب: الإثم. والكبير: العظيم.

فمعنى ذلك: إنَّ أكْلَكُم أموالَ اليتامى مع أموالكم، إثمٌ عند الله عظيم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُواْ فِي ٱلْيَتَٰمَىٰ فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُواْ فَوَٰحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾

(يعني): وإنْ خفتم ألا تقسطوا في اليتامى، فكذلك فخافوا في النساء، فلا تنكحوا منهن إلا ما لا تخافونَ أنْ تجورُوا فيه منهن، من واحدةٍ إلى الأربع. فإنْ خفتمُ الجورَ في الواحدة أيضاً، فلا تنكحوها، ولكن عليكم بما ملكت أيمانكم، فإنه أحرى أنْ لاتجوروا عليهن.

وإنما قلنا ذلك، لأنَّ الله جَلَّ ثناؤه افتتح الآيةَ التي قبلها بالنهي عن أكلِ أموالِ اليتامى بغير حَقِّها وخلَطها بغيرها من الأموال، فقال تعالى ذكره: ﴿وآتوا

الْيَتَامَى أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَى أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا﴾. ثم أَعْلَمَهُم أنهم إنِ اتقوا الله في ذلك فَتَحَرَّجُوا فيه، فالواجبُ عليهم من اتقاء الله والتحرُّج في أمرِ النساء، مِثْلُ الذي عليهم من التَّحَرُّجِ في أمرِ اليتامى. وأعلمهم كيف التخلص لهم من الجور فيهن، كما عَرَّفَهُم المَخْلَصَ من الجَوْرِ في أموال اليتامى، فقال: انكحوا إنْ أَمِنْتُم الجورَ في النساء على أنفسكم، ماأبحتُ لكم منهن وحَلَّلْتُه، مَثْنَى وثُلاثَ ورباع، فإنْ خفتم أيضاً الجور على أنفسكم في أمرِ الواحدة، بأنْ لاتقدروا على إنصافها، فلا تنكحوها، ولكن تَسَرَّوْا من المماليكِ، فإنكم أحرى أنْ لا تجوروا عليهن، لأنهن أملاككم وأموالكم، ولا يَلْزَمُكُم لَهُنَّ من الحقوقِ كالذي يلزمكم للحرائرِ، فيكون ذلك أقرب لكم إلى السلامة من الإثمِ والجور.

ومعنى «الإقساط» في كلام العرب: العَدْلُ والإنصاف، ومعنى «القسط»: الجَوْرُ والحَيْفُ.

وأما «اليتامى»، فإنها جَمْعٌ لذكرانِ الأيتامِ وإناثِهم في هذا الموضع.

وأما قوله: «فانكحوا ماطاب لكم من النساء»، فإنه يعني: فانكحوا ماحلَّ لكم منهن، دون ماحُرِّمَ عليكم منهنَّ.

وأما قوله: «مثنى وثلاث ورباع»، فإنما تُرِك إجراؤهن، لأنهن معدولات عن «اثنين»، و«ثلاث» و«أربع»، كما عُدِلَ «عمر» عن «عامر»، و«زُفَر» عن «زافِر» فتُرِكَ إجراؤه. وكذلك، «أحاد» و«ثناء» و«مَوْحد» و«مثنى» و«مَثْلث» و«مَرْبع»، لايجري ذلك كله للعلة التي ذكرتُ من العدول عن وجوهه. ومما يدلُّ على أنَّ ذلك كذلك، وأنَّ الذكرَ والأنثى فيه سواء، ماقِيلَ في هذه السورة و«سورة فاطر»، [١]: «مثنى وثلاث ورباع» يراد به «الجناح»، و«الجناح» ذكر، وأنه أيضاً لا يضاف إلى مايضاف إليه «الثلاثة» و«الثلاث» وأنَّ «الألف واللام»

لا تدخله، فكان في ذلك دليلٌ على أنه اسمٌ للعددِ معرفة، ولو كان نكرةً لدخله «الألف واللام»، وأُضيفَ كما يضافُ «الثلاثة» و«الأربعة».

وأما قوله: «فإنْ خفتم أنْ لا تعدلوا فواحدةً»، فإن نصب «واحدة»، بمعنى: فإنْ خفتم أن لا تعدلوا فيما يلزمكم من العدلِ فيما زادَ على الواحدةِ من النساء عندكم بنكاحٍ ـ فيما أوجبه الله لهن عليكم ـ فانكحوا واحدةً منهن.

ولو كانت القراءة جاءت في ذلك بالرفع، كان جائزاً، بمعنى: فواحدةٌ كافية، أو: فواحدةٌ مُجْزِئَةٌ، كما قال جل ثناؤه: ﴿فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَٱمْرَأَتَانِ﴾ [البقرة: ٢٨٢].

وإنْ قال لنا قائلٌ: قد علمتَ أنَّ الحلالَ لكم من جميع النساء الحرائر، نكاحُ أربع، فكيف قيل: «فانكحوا ماطابَ لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع»، وذلك في العدد تِسْعٌ؟

قيل: إنَّ تأويلَ ذلك: فانكحوا ماطاب لكم من النساء، إما مثنى إنْ أَمِنتم الجَوْرَ من أنفسكم فيما يجبُ لهما عليكم، وإما ثلاث، إنْ لم تخافوا ذلك، وإما أربع، إن أَمِنتم ذلك فيهن.

يدلُّ على صِحَّةِ ذلك قوله: «فإنْ خفتم ألا تعدلوا فواحدة»، لأن المعنى: فإنْ خفتم في الثنتين فانكحوا واحدة، ثم قال: وإنْ خفتم أنْ لا تعدلوا أيضاً في الواحدة، فما ملكت أيمانكم.

فإنْ قالَ قائلٌ: فإنَّ أمرَ الله ونَهْيَهُ على الإيجابِ والإلزامِ حتى تقومَ حُجَّةٌ بأنَّ ذلك على التأديبِ والإرشادِ والإعلامِ، وقد قال تعالى ذِكْرُه: «فانكحوا ماطاب لكم من النساء»، وذلك أمرٌ، فهل مِنْ دليلٍ على أنه من الأمرِ الذي هو على غير وجهِ الإلزام والإيجاب؟

قيل: نعم، والدليلُ على ذلك، قوله: «فإنْ خفتم ألا تعدلوا فواحدة». فكان معلوماً بذلك أنَّ قوله: «فانكحوا ماطابَ لكم من النساء»، وإنْ كان مخرجه مخرجَ الأمرِ، فإنه بمعنى الدِّلالة على النهي عن نِكاحِ ماخافَ الناكحُ الجَوْرَ فيه من عددِ النساء، لا بمعنى الأمرِ بالنكاح، فإنَّ المعنيَّ به: وإنْ خفتم أن لا تقسطوا في اليتامى، فتحرجتم فيهن، فكذلك فَتَحَرَّجُوا في النساء، فلا تنكحوا إلا ما أَمِنتم الجَوْرَ فيه منهن، ما أحللتُه لكم من الواحدة إلى الأربع.

وقد بَيَّنا في غير هذا الموضع أنَّ العربَ تُخْرِجُ الكلامَ بلفظِ الأمرِ ومعناها فيه النهي أو التهديد والوعيد، كما قال جل ثناؤه: ﴿فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ [الكهف: ٢٩]، وكما قال: ﴿لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُون﴾ [النحل: ٥٥/ والروم: ٣٤]، فخرج ذلك مخرج الأمرِ، والمقصود به التهديدُ والوعيدُ والزجر والنهي، فكذلك قوله: «فانكحوا ماطاب لكم من النساء»، بمعنى النهي: فلا تنكحوا إلا ماطاب لكم من النساء.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَلَّا تَعُولُوا۟ ۝٣﴾

يعني بذلك تعالى ذِكْرُه: وإنْ خفتم أنْ لا تعدلوا في مثنى أو ثلاث أو رباعَ فنكحتم واحدةً، أو خفتم أنْ لا تعدلوا في الواحدة فتسررتم مُلْكَ أيمانِكم، فهو «أدنى» يعني: أقرب، «ألا تعولوا»، يقول: أنْ لا تَجُورُوا ولا تَمِيلُوا.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَءَاتُوا۟ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَـٰتِهِنَّ نِحْلَةً﴾

يعني بذلك تعالى ذِكْرُه: وأعطوا النساء مُهورَهُنَّ عَطِيَّةً واجبةً، وفريضةً لازمة.

وهذا أمرٌ من الله أزواجَ النساء المدخول بهن والمسمَّى لهن الصَّدَاق، أنْ يؤتوهن صَدُقَاتِهن، دونَ المطلقاتِ قبل الدخولِ ممن لم يُسَمَّ لها في عقدِ النكاحِ صَدَاقٌ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَيْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيٓـًٔا مَّرِيٓـًٔا ﴿٤﴾﴾

يعني بذلك جل ثناؤه: فإنْ وَهَبَ لكم، أيها الرجالُ، نساؤكم شيئاً من صدقاتهن، طيبةً بذلك أنفُسُهُنَّ، فَكُلُوهُ هنيئاً مريئاً.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ٱلَّتِى جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَـٰمًا وَٱرْزُقُوهُمْ فِيهَا وَٱكْسُوهُمْ﴾

إن الله جل ثناؤه عم بقوله: «ولا تؤتوا السفهاء أموالكم»، فلم يخصصْ سفيهاً دون سفيه. فغيرُ جائزٍ لأحدٍ أن يؤتي سفيهاً مالَهُ، صبياً صغيراً كانَ أو رجلاً كبيراً، ذَكَراً كان أو أنثى.

و«السفيه» الـذي لا يجـوز لوليِّه أنْ يُؤتيه مالـه، هو المستحقُّ الحَجْـرَ بتضييعِه مالَه وفسادِه وإفسادِه وسوءِ تدبيره ذلك.

وإنمـا قلنا ما قلنا، من أنَّ المعنيَّ بقوله: «ولا تؤتوا السفهاء» هو مَنْ وَصَفْنَا دونَ غيرِه، لأنَّ الله جَلَّ ثناؤُه قال في الآية التي تتلوها: «وابْتَلوا اليتامى حتى إذا بلغوا النِّكاحَ فإنْ بلغوا النكاح وأُونِسَ منهم الرشد، وقد يدخل في «اليتـامى» الـذكـورُ والإناث، فلم يخصصْ بالأمرِ بدفع مالَهُم من الأموالِ، الذكورَ دونَ الإناث، ولا الإناث دون الذكور.

وإذْ كان ذلك كذلك، فمعلومٌ أنَّ الذين أُمِرَ أولياؤهم بدفعهم أموالَهم، إليهم، وأُجيزَ للمسلمين مبايعتهم ومعاملتهم، غير الذين أمر أولياؤهم بمنعهم أموالهم، وحُظِرَ على المسلمين مداينتهم ومعاملتهم.

فإنْ كان ذلك كذلك، فَبَيِّنٌ أنَّ «السفهاء» الذين نهى اللهُ المؤمنينَ أنْ يُؤْتُوهم أموالَهم، هم المُستحقُّونَ الحَجْرَ والمستوجبون أنْ يُولى عليهم أموالهم، وهم مَنْ وصفنا صِفَتَهم قَبْلُ، وأنَّ مَنْ عدا ذلك فغيرُ سفيهٍ، لأنَّ الحَجْرَ لا يستحقه مَنْ قد بلغ وأُونسَ رُشْدُه.

وقد يدخل في قوله: «ولا تؤتوا السفهاء أموالكم»، أموالُ المنهِيِّينَ عن أنْ يُؤتوهم ذلك، وأموال «السفهاء». لأن قوله: «أموالكم» غير مخصوص منها بعض الأموالِ دونَ بعضٍ. ولا تمنع العرب أن تخاطب قوماً خِطاباً، فيخرج الكلامُ بعضُه خبرٌ عنهم، وبعضُه عن غُيَّب، وذلك نحو أن يقولوا: «أكلتم يافلان أموالكم بالباطل»، فيخاطب الواحد خطاب الجمع، بمعنى: أنك وأصحابك أو وقومك أكلتم أموالكم. فكذلك قوله: «ولا تؤتوا السفهاء»، معناه: لا تؤتوا، أيها الناس، سفهاءَكُم أموالَكم التي بعضُها لكم وبعضها لهم، فيضيعوها.

وإذ كان ذلك كذلك، وكانَ اللهُ تعالى ذِكْرُه قد عَمَّ بالنهي عن إيتاء السفهاء الأموال كلِّها، ولم يخصصْ منها شيئاً دون شيء، كان بَيِّناً بذلك أنَّ معنى قوله: «التي جعلَ اللهُ لكم قياماً»، إنما هو التي جعل الله لكم ولهم قياماً، ولكن السفهاء دخل ذِكْرُهم في ذِكْرِ المخاطَبين بقوله: «لِكم».

وتأويل قوله: «وارزقوهم فيها واكسوهم»، على التأويل الذي قلنا في قوله: «ولا تؤتوا السفهاء أموالكم»، وأنفقوا على سفهائكم من أولادكم ونسائكم الذين تَجِبُ عليكم نفقتهم من طعامِهم وكِسْوَتِهم في أموالكم، ولا تُسَلِّطُوهم على أموالكم فيهلكوها، وعلى سفهائِكم منهم ممن لا تجبُ عليكم نفقته، ومن

غيرهم الـذين تَلُونَ أنتم أمورَهُم، من أموالهم فيما لابُدَّ لهم من مؤنهم في طعامهم وشرابهم وكسوتهم. لأنَّ ذلك هو الواجب من الحكم في قولِ جميع الحُجَّةِ، لا خلافَ بينهم في ذلك، مع دلالةِ ظاهرِ التنزيلِ على ماقُلْنَا في ذلك.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ جَلَّ ثناؤُهُ: ﴿وَقُولُوا۟ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ۝﴾

إن معنى قولـه: «وقـولـوا لهم قولا معروفاً»، أي: قولوا، يامعشرَ ولاةِ السفهـاءِ قولاً معروفاً للسفهاء: «إنْ صَلحتم ورَشدتم سلَّمنا إليكم أموالَكُم، وخَلَّيْنَا بينكم وبينها، فاتقوا الله في أنفسكم وأموالكم»، وما أشبه ذلك من القول الذي فيه حَثٌّ على طاعةِ الله، ونهيٌ عن معصيته.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ جَلَّ ثناؤُهُ: ﴿وَٱبْتَلُوا۟ ٱلْيَتَٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُوا۟ ٱلنِّكَاحَ﴾

يعني تعالى ذكره بقوله: «وابتلوا اليتامى»، واختبروا عقولَ يَتَامَاكُم في أفهامِهم، وصلاحهم في أديانهم، وإصلاحهم أموالَهُم.

وقد دَلَّلْنَا فيما مضى قَبْلُ على أنَّ معنى «الابتلاء» الاختبار.

وأمّا قوله: «إذا بلغوا النكاح»، فإنه يعني: إذا بلغوا الحُلُمَ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا﴾

يعني بقوله: «فإنْ آنستم منهم رُشداً»، فإنْ وجدتم منهم وعرفتم.

و«الـرشد» في هذا الموضع: العَقْلُ وإصلاحُ المال، لإجماعِ الجميع على أنه إذا كان كذلك، لم يكن ممن يستحقُ الحجرَ عليه في ماله، وحَوْزَ

مافي يده عنه، وإنْ كان فاجراً في دينه. وإذْ كان ذلك إجماعاً من الجميع، فكذلك حُكْمُه إذا بلغ وله مالٌ في يَدي وَصِيٍّ أبيه، أو في يدِ حاكمٍ قد وَلِيَ مالَـهُ لطفـولته، واجبٌ عليه تسليمُ مالهِ إليه، إذا كان عاقلاً، بالغاً، مُصْلِحاً لماله. غيرَ مفسدٍ، لأن المَعْنَى الذي به يستحقُّ أنْ يولَّى على مالهِ الذي هو في يدهِ، هو المعنَى الذي به يستحق أن يمنع يده من ماله الذي هو في يد وليّ، فإنه لا فرقَ بين ذلك.

وفي إجماعهم على أنه غيرُ جائزٍ حيازةُ مافي يدهِ في حالِ صحةِ عقلهِ وإصلاحِ مافي يده، الدليلُ الواضحُ على أنه غيرُ جائز منْع يدهِ مما هوَ له في مثلِ ذلك الحالِ، وإنْ كان قبل ذلك في يد غيره، لا فَرْقَ بينهما. ومَنْ فرَّقَ بين ذلك، عُكِسَ عليه القول في ذلك، وسُئِلَ الفرقَ بينهما من أصلٍ أو نَظيرٍ، فلن يقول في أحدهما قولاً إلا أُلْزِمَ في الآخرِ مِثْلَهُ.

فإذ كان ما وصفنا من الجميع إجماعاً، فَبَيِّنٌ أنَّ «الُرشد» الذي به يستحقُ اليتيم، إذا بلغ فأُونِسَ منه، دَفْعَ مالهِ إليه، ما قلنا من صحةِ عقلهِ وإصلاحِ ماله.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلـهِ جَلَّ ثناؤُهُ: فَٱدْفَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ وَلَا تَأْكُلُوهَآ إِسْرَافًا

يعني بذلك تعالى ذِكْرُه ولاةَ أموالِ اليتامى. يقولُ اللهُ لهم: فإذا بلغ أيتامكم الحُلُمَ، فآنستم منهم عقلاً وإصلاحاً لأموالهم، فادفعوا إليهم أموالَهم ولا تحبسوها عنهم.

وأما قوله: «فلا تأكلوها إسرافاً»، يعني: بغيرِ ما أباحَهُ اللهُ لك.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُواْ

يعني جل ثناؤه بقوله: «وبِدَاراً»، ومبادرة.

وإنما يعني بذلك جل ثناؤه وُلَاةَ أموالِ اليتامى. يقول لهم: لا تأكلوا أموالَهم إسرافاً ـ يعني ما أباحَ اللهُ لكم أكله ـ ولا مبادرةً منكم بلوغَهم وإيناسَ الرشدِ منهم، حذراً أنْ يبلُغوا فيلزمكم تسليمُهُ إليهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ

يعني بقوله جل ثناؤه: «ومَنْ كان غنيًّا»، من وُلَاةِ أموالِ اليتامى على أموالهم، فليستعففْ بمالهِ عن أكلها ـ بغيرِ الإسرافِ والبدارِ أن يكبروا ـ بما أباح اللهُ له أكلها به.

ثم اختلف أهل التأويل في «المعروف» الذي أَذِنَ اللهُ جل ثناؤه لولاةِ أموالهم أكلها به، إذا كانوا أهلَ فقرٍ وحاجةٍ إليها.

وأولى الأقوال بالصواب، قولُ مَنْ قال: «المعروف» الذي عناه الله تبارك وتعالى في قوله: «ومَنْ كان فقيراً فليأكل بالمعروف»، أكل مال اليتيم عند الضرورةِ والحاجةِ إليه، على وجهِ الاستقراضِ منه ـ فأما على غير ذلك الوجه، فغيرُ جائزٍ له أكله.

وذلك أنَّ الجميعَ مُجْمِعُونَ على أن والي اليتيم لا يملكُ من مالِ يتيمه إلَّا القيام بمصلحته. فلما كان إجماعاً منهم أنه غير مالكه، وكان غيرَ جائزٍ لأحدٍ أنْ يستهلكَ مالَ أحدٍ غيره، يتيماً كان ربُّ المال أو مدركاً رشيداً ـ وكان عليه إنْ تَعَدَّى فاستهلكه بأكلٍ أو غيره، ضمانُه لمن استهلكه عليه، بإجماعٍ من الجميع ـ وكان والي اليتيم سبيلُه سبيل غيرهِ في أنه لا يملكُ مالَ يتيمهِ ـ كان كذلك حُكْمُه فيما يلزمه من قضائهِ إذا أكل منه، سبيلُه سبيلُ غيره، وإنْ

فَارَقَهُ في أنَّ له الاستقراضَ منه عندَ الحاجةِ إليه، كما له الاستقراض عليه عند حاجته إلى مايستقرض عليه، إذا كان قيِّماً بما فيه مصلحته.

ولا معنى لقولِ مَنْ قال: «إنما عنى بالمعروف في هذا الموضع، أكل والي اليتيم من مال اليتيم، لقيامهِ عليه على وجه الاعتياض على عَمله وسعيه». لأنَّ لوالي اليتيم أنْ يُؤاجرَ نفسه منه للقيام بأموره، إذا كان اليتيمُ محتاجاً إلى ذلك، بأجرةٍ معلومة، كما يستأجر له غيره من الأُجَراء، وكما يشتري له مَن يُعِينُه، غنيًّا كان الوالي أو فقيراً.

وإذ كان ذلك كذلك، وكان الله تعالى ذِكْرُه قد دَلَّ بقوله: «ومَنْ كان غنيًّا فليستعففْ ومَنْ كان فقيراً فليأكل بالمعروف»، على أنَّ أكلَ مالِ اليتيم إنما أذن لمن أذن له من وُلاتهِ في حالِ الفقرِ والحاجةِ، وكانت الحالُ التي للولاة أن يُؤجروا أنفسهم من الأيتام مع حاجةِ الأيتام إلى الأجراء، غير مخصوصٍ بها حال غنًى ولا حال فقر؛ كان معلوماً أنَّ المعنى الذي أُبيحَ لهم من أموالِ أيتامهم في كل أحوالهم، غير المعنى الذي أُبيحَ لهم ذلك فيه في حالٍ دون حالٍ.

ومن أبى ما قلنا، مِمَّنْ زَعَمَ أنَّ لوليِّ اليتيمِ أكل مالِ يتيمهِ عند حاجته إليه على غير وجهِ القَرْضِ، استدلالاً بهذه الآية، قيل له: أَمُجْمَعٌ على أنَّ الذي قلتَ تأويل قوله: «ومن كان فقيراً فليأكل بالمعروف»؟

فإن قال: لا!

قيل له: فما بُرْهانُكَ على أنَّ ذلك تأويله، وقد علمتَ أنه غيرُ مالك مالَ يتيمه؟

فإن قال: لأنَّ اللهَ أَذِنَ له بأكله!

قيل له: أَذِنَ له بأكلهِ مُطْلَقاً أم بشرطٍ؟

فإن قال: بشرطٍ، وهو أن يأكله بالمعروف.

قيل له: وما ذلك «المعروف»؟ وقد علمتَ القائلين من الصحابةِ والتابعينَ ومَنْ بَعْدَهُم من الخالفينَ أنَّ ذلك هو أكله قَرْضاً وسلَفاً؟

ويقال لهم أيضاً مع ذلك: أرأيتَ المُوَلَّىٰ عليهم في أموالهم من المجانين والمَعَاتيه، أَلولاةِ أموالِهِم أنْ يأكلوا من أموالِهِم عند حاجتهم إليه على غيرِ وجهِ القرضِ لا الاعتياض من قيامهم بها، كما قلتم ذلك في أموالِ اليتامى فأبحتموها لهم؟

فإن قالوا: ذلك لهم - خرجوا من قولِ جميعِ الحُجَّةِ.

وإن قالوا: ليس ذلك لهم.

قيل لهم: فما الفرقُ بين أموالهم وأموالِ اليتامى، وحكمُ ولاتهم واحدٌ: في أنهم ولاةُ أموالِ غيرهم؟

فلن يقولوا في أحدهما شيئاً إلا أُلْزِمُوا في الآخرِ مثله.

ويُسْألون كذلك عن المَحْجور عليه: هل لمن يَلي مالَهُ أنْ يأكلَ ماله عند حاجته إليه؟ نحو سُؤَالِنَاهُمْ عن أموالِ المجانين والمعاتيه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ عزَّ وجلَّ: ﴿فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهِدُوا عَلَيْهِمْ﴾

يعني بذلك جل ثناؤه: وإذا دفعتم، يامعشرَ ولاةِ أموالِ اليتامى، إلى اليتامى أموالَهم. «أشْهِدُوا عليهم»، يقول: فأشهدوا على الأيتامِ باستيفائهم ذلك منكم، ودَفْعكُمُوهُ إليهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ۝٦﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: وكفى بالله كافياً من الشهودِ الذين يشهدهم والي اليتيم على دفعهِ مالَ يتيمهِ إليه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ ۚ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ۝٧﴾

يعني بذلك تعالى ذِكْرُه: للذكورِ من أولادِ الرجلِ الميِّتِ حصةٌ من ميراثه، وللإناثِ منهم حصةٌ منه، من قليلِ ما خلَّفَ بَعْدَهُ وكثيرِه، حصةٌ مفروضة، واجبةٌ معلومة مؤقتة.

وذُكِرَ أنَّ هذه الآية نَزلتْ من أجلِ أنَّ أهلَ الجاهلية كانوا يُورِّثونَ الذكورَ دون الإناث.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا حَضَرَ ٱلْقِسْمَةَ أُو۟لُوا۟ ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينُ فَٱرْزُقُوهُم مِّنْهُ وَقُولُوا۟ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ۝٨﴾

اختلف أهلُ التأويل في حكم هذه الآية، هل هو مُحْكَمٌ أو منسوخ؟

فقال بعضهم: هو محكم.

وقال آخرون: منسوخة.

وقال آخرون: «هي محكمة وليست بمنسوخة، غير أنَّ معنى ذلك: «وإذا حضر القسمة»، يعني بها قسمة الميت ماله بوصيته لمن كان يوصى له به».

قالوا: وأمر بأنْ يجعل وصيته في ماله لمن سَمَّاهُ الله تعالى في هذه الآية.

وأوْلى الأقوال في ذلك بالصحة، قولُ مَنْ قال: «هذه الآية محكمة غير منسوخة، وإنما عَنَى بها الوصيةَ لأولي قُرْبَى المُوصِي، وعَنَى باليتامى والمساكين: أن يقال لهم قول معروف».

وإنما قلنا ذلك أوْلى بالصحةِ من غيره، لما قد بَيَّنا في غير موضعٍ من كتابنا هذا وغيره، أنَّ شيئاً من أحكام الله تبارك وتعالى التي أثبتها في كتابهِ أو بَيَّنها على لسانِ رسولهِ ﷺ، غيرُ جائز فيه أنْ يقال له ناسخٌ لحكم آخرَ، أو منسوخٌ بحكمٍ آخرَ، إلا والحكمان اللذان قضى لأحدهما بأنه ناسخ والآخر بأنه منسوخ نافٍ كل واحد منهما صاحبه، غيرُ جائز اجتماع الحكم بهما في وقتٍ واحدٍ بوجهٍ من الوجوه، وإنْ كان جائزاً صَرْفه إلى غيرِ النسخِ أو تقولَ بأنَّ أحدهما ناسخ والآخر منسوخ، حجة يجب التسليم لها.

وإذْ كان ذلك كذلك، لما قد دَلَّلْنَا في غير موضع وكان قوله تعالى ذِكْرُه: «وإذا حضر القسمة أولو القربى واليتامى والمساكين فارزقوهم منه»، محتملاً أن يكون مراداً به: وإذا حضر قسمة مال قاسمٍ مالَه بوصيةٍ، أُولُو قرابتهِ واليتامى والمساكين، فارزقوهم منه ـ يراد: فَأَوْصُوا لأولي قرابتكم الذين لا يرثونكم منه، وقولوا لليتامى والمساكين قولاً معروفاً، كما قال في موضع آخر: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ والأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ١٨٠]، ولا يكون منسوخاً بآية الميراث لم يكن لأحدٍ[1] صرفه إلى أنه منسوخٌ بآيةِ الميراث، إذْ كان لا دلالةَ على أنه منسوخٌ بها من كتابٍ أو سنةٍ ثابتةٍ، وهو محتمل من التأويل مابَيَّنَّا.

وإذْ كان ذلك كذلك، فتأويل قوله: «وإذا حضر القسمة»، قسمة الموصي مالَهُ بالوصية، أولُو قرابتهِ «واليتامى والمساكين فارزقوهم منه»، يقول: فاقسموا

(١) السياق: «وإذا كان ذلك كذلك لما قد دللنا في غير موضع. . . . لم يكن لأحد . .»

لهم منه بالوصية، يعني: فأوصوا لأولي القربى من أموالكم. «وقولوا لهم»، يعني الآخرين، وهم اليتامى والمساكين. «قولاً معروفاً»، يعني يُدْعَى لهم بخير.

وأما الذين قالوا: «إنَّ الآيةَ منسوخة بآيةِ المواريث»، والذين قالوا: «هي مُحْكَمةٌ، والمأمور بها ورثة الميت» فإنهم وَجَّهُوا قولَهُ: «وإذا حضر القسمة أولو القربى واليتامى والمساكين فارزقوهم منه»، يقول: فأعطوهم منه «وقولوا لهم قولا معروفاً».

ثم اختلف الذين قالوا: «هذه الآية محكمةٌ، وأنَّ القسمةَ لأولي القربى واليتامى والمساكين واجبةٌ على أهلِ الميراث، إنْ كان بعضُ أهل الميراث صغيراً فقسم عليه الميراث وليُّ ماله».

فقال بعضهم: ليس لوليِّ ماله أنْ يقسمَ من مالِه ووصيته شيئاً، لأنه لا يملكُ من المال شيئاً، ولكنه يقول لهم قولاً معروفاً. قالوا: والذي أمرَه اللهُ بأنْ يقولَ لهم معروفاً، هو وليُّ مالِ اليتيم إذا قسم مالَ اليتيم بينه وبين شركاء اليتيم، إلا أن يكون وليُّ مالِه أحدَ الورثةِ، فيعطيهم من نصيبِه، ويعطيهم مَنْ يجوز أمره في ماله من أنصبائهم. قالوا: فأما من مالِ الصغير، فالذي يولَّى عليه ماله، لا يجوز لوليِّ مالِه أنْ يعطيهم منه شيئاً.

وقال آخرون منهم: ذلك واجب في أموالِ الصغارِ والكبارِ لأولي القربى واليتامى والمساكين، فإنْ كان الورثةُ كباراً تولَّوا عند القسمةِ إعطاءَهُم ذلك، وإنْ كانوا صغاراً تولَّى إعطاءَ ذلك منهم وليُّ مالِهم.

فكأن مَن ذهبَ من القائلين القولَ الذي ذكرناه أولاً، ومن قال: «يرضخ عند قسمة الميراث لأولي القُرْبَى واليتامى والمساكين»، تأوَّلَ قوله: «فارزقوهم منه»، فأعطوهم منه وكأن الذين ذهبوا إلى (القول الآخَر)، تأولوا قوله:

«فارزقوهم منه»، فأطعموهم منه.

واختلفوا في تأويل قوله: «وقولوا لهم قولًا معروفًا».

فقال بعضهم: هو أمرٌ من الله تعالى ذِكْرُه ولاةَ اليتامى أنْ يقولوا لأولي قرابتهم ولليتامى والمساكين إذا حَضَرُوا قسمتهم مالَ مَنْ وَلُوا عليه ماله من الأموال بينهم وبين شركائِهم من الورثةِ فيها، أنْ يعتذروا إليهم، على نحوِ ماقد ذَكَرْنَاهُ فيما مضى من الاعتذار.

وقال آخرون: بل المأمورُ بالقولِ المعروفِ الذي أمَرَ جَلَّ ثناؤُه أنْ يقال له، هو الرجل الذي يُوصي في ماله. و«القول المعروف»، هو الدعاء لهم بالرزق والغِنَى وما أشبه ذلك من قولِ الخير.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا۟ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَٰفًا خَافُوا۟ عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْيَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ۝٩﴾

تأويل ذلك: ولْيَخْشَ الذين لو تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِم ذريةً ضِعافاً خافوا عليهم العَيْلَةَ لو كانوا فَرَّقُوا أموالَهم في حياتهم، أو قَسموها وصيةً منهم بها لأولي قرابتهم وأهلِ اليُتْمِ والمَسْكنةِ، فأبقوا أموالهم لوَلَدِهم خشيةَ العَيْلَةِ عليهم بعدهم، مع ضَعْفِهم وعجزهم عن المطالب، فليأمروا مَنْ حضروه وهو يوصِي لذوي قرابته ـ وفي اليتامى والمساكين وفي غير ذلك ـ بمالهِ بالعدلِ وليتقوا الله وليقولوا قولاً سديداً، وهو أنْ يُعَرِّفُوه ما أباحَ اللهُ له من الوصيةِ، وما اختاره للموصين من أهلِ الإيمان بالله وبكتابه وسنته.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ۝١٠﴾

يعني بقوله جل ثناؤه: «إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً»، يقول: بغير حق. «إنما يأكلون في بطونهم ناراً» يوم القيامة، بأكلهم أموالَ اليتامى ظُلْماً في الدنيا، نارَ جهنم. «وسيصلون» بأكلهم «سعيراً».

وأما قوله: «وسيصلون سعيراً»، فإنه مأخوذٌ من «الصَّلا»، و«الصلا» الاصطلاءُ بالنار، وذلك التسخنُ بها.

وأما «السعير» فإنه شدة حر جهنم، ومنه قيل: «اسْتَعَرَتِ الحربُ» إذا اشتدت، وإنما هو «مَسعور»، ثم صُرِفَ إلى «سعير»، كما قيل: «كَفٌّ خَضِيبٌ» و«لِحيةٌ دَهينٌ»، وإنما هي «مخضوبةٌ»، صرفت إلى «فعيل».

فتأويل الكلام إذاً: وسيصلون ناراً مُسَعَّرةً، أي: موقودةً مشعلة شديداً حرُّها.

وإنما قلنا إنَّ ذلك كذلك، لأنَّ الله جل ثناؤه قال: ﴿وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ﴾، [التكوير: ١٢]، فوصفها بأنها مسعورةٌ.

ثم أخبر جل ثناؤه أنَّ أَكَلَةَ أموالِ اليتامى يَصْلَونها وهي كذلك. فـ «السعير» إذاً في هذا الموضع، صِفَةٌ للجحيم على ماوصفنا.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِيٓ أَوْلَٰدِكُمْۖ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِۚ

يعني جل ثناؤه بقوله: «يوصيكم الله»، يَعْهَدُ اللهُ إليكم «في أولادكم للذكر مِثْلُ حَظِّ الأنثيين»، يقول: يعهد إليكم ربكم إذا ماتَ الميتُ منكم وخلّفَ أولاداً ذكوراً وإناثاً، فلولدهِ الذكور والإناث ميراثه أجمع بينهم، للذكر منهم مِثْلُ حَظِّ الأنثيين، إذا لم يكن له وارثٌ غيرُهم، سواء فيه صغار ولده

وكبارهم وإناثهم، في أن جميع ذلك بينهم، للذكر مثل حظ الأنثيين.

وقد ذُكِرَ أنَّ هذه الآيةَ نَزَلَتْ على النبيِّ ﷺ، تبييناً من الله الواجبَ من الحُكْمِ في ميراثِ مَنْ مات وخَلَّفَ ورثةً، على مابيَّن. لأن أهلَ الجاهلية كانوا لا يقسمون من ميراثِ الميتِ لأحدٍ من ورثته بعده، ممن كان لا يلاقي العدوَّ ولا يقاتلُ في الحروب من صغارِ ولدِهِ، ولا للنساءِ منهم. وكانوا يَخصُّونَ بذلك المُقَاتِلَةَ دون الذريةِ. فأخبرَ اللهُ جَلَّ ثناؤه أنَّ ما خَلَّفَهُ الميتُ بين من سَمَّى وفرض له ميراثاً في هذه الآية، وفي آخر هذه السورة، فقال في صغار ولد الميتِ وكبارهم وإناثهم: لهم ميراثُ أبيهم، إذا لم يكنْ له وارثٌ غيرهم، للذكر مِثْلُ حَظِّ الأُنثيين.

وقال آخرون: بل نزل ذلك من أجلِ أنَّ المالَ كان للولد قبل نزوله، وللوالدين الوصية، فنسخ الله تبارك وتعالى ذلك بهذه الآية.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تعَالَى: ﴿فَإِن كُنَّ نِسَآءً فَوْقَ ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ﴾

يعني بقوله: «فإن كُنَّ»، فإنْ كان المتروكات. «نساء فوق اثنتين»، ويعني بقوله: «نساءً»، بنات الميت، «فوق اثنتين»، يقول: أكثر في العدد من اثنتين. «فلهن ثُلُثَا ماتَرَكَ»، يقول: فلبناتِهِ الثلثان مما ترك بعده من ميراثِهِ، دونَ سائرِ ورثته، إذا لم يَكُنْ الميتُ خَلَّفَ ولداً ذكراً معهن.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِن كَانَتْ وَٰحِدَةً فَلَهَا ٱلنِّصْفُ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا ٱلسُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُۥ وَلَدٌ﴾

يعني بقوله: «وإنْ كانت»، وإنْ كانت المتروكةُ ابنةً واحدة «فلها النصف»، يقول: فلتلك الواحدة نصفُ ماترك الميتُ من ميراثه، إذا لم يكن معها غيرها من ولَدِ الميتِ ذكرٌ ولا أنثى.

فإن قال قائل: فهذا فرضُ الواحدةِ من النساء وما فوقَ الاثنتين، فأين فريضةُ الاثنتين؟

قيل: فريضتهما بالسنة المنقولةِ نَقْلَ الوراثة التي لا يجوز فيها الشك[1].

وأما قوله: «ولأبويه»، فإنه يعني: ولأبوي الميت - «لكلٍّ واحدٍ منهما السُّدسُ»، من تَرِكته وما خلَّفَ من ماله، سواءٌ فيه الوالدة والوالد، لا يزدادُ واحد منهما على السدس - «إن كان له ولد»، ذكراً كان الولد أو أنثى، واحداً كان أو جماعة.

فإنْ قالَ قائلٌ: فإن كان كذلك التأويل، فقد يجب أن لا يزاد الوالدُ مع الابنة الواحدة على السدس من ميراثه عن ولده الميت. وذلك إن قلته، قولٌ خلافٌ لما عليه الأمةُ مُجْمعة، من تصييرهم باقي تركةِ الميتِ مع الابنةِ الواحدة بعد أخذها نصيبها منها لوالدهِ أجمع!

قيل: ليس الأمر في ذلك كالذي ظننتَ، وإنما لكلٍّ واحدٍ من أبوي الميت السُّدُسُ من تركتهِ مع ولده، ذكراً كان الولد أو أنثى، واحداً كان أو جماعة، فريضةً من الله له مُسَمَّاة، فإمَّا زِيْدَ على ذلك من بقيةِ النصف مع الابنة الواحدة إذا لم يكن غيره وغير ابنة للميت واحدة، فإنما زيدها ثانياً بِقُرْبِ

(١) أي جعلوا لهما الثلثين، فألحقوهما بالبنات فوق الاثنتين. وأيضاً: فإن الله تعالى حكم في الآية الأخيرة من سورة النساء - للأختين بالثلثين. وإذا ورث الأختان الثلثين، فلأن يرث البنتان الثلثين بالطريق الأولى. (ينظر الأساس للعلامة الشيخ سعيد حوى: ٢/١٠١٠).

عَصَبَةِ الميتِ إليه، إذْ كان حُكْمُ كُلِّ ما أبقته سهامُ الفرائض، فلأولي عصبةِ الميتِ وأقْرَبِهِم إليه، بِحُكْمِ ذلكَ لها على لسانِ رسولِ الله ﷺ، وكان الأبُ أقربَ عصبَةِ ابنهِ وأوْلَاها به، إذا لم يكن لابنهِ الميت ابنٌ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُۥ وَلَدٌ وَوَرِثَهُۥٓ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ ٱلثُّلُثُ﴾

يعني جل ثناؤه بقوله: «فإن لم يكن له»، فإن لم يكن للميتِ «ولد» ذكر ولا أنثى «وورثه أبواه»، دون غيرهما من ولد وارث. «فلأمه الثلث»، يقول: فلأمه مِنْ تركَتهِ وما خَلَّفَ بعده، ثلث جميعِ ذلك.

فإنْ قال قائل: فمن الذي له الثلثان الآخران.

قيل له: الأب.

فإن قال: بماذا؟

قلت: بأنه أقرب أهلِ الميت إليه، ولذلك ترك ذكر تسمية مَنْ له الثلثان الباقيان، إذْ كان قد بَيَّن على لسانِ رسولِ الله ﷺ لعباده: أن كُلَّ ميِّتٍ فأقربُ عصبتهِ به، أوْلى بميراثهِ، بعد إعطاءِ ذوي السهامِ المفروضةِ سهامَهُم من ميراثهِ[1].

وهذه العِلَّةُ، هي العلةُ التي من أجلها سُمِّيَ للأمِّ ماسُمِّيَ لها، إذا لم يكن الميتُ خَلَّفَ وارثاً غيرَ أبويه، لأنَّ الأم ليست بعصبة في حالٍ للميت. فبيَّن الله جل ثناؤه لعباده مافَرَضَ لها من ميراثِ ولدها الميت، وترك ذكرَ مَنْ له الثلثان الباقيان منه معها، إذْ كان قد عَرَّفَهُم في جملةِ بيانهِ لهم مَنْ له بقايا

---

(١) ينظر البخاري (٦٧٣٥) و(٦٧٣٧) وغيره في هذا الباب.

تركة الأموالِ بعد أخذِ أهلِ السهام سهامَهُم وفرائِضَهم. وكان بيانُه ذلك، مُغْنِياً لهم عن تكريرِ حُكْمِه مع كل مَنْ قَسَم له حقاً من ميراثِ ميتٍ، وسَمَّى له منه سهماً.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ جَلَّ ذِكْرُهُ: ﴿فَإِن كَانَ لَهُۥٓ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ ٱلسُّدُسُ﴾

إن قال قائل: وما المعنى الذي من أجله ذَكَرَ حُكْمَ الأبوين مع الإخوة، وتَرَكَ ذِكْرَ حُكْمِهما مع الأخِ الواحد؟

قلت: اختلاف حكمهما مع الإخوة الجماعة والأخ الواحد، فكان في إبانة الله جل ثناؤه لعباده حكمهما فيما يَرِثَانِ من وَلدهما الميت مع إخوته، غِنًى وكفايةً عن أنَّ حكمهما فيما ورثا منه غير متغيِّر عما كان لهما، ولا أخَ للميتِ ولا وارثَ غيرهما. إذْ كان معلوماً عندهم أنَّ كُلَّ مستحقٍ حقاً بقضاء الله ذلك له، لا ينتقلُ حقُّه الذي قَضى به له رَبُّهُ جَلَّ ثناؤه عما قَضى به له إلى غيره، إلا بنقلِ الله ذلك عنه إلى مَنْ نقله إليه من خَلْقِه. فكان في فرضه تعالى ذِكْرُه للأمِّ مافَرَضَ - إذا لم يكن لولدها الميتِ وارثٌ غيرها وغير والده، ولا أخ - الدلالةُ الواضحة للخَلْقِ أنَّ ذلك المفروضَ - وهو ثلثُ مالِ ولدها الميت - حَقٌّ لها واجب، حتى يغيِّر ذلك الفرض من فَرَض لها. فلما غيَّرَ تعالى ذِكْرُه مافَرَضَ لها من ذلك مع الإخوة الجماعة، وترك تغييره مع الأخِ الواحد، عُلِمَ بذلك أن فرضها غير متغيِّر عما فرض لها إلا في الحال التي غيَّره فيها مَنْ لَزِمَ العبادَ طاعتُه، دون غيرها من الأحوال.

وإن الله تعالى ذكره فَرَضَ للأم مع الإخوةِ السدس، لما هو أعلم به من مصلحة خلقه. وقد يجوز أن يكون ذلك كان لما ألزم الآباء لأولادهم. وقد يجوز أن يكون ذلك لغير ذلك. وليس ذلك مما كلَّفنا علمه، وإنما أمرنا بالعمل بما علمنا.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصِي بِهَآ أَوۡ دَيۡنٍۗ

يعني جل ثناؤه بقوله: «من بعد وصية يوصي بها أو دين»، أنَّ الذي قسم الله تبارك وتعالى لولد الميتِ الذكور منهم والإناث ولأبويه مِنْ تركتهِ من بعد وفـاته، إنما يقسمه لهم على ماقسمه لهم في هذه الآية من بعد قضاءِ دَيْنِ الميت الذي ماتَ وهو عليه من تركته، ومن بعد تنفيذ وصيته في بابها بعد قضاء دَيْنِهِ كُلِّه. فلم يجعل تعالى ذِكْرُه لأحدٍ من ورثة الميت، ولا لأحدٍ ممن أوصى له بشيء، إلا مِنْ بَعْدِ قضاءِ دَيْنِهِ من جميعِ تركته، وإنْ أحاطَ بجميعِ ذلك. ثم جعلَ أهلَ الوصايا بعد قضاءِ دينه شُركاءَ ورثتهِ فيما بقي لما أوصى لهم به، ما لم يجاوزْ ذلك ثُلُثَهُ. فإنْ جاوزَ ذلك ثلثه، جعل الخيار في إجازة مازاد على الثلث من ذلك أو ردِّه إلى ورثته: إنْ أَحَبُّوا أجازوا الزيادةَ على ثُلُثِ ذلك، وإنْ شاءوا رَدُّوه. فأما ما كان من ذلك إلى الثلث، فهو ماضٍ عليهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ءَابَآؤُكُمۡ وَأَبۡنَآؤُكُمۡ لَا تَدۡرُونَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ لَكُمۡ نَفۡعٗاۚ

يعني جل ثناؤه بقوله: «آباؤكم وأبناؤكم»، هؤلاء الذين أوصاكم الله به فيهم - من قِسْمَةِ ميراثِ مَيِّتكم فيهم على ماسَمَّى لكم وبَيَّنَهُ في هذه الآية - آباؤكم وأبناؤكم. «لاتدرون أيهم أقربُ لكم نفعاً»، يقول: أعطوهم حقوقَهُم من ميراثِ مَيِّتِهم الذي أوصيتُكُم أنْ تُعْطُوهُمُوها، فإنكم لا تعلمونَ أيهم أدنى وأشد نفعاً لكم في عاجلِ دنياكم وآجلِ أُخْرَاكم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: فَرِيضَةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمٗا ﴿١١﴾

يعني بقوله جل ثناؤه: «فريضةً من الله»، «وإن كان له إخوةٌ فلأمه السُّدُسُ»، فريضةً، يقول: سهاماً معلومة موقتة بيَّنها الله لهم.

وأما قوله: «إن الله كان عليماً حكيماً»، فإنه يعني جَلَّ ثناؤه: إنَّ الله لم يَزَلْ ذا عِلْمٍ بما يصلحُ خَلْقَهُ، أيها الناس، فانتهوا إلى ما يأمركم، يصلح لكم أموركم. «حكيماً»، يقول: لم يَزَلْ ذا حِكْمةٍ في تدبيره، وهو كذلك فيما يقسمُ لبعضكم من ميراثِ بعضٍ، وفيما يقضي بينكم من الأحكام، لا يدخلُ حكمه خَلَلٌ ولا زلل، لأنه قضاء مَنْ لا تَخْفَى عليه مواضعُ المصلحةِ في البدء والعاقبة.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٌ فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمُ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَ مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ﴾

يعني بذلك جل ثناؤه، «ولكم» أيها الناس. «نِصْفُ ماتركَ أزواجكم»، بعد وفاتِهنَّ من مالٍ وميراث. «إنْ لم يكن لَهُنَّ ولَدٌ»، يومَ يحدثُ بهن الموت، لا ذكر ولا أنثى. «فإنْ كان لهن ولَدٌ»، أي: فإنْ كان لأزواجكم يوم يحدث بهن الموت، ولَدٌ ذكرٌ أو أنثى. «فلكم الربع مما تركن»، من مالٍ وميراث، ميراثاً لكم عنهن. «من بعد وصيةٍ يُوصِينَ بها أو دَيْنٍ»، يقول: ذلكم لكم ميراثاً عنهنَّ، مما يبقى من تركاتهن وأموالهن، من بعد قضاءِ دُيونهن التي يَمُتْنَ وهي عَلَيهِنَ، ومن بعدِ إنفاذِ وصَاياهُنَّ الجائزة إنْ كُنَّ أَوْصَيْنَ بها.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَهُنَّ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّكُمْ وَلَدٌ فَإِن كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُم

﴿مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ تُوصُونَ بِهَآ أَوۡ دَيۡنٖۗ﴾

يعني جل ثناؤه بقوله: «ولهن الربع مما تركتم إنْ لم يكن لكم ولد» ولأزواجكم، أيها الناسُ، ربعُ ماتركتم بعد وفاتكم من مالٍ وميراث، إنْ حدث بأحدكم حَدَثُ الوفاةِ ولا ولدَ له ذكر ولا أنثى. «فإنْ كان لكم ولد»، يقول: فإنْ حَدَثَ بأحدكم حَدَثُ الموتِ وله ولدٌ ذكرٌ أو أنثى، واحداً كان الولدُ أو جماعة. «فلهن الثمنُ مما تركتم»، يقول: فلأزواجكم حينئذٍ من أموالكم وتركتكم التي تخلفونَها بعد وفاتكم، الثُّمُنُ من بعدِ قضاءِ ديونِكم التي حدث بكم حَدَثُ الوفاةِ وهيَ عليكم، ومن بعد إنفاذِ وصاياكم الجائزة التي تُوصُونَ بها.

وإنما قيل: «من بعد وصيةٍ تُوصون بها أو دين»، فَقَدَّمَ ذِكْر الوصيةِ على ذكر الدَّيْن، لأنَّ معنى الكلام: إن الذي فرضتُ لمن فرضتُ له منكم في هذه الآيات، إنما هُوَ لَهُ من بعد إخراجِ أيِّ هذين كانَ في مال الميتِ منكم، من وصيةٍ أو دَيْنٍ. فلذلك كان سواءً تقديم ذِكْرِ الوصيةِ قبل ذِكْرِ الدَّيْنِ، وتقديم ذكر الدين قبل ذكر الوصية، لأنه لم يرد من معنى ذلك إخراج الشيئين: «الدين والوصية» من مالهِ، فيكون ذِكر الدَّيْنِ أوْلى أن يُبْدَأَ به من ذكر الوصية.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِن كَانَ رَجُلٞ يُورَثُ كَلَٰلَةً أَوِ ٱمۡرَأَةٞ﴾

يعني بذلك جل ثناؤه: وإنْ كان رجلٌ أو امرأة يُورَثُ كَلالةً. والكَلاَلةُ: الذين يَرِثُونَ الميتَ، من عدا ولدِهِ ووالده.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَهُۥٓ أَخٌ أَوۡ أُخۡتٞ فَلِكُلِّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا ٱلسُّدُسُۚ فَإِن كَانُوٓاْ أَكۡثَرَ مِن ذَٰلِكَ فَهُمۡ شُرَكَآءُ فِي ٱلثُّلُثِۚ﴾

يعني بقوله جل ثناؤه: «وله أخ أو أخت»، وللرجل الذي يورث كلالة أخ أو أخت، يعني: أخاً أو أختاً من أمه.

وقوله: «فلكل واحدٍ منهما السدس»، إذا انفرد الأخُ وحده أو الأختُ وحدها، ولم يكن أخ غيره أو غيرها من أمه، فله السدس من ميراثِ أخيهِ لأمِّهِ. فإن اجتمع أخٌ وأختٌ، أو أخوان لا ثالثَ معهما لأُمِّهِمَا، أو أختان كذلك، أو أخ وأخت ليس معهما غيرهما من أمهما، فلكلٍّ واحدٍ منهما من ميراثِ أخيهما لأُمِّهما السدس. «فإنْ كانوا أكثر من ذلك»، يعني: فإنْ كان الإخوةُ والأخواتُ لأمِّ الميتِ الموروث كلالة أكثرَ من اثنين. «فهم شركاء في الثلث»، يقول: فالثُّلث الذي فرضت لاثْنَيْهِم إذا لم يكن غيرهما من أُمِّهما ميراثاً لهما من أخيهما الميتِ الموروثِ كلالةً، شركة بينهم، إذا كانوا أكثر من اثنين إلى مابلغ عددهم على عدد رؤوسهم، لا يُفَضَّلُ ذَكَرٌ منهم على أنثى في ذلك، ولكنه بينهم بالسويَّة.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصَىٰ بِهَآ أَوۡ دَيۡنٍ غَيۡرَ مُضَآرّٖۚ وَصِيَّةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٞ ١٢﴾

يعني جل ثناؤه بقوله: «من بعد وصية يُوصَى بها»، أي: هذا الذي فرضت لأخي الميتِ الموروثِ كلالةً وأخته أو إخوته وأخواته من ميراثه وتركته، إنما هو لهم من بعد قضاءِ دينِ الميتِ الذي كان عليه يوم حَدَثَ به حَدَثُ الموتِ من تركتهِ، وبعد إنفاذِ وصاياه الجائزة التي يُوصي بها في حياته لمن أوصى له بها بعد وفاته.

وأما قوله: «غير مضارٍّ»، فإنه يعني تعالى ذِكْرُه: من بعد وصية يُوصِي بها، غيرَ مضَارٍّ ورثَتَهُ في ميراثِهم عنه.

ويعني بقوله تعالى ذكره: «وصية من الله»، عهداً من الله إليكم فيما يجبُ لكم من ميراثِ مَنْ مات منكم. «والله عليم»، يقول: والله ذُو عِلْمٍ بمصالحِ خَلْقِه ومضارِّهم، ومَنْ يستحقُّ أنْ يُعْطَى من أقرباءِ مَنْ مات منكم وأنسبائه من ميراثه، ومَنْ يُحرم ذلك منهم، ومبلغ مايستحقُّ به كُلُّ مَن استحقَّ منهم قسماً، وغير ذلك من أمور عباده ومصالحهم. «حليم»، يقول: ذو حِلْمٍ على خَلْقِه، وذُو أنَاةٍ في تَرْكِه مُعَاجَلَتَهُم بالعقوبةِ على ظلمِ بعضِهم بعضاً، في إعطائهم الميراث لأهل الجَلَدِ والقوةِ من ولدِ الميت، وأهلِ الغناءِ والبأسِ منهم، دونَ أهلِ الضعفِ والعجزِ من صغارِ ولدِه وإناثِهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَـالَى: ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٣﴾﴾

فتأويل الآية إذاً: هذه القسمةُ التي قسم بينكم، أيها الناسُ، عليها رَبُّكم مواريثَ مَوْتَاكُم، فصولٌ فصَل بها لكم بين طاعتهِ ومعصيتهِ، وحدودٌ لكم تنتهونَ إليها فلا تَتَعَدَّوْهَا، ليعلم منكم أهلَ طاعتهِ من أهلِ معصيتهِ، فيما أمركم به من قسمةِ مواريثِ موتاكم بينكم، وفيما نهاكُم عنه منها.

ثم أخبر جَلَّ ثناؤه عما أعَدَّ لكلِّ فريقٍ منهم فقال لفريقِ أهلِ طاعتهِ في ذلك: «ومَنْ يُطعِ اللهَ ورسولَهُ» في العملِ بما أمره به، والانتهاءِ إلى ماحَدَّهُ له في قسمةِ المواريثِ وغيرها، ويجتنبْ مانهاه عنه في ذلك وغيره. «يُدْخِلْهُ جناتٍ تجري من تحتها الأنهار».

فقولـه: «يدخله جنـات»، يعني: بسـاتين تجـري من تحتِ غُروسِها وأشجارِها الأنهارُ. «خالدينَ فيها»، يقول: باقينَ فيها أبداً لا يموتونَ فيها ولا يفنون، ولا يُخْرجونَ منها. «وذلك الفوز العظيم».

يقول: وإدخالُ اللهِ إياهم الجنانَ التي وصفها على ماوَصَفَ من ذلك: «الفوز العظيم»، يعني: الفَلَح العظيم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَالَى: وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدْخِلْهُ نَارًا خَٰلِدًا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٤﴾

يعني بذلك جل ثناؤه: «ومَنْ يعصِ الله ورسوله» في العمل بماأمراه به من قِسْمَةِ المواريثِ على ماأمراه بقسمةِ ذلك بينهم وغير ذلك من فرائضِ الله، مخالفاً أمرهما إلى مانَهياهُ عنه. «ويتعدَّ حدوده»، يقول: ويتجاوز فصُول طاعتهِ التي جعلها تعالى فاصلةً بينها وبينَ معصيتهِ، إلى مانهاهُ عنه من قسمةِ تركاتِ موتاهم بين ورثتهم وغير ذلك من حدوده. «يُدْخِلْهُ ناراً خالداً فيها»، يقول: باقياً فيها أبداً لا يموتُ ولا يخرج منها أبداً. «وله عذابٌ مهين»، يعني: وله عذابٌ مُذِلٌّ من عُذِّبَ به مُخْزٍ لَهُ.

فإنْ قال قائل: أوَ مُخَلَّدٌ في النار مَنْ عَصَى الله ورسولَهُ في قسمة المواريث؟

قيل: نعم، إذا جمع إلى معصيتهما في ذلك شكاً في أنَّ الله فَرَضَ عليه مافرض على عبادهِ في هاتين الآيتين، أو علم ذلك فحادَّ الله ورسوله في أمرهما مِمَّنْ خالفَ قِسْمَةَ الله ماقسمَ من ميراثِ أهلِ الميراثِ بينهم على ماقسمه في كتـابـه، وخالفَ حُكْمَهُ في ذلك وحُكْمَ رسولِه، استنكاراً منه حُكْمَهُمَا، كما استنكره ممن كان بين أظهُرِ أصحابِ رسولِ الله ﷺ من المنافقينَ الذين فيهم

نَزَلَتْ وفي أشكالهم هذه الآية، فهو من أهلِ الخلودِ في النار، لأنه باستنكارهِ حُكْمَ الله في تلك، يصيرُ بالله كافراً، ومن مِلَّةِ الإسلامِ خارجاً.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَٱلَّٰتِي يَأْتِينَ ٱلْفَٰحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمْ فَٱسْتَشْهِدُوا۟ عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِّنكُمْ ۖ فَإِن شَهِدُوا۟ فَأَمْسِكُوهُنَّ فِى ٱلْبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّىٰهُنَّ ٱلْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا ﴿١٥﴾﴾

يعني بقوله جَلَّ ثناؤه: «واللاتي يأتينَ الفاحشة»، والنساء اللاتي يأتين بالزنا، أي: يزنين. «من نسائكم»، وهُنَّ محصنات ذوات أزواجٍ أو غير ذواتِ أزواجٍ. «فاستشهدوا عليهن أربعة منكم»، يقول: فاستشهدوا عليهن بما أَتَيْنَ بهِ من الفاحشةِ أربعةَ رجالٍ من رجالكم، يعني: من المسلمين. «فإن شهدوا» عليهن. «فأمسكوهن في البيوتِ»، يقول: فاحبسوهن في البيوت. «حتى يتوفَّاهُنَّ الموتُ»، يقول: حتى يَمُتْنَ. «أو يجعلَ الله لهن سبيلاً»، يعني: أو يجعل الله لهن مخْرجاً وطريقاً إلى النجاة مما أتينَ به من الفاحشةِ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَٱلَّذَانِ يَأْتِيَٰنِهَا مِنكُمْ﴾

يعني جل ثناؤه بقوله: «واللذان يأتيانها منكم»، والرجل والمرأة اللذان يأتيانها، يقول: يأتيانِ الفاحشةَ. و«الهاء» و«الألف» في قوله: «يأتيانها» عائدةٌ على «الفاحشةِ» التي في قوله: «واللاتي يأتينَ الفاحشةَ من نسائكم». والمعنى: واللذان يأتيان منكم الفاحشةَ فآذُوهُمَا.

وعُنِيَ به البِكْران غير المُحْصَنَيْنِ إذا زَنَيا، وكان أحدهما رجلاً والآخر امرأة، لأنه لو كان مقصوداً بذلك قصد البيان عن حُكْمِ الزُّنَاةِ من الرجالِ، كما كان مقصوداً بقوله: «واللاتي يأتينَ الفاحشةَ من نسائكم» قصد البيان عن

حُكْمِ الزواني، لقيل: «والذين يأتونها منكم فآذوهم»، أو قيلَ: «والذي يأتيها منكم»، كما قيل في التي قبلها: «واللاتي يأتين الفاحشة»، فأخرج ذِكْرَهُنَّ على الجميعِ، ولم يقل: «واللتان يأتيان الفاحشة».

وكذلك تفعلُ العربُ إذا أرادت البيانَ على الوعيدِ على فِعْلٍ أو الوعد عليه، أخرجتْ أسماءَ أهلهِ بذكْرِ الجميعِ أو الواحد - وذلك أنَّ الواحدَ يدلُّ على جنسهِ - ولا تُخْرجها بذكر اثنين. فتقول: «الذين يفعلونَ كذا فلهم كذا»، «والذي يفعلُ كذا فله كذا»، ولا تقول: «اللذان يفعلان كذا فلهما كذا»، إلا أنْ يكون فعلاً لا يكون إلا من شخصين مختلفين، كالزنا لا يكون إلا من زانٍ وزانية. فإذا كانَ ذلك كذلك قِيلَ بذكرِ الاثنين، يراد بذلك الفاعل والمفعول به. فأما أنْ يذكر بذكر الاثنين، والمراد بذلك شخصان في فعلٍ قد ينفردُ كُلُّ واحدٍ منهما به، أو في فِعْلٍ لا يكونان فيه مشتركين، فذلك مالا يُعْرف في كلامها

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَـَٔاذُوهُمَاۖ فَإِن تَابَا وَأَصۡلَحَا فَأَعۡرِضُواْ عَنۡهُمَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ تَوَّابٗا رَّحِيمًا ١٦﴾

إنَّ الله تعالى ذِكْرُه كانَ أَمَرَ المؤمنينَ بأذى الزانيين المذكورين، إذا أَتَيَا ذلك وهُمَا من أهلِ الإسلامِ. و«الأذى» قد يقعُ لِكُلِّ مكروهٍ نال الإنسانَ، من قولٍ سيءٍ باللسانِ أو فِعْلٍ. وليسَ في الآية بيانُ أيِّ ذلك كان أُمِرَ به المؤمنونَ يومئـذٍ، ولا خبـر به عن رسولِ الله ﷺ من نقلِ الواحدِ ولا نقلِ الجماعةِ الموجب مجيئهما قطعَ العُذْرِ.

وأهل التأويل في ذلك مختلفون، وجائزٌ أنْ يكونَ ذلك أذىً باللسانِ أو اليد، وجائزٌ أنْ يكون كان أذىً بهما. وليس في العلم بأيِّ ذلك كان من أيِّ

نفعٌ في دِينٍ ولا دنيا، ولا في الجهل به مَضَرَّةٌ، إذْ كان اللهُ جَلَّ ثناؤه قد نسخ ذلك من مُحْكَمِه بما أوجبَ من الحكم على عباده فيهما وفي اللائي قبلهما.
فأما الذي أوجبَ من الحُكْمِ عليهم فيهما، فما أوجب في «سورة النور: ٢» بقوله: ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِئَةَ جَلْدة﴾. وأمَّا الذي أوجبَ في اللائي قبلهما، فالرجم الذي قضى به رسولُ الله ﷺ فيهما. وأجمعَ أهلُ التأويلِ جميعاً على أنَّ الله تعالى ذِكْرُه قد جعل لأهلِ الفاحشةِ من الزناة والزواني سبيلاً بالحدود التي حكم بها فيهم.

وقال جماعةٌ من أهل التأويل: إن الله سبحانه نسخ بقوله: ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِئَةَ جَلْدَةٍ﴾ [النور: ٢]، قوله: «واللذان يأتيانها منكم فآذوهما».

وأما قوله: فإنْ تَابا وأصْلَحَا فأعْرِضُوا عنهما، فإنه يعني به جَلَّ ثناؤه: فإنْ تابا من الفاحشة التي أتيا فراجعا طاعةَ الله بينهما «واصلحا»، يقول: وأصلحا دِينَهُمَا بمراجعةِ التوبة من فاحِشَتِهما، والعمل بما يُرْضِي الله «فأعرضوا عنهما»، يقول: فاصْفَحُوا عنهما، وكُفُّوا عنهما الأذى الذي كنتُ أمَرْتُكُم أنْ تُؤذُوهما به عقوبةً لهما على ماأتيا من الفاحشةِ، ولا تُؤْذُوهُمَا بعد توبتهما.

وأما قوله: «إن الله كان تواباً رحيماً»، فإنه يعني: إن الله لم يَزَلْ راجعاً لعبيده إلى مايحبون إذا هم راجعوا مايُحِبُّ منهم من طاعتهِ. «رحيماً» بهم، يعني: ذا رحمةٍ ورأفة.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ﴾

يعني بقوله جل ثناؤه: «إنما التوبة على الله للذين يعملون السوء

بجهـالة»، ما التوبةُ على اللهِ لأحدٍ من خَلْقِه، إلا للذين يعملونَ السُّوءَ من المؤمنينَ بجهالةٍ. «ثم يتوبونَ من قريبٍ»، يقول: ما الله براجعٍ لأحدٍ من خَلْقِه إلى مايحبُّهُ من العفوِ عنه والصفحِ عن ذنوبِه التي سَلَفَتْ منه، إلا للذين يأتونَ مايأتـونه من ذُنوبِهم جهالةً منهم وهم بربهم مؤمنون، ثم يُراجعونَ طاعةَ الله ويتوبون منه إلى ما أمرهم الله به من الندم عليه والاستغفار وترك العَوْدِ إلى مِثْلِه من قبـل نزول الموت بهم. وذلك هو «القريب» الذي ذكره الله تعالى ذِكْرُه فقال: «ثم يتوبون من قريب».

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ

تأويله: ثم يتوبونَ قَبْلَ مَمَاتِهم، في الحال التي يفهمون فيها أمرَ الله تبارك وتعالى ونهيَهُ، وقبل أنْ يُغْلَبُوا على أنفسهم وعقولهم، وقبل حال اشتغالهم بِكَرْبِ الحَشْرجةِ وغَمِّ الغرغرة، فلا يعرفوا أمرَ اللهِ ونهيه، ولا يعقلوا التوبةَ، لأنَّ التـوبـةَ لا تكـون توبةً إلا من ندمٍ على ماسلف منه، وعزمٍ منه على تَرْكِ المعاودة، وهو يعقل الندم، ويختار تركَ المعاودة: فأما إذا كان بكربِ الموتِ مشغولاً، وبغَمِّ الحشرجةِ مغموراً، فلا إخالُه إلاَّ عن الندم على ذنوبه مغلوباً. ولذلك قال مَنْ قال: «إنَّ التوبةَ مقبولةٌ، مالم يُغَرْغِرِ العبدُ بنفسه»، فإنْ كان المرءُ في تلك الحال يعقلُ عَقْلَ الصحيح، ويفهم فَهْمَ العاقل الأريب، فأَحْدَثَ إنابةً من ذنوبِه، ورجعةً من شرودِه عن ربِّه إلى طاعتِه، كان إنْ شاء الله ممن دخل في وَعْدِ الله الذي وعد التائبينَ إليه من إجرامهم من قريب بقوله: «إنما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون من قريب».

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: فَأُوْلَـٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧﴾

يعني بقوله جل ثناؤه: «فأولئك»، فهؤلاء الذين يَعملونَ السُّوءَ بجهالةٍ ثم يتوبون من قريب. «يتوبُ الله عليهم»، دونَ مَنْ لم يَتُبْ حتى غُلِبَ على عقلِه، وغَمَرتْهُ حشرجةُ مِيْتَتِه، فقال وهو لا يفقه مايقول: «إني تبتُ الآن»، خداعاً لربه، ونفاقاً في دِينه.

ومعنى قوله: «يتوبُ الله عليهم»، يرزقهم إنابةً إلى طاعته، ويتقبلُ منهم أوْبَتَهُم إليه وتوبتهم التي أحدثُوها من ذنوبهم.

وأما قوله: «وكان الله عليماً حكيماً»، فإنه يعني: ولم يزل الله جل ثناؤه «عليماً» بالناسِ من عبادِه المنيبينَ إليه بالطاعةِ، بعد إدبارهم عنه، المقبلينَ إليه بعد التوليةِ، وبغيرِ ذلك من أمور خَلْقِه. «حكيماً»، في توبته على مَنْ تاب منهم من معصيته، وفي غير ذلك من تدبيره وتقديره، ولا يدخل أفعاله خَلَلٌ، ولا يُخالطه خطأ ولا زلل.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ﴾

يعني بذلك جَلَّ ثناؤه: وليست التوبةُ للذين يعملون السيئاتِ من أهلِ الإصرارِ على معاصي الله. «حتى إذا حَضَرَ أحدَهُمُ الموتُ»، يقول: إذا حَشْرَجَ أحَدُهم بنفسِه، وعَاينَ ملائكةَ رَبِّهِ قد أقبلوا إليه لقبضِ رُوحِهِ، قال وقد غُلِبَ على نفسه، وحِيْلَ بينه وبين فَهْمِه، بِشُغْلِه بِكَرْبِ حَشْرَجَتِه وغَرْغَرتِهِ «إني تبتُ الآن»، يقول: فليسَ لهذا عندَ الله تبارك وتعالى توبةٌ، لأنه قالَ ما قالَ في غيرِ حالِ توبة.

واختلف أهلُ التأويل فيمن عُنِيَ بقوله: «وليست التوبةُ للذين يعملون السيئاتِ حتى إذا حَضَرَ أحدَهُم الموتُ قال إني تبتُ الآن».

فقال بعضهم: عُني به أهلُ النفاق.

وقال آخرون: بل عُني بذلك أهلُ الإسلام.

وقال آخرون: بَلْ هذه الآيةُ كانت نزلت في أهلِ الإيمان، غير أنها نسخت.

وأوْلى الأقوالِ في ذلك عندي بالصواب (قولُ مَنْ قال: هُمُ المسلمون)، وذلك أنَّ المنافقينَ كُفَّارٌ، فلو كان مَعْنيًّا به أهلُ النفاقِ لم يكن لقوله: «ولا الذينَ يموتونَ وهم كفارٌ» معنًى مفهوم، إذْ كانوا والذين قَبْلَهُم في معنًى واحدٍ: مِنْ أنَّ جميعَهُم كفارٌ. ولا وجهَ لتفريقِ أحكامِهم، والمعنى الذي من أجلهِ بَطَلَ أنْ تكونَ لهم توبةٌ، واحدٌ. وفي تفرقةِ الله جَلَّ ثناؤه بين أسمائِهم وصِفاتهم، بأنْ سَمَّى أحدَ الصنفين كافراً، ووصفَ الصِنْفَ الآخرَ بأنهم أهل سيئات، ولم يُسَمِّهم كُفَّاراً مادَلَّ على افتراقِ معانيهم. وفي صحةِ كونِ ذلك كذلك، صحةُ ماقُلْنَا وفسادُ ماخَالَفَهُ.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعـالَى: وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌۚ أُوْلَـٰٓئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٨﴾

يعني بذلـك جَلَّ ثنـاؤه: ولا التـوبـةُ للذين يموتونَ وهم كُفَّارٌ فَمَوْضِعُ «الذين» خَفْضٌ، لأنه معطوفٌ على قولِهِ: «للذين يعملونَ السيئاتِ».

وقوله: «أولئك أعتدنا لهم عذاباً أليماً»، يقول: هؤلاء الذين يموتونَ وهُمْ كفارٌ «أعتدنا لهم عذاباً أليماً»، لأنهم من التوبةِ أبعدُ، لموتِهم على الكفرِ.

ومعنى قوله: «أعتدنا لهم»، أعْدَدْنا لهم. «عذاباً أليماً»، يقول: مُؤلماً مُوجِعاً.

القَوْلُ فِي تَأْوِيل قَوْلِهِ تَعَالَى: يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُوا۟ ٱلنِّسَآءَ كَرْهًا ۖ وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا۟ بِبَعْضِ مَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَـٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ ۚ

يعني تبارك وتعالى بقوله: «يا أيها الذين آمنوا»، يا أيها الذين صَدَّقُوا الله ورسولَهُ. «لايَحِلُّ لكم أنْ تَرِثُوا النساء كَرهاً»، يقول: لا يَحِلُّ لكم أنْ ترثوا نكاحَ نساء أقارِبكم وآبائكم كَرْهاً.

فإن قال قائل: كيف كانوا يَرِثُونهن؟ وما وجهُ تحريمِ وراثَتِهِنَّ؟ فقد علمتَ أنَّ النساءَ مُوَرِّثات كما الرجال مُوَرِّثُونَ!

قيل: إنَّ ذلك ليس من معنى وراثتهن إذا هُنَّ مِتْنَ فتركنَ مالاً، وإنما ذلكَ أنهن في الجاهليةِ كانتْ إحداهُنَّ إذا ماتَ زَوْجُهَا، كان ابنهُ أو قريبهُ أوْلى بها من غيرِهِ، ومنها بنَفْسِهَا، إنْ شاء نكحها، وإنْ شاء عَضَلَها فَمَنَعَها مِنْ غيرِهِ ولم يُزَوِّجْهَا حتى تموتَ. فَحَرَّمَ اللهُ تعالى ذلك على عباده، وحظرَ عليهم نكاحَ حلائلِ آبائهم، ونهاهم عن عَضْلِهِنَّ عن النكاحِ.

وأما قوله تعالى: «ولا تَعْضُلوهُنَّ لتذهبوا ببعضِ ما آتيتموهُنَّ»، فإنَّ أهلَ التأويلِ اختلفوا في تأويله.

وأوْلى الأقوال بالصحة قولُ مَنْ قال: نهى الله جَلَّ ثناؤه زوجَ المرأةِ عن التضييقِ عليها والإضرار بها، وهو لِصُحْبَتِهَا كارهٌ ولفراقها مُحِبٌّ، لتفتديَ منه ببعضِ ما آتاها من الصَّداقِ.

وإنما قلنا ذلك أَوْلى بالصحةِ، لأنه لا سبيلَ لأحدٍ إلى عَضْلِ امرأةٍ إلاَّ لأحدِ رجلين: إمَّا لزوجِها بالتضييقِ عليها وحَبْسِهَا على نفسهِ وهو لها كارهٌ، مُضَارَّةً منه لها بذلك، ليأخذ منها ما آتاهَا بافتدائِها منه نَفْسَهَا بذلك أو لِوَلِيِّها الذي إليه إنكاحُهَا.

وإذا كان لا سبيلَ إلى عَضْلِهَا لأحدٍ غيرهما، وكان الوليُّ معلوماً أنه ليس ممن آتـاهـا شيئاً فيقال إنْ عَضَلَها عن النكاحِ: «عَضَلها ليذهب ببعضِ ما آتاها»، كان معلوماً أنَّ الذي عَنَى اللهُ تبارك وتعالى بنهيهِ عن عَضْلِهَا، هو زوجها الذي له السبيلُ إلى عَضْلها ضِراراً لتفتديَ منه.

وإذا صَحَّ ذلك، وكان معلوماً أنَّ الله تعالى ذِكْرُه لم يجعلْ لأحدٍ السبيلَ على زوجتهِ بعد فراقهِ إياها وبَيْنُونتهَا منه، فيكون له إلى عَضْلِها سبيلٌ لتفتدي منه من عَضْله إياها، أتَتْ بفاحشةٍ أمْ لم تَأْتِ بها، وكان الله جَلَّ ثناؤه قد أباح للأزواجِ عضلهن إذا أتين بفاحشةٍ مبيّنةٍ حتى يفتدينَ منه، كان بَيِّناً بذلك خطأُ التأويلِ الذي تأوَّلَهُ ابنُ زيد، وتأويلِ مَنْ قال: «عَنَى بالنهي عن العَضْلِ في هذه الآية أولياء الأيامى»، وصحةُ ماقلنا فيه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ﴾

ومعنى «الفـاحشـة» التي ذكـرهـا الله جل ثنـاؤه في هذا المـوضع كل «فاحشة»: من بَذاءٍ باللسان على زوجها، وأذىً له، وزِناً بفَرْجِهَا. وذلك أنَّ الله جَلَّ ثناؤه عَمَّ بقوله: «إلا أنْ يأتين بفاحشة مبينة»، كلَّ فاحشةٍ متبيِّنةٍ ظاهرة، فكُلُّ زوجِ امرأةٍ أتت بفاحشةٍ من الفواحش التي هي زِناً أو نشوز، فله عَضْلُهَا على مابَيَّنَ اللهُ في كتـابـه، والتضييقُ عليهـا حتى تفتـديَ منـه، بأيِّ معاني الفواحشِ أتَتْ، بعد أن تكون ظاهرة مبيِّنة.

فمعنى الآية: ولا يَحِلُّ لكم، أيها الذين آمنوا، أنْ تعضلُوا نساءَكم لِتُضَيِّقُوا عليهن وتَمْنَعُوهُنَّ رِزْقَهُنَّ وكِسْوتَهُنَّ بالمعروفِ، لتذهبوا ببعضِ ما آتيتموهن من صَدُقَاتكم، إلَّا أنْ يأتينَ بفاحشةٍ من زِنًا أو بَذاءٍ عليكم، وخلافٍ لكم فيما يجبُ عليهن لكم ـ مبيِّنة ظاهرة، فيحلُّ لكم حينئذٍ عَضْلهن والتضييق عليهن، لتذهبوا ببعضِ ما آتيتموهن مِنْ صَدَاق إنْ هُنَّ افتدين منكم به.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ

يعني جَلَّ ثناؤه بقوله: «وعاشروهن بالمعروف»، وخالقوا، أيها الرجال، نساءَكُم وصاحِبُوهُنَّ. «بالمعروف»، يعني بما أمرتُكم به من المصاحبة، وذلك: إمساكُهن بأداءِ حُقوقهن التي فَرَضَ اللهُ جَلَّ ثناؤه لهنَّ عليكم إليهن، أو تسريحُ منكم لَهُنَّ بإحسان.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴿١٩﴾

يعني بذلك تعالى ذِكْرُه: لا تَعْضُلُوا نساءكم لتذهبوا ببعضِ ما آتيتموهن من غير رِيبةٍ ولا نشوزٍ كانَ منهُنَّ، ولكن عاشروهُنَّ بالمعروفِ وإنْ كَرِهْتُموهُنَّ، فلعلَّكُم أنْ تكرهوهن فتمسكوهن، فيجعل الله لكم في إمساكِكم إياهُنَّ على كُرْهٍ منكم لهن خيراً كثيراً، من ولدٍ يرزقكم منهن، أو عَطْفِكم عليهن بعد كراهتكم إياهن.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَإِنْ أَرَدتُّمُ ٱسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا۟ مِنْهُ شَيْـًٔا

يعني جل ثناؤه بقوله: «وإنْ أردتمُ استبدالَ زوجٍ مكانَ زوجٍ»، وإنْ أردتم، أيها المؤمنون، نكاحَ امرأةٍ مكانَ امرأةٍ لكم تطلقونها. «وآتيتم إحداهن»، يقول: وقد أعطيتم التي تريدونَ طَلاقَها من المهر. «قنطاراً» و«القنطار» المال الكثير. «فلا تأخذوا منه شيئاً»، يقول: فلا تضرُّوا بِهِنَّ إذا أردتم طلاقَهُنَّ ليفتدينَ منكم بما آتيتموهن.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: أَتَأْخُذُونَهُۥ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٢٠﴾

يعني بقوله تعالى ذِكْرُه: «أتأخُذُونَهُ»، أتأخذون ما آتيتموهن من مُهُورِهنَّ. «بهتاناً»، يقول: ظلماً بغير حَقٍّ. «وإثماً مبيناً»، يعني: وإثماً قد أبان أمرُ آخذِهِ أنه بأخذِهِ إياه لمن أخذَهُ منه ظالمٌ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُۥ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ

يعني جل ثناؤه بقوله: «وكيف تأخذونه»، وعلى أيِّ وجهٍ تأخذونَ من نسائِكم ما آتيتموهُنَّ من صدقاتهن، إذا أردتم طلاقهن واستبدالَ غيرهن بهن أزواجاً. «وقد أفضى بعضُكم إلى بعضٍ»، فتباشرتم وتلامستم.

وهذا كلامٌ وإنْ كان مخرجه مخرجَ الاستفهامِ، فإنه في معنى النكيرِ والتغليظِ، كما يقولُ الرجلُ لآخرَ: «كيف تفعلُ كذا وكذا، وأنا غيرُ راضٍ به؟»، على معنى التهدُّدِ والوعيدِ.

وأما «الإفضاء» إلى الشيء، فإنه الوصولُ إليه بالمباشرة له.

فتأويلُ الكلام إذْ كان ذلك معناه: وكيفَ تأخذونَ ما آتيتموهن، وقد

أفضى بعضُكم إلى بعضٍ بالجماع.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ﴿٢١﴾

أيْ: ماوثَّقتم به لهنَّ على أنْفُسِكم، من عَهْدٍ وإقرارٍ منكم بما أقررتم به على أنفسِكم، من إمساكِهِنَّ بمعروفٍ، أو تسريحهنَّ بإحسان.

وكان في عَقْدِ المسلمينَ النكاحَ قديماً فيما بلغنا - أنْ يقال لناكح: «آللهُ عليك لتمسكنَّ بمعروفٍ أو لتسرِّحَنَّ بإحسان»!

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَلَا تَنكِحُوا مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَمَقْتًا وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٢٢﴾

قد ذُكِرَ أنَّ هذه الآية نزلتْ في قومٍ كانوا يَخْلُفُون على حلائلِ آبائِهم، فجاءَ الإسلامُ وهم على ذلك، فحرَّمَ اللهُ تبارك وتعالى عليهم المُقام عليهن، وعفا لهم عما كان سَلَفَ منهم في جاهليتهم وشِرْكهم من فِعْلِ ذلك، لم يُؤاخِذْهُمْ به، إن هم اتَّقوا اللهَ في إسلامِهم وأطاعوه فيه.

وقال آخرون: معنى ذلك: ولا تنكحوا نكاحَ آبائكم - بمعنى: ولا تنكحوا كنكاحهم، كما نكحوا على الوجوهِ الفاسدةِ التي لا يجوزُ مِثْلُها في الإسلام - «إنه كانَ فاحشةً ومَقْتاً وساءَ سبيلاً»، يعني: أنَّ نِكاحَ آبائكم الذي كانوا ينكحونه في جاهليتهم، كان فاحشةً ومقتاً وساء سبيلاً - إلا ماقد سَلَفَ منكم في جاهليتكم من نكاحٍ، لايجوزُ ابتداءُ مِثْلِه في الإسلام، فإنه مَعْفُوٌّ لكم عنه.

وقالوا: قوله: «ولا تَنْكِحُوا ما نكحَ آباؤكم من النساء»، كقولِ القائلِ للرجلِ: «لاتفعلْ مافعلتُ»، و«لا تأكلْ ما أكلتُ»، بمعنى: لا تأكل كما أكلتُ، ولا تفعلْ كما فعلتُ.

وقال آخرون: معنى ذلك: ولا تنكحوا ما نكحَ آباؤكم من النساء بالنكاح الجائز كان عَقْدُهُ بينهم، إلَّا ماقد سَلَفَ منهم من وجوه بالزنا عندهم، فإنَّ نكاحَهُنَّ لكم حلالٌ، لأنهن لم يَكُنَّ لهم حلائلَ، وإنما كانَ ما كانَ من آبائكم ومنهن من ذلك، فاحشةً ومقتاً وساء سبيلاً.

وأوْلى الأقوالِ في ذلك بالصواب، على ماقاله أهلُ التأويلِ في تأويله، أن يكون معناه: ولا تنكحوا من النساء نكاحَ آبائكم، إلا ماقد سَلَفَ منكم فَمَضى في الجاهلية، فإنه كان فاحشةً ومقتاً وساء سبيلاً ـ فيكون قوله: «من النساء» مِنْ صلة قوله: «ولا تنكحوا» ويكون قوله: «مانكح آباؤكم» بمعنى المصدر، ويكون قوله: «إلا ماقد سَلَفَ» بمعنى الاستثناء المنقطع، لأنه يحسن في موضعه: «لكن ماقد سلف فمضى» ـ «إنه كان فاحشةً ومقتاً وساء سبيلاً».

فإنْ قال قائل: وكيف يكونُ هذا القولُ موافقاً قولَ مَنْ ذكرتَ قولَهُ مِنْ أهلِ التأويل، وقد علمتَ أنَّ الذين ذكرتَ قولَهم في ذلك، إنما قالوا: أُنزلتْ هذه الآيةُ في النَّهي عن نكاحِ حلائلِ الآباء، وأنتَ تذكرُ أنهم إنما نُهُوا أنْ ينكحوا نكاحَهم؟

قيل له: إنما قلنا إنَّ ذلك هو التأويلُ الموافق لظاهرِ التنزيلِ، إذْ كانت «ما» في كلامِ العربِ لغير بني آدم، وأنه لو كان المقصودَ بذلك النهيُ عن حلائلِ الآباء، دونَ سائرِ ما كانَ من مناكحِ آبائِهم حراماً ابتداءُ مِثْلِهِ في الإسلام بِنَهْي الله جَلَّ ثناؤه عنه، لقيلَ: «ولا تنكحوا مَنْ نكحَ آباؤكم من النساء إلا ماقد سلف»، لأن ذلك هو المعروفُ في كلامِ العربِ، إذْ كان «مَنْ» لبني

آدم، و«ما» لغيرهم، ولم يُقَلْ: «ولا تنكحوا مانكح آباؤكم من النساء». وأما قوله تعالى ذِكْرُه: «ولا تنكحوا مانكح آباؤكم من النساء»، فإنه يدخل في «ما»، ما كانَ من مناكحِ آبائهم التي كانوا يتناكَحُونَها في جاهليتهم. فَحَرَّمَ عليهم في الإسلام بهذه الآية، نكاحَ حلائلِ الآباء وكُلَّ نكاحٍ سواه نهى اللهُ تعالى ذِكْرُه عن ابتداءِ مِثْلِهِ في الإسلامِ، مما كان أهلُ الجاهليةِ يتناكحونه في شِرْكِهم.

ومعنى قوله: «إلا ماقد سلف»، إلا ما قَدْ مَضَى. «إنه كان فاحشة»، يقول: إنَّ نكاحَكُم الذي سَلَفَ منكم كنكاحِ آبائكم المحرَّمِ عليكم ابتداءُ مِثْلِهِ في الإسلام بعد تحريمي ذلك عليكم. «فاحشة»، يقول: معصيةً. «ومقتاً وساء سبيلاً»، أي: بِئْسَ طريقاً ومنهجاً، ماكنتم تفعلونَ في جاهليتكم من المناكحِ التي كنتم تناكحونها[1].

---

(١) . عَلَّقَ العلامةُ محمود شاكر ـ حفظه الله ـ في هذا الموضع تعليقاً نفيساً على رأي أبي جعفر الطبري فقال:

حجة أبي جعفر في هذا الموضع، حجةُ رجلٍ بصيرٍ عارفٍ بالكلامِ ومنازلِهِ، متمكن من أصولِ الاستنباط، قادر على ضبط ماينتشر من المعاني، متابع لسياقِ الأحكامِ والأخبار في كتابِ ربه، خبير بما كانَ عليه العربُ في جاهليتهم.

وقد رَدَّ العلماءُ على أبي جعفر قوله، وقال بعضهم: هو قولٌ غير وجيه. وذكروا أن «ما» تقعُ على أنواع مَنْ يعقل، وإنْ كانت لا تقع على آحادِ مَنْ يعقل، عند مَنْ يذهبُ هذا المذهبَ. فجعلوا قول الطبري أن «ما» مصدريةٌ باقية على معنى المصدر، قولاً ضعيفاً. بيد أنَّ مذهبَ أبي جعفر صحيحٌ مستقيم لا ينال منه احتجاجهم عليه. وإنما ساقهم إلى ذلك، تَرْكُ أبي جعفر البيانَ عن حجته، وأنا قائلٌ في ذلك ما يشفي إنْ شاء الله.

وذلك أنَّ الذين رَدُّوا مقالةَ أبي جعفر، أرادوا أنَّ هذه الآية نَصٌّ في تحريمِ نكاحِ حلائل الآباء وحده، وكأنهم حسبوا أن لو جعلوا «ما» مصدرية، لم يكن في الآيات نص صريحٌ في تحريم حلائل الآباء غيرها. والصواب غير ذلك. فإنَّ الله سبحانه =

= وتعالى قد حَرَّمَ نكاحَ حلائل الآباء الذي كان أهلُ الجاهلية يرتكبونه بقوله في الآية التاسعة عشرة من سورة النساء فيما مضى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرْهًا﴾، وقال أبو جعفر في تفسيرها: «لايحل لكم أنْ ترثوا نكاح نساء أقاربكم وآبائكم كرهاً»، وساق هناك الآثار المبينة عن صورةِ نكاحِ حلائل الآباء والأقارب جميعاً. وهذا الذي ساق هناك فيه البيانَ عن صورةِ نكاح حلائل الآباء والأقارب بالوراثة، كما كان أهلُ الجاهلية يعرفونه. فكانت هذه الآيةُ نصاً قاطعاً بيناً في تحريم نكاح حلائل الآباء والأقارب بالوراثة، كما عرفه أهل الجاهلية، لأنهم لم يعرفوا نكاح حلائل الآباء إلا على هذه الصورةِ التي بينها الله في كتابه، والتي أجمعت الأخبارُ على صفتها، أنْ يخلفَ الرجلُ على أمرأةِ أبيه.

وأنا أرجِّحُ أنَّ الله تباركَ وتعالى إنما قال: «لا يحلُّ لكم أنْ ترثوا النساء كرهاً»، فذكـرَ وراثتهن كرهـاً، ثم أتبعَ ذلك بالنهي عن عَضْلِ النساء عامة، وبالبيان عن مقصدهم من عضل النساء، وهو الذهابُ ببعضِ ماأُوتينَ من صدقاتهن ـ لأنَّ أهلَ الجاهلية، إنما تورطوا في نكاحِ حلائلِ الآباء، لشيءٍ واحد: هو أخذُ ما آتاهن الآباءُ من المالِ، ولئلا تذهبَ المرأةُ بما عندها من مالِ آبائهم، فلذلك أتبعه بالنهي عن العَضْلِ عامة، لأنَّ فِعْلَهُم بحلائلِ آبائهم عَضْلٌ أيضاً، ومقصدهم منه هو مقصدهم من عضل نسائهم.

وأيضـاً، فإنَّ أهلَ الجاهلية لم يرتكبوا نكاحَ العماتِ والخالاتِ والأخوات، كما سترى بعد، بل استنكروه، فاستنكارهم نكاحَ حلائل الآباء ـ وهُنَّ بمنزلةِ أمهاتهم في حياة آبائهم ـ كان خليقاً أن يكون من فعلهم وعادتهم، ولكن حَملَهُم حبُّ المالِ على مخالفةِ ذلك.

ثم أتبـع الله ذلـك ـ كمـا قال أبو جعفر «بالنهي عن مناكحِ آبائهم التي كانوا يتناكحونها في الجاهلية، فحرم عليهم بهذه الآية نكاحَ حلائلِ الآباء وكُلَّ نكاحٍ سواه، نهى الله عن ابتداء مثله في الإسلام، مما كان أهل الجاهلية يتناكحونه». وقد ذكرت عائشة رضي الله عنها في حديث البخاري (الفتح ٩:١٥٨) أنَّ نكاحَ الجاهلية كان على أربعـة أنحـاء، منهـا: «نكـاحُ الناس اليوم»، ثم عَدَّدَتْ ضُروبَ النكاح ووصفتها، فأقر الإسلامُ منها نكاحاً واحداً: يخطب الرجل إلى الرجل وليته أو ابنته، فيصدقها، ثم ينكحها. =

النساء: ٢٣

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَٰتُكُمْ وَعَمَّٰتُكُمْ وَخَٰلَٰتُكُمْ وَبَنَاتُ ٱلْأَخِ وَبَنَاتُ ٱلْأُخْتِ وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِيٓ أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَٰعَةِ﴾

= فهذه الآيةُ مُبْطِلَةٌ ضروبَ نكاحِ الجاهلية جميعاً، ما كانَ منها نكاحاً فاسداً، كالاستبضاع، ونكاح البغايا، ونكاح البدل، والشغار، فكل ذلك كان: فاحشة ومقتاً وساء سبيلاً، كما تعرفه من صفته في حديث عائشة، ويدخل فيه، كما قال أبو جعفر، نكاح حلائل الآباء.

ثم أتبعَ الله سبحانه وتعالى هذه الآية التي حرمت جميع نكاح الجاهلية، آيةً أخرى حَرَّمَتْ كُلَّ نكاحٍ كان معروفاً في الأمم الأخرى، غير العرب، أو في الملل الأخرى غير ملة الإسلام فقال: «حرمت عليكم أمهاتكم وبناتكم وأخواتكم وعماتكم وخالاتكم» إلى آخرِ الآية. والعربُ لم تعرف قط نكاحَ الأمهاتِ، أو البناتِ أو الأخواتِ أو العماتِ أو الخالاتِ، بل كان ذلك في غيرهم كالمصريين واليهود وأشباههم، ينكحُ الرجلُ أختَهُ أو عمته أو خالته. ومن الدليل على أنَّ العربَ لم تعرف نكاح الأخوات، ولا نكاح العمات أو الخالات، أنهم كانوا في جاهليتهم، يقسمون على طلاق نسائهم أو تحريمهن على أنفسهم، أو هجرانهن، بقولهم للزوجة: «أنت عليَّ كظهرِ أختي، أو كظهرِ عمتي، أو كظهرِ خالتي»، فكان ذلك عندهم تحريماً على أنفسهم غشيان الزوجة. وهذا باب لم أجدْ أحداً وَفَّاهُ حَقَّهُ، فعسى أنْ أُوَفَّقَ في موضعٍ آخر إلى استيعابهِ إنْ شاء الله. وهو بابٌ مهم في تفسير هذه الآيات، والله المستعان.

وإذن فهذه الآيةُ الأخيرة، غير خاصة في نكاح أهل الجاهلية، بل هي تحريمٌ لكل نكاحٍ كرهه الله للمؤمنين، مما كان عند الأمم قَبْلَهم جائزاً أو مرتكباً، أو كان بعضُه عندهم قليلاً غير مشهورٍ شهرةَ أنكحةِ الجاهلية التي ذكرها الله في وراثةِ حلائل الآباء والأقارب، والتي ذكرتها عائشة في حديثها، والتي جاء تحريمها عاماً في قوله: «ولا تنكحوا مانكح آباؤكم من النساء» بمعنى «ما» المصدرية، كما ذهب إليه أبو جعفر.
وكتبه: محمود محمد شاكر.

﴿وَأُمَّهَاتُ نِسَآئِكُمْ وَرَبَآئِبُكُمُ ٱلَّٰتِي فِي حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِي دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُواْ دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَٰٓئِلُ أَبْنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنْ أَصْلَٰبِكُمْ وَأَن تَجْمَعُواْ بَيْنَ ٱلْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٣﴾﴾

فكل هؤلاء اللواتي سَمَّاهُنَّ الله تعالى وبَيَّنَ تحريمَهُنَّ في هذه الآيةِ، مُحَرَّمات، غيرُ جائز نكاحُهنَّ لمن حَرَّم الله ذلك عليه من الرجالِ، بإجماعِ جميعِ الأمة، لا اختلافَ بينهم في ذلك: إلَّا في أمهات نسائِنا اللواتي لم يَدْخُلْ بهن أزواجُهنَّ، فإنَّ في نكاحهن اختلافاً بين بعض المتقدِّمينَ من الصحابة: إذا بانتِ الابنةُ قبلَ الدخولِ بها من زوجها، هل هُنَّ من المُبْهماتِ، أمْ هُنَّ من المشروطِ فيهن الدخول ببناتهنّ؟

فقال جميعُ أهلِ العلمِ مُتَقَدِّمهم ومتأخرهم: من المُبْهَمات[1]، وحرامٌ على مَنْ تزوَّج امرأةً أمُّها، دخلَ بامرأتهِ التي نكحها أو لم يَدْخُلْ بها. وقالوا: شرطُ الدخولِ في الرَّبيبةِ دونَ الأم، فأما أمُّ المرأة فمُطْلقة بالتحريم. قالوا: ولو جازَ أنْ يكون شرطُ الدخول في قوله: «وربائبكم اللاتي في حُجوركم من نسائكم اللاتي دخلتم بهن»، يرجع موصولاً به قوله: «وأمهات نسائكم»، جازَ أنْ يكون الاستثناء في قوله: «والمحصنات من النساءِ إلا ما مَلَكَتْ أيمانُكم» من جميع المُحَـرَّمـات بقـوله: «حُرِّمَتْ عليكم»، الآية: قالوا: وفي إجماعِ الجميع على أنَّ الاستثناء في ذلك إنما هو مما وَلِيَه من قوله: «والمحصنات»،

(١) المُبْهمات: هُنَّ من المحرمات مالا يحلُّ بوجهٍ ولا سبب. كتحريم والأم والأخت وما أشبهه. والمبهم: الذي لا بابَ فيه ولا طريق إليه.

أبينُ الدِّلالةِ على أنَّ الشرطَ في قوله: «من نسائكم اللاتي دخلتم بهن»، مما وَليه من قوله: «وربائبكم اللاتي في حجوركم من نِسَائِكم اللاتي دخلتمْ بهن»، دون أمَّهاتِ نسائنا.

وأما «الربائب» فإنه جَمْعُ «ربيبة»، وهي ابنةُ امرأةِ الرجلِ. قيل لها «ربيبة» لتربيتهِ إيَّاها، وإنما هي «مربوبةٌ» صُرِفَتْ إلى «ربيبة»، كما يقال: «هي قتيلة» من «مقتولة». وقد يُقالُ لزوجِ المرأة: «هو ربيب ابن امرأته»، يعني به: «هو رَابُّهُ»، كما يقال: «هو خابر، وخبير» و«شاهد، وشهيد».

وأما قوله: «فإنْ لم تكونوا دخلتم بهن فلا جُنَاحَ عليكم»، فإنه يقول: فإنْ لم تكونوا، أيها الناسُ، دخلتم بأمهاتِ ربائبكم اللاتي في حجوركم فجامعتموهُنَّ حتى طَلَّقْتُمُوهُنَّ «فلا جُناحَ عليكم»، يقول: فلا حَرَجَ عليكم في نكاح مَنْ كان من ربائبكم كذلك.

وأما قوله: «وحلائلُ أبنائكم الذين من أصلابكم»، فإنه يعني: وأزواج أبنائكم الذين من أصلابكم.

وهي جَمْعُ «حليلة» وهي امرأته. وقيل: سُمِّيَت امرأةُ الرجل «حليلته»، لأنها تحلُّ معه في فراشٍ واحد.

ولا خلافَ بين جميعِ أهلِ العلم أنَّ حليلةَ ابنِ الرجلِ، حرامٌ عليه نكاحُها بعقدِ ابنهِ عليها النكاحَ، دخلَ بها أو لم يدخلْ بها.

فإنْ قال قائلٌ: فما أنتَ قائلٌ في حلائلِ الأبناء من الرضاع، فإنَّ الله تعالى إنما حَرَّمَ حلائلَ أبنائِنا من أصلابنا؟

قيل: إنَّ حلائلَ الأبناء من الرضاع وحلائلَ الأبناءِ من الأصلاب، سواءٌ في التحريمِ. وإنما قال: «وحلائلُ أبنائكم الذين من أصلابكم»، لأنَّ معناه: وحلائلُ أبنائِكم الذين ولدتموهم، دونَ حلائلِ أبنائِكم الذين تَبَنَّيْتُمُوهم.

وأما قوله: «وأنْ تَجْمَعُوا بين الأختين» فإنَّ معناه: وحرمَ عليكم أنْ تجمعوا بين الأختين عندكم بنكاحٍ.

«إلا ماقد سَلَفَ» لكن ماقد مضى منكم. «إنَّ الله كان غفوراً» لذنوبِ عبادهِ إذا تابوا إليه منها. «رحيماً» بهم فيما كلَّفَهُم من الفرائضِ، وخَفَّفَ عنهم فلم يُحَمِّلْهُمْ فوقَ طاقتهم.

يخبر بذلك جَلَّ ثناؤه: أنه غفورٌ لمن كان جمَعَ بين الأختين بنكاحٍ في جاهليتـهِ، وقبلَ تحريمهِ ذلك، إذا اتقى اللهَ تباركَ وتعالى بعدَ تحريمهِ ذلك عليه، فأطاعه باجتنابهِ. رحيمٌ به وبغيرهِ من أهلِ طاعتهِ من خَلْقِه.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَـالَى: ﴿وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۖ كِتَٰبَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ﴾

يعني بذلـك جَلَّ ثنـاؤه: حُرِّمَتْ عليكم المحصناتُ من النساءِ إلاّ ما ملكت أيمانكم.

فأما «المحصنات»، فإنَّهن جَمْعُ «مُحْصَنة»، وهي التي قد مُنِعَ فَرْجُهَا بزوجٍ.

ويقال أيضاً، إذا هي عَفَّتْ وحَفِظَتْ فرجها من الفجور: «قد أحصَنَتْ فرجها فهي مُحْصِنة»، كما قال جل ثناؤه: ﴿وَمَرْيَمَ ابْنَةَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا﴾ [التحريم: ١٢]، بمعنى: حَفِظَتْهُ من الرِّيبةِ، ومَنَعَتْهُ من الفجورِ.

فإذْ كان أصلُ «الإحصان» ماذكرنا من المنعِ والحِفْظِ، فَبَيِّنٌ أنَّ معنى قوله: «والمحصناتُ من النساء»: والممنوعاتُ من النساءِ حرامٌ عليكم إلاَّ ما ملكتْ أيمانُكم.

وإذْ كان ذلك معناه، وكان الإحصانُ قد يكونُ بالحرّية، كما قال جَلَّ ثناؤه: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ [المائدة: ٥]، ويكونُ بالإسلام، كما قال تعالى ذِكْرُه: ﴿فَإِذَا أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَاحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَاعَلَى الْمُحَصَنَاتِ مِنَ العَذَابِ﴾ [النساء: ٢٥]، ويكونُ بالعِفَّةِ، كما قال جل ثناؤه: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ المُحصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءِ﴾ [النور: ٤]، ويكونُ بالزوجِ ولم يكن تبارك وتعالى خَصَّ محصَنَةً دونَ محصنةٍ في قوله: «والمحصناتُ من النساء»، فواجبٌ أنْ تكونَ كُلُّ مُحْصنةٍ بأيِّ معاني الإحصانِ كانَ إحصانُها، حراماً علينا سفاحاً أو نِكاحاً إلّا ما مَلَكَتْهُ أيمانُنا منهن بشراء، كما أباحَهُ لنا كتابُ الله جَلَّ ثناؤه، أو نكاح على ما أطلقهُ لنا تنزيلُ الله.

فالذي أباحَهُ الله تبارك وتعالى لنا نكاحاً من الحرائر: الاربعُ، سوى اللَّواتي حُرِّمْنَ علينا بالنسب والصهر ومن الإماءِ: ماسَبَيْنَا من العَدُوِّ، سوى اللواتي وافق معناهن معنى ماحُرِّمَ علينا من الحرائرِ بالنسبِ والصهر، فإنهن والحرائر فيما يَحِلُّ ويَحْرُم بذلك المعنى، متفقاتُ المعاني، وسوى اللّواتي سَبَيْنَاهُنَّ من أهلِ الكتابين ولهن أزواج، فإنَّ السِّباء يحلُّهن لمن سبَاهن بعد الاستبراء، وبعد إخراجِ حَقِّ الله تبارك وتعالى الذي جعله لأهلِ الخُمس منهنَّ.

فأما السِّفاحُ، فإنَّ الله تبارك وتعالى حَرَّمَهُ من جميعِهن، فلم يحلَّهُ من حُرَّةٍ ولا أمَةٍ، ولا مسلمةٍ، ولا كافرةٍ مشركة.

وأما الأمَةُ التي لها زوجٌ، فإنها لا تَحِلُّ لمالكها إلا بعد طلاقِ زوجِها إيَّاها، أو وفاتهِ وانقضاءِ عدَّتها منه. فأمَّا بيع سَيِّدِهَا إيَّاها، فغيرُ مُوجِبٍ بينها وبين زوجها فراقاً ولا تحليلاً لمشتريها، لِصِحَّةِ الخبرِ عن رسولِ الله ﷺ: أنه خَيَّرَ بَريرة[1] إذْ أعتقتها عائشة، بين المُقامِ مع زوجها الذي كان سادَتُها زوَّجُوهَا

---

(١) بَريرة ـ بفتح الباء الموحدة وكسر الراء المهملة ـ مولاةُ عائشةَ رضي الله عنها. «تهذيب الكمال: ٣٥/١٣٦ ـ ١٣٧».

منه في حال رِقِّها، وبين فراقه[٢] ولم يجعلْ ﷺ عِتْقَ عائشةَ إيَّاها لها طلاقاً. ولو كان عِتْقُها وزوالُ مِلك عائشةَ إياها لها طلاقاً، لم يكن لتخيير النبيِّ ﷺ إياها بين المقامِ مع زوجها والفراق، معنًى، ولوَجَبَ بالعتق الفراقُ، وبزوالِ ملكِ عائشةَ عنها الطلاقُ. فلما خَيَّرها النبيُّ ﷺ بين الذي ذكرنا وبين المَقامِ مع زوجها والفراق، كان معلوماً أنه لم يُخَيِّرْ بين ذلك إلَّا والنكاحُ عَقْدُهُ ثابتٌ كما كان قبل زوالِ ملكِ عائشةَ عنها. فكان نظيراً للعتق ـ الذي هو زوال مِلك مالكِ المملوكةِ ذاتِ الزوج عنها ـ البيعُ، الذي هو زوالُ ملكِ مالِكها عنها، إذْ كان أحدهما زوالاً ببيعٍ، والآخرُ بعتقٍ ـ في أن الفُرْقة لاتجبُ بينها وبين زوجها بهما ولا بواحد منهما، [ولا يجبُ بهما ولا بواحدٍ منهما طلاقٌ]، ـ وإن اختلفا في معانٍ أُخر: من أنَّ لها في العتق الخيار في المقام مع زوجها والفراق، لعلةِ مفارقة معنى البيع، وليس ذلك لها في البَيْع.

فإنْ قال قائل: وكيف يكون معنيًّا بالاستثناء من قوله: «والمحصناتُ من النساء»، ماوراء الأربع، من الخمس إلى مافوقهن بالنكاح، والمنكوحات به غير مملوكاتٍ؟.

قيل له: إنَّ الله تعالى لم يخصَّ بقوله: «إلَّا ما ملكت أيمانكم»، المملوكات الرقاب، دونَ المملوك عليها بعقدِ النكاح أمرُها، بل عَمَّ بقوله: «إلَّا ما ملكتْ أيمانكم»، كلا المعنيين ـ أعني ملك الرقبة، وملك الاستمتاع بالنكاح ـ لأنَّ جميع ذلك ملكته أيماننا. أما هذه فملكُ استمتاع، وأما هذه فملكُ استخدامٍ واستمتاعٍ وتصريفٍ فيما أُبيحَ لمالكها منها. ومَن ادَّعى أنَّ الله تبارك وتعالى عَنَى بقوله: «والمحصناتُ من النساء» محصنةً وغير محصنة سوى مَنْ ذكرنا أولاً، بالاستثناء بقوله: «إلَّا ما ملكت أيمانكم»، ـ بعضَ أملاك أيماننا

---

(٢) متفق عليه: البخاري (٢٢٣٦) و(٥٢٧٩)، ومسلم (١٥٠٤).

دون بعض غيرَ الذي دللنا على أنه غير معنيٍّ به ـ سُئِلَ البرهانَ على دعواه من أصل أو نظير[1]، فلن يقولَ في ذلك قولاً إلاّ أُلْزِمَ في الآخر مثله.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿كِتَٰبَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾

يعني تعالى ذِكْرُه: كتاباً من الله عليكم، فأخرجَ «الكتابَ» مُصَدَّراً من غيرِ لفظه. وإنما جازَ ذلك لأنَّ قولَهُ تعالى: «حُرِّمَتْ عليكم أمهاتكم»، إلى قوله: «كتابَ الله عليكم»، بمعنى: كَتب الله تحريمَ ماحَرَّمَ من ذلك وتحليلَ ماحَلَّلَ من ذلك عليكم، كتاباً.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمْ أَن تَبْتَغُوا۟ بِأَمْوَٰلِكُم﴾

إن الله جل ثناؤه بَيَّنَ لعبادِه المحرَّمات بالنسبِ والصهرِ، ثم المحرماتِ من المُحْصَناتِ من النساء، ثم أخبرهم جَلَّ ثناؤه أنه قد أحَلَّ لهم ماعدا هؤلاء المحرَّماتِ المبيَّناتِ في هاتين الآيتين، أن نَبْتغيه بأموالنا نِكاحاً وملكَ يمينٍ، لا سِفاحاً.

فإنْ قال قائلٌ: عرفنا المحلَّلات اللواتي هُنَّ وراء المحرَّمات بالأنسابِ والأصهارِ، فما المحلَّلاتُ من المحصَناتِ والمحرماتِ منهنَّ؟

قيل: هو مادونَ الخمسِ من واحدةٍ إلى أربع من الحرائرِ. فأما ماعَدَا ذواتِ الأزواج، فغير عدد محصور بملك اليمين. وإنما قلنا إنَّ ذلك كذلك، لأنَّ قوله: «وأُحِلَّ لكم ماوراءَ ذلكم»، عامٌّ في كُلِّ مُحَلَّلٍ لنا من النساءِ أنْ

---

(١) السياق: «ومن ادعى... سُئِل البرهانَ».

نبتغيها بأموالنا. فليس توجيه معنى ذلك إلى بعضٍ منهن بأوْلى من بعضٍ، إلَّا أنْ تقومَ بأنَّ ذلك كذلك حجَّة يجبُ التسليم لها. ولا حُجة بأنَّ ذلك كذلك.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ﴾

يعني بقوله جل ثناؤه: «مُحْصِنينَ»، أعفَّاءَ بابتغائِكم ماوراءَ ماحَرَّمَ عليكم من النساءِ بأموالكم. «غيرَ مسافحينَ»، يقول: غير مُزَانينَ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَمَا ٱسْتَمْتَعْتُم بِهِۦ مِنْهُنَّ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً﴾

اختلف أهلُ التأويل في تأويل قوله: «فما استمعتم به منهن».

فقال بعضهم: معناه: فما نكحتم منهن فجامَعْتُموهُنَّ - يعني: من النساء: «فآتوهُنَّ أجورَهُنَّ فريضةً»، يعني: صَدُقَاتِهنَّ، فريضةً معلومة.

وقال آخرون: بل معنى ذلك: فما تمتَّعتم به منهن بأجرٍ تمتُّعَ اللَّذَّةِ، لا بنكاحٍ مُطْلَقٍ على وجه النكاحِ الذي يكون بولِيٍّ وشهودٍ ومَهْرٍ.

وأوْلى التأويلين في ذلك بالصواب، تأويل مَنْ تأوَّله: فما نكحتموه منهن فجامعتموه، فآتوهُنَّ أجورهنَّ لقيامِ الحجةِ بتحريمِ الله متعةَ النساءِ على غيرِ وجهِ النكاحِ الصحيحِ أو المُلْكِ الصحيحِ على لسان رسوله[1] ﷺ.

---

(١) من ذلك حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه في الصحيحين: البخاري (٥١١٥) وغيره، ومسلم (١٤٠٧)، وحديث الربيع بن سبرة الجهني، عن أبيه عند مسلم (١٤٠٦) وغيرهما، وهو أمر مستفيض عند أهل السنة والجماعة.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَاضَيْتُم بِهِۦ مِنۢ بَعْدِ ٱلْفَرِيضَةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ۝٢٤﴾

معنى ذلك: ولا حَرَجَ عليكم، أيها الناسُ، فيما تراضيتُمْ به أنتم ونساؤكم من بعد إعطائِهنَّ أجورهُنَّ على النكاح الذي جَرَى بينكم وبينهن، مِنْ حَطٍّ ماوجبَ لهنَّ عليكم، أو إبراء، أو تأخيرٍ ووضع. وذلك نظير قولِهِ جَلَّ ثناؤه: ﴿وَآتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً فَإِنْ طِبْنَ لَكُمْ عَنْ شيْءٍ مِنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيئاً مَرِيئاً﴾ [النساء: ٤].

وأما قوله: «إنَّ الله كان عليماً حكيماً»، فإنه يعني: إنَّ الله كان ذا عِلْمٍ بما يُصلحكم، أيها الناسُ، في مناكِحِكُم وغيرها من أمورِكم وأمورِ سائرِ خلقه، «حكيماً» فيما يُدَبِّرُ لكم ولهم من التدبير، وفيما يأمركم وينهاكم، لا يدخل حِكْمَتهُ خَلَلٌ ولا زَلَلٌ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا﴾

ومعنى «الطَّوْل» في هذا الموضع، السَّعَةُ والغِنى من المالِ، لإجماعِ الجميع على أنَّ الله تباركَ وتعالى لم يُحَرِّمْ شيئاً من الأشياء سوى نكاحِ الإماءِ لواجدِ الطَّوْلِ إلى الحُرَّةِ فأَحَلَّ ماحَرَّمَ من ذلك عند غَلَبَةِ المُحرَّمِ عليه له، لقضاءِ لذةٍ. فإذْ كان ذلك إجماعاً من الجميع فيما عدا نكاح الإماء لواجدِ الطول، فَمِثْلُهُ في التحريمِ نكاحُ الإماءِ لواجدِ الطَّوْل: لا يَحِلُّ له من أجل غَلَبَةِ هوًى عنده فيها. لأنَّ ذلك مع وجوده الطَّوْلَ إلى الحرةِ منه قضاءُ لذةٍ وشهوةٍ، وليس بموضعِ ضرورةٍ تُرْفَعُ برخصةٍ، كالَمْيتَةِ للمضطرِ الذي يخافُ هلاكَ نفسه، فيترخص في أكْلِها ليحييَ بها نَفْسَهُ، وما أشْبَهَ ذلك من المحرماتِ

اللواتي رَخَّصَ الله لعبادهِ في حالِ الضرورةِ والخوفِ على أنفسهم الهلاكَ منه، ماحرم عليهم منها في غيرها من الأحوال. ولم يُرَخِّص الله تبارك وتعالى لعبدٍ في حرامٍ لقضاءِ لذةٍ، وفي إجماعِ الجميع على أن رجلًا لو غلبَه هوى امرأةٍ حرّةٍ أو أمَةٍ، أنها لا تَحِلُّ له إلاَّ بنكاحٍ أو شراءٍ على ماأذنَ الله به، مايُوضِّحُ فسادَ قولِ مَنْ قال: «معنى الطول، في هذا الموضع: الهوى»، وأجاز لواجد الطَّوْلِ لحرةٍ نكاحَ الإماء.

فتأويلُ الآية إذْ كان الأمرُ على ماوصفنا: ومَنْ لم يَجِدْ منكم سَعَةً من مالٍ لنكاحِ الحرائرِ، فلينكحْ مما مَلَكَتْ أيمانكم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: أَن يَنكِحَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن فَتَيَٰتِكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ

يعني بذلك: ومَنْ لم يستطعْ منكم، أيها الناسُ، طَوْلاً - يعني من الأحرار. «أنْ ينكحَ المحصناتِ»، وهُنَّ الحرائرُ. «المؤمنات» اللواتي قد صَدَّقْنَ بتوحيدِ الله وبما جاء به رسولُ الله ﷺ من الحَقِّ.

وأما «الفتيات»، فإنهنَّ جَمْعُ «فتاة»، وهُنَّ الشوابُّ من النساء. ثم يقالُ لِكُلِّ مملوكةٍ ذاتِ سِنٍّ أو شابة: «فتاة»، والعبد: «فتًى».

ثم اختلف أهلُ العلمِ في نكاحِ الفتياتِ غير المؤمنات، وهل عَنَى الله بقوله: «من فتياتكم المؤمنات»، تحريمَ ماعدا المؤمنات منهن، أم ذلك من الله تأديبٌ للمؤمنين؟

فقال بعضهم: ذلك من الله تعالى ذِكْرُه دلالةٌ على تحريمِ نكاحِ إماءِ المشركينَ.

وقال آخرون: ذلك من الله على الإرشادِ والنَّدْب، لا على التحريم. ومِمَّنْ قال ذلك جماعةٌ من أهلِ العراقِ. ومنهم أبو حنيفةَ وأصحابُه، واعْتَلُّوا لقولِهم بقولِ الله: «أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ [المائدة: ٥]. قالوا: فقد أحل الله محصناتِ أهلِ الكتاب عامًّا، فليس لأحدٍ أنْ يخص منهن أمَةً ولا حُرَّةً. قالوا: ومعنى قوله: «فتياتكم المؤمنات»، غير المشركاتِ من عَبَدَةِ الأوثان.

وأَوْلى القولين في ذلك بالصواب، قولُ مَنْ قال: هو دِلالةٌ على تحريمِ نكاحِ إماءِ أهلِ الكتابِ، فإنَّهُنَّ لا يحللن إلا بملْكِ اليمين. وذلك أنَّ الله جَلَّ ثناؤه أحلَّ نِكاحَ الإماءِ بشروطٍ، فما لم تجتمع الشروطُ التي سَمَّاهُنَّ فيهن، فغيرُ جائزٍ لمسلمٍ نكاحهن.

فإنْ قال قائلٌ: فإنَّ الآيَةَ التي في «المائدة» تدلُّ على إباحتهن بالنكاحِ؟

قيل: إنَّ التي في «المائدة»، قد أبانَ أنَّ حُكْمَها في خاصٍّ من مُحْصَناتهم، وأنها معنيٌّ بها حَرائِرَهُم دونَ إمائِهم، قولُه: «من فتياتِكم المؤمنات». وليست إحدى الآيتين دافعاً حُكْمُها حُكْمَ الأخرى، بَلْ إحداهُما مبينةٌ حُكْمَ الأخرى. وإنما تكونُ إحداهما دافعةً حُكْمَ الأخرى، لو لم يكنْ جائزاً اجتماع حُكْمَيْهِمَا على صِحَّةٍ. فأمَّا وهما جائزٌ اجتماعُ حُكْمَيْهِما على الصحةِ، فغيرُ جائزٍ أنْ يحكم لإحداهما بأنها دافعة حكمَ الأُخرى، إلا بحجةٍ يجبُ التسليمُ لها من خبرٍ أو قياسٍ. ولا خبرَ بذلك ولا قياسَ. والآيةُ محتملةٌ ما قلنا: والمُحْصنات من حرائر الذين أوتوا الكتاب من قبلكم دونَ إمائهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِكُمۚ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍۚ﴾

يقول: فلينكح مَنْ لم يستطع منكم طَوْلاً لحرةٍ من فتياتكم المؤمنات. لينكح هذا المقترُ الذي لا يجدُ طَوْلاً لحرةٍ، من هذا الموسر، فتاتَهُ المؤمنةَ التي قد أبْدَت الإيمانَ فأظهرته، وكِلوا سرائرهُنَّ إلى الله، فإنَّ عِلْمَ ذلك إلى الله دونَكم، والله أعلمُ بسرائركم وسرائرهن.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: فَأَنكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَءَاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ

يعني بقوله جل ثناؤه: «فانكحوهن»، فتزوجوهن وبقوله: «بإذن أهلهن»، بإذنِ أربابهنَّ وأمرهم إيَّاكُم بنكاحِهن ورِضَاهم، ويعني بقوله: «وآتُوهُنَّ أجورَهُنَّ»، وأعطوهُنَّ مهورهن.

ويعني بقوله: «بالمعروف» على ماتَرَاضَيْتُم به، مما أحَلَّ اللهُ لكم، وأباحه لكم أنْ تجعلوه مُهُوراً لهن.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: مُحْصَنَٰتٍ غَيْرَ مُسَٰفِحَٰتٍ وَلَا مُتَّخِذَٰتِ أَخْدَانٍ

يعني بقوله: «محصنات»، عفيفات. «غيرَ مسافحات»، غير مزانياتَ. «ولا مُتَّخِذاتِ أخدانٍ»، يقول: ولا متخذات أصدقاء على السفاح.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: فَإِذَآ أُحْصِنَّ

قال أبو جعفر: اختلفت القَرَأَةُ في قراءةِ ذلك.

فقرأه بعضهم: ﴿فَإِذَا أَحْصَنَّ﴾، بفتح «الألف»، بمعنى: إذا أَسْلَمْنَ،

فصرنَ ممنوعاتِ الفروجِ من الحرامِ بالإسلام.

وقرأه آخرون: ﴿فَإِذَا أُحْصِنَّ﴾ بمعنى: فإذا تَزَوَّجْنَ، فصرنَ ممنوعاتِ الفروجِ من الحرامِ بالأزواج.

والصوابُ من القول في ذلك عندي، أنهما قراءتان معروفتان مستفيضتانِ في أمصارِ الإسلامِ، فبأيِّتهما قرأ القارئُ فمصيبٌ في قراءته الصوابَ.

وذلك أنَّ معنيي ذلك وإنْ اختلفا، فغير دافعٍ أحدهُما صاحِبَهُ. لأنَّ الله قد أوجبَ على الأمَةِ ذاتِ الإسلامِ وغير ذاتِ الإسلام على لسان رسوله ﷺ، الحَـدَّ[1] فلم يخصصْ بذلك ذاتَ زوجٍ منهن ولا غيرَ ذاتِ زوجٍ. فالحدودُ واجبةٌ على مَوالي الإماء إقامتها عليهن، إذا فَجَرْنَ، بكتابِ الله وأمرِ رسولِ الله ﷺ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَٰحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى ٱلْمُحْصَنَٰتِ مِنَ ٱلْعَذَابِ﴾

يعني جل ثناؤه بقوله: «فإنْ أتينَ بفاحشة»، فإنْ أتت فتياتكم ـ وهُنَّ إماؤكم ـ بعد ما أحصَنَّ بإسلام، أو أحْصِنَّ بنكاح ـ «بفاحشة»، وهي الزنا ـ «فعليهن نصفُ ما على المحصنات من العذاب»، يقول: فعليهن نصفُ ما على الحرائرِ من الحَدِّ، إذا هُنَّ زَنينَ قبل الإحصانِ بالأزواج.

و«العذاب» الذي ذكره الله تبارك وتعالى في هذا الموضع، هو الحَدّ، وذلك النصفُ الذي جعله اللهُ عذاباً لمن أتى بالفاحشةِ من الإماءِ إذا هُنَّ

---

(١) الأحاديث الصحيحة في ذلك مستفيضة، منها حديث: «إذا زنت أمةُ أحدكم فليجلدها» الذي ساقه المؤلف (٩٠٨٤)، وهو في الصحيحين: البخاري (٦٨٣٩) ومسلم (١٧٠٣) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

أحصن: خمسون جلدةً، ونَفْيُ ستة أشهر، وذلك نصف عام. لأنَّ الواجبَ على الحـرة إذا هي أتت بفـاحشـةٍ قبلَ الإحصانِ بالزوج، جلد مئةٍ ونفي حَوْلٍ. فالنصفُ من ذلك خمسون جلدةٍ، ونفي نصف سنة. وذلك الذي جعله الله عذاباً للإماءِ المحصناتِ إذا هُنَّ أتينَ بفاحشة.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ ٱلْعَنَتَ مِنكُمْ﴾

يعني تعـالى ذكـره بقوله: «ذلك»، هذا الذي أَبَحْتُ أيها الناس، من نكـاحِ فتياتِكم المؤمنـاتِ لمن لا يستـطيعُ منكم طَوْلاً لنكـاحِ المُحْصَنَـاتِ المؤمناتِ أبحتهُ لمن خشيَ العنتَ منكم، دونَ غيرهِ ممن لا يخشى العنتَ.

وقد عَمَّ الله بقوله: «لمن خشيَ العنتَ منكم»، جميعَ معاني العنت. ويجمع جميعَ ذلك الزّنا، لأنه يُوجِبُ العقوبةَ على صاحبهِ في الدنيا بما يُعنت بدنه، ويكتسب به إثماً ومضرَّةً في دِينه ودنياه. وقد اتفق أهلُ التأويلِ الذين هم أهلُه، على أنَّ ذلك معناه. فهو وإنْ كان في عينه لذةً وقضاءَ شهوةٍ، فإنه بأدائه إلى العنت، منسوبٌ إليه موصوف به، إذْ كان للعنتِ سبباً.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَن تَصْبِرُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾



يعني جَلَّ ثناؤه بذلك: «وأنْ تصبروا»، أيها الناسُ، عن نكاحِ الإماء. «خيرٌ لكم». «والله غفورٌ» لكم نِكاحَ الإماءِ أنْ تَنْكِحُوهُنَّ على ما أَحَلَّ لكم وأذِنَ لكم به، وما سَلَفَ منكم في ذلك، إنْ أصلحتم أمورَ أنفسكم فيما بينكم وبين الله. «رحيمٌ» بكم، إذْ أذِنَ لكم في نِكاحِهنَّ عند الافتقارِ وعدمِ الطَّوْلِ للحُرَّةِ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦﴾﴾

يعني جَلَّ ثناؤه بقوله: «يريدُ الله ليبين لكم»، حلالَهُ وحرامَهُ. «ويَهديَكُم سُنَنَ الذين من قبلكم»، يقول: وليسددكم. «سُنن الذين من قبلكم»، يعني: سُبُلَ مَنْ قَبْلَكُم من أهلِ الإيمانِ باللهِ وأنبيائِهِ، ومناهِجَهُم فيما حَرَّمَ عليكم من نكاحِ الأمهاتِ والبناتِ والأخواتِ وسائرِ ما حَرَّمَ عليكم في الآيتين اللتين بَيَّنَ فيهما ما حَرَّمَ من النساءِ. «ويتوبَ عليكم»، يقول: يريدُ اللهُ أنْ يرجعَ بكم إلى طاعتهِ في ذلك، مما كُنْتُمْ عليه من معصيتهِ في فِعْلِكُم ذلكَ قبلَ الإسلام، وقبل أنْ يُوحي ما أوحَى إلى نبيهِ من ذلك. «عليكم»، ليتجاوز لكم بتوبتكم عما سَلَفَ منكم من قبيحِ ذلك قبلَ إنابَتِكُم وتوبتكم. «والله عليمٌ»، يقول: والله ذُو عِلْمٍ بما يصلحُ عبادَهُ في أديْانِهم ودُنياهم وغير ذلك من أمورهم، وبما يأتون ويَذَرُونَ مما أحَلَّ أو حَرَّمَ عليهم، حافظ ذلك كله عليهم. «حكيمٌ» بتدبيرهِ فيهم، في تصريفهم فيما صَرَّفَهُمْ فيه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ عزَّ وجلَّ: ﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُواْ مَيْلًا عَظِيمًا ﴿٢٧﴾﴾

يعني بذلك تعالى ذِكْرُه: واللهُ يريدُ أنْ يراجع بكم طاعته والإنابةَ إليه، ليعفوَ لكم عما سَلَفَ من آثامكم، ويتجاوز لكم عما كان منكم في جاهليتكم، من استحلالِكُم ماهو حَرامٌ عليكم من نِكاحِ حلائلِ آبائِكم وأبنائِكم وغير ذلك مما كنتم تَسْتَحِلُّونَهُ وتأتونه، مما كانَ غيرَ جائزٍ لكم إتيانهُ من معاصي الله. «ويريد الذين يَتَّبعونَ الشهوات»، يقول: ويريدُ الذين يطلبون لَذَّاتِ الدنيا وشهواتِ أنفسهم فيها. «أنْ تَميلُوا» عن أمرِ الله تبارك وتعالى، فَتَجُورُوا عنه

بإتيانكم ماحَرَّمَ عليكم وركوبكم معاصيه. «ميلاً عظيماً»، جَوْراً وعُدُولاً عنه شديداً.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْۚ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ﴿٢٨﴾

يعني جَلَّ ثناؤه بقوله: «يريدُ الله أنْ يُخَفِّفَ عنكم»، يريدُ الله أنْ يُيسِّرَ عليكم، بإذنهِ لكم في نكاحِ الفتياتِ المؤمناتِ إذا لم تستطيعوا طَوْلاً لحرةٍ. «وخُلِقَ الإنسانُ ضعيفاً»، يقول: يَسَّرَ ذلك عليكم إذا كنتم غيرَ مستطيعي الطَّوْلِ للحرائرِ، لأنكم خُلِقتم ضُعفاءَ عَجَزةً عن تركِ جماعِ النساءِ، قليلي الصبرِ عنه، فأَذِنَ لكم في نكاحِ فتياتكم المؤمنات عند خوفكم العَنَتَ على أنفسِكم، ولم تَجِدُوا طَوْلاً لحرةٍ، لئلا تَزْنُوا، لِقِلَّةِ صبركم على تَرْكِ جماعِ النساء.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْۚ

يعني بقوله جَلَّ ثناؤه: «يا أيها الذين آمنوا»، صَدَّقُوا اللهَ ورسولَهُ. «لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل»، يقول: لا يأكلْ بعضُكم أموالَ بعضٍ بما حَرَّمَ عليه، من الرِّبا والقمار، وغير ذلك من الأمورِ التي نهاكُمُ اللهُ عنها. «إلاَّ أنْ تكونَ تجارةً».

وفي هذه الآيةِ إبانةٌ من الله تعالى ذِكْرُه عن تكذيبِ قولِ الجَهَلَةِ من المُتَصَوِّفَةِ المُنْكِرينَ طَلَبَ الأقواتِ بالتجاراتِ والصناعاتِ، والله تعالى يقول: «ياأيها الذين آمنوا لا تأكُلُوا أموالَكُم بينكم بالباطلِ إلاَّ أنْ تكونَ تجارةً عن

تراضٍ منكم»، اكتساباً منا ذلك بها.

وأما قوله: «عن تراضٍ»، فإنَّ معناهُ: في تجارةِ بيعٍ أو عطاءٍ يُعطيه أحدٌ أحداً.

والتجارة التي هي عن تَرَاضٍ بين المتبايعين: ما تَفَرَّقَ المتبايعان عن المجلسِ الذي تواجبَا فيه بينهما عُقْدَةَ البيعِ بأبدانهما، عن تراضٍ منهما بالعقدِ الذي جَرَى بينهما، وعن تخييرِ كُلِّ واحدٍ منهما صاحِبَهُ لصحَّةِ الخبرِ عن رسولِ الله ﷺ عن ابنِ عمرَ قال: قال رسول الله ﷺ: «البَيِّعانِ بالخيار مالم يَتَفَرَّقَا أو يكون بيعَ خيارٍ». وربما قال: أو يقول أحدهما للآخر اخْتَرْ[1].

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ٢٩﴾

يعني بذلك جَلَّ ثناؤه: «ولا تقتلوا أنفسكم»، ولا يقتلْ بعضُكم بعضاً، وأنتم أهلُ مِلَّةٍ واحدةٍ، ودعوةٍ واحدةٍ، ودينٍ واحد. فجعل جَلَّ ثناؤه أهلَ الإسلامِ كلهم بعضَهم من بعضٍ. وجعلَ القاتلَ منهم قتيلاً - في قتله إياه منهم - بمنزلةِ قَتله نَفْسَهُ، إذْ كان القاتلُ والمقتولُ أهلَ يدٍ واحدةٍ على مَنْ خالف مِلَّتَهُما.

وأما قوله: جَلَّ ثناؤه: «إنَّ الله كان بكم رحيماً»، فإنه يعني: إنَّ الله تبارك وتعالى لم يزل «رحيماً» بِخَلْقِهِ، ومِنْ رحمتهِ بكم كفُّ بعضِكم عن قَتْلِ بعضٍ، أيها المؤمنون، بتحريمِ دماءِ بعضِكم على بعضٍ إلَّا بحقِّها، وحظْرِ أكلِ مالِ بعضِكم على بعضٍ بالباطل، إلا عن تجارةٍ يملكُ بها عليه بِرِضَاه

(١) رواه مالك وأيوب، عن نافع عن ابن عمر، وهي من أصحِّ الأسانيد، أخرجه مالك في «الموطأ» (٢٦٦٤) برواية أبي مصعب الزهري، وهو في الصحيحين وغيرهما.

وطيبِ نَفْسِه. لولا ذلكَ هَلَكْتُمْ وأهلكَ بعضُكم بعضاً قتلاً وسلباً وغصباً.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ عُدْوَٰنًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾﴾

معناه: ومَنْ يفعلِ ماحَرَّمَ اللهُ عليه، من قوله: ﴿يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرْهاً﴾ إلى قوله: «ومَنْ يفعلْ ذلك»، من نكاحِ المحرماتِ، وعَضْلِ المُحَرَّمِ عَضْلُها من النساءِ، وأكلِ المالِ بالباطلِ، وقَتْلِ المُحَرَّمِ قَتْلُه من المؤمنينَ لأنَّ كُلَّ ذلك مما وَعَدَ اللهُ عليه أهلَه العقوبةَ.

وأما قوله: «عُدْواناً»، فإنه يعني به تجاوزاً لما أباحَ اللهُ له، إلى ماحَرَّمَهُ عليه. «وظُلماً»، يعني: فِعْلاً منه ذلِكَ بغيرِ ما أذِنَ اللهُ به، ورُكُوباً منه ماقد نَهاهُ اللهُ عنه. وقوله: «فسوفَ نُصليه ناراً»، يقول: فسوف نُورِدُهُ ناراً يَصْلَى بها فيحترق فيها. «وكان ذلك على الله يسيراً»، يعني: وكان إصلاءُ فاعلِ ذلك النارَ وإحراقهُ بها، على الله سَهْلاً يسيراً، لأنه لا يقدرُ على الامتناعِ على رَبِّه مما أرادَ به من سوء. وإنما يصعبُ الوفاءُ بالوعيدِ لمن تَوَعَّدَهُ، على مَنْ كان إذا حاول الوفاءَ به قَدَر المُتوعَّدُ من الامتناعِ منه. فأما مَنْ كان في قبضةِ مُوعِدِهِ، فيسيرٌ عليه إمضاءُ حُكْمِه فيه، والوفاءُ له بوعيدِهِ، غيرُ عسيرٍ عليه أمرٌ أرادَهُ به.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾﴾

اختلف أهلُ التأويل في معنى «الكبائر» التي وَعَدَ اللهُ جَلَّ ثناؤه عبادَهُ باجتنابها تكفيرَ سائرِ سيآتهم عنهم.

وأَوْلى ماقيلَ في تأويل «الكبائر» بالصحة، ماصَحَّ به الخبرُ، عن رسولِ الله ﷺ، دونَ ما قالَهُ غيرُه، وإنْ كانَ كل قائلٍ فيها قولاً، قد اجتهدَ وبالغَ في نفسه، ولقوله في الصحة مذهبٌ. فالكبائر إذن: الشركُ بالله، وعقوقُ الوالدين، وقَتْلُ النفس المحرّم قتلُها، وقولُ الزور[1] وقد يدخلُ في «قول الزور»، شهادةُ الزور، وقذفُ المحصنة، واليمينُ الغموسُ، والسِّحْرُ، ويدخل في قتل النفسِ المُحَرَّمِ قتلها، قتلُ الرجلِ ولدَهُ من أجل أنْ يَطْعَمَ معه والفرارُ من الزحف، والزنا بحليلةِ الجار.

وإذْ كان ذلك كذلك، صحَّ كل خبر رُوي عن رسولِ الله ﷺ في معنى الكبائر، وكان بعضه مصدِّقاً بعضاً. وذلك أن الذي روي عن رسول الله ﷺ أنه قال: «هي سبع»[2] يكون معنى قوله حينئذٍ: «هي سبع» على التفصيلِ، ويكون معنى قوله في الخبر الذي روي عنه أنه قال: «هي الإشراكُ بالله، وقتلُ النفس، وعقوقُ الوالدين، وقولُ الزور» على الإجمال، إذْ كان قوله: «وقول الزور» يحتمل معاني شتى، وأنْ يجمعَ جميعَ ذلك «قول الزور».

فمن اجتنبَ الكبائرَ التي وعد الله مُجْتَنِبَها تكفيرَ ماعَدَاها من سيئاته، وإدخاله مُدخلاً كريماً، وأدَّى فرائضه التي فَرَضَها اللهُ عليه، وَجَدَ الله لِمَا وَعَدَهُ من وَعْدٍ مُنْجَزاً، وعلى الوفاءِ له ثابتاً.

وأما قولـه: «نُكَفِّرْ عنكم سيئاتِكم»، فإنه يعني به: نُكَفِّرْ عنكم، أيها

---

(١) حديث أنس بن مالك المرفوع، وهو في الصحيحين: البخاري (٢٦٥٣) و(٥٩٧٧) و(٦٨٧١)، ومسلم (٨٨)، وغيرهما.

(٢) إشارة إلى حديث أبي هريرة وأبي سعيد الخدري المرفوع الذي أخرجه المؤلف (٩١٨٥)، والنسائي ٥/٨، وابن خزيمة (٣١٥)، وابن حبان (١٧٤٨)، وإسناده صحيح.

المؤمنـونَ، باجتنـابِكم كبائرَ ما يَنهاكُم عنه رَبُّكم، صغائرَ سيئاتِكم. يعني: صغائرَ ذُنوبِكُم.

وأمـا «المدخلُ الكريم»، فهو: الطيب الحسن، المُكَرَّمُ بنفي الآفاتِ والعاهاتِ عنه، وبارتفاعِ الهمومِ والأحزانِ ودخولِ الكدرِ في عيش مَنْ دَخله، فلذلك سماه الله كريماً.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا۟ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾

يعني بذلك جَلَّ ثناؤه: ولا تَتَشَهَّوا ما فَضَّلَ اللهُ به بعضَكم على بعضٍ.

وذُكِرَ أنَّ ذلك نزلَ في نساءٍ تَمَنَّيْنَ منازلَ الرجالِ، وأن يكونَ لهم ما لهم، فنَهى اللهُ عبادَهُ عن الأماني الباطلةِ، وأمرهم أنْ يسألُوه مِنْ فَضْلِهِ، إذْ كانت الأمانيّ تُورِثُ أهلِها الحَسَدَ والبغيَ بغيرِ الحَقِّ.

وقال آخرون: بل معنى ذلك: لا يَتَمَنَّ بعضُكم ماخصَّ الله بعضاً من منازلِ الفضل.

فتأويلُ الكلام على هذا التأويل: ولا تتمنوا، أيها الرجالُ والنساء، الذي فَضَّلَ اللهُ به بعضَكم على بعضٍ من منازلِ الفضلِ ودرجاتِ الخير، وليرضَ أحدكم بما قَسَمَ اللهُ له من نصيبٍ، ولكن سَلُوا اللهَ من فَضْلِهِ.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَـالَى: ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبُوا۟ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبْنَ﴾

معناه: للرجالِ نصيبٌ من ثوابِ الله وعقابهِ مما اكتسبُوا فَعَمِلُوهُ من خيرٍ

أو شرٍّ، وللنساءِ نصيبٌ مما اكتسبنَ من ذلك كما للرجال.

القوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَسْـَٔلُوا۟ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓ﴾

يعني بذلك جَلَّ ثناؤه: واسألوا اللهَ مِنْ عونِهِ وتوفيقِهِ للعملِ بما يرضيه عنكم من طاعتهِ. فَفَضْلُه في هذا الموضع: تَوفيقُه ومعونتُهُ.

القوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ۝٣٢﴾

يعني بذلك جَلَّ ثناؤه: إنَّ اللهَ كان بما يصلحُ عباده ـ فيما قَسَمَ لهم من خيرٍ، ورفَعَ بعضَهم فوق بعضٍ في الدين والدنيا، وبغيرِ ذلك من قضائهِ وأحكامهِ فيهم. «عليماً»، يقول: ذا عِلْمٍ. فلا تتمنوا غيرَ الذي قضى لكم، ولكنْ عليكُم بطاعتهِ، والتسليم لأمره، والرِّضَى بقضائهِ، ومسألته من فَضْلِه.

القوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَٰلِىَ مِمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ﴾

يعني جَلَّ ثناؤه بقوله: «ولكلٍّ جعلنا مواليَ»، ولِكُلِّكُم، أيها الناسُ. «جعلنا مواليَ»، يقول: ورثةً من بني عَمِّهِ وإخوتهِ وسائرِ عصبته غيرهم.

والعربُ تسمي ابنَ العم «المولى».

ويعني بقوله: «مما ترك الوالدان والأقربون»، مما تَرَكَهُ والداه وأقرباؤه من الميراثِ.

فتأويلُ الكلام: ولِكُلِّكُم، أيها الناسُ، جعلنا عَصَبة يرثون به مما ترك والداه وأقرباؤه من ميراثهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَٱلَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَٰنُكُمْ فَـَٔاتُوهُمْ نَصِيبَهُمْۚ﴾

(يعني): والذين عقدت أيمانُكُم على المحالفةِ، وهم الحلفاءُ. وذلكَ أنه معلومٌ عند جميعِ أهلِ العلمِ بأيامِ العربِ وأخبارِها، أنَّ عقدَ الحلفِ بينها كان يكونُ بالأيمانِ والعُهودِ والمواثيق.

وأما قوله: «فآتوهم نصيبهم»، فإنَّ أوْلى التأويل به، ما عليه الجميعُ مُجْمِعُونَ من حُكْمِه الثابت، وذلك إيتاءُ أهلِ الحلف الذي كان في الجاهلية دونَ الإسلامِ، بعضِهم بعضاً أنصباءَهم من النُّصْرَةِ والنصيحةِ والرأي، دونَ الميراث. وذلك لِصِحَّةِ الخبرِ عن رسولِ الله ﷺ أنه قال: «لا حِلْفَ في الإسلامِ، وما كانَ من حِلْفٍ في الجاهلية، فلم يَزِدْهُ الإسلامُ إلاّ شدّة»[1].

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٖ شَهِيدًا ٣٣﴾

يعني بذلك جَلَّ ثناؤه: فآتوا الذين عَقَدَتْ أيمانُكم نَصِيبَهُم من النُّصْرَةِ والنصيحةِ والرأي، فإنَّ الله شاهدٌ على ما تفعلونَ من ذلك، وعلى غيرِه من أفعالكم، مُرَاعٍ لِكُلِّ ذلكَ، حافظٌ، حتى يُجازي جميعَكم على جميعِ ذلك

(١) ساقه الطبري من طرق عديدة، وهو عند مسلم (٢٥٣٠) وغيره من حديث جبير بن مطعم.

جزاءه، أما المُحْسِن منكم المتبع أمري وطاعتي فبالحُسْنَى، وأما المسيء منكم المخالف أمري ونهيي فبالسُّوْأَى.

ومعنى قوله: «شَهيداً»، ذُو شهادةٍ على ذلك.

القَوْلُ فِي تَأْويلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ﴾

يعني بقوله جَلَّ ثناؤه: «الرجال قَوَّامُونَ على النساء»، الرجالُ أهلُ قيامٍ على نسائهم، في تأديبهنَّ والأخذِ على أيديهن فيما يجبُ عليهن لله ولأنفسهم. «بما فَضَّلَ الله بعضَهم على بعض»، يعني: بما فَضَّلَ الله به الرجالَ على أزواجهم: من سَوْقِهم إليهنَّ مُهُورَهُنَّ، وإنفاقهم عليهنَّ أموالهم، وكفايتهم إياهن مُؤَنهنَّ. وذلك تفضيل الله تبارك وتعالى إياهم عليهنَّ، ولذلك صارُوا قُوَّاماً عليهن، نافذي الأمر عليهن فيما جعلَ الله إليهم من أمورهن.

القَوْلُ فِي تَأْويلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُ﴾

يعني بقوله جَلَّ ثناؤه: «فالصالحاتُ»، المستقيماتُ الدينِ، العاملاتُ بالخيرِ.

وقوله: «قانتات»، يعني: مطيعاتٌ لله ولأزواجِهنَّ.

وأما قوله: «حافظاتٌ للغيب»، فإنه يعني: حافظاتٌ لأنفسهنَّ عند غيبةِ أزواجهن عنهن، في فُرُوجِهِنَّ وأموالهم، وللواجبِ عليهن مِنْ حَقِّ اللهِ في ذلك وغيره.

وأما قوله: «بما حفظ الله»، (فإنه يعني): بحفظِ الله إياهن إذ صَيَّرهنَّ كذلك.

وفي الكلام متروكٌ استُغْنِيَ بدلالةِ الظاهرِ من الكلامِ عليه من ذِكْرِه، ومعناه: فالصالحاتُ قانتاتٌ حافظاتٌ للغيبِ بما حَفِظَ اللهُ، فأحْسِنُوا إليهن وأصْلِحُوا.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَٱلَّٰتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ

قوله: «نشوزهن»، فإنه يعني: استعلاءَهن على أزواجِهِنَّ، وارتفاعَهُنَّ عن فُرُشهم بالمعصيةِ منهن، والخلاف عليهم فيما لَزِمَهُنَّ طاعتهم فيه، بغضاً منهن وإعراضاً عنهم.

وأصلُ «النشوز» الارتفاعُ. ومنه قِيلَ للمكانِ المرتفعِ من الأرضِ: «نَشْز» و«نَشَاز».

«فَعِظُوْهُنَّ»، يقول: ذَكِّرُوهُنَّ الله، وخَوِّفُوهُنَّ وَعِيْدَهُ، في ركوبها ماحرَّمَ اللهُ عليها من معصيةِ زوجها فيما أوجبَ عليها طاعتَهُ فيه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَٱهْجُرُوهُنَّ فِي ٱلْمَضَاجِعِ

واللاتي تخافون نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ في نشوزهن عليكم. فإن اتَّعَظْنَ فلا سبيلَ لكم عليهنَّ، وإنْ أَبَيْنَ الأوْبَةَ من نشـوزهن فاستوثِقُوا منهنّ رباطاً في مضاجعهن. يعني: في منازلهن وبُيوتهن التي يَضطجِعْنَ فيها ويُضاجعن فيها أزواجهنَّ[1].

---

(١) هذا التفسير الذي أورده الطبري تفسير شاذ لم يُعرف عن أحدٍ ممن سبقه، وإن أطال القـولَ في إثبـاته. وقد رَدَّهُ العلماء وعَدُّوه من هفواته. انظر «أحكام القرآن» لابن العربي ١/١٧٥.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَاضْرِبُوهُنَّ﴾

يعني بذلك جَلَّ ثناؤه: فَعِظُوهُنَّ، أيها الرجالُ، في نشوزهن، فإنْ أبينَ الإيابَ إلى ما يلزمهن لكم، فَشُدُّوهُنَّ وثاقاً في منازلهن، واضْرِبُوهُنَّ لِيُؤْبْنَ إلى الواجبِ عليهنَّ من طاعةِ الله في اللازمِ لَهُنَّ من حقوقكم.

وقال أهل التأويل: صِفَةُ الضربِ التي أباحَ اللهُ لزوجِ الناشز أنْ يضربها: الضربُ غيرُ المبرِّح.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا﴾

يعني بذلك جَلَّ ثناؤه: فإنْ أَطَعْنَكُم، أيها الناسُ، نساؤكم اللاتي تخافونَ نُشوزهن عند وَعْظِكم إياهُنَّ، فلا تهجروهن في المضاجع. فإنْ لم يُطِعْنَكُمْ، فاهجروهنَّ في المضاجعِ واضربوهن. فإنْ راجعنَ طاعتكم عند ذلك وفِئْنَ إلى الواجبِ عليهن، فلا تطلبوا طريقاً إلى أذَاهُنَّ ومكروهِهِنَّ، ولا تلتمسُوا سبيلاً إلى مالا يَحِلُّ لكم من أبدانهنَّ وأموالهنَّ بالعللِ. وذلك أنْ يقولَ أحَدُكُم لإحداهن وهي له مطيعةٌ: «إنكِ لستِ تحبِّيني، وأنتِ لي مُبْغِضَةٌ»، فيضربها على ذلك أو يُؤذيها. فقال الله تعالى للرجال: «فإنْ أطعنَكُم» أي: على بُغْضِهِنَّ لكم فلا تَجَنَّوْا عليهن، ولا تُكَلِّفُوهُنَّ مَحَبَّتَكُم، فإنَّ ذلكَ ليس بأيديهن، فتضربوهن أو تُؤْذُوهُنَّ عليه.

ومعنى قوله: «فلا تبغوا»، لا تلتمسوا ولا تطلبوا، من قولِ القائلِ: «بغَيتُ الضالةَ»، إذا التمستُها.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا ۝٣٤﴾

إنَّ الله ذُو عُلُوّ على كل شيءٍ، فلا تبغوا، أيها الناسُ، على أزواجكم إذا أطَعْنَكُم فيما ألزمَهُنَّ اللهُ لكم من حقٍّ سبيلًا، لِعُلُوِّ أيديكم على أيديهن، فإنَّ اللهَ أعلى منكم ومِنْ كُلِّ شيءٍ عليكم، منكم عليهن، وأكبر منكم ومن كُلِّ شيءٍ، وأنتم في يدهِ وقبضتهِ، فاتقوا الله أنْ تَظْلِمُوهُنَّ وتَبْغُوا عليهن سبيلًا. وهُنَّ لكم مطيعاتٌ، فينتصرَ لَهُنَّ منكم ربُّكم الذي هو أعلى منكم ومن كل شيءٍ، وأكبر منكم ومن كل شيء.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَٱبْعَثُوا۟ حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِۦ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَآ إِن يُرِيدَآ إِصْلَـٰحًا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيْنَهُمَآ﴾

يعني بقوله جَلَّ ثناؤه: «وإنْ خفتم شِقاقَ بينهما»، وإنْ علمتم أيها الناسُ. «شقاقَ بينهما»، وذلك مشاقةُ كُلِّ واحدٍ منهما صاحِبَهُ، وهو إتيانه مايشقُّ عليه من الأمورِ. فأما من المرأة، فالنشوزُ وتركُها أداءَ حَقِّ الله عليها الذي أَلْزَمَهَا اللهُ لزوجِهَا. وأما من الزوجِ، فتركُه إمساكها بالمعروفِ أو تسريحها بإحسان.

وأما قوله: «فابعثوا حَكَماً من أهلِه وحكماً من أهلها»، فإنَّ أهلَ التأويلِ اختلفوا في المخاطَبينَ بهذه الآية: مَنِ المأمورُ ببعثة الحَكَمين؟

فقال بعضهم: المأمورُ بذلك، السلطانُ الذي يُرْفَعُ ذلك إليه.

وقال آخرون: بل المأمور بذلك: الرجلُ والمرأة.

ثم اختلف أهلُ التأويل فيما يُبعث له الحكمان، وما الذي يجوزُ للحكَمين من الحكم بينهما، وكيف وَجْهُ بَعْثِهما بينهما؟

فقال بعضهم: يبعثهما الزوجان بتوكيلٍ منهما إياهما بالنظر بينهما. وليس لهما أنْ يعملا شيئاً في أمرهما إلا ما وكَّلاَهُمَا به، أو وَكَّلَهُ كُلّ واحدٍ منهما بما إليه، فيعملان بما وَكَّلَهما به مَنْ وَكَّلَهُما من الرجلِ والمرأةِ فيما يجوزُ توكيلهما فيه، أو توكيل من وُكل منهما في ذلك.

وقال آخرون: إنَّ الذي يبعثُ الحَكَمين هو السلطانُ، غير أنه إنما يبعثهما ليعرفا الظالمَ من المظلومِ منهما، ليحملهما على الواجبِ لكلِّ واحدٍ منهما قِبَلَ صاحبِه، لا التفريقَ بينهما.

وقال آخرون: بَلْ إنما يبعثُ الحكمينِ السلطانُ، على أنَّ حُكْمهما ماضٍ على الزوجين في الجمعِ والتفريقِ.

وأوْلى الأقوالِ بالصواب في قوله: «فابعثوا حكماً من أهله وحكماً من أهلها»، أنَّ الله خاطبَ المسلمينَ بذلك، وأمرهم ببعثةِ الحَكَمين عند خوفِ الشِّقاقِ بين الزوجين للنظرِ في أمرهما، ولم يخصصْ بالأمرِ بذلك بعضَهم دونَ بعضٍ.

وقد أجمع الجميعُ على أنَّ بعثةَ الحكمين في ذلك ليست لغير الزوجين، وغير السلطان الذي هو سائسُ أمرِ المسلمين، أو مَنْ أقامَهُ في ذلك مقامَ نفسه.

واختلفوا في الزوجين والسلطان، ومَن المأمورُ بالبعثةِ في ذلك: الزوجان، أو السلطان؟ ولا دلالةَ في الآية تدلُّ على أنَّ الأمرَ بذلك مخصوصٌ به أحدُ الزوجين، ولا أثرَ به عن رسولِ الله ﷺ، والأمةُ فيه مختلفةٌ.

وإذْ كان الأمرُ على ما وصَفْنَا، فأوْلى الأقوالِ في ذلك بالصواب: أنْ يكون مخصوصاً من الآية ما أجمعَ الجميعُ على أنه مخصوصٌ منها. وإذْ كان ذلك كذلك، فالواجبُ أنْ يكون الزوجانِ والسلطانُ مِمَّنْ قد شَمِلهُ حُكْم الآية، والأمرُ بقوله: «فابعثوا حكماً من أهله وحكماً من أهلها»، إذْ كان مختلفاً بينهما:

هل هما مَعْنِيَّانِ بالأمرِ بذلك أم لا؟ وكان ظاهر الآية قد عَمَّهما، فالواجبُ من القولِ، إذْ كان صحيحاً ما وصفنا، صحيحاً أنْ يقال: إنْ بعثَ الزوجان كل واحدٍ منهما حَكَماً من قِبَلِهِ لينظر في أمرهما، وكان كُلُّ واحدٍ منهما قد بعثه من قِبلِهِ في ذلك، لما لَهُ على صاحبهِ ولصاحبهِ عليه، فتوكيلُه بذلك مَنْ وكَّلَ جائزٌ له وعليه.

وإنْ وكَّله ببعضٍ ولم يوكله بالجميع، كان مافعله الحَكَمُ مما وَكَّلَهُ به صاحبهُ ماضياً جائزاً على ما وَكَّلَهُ به. وذلك أن يوكله أحدهما بما له دون ما عليه.

وإنْ لم يوكل كُلُّ واحدٍ من الزوجين بماله وعليه. أو بما له، أو بما عليه إلا الحكمين كليهما، لم يَجُزْ إلَّا ما اجتمعا عليه، دونَ ما انفردَ به أَحَدُهُمَا.

وإنْ لم يوكلهما واحدٌ منهما بشيء، وإنما بعثاهما للنظرِ بينهما، ليعرفا الظالمَ من المظلومِ منهما، ليشهدا عليهما عند السلطانِ إن احتاجا إلى شهادَتِهما لم يكنْ لهما أنْ يُحْدِثَا بينهما شيئاً غير ذلك من طلاقٍ، أو أخذِ مالٍ، أو غير ذلك، ولم يلزم الزوجين ولا واحداً منهما شيء من ذلك.

فإنْ قال قائل: وما معنى الحكمين، إذْ كان الأمرُ على ما وصفتَ؟

قيل: قد اختلف في ذلك.

فقال بعضهم: معنى «الحكم»، النظرُ العدلُ.

وقال آخرون: معنى ذلك: أنهما القاضيان، يقضيان بينهما ما فَوَّضَ إليهما الزوجان.

وأي الأمرين كانَ، فليس لهما، ولا لواحدٍ منهما، الحكم بينهما بالفرقةِ،

ولا بأخـذِ مالٍ إلا برضى المحكـوم عليه بذلك، وإلا ما لزم من حَقٍّ لأحدِ الـزوجين على الآخـر في حكم الله، وذلك ما لزم الرجلَ لزوجتهِ من النفقةِ والإمساكِ بمعروف، إنْ كان هو الظالمَ لها.

فأمـا غير ذلـك، فليس ذلك لهما، ولا لأحدٍ من الناس غيرهما، لا السلطان ولا غيره. وذلكَ أنَّ الزوجَ إنْ كان هو الظالمَ للمرأةِ، فللإمام السبيلُ إلى أخذه بما يجبُ لها عليه من حَقٍّ. وإنْ كانت المرأةُ هي الظالمةَ زوجَها الناشزةَ عليه، فقد أباح اللهُ له أخذَ الفديةِ منها، وجعلَ إليه طلاقَها، على ما قَدْ بَيَّناهُ في «سورة البقرة».

وإذْ كان الأمرُ كذلك، لم يكن لأحدٍ الفرقةُ بين رجلٍ وامرأةٍ بغير رضى الزوجِ، ولا أخذُ مالٍ من المرأةِ بغير رِضَاها بإعطائه، إلا بحجةٍ يجبُ التسليمُ لها من أصلٍ أو قياس.

وإنْ بعثَ الحكمين السلطانُ، فلا يجوزُ لهما أن يحكما بين الزوجين بفرقةٍ إلا بتوكيلِ الزوجِ إيَّاهُمَا بذلك، ولا لهما أنْ يحكما بأخذِ مالٍ من المرأةِ إلا برضى المرأةِ. ولكن لهما أنْ يُصْلِحَا بين الزوجين، ويتعرفا الظالمَ منهما من المظلومِ، ليشهدَا عليه إن احتاج المظلومُ منهما إلى شهادتهما.

وإنما قلنا: «ليس لهما التفريق»، للعلة التي ذكرناها آنفاً، وإنما يبعثُ السلطانُ الحكمين إذا بَعَثَهُمَا، إذا ارتفعَ إليه الزوجان، فَشَكَا كُلُّ واحدٍ منهما صاحِبَهُ، وأشكلَ عليه المُحِقُّ منهما من المُبْطِلِ. لأنه إذا لم يشكل المحق من المبطل، فلا وجهَ لبعثهِ الحكمين في أمرٍ قد عرف الحكم فيه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِن يُرِيدَآ إِصۡلَٰحٗا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيۡنَهُمَآۗ﴾

يعني بقوله جل ثناؤه: «إن يريدا إصلاحاً»، إنْ يُرِدِ الحَكَمانِ إصلاحاً بين

الرجل والمرأة أعني: بين الزوجين المخوف شقاقُ بينهما يقول: «يوفق الله» بينَ الحكمين فيَتَّفِقَا على الإصلاحِ بينهما. وذلك إذا صَدَقَ كُلُّ واحدٍ منهما فيما أفضى إليه: مَنْ بُعِثَ للنظر في أمر الزوجين.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا ﴿٣٥﴾

يعني جل ثناؤه: «إنّ الله كان عليماً»، بما أرادَ الحكمان من إصلاحٍ بين الزوجينِ وغيره. «خبيراً»، بذلك وبغيره من أمورهما وأمور غيرهما، لا يَخْفَى عليه شيءٌ منه، حافظ عليهم، حتى يجازي كلًّا منهم جزاءه، بالإحسانِ إحساناً، وبالإساءةِ غفراناً أو عقاباً.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ جَلَّ ذِكْرُهُ: وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ

يعني بذلك جل ثناؤه: وذِلُّوا للهِ بالطاعةِ، واخْضَعُوا له بها، وأفردوهُ بالربوبيةِ، وأخْلِصُوا له الخضوع والذلة، بالانتهاءِ إلى أمرهِ، والانزجارِ عن نهيه، ولا تجعلوا له في الربوبيةِ والعبادةِ شريكاً تُعَظِّمُونَهُ تعظيمَكُم إياه.

«وبالوالدين إحساناً»، يقول: وأَمَرَكُم بالوالدين إحساناً ـ يعني بِرًّا بهما ـ ولذلك نصب «الإحسان»، لأنه أمْرٌ منه جَلَّ ثناؤهُ بلزومِ الإحسانِ إلى الوالدين، على وجهِ الإغراء.

وقد قال بعضهم: معناه: «واستوصوا بالوالدين إحساناً»، وهو قريب المعنى مما قلناه.

وأما قوله: «وبذي القربى»، فإنه يعني: وأمرَ أيضاً بذي القربى ـ وهم

ذَوُو قرابةِ أحدنا من قِبَلِ أبيهِ أو أمهِ، ممن قربت منه قرابته برحمهِ من أحدِ الطرفين - إحساناً بصلةِ رَحِمهِ.

وأما قوله: «واليتامى»، فإنهم جمعُ «يتيم»، وهو الطفلُ الذي قد ماتَ والدهُ وهلك.

«والمساكين» وهو جَمْعُ «مسكين»، وهو الذي قد رَكِبَهُ ذلُّ الفاقةِ والحاجةِ، فتمسكن لذلك.

يقول تعالى ذكره: استوصوا بهؤلاء إحساناً إليهم، وتَعَطَّفُوا عليهم، والْزَمُوا وصيتي في الإحسانِ إليهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾

معنى ذلك: والجارِ ذي القرابةِ والرحمِ منكَ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ﴾

معنى الجُنُب، في هذا الموضع: الغريبُ البعيد، مسلماً كان أو مشركاً، يهوديًا كان أو نصرانياً، لما بَيَّنا قَبْلُ مِنْ أنَّ «الجار ذا القربى»، هو الجار ذو القرابة والرحم. والواجب أنْ يكونَ «الجار ذو الجنابة»، الجار البعيد، ليكون ذلك وصيةً بجميعِ أصنافِ الجيران قَريبهم وبعيدهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ﴾

اختلف أهل التأويل في المَعْنِيِّ بذلك.

فقال بعضهم: هو رفيقُ الرجلِ في سَفرِه.

وقال آخرون: بل هو امرأةُ الرجلِ التي تكونُ معه إلى جنبه.

وقال آخرون: هو الذي يَلْزَمُكَ ويَصْحَبُكَ رَجاء نَفْعِكَ.

والصواب من القول في تأويل ذلك عندي: أنَّ معنى «الصاحب بالجنب»، الصاحب إلى الجنب، كما يقال: «فلان بجَنب فلان، وإلى جنبه»، وهو من قولهم: «جَنَب فلانٌ فلاناً فهو يجنُبه جَنْباً»، إذا كان لجنبه. ومن ذلك: «جَنَب الخيل»، إذا قاد بعضها إلى جنب بعض. وقد يدخلُ في هذا: الرفيقُ في السفر، والمرأةُ، والمنقطعُ إلى الرجل الذي يلازمه رجاءَ نفعه، لأن كلهم بجنب الذي هو معه وقريبٌ منه. وقد أوصى اللهُ تعالى بجميعهِم، لوجوبِ حَقِّ الصاحبِ على المصحوب.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ﴾

إن «ابن السبيل»، هو صاحب الطريق - و«السبيل»: هو الطريق، وابنه: صاحبه الضاربُ فيه - فله الحَقُّ على مَنْ مَرَّ به محتاجاً منقطعاً به، إذا كانَ سفرهُ في غيرِ معصيةِ الله، أنْ يُعِينَهُ إن احتاجَ إلى معونةٍ، ويضيفه إن احتاج إلى ضيافةٍ، وأنْ يحملَهُ إن احتاجَ إلى حُمْلان.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡۗ﴾

يعني بذلك جل ثناؤه: والذين ملكتموهم من أرِقَّائِكُم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخۡتَالٗا فَخُورًا ٣٦﴾

يعني بقوله جَلَّ ثناؤه: «إنَّ الله لا يحبُّ من كان مختالاً»، إنَّ الله لا يُحِبُّ مَنْ كان ذَا خُيَلاء.

وأما «الفخور»، فهو المفتخرُ على عبادِ الله بما أنْعَمَ اللهُ عليه من آلائِهِ، وبَسَطَ له من فضله، ولا يحمده على ما آتاه من طَوْلِهِ، ولكنه به مختالٌ مستكبرٌ، وعلى غيرِهِ به مُسْتطيلٌ مفتخر.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾

إنَّ الله وصفَ هؤلاء القوم الذين وصف صِفَتهم في هذه الآية، بالبُخْلِ بتعريفِ مَنْ جَهِلَ أمرَ محمدٍ ﷺ أنه حقٌّ، وأنَّ محمداً لله نبيٌّ مبعوثٌ، وغير ذلك من الحق الذي كان الله تعالى ذِكْرُه قد بَيَّنه فيما أوحى إلى أنبيائهِ من كتبه. فبخلَ بتبيينهِ للناسِ هؤلاء، وأمروا مَنْ كانت حَاله حالَهم في معرفتهم به: أنْ يكتموه مَنْ جَهِل ذلك، ولا يُبَيِّنُوهُ للناسِ، لأنَّ الله جَلَّ ثناؤهُ وصفهم بأنهم يأمـرونَ الناسَ بالبخلِ، ولم يَبْلُغْنَا عن أمةٍ من الأممِ أنها كانت تأمرُ الناسَ بالبخل ديانةً ولا تخلُّقاً، بل ترى ذلك قبيحاً وتذمّ فاعله؛ وتَمتدح ـ وإن هي تخلَّقَت بالبخل واستعملته في أنفسها ـ بالسخاء والجود، وتعدُّه من مكارمِ الأفعال وتحثُّ عليه. ولذلك قلنا: إنَّ بُخْلَهم الذي وصفهم اللهُ به، إنما كان بُخْلاً بالعلم الذي كان الله آتاهُموه فَبَخلُوا بتبيينهِ للناسِ وكتموه، دونَ البُخْلِ بالأموالِ إلَّا أنْ يكون معنى ذلك: الذين يبخلون بأموالهم التي ينفقونها في حقوق الله وسُبُله، ويأمرونَ الناسَ من أهلِ الإسلامِ بتركِ النفقة في ذلك. فيكون بخلهم بأموالهم، وأمرهم الناسَ بالبخلِ، بهذا المعنى فيكون لذلك وجهٌ مفهومٌ في وصفهم بالبخل وأمرِهم به.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿٣٧﴾﴾

يعني: بذلك جَلَّ ثناؤه: «وأعتدنا»، وجعلنا للجاحدينَ نعمةَ الله التي أنعم بها عليهم، من المعرفةِ بنبوةِ محمدٍ ﷺ، المُكَذِّبينَ به بعد عِلْمِهم به، الكاتمينَ نَعْتَهُ وصِفَتَهُ مَنْ أمرَهم الله ببيانه له من الناس. «عذاباً مهيناً»، يعني: العقابَ المُذِلَّ مَن عُذِّب بخلوده فيه، عَتاداً له في آخرته، إذا قَدِم على رَبِّه وَجدَه، بما سَلَفَ منه من جحودِهِ فرضَ الله الذي فرضَهُ عليه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾

يعني بذلك جل ثناؤه: وأعتدنا للكافرين بالله من اليهود الذين وَصَفَ الله صِفَتهم، عذاباً مهيناً. «والذين ينفقون أموالهم رئاءَ الناس.»

وقوله: «رئاء الناس»، يعني: يُنْفِقُه مُراءاةَ الناسِ، في غيرِ طاعةِ اللهِ أو غير سبيله، ولكنْ في سبيلِ الشيطان. «ولا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر»، يقول: ولا يُصَدِّقُونَ بوحدانيةِ الله، ولا بالمَعَادِ إليه يوم القيامة ـ الذي فيه جزاءُ الأعمال ـ أنه كائن.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَن يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا﴾



يعني بذلك جل ثناؤه: ومَنْ يَكُنِ الشيطانُ له خليلاً وصاحباً، يعملُ

بطاعته، ويتبعُ أمْرَهُ، ويتركُ أمْرَ الله في إنفاقهِ مالَهُ رئاءَ الناسِ في غير طاعته، وجحوده وحدانيةَ الله والبعثَ بعد الممات. «فساء قريناً»، يقول: فساء الشيطان قريناً.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا ﴿٣٩﴾﴾

يعني بذلك جل ثناؤه: وأيّ شيءٍ على هؤلاء الذين ينفقون أموالَهم رئاءَ الناس ولا يؤمنونَ باللهِ ولا باليوم الآخر. «لو آمنوا بالله واليوم الآخر»، لو صَدَّقُوا بأنَّ الله واحدٌ لا شريكَ له، وأخلصوا له التوحيدَ، وأيقنوا بالبعثِ بعد المماتِ، وصَدَّقُوا بأنَّ الله مُجازِيهم بأعمالهم يوم القيامة وأنفقوا مما رزقهم الله»، يقول: وأدّوا زكاةَ أموالهم التي رَزَقهم الله وأعْطَاهُموهَا، طيبةً بها أنْفُسُهم، ولم ينفقوها رِئاءَ الناس، التماسَ الذِّكْرِ والفخرِ عند أهلِ الكفرِ بالله، والمَحْمَدَةِ بالباطلِ عند الناس. «وكان الله»، بهؤلاء الذين وصَف صِفتَهُم أنهم ينفقونَ أموالَهم رئاءَ الناس نفاقاً، وهم بالله واليوم الآخر مُكَذِّبُونَ. «عليماً»، يقول: ذا عِلْمٍ بهم وبأعمالهم، وما يقصدونَ ويُريدونَ بإنفاقِهم ماينفقونَ من أموالهم، وأنهم يريدون بذلك الرِّياءَ والسُّمعةَ والمحمدةَ في الناس، وهو حافظٌ عليهم أعمالَهم، لا يَخْفَى عليه شيءٌ منها، حتى يجازيهم بها جزاءهم عند مَعادهم إليه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾﴾

يعني بذلك جَلَّ ثناؤه: «وماذا عليهم لو آمنوا بالله واليوم الآخر وأنفقوا مما

رزقهم الله»، فَإنَّ الله لا يبخسُ أحداً من خَلْقِه أنفقَ في سبيلِهِ مما رزقه، من ثوابِ نفقتهِ في الدنيا، ولا مِنْ أجْرِها يوم القيامة. «مثقال ذَرّة»، أي: مايزنها ويكون على قدر ثِقَلها في الوزن ولكنه يجازيه به ويُثيبه عليه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾﴾

يعني بذلك جل ثناؤه: إنَّ اللهَ لا يظلمُ عباده مثقالَ ذرّةٍ، فكيف بهم. «إذا جئنا من كل أمةٍ بشهيد»، يعني: بمن يشهد عليها بأعمالها، وتصديقها رُسُلَها أو تكذيبها. «وجئنا بك على هؤلاء شهيداً»، يقول: وجِئْنَا بكَ، يامحمد، «على هؤلاء»، أي: على أمتك «شهيداً»، يقول شاهداً.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ الْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا ﴿٤٢﴾﴾

يعني بذلك جَلَّ ثناؤه: يوم نجيءُ من كُلِّ أمةٍ بشهيد، ونجيءُ بكَ على أمتك يامحمد شهيداً. «يَوَدُّ الذين كفروا»، يقول: يتمنى الذين جَحَدُوا وحدانيةَ الله وعصوا رسوله، «لو تُسَوَّى بهم الأرض».

وأما قوله: «ولا يكتمون الله حديثاً»، فإنَّ أهلَ التأويل تأوّلوه بمعنى: ولا تكتم اللهَ جَوارحُهم حديثاً، وإنْ جَحَدتْ ذلك أفواهُهم.

فتأويلُ الآية: يومئذٍ يَوَدُّ الذين كفروا وعصوا الرسول، لو تُسَوَّى بهم الأرضُ ولم يكتموا الله حديثاً ـ كأنهم تمنوا أنهم سُوُّوا مع الأرضِ، وأنهم لم يكونوا كَتَمُوا الله حديثاً.

وقال آخرون: معنى ذلك: يومئذ لا يكتمونَ الله حديثاً ويودُّونَ لو تُسَوَّى بهم الأرض. وليسَ بمنكتمٍ عن اللهِ شيءٌ من حديثهم، لعلمه جَلَّ ذِكْرُه بجميع حديثهم وأمرهم، فإنْ هُمْ كتموه بألسنتهم فجحدوه، لا يخفى عليه شيءٌ منه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَـٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا۟ مَا تَقُولُونَ﴾

يعني بقوله جَلَّ ثناؤه: «يا أيها الذين آمنوا»، صَدَّقُوا اللهَ ورسولَهُ. «لا تقربوا الصلاة»، لا تُصَلُّوا. «وأنتم سكارى»، وهو جَمْعُ «سكران» «حتى تَعْلَمُوا ماتقولون»، في صلاتكم فَتُمَيِّزُونَ فيها ما أَمَرَكُمُ اللهُ به أو نَدَبَكُم إلى قِبْلِهِ فيها، مما نَهَاكُم عنه وزَجَركم.

ثم اختلف أهـلُ التـأويل في «السكر» الذي عناه الله بقوله: «لاتقربوا الصلاة وأنتم سكارى».

فقال بعضهم: عَنَى بذلك السُّكْرَ من الشراب.

وقال آخرون: معنى ذلك: لا تقربوا الصلاة وأنتم سُكارى من النوم.

وأَوْلى القولين في ذلك بتأويل الآية، تأويل مَنْ قال: ذلك نهيٌ من الله المؤمنين عن أنْ يَقْرَبُوا الصلاةَ وهم سكارى من الشرابِ قبل تحريمِ الخمر.

فإنْ قالَ لنا قائلٌ: وكيف يكون ذلك معناه، والسكرانُ في حالِ زوال عقله، نظيرُ المجنون في حالِ زوالِ عقلِهِ، وأنتَ مِمَّنْ يُحيلُ تكليفَ المجانين لِفَقْدِهم الفهمَ لما يُؤمر وينهى؟

قيل له: إنَّ السكرانَ لو كان في معنى المجنون، لكان غير جائزٍ أمرهُ ونهيه. ولكنَّ السكرانَ هو الذي يفهمُ ما يأتي ويذَر، غير أنَّ الشرابَ قد أثقلَ لسانَهُ وأجزاءَ جسمه وأخْدَرها، حتى عجزَ عن إقامةِ قراءتهِ في صلاته، وحدودها

الواجبة عليه فيها، من غيرِ زوالِ عقله، فهو بما أمر به ونهي عنه عارفٌ فَهِمٌ، وعن أداء بعضِه عاجزٌ بخدَرِ جسمهِ من الشرابِ. وأما مَنْ صار إلى حدٍّ لا يعقلُ ما يأتي ويَذَر، فذلك منتقلٌ من السكرِ إلى الخَبلِ ومعاني المجانين، وليس ذلك الذي خُوطِبَ بقوله: «لاتقربوا الصلاة»، لأنَّ ذلك مجنونٌ، وإنما خُوطِبَ به السكرانُ، والسكرانُ ماوصفنا صفته.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: **وَلَاجُنُبًا إِلَّا عَابِرِى سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغْتَسِلُواْ**

(يعني): يا أيها الذين آمنوا، لا تَقْرَبُوا المساجدَ للصلاة مُصَلِّينَ فيها وأنتم سكارى حتى تَعْلَمُوا ما تقولونَ، ولا تقربوها أيضاً جُنُباً حتى تَغْتَسِلُوا، إلَّا عابري سبيل.

و«العابر السبيل»: المجتازه مَرًّا وقَطْعاً.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: **وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ**

(يعني): وإنْ كنتم جَرْحى أو بكم قُروحٌ، أو كَسْرٌ، أو عِلَّةٌ لا تقدرونَ معها على الاغتسالِ من الجنابة، وأنتم مقيمونَ غيرُ مسافرِينَ، فَتَيَمَّمُوا صَعِيداً طَيِّباً.

وأما قوله: «أو على سَفَرٍ»، فإنه يعني: أو إنْ كنتم مسافرِينَ وأنتم أصِحَّاءُ جنب، فتيمموا صعيداً.

وكذلك تأويل قوله: «أو جاءَ أحدٌ منكم من الغائط»، يقول: أو جاء أحدٌ منكم من الغائط، قد قضى حاجَتَهُ وهو مسافرٌ صحيحٌ، فَلْيَتَيَمَّمْ صَعيداً أيضاً.

النساء: ٤٣

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: أَوْ لَـٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ

اختلف أهلُ التأويل في «اللمس» الذي عَنَاهُ الله بقوله: «أو لامستم النساء».

فقال بعضهم: عَنَى بذلك الجماع.

وقال آخرون: عنى اللهُ بذلك كُلَّ لَمْسٍ، بيدٍ كانَ أو بغيرها من أعضاءِ جَسَدِ الإنسان وأوجبوا الوضوءَ على مَنْ مَسَّ بشيء من جسدهِ شيئاً من جسدها مُفْضِياً إليه.

وأَوْلى القولين في ذلكَ بالصوابِ، قولُ مَنْ قال: عنى الله بقولِه: ﴿أَوْ لامَسْتُمُ النِّسَاءَ﴾، الجماعَ دونَ غيرهِ من معاني اللمس، لِصِحَّةِ الخبرِ عن رسولِ الله ﷺ، أنه قَبَّلَ بعضَ نسائهِ ثم صَلَّى ولم يتوضأ[1].

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: فَلَمْ تَجِدُواْ مَآءً فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدًا طَيِّبًا

يعني بقوله جَلَّ ثناؤهُ: «فَتَيَمَّمُوا»، فتعمَّدوا.

وأما «الصعيد»، فهو وجه الأرض[2] الخالية من النبات والغروس والبناء، المستوية.

---

(١) حديث عروة عن عائشة رضي الله عنها، أخرجه الطبري (٩٦٢٩) و(٩٦٣٠). وهو عند أحمد ٦/٢١٠، وابن ماجة (٥٠٢)، وأبو داود (١٧٩)، والترمذي (٨٦)، وله شواهد ومتابعات، وانظر تعليق العلامة أحمد شاكر على الترمذي، وراجع صحيح الترمذي للعلامة ناصر الدين الألباني، وتخريج مشكاة المصابيح له (٣٢٣).

(٢) قال الزجاج: «لا أعلم بين أهل اللغة اختلافاً في أنَّ الصعيد وجه الأرض» (معاني القرآن: ٢/٥٦).

وأما قوله: طيباً فإنه يعني به: طاهراً من الأقذار والنجاسات.

ومعنى الكلام: فإنْ لم تجدوا ماء، أيها الناسُ، وكنتم مرضى، أو على سفر، أو جاء أحدٌ منكم من الغائطِ، أو لمستم النساء، فأردتم أن تُصَلُّوا «فَتَيَمَّمُوا»، يقول: فتعمدوا وجهَ الأرضِ الطاهرة، «فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ».

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ

يعني بذلك جَلَّ ثناؤُهُ: فامسحوا منه بوجوهكم وأيديكم: ولكنه تَرَكَ ذِكْرَ «منه»، اكتفاءً بدلالةِ الكلام عليه.

و «المسح منه بالوجه»، أنْ يضربَ المتيممُ بيديهِ على وجهِ الأرضِ الطاهر، أو ما قام مقامه، فيمسحَ بما عَلقَ من الغُبار وَجْهَهُ. فإنْ كان الذي علق به من الغُبار كثيراً فنفخَ عن يديه أو نفضه، فهو جائزٌ. وإنْ لم يعلَقْ بيديهِ من الغبارِ شيءٌ وقد ضرب بيديه أو إحداهما الصعيدَ، ثم مَسَحَ بهما أو بها وجهه، أجْزَأَهُ ذلك، لإجماعِ الحجَّةِ على أنَّ المتيممَ لو ضربَ بيديهِ الصعيدَ ـ وهو أرض رمل ـ فلم يَعْلَقْ بيديهِ منها شيءٌ فتيممَ به، أنَّ ذلك مُجْزِئهُ، لم يخالفْ ذلك مَنْ يجوز أن يُعْتَدّ خلافاً[1]. فلما كان ذلك إجماعاً منهم، كان معلوماً أنَّ الذي يُرادُ به من ضَرْب الصعيد باليدين، مباشرةُ الصعيدِ بهما، بالمعنى الذي أمرَ الله بمباشرتهِ بهما، لا لأخْذِ ترابٍ منه.

وأما «المسح باليدين»، فإنَّ أهلَ التأويلِ اختلفوا في الحَدِّ الذي أمر الله بمسحهِ من اليدين.

---

(١) يعني: يحسب خلافاً، ومعناه: الذي يُعَدُّ خلافه خلافاً.

فقال بعضهم: حَدُّ ذلك الكَفَّان إلى الزَّندين، وليس على المتيمم مَسْحُ ما وراء ذلك من الساعدين.

وقالوا: أمرَ الله في التيمم بمسحِ الوجهِ واليدين، فما مسح من وجهه ويديه في التيمم أجزأه، إلا أنْ يمنعَ من ذلك ما يجب التسليمُ له من أصلٍ أو قياس.

وقال آخرون: حَدُّ المسحِ الذي أمرَ الله به في التيمم، أنْ يمسحَ جميعَ الوجهِ واليدين إلى المرفقين.

وعِلَّةُ مَنْ قالَ هذه المقالةَ: أنَّ التيممَ بَدَلٌ من الوضوء، وعلى المتيمم أنْ يبلغ بالتراب من وجهه ويديه ما كانَ عليهِ أنْ يبلغه بالماءِ منهما في الوضوء.

وقال آخرون: الحدُّ الذي أمرَ الله أنْ يبلغ بالترابِ إليه في التيمم: الآباط.

وعلة مَنْ قال ذلك: أنَّ الله أمر بمسح اليدِ في التيمم، كما أمرَ بمسحِ الوجه. وقد أجمعوا أنَّ عليه أنْ يمسحَ جميعَ الوجه، فكذلك عليه جميع اليد، ومن طرف الكفِّ إلى الإِبطِ «يَدٌ».

والصوابُ من القول في ذلك: أنَّ الحدَّ الذي لايجزئ المتيممَ أنْ يقصِّر عنه في مسحهِ بالترابِ من يديه: الكَفَّان إلى الزَّندين، لإجماعِ الجميعِ على أنَّ التقصيرَ عن ذلك غير جائز. ثم هو فيما جاوز ذلك مُخَيَّرٌ، إنْ شاء بلغ بمسحهِ المرفقين، وإنْ شاءَ الآباطَ. والعلةُ التي من أجلها جعلناه مخيراً فيما جاوزَ الكَفَّين: أنَّ الله لم يحدَّ في مسحِ ذلكَ بالتراب في التيمم حداً لا يجوزُ التقصير عنه. فما مَسَحَ المتيممُ من يديه أجزأه، إلا ما أُجمع عليه، أو قامت الحُجَّةُ بأنه لا يجزئه التقصيرُ عنه وقد أجمع الجميعُ على أنَّ التقصيرَ عن الكفين غير مجزئ، فخرج بذلك بالسنة، وما عدا ذلك فَمُخْتَلَفٌ فيه. وإذا كان مختلفاً

فيه، - وكان الماسحُ بكفيهِ داخلاً في عموم الآية - كان خارجاً مما لزمه من فرض ذلك.

واختلفَ أهلُ التأويلِ في الجُنُبِ، هل هو مِمَّنْ دخلَ في رُخْصَةِ التيممِ إذا لم يجدِ الماءَ أم لا؟

فقـال جماعةٌ من أهل التأويلِ من الصحابةِ والتابعين ومَنْ بعدهم من الخالِفين: حُكْمُ الجُنُبِ فيما لَزِمَهُ من التيممِ إذا لم يجدِ الماءَ، حُكْمُ مَنْ جاء من الغائطِ وسائر مَنْ أحدَث مِمَّنْ جُعِلَ التيممُ له طهوراً لصلاته.

واعتلَّ قائلو هذه المقالة، بأنَّ للجنب التيممَ إذا لم يجد الماء في سفره، بإجماع الحُجَّةِ على ذلك نقلاً عن نَبِيِّها ﷺ، الذي يقطعُ العذرَ ويزيلُ الشكَ[1].

وقال جماعةٌ من المتقدمين: لا يجزىءُ الجُنُبَ غيرُ الاغتسالِ بالماء، وليس له أنْ يصلي بالتيمم، والتيمم لايطهره. قالوا: وإنما جُعِلَ التيممُ رخصةً لغيرِ الجنب. وتأولوا قول الله: «ولا جنباً إلّا عابري سبيل». قالوا: وقد نهى الله الجُنُبَ أن يقرب مصَلَّى المسلمين إلا مجتازاً فيه حتى يغتسل، ولم يرخِّص له بالتيمم. قالوا: وتأويل قوله: «أَوْ لامَسْتُمُ النِّسَاءَ» أو لامستموهن باليد، دونَ الفَرْجِ، ودونَ الجِماع. قالوا: فلم نَجِدِ الله رَخَّصَ للجُنُبِ في التيمم، بل أمره بالغُسْلِ، وأن لايقرب الصلاةَ إلّا مغتسلاً. قالوا: والتيمم لا يطهِّره لصلاته.

والصوابُ من القول في ذلك: أنَّ الجُنُبَ ممن أمرهُ الله بالتيممِ إذا لم يجد الماء، والصلاةِ[2]، بقوله: «أَوْ لامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُواْ مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيداً

---

(١) انظر البخاري (٢٣٨) و(٣٣٩) و(٣٤٠) و(٣٤١) و(٣٤٢) و(٣٤٣) و(٣٤٥) و(٣٤٦)، و(٣٤٧)، ومسلم (٣٦٨).

(٢) قوله: «والصلاةِ» مجروراً عطفاً على «أمره الله بالتيمم... والصلاةِ».

طَيِّباً». وقد بَيَّنا ثَمَّ أن معنى «الملامسة»، في هذا الموضع: الجماع، بنقلِ الحُجَّـةِ التي لا يجوزُ الخطأ فيما نقلته مجمعةً عليه، ولا السهو ولا التواطؤ والتشاعر[1]، بأنَّ حُكْمَ الجُنُبِ في ذلك حكم سائرِ مَنْ أحدث فَلَزِمَهُ التطهرُ لصلاته.

واختلفَ أهلُ التأويلِ في تأويلِ قوله: «فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا»، وهل ذلك أمرٌ من الله بالتيممِ كلما لَزِمَهُ طَلَبُ الماء، أم ذلك أمرٌ منه بالتيمم كلما لزمه الطلبُ وهو مُحْدِث حَدَثاً يجبُ عليه منه الوضوء بالماء، لو كان للماء واجداً؟

فقال بعضهم: ذلك أمرٌ من الله بالتيممِ كلما لزمه فرضُ الطلبِ بعدَ الطلبِ، مُحْدِثاً كان أو غيرَ محدث.

وقال آخرون: بل ذلك أمرٌ من الله بالتيمم بعد طلبِ الماء مَنْ لزمه فرض الطلب إذا كان مُحْدِثاً. فأما مَنْ لم يكن أَحْدَثَ بعد تطهرِهِ بالترابِ، فلزمه فرضُ الطلب، فليس عليه تجديدُ تيممه، وله أنْ يُصلِّي بتيممه الأول.

وأَوْلى القولين في ذلك عندنا بالصواب، قَولُ مَنْ قال: «يتيممُ المصلي لكلِّ صلاةٍ لزمه طَلَبُ الماءِ للتطهرِ لها فرضاً»، لأنَّ الله جَلَّ ثناؤُهُ أمر كُلَّ قائمٍ إلى الصلاة بالتطهرِ بالماء، فإنْ لم يجدِ الماء فالتيمم. ثم أخرج القائمَ إلى الصلاةِ من كان قد تَقَدَّمَ من قيامهِ إليها الوضوء بالماء سنةُ[2] رسولِ الله ﷺ، إلا أنْ يكونَ قد أحدثَ حَدَثاً ينقضُ طهارته، فيسقط فرضُ الوضوءِ عنه بالسنة. وأما القائم إليها وقد تقدم قيامه إليها التيمم لصلاةٍ قَبْلَها، ففرضُ التيممِ له لازمٌ بظاهرِ التنزيلِ، بعد طلبه الماء إذا أعوزه.

---

(١) التشاعر: التعالم.

(٢) مرفوع فاعل: «ثم أخرج القائم. . . سنةُ».

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا ۝٤٣﴾

يعني بذلك جَلَّ ثناؤُهُ: إنَّ الله لم يزل «عَفُوّاً»، عن ذنوبِ عبادِه، وتركه العقوبة على كثيرٍ منها ما لم يُشْرِكُوا به، كما عفا لكم، أيها المؤمنونَ، عن قيامِكم إلى الصلاةِ التي فرضها عليكم في مساجدكم وأنتم سكارى. «غَفُوراً»، يقول: فلم يزلْ يسترُ عليهم ذنوبَهم بتركهِ معاجَلَتَهُم العذابَ على خطاياهم، كما سترَ عليكم، أيها المؤمنون، بتركه معاجلتكم على صلاتِكم في مساجدكم سكارى. يقول: فلا تَعُودُوا لمثلها، فينالكم بعودكم لما قَدْ نَهيتكم عنه من ذلك، مُنَكِّلَة[1].

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾

معنى قوله جَلَّ ثناؤُهُ: «أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ»، ألم تَرَ بقلبكَ، يا محمد، عِلْماً، «إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيباً».

وأما تأويل قوله: «إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيباً مِّنَ ٱلْكِتَابِ»، فإنه يعني: إلى الذين أُعْطُوا حَظّاً من كتابِ الله فَعَلِمُوه.

وذكر أنَّ الله عَنَى بذلك طائفةً من اليهود الذين كانوا حواليْ مُهاجَرِ رسولِ الله ﷺ.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَـالَى: ﴿يَشْتَرُونَ ٱلضَّلَٰلَةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ ۝٤٤ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَآئِكُمْ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ نَصِيرًا ۝٤٥﴾

---

(١) من التنكيل، وهو إنزال العقاب الشديد.

يعني بذلك جَلَّ ثناؤُهُ بقوله: «يَشْتَرُونَ ٱلضَّلَالَةَ»، اليهود الذين أُوتُوا نصيباً من الكتابِ، يختارونَ الضلالةَ، وذلك: الأخذُ على غيرِ طريقِ الحقِّ، وركوبُ غير سبيلِ الرُّشْدِ والصوابِ، مع العلمِ منهم بِقَصْدِ السبيلِ ومنهجِ الحق. وإنما عَنَى الله بوصفهم باشترائهم الضلالة: مقامَهم على التكذيبِ بمحمدٍ ﷺ، وتَرْكهم الإيمانَ به، وهم عالمون أنَّ السبيلَ الحقَّ الإيمانُ به، وتصديقه بما قَدْ وَجَدُوا مِنْ صِفَتِه في كتبهم التي عندهم.

وأما قوله: «وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّوا السَّبِيلَ»، يعني بذلك تعالى ذِكْرُهُ: ويريد هؤلاء اليهودُ الذين وصفهم جَلَّ ثناؤُهُ بأنهم أُوتوا نصيباً من الكتاب. «أَن تَضِلُّواْ» أنتم، يا معشرَ أصحابِ محمدٍ ﷺ، المُصَدِّقِينَ به. «أَن تَضِلُّواْ ٱلسَّبِيلَ»، يقول: أنْ تَزُولُوا عن قَصْدِ الطريقِ ومَحَجَّةِ الحقِّ، فَتُكَذِّبُوا بمحمدٍ، وتكونوا ضُلَّالاً مثلهم.

وهذا من الله تعالى ذِكْرُهُ تحذيرٌ منه عبادَهُ المؤمنينَ، أنْ يَسْتَنْصِحُوا أحداً من أعداءِ الإسلامِ في شيءٍ من أمرِ دينهم، أو أنْ يسمعوا شيئاً من طعنهم في الحق.

ثم أخبر الله جَلَّ ثناؤُهُ عن عداوةِ هؤلاء اليهودِ الذين نهى المؤمنينَ أنْ يستنصحوهم في دينهم إياهم، فقال جَلَّ ثناؤُهُ: «وَٱللهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَآئِكُمْ»، يعني بذلك تعالى ذِكْرُهُ: والله أعلمُ منكم بعداوَةِ هؤلاءِ اليهودِ لكم، أيها المؤمنون. يقول: فانتهوا إلى طاعتي فيما نَهَيْتُكُمْ عنه من استنصاحِهم في دِينكم، فإني أعلمُ بما هم عليه لكم من الغشِّ والعداوَةِ والحسدِ، وأنهم إنما يبغونكمُ الغوائلَ، ويطلبون أنْ تَضِلُّوا عن محجةِ الحق فتهلكوا.

وأما قوله: «وَكَفَى بِٱللهِ وَلِيًّا وَكَفَى بِٱللهِ نَصِيراً»، فإنه يقولُ: فبالله، أيها المؤمنونَ، فَثِقُوا، وعليه فَتَوكَّلُوا، وإليه فارْغَبُوا، دونَ غيرِهِ، يَكْفِكُم مهمَّكم،

وينصركم على أعدائكم. «وَكَفَى بِاللَّهِ وَلِيًّا»، يقول: وكفاكم وحسبكم بالله ربكم وليًّا يَلِيكُم ويَلِي أُمورَكُم بالحِياطةِ لكم، والحراسةِ منْ أنْ يستفزَّكُمْ أعداؤكُم عن دينكم، أو يَصدُّوكم عن اتباع نبيكم. «وَكَفَى بِاللَّهِ نَصِيراً»، يقول: وحَسْبكم بالله ناصراً لكم على أعدائكم وأعداء دينكم، وعلى مَنْ بغاكم الغوائلَ، وبغى دينكم العِوَج.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾

ولقوله جَلَّ ثناؤهُ: «مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ»، وجهان من التأويل.

أحدهما: أنْ يكونَ معناهُ: «أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيباً مِّنَ الْكِتَابِ»، «مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ»، فيكون قوله: «مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا»، من صِلَة «الَّذِينَ». وإلى هذا القولِ كانت عامةُ أهلِ العربيةِ من أهلِ الكوفة يُوَجِّهونَ قوله: «مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ».

والآخر منهما: أن يكون معناه: من الذين هادوا مَنْ يُحرِّفُ الكَلِمَ عن مواضعهِ، فتكون «مَن» محذوفةً من الكلام، اكتفاء بدلالةِ قوله: «مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا» عليها[1].

والقول الذي هو أوْلى بالصواب عندي في ذلك: قولُ مَنْ قال: قوله: «مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا»، من صِلَة «الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيباً مِّنَ الْكِتَابِ»، لأنَّ الخبرين جميعاً والصفتين، من صفةِ نوعٍ واحدٍ من الناس، وهُم اليهودُ الذين وَصَفَ الله صِفَتَهُم في قوله: «أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيباً مِّنَ الْكِتَابِ»، وبذلك جاء

---

(١) ذكر الفراء (معاني القرآن: ١/٢٧١) والزجاج (معاني القرآن: ٢/٥٧ـ٥٨) هذين القولين.

تأويلُ أهلِ التأويل، فلا حاجةَ بالكلام إذْ كان الأمر كذلك إلى أن يكون فيه متروكٌ.

وأمـا تأويل قولـه: «يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ»، فإنه يقول: يُبَدِّلُون معناها ويُغَيِّرُونَها عن تأويله.

و«الكَلِمُ» جِماعُ «كلمة».

وأما قوله: «عَن مَّوَاضِعِهِ»، فإنه يعني: عن أماكنِهِ ووجوهِهِ التي هي وجوهه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا

يعني بذلك جَلَّ ثناؤُهُ: من الذين هادوا يقولون: سمعنا يا محمد قولَك، وعَصَيْنَا أمركَ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ

وهذا خبرٌ من الله جَلَّ ثناؤُهُ عن اليهودِ الذين كانوا حوالَيْ مُهَاجَرِ رسولِ الله ﷺ في عصـره: أنهم كانـوا يسبُّـونَ رسولَ الله ﷺ ويُؤْذُونَهُ بالقبيحِ من القـولِ، ويقـولون له: اسمع منا غير مسمع، كقولِ القائلِ للرجلِ يَسُبُّه: «اسمعْ، لا أسمعَكَ الله».

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَرَاعِنَا لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِي الدِّينِ

يعني بقوله: «وَراعِنَا»، أي: رَاعِنَا سَمْعَكَ، افْهَمْ عَنَّا وأَفْهِمْنَا.

ثم أخبر الله جَلَّ ثناؤُهُ عنهم أنهم يقولون ذلك لرسولِ الله ﷺ، «لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ»، يعني تحريكاً منهم بألسنتهم بتحريفٍ منهم لمعناهُ إلى المكروهِ من مَعْنَيَيْهِ، واستخفافاً منهم بحقِّ النبيِّ ﷺ وطعناً في الدين.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَـالَى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمَعْ وَانظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ﴾

يعني بذلك جَلَّ ثناؤُهُ: ولو أنَّ هؤلاء اليهود الذين وَصَفَ الله صِفتهم، قالوا لنبيِّ الله: «سمعنا يا محمدُ قولكَ، وأطعنا أمركَ، وقبلنا ما جِئْتَنا به من عند الله، واسمعْ منا، وانظرنا ما نقولُ، وانتظرنا نَفْهَمْ عنكَ ما تقولُ لنا» «لَكَانَ خَيْراً لَّهُمْ وَأَقْـوَمَ»، يقول: لكان ذلك خيراً لهم عند الله. «وَأَقْوَمَ»، يقول: وأعدلَ وأصوبَ في القولِ.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَالَى: ﴿وَلَٰكِن لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ۝٤٦﴾

يعني بذلك: ولكن الله تبارك وتعالى أَخْزَى هؤلاء اليهود الذين وَصَفَ صِفَتهم في هذه الآية، فأقصاهم وأبعدهم من الرشد واتباع الحقِّ «بِكُفْرِهِمْ»، يعني: بجحودِهم نُبُوَّةَ نبيهِ محمدٍ ﷺ وما جاء به من عند ربهم من الهدى والبيان. «فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلاً»، يقول: فلا يُصَدِّقُونَ بمحمدٍ ﷺ وما جاءهم به من عند ربهم، ولا يُقِرُّونَ بنبوته. «إِلَّا قَلِيلاً»، يقول: لا يصدقون بالحق الذي جئتهم به، يا محمد إلَّا إيماناً قليلاً.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ آمِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَى أَدْبَارِهَا﴾

يعني جَلَّ ثناؤُهُ بقوله: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ»، اليهود من بني إسرائيل، الذين كانوا حواليْ مُهاجَرِ رسولِ الله ﷺ، قال الله لهم: يا أيها الذينَ أُنزلَ إليهمُ الكتابُ فأُعطُوا العِلْمَ به. «آمِنُواْ»، يقول: صَدِّقُوا بما نزلنا إلى محمدٍ من الفرقان. «مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ»، يعني: مُحَقِّقاً للذي معكم من التوراةِ التي أنزلتها إلى موسى بن عمران. «مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهاً فَنَرُدَّهَا عَلَى أَدْبَارِهَا».

ومعنى قوله: «مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهاً»، من قبل أن نطمس أبصارَها ونمحو آثارها فنسوّيها كالأقفاء. «فَنَرُدَّهَا عَلَى أَدْبَارِهَا»، فنجعل أبصارَها في أدبارها، يعني بذلك: فنجعل الوجوهَ في أدبارِ الوجوهِ، فيكون معناه: فَنُحَوِّلُ الوجوهَ أَقْفاءً والأقفاءَ وجوهاً، فيمشون القَهْقَرى، لأنَّ الله جَلَّ ثناؤُهُ خاطبَ بهذه الآية اليهودَ الذين وَصَفَ صِفَتَهُم بقوله: «أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيباً مِّنَ الْكِتَابِ يَشْتَرُونَ ٱلضَّلَالَةَ»، ثم حَذَّرهم جلَّ ثناؤُهُ بقوله: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ آمِنُواْ بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهاً فَنَرُدَّهَا عَلَى أَدْبَارِهَا» الآية، بأسَه وسَطْوتَهُ وتعجيلَ عِقابه لهم، إنْ هُمْ لم يُؤْمِنُوا بما أمرهم بالإيمانِ به، ولا شك أنهم كانوا لَمَّا أمَرَهُم بالإيمانِ به يومئذٍ كفاراً.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٤٧﴾﴾

يعني بقوله جَلَّ ثناؤُهُ: «أَوْ نَلْعَنَهُمْ»، أو نَلْعنكم فَنُخْزِيَكُم ونجعلكم قِردةً. «كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ»، يقول: كما أخزينا الذين اعتدوا في السبتِ من أسلافكم. قِيلَ ذلك على وجهِ الخطابِ في قوله: «آمِنُواْ بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ»، كما قال: ﴿حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا﴾ [يونس: ٢٢].

وقـد يحتمل أن يكون معناه: «من قبل أن نطمسَ وجوهاً فنردَّها على أدبـارهـا»، أو نلعن أصحـابَ الـوجوهِ، فجعَل «الهاء والميم» في قوله: «أَوْ نَلْعَنَهُمْ»، من ذِكْرِ أصحابِ الوجوه، إذْ كان في الكلام دلالةٌ على ذلك.

وأما قوله: «وَكَانَ أَمْرُ ٱللهِ مَفْعُولاً»، فإنه يعني: وكانَ جميعُ ما أمرَ الله أنْ يكونَ، كائناً مخلوقاً موجوداً، لايمتنع عليه خَلْقُ شيءٍ شاءَ خَلقَهُ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تعَالَى: إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ

يعني بذلك جَلَّ ثناؤُهُ: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ آمِنُواْ بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ» ـ وإنَّ الله لايغفرُ أنْ يُشْرَكَ به، فإنَّ الله لايغفرُ الشركَ به والكفر، ويغفرُ ما دونَ ذلك الشرك لمن يشاء من أهلِ الذنوبِ والآثام.

وقد أبانت هذه الآية أنَّ كُلَّ صاحبِ كبيرةٍ ففي مشيئةِ الله، إنْ شاء عفا عنه، وإنْ شاء عاقَبَهُ عليه، ما لم تَكُنْ كبيرتُه شِرْكاً بالله.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا



يعني بذلك جَلَّ ثناؤُهُ: «وَمَن يُشْرِكْ بِالله» في عبادتهِ غَيْرَهُ مِنْ خَلْقِهِ. «فَقَدِ افْتَرَى إِثْماً عَظِيماً»، يقول: فقد اخْتَلَقَ إثماً عظيماً. وإنما جعله الله تعالى ذِكْرُهُ «مُفْترياً»، لأنه قالَ زُوراً وإفْكاً بجحودهِ وحدانيةَ الله، وإقراره بأنَّ لله شريكاً من خَلْقِه وصاحبةً أو ولداً. فقائلُ ذلك مُفترٍ. وكذلك كُلُّ كاذبٍ، فهو مُفْترٍ في كذبه مختلقٌ له.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُمْ ۚ بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَآءُ

يعني بذلك جَلَّ ثناؤُهُ: ألم تَرَ، يامحمد بقلبكَ، الذين يُزَكُّونَ أنفسهم من اليهودِ فَيُبَرِّئُونَها من الذنوبِ ويُطَهِّرُونَها.

ومعنى «تزكية القوم»، الذين وَصَفَهُمُ الله بأنهم يُزَكُّونَ أنفسهم، وَصْفهم إيَّاها بأنها لا ذنوبَ لها ولا خَطايا، وأنهم لله أبناءُ وأحِبَّاء، كما أخبرَ الله عنهم أنهم كانوا يقولونه، لأن ذلك هو أظهر معانيه، لإخبارِ الله عنهم أنهم إنما كانوا يُزَكُّونَ أنفسَهُم دون غيرها.

وأما قوله جَلَّ ثناؤُهُ: «بَلِ آلله يُزَكِّي مَن يَشَاءُ»، فإنه تكذيبٌ من المُزَكِّينَ أَنْفُسَهم من اليهودِ والنصارى، المُبَرِّئيها من الذنوب. يقولُ الله لهم: ما الأمرُ كما زعمتم أنه لا ذنوبَ لكم ولا خطايا، وأنكم بُرَآءُ مما يكرهه الله، ولكنكم أهلُ فِرْيةٍ وكَذِبٍ على الله، وليس المزكَّى مَنْ زَكَّى نَفْسَهُ، ولكنه الذي يُزَكِّيه الله، والله يُزكي مَنْ يشاء من خَلْقِه فيطهره ويبرِّئه من الذنوب، بتوفيقه لاجتناب ما يكرهه من معاصيه، إلى ما يرضاه من طاعته.

وإنما قلنا إنَّ ذلك كذلك، لقولِهِ جَلَّ ثناؤُهُ: «انظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى آلله الكَذِبَ»، وأخبر أنهم يفترون على الله الكذب بدعواهم أنهم أبناءُ الله وأحباؤه، وأن

الله قد طَهَّرهم من الذنوب.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ۝٤٩﴾

يعني بذلك جَلَّ ثناؤُهُ: ولا يظلمُ الله هؤلاء الذين أخبرَ عنهم أنهم يُزَكُّونَ أنفسهم ولا غيرهم من خَلْقـه، فَيَبْخَسهم في تَرْكِهِ تزكيتهم، وتزكية مَنْ ترك تزكيته، وفي تزكية مَنْ زكى من خَلْقِهِ - شيئاً من حقوقهم، ولا يضع شيئاً في غيرِ موضعِهِ، ولكنه يزكي مَنْ يشاء من خلقه، فيوفِّقه، ويخذل مَنْ يشاء من أهل معاصيه. كُلُّ ذلك إليه وبيده، وهو في كُلِّ ذلك غير ظالمٍ أحداً - مِمَّنْ زَكَّاهُ أو لم يُزَكِّهِ - فتيلًا.

واختلف أهلُ التأويل في معنى «الفتيل».

فقال بعضهم: هو ما خرجَ من بينِ الإصبعين والكفين من الوسخ، إذا فتلتَ إحدَاهُمَا بالأخرى.

وأناس يقولون: الذي يكون في بَطن النواة[1].

وإذْ كان ذلك كذلك - وكان الله جَلَّ ثناؤُهُ إنما قصد بقوله: «وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا»، الخبرَ عن أنه لا يظلمُ عبادَهُ أَقَلَّ الأشياء التي لا خطرَ لها، فكيف بما له خطر؟ - وكان الوسخُ الذي يخرج من بين إصبعي الرجل أو مِنْ بين كَفَّيْهِ إذا فَتَلَ إحْدَاهُمَا على الأخرى، كالذي هو في شق النواة وبطنها، وما أشبه ذلك من الأشياء التي هي مفتولةٌ، مما لا خطرَ له، ولا قيمة - فواجبٌ أنْ يكونَ كُلُّ ذلك داخلًا في معنى «الفتيل»، إلا أنْ يخرجَ شيئاً من ذلك ما يجبُ التسليمُ له، مما دَلَّ عليه ظاهرُ التنزيل.

(١) ذكر الفراء (معاني القرآن: ١/٢٧٣) والزجاج (معاني القرآن: ٢/٦٠) هذين المعنيين، ولم يُرَجِّحا أو يُوجِّها الكلام.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۖ وَكَفَىٰ بِهِۦٓ إِثْمًا مُّبِينًا ۝٥٠﴾

يعني بذلك جَلَّ ثناؤُهُ: انظر، يامحمد، كيف يفتري هؤلاء الذين يزكُّونَ أنفسهم من أهلِ الكتابِ ـ القائلونَ: «نحنُ أبناءُ الله وأَحِبَّاؤُه»، وأنه لن يدخلَ الجنةَ إلَّا مَنْ كان هُوداً أو نصارى، الزاعمونَ أنه لا ذنوبَ لهم ـ الكذبَ والزورَ من القولِ، فيختلقونه على الله. «وَكَفَى بِهِ»، يقول: وحَسْبُهم بِقيلهم ذلكَ الكذبَ والزُّورَ على الله. «إثْماً مُّبيناً»، يعني أنه يبين كذبهم لسامعيه، ويُوَضِّح لهم أنهم أفَكَةٌ فَجَرة.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ﴾

يعني بذلك جَلَّ ثناؤُهُ: ألم تَرَ به بقلبكَ، يامحمدُ، إلى الذين أُعْطُوا حظًّاً من كتابِ الله فعلموه. «يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَٱلطَّاغُوتِ»، يعني: يُصَدِّقُونَ بالجبت والطاغوت، ويكفرونَ بالله، وهُمْ يعلمونَ أنَّ الإيمانَ بهما كفرٌ، والتصديقَ بهما شِرْكٌ.

ومعنى: «يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَٱلطَّاغُوتِ»، يُصَدِّقُونَ بمعبودَيْنِ من دونِ الله، يعبدونهما من دونِ الله، ويتخذونهما إلهين.

وذلك أنَّ «الجبت» و«الطاغوت»: اسمان لِكُلِّ مُعَظَّمٍ بعبادةٍ من دونِ الله، أو طاعةٍ، أو خضوعٍ له، كائناً ما كانَ ذلك المُعَظَّم، من حجرٍ أو إنسانٍ أو شيطان. وإذْ كان ذلك كذلك، وكانت الأصنامُ التي كانت الجاهلية تعبدها،

كانت مُعَـظَّمَـةً بالعبـادةِ من دونِ الله ـ فقـد كانت جُبـوتاً وطواغيت. وكذلك الشياطينُ التي كانتِ الكفارُ تُطيعها في معصيةِ الله، وكذلك الساحرُ والكاهنُ اللذان كان مقبولاً منهما ما قالا في أهلِ الشركِ بالله. وكذلك حُيَي بن أَخْطب وكعبُ بن الأشـرف[1]، لأنهمـا كانا مُطَاعَيْنِ في أهلِ مِلَّتِهما من اليهودِ في معصيةِ الله والكفر به وبرسوله، فكانا جِبْتَيْنِ وطاغوتين[2].

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَـالَى: ﴿وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَٰؤُلَاءِ أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا ﴿٥١﴾﴾

يعني بذلك جَلَّ ثناؤُهُ: ويقولون للذين جَحَدُوا وحدانيةَ الله ورسالةَ رسولهِ محمــدٍ ﷺ ـ: «هَؤلاءِ»، يعني بذلـك: هؤلاء الـذين وصفهم الله بالكفـر. «أَهْدَى»، يعني: أقوم وأعدل. «مِنَ الَّذِينَ آمَنُواْ»، يعني: من الذين صَدَّقُوا الله ورسولَهُ وأقرُّوا بما جاءهم به نبيهم محمد ﷺ. «سَبِيلاً»، يعني: طريقاً.

وإنما ذلك مَثَلٌ. ومعنى الكلام: أنَّ الله وصفَ الذين أُوتوا نصيباً من الكتابِ من اليهودِ ـ بتعظيمِهم غيرَ الله بالعبادةِ والإذعان له بالطاعة ـ في الكفرِ بالله ورسوله ومعصيتهما، بأنهم قالوا: إنَّ أهلَ الكفرِ بالله أوْلى بالحقِّ من أهلِ الإيمانِ به، وأنَّ دينَ أهلِ التكذيبِ لله ولرسوله، أعدلُ وأصوبُ من دين أهلِ التصديقِ لله ولرسوله.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ ۖ وَمَن يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا ﴿٥٢﴾﴾

---

(١) من زعمـاء يهود على عهد رسول الله ﷺ، وجزم الفراء بأنهما مَنْ عُنِيا بهذه الآية (معاني القرآن: ١/٢٧٣).

(٢) هذا المعنى العام ذكره الزجاج في: (معاني القرآن: ٢/٦١).

يعني جَلَّ ثناؤُهُ بقوله: «أُوْلئِكَ»، هؤلاء الذين وَصَفَ صِفَتَهُم أنهم أُوتوا نصيباً من الكتابِ وهم يؤمنون بالجِبْتِ والطاغوت، هُمُ «الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللهُ»، يقول: أخزاهم الله فأبعدهم من رحمتهِ، بإيمانِهم بالجبتِ والطاغوتِ، وكُفْرِهم بالله ورسولهِ عِناداً منهم لله ولرسوله، وبقولهم للذين كفروا: ﴿هَؤُلاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُواْ سَبِيلاً﴾. «وَمَن يَلْعَنِ اللهُ»، يقول: ومَنْ يُخْزِهِ الله فيبعده من رحمته. «فَلَن تَجِدَ لَهُ نَصِيراً»، يقول: فلن تجدَ له، يامحمدُ، ناصراً ينصرهُ من عقوبةِ الله ولعنتهِ التي تحلُّ به، فيدفع ذلك عنه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ ٱلْمُلْكِ فَإِذًا لَّا يُؤْتُونَ ٱلنَّاسَ نَقِيرًا ۝٥٣﴾

يعني بقوله جَلَّ ثناؤُهُ: «أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ الْمُلْكِ»، أم لهم حَظٌّ من المُلْكِ، يقول: ليس لهم حَظٌّ من الملك.

واختلف أهلُ التأويل في معنى: «النقير».

فقال بعضهم: هو النقطة التي في ظهر النواة.

وقال آخرون: «النقير»، الحبة التي تكون في وَسَط النواة.

وأَوْلى الأقوالِ في ذلك بالصواب أنْ يُقالَ: إنَّ الله وصفَ هؤلاء الفرْقة من أهلِ الكتابِ بالبُخْلِ باليسيرِ من الشيءِ الذي لا خَطَرَ له، ولو كانوا ملوكاً وأهلَ قدرةٍ على الأشياء الجليلة الأقدار.

فإذْ كان ذلك كذلك، فالذي هو أَوْلى بمعنى «النقير»، أنْ يكونَ أصغرَ ما يكون من النُّقر. وإذا كان ذلك أولى به، فالنقرةُ التي في ظهر النواة من صغار النُّقر، وقد يدخل في ذلك كُلُّ ما شَاكلها من النُّقر.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾

يعني بقوله جَلَّ ثناؤُهُ: «أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ»، أم يَحْسُدُ هؤلاء الذين أُوتُوا نصيباً من الكتابِ من اليهود.

وأما قوله: «النَّاسَ»، فإنَّ أهلَ التأويل اختلفوا فيمن عَنَى الله به.

فقال بعضهم: عَنَى الله بذلك محمداً ﷺ خاصةً.

وقال آخرون: بل عَنَى الله به العربَ.

وأَوْلى الأقوال في ذلك بالصواب أن يُقالَ: إنَّ الله عاتبَ اليهودَ الذين وصف صِفَتَهم في هذه الآياتِ، فقال لهم في قِيلهم للمشركين من عَبَدَةِ الأوثان إنهم أهدى من محمدٍ وأصحابه سبيلاً، على عِلْمٍ منهم بأنهم في قِيلهم ما قالوا من ذلك كَذَبَةٌ: أتحسدون محمداً وأصحابه على ما آتاهم الله من فضله.

وإنما قلنا ذلك أولى بالصواب، لأنَّ ما قَبْلَ قولِهِ: «أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ الله مِن فَضْلِهِ»، مضى بِذَمِّ القائلينَ من اليهودِ للذين كفروا: «هَؤلاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُواْ سَبِيلاً»، فإلحاقُ قولِهِ: «أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ الله مِن فَضْلِهِ»، بذمِّهم على ذلكَ، وتقريظ الذين آمنوا الذين قِيلَ فيهم ما قِيلَ - أشبهُ وأَوْلى، ما لم تأتِ دلالةٌ على انصرافِ معناهُ عن معنى ذلك.

واختلف أهلُ التأويل في «الفضل» الذي أخبر الله أنه آتى الذينَ ذكرهم في قوله: «أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ الله مِن فَضْلِهِ».

فقال بعضهم: ذلك «الفضلُ»، هو النبوّةُ.

وقال آخرون: بل ذلك «الفضل» الذي ذكر الله أنه آتاهُمُوهُ، هو إباحتهُ ما أباحَ لنبيهِ محمدٍ ﷺ من النساء، ينكحُ منهن ما شاءَ بغير عدد. قالوا: وإنما يعني: بـ«النَّاسَ»، محمداً ﷺ، على ما ذَكرتُ قبل(١).

وأولى التأويلين في ذلك بالصواب، قولُ مَنْ قال: إنَّ معنى «الفضل» في هذا الموضع: النبوَّةُ التي فَضَّلَ الله بها محمداً، وشَرَّفَ بها العربَ، إذ آتاها رجلاً منهم دون غيرهم ـ لِما ذكرنا مِنْ أنَّ دلالةَ ظاهرِ هذه الآيةِ، تدلُّ على أنها تقريظٌ للنبيِّ ﷺ وأصحابه رحمةُ الله عليهم، على ما قَدْ بَيَّنا قَبْلُ. وليس النكاح وتزويجَ النساء، وإنْ كان من فَضْلِ الله جَلَّ ثناؤُهُ الذي آتاهُ عبادَهُ ـ بتقريظٍ لهم ومدح.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا ۝٥٤﴾

يعني بذلك جَلَّ ثناؤُهُ: أمْ يَحسدُ هؤلاء اليهودُ ـ الذين وصف صِفَتهم في هذه الآياتِ ـ الناسَ على ما آتاهمُ الله من فضلهِ، مِنْ أجلِ أنهم ليسوا منهم؟ فكيفَ لا يحسدونَ آلَ إبراهيم، فقد آتيناهمُ الكتابَ. ويعني بقوله: «فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إبْراهِيمَ»، فقد أعطينا آلَ إبراهيم، يعني: أهلَهُ وأتباعَهُ على دينهِ «الْكِتَابَ»، يعني كتابَ الله الذي أوحاهُ إليهم، وذلك كصحفِ إبراهيمَ وموسى والزّبور، وسائر ما آتاهم من الكتب.

وأما «الحكمة»، فما أوْحَى إليهم مما لم يَكُنْ كتاباً مقروءاً. «وَآتَيْنَاهُم مُلْكاً عَظِيمًا».

---

(١) هذا رأي الفـراء في: (معاني القرآن: ١/٢٧٥)، وذكر الزجاج القولين ولم يرجح (معاني القرآن: ٢/٦٤).

واختلف أهلُ التأويل في معنى «الملك العظيم» الذي عَنَاهُ الله في هذه الآية.

فقال بعضهم: هو النبوّةُ.

وقال آخرون: بل ذلك تحليلُ النساء. قالوا: وإنما عَنَى الله بذلك: أمْ يحسدونَ محمداً على ما أحَلَّ الله له من النساء، فقد أحَلَّ الله مِثْلَ الذي أحَلَّهُ له منهن، لداودَ وسليمانَ وغيرهم من الأنبياء، فكيف لم يَحْسُدوهم على ذلكَ، وحَسَدُوا محمداً عليه السلام؟

وقال آخرون: بل معنى قوله: «وَآتَيْنَاهُم مُّلْكاً عَظِيمًا»، الذي آتى سليمانَ ابن داود.

وقال آخرون: بل كانوا أُيِّدُوا بالملائكة.

وأَوْلى هذه الأقوالِ بتأويلِ الآية وهي قوله: «وَآتَيْنَاهُم مُّلْكاً عَظِيمًا» قول مَنْ قال: «يعني ملك سليمان». لأنَّ ذلك هو المعروفُ في كلامِ العربِ، دونَ الذي قال إنه مُلْكُ النبوّةِ، ودونَ قولِ مَنْ قال: إنه تحليلُ النساء والملك عليهن. لأنَّ كلامَ الله الذي خُوطِبَ به العربُ، غيرُ جائزٍ توجيههُ إلَّا إلى المعروف المستعمل فيهم من معانيه، إلَّا أنْ تأتيَ دلالةٌ أو تقومُ حُجَّةٌ على أنَّ ذلك بخِلافِ ذلك، يجبُ التسليم لها.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ عَزَّ وجلَّ: فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُۚ وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا ﴿٥٥﴾

يعني بذلك جَلَّ ثناؤُهُ: فمن الذين أوتوا الكتاب من يهودِ بني إسرائيل، الذين قال لهم جَلَّ ثناؤُهُ: «آمِنواْ بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ

وُجُوهاً فَنَرُدَّهَا عَلَى أَدْبَارِهَا». «مَّنْ آمَنَ بِهِ»، يقول: مَنْ صدَّق بما أنزلنا على محمدٍ ﷺ مصدِّقاً لما معهم. «وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُ»، ومنهم من أعرَض عن التصديقِ به.

وفي هذه الآية دلالةٌ على أنَّ الذين صَدُّوا عما أنزل الله على محمدٍ ﷺ، من يهود بني إسرائيل الذين كانوا حوالَيْ مُهَاجَرِ رسولِ الله ﷺ، إنما رَفَعَ عنهم وعيدَ الله الذي تَوَعَّدَهُم به في قوله: ﴿آمِنُواْ بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقاً لِمَا مَعَكُمْ مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهاً فَنَرُدَّهَا عَلَى أَدْبَارِهَا أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ وَكَانَ أَمْرُ ٱللهِ مَفْعُولاً﴾ - في الدنيا، وأخرت عقوبتهم إلى يوم القيامةِ، لإيمانِ مَنْ آمنَ منهم، وأنَّ الوعيدَ لهم من الله بتعجيلِ العقوبةِ في الدنيا، إنما كان على مقام جميعهم على الكفرِ بما أنزل على نبيه محمدٍ ﷺ. فلما آمَنَ بعضُهم، خرجوا من الوعيدِ الذي توعَّدهُ في عاجلِ الدنيا، وأخرت عقوبةُ المقيمينَ على التكذيبِ إلى الآخرة، فقال لهم: كَفَاكُمْ بجهنمَ سعيراً.

ويعني بقوله: «وَكَفَى بِجَهنَّمَ سَعِيراً»، وحَسْبُكم، أيها المُكَذِّبونَ بما أنزلتُ على محمد نبيٍّ ورسولي. «بِجَهنَّمَ سَعِيرًا»، يعني: بنارِ جهنمَ، تُسَعَّرُ عليكم. أي: تُوقَدُ عليكم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَـٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ

هذا وعيدٌ من الله جَلَّ ثناؤُهُ للذين أقامُوا على تَكْذيبهم بما أنزلَ الله على محمدٍ من يهودِ بني إسرائيلَ وغيرهم من سائرِ الكفارِ، وبرسولِه. يقولُ الله لهم: إنَّ الذين جَحَدُوا ما أنزلتُ على رسولي محمدٍ ﷺ، من آياتي - يعني: من آياتِ تنزيلِه، ووَحي كتابه، وهي دلالاتُه وحُجَجُهُ على صِدْقِ محمدٍ ﷺ - فلم

يُصَـدِّقُوا به من يهودِ بني إسرائيل وغيرهم من سائرِ أهلِ الكفرِ به. «سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَاراً»، يقول: سوف نُنْضِجُهم في نارٍ يُصلون فيها ـ أي يشوون فيها ـ «كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ»، يقول: كلما انشوتْ بها جُلودُهُم فاحترقتْ. «بَدَّلْنَاهُمْ جُلُوداً غَيْرَهَا»، يعني: غيرَ الجلودِ التي قد نضجت فانشوت.

فإنْ سألَ سائل فقال: وما معنى قوله جَلَّ ثناؤُهُ: «كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُوداً غَيْرَهَا لِيَذُوقُواْ الْعَذَابَ»؟ وهل يجوز أنْ يُبَدَّلُوا جلوداً غيرَ جلودهم التي كانت لهم في الدنيا، فَيُعَذَّبُوا فيها؟ فإنْ جاز ذلك عندك، فأجزْ أنْ يُبدَّلوا أجساماً وأرواحاً غيرَ أجسامِهم وأرواحِهم التي كانت لهم في الدنيا فتعذَّب! وإنْ أجزتَ ذلك، لَزِمَكَ أنْ يكونَ المعذبون في الآخرة بالنار، غيرُ الذين أوعدهم الله العقابَ على كفرهم به ومعصيتهم إياه، وأنْ يكون الكفار قد ارتفعَ عنهم العذاب!!

قيل: إنَّ الناسَ اختلفوا في معنى ذلك.

فقال بعضهم: العـذاب إنما يصل إلى الإنسان الذي هو غير الجلد واللحم، وإنمـا يحـرق الجلد ليصـلَ إلى الإنسانِ ألمُ العذاب. وأما الجلد واللحم، فلا يألمان. قالوا: فسواءٌ أُعيدَ على الكافرِ جِلْدُهُ الذي كان له في الدنيا أو جلدٌ غيره، إذْ كانت الجلودُ غير آلمةٍ ولا معذَّبةٍ، وإنما الآلمةُ المعذبةُ: النفسُ التي تُحِسُّ الألمَ، ويصلُ إليها الوجعُ. قالوا: وإذا كان ذلك كذلك، فغيرُ مستحيلٍ أنْ يُخْلق لِكُلِّ كافرٍ في النار في كل لحظةٍ وساعةٍ من الجلود مالا يُحْصَى عَدَدُهُ، ويحرق ذلك عليه، ليصلَ إلى نَفْسِه ألمُ العذابِ، إذْ كانت الجلودُ لا تألَمُ.

وقال آخرون: بل الجلودُ تَأْلَمُ، واللحمُ وسائرُ أجزاء جِرْم بني آدم. وإذا أحـرقَ جلدهُ أو غيره من أجزاء جسده، وصَلَ ألمُ ذلك إلى جميعه. قالوا·

ومعنى قوله: «كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بدَّلْنَاهم جُلُوداً غَيْرَهَا»: بَدَّلْنَاهم جلوداً غيرَ محترقةٍ. وذلك أنها تُعَادُ جديدةً، والأولى كانت قد احترقتْ، فأُعيدت غيرَ محترقةٍ، فلذلك قيل: «غَيْرَهَا»، لأنها غير الجلود التي كانت لهم في الدنيا، التي عصوا الله وهي لهم. قالوا: وذلك نظيرُ قولِ العربِ للصّائغ إذا استصاغته خاتماً من خَاتمٍ مَصُوغٍ، بتحويلهِ عن صياغتهِ التي هُوَ بها، إلى صياغةٍ أخرى: «صُغ لي من هذا الخاتم خاتماً غيره»، فيكسره ويصوغُ له منه خاتماً غيره، والخاتمُ المَصُوغُ بالصّياغة الثانية هو الأول، ولكنه لما أُعيدَ بعد كسره خاتماً قيل: «هو غيره». قالوا: فكذلك معنى قوله: «كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُوداً غَيْرَهَا»، لما احترقت الجلود ثم أُعيدت جديدةً بعد الاحتراق، قيل: «هي غيرها»، على ذلك المعنى[1].

وقال آخرون: معنى قوله: «كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ»، سرابيلهم، بَدَّلناهم سرابيلَ من قَطِرانٍ غيرها. فَجُعِلَت السرابيلُ [من] القطران لهم جلوداً، كما يقالُ للشيء الخاص بالإنسان: «هو جِلدة ما بين عينيه ووجهه»، لخصُوصهِ به. قالوا: فكذلك سرابيلُ القطران التي قال الله في كتابه: ﴿سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ النَّارُ﴾ [إبراهيم: ٥٠]، لَمَّا صارتْ لهم لباساً لا تفارقُ أجسامَهم، جُعِلَتْ لهم جُلوداً، فقيل: كلما اشتعلَ القَطِرانُ في أجسامهم احترقَ، بُدِّلُوا سرابيلَ من قطرانٍ آخرَ. قالوا: وأما جلودُ أهلِ الكفرِ من أهلِ النارِ، فإنها لا تحترقُ، لأنَّ في احتراقها - إلى حال إعادتها - فناءَها، وفي فنائها رَاحتها. قالوا: وقد أخبر الله تعالى ذِكْرُهُ عنها: أنهم لايموتونَ ولا يُخَفَّفُ عنهم من عذابها. قالوا: وجلودُ الكفار أحد أجسامهم، ولو جازَ أنْ يحترقَ منها شيءٌ فيفنى ثم يُعاد بعد الفناء في النار، جاز ذلك في جميع أجزائها. وإذا جاز ذلك، وَجَبَ أنْ يكونَ جائزاً عليهم الفناءُ، ثم الإعادةُ والموتُ، ثم

(١) انظر قريباً من هذا المعنى عند الزجاج في: (معاني القرآن: ٢/٦٥).

الإحياءُ، وقد أخبر الله عنهم أنهم لايموتون. قالوا: وفي خبرهِ عنهم أنهم لا يموتون، دليلٌ واضحٌ أنه لايموتُ شيءٌ من أجزاءِ أجسامِهم، والجلودُ أحدُ تلك الأجزاء.

وأما معنى قوله: «لِيَذُوقُواْ الْعَذَابَ»، فإنه يقول: فَعَلْنَا ذلكَ بهم، ليجدوا ألمَ العذابِ وكَرْبَهُ وشِدَّتَهُ، بما كانوا في الدنيا يُكَذِّبُونَ آياتِ الله ويجحدونها.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٥٦﴾

يقـول: إنَّ الله لم يزلْ «عَزِيزاً» في انتقامه ممن انتقم منه من خَلْقِه، لايقدرُ على الامتناعِ منه أحدٌ أرادَه بِضُرٍ، ولا الانتصار منه أحدٌ أحَلَّ به عقوبةً. «حَكِيماً» في تدبيرِهِ وقضائِهِ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ لَّهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا ﴿٥٧﴾

يعني بقوله جَلَّ ثناؤُهُ: «وَالَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ»، والذين آمنوا بالله ورسولِهِ محمدٍ ﷺ، وصَدَّقُوا بما أنزلَ الله على محمدٍ مصدِّقاً لما معهم من يهود بني إسرائيل وسائر الأمم غيرهم «وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ»، يقول: وأدَّوا ما أمرهم الله به من فرائضهِ، واجتنبوا ما حرَّمَ الله عليهم من معاصيه، وذلك هو «الصالـح» من أعمالهم. «سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ»، يقول: سوف يُدْخلهم الله يومَ القيامة. «جَنَّاتٍ»، يعني: بساتينَ. «تَجْري مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ»، يقولُ: تجري من تحتِ تلك الجناتِ الأنهارُ. «خَالِدِينَ فِيهَا

أَبَداً»، يقول: باقينَ فيها أبداً بغيرِ نهايةٍ ولا انقطاعٍ، دائماً ذلك لهم فيها أبداً. «لَّهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ»، يقول: لهم في تلك الجنات التي وَصَفَ صِفَتَها. «أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ»، يعني: بريئات من الأدناسِ والرِّيْبِ والحيضِ والغائطِ والبولِ والحَبَلِ والبُصاقِ، وسائرِ ما يكونُ في نساءِ أهلِ الدنيا.

وأما قوله: «وَنُدْخِلُهُمْ ظِلاًّ ظَلِيلاً»، فإنه يقولُ: وندخلهم ظلاً كَنِيناً، كما قال جَلَّ ثناؤُهُ: ﴿وَظِلٍّ مَمْدُودٍ﴾ [الواقعة: ٣٠].

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ﴾

هو خطابٌ من الله ولاةَ أمورِ المسلمين بأداءِ الأمانةِ إلى مَنْ وَلُوا أَمْرَهُ في فَيْئِهم وحقوقِهم، وما ائْتُمِنُوا عليه من أمورهم، بالعدلِ بينهم في القضية، والقَسْم بينهم بالسويَّة. يدلُّ على ذلك ما وَعظ به الرعيةَ في: ﴿أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنْكُم﴾، فأمرهم بطاعتهم، وأوصى الرَّاعِيَ بالرعيةِ، وأوصى الرعيةَ بالطاعةِ.

فتأويل الآية إذاً ـ إذْ كانَ الأمرُ على ما وَصَفْنَا ـ: إنَّ الله يأمركم، يا معشرَ وُلَاةِ أمورِ المسلمينَ، أنْ تُؤَدُّوا ما ائْتَمَنَتْكُمْ عليه رَعِيَّتُكُم من فَيْئِهم وحُقوقِهم وأموالِهم وصدقاتِهم إليهم، على ما أَمَرَكُم الله بأداءِ كُلِّ شيءٍ من ذلك مَنْ هوَ له، بعد أنْ تصيرَ في أيديكم، لا تظلموها أهلَها، ولا تستأثروا بشيءٍ منها، ولا تضعوا شيئاً منها في غيرِ موضعهِ، ولا تأخذوها إلَّا مِمَّنْ أَذِنَ الله لكم بأخذها منه قبل أنْ تصيرَ في أيديكم، ويأمركم إذا حكمتمْ بين رعيتكم أنْ تَحْكُموا بينهم بالعدلِ والإنصافِ، وذلك حكمُ الله الذي أنزله في كتابه، وبَيَّنَهُ على لسانِ رسولهِ، لا تَعْدُوا ذلك فتجورُوا عليهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾



يعني بذلك جَلَّ ثناؤُهُ: يا معشرَ وُلاةِ أمورِ المسلمينَ، إنَّ الله نِعْمَ الشيء يَعِظُكم به، ونِعْمَتِ العِظَةُ يَعِظُكم بها في أمرِهِ إياكم أنْ تُؤَدُّوا الأماناتِ إلى أهلها، وأنْ تحكموا بين الناسِ بالعدلِ. «إنَّ الله كَانَ سَمِيعاً»، يقول: إنَّ الله لم يَزَلْ سميعاً بما تقولونَ وتنطقونَ، وهو سميعٌ لذلك منكم إذا حكمتم بين الناسِ ولِمَا تُحاورونهم به. «بَصِيراً» بما تفعلون فيما ائْتُمِنْتُمْ عليه من حقوقِ رعيتكم وأموالهم، وما تقضون به بينهم من أحكامكم: بعدلٍ تحكمونَ أو جَوْرٍ، لا يَخْفى عليه شيءٌ من ذلك، حافظٌ ذلك كُلَّهُ، حتى يجازي مُحْسِنَكُم بإحسانِهِ، ومسيئكم بإساءته، أو يعفو بفضله.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ﴾

يعني بذلك جَلَّ ثناؤُهُ: يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله رَبَّكم فيما أَمَرَكُمْ به وفيما نهاكم عنه، وأطيعوا رسولَهُ محمداً ﷺ، فإنَّ في طاعتكم إياهُ لربكم طاعة، وذلك أنكم تطيعونه لأمرِ الله إياكم بطاعته.

وهو أمرٌ من الله بطاعةِ رسولِهِ في حياتِهِ فيما أمَرَ ونهى، وبعد وفاته باتباعِ سُنَّتِهِ. وذلك أنَّ الله عَمَّ بالأمر بطاعته، لم يخصصْ بذلك في حالٍ دون حالٍ، فهو على العموم حتى يخصَّ ذلك ما يجبُ التسليم له.

واختلف أهلُ التأويل في «أولى الأمر» الذين أمر الله عبادَهُ بطاعتهم في هذه الآية.

فقال بعضهم: هم الأمراء.

وقال آخرون: هم أهلُ العلم والفقة.

وقال آخرون: هم أصحابُ محمدٍ ﷺ.

وقال آخرون: هم أبو بكر وعمر رحمهما الله.

وأوْلى الأقوال في ذلك بالصواب، قولُ مَنْ قال: هم الأمراء والولاةُ لصحةِ الأخبارِ عن رسولِ الله ﷺ بالأمرِ بطاعةِ الأئمةِ والولاةِ فيما كان [لله] طاعةً، وللمسلمينَ مصلحةً، كالذي حدثنا ابن المثنى قال: حدثنا يحيى، عن عبيدالله قال: أخبرني نافع، عن عبدالله، عن النبي ﷺ قال: «على المرء المسلم، الطاعةُ فيما أَحَبَّ وكَرِهَ، إلاَّ أنْ يُؤْمَرَ بمعصيةٍ، فمن أمر بمعصية فلا طاعة»[1].

فإذْ كان معلوماً أنه لا طاعة واجبة لأحدٍ غير الله أو رسوله أو إمامٍ عادل، وكان الله قد أمر بقوله: «أَطِيعُوا الله وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنْكُمْ» بطاعة ذَوِي أمرنا ـ كان معلوماً أنَّ الذين أمرَ بطاعتهم تعالى ذِكْرُهُ من ذوي أمرنا، هم الأئمةُ ومن ولَّوْه المسلمينَ، دونَ غيرِهم من الناسِ، وإنْ كان فرضاً القبولُ من كُلِّ مَنْ أمر بتركِ معصيةِ الله ودعا إلى طاعةِ الله، وأنه لا طاعةَ تَجبُ لأحدٍ فيما أمَرَ ونهى فيما لم تَقُمْ حجةُ وجوبِهِ، إلاَّ للأئمةِ الذين ألزمَ الله عبادَهُ طاعتهم فيما أمروا به رَعِيَّتَهم مما هو مصلحةٌ لعامةِ الرعيَّة، فإنَّ على مَنْ أمروه بذلك طاعتهم، وكذلك في كُلِّ ما لم يكنْ لله معصية.

وإذْ كان ذلك كذلك، كان معلوماً بذلك صحةُ ما اخترنا من التأويلِ دونَ غيرِه.

---

(١) هو في الصحيحين: البخاري (٢٩٥٥) و(٧١٤٢)، ومسلم (١٨٣٩). وابن المثنى هو محمد بن المثنى العنزي، ويحيى هو ابن سعيد القطان، وعبيدالله هو ابن عمر ابن حفص بن عاصم بن عمر بن الخطاب، ونافع هو مولى ابن عمر، وعبدالله هو ابن عمر بن الخطاب.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ﴾

يعني بذلك جَلَّ ثناؤُهُ: فإن اختلفتم، أيها المؤمنونَ، في شيءٍ من أمرِ دينكم: أنتم فيما بينكم، أو أنتم وولاة أمرِكم، فاشْتَجَرْتُمْ فيه. «فَرُدُّوهُ الَى الله»، يعني بذلك: فارتادوا معرفةَ حُكْمِ ذلك الذي اشتجرتم ـ أنتم بينكم، أو أنتم وأُولُو أمْرِكُم ـ فيه من عند الله، يعني بذلك: من كتابِ الله، فاتَّبِعُوا ما وجدتم. وأما قوله: «وَالرَّسُولِ»، فإنه يقول: فإنْ لم تجدوا إلى عِلْمِ ذلك في كتابِ الله سبيلاً، فارتادوا معرفةَ ذلك أيضاً من عند الرسولِ إنْ كان حياً، وإنْ كان ميتاً فمن سُنَّتِه. «إن كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِالله وَاليَوْمِ الآخِرِ»، يقول: افعلوا ذلك إنْ كنتم تُصَدِّقُونَ بالله. «وَاليَوْمِ الآخِرِ»، يعني: بالمعادِ الذي فيه الثوابُ والعقابُ، فإنكم إنْ فعلتم ما أمرتم به من ذلك. فَلَكُم من الله الجزيل من الثواب، وإنْ لم تفعلوا ذلك فلكم الأليم من العقاب.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا ۝٥٩﴾

يعني بقوله جَلَّ ثناؤُهُ: «ذلِكَ»، فَرَدُّ ما تنازعتم فيه من شيءٍ إلى الله والرسول، «خَيْرٌ» لكم عند الله في مَعادِكم، وأصلحُ لكم في دنياكم، لأنَّ ذلك يدعوكم إلى الأُلْفَةِ، وتَرْكِ التنازعِ والفرقةِ. «وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً»، يعني: وأحمدُ مَوْئِلاً ومغبَّةً، وأجملُ عاقبة.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزۡعُمُونَ أَنَّهُمۡ ءَامَنُواْ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدۡ

أُمِرُوٓاْ أَن يَكۡفُرُواْ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمۡ ضَلَٰلَۢا بَعِيدٗا ﴿٦٠﴾

يعني بذلك جَلَّ ثناؤُهُ: «أَلَمْ تَرَ»، يا محمد، بقلبكَ، فتعلم - إلى الذين يزعمون أنهم صَدَّقُوا بما أُنزلَ إليك من الكتاب، وإلى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أُنزلَ من قَبْلِكَ من الكتب، يريدون أنْ يتحاكموا في خصومتهم إلى الطاغوت - يعني إلى: مَنْ يُعَظِّمُونَهُ، ويَصْدُرونَ عن قولِهِ، ويَرْضونَ بحكمهِ من دونَ حُكْمِ الله، «وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ»، يقول: وقد أمرهم الله أنْ يكذبوا بما جاءهم به الطاغوتُ الذي يتحاكمونَ إليه، فتركوا أمرَ الله واتبعوا أمرَ الشيطان. «وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلالاً بَعِيداً»، يعني: أن الشيطان يريدُ أن يصدَّ هؤلاء المتحاكمينَ إلى الطاغوتِ عن سبيلِ الحق والهدى، فيضلهم عنها، «ضَلالاً بَعِيداً» يعني: فيجور بهم جوراً شديداً.

وقد ذكر أنَّ هذه الآية نزلتْ في رجلٍ من المنافقين دعا رجلاً من اليهود في خصومةٍ كانت بينهما إلى بعضِ الكُهَّان، ليحكمَ بينهم، ورسولُ الله ﷺ بين أظْهُرِهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيۡتَ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودٗا ﴿٦١﴾

يعني بذلك جَلَّ ثناؤُهُ: ألم تَرَ، يا محمدُ، إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أُنزلَ إليكَ من المنافقين، وإلى الذين يزعمونَ أنهم آمنوا بما أُنزلَ من قَبْلِكَ من أهلِ الكتابِ، يريدون أنْ يتحاكموا إلى الطاغوت. «وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوا إِلَى مَا أَنْزَلَ الله»، يعني بذلك: «وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوا»، هَلُمُّوا إلى حُكْمِ الله الذي أنزله في كتابه، وإلى الرسول ليحكم بيننا. «رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ

عَنْكَ»، يعني بذلك: يمتنعون من المصيرِ إليكَ لِتَحْكُمَ بينهم، ويَمنعونَ من المصير إليكَ كذلك غيرَهُم. «صُدُوداً».

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَالَى: ﴿فَكَيْفَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَآءُوكَ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّآ إِحْسَٰنًا وَتَوْفِيقًا ﴿٦٢﴾﴾

يعني بذلك جَلَّ ثناؤُهُ: فكيف بهؤلاء الذين يُريدونَ أنْ يتحاكموا إلى الطاغوت، وهم يزعمون أنهم آمنوا بما أُنزلَ إليك وما أُنزلَ من قبلك. «إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ»، يعني: إذا نزلت بهم نقمةٌ من الله. «بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ»، يعني: بذنـوبهم التي سَلَفَتْ منهم. «ثُمَّ جَاؤوكَ يَحْلِفُـونَ باللهِ»، يقول: ثم جاؤوك يحلفونَ بالله كذباً وزوراً. «إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَاناً وَتَوْفِيقاً». وهذا خبرٌ من الله تعالى ذِكْرُهُ عن هؤلاء المنافقين أنهم لا يردعهم عن النفاقِ العِبر والنِّقم، وأنهم إنْ تَأْتِهم عقوبةٌ من الله على تحاكمهم إلى الطاغوتِ لم يُنِيبُوا ولم يتوبوا، ولكنهم يَحلفونَ بالله كذباً وجرأةً على الله: ما أردنا باحتكامِنَا إليهِ إلَّا الإحسانَ من بعضنا إلى بعضٍ، والصوابَ فيما احتكمنا فيه إليه.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَالَى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَعْلَمُ ٱللَّهُ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ قَوْلًۢا بَلِيغًا ﴿٦٣﴾﴾

يعني جَلَّ ثناؤُهُ بقوله: «أُوْلَئِكَ»، هؤلاء المنافقونَ الذينَ وصفتُ لكَ، يا محمـدُ، صِفَتَهم - «يَعْلَمُ الله مَا فِي قُلُوبِهِمْ» في احتكـامهم إلى الطاغوت،

وتركهم الاحتكامَ إليك، وصدودهم عنكَ ـ من النفاقِ والزيغِ ، وإنْ حلفوا بالله: ما أردنا إلَّا إحساناً وتوفيقاً. «فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ»، يقول: فَدَعْهُم فلا تُعَاقِبْهُمْ في أبدانهم وأجسامهم، ولكن عِظْهم بتخويفكَ إياهم بأسَ الله أنْ يحَلَّ بهم، وعقوبته أنْ تنزلَ بدارهم، وحَذِّرْهُمْ من مكروهِ ما هُمْ عليه من الشكِّ في أمرِ الله وأمرِ رسولِهِ. «وَقُل لَّهُمْ فِي أَنفُسِهِمْ قَوْلاً بَلِيغاً»، يقول: مُرْهُمْ باتقاءِ الله والتصديقِ به وبرسولِهِ ووعدهِ ووعيده.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾

يعني بذلك جَلَّ ثناؤُهُ: ولم نُرْسِلْ، يا محمد، رسولاً إلَّا فرضتُ طاعتَهُ على مَنْ أرسلتهُ إليه، يقول تعالى ذِكْرُهُ: فأنتَ، يا محمد، من الرُّسُلِ الذين فرضتُ طاعتهم على مَنْ أرسلتهُ إليه.

وإنما هذا من الله توبيخٌ للمحتكمينَ من المنافقينَ ـ الذين كانوا يزعمون أنهم يؤمنون بما أنزل إلى النبي ﷺ ـ فيما اختصموا فيه إلى الطاغوت، صُدوداً عن رسولِ الله ﷺ. يقولُ لهم تعالى ذِكْرُهُ: ما أرسلتُ رسولاً إلَّا فرضتُ طاعتَهُ على مَنْ أرسلتهُ إليه، فمحمدٌ ﷺ من أولئك الرسل، فَمَنْ تركَ طاعته والرِّضَى بحكمِهِ واحتكَمَ إلى الطاغوتِ، فقد خالفَ أمري، وضيَّع فرضي.

ثم أخبـر جَلَّ ثناؤُهُ: أنَّ مَنْ أطاعَ رسله، فإنما يطيعهم بإذنه ـ يعني: بتقديرِهِ ذلك وقضائِه السابق في عِلْمِهِ ومشيئته.

وإنما هذا تعريضٌ من الله تعالى ذِكْرُهُ لهؤلاء المنافقين، بأنَّ تَرْكَهُم طاعةَ الله وطـاعةَ رسولِهِ والرِّضَى بحكمِهِ، إنما هو للسابقِ لهم من خِذْلانِهِ وغَلَبةِ الشقاءِ

عليهم، ولولا ذلك لكانوا ممن أَذِنَ له في الرِّضَى بحكمِهِ، والمسارعةِ إلى طاعتِهِ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴿٦٤﴾﴾

يعني بذلك جَلَّ ثناؤُهُ: ولو أنَّ هؤلاء المنافقينَ ـ الذين وصفَ صِفَتهم في هاتين الآيتين، الذين إذا دُعُوا إلى حُكْمِ الله وحكمِ رسولهِ صَدُّوا صدوداً، «إِذ ظَّلَمُــوا أَنفُسَهُمْ»، باكتسابِهم إياها العظيم من الإثمِ في احتكامهم إلى الطاغوت، وصدودهم عن كتابِ الله وسنةِ رسولهِ إذا دُعُوا إليها، «جَاؤوكَ»، يا محمدُ، حين فَعَلُوا ما فعلوا من مصيرهم إلى الطاغوتِ راضينَ بحكمِهِ دون حُكْمِكَ، جاؤوكَ تائبينَ مُنيبينَ، فسألوا الله أنْ يصفحَ لهم عن عقوبةِ ذَنْبهم بتغطيته عليهم، وسألَ لهم الله رسولُه ﷺ مِثْلَ ذلك. وذلك هو معنى قوله: «فَاسْتَغْفَرُوا الله وَاسْتَغْفَرَ لَهُمْ الرَّسُولُ».

وأما قوله: «لَوَجَدُوا الله تَوَّاباً رَّحِيماً»، فإنه يقول: لو كانوا فعلوا ذلك فتابوا من ذَنْبِهم. «لَوَجَدُوا الله تَوَّاباً»، يقول: راجعاً لهم مما يَكرهونَ إلى ما يُحِبُّون. «رَّحِيماً» بهم، في تركهِ عقوبَتهم على ذَنْبِهم الذي تابُوا منه.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَـالَى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾

يعني جَلَّ ثناؤهُ بقوله: «فَلَا»، فليس الأمرُ كما يزعمون: أنهم يؤمنونَ بما

أُنزلَ إليكَ، وهم يتحاكمونَ إلى الطاغوتِ، ويصدّون عنك إذا دُعُوا إليك يا محمدُ ـ واستأنف القَسَمَ جَلَّ ذِكْرُه فقال: «وَرَبِّكَ»، يا محمدُ. «لَا يُؤْمِنُونَ»، أي: لا يُصَدِّقُونَ بَي وبكَ وبما أُنزلَ إليك. «حتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ»، يقول: حتى يجعلوكَ حَكَماً بينهم فيما اختلطَ بينهم من أمورِهم، فالتبسَ عليهم حُكْمُه.

«ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجاً مِّمَّا قَضَيْتَ»، يقول: لا يجدوا في أنفسهم ضِيقاً مما قضيتَ. وإنما معناه: ثم لا تُحْرَجَ أنفسُهم مما قضيتَ أي: لا تأثَم بإنكارها ما قضيتَ، وشَكِّها في طاعتك، وأنَّ الذي قضيتَ به بينهم حقٌّ لا يجوزُ لهم خِلافُه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيل قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِن دِيَارِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ﴾

يعني جَلَّ ثناؤُهُ بقوله: «وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ»، ولو أنَّا فرضنا على هؤلاء الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أُنزلَ إليك، المحتكمين إلى الطاغوتِ، أنْ يَقْتُلُوا أنفُسَهُم وأمرناهم بذلك أو أنْ يخرجُوا من ديارهم مهاجرينَ منها إلى دارٍ أخرى سواها. «مَّا فَعَلُوهُ»، يقول: ما قَتَلُوا أنفسهم بأيديهم، ولا هاجروا من ديارِهم فيخرجوا عنها إلى الله ورسولِه، طاعةً لله ولرسولِه. «إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ».

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ﴿٦٦﴾﴾

يعني جَلَّ ثناؤُهُ بذلك: ولو أنَّ هؤلاءِ المنافقينَ الذين يزعمونَ أنهم آمنوا

بما أُنزلَ إليك، وهم يتحاكمونَ إلى الطاغوتِ، ويَصُدُّونَ عنك صدوداً، «فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ»، يعني: ما يذكّرون به من طاعةِ الله والانتهاءِ إلى أمرِهِ. «لَكَانَ خَيْراً لَّهُمْ»، في عاجل دنياهم وآجل معادهم. «وأَشَدَّ تَثْبِيتاً»، وأثبت لهم في أمورهم، وأقوم لهم عليها. وذلك أنَّ المنافقَ يعملُ على شك، فَعَمَلُهُ يذهبُ باطلاً، وعناؤه يضمحلُّ فيصير هباءً، وهو بشكه يعمل على وناءٍ[1] وضَعْفٍ. ولو عَمِلَ على بصيرةٍ، لاكتسبَ بعمله أجراً، ولكان له عند الله ذُخْراً، وكان على عمله الـذي يعمـلُ أقـوى، ولنفسه أشدَّ تثبيتاً، لإيمانه بوعدِ الله على طاعته، وعمله الذي يعمله. ولذلك قال مَنْ قال: معنى قوله: «وأَشَدَّ تَثْبِيتاً»، تصديقاً، لأنه إذا كان مُصَدِّقاً، كان لنفسه أشد تثبيتاً، ولعزمه فيه أشدّ تصحيحاً، وهو نظير قولـه جَلَّ ثنـاؤُهُ: ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُم ٱبْتِغَاءَ مَرْضَاةِ الله وَتَثْبِيتاً مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾ [البقرة: ٢٦٥].

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِذًا لَّأٓتَيْنَٰهُم مِّن لَّدُنَّآ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٦٧﴾ وَلَهَدَيْنَٰهُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٦٨﴾﴾

يعني بذلك جَلَّ ثناؤُهُ: ولو أنهم فَعَلُوا ما يُوعَظُونَ به لكان خيراً لهم، لإيتائنا إياهم على فِعْلِهم ما وُعِظُوا به من طَاعَتِنَا والانتهاءِ إلى أمْرِنَا. «أجراً» يعني: جزاء وثـواباً عظيماً ـ وأشد تثبيتاً لعزائمهم وآرائهم، وأقوى لهم على أعمالهم، لهدايتنا إياهم صِراطاً مستقيماً ـ يعني: طريقاً لا اعْوِجَاجَ فيه، وهو دينُ الله القويم الذي اختارهُ لعبادِه وشَرْعِه لهم، وذلك الإسلام.

ومعنى قوله: «وَلَهَدَيْنَاهُمْ»، ولوفَّقناهم للصراطِ المستقيم.

ثم ذَكَرَ جَلَّ ثناؤُهُ ما وَعَدَ أهلَ طاعتِهِ وطاعة رسولِهِ عليه السلام، من

(١) الونى والوناء: الكلال والإعياء والضعف.

الكرامةِ الدائمةِ لديه، والمنازلِ الرفيعةِ عنده، فقال: ﴿وَمَنْ يُطِعِ الله والرَّسُولَ فَأولئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ الله عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ والصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاء وَالصَّالِحِينَ﴾ الآية.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا ﴿٦٩﴾ ذَٰلِكَ ٱلْفَضْلُ مِنَ ٱللَّهِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمٗا ﴿٧٠﴾﴾

يعني بذلك جَلَّ ثناؤُهُ: «وَمَنْ يُطِعِ الله والرَّسُولَ» بالتسليمِ لأمرهما، وإخلاص الرِّضَى بِحُكْمِهما، والانتهاء إلى أمرهما، والانزجارِ عما نهيا عنه من معصيةِ الله، فهو مع الذين أنعمَ الله عليهم بهدايتهِ والتوفيق لطاعته في الدنيا من أنبيائه، وفي الآخرة إذا دخل الجنة. «والصِّدِّيقِينَ» وهم جمع «صِدِّيق».

واختلف في معنى: «الصديقين»

فقال بعضهم: «الصديقون»، تُبَّاعُ الأنبياء الذين صدّقوهم واتبعوا مناهجهم بعدهم حتى لَحِقُوا بهم. فكأن «الصدِّيقَ»، «فعِيِّل»، على مذهب قائلي هذه المقالة، من «الصدق»، كما يقال: «رجل سِكّير» من «السُّكر»، إذا كان مُدْمناً على ذلك، و«شِرِّيبٌ»، و«خِمِّيرٌ».

وقال آخرون: بل هو «فِعِّيل» من «الصَّدَقة».

فإذْ كان ذلك كذلك، فالذي هو أولى بـ«الصديق»، أن يكون معناه: المصدِّق قوله بفعله. إذْ كان «الفعِّيل» في كلام العرب، إنما يأتي، إذا كانَ مأخوذاً من الفعل، بمعنى المبالغة، إمَّا في المدح، وإما في الذم، ومنه قولُه جَلَّ ثناؤُهُ في صفة مريم: ﴿وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ﴾ [المائدة: ٧٥].

وإذا كان معنى ذلك ما وصفنا، كان داخلاً مَنْ كان موصوفاً بما قلنا في صِفَةِ المتصدقين والمصدقين.

«وَالشُّهَدَاءِ»، وهم جمع «شهيد»، وهو المقتولُ في سبيل الله، سُمِّيَ بذلك لقيامهِ بشهادةِ الحَقِّ في جَنْبِ الله حتى قتل.

«وَالصَّالِحِينَ»، وهم جَمْع «صالح»، وهو كُلُّ مَنْ صَلحتْ سريرتُه وعلانيته.

وأما قوله جَلَّ ثناؤُهُ: «وَحَسُنَ أُولئِكَ رَفِيقاً»، فإنه يعني: وحسن، هؤلاء الذين نعتهم ووصفهم، رفقاء في الجنة.

و «الرفيق» في لفظ واحدٍ بمعنى الجميع.

وأمـا قولـه: «ذَلِـكَ الْفَضْـلُ مِنَ اللهِ»، فإنه يقول: كون مَنْ أطاعَ الله والرسول مع الذين أنعمَ الله عليهم من النَبِيِّينَ والصِّدِّيقينَ والشهداء والصالحين. «الْفَضْلُ مِنَ اللهِ»، يقول: ذلك عطاءُ الله إياهم وفضله عليهم، لا باستيجابِهم ذلكَ لسابقةٍ سَبَقَتْ لهم.

فإنْ قال قائلٌ: أَوَ ليسَ بالطاعةِ وَصَلُوا إلى ما وصلوا إليه من فضله؟

قيل له: إنهم لم يُطيعوه في الدنيا إلا بفضلهِ الذي تَفَضَّلَ به عليهم، فهداهم به لطاعتهِ، فكلُّ ذلك فضلٌ منه تعالى ذِكْرُه.

وقوله: «وَكَفَى بِاللهِ عَلِيماً»، يقول: وحسب العباد بالله الذي خلقهم. «عَلِيماً» بطاعةِ المطيعِ منهم ومعصيةِ العاصي، فإنه لا يَخْفَى عليه شيءٌ من ذلك، ولكنه يُحْصيهِ عليهم ويحفظه، حتى يجازي جميعهم، جزاءَ المحسنينَ منهم بالإحسان، والمسيئينَ منهم بالإساءةِ، ويعفو عَمَّنْ شاءَ من أهلِ التوحيد.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ خُذُواْ حِذْرَكُمْ فَٱنفِرُواْ ثُبَاتٍ أَوِ ٱنفِرُواْ جَمِيعًا ۝٧١﴾

يعني بقوله جَلَّ ثناؤُهُ: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا»: صدِّقوا الله ورسوله. «خُذُوا حِذْرَكُمْ» خذوا جُنَّتَكُم وأسلحتَكُم التي تَتَّقُونَ بها من عَدُوِّكُم لغزوهم وحربهم. «فَانْفِرُوا إليهم ثُبَاتٍ».

وهي جمعُ «ثُبة»، و«الثبة»، العُصْبة.

ومعنى الكلام: فانفروا إلى عَدُوِّكُم جماعةً بعد جماعةٍ متسلحينَ.

«أَوِ انْفِرُوا جَمِيعاً»، يقول: أو انفروا جميعاً مع نَبِيِّكُم ﷺ لقتالهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيل قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ شَهِيدًا ۝٧٢﴾

وهذا نَعْتٌ من الله تعالى ذِكْرُهُ للمنافقينَ، نعتهم لنبيه ﷺ وأصحابه ووصفهم بصفتهم فقال: «وَإِنَّ مِنكُمْ»، أيها المؤمنون، يعني: من عِدَادكم وقومكم، ومَنْ يتشَّبه بكم، ويُظْهِر أنه من أهلِ دعوتكم ومِلَّتكم، وهو منافقٌ يُبَطِّئ مَنْ أطاعه منكم عن جهادِ عَدُوِّكُم وقتالهم إذا أنتم نَفرتُمْ إليهم. «فَإِنْ أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ»، يقول: فإنْ أصابتكم هزيمةٌ، أو نالكم قَتْلٌ أو جِراحٌ من عدوكم. «قَالَ قَدْ أَنْعَمَ الله عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ شَهِيداً»، فيصيبني جراحُ أو ألمٌ أو قتلٌ، وسَرَّهُ تَخَلُّفهُ عنكم، شَماتةً بكم، لأنه من أهلِ الشكِّ في وَعْدِ الله الذي وعدَ المؤمنينَ على ما نالهم في سبيله من الأجرِ والثواب، وفي وعيده، فهو غيرُ راجٍ ثواباً، ولا خائف عقاباً.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَئِنْ أَصَٰبَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ ٱللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمْ تَكُنۢ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُۥ مَوَدَّةٌ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧٣﴾﴾

يقول جَلَّ ثناؤُهُ: «وَلَئِنْ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ الله»، ولئن أَظْفَرَكُم الله بعدوِّكم فأصبتمْ منهم غنيمةً، ليقولَنَّ هذا المُبَطِّئُ المسلمينَ عن الجهادِ معكم في سبيل الله، المنافقُ. «كَأَن لَّمْ يَكُنْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يا لَيْتَنِي كُنْتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ»، بما أُصيبُ معهم من الغنيمة. «فَوْزاً عَظِيماً».

وهذا خبرٌ من الله تعالى ذِكْرُهُ عن هؤلاء المنافقين: أنَّ شُهودَهم الحربَ مع المسلمينَ إنْ شَهِدُوهَا، لطلبِ الغنيمةِ وإنْ تخلَّفوا عنها، فللشَكِّ الذي في قلوبهم، وأنهم لا يرجون لحضورها ثواباً، ولا يخافونَ بالتخلُّفِ عنها من الله عقاباً.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَلْيُقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يَشْرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَمَن يُقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٧٤﴾﴾

وهذا حَضٌّ من الله المؤمنينَ على جهادِ عَدُوِّهِ من أهلِ الكفرِ به على أحايينهم غالبينَ كانوا أو مغلوبين، والتهاونِ بأقوالِ المنافقين في جهادِ مَنْ جاهدوا من المشركين وأنَّ لهم في جهادهم إياهم ـ مغلوبين كانوا أو غالبين ـ منزلةً من الله رفيعة.

يقول الله لهم جَلَّ ثناؤُهُ: «فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللهِ»، يعني: في دِينِ الله والدعاء إليه، والدخول فيما أمر به أهلَ الكفر به. «الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالآخِرَةِ»، يعني: الذين يبيعونَ حياتهم الدنيا بثوابِ الآخرةِ وما وَعَدَ الله أهلَ طاعته فيها. وبيعُهم إياها بها: إنفاقهم أموالهم في طلبِ رضى الله، لجهادِ مَنْ أمر بجهادِهِ من أعدائهِ وأعداءِ دينه، وبَذْلهم مُهَجَهُم له في ذلك.

أخبر جَلَّ ثناؤُهُ بما لهم في ذلك إذا فعلوه فقال: «وَمَن يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً»، يقول: ومَنْ يقاتل - في طلب إقامةِ دينِ الله وإعلاءِ كلمةِ الله - أعداءَ الله. «فَيُقْتَلْ»، يقول: فيقتلهُ أعداءُ الله، أو يغلبهم فيظفر بهم. «فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً»، يقول: فسوف نُعطيه في الآخرةِ ثواباً وأجراً عظيماً. وليس لما سَمَّى جَلَّ ثناؤُهُ «عَظِيماً»، مقدارٌ يعرفُ مَبْلَغَهُ عبادُ الله.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ٧٥﴾

يعني بذلك جَلَّ ثناؤُهُ: «وَمَا لَكُمْ» أيها المؤمنون. «لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ»، وفي «المستضعفين»، يقول: عن المستضعفين منكم. «مِنَ آلرِّجَالِ وَآلنِّسَاءِ وَآلْوِلْدَانِ»، فأمّا من «آلرِّجَالِ»، فإنهم كانوا قد أسلموا بمكة، فَغَلَبتهم عشائرهم على أنفسهم بالقهر لهم، وآذوهم، ونالوهم بالعذابِ والمكارهِ في أبدانهم لِيَفْتِنُوهُم عن دِينهم، فَحَضَّ الله المؤمنينَ على استنقاذِهم من أيدي مَنْ قد غَلَبَهم على أنفسهم من الكفار، فقال لهم: وما شأنكم لا تقاتلونَ في سبيلِ الله، وعن مُسْتَضْعَفِي أهلِ دِينكم ومِلَّتِكُم الذين قد استضعفهم الكفارُ

فاستذلُّوهم ابتغاءَ فتنتهم وصَدِّهم عن دينهم؟. «مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَاءِ وَٱلْوِلْدَانِ»، جمع «ولد»: وهم الصبيان. «ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَـٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا»، يعني بذلك أنَّ هؤلاء المستضعفين من الرجال والنساء والولدان، يقولون في دعائهم رَبَّهم بأنْ يُنجيهم من فتنةِ مَنْ قد استضعفهم من المشركينَ: «يا رَبَّنَا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها».

«وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا»، يعني: أنهم يقولون أيضاً في دعائهم: يا رَبَّنَا، واجعلْ لنا من عندك وليًّا، يَلِي أمْرَنَا بَالكفايةِ مما نحنُ فيه من فتنةِ أهلِ الكُفْرِ بكَ. «وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنْكَ نَصِيراً»، يقولون: واجعلْ لنا من عندك مَنْ ينصرنا على مَنْ ظَلَمنا من أهلِ هذه القريةِ الظالمِ أهلها، بِصَدِّهم إيَّانا عن سبيلكَ، حتى تُظْفِرَنَا بهم، وتُعْلِي دِينَكَ.

القَوْلُ فِي تَأْويل قَوْلِهِ تَعَالَى: «ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱلطَّـٰغُوتِ فَقَـٰتِلُوٓا۟ أَوْلِيَآءَ ٱلشَّيْطَـٰنِ ۖ إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَـٰنِ كَانَ ضَعِيفًا ﴿٧٦﴾»

قال أبو جعفر:

يعني تعالى ذِكْرُهُ: الذين صَدَّقُوا الله ورسولَهُ، وأيقنوا بموعودِ الله لأهلِ الإيمانِ به. «يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللهِ»، يقول: في طاعةِ الله ومنهاجِ دِينهِ وشريعتهِ التي شرعَهَا لعبادِهِ. «وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱلطَّاغُوتِ»، يقول: والذين جَحَدُوا وحدانيةَ الله وكَذَّبُوا رسولَهُ وما جاءهم به من عند رَبِّهم «يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱلطَّاغُوتِ»، يعني: في طاعةِ الشيطانِ وطريقهِ ومنهاجهِ الذي شَرعَهُ لأوليائهِ من أهلِ الكفر بالله. يقولُ الله، مُقَوِّياً عَزْمَ المؤمنينَ به من أصحابِ رسولِ الله ﷺ، ومُحَرِّضَهُمْ على أعدائهِ وأعداءِ دينهِ من أهلِ الشركِ به:

«فَقَاتِلُوا» أيها المؤمنون، «أَوْلِيَاءَ ٱلشَّيْطَانِ»، يعني بذلك: الذين يتولَّونه ويُطيعونَ أمْرَهُ، في خلاف طاعة الله، والتكذيب به، وينصرونه. «إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفاً»، يعني بكيده: ما كادَ به المؤمنينَ، من تحزيبِهِ أولياءَهُ من الكفارِ بالله على رسولِهِ وأوليائِهِ أهلِ الإيمان به. يقول: فلا تَهابُوا أولياءَ الشيطان، فإنما هم حِزْبُه وأنصارهُ، وحزبُ الشيطانِ أهلُ وَهَنٍ وضَعْف.

وإنما وصفهم جَلَّ ثناؤُهُ بالضَّعْفِ، لأنهم لا يقاتلون رجاءَ ثوابٍ، ولا يتركون القتالَ خوفَ عقابٍ، وإنما يقاتلون حَمِيَّةً أو حَسَداً للمؤمنينَ على ما آتاهم الله من فضله. والمؤمنون يقاتلُ مَن قاتلَ منهم رجاءَ العظيمِ من ثوابِ الله، ويتركُ القتالَ إنْ تركه على خوفٍ من وعيدِ الله في تركِهِ، فهو يقاتلُ على بصيرةٍ بما لَهُ عندَ الله إنْ قُتِلَ، وبما له من الغنيمةِ والظَّفَرِ إنْ سَلِمَ. والكافرُ يُقاتلُ على حَذَرٍ من القتلِ، وإياسٍ من مَعادٍ، فهو ذُو ضَعْفٍ وخوف.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: **أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوٓاْ أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ ٱلنَّاسَ كَخَشْيَةِ ٱللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُواْ رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا ٱلْقِتَالَ لَوْلَآ أَخَّرْتَنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ**

ذُكِرَ أنَّ هذه الآيةَ نزلتْ في قومٍ من أصحابِ رسول الله ﷺ كانوا قد آمنوا به وصَدَّقُوه قبل أنْ يفرضَ عليهم الجهاد، وقد فرض عليهم الصلاة والزكاة، وكانوا يسألون الله أن يفرضَ عليهم القتالَ، فلما فَرَضَ عليهم القتالَ شَقَّ عليهم ذلك، وقالوا ما أخبرَ الله عنهم في كتابه.

فتأويل قوله: «أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُم»، ألم تَرَ بقلبك، يا محمد، فتعلم «إِلَىٰ ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ»، من أصحابكَ حين سألوكَ أنْ تسألَ رَبَّكَ أن يفرض عليهم القتال. «كُفُّوا أَيْدِيَكُم»، فأمسكوها عن قتالِ المشركينَ

وحـربهم. «وَأَقِيمُـوا ٱلصَّـلَاةَ»، يقول: وأدُّوا الصلاةَ التي فَرَضَها الله عليكم بحدودها. «وآتُوا ٱلزَّكَاةَ»، يقول: وأعطوا الزكاة أهلَها الذين جعلها الله لهم من أموالِكم، تطهيراً لأبدانكم وأموالِكم، كَرِهُوا ما أُمِرُوا به من كَفِّ الأيدي عن قتالِ المشركينَ وشَقَّ ذلك عليهم. «فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ»، يقول: فلما فُرِضَ عليهم القتـالُ الـذي كانوا سألـوا أنْ يُفْرَضَ عليهم. «إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ»، يعني: جماعةٌ منهم. «يَخْشَوْنَ ٱلنَّاسَ»، يقول: يخافون الناسَ أنْ يقاتلوهم «كَخَشْيَةِ ٱللهِ أَوْ أَشَـدَّ خَشْيَةً»، أو أشد خوفاً، وقالوا جزعاً من القتال الذي فرض الله عليهم: «لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَـا ٱلْقِتَالَ»، لِمَ فرضتَ علينا القتالَ؟ رُكوناً منهم إلى الـدنيا، وإيثاراً للدَّعَةِ فيها والخَفْض، على مكروهِ لقاءِ العدوِّ ومشقةِ حربهم وقتالهم. «لَوْلَآ أَخَّرْتَنَا»، يخبر عنهم، قالوا: هَلَّا أخَّرتنا «إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ»، يعني: إلى أنْ يموتوا على فُرُشِهم وفي منازلهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: **قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧٧﴾**

يعني بقوله جَلَّ ثناؤُهُ: «قُلْ مَتَاعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ»، قُلْ، يا محمدُ، لهؤلاء القومِ الذين قالوا: «رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا ٱلْقِتَالَ لَوْلَآ أَخَّرْتَنَا إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ»: عيشكم في الدنيا وَتَمتُّعكم بها قليلٌ، لأنها فانيةٌ وما فيها فانٍ. «وَٱلآخِرَةُ خَيْرٌ»، يعني: ونعيمُ الآخرةِ خير، لأنها باقية ونعيمها باقٍ دائم. وإنما قيل: «وَٱلآخِرَةُ خَيْرٌ»، ومعنى الكلام ما وصفت، من أنه معنيٌّ به نعيمها ـ لدلالة ذِكْرِ «الآخرة» بالذي ذكرت به، على المعنى المراد منه. «لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ»، يعني: لمن اتقى الله بأداءِ فرائضهِ واجتنابِ معاصيه، فأطاعه في كل ذلك. «وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا»، يعني: ولا ينقصكم الله من أجورِ أعمالِكم فتيلا.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِه تَعَالَى: ﴿أَيْنَمَا تَكُونُواْ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾

يعني بذلك جَلَّ ثناؤُهُ: حيثما تكونوا يَنَلْكُم الموتُ فتموتوا. «وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ»، يقول: لاتجزعوا من الموتِ، ولا تهربوا من القتالِ، وتَضْعُفوا عن لقاءِ عدوِّكم، حَذَراً على أنفسكم من القتلِ والموتِ، فإنَّ الموتَ بإزائكم أين كنتم، وواصلٌ إلى أنفسكم حيثُ كنتم، ولو تَحَصَّنْتُم منه بالحصونِ المنيعة.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَ﴾

يعني بقوله جَلَّ ثناؤهُ: «وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ ٱللهِ»، وإنْ يَنَلْهُم رخاءٌ وظَفَرٌ ويُصِيبوا غنيمةً. «يَقُولوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ ٱللهِ»، يعني: من قِبَلِ الله ومن تقديرِهِ. «وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ»، يقول: وإنْ تَنَلْهُم شِدَّةٌ من عيشٍ وهزيمةٌ من عدوٍ وجراحٍ وألم، يقولوا لك يا محمد: «هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ»، بخطئك التدبير.

وإنما هذا خبر من الله تعالى ذِكْرُهُ عن الذين قال فيهم لنبيه: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُم﴾.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾

يعني جَلَّ ثناؤُهُ بقوله: «قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِنْدِ ٱللهِ»، قل، يا محمد، لهؤلاء

القائلين إذا أصابتهم حَسَنةٌ: «هَٰذِهِ مِنْ عِنْدِ ٱللهِ»، وإذا أصابتهم سيئة: «هَٰذِهِ مِنْ عِنْدِكَ». كُلُّ ذلك من عند الله، دوني ودونَ غيري، مِنْ عنده الرخاءُ والشدةُ، ومنه النصرُ والظفرُ، ومن عنده الفَلُّ والهزيمة.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ٧٨﴾

يعني جَلَّ ثناؤُهُ بقوله: «فَمَالِ هَٰؤُلَاءِ ٱلْقَوْمِ»، فما شأنُ هؤلاء القوم الذين إنْ تُصِبهم حسنةٌ يقولوا: «هَٰذِهِ مِنْ عِنْدِ ٱللهِ»، وإنْ تُصِبهم سيئةٌ يقولوا: «هَٰذِهِ مِنْ عِنْدِكَ». «لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثاً»، يقول: لا يكادون يعلمونَ حقيقةَ ما تُخْبِرُهم به، مِنْ أنَّ كُلَّ ما أصابَهم من خيرٍ أو شر، أو ضرّ وشدة ورخاء، فمن عند الله، لا يقدرُ على ذلك غيرهُ، ولا يصيبُ أحداً سيئةٌ إلَّا بتقديرِهِ، ولا ينالُ رخاءً ونعمة إلا بمشيئته.

وهذا إعلامٌ من الله عبادَهُ أنَّ مفاتحَ الأشياءِ كُلَّها بيدِهِ، لا يملكُ شيئاً منها أحدٌ غيره.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ﴾

يعني جَلَّ ثناؤُهُ بقوله: «مَّا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللهِ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَّفْسِكَ»، ما يُصِيبُكَ، يا محمد، من رخاءٍ ونعمةٍ وعافيةٍ وسلامة، فَمِنْ فضل الله عليكَ، يتفضلُ به عليكَ إحساناً منه إليكَ، وأما قوله: «وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَّفْسِكَ»، يعني: وما أصابك من شِدَّةٍ ومَشَقَّةٍ وأذى ومكروه. «فَمِنْ نَّفْسِكَ»، يعني: بذنبٍ استوجبتها به، اكتسبته نفسك.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا ۝٧٩﴾

يعني بقوله جَلَّ ثناؤُهُ: «وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولاً»، إنما جعلناكَ، يا محمدُ، رسولاً بيننا وبين الخَلْقِ، تُبَلِّغُهم ما أرسلناكَ به من رسالة، وليس عليكَ غيرُ البلاغ وأداء الرسالة إلى مَنْ أرسلت، فإنْ قَبِلُوا ما أُرسلتَ به فلأنفسهم، وإنْ رَدُّوا فعليها. «وَكَفَىٰ بِاللهِ» عليكَ وعليهم. «شَهِيداً»، يقول: حسبك الله تعالى ذِكْرُهُ، شاهداً عليكَ في بلاغك ما أَمَرْتُكَ ببلاغِهِ من رسالته ووحيه، وعلى مَنْ أُرسلتَ إليه في قبولهم منك ما أرسلت به إليهم، فإنه لا يخفى عليه أَمْرُكَ وأمرهم، وهو مُجازيكَ ببلاغك ما وعدَكَ، ومُجَازِيهم ما عملوا من خيرٍ وشر، جزاء المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مَّن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ ۖ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۝٨٠﴾

وهذا إعذارٌ من الله إلى خَلْقِهِ في نبيه محمدٍ ﷺ، يقول الله تعالى ذِكْرُهُ لهم: مَنْ يُطِعْ منكم، أيها الناسُ، محمداً فقد أطاعني بطاعته إياه، فاسمعوا قولَهُ وأطيعوا أمرَهُ، فإنه مهما يأمركم به من شيءٍ فمن أمري يأمركم، وما نهاكم عنه من شيءٍ فمن نَهْيِي، فلا يقولنَّ أحدكم: «إنما محمد بشرٌ مثلنا يريدُ أنْ يتفضَّلَ علينا»!

ثم قال جَلَّ ثناؤُهُ لنبيه: ومَنْ تولَّى عن طاعتكَ، يا محمدُ، فأَعْرَضَ عنك، فإنَّا لم نُرْسِلكَ عليهم «حَفِيظاً»، يعني: حافظاً لما يعلمون محاسباً، بل إنما أرسلناكَ لِتُبَيِّنَ لهم ما نُزِّلَ إليهم، وكفى بنا حافظين لأعمالهم، ولهم عليها محاسبين.

ونزلت هذه الآية، فيما ذكر، قبل أن يؤمر بالجهاد.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا مِنْ عِندِكَ بَيَّتَ طَآئِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ ٱلَّذِى تَقُولُ وَٱللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ﴾

يعني بذلك جَلَّ ثناؤُهُ بقوله: «وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ»، يعني: الفريق الذين أخبر الله عنهم أنهم لما كُتِبَ عليهم القتالُ خَشُوا الناسَ كخشيةِ الله أو أشد خشية، يقولون لنبيِّ الله ﷺ إذا أمرهم بأمرٍ: أمْرُكَ طاعةٌ، ولكَ منا طاعةٌ فيما تأمرنا به وتنهانا عنه. «فَإِذا بَرَزُوا مِنْ عِنْدِكَ»، يقول: فإذا خرجوا من عندك، يا محمد «بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ ٱلَّذِي تَقُولُ»، يعني: بذلك جَلَّ ثناؤُهُ: غَيَّرَ جماعةٌ منهم ليلاً الذي تقولُ لهم.

يقول الله جَلَّ ثناؤُهُ: «وَٱللهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ»، يعني بذلك جَلَّ ثناؤُهُ: والله يكتب ما يُغَيِّرُونَ من قولك ليلاً في كُتب أعمالهم التي تكتبها حَفَظَتُه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ۝٨١﴾

يقول جَلَّ ثناؤُهُ لمحمدٍ ﷺ: «فَأَعْرِضْ»، يا محمدُ، عن هؤلاء المنافقينَ الذين يقولون لكَ فيما تأمرهم: «أمرك طاعة»، فإذا برزوا من عندك خَالفُوا ما أمرتهم به، وغيَّروهُ إلى ما نَهيتَهُمْ عنه، وخَلِّهِمْ وما هُمْ عليهِ من الضلالةِ، وارْضَ لهم بي منتقماً منهم. «وَتَوَكَّلْ» أنتَ يا محمدُ. «عَلَىٰ ٱللهِ»، يقول: وفَوِّضْ أنتَ أمرَكَ إلى الله، وثِقْ به في أمورك، وَوَلِّهَا إياهُ. «وَكَفَىٰ بِٱللهِ وَكِيلاً»، يقول: وكفاكَ بالله. أي: وحسبك بالله. «وَكِيلاً»، أي: فيما يأمرك، ووليًّا لها، ودافعاً عنك وناصراً.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْءَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾

يعني جَلَّ ثناؤُهُ بقوله: «أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ»، أفلا يتدبرُ المُبَيِّتُونَ غيرَ الذي تقولُ لهم، يا محمدُ، كتابَ الله، فيعلموا حُجَّةَ الله عليهم في طاعتك واتباع أمرك، وأنَّ الذي أتيتهم به من التنزيلِ من عند رَبِّهم، لاتِّساقِ معانيه، وائتلافِ أحكامه، وتأييد بعضه بعضاً بالتصديق، وشهادة بعضه لبعضٍ بالتحقيق، فإنَّ ذلك لو كان من عند غيرِ الله لاختلفتْ أحكامُه، وتَناقضتْ معانيه، وأبانَ بعضُه عن فسادِ بعض.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِۦ

يعني جَلَّ ثناؤُهُ بقوله: «وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ»، وإذا جاء هذه الطائفة المبيِّتة غيرَ الذي يقولُ رسولُ الله ﷺ. «أَمْرٌ مِّنَ الأَمْنِ»، فالهاء والميم في قوله: «وَإِذَا جَاءَهُمْ»، من ذِكْرِ الطائفةِ المُبَيِّتة. يقولُ جَلَّ ثناؤُهُ: وإذا جاءهم خبرٌ عن سريةٍ للمسلمينَ غازية بأنهم قد أمنوا من عدوهم بغلبتهم إياهم. «أَوِ الْخَوْفِ»، يقول: أو تخوّفهم من عدوهم بإصابةِ عدوهم منهم. «أَذَاعُوا بِهِ»، يقول: أفشوه وبَثُّوهُ في الناس قبل رسول الله ﷺ، وقبل مأتَى سرايا رسول الله ﷺ. و«الهاء» في قوله: «أَذَاعُوا بِهِ»، من ذِكْرِ «الأمر». وتأويله: أذاعوا بالأمر من الأمن أو الخوف الذي جاءهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُولِي الْأَمْرِ

مِنۡهُمۡ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسۡتَنۢبِطُونَهُۥ مِنۡهُمۡۗ

يعني جَلَّ ثناؤُهُ بقوله: «وَلَوْ رَدُّوهُ»، الأمر الذي نالهم من عَدُوِّهم والمسلمين، إلى رسولِ الله ﷺ وإلى أولي أمرِهم - يعني: وإلى أمرائهم - وسكتوا فلم يُذِيعُوا ما جاءهم من الخبر، حتى يكون رسول الله ﷺ، أو ذَوُو أمْرِهم، هم الذين يتولّون الخبرَ عن ذلك، بعد أن تَثْبُتَ عندهم صِحَّتُه أو بُطُوله، فَيُصَحِّحُوه إنْ كان صحيحاً، أو يُبْطِلُوه إنْ كان باطلاً «لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ»، يقول: لَعَلِمَ حقيقةَ ذلك الخبر الذي جاءهم به، الذين يبحثون عنه ويستخرجونه. «مِنْهُمْ»، يعني: أولى الأمر - «والهاء» «والميم» في قوله: «مِنْهُمْ»، من ذكر أولي الأمر - يقول: لعلم ذلك من أولي الأمر مَنْ يستنبطه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ لَٱتَّبَعۡتُمُ ٱلشَّيۡطَٰنَ إِلَّا قَلِيلٗا ﴿٨٣﴾

يعني بذلك جَلَّ ثناؤُهُ: ولولا إنعامُ الله عليكم، أيها المؤمنونَ، بفضلهِ وتوفيقهِ ورحمتهِ، فأنقذكم مما ابتلى به هؤلاء المنافقينَ - الذين يقولون لرسول الله ﷺ إذا أمرهم بأمر: «طاعة»، فإذا برزوا من عنده بَيَّتَ طائفةٌ منهم غيرَ الذي يَقول - لكنتم مِثْلَهُم، فاتَّبعتُم الشيطانَ إلا قليلا، كما اتَّبعهُ هؤلاء الذين وَصَفَ صِفَتهم.

وخاطب بقوله تعالى ذِكْرُهُ: «وَلَوْلَا فَضْلُ آللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ آلشَّيْطَانَ»، الذينَ خاطبهم بقولِهِ جَلَّ ثناؤُهُ: ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَٱنْفِرُوا ثُبَاتٍ أَوِ ٱنْفِرُوا جَمِيعاً﴾ [النساء: ٧١].

ثم اختلف أهلُ التأويل في «القليل»، الذين استثناهم فى هذه الآية: من هم؟ ومن أيِّ شيء من الصفات استثناهم؟

فقال بعضهم: هم المستنبطون من أولي الأمر، استثناهم من قوله: «لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ»، ونفى عنهم أنْ يعلموا بالاستنباطِ ما يعلمُ به غيرهم من المستنبطين من الخبرِ الواردِ عليهم من الأمنِ أو الخوف.

وقال آخرون: بل هم الطائفةُ الذين وصفهم الله أنهم يقولونَ لرسولِ الله ﷺ: «طاعة»، فإذا برزوا من عنده بَيَّتُوا غيرَ الذي قالوا. ومعنى الكلام: وإذا جاءهم أمرٌ من الأمن أو الخوف أذاعوا به إلَّا قليلاً منهم.

وقال آخرون: بل ذلك استثناءٌ من قوله: «لَاتَّبَعْتُمُ ٱلشَّيْطَانَ». وقالوا: الذين استثنوا هم قومٌ لم يكونوا هَمُّوا بما كانَ الآخرون هَمُّوا به من اتباع الشيطان. فعرَّفَ الله الذين أنقذهم من ذلك موقعَ نعمتهِ منهم، واستثنى الآخرينَ الذين لم يكن منهم في ذلك ما كان من الآخرين.

وقال آخرون معنى ذلك: ولولا فضلُ الله عليكم ورحمته لاتَّبعتُم الشيطانَ جميعاً. قالوا: وقوله: «إلَّا قَلِيلاً»، خرجَ مخرجَ الاستثناء في اللفظ، وهو دليل على الجميع والإحاطة، وأنه لولا فضلُ الله عليهم ورحمته لم يَنْجُ أحدٌ من الضلالة، فجعل قوله: «إلَّا قَلِيلاً»، دليلاً على الإحاطةِ، واستشهدوا على ذلك بقول الطرِمّاح بن حكيم[1]، في مدح يزيد بن المهلب:

أَشَـمُّ كَثِـيرُ يُدِيِّ الـنَّـوَالِ قَلِيلُ الـمَـثَـالِـبِ وَالـقَـادِحَـه

قالوا: فظاهرُ هذا القولِ وصفُ الممدوحِ بأنَّ فيه المثالب والمعايب، ومعلومٌ أنَّ معناه أنه لا مثالبَ فيه ولا معايبَ. لأنَّ مَنْ وصفَ رجلاً بأنَّ فيه معايب، وإن وصف الذي فيه من المعايب بالقلة، فإنما ذمَّه ولم يمدحه. ولكن

(١) ديوانه ١٣٩.

ذلك على ما وصفنا من نفي جميع المعايب عنه. قالوا: فكذلك قوله: «لَاتَّبَعْتُمُ ٱلشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا»، إنما معناه: لاتبعتم جميعكم الشيطان.

وأولى هذه الأقوالِ بالصوابِ في ذلك عندي، قولُ مَنْ قال: عنى باستثناء «القليل» من «الإذاعة»، وقال: معنى الكلام: وإذا جاءهم أمرٌ من الأمن أو الخوف أذاعوا به إلَّا قليلًا، ولو رَدُّوه إلى الرسول.

وإنما قلنا إن ذلك أوْلى بالصواب، لأنه لا يخلو القولُ في ذلك من أحد الأقوال التي ذكرنا. وغير جائز أن يكون من قوله: «لَاتَّبَعْتُمُ ٱلشَّيْطَانَ»، لأن مَنْ تَفَضَّلَ الله عليه بفضله ورحمته، فغيرُ جائزٍ أنْ يكون من تُبَّاع الشيطان.

وغيرُ جائزٍ أن نحملَ معاني كتاب الله على غير الأغلبِ المفهوم بالظاهر من الخطابِ في كلام العرب، ولنا إلى حمل ذلك على الأغلب من كلام العرب، سبيل، فنوجِّهه إلى المعنى الذي وجهه إليه القائلون: «معنى ذلك: لاتبعتمُ الشيطان جميعاً»، ثم زعم أن قوله: «إِلَّا قَلِيلًا»، دليل على الإحاطة بالجميع. هذا مع خروجه من تأويل أهل التأويل.

وكذلك لا وجهَ لتوجيهِ ذلك إلى الاستثناء من قوله: «لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُ مِنْهُمْ»، لأنَّ عِلْمَ ذلك إذا رُدَّ إلى الرسولِ وإلى أولي الأمرِ منهم، فبيَّنه رسولُ الله ﷺ وأولُو الأمرِ منهم بعد وضوحهِ لهم، استوى في عِلْمِ ذلك كل مستنبطٍ حقيقتَه، فلا وجهَ لاستثناء بعض المستنبطين منهم، وخصوصِ بعضهم بعلمهِ، مع استواءِ جميعِهم في علمه.

وإذْ كان لا قولَ في ذلك إلَّا ما قلنا، ودخَل هذه الأقوالَ الثلاثةَ ما بَيَّنَّا من الخلل، فَبَيِّنٌ أنَّ الصحيحَ من القولِ في ذلك هو الرابع، وهو القول الذي قضينا له بالصواب من الاستثناء من «الإذاعة».

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿فَقَـٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ ۚ وَحَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَكُفَّ بَأْسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ وَٱللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنكِيلًا ﴿٨٤﴾﴾

يعني بقوله جَلَّ ثناؤُهُ: «فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ ٱللهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ»، فجاهد، يا محمدُ، أعداءَ الله من أهلِ الشركِ به. «فِي سَبِيلِ ٱللهِ»، يعني: في دينه الذي شرعَهُ لكَ، وهو الإِسلامُ، وقاتلهم فيه بنفسك.

فأما قوله: «لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ» فإنه يعني: لا يكلفك الله فيما فرضَ عليكَ من جهادِ عدوِّهِ وعدوك، إلا ما حَمَّلكَ من ذلك دون ما حَمَّلَ غيرَكَ منه، أي: أنك إنما تُتَّبع بما اكتسبته دون ما اكتسبه غيرك، وإنما عليك ما كُلِّفْتَهُ دون ما كُلِّفَهُ غيرُكَ.

ثم قال له: «وَحَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ»، يعني: وحُضَّهُمْ على قتالِ مَنْ أَمَرْتُكَ بقتالِهم معكَ. «عَسَىٰ ٱللهُ أَن يَكُفَّ بَأْسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا»، يقول: لعلَّ الله أنْ يكفَّ قتالَ مَنْ كفرَ بالله وجحد وحدانيته وأنكر رسالتك، عنك وعنهم، ونكايتهم.

«وَٱللهُ أَشَدُّ بَأْساً وَأَشَدُّ تَنْكِيلاً»، يقول: والله أشد نكايةً في عدوه، من أهل الكفرِ به، منهم فيكَ يا محمدُ وفي أصحابك، فلا تَنْكُلَنَّ عن قِتالهم، فإني راصِدُهم بالبأسِ والنكايةِ والتنكيلِ والعقوبةِ، لأُوهِنَ كيدَهم، وأُضْعِفَ بأسَهم، وأُعْلِي الحقَّ عليهم.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿مَّن يَشْفَعْ شَفَـٰعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٌ مِّنْهَا ۖ وَمَن يَشْفَعْ شَفَـٰعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُۥ كِفْلٌ مِّنْهَا ۗ

يعني بقوله جَلَّ ثناؤُهُ: «مَّن يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُ نَصِيبٌ مِّنْهَا»، من يَصِرْ، يا محمد، شَفْعاً لوتر أصحابك[1]، فيشفعهم في جهاد عدوهم وقتالهم في سبيل الله، وهو «الشفاعة الحسنة». «يَكُن لَّهُ نَصِيبٌ مِّنْهَا»، يقول: يكن له من شفاعتهِ تلكَ نصيبٌ ـ وهو الحَظُّ ـ من ثوابِ الله وجزيلِ كرامته. «وَمَن يَشْفَعْ شَفَاعَةً سَيِّئَةً»، يقول: ومَنْ يشفع وتر أهل الكفر بالله على المؤمنين به، فيقاتلهم معهم، وذلك هو «الشفاعة السيئة». «يَكُن لَّهُ كِفْلٌ مِّنْهَا».

يعني: بـ «الكِفْل»، النصيب والحظ من الوزر والإثم. وهو مأخوذٌ من «كِفل البعير والمركب»، وهو الكساءُ أو الشيء يُهَيَّأُ عليه شَبِيهٌ بالسرجِ على الدابة. يقال منه: «جاء فلان مكتَفلاً»، إذا جاء على مركب قد وُطِّىءَ له ـ على ما بَيَّنَّا ـ لركوبه[2].

وقد قيل إنه عَنَى بقوله: «مَّن يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُ نَصِيبٌ مِّنْهَا» الآية، شفاعةَ الناسِ بعضهم لبعض. وغير مُسْتَنْكَرٍ أنْ تكونَ الآيةُ نزلت فيما ذكرنا، ثم عُمَّ بذلك كل شافعٍ بخيرٍ أو شر.

وإنما اخترنا ما قلنا من القولِ في ذلك، لأنه في سياق الآية التي أمر الله نبيه ﷺ فيها بحضِّ المؤمنين على القتال، فكان ذلك بالوعد لمن أجاب رسـولَ الله ﷺ، والوعيد لمن أبى إجابته، أشبه منه من الحثِّ على شفاعةِ الناسِ بعضهم لبعض، التي لم يجر لها ذِكْرٌ قَبْلُ، ولا لها ذِكْرٌ بَعْدُ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقِيتًا ٨٥﴾

---

(١) أي معيناً لهم.

(٢) انظر مجاز القرآن لأبي عبيدة: ١/١٣٥.

ومعنى «المقيت»، القدير. وذلك أنَّ ذلك فيما يُذكر، كذلك بلغة قريش.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَآ

يعني جَلَّ ثناؤُهُ بقوله: «وَإِذَا حُيِّيتُمْ بِتَحِيَّةٍ»، إذا دُعِيَ لكم بطولِ الحياةِ والبقاءِ والسلامةِ. «فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْها أَوْ رُدُّوهَا»، يقول: فادعوا لمن دعا لكم بذلك بأحسن مما دعا لكم. «أَوْ رُدُّوهَا»، يقول: أو ردُّوا التحيةَ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: أَوْ رُدُّوهَآ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا ﴿٨٦﴾

يعني بذلك جَلَّ ثناؤُهُ: إنَّ الله كان على كل شيءٍ مما تعملون، أيها الناس، من الأعمالِ، من طاعةٍ ومعصيةٍ، حفيظاً عليكم، حتى يجازيكم بها جزاءه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا ﴿٨٧﴾

يعني جَلَّ ثناؤُهُ بقوله: «ٱللهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ»، المعبود الذي لا تنبغي العُبودةُ إلَّا لَهُ، هو الذي له عبادةُ كُلِّ شيءٍ وطاعة كل طائع.

وقوله: «لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَامَةِ»، يقول: لَيَبْعَثَنَّكُمْ من بعد مَماتِكم، وليحشرنَّكُم جميعاً إلى موقفِ الحسابِ الذي يجازي الناس فيه بأعمالهم، ويقضي فيه بين أهلِ طاعته ومعصيته، وأهل الإيمان به والكفر. «لَا رَيْبَ فِيهِ»، يقول: لاشكَّ في حقيقة ما أقولُ لكم من ذلك وأُخبركم من خبري: أنّي

جامِعُكُم إلى يوم القيامـة بعد مماتكم. «وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللهِ حَدِيثاً»، يعني بذلك: فاعلموا حقيقةَ ما أُخبركم من الخبرِ، فإني جامعكم إلى يومِ القيامةِ للجزاءِ والعرضِ والحساب والثواب والعقاب يقيناً، فلا تشكوا في صحته ولا تمتـروا في حقيقتـه، فإنَّ قولي الصـدق الذي لا كذبَ فيه، ووعدي الصدق الذي لا خُلْفَ له ـ «وَمَنْ أَصْـدَقُ مِنَ ٱللهِ حَدِيثاً»، يقول: وأيّ ناطقٍ أصدق من الله حديثاً؟ وذلك أنَّ الكاذبَ إنما يكذبُ ليجتلبَ بكذبهِ إلى نفسه نفعاً، أو يدفع به عنها ضراً. والله تعالى ذِكْرُهُ خالقُ الضُرِّ والنفعِ، فغيرُ جائز أنْ يكون منه كَذِبٌ، لأنه لا يدعوه إلى اجتلابِ نفعٍ إلى نفسهِ أو دفعِ ضُرٍّ عنها داعٍ. وما مِنْ أحدٍ لايدعوه داعٍ إلى اجتلابِ نفعٍ إلى نفسه، أو دفع ضُرٍّ عنها، سواه تعالى ذِكْرُهُ، فيجوز أنْ يكون له في استحالة الكذب منه نظيراً، فقال: «وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللهِ حَدِيثاً»، وخبراً.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: فَمَا لَكُمْ فِي ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِئَتَيْنِ وَٱللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوٓاْ

يعني جَلَّ ثناؤُهُ بقوله: «فَمَا لَكُم فِي ٱلْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ»، فما شأنكم، أيها المؤمنون، في أهلِ النفاق فئتين مختلفتين. «وَٱللهُ أَرْكَسَهُمْ بِمَا كَسَبُوا»، يعني بذلك: والله رَدَّهم إلى أحكامِ أهلِ الشركِ، في إباحةِ دمائهم وسَبْي ذَرارِيهم.

و«الإركاس» الردُّ.

(وقد) نزلت هذه الآية في اختلافِ أصحاب رسولِ الله ﷺ في قومٍ كانوا ارتدُّوا عن الإسلامِ بعد إسلامهم من أهلِ مكة.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُواْ مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ ۖ وَمَن

﴿يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا ۝٨٨﴾

يعني جَلَّ ثناؤُهُ بقوله: «أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ»، أتريدون أيها المؤمنون، أن تهدوا إلى الإسلامِ فتوفقوا للإقرارِ به والدخولِ فيه، مَنْ أضَلَّهُ الله عنه. يعني بذلك: مَنْ خَذَله الله عنه، فلم يوفقه للإقرار به؟

وإنما هذا خطابٌ من الله تعالى ذِكْرُهُ للفئةِ التي دافعت عن هؤلاء المنافقين الذين وَصَفَ الله صِفَتهم في هذه الآية. يقول لهم جَلَّ ثناؤُهُ: أتبغون هدايةَ هؤلاء الذين أضَلَّهم الله فخذلهم عن الحق واتباع الإسلام، بمدافعتكم عن قتالهم مَنْ أرادَ قتالَهم من المؤمنين؟. «وَمَن يُضْلِلِ ٱللهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا»، يقول: ومَن خذله عن دينهِ واتِّباع ما أمرهُ به، من الإقرارِ به وبنبيِّه محمدٍ ﷺ وما جاء به من عنده، فأضَلَّهُ عنه. «فَلَن تَجِدَ لَهُ»، يا محمد، «سَبِيلًا»، يقول: فلن تجدَ له طريقاً تهديه فيها إلى إدراكِ ما خذله الله عنه، ولا منهجاً يصلُ منه إلى الأمرِ الذي قد حرمه الوصول إليه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَدُّوا۟ لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا۟ فَتَكُونُونَ سَوَآءً فَلَا تَتَّخِذُوا۟ مِنْهُمْ أَوْلِيَآءَ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾

يعني جَلَّ ثناؤُهُ بقوله: «وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا»، تمنَّى هؤلاء المنافقون الذين أنتم، أيها المؤمنون، فيهم فئتانِ أنْ تكفروا فتجحدوا وحدانيةَ رَبِّكم، وتصديقَ نبيِّكم محمدٍ ﷺ. «كَمَا كَفَرُوا»، يقول: كما جَحَدُوا هم ذلك. «فَتَكُونُونَ سَوَاءً»، يقول: فتكونون كُفَّاراً مثلهم، وتَستوونَ أنتم وهم في الشركِ بالله. «فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّى يُهَاجِرُوا فِي سَبِيلِ ٱللهِ»، يقول: حتى يخرجُوا من دارِ الشركِ ويفارقوا أهلها الذين هم بالله مشركون، إلى دارِ

الإسلام وأهلِها. «فِي سَبِيلِ ٱللهِ»، يعني: في ابتغاء دينِ الله، وهو سبيلُه، فيصيروا عند ذلك مثلكم، ويكون لهم حينئذٍ حُكْمكم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: فَإِن تَوَلَّوْاْ فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَلَا تَتَّخِذُواْ مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٨٩﴾

يعني بذلك جَلَّ ثناؤُهُ: فإنْ أدبرَ هؤلاء المنافقونَ عن الإقرارِ بالله ورسولِه، وتَوَلَّوا عن الهجرةِ من دارِ الشركِ إلى دارِ الإسلام ومن الكفرِ إلى الإسلام. «فَخُذُوهُمْ» أيها المؤمنون. «وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ»، من بلادِهم وغير بلادهم، أينَ أصَبْتُموهم من أرضِ الله. «وَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وَلِيًّا»، يقول: ولا تتخذوا منهم خليلاً يواليكم على أموركم، ولا ناصراً ينصركم على أعدائكم، فإنهم كفارٌ لا يألونكم خَبالاً، وَدُّوا ما عنِتُّمْ.

وهـذا الخبـرُ من الله جَلَّ ثنـاؤُهُ، إبانةٌ عن صحةِ نفاقِ الذين اختلف المؤمنون في أمرهم، وتحذيرٌ لمن دافع عنهم عن المدافعة عنهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: إِلَّا ٱلَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوْمِۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ

يعني جَلَّ ثناؤُهُ بقوله: «إِلَّا ٱلَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِّيثَاقٌ»، فإنْ تولىَّ هؤلاء المنافقونَ الذين اختلفتم فيهم عن الإيمانِ بالله ورسوله، وأبوا الهجرةَ فلم يهاجروا في سبيل الله، فَخُذُوهم واقتلوهم حيث وجدتموهم، سوى مَنْ وَصل منهم إلى قومٍ بينكم وبينهم مُوادعةٌ وعهدٌ وميثاق، فدخلوا فيهم، وصاروا منهم، ورَضُوا بحكمهم، فإنَّ لمن وصلَ إليهم فدخلَ فيهم من أهلِ

الشرك راضياً بحكمهم في حقنِ دمائهم بدخولِه فيهم: أنْ لا تُسبى نساؤهم وذراريهم، ولا تغنم أموالهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَوْجَآءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَن يُقَٰتِلُوكُمْ أَوْ يُقَٰتِلُوا۟ قَوْمَهُمْ﴾

يعني جَلَّ ثناؤُهُ بقوله: «أَوْ جَاؤوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَنْ يُقَاتِلُوكُمْ أَوْ يُقاتِلُوا قَوْمَهُمْ»، «فَإِن تَوَلَّوْا فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ»، «إِلَّا ٱلَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِّيثَاقٌ»، أو: إلَّا الذين جاؤوكم منهم قد حَصِرتْ صدورُهم عن أنْ يقاتلوكم أو يقاتلوا قومَهم فدخلوا فيكم.

ويعني بقوله: «حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ»، ضَاقتْ صدورهم عن أنْ يُقَاتِلوكُم أو أنْ يقاتلوا قومَهُم.

والعربُ تقول لكلِّ مَنْ ضاقتْ نفسُهُ عن شيءٍ من فعلٍ أو كلام: «قد حَصِرَ»، ومنه «الحَصَرُ» في القراءة.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَـالَى: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَٰتَلُوكُمْ فَإِنِ ٱعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا۟ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ فَمَا جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا ۝٩٠﴾

يعني جَلَّ ثناؤُهُ: «وَلَوْ شَاءَ ٱللهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَاتَلُوكُمْ»، ولو شاء الله لسلَّطَ هؤلاء الذين يصلون إلى قومٍ بينكم وبينهم ميثاقٌ فيدخلون في جوارِهم وذِمَّتهم، والـذين يجيئـونكم قد حَصِرَتْ صدورهم عن قتالكم وقتالِ قومهم عليكم، أيها المؤمنونَ، فقاتلوكم مع أعدائِكم من المشركينَ، ولكنَّ الله تعالى

ذِكْرُهُ كَفَّهم عنكم. يقول جَلَّ ثناؤُهُ: فأطيعوا الذي أنعم عليكم بكفِّهم عنكم مع سائرِ ما أنعمَ به عليكم، فيما أمَرَكُمْ بهِ من الكَفِّ عنهم إذا وصلوا إلى قومٍ بينكم وبينهم ميثاق، أو جاؤوكم حَصِرَتْ صدورهم عن قتالِكم وقتالِ قومهم. ثم قال جَلَّ ثناؤُهُ: «فَإِنِ ٱعْتَزَلُوكُمْ»، يقول: فإن اعتزلكم هؤلاء الذينَ أمَرْتُكم بالكَفِّ عن قتالِهم من المنافقينَ، بدخولهم في أهلِ عهدِكم، أو مصيرهم إليكم حَصِرَتْ صدرورهم عن قتالِكم وقتالِ قومهم. «فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ»، يقول: وصالحوكم.

و«السَّلَمَ»، هو الاستسلامُ. وإنما هذا مَثَلٌ، كما يقولُ الرجل للرجل: «أعطيتك قِيادي»، و«ألقيتُ إليك خِطَامي»، إذا استسلمَ له وانقادَ لأمرِهِ. فكذلك قوله: «وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ»، إنما هو: ألقوا إليكم قِيادَهم واستسلموا لكم، صُلْحاً منهم لكم وسَلَماً.

ثم نسخ الله جميعَ حُكْمِ هذه الآية والتي بعدها بقوله تعالى ذِكْرُهُ: ﴿فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُوا ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾ إلى قوله: ﴿فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ ٱللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [التوبة: ٥].

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: سَتَجِدُونَ ءَاخَرِينَ يُرِيدُونَ أَن يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ كُلَّ مَا رُدُّوٓا إِلَى ٱلْفِتْنَةِ أُرْكِسُوا فِيهَا

وهؤلاء فريقٌ آخرُ من المنافقينَ، كانوا يُظْهِرُونَ الإسلامَ لرسولِ الله ﷺ وأصحابه ليأمَنُوا به عندهم من القتلِ والسباءِ وأخذِ الأموالِ وهم كفار، يعلم ذلك منهم قومهم، إذا لَقُوهم كانوا معهم وعَبَدُوا ما يعبدونه من دونِ الله، ليأْمَنُوهم على أنفسِهم وأموالهم ونسائهم وذراريهم. يقول الله: «كُلَّمَا رُدُّوا إِلَى ٱلْفِتْنَةِ أُرْكِسُوا فِيهَا»، يعني: كلما دعاهم قومهم إلى الشرك بالله، ارتدُّوا فصاروا

مشركين مثلهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَإِن لَّمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوٓاْ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ وَيَكُفُّوٓاْ أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأُوْلَٰٓئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ۝٩١﴾

يعني بذلك جَلَّ ثناؤُهُ: فإنْ لم يعتزلكم، أيها المؤمنون، هؤلاء الذين يريدون أنْ يأمنوكُم وَيأْمَنُوا قومهم، وهم كلما دُعُوا إلى الشركِ أجابوا إليه. «وَيُلْقُوا إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ»، ولم يستسلموا إليكم فَيُعْطُوكُم المَقَادَ ويصالحوكم، «وَيَكُفُّوا أَيْدِيَهُمْ»، يقول: ويكفوا أيديهم عن قتالكم، «فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ»، يقول جَلَّ ثناؤُهُ: إنْ لم يفعلوا، فخذوهم أين أصبتموهم من الأرض ولَقِيتُموهم فيها، فاقتلوهم، فإنَّ دماءَهُم لكم حينئذٍ حلالٌ. «وَأُوْلَٰئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَاناً مُّبِيناً»، يقول جَلَّ ثناؤُهُ: وهؤلاء الذين يريدون أنْ يَأْمَنُوكُم ويأمنوا قومهم، وهُمْ على ما هم عليه من الكفرانِ، ولم يعتزلوكم ويلقوا إليكم السلمَ ويكفوا أيديهم، جعلنا لكم حجةً في قتلهم أينما لقيتموهم، بمقامهم على كفرهم، وتركهم هجرةَ دارِ الشرك. «مُّبِيناً»، يعني: أنها تبين عن استحقاقِهم ذلكَ منكم، وإصابتكم الحَقَّ في قتلهم. وذلك قوله: «سُلْطَاناً مُّبِيناً»، و«السلطانُ» هو الحجةُ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَـًٔا ۚ وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَـًٔا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُوا۟ ۚ﴾

يعني جَلَّ ثناؤُهُ بقوله: «وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِناً أَلَّا خَطَئاً»، وما

أَذِنَ الله لمؤمنٍ ولا أباحَ له أنْ يقتُلَ مؤمناً. يقول: ما كان ذلك له فيما جعل له ربه وأذِنَ له فيه من الأشياء البتة.

وأما قوله: «إلَّا خَطَئاً»، فإنه يقول: إلَّا المؤمن قد يقتل المؤمن خطأً، وليس له مما جعل له ربه فأباحه له. وهذا من الاستثناء الذي يُسميه أهل العربية «الاستثناء المنقطع».

ثم أخبر جَلَّ ثناؤهُ عباده بحكم من قُتِلَ من المؤمنينَ خطأً، فقال: «وَمَن قَتَلَ مُؤْمِناً خَطَئاً فَتَحْرِيرُ»، يقول: فعليه تحريرُ «رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ»، في ماله. «وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ»، تؤديها عاقلته. «إِلَىٰ أَهْلِهِ إِلَّا أَن يَصَّدَّقُوا»، يقول: إلا أن يصدق أهل القتيل خطأ على مَنْ لَزِمَتْهُ ديةُ قَتِيلهم، فَيَعْفُوا عنه ويتجاوزُوا عن ذنبه، فيسقط عنه.

وأما «الرقبة المؤمنة»، فإنَّ أهلَ العلم مختلفون في صفتها.

فقال بعضهم: لا تكون الرقبةُ مؤمنةً حتى تكونَ قد اختارت الإيمانَ بعد بلوغها. وصَلَّت وصامت، ولا يستحقّ الطفل هذه الصفة.

وقال آخرون: إذا كانَ مولوداً بين أبوين مسلمين فهو مؤمنٌ، وإنْ كان طفلاً.

وأوْلى القولين بالصوابِ في ذلك، قول مَنْ قال: لا يجزئ في قتل الخطأ من الرقاب إلا مَنْ قد آمَنَ وهو يعقلُ الإيمانَ من بالغي الرجالِ والنساء، إذا كانَ مِمَّنْ كانَ أبـواهُ على مِلَّةٍ من المللِ سوى الإسـلام، وولد بينهما وهما كذلـك، ثم لم يُسْلِمَـا ولا أحـدٌ منهمـا حتى أعتِقَ في كفـارة الخطأ. وأما من وُلِدَ بين أبوين مسلمين، فقد أجمع الجميعُ من أهلِ العلم أنه وإنْ لم يبلغ حَدَّ الاختيارِ والتمييز، ولم يدرك الحُلُمَ، فمحكـومٌ له بحكمِ أهلِ الإيمانِ في الموارثة، والصلاة عليه إنْ ماتَ، وما يجب عليه إنْ جَنَى، ويجب له إن جُنِيَ عليه، وفي

المناكحة. فإذْ كان ذلك من جميعهم اجماعاً، فواجبٌ أنْ يكونَ له من الحكم فيما يجزئ فيه من كفارةِ الخطأ إنْ أعتق فيها من حكمِ أهلِ الإيمان، مِثْلُ الذي له من حكم الإيمان في سائر المعاني التي ذكرناها وغيرها. ومَنْ أبَى ذلك، عُكِس عليه الأمرُ فيه، ثم سئل الفرق بين ذلك من أصلٍ أو قياس. فلن يقول في شيءٍ من ذلك قولاً إلاّ أُلزمَ في غيره مثله.

وأما «الديةُ المسلمة» إلى أهلِ القتيلِ، فهي المدفوعةُ إليهم، على ما وَجَبَ لهم، موفَّرةً غير منتقصةٍ حقوقُ أهْلِها منها.

وأما قوله: «إلاَّ أَن يَصَّدَّقُوا»، فإنه يعني به: إلاَّ أنْ يَتَصدقوا بالدية على القاتل، أو على عاقِلته، فأُدغمت «التاء» من قوله: «يتصدقوا» في «الصاد» فصارتا «صاداً».

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ

يعني جَلَّ ثناؤُهُ بقوله: «فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ»، فإنْ كانَ هذا القتيلُ الذي قتله المؤمنُ خطأ، «مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ»، يعني: من عِدَادٍ قومٍ أعداء لكم في الدين مشركينَ قد نابَذُوكم الحربَ على خلافكم على الإسلام. «وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ»، يقول: فإذا قتل المسلم خطأ رجلاً من عِدادِ المشركين، والمقتولُ مؤمنٌ، والقاتلُ يحسبُ أنه على كُفْرِه، فعليه تحريرُ رقبةٍ مؤمنة.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ

يعني جَلَّ ثناؤُهُ بقوله: «وَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِّيثَاقٌ»، وإنْ كان القتيلُ الـذي قتله المؤمن خطأ. «مِن قَوْمٍ بَيْنَكُمْ» أيها المؤمنـونَ. «وَبَيْنَهُمْ مِّيثَاقٌ»، أي: عَهْدٌ وذِمَّةٌ، وليسوا أهلَ حربٍ لكم. «فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهِ»، يقـول: فعلى قاتلهِ ديةٌ مسلمـةٌ إلى أهله، يتحملها عاقلتـه. «وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ»، كفارة لقتله.

ثم اختلف أهلُ التأويل في صِفَةِ هذا القتيلِ الذي هو من قومٍ بيننا وبينهم ميثاقٌ، أَهُوَ مؤمنٌ أو كافر؟

فقال بعضهم: هو كافر، إلاَّ أنه لزمت قاتلَه ديته، لأنَّ له ولقومهِ عَهْداً، فواجبٌ أداءُ دِيَتِهِ إلى قومهِ للعهدِ الذي بينهم وبين المؤمنين، وأنها مال من أموالهم، ولا يحلُّ للمؤمنين شيءٌ من أموالهم بغير طِيْبِ أنفسهم.

وقـال آخـرون: بل هو مؤمنٌ، فعلى قاتلهِ ديةٌ يُؤَدِّيهـا إلى قومـهِ من المشركين، لأنهم أهلُ ذمة.

وأوْلى القولين في ذلك بتأويل الآية، قولُ مَنْ قال: عَنَى بذلك المقتولَ من أهلِ العهد. لأنَّ الله أبهمَ ذلك فقال: «وَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ»، ولم يقل: «وهو مؤمنٌ»، كما قالَ في القتيل من المؤمنين وأهل الحرب، وعَنَى المقتولَ منهم وهو مؤمن. فكان في تركه وصفه بالإيمان الذي وصفَ به القتيلين الماضي ذِكْرُهما قَبْلُ، الدليلُ الواضحُ على صحةِ ما قلنا في ذلك.

فإنْ ظَنَّ ظانٌّ أنَّ في قوله تبارك وتعالى: «فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهِ»، دليلاً على أنه من أهلِ الإيمان، لأنَّ الديةَ عنده لا تكونُ إلَّا لمؤمن فقد ظَنَّ خطأ. وذلـك أنَّ ديةَ الذميّ وأهل الإسلام سواءٌ، لإجماعِ جميعهم على أنَّ دياتِ عبيدهم الكفار وعبيدِ المؤمنين من أهلِ الإيمانِ سواء. فكذلك حُكْمُ دياتِ أحـرارِهم سواءٌ، مع أن دياتهم لو كانت على ما قال مَنْ خالفنـا في ذلك،

فجعلها على النِّصفِ من دياتِ أهلِ الإيمانِ أو على الثُّلُثِ، لم يكنْ في ذلك دليلٌ على أنَّ المعنيَّ بقوله: «وَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِّيثَاقٌ»، من أهلِ الإيمان، لأنَّ ديةَ المؤمنة لا خلافَ بين الجميع - إلَّا من لا يُعدُّ خلافاً[1] - أنها على النصفِ من ديةِ المؤمنِ، وذلك غير مُخْرِجها من أنْ تكونَ ديةً. فكذلك حُكْمُ دياتِ أهلِ الذمة، لو كانت مقصِّرة عن دياتِ أهلِ الإيمان، لم يخرجها ذلك من أن تكون ديات. فكيف والأمرُ في ذلك بخلافه، ودياتهم وديات المؤمنين سواء؟

وأما «الميثاق» فإنه العهدُ والذمة.

فإن قال قائل: وما صفة الخطأ، الذي إذا قتل المؤمنُ المؤمنَ أو المعاهدَ لزمته ديتُه والكفارة؟

قيل: أن يرمي الشيءَ فيصيب إنساناً وهو لا يُريدهُ.

فإن قال: فما الديةُ الواجبة في ذلك؟

قيل: أما في قتل المؤمن، فمئةٌ من الإبل، إنْ كان من أهلِ الإبلِ، على عاقلةِ قاتله. لا خلافَ بين الجميع في ذلك، وإنْ كان في مبلغِ أسنانها اختلافٌ بين أهل العلم.

وإن كانت عاقلة القاتلِ من أهلِ الذهبِ، فإنَّ لورثةِ القتيلِ عليهم عندنا ألفَ دينار. وعليه علماء الأمصار.

وقال بعضهم: ذلك تقويمٌ من عمر رحمةُ الله عليه، للإبلِ على أهلِ الذهبِ في عصره[2]. والواجبُ أن يُقَوَّمَ في كل زمانٍ قيمتها، إذا عدم الإبلَ

---

(١) يعني: إلا من لا يُعَدُّ خلافه خلافاً. وقد مَرَّ مثل ذلك.

(٢) انظر سنن البيهقي: ٨/٧٦-٨٠.

عاقلةُ القاتل.

وأما الذين أوجبوها في كل زمان على أهل الذهب ذهباً ألف دينار، فقالوا: ذلك فريضةٌ فرضها الله على لسانِ رسوله، كما فرضَ الإبلَ على أهلِ الإبلِ. قالوا: وفي إجماعِ علماءِ الأمصارِ في كل عصرٍ وزمان، إلَّا من شَذَّ عنهم، على أنها لا تُزادُ على ألفِ دينار ولا تنقص عنها أوضحُ الدليل على أنها الواجبةُ على أهلِ الذهب، وجوبَ الإبل على أهلِ الإبل، لأنها لو كانت قيمة لمئةٍ من الإبلِ، لاختلفَ ذلك بالزيادة والنقصان لِتَغَيُّرِ أسعارِ الإبل.

وهذا القولُ هو الحق في ذلك، لما ذكرنا من إجماعِ الحُجَّةِ عليه.

وأما من الوَرِق[1] على أهل الوَرِق عندنا، فاثنا عشرَ ألف درهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ ٱللَّهِ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٩٢﴾﴾

يعني تعالى ذِكْرُهُ بقوله: «فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ»، فمن لم يجد رقبةً مؤمنة يُحَرِّرُهَا كَفارةً لخطئهِ في قتله مَنْ قَتَلَ مِنْ مؤمنٍ أو معاهد، لعُسْرته بثمنها. «فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ»، يقول: فعليه صيامُ شهرين متتابعين.

و«المتابعة» صوم الشهرين، وأنْ لا يقطعه بإفطارِ بعضِ أيامه لغير عِلَّةٍ حائلةٍ بينه وبين صومه.

ثم قال جَلَّ ثناؤُهُ: «تَوْبَةً مِّنَ آللهِ وَكَانَ آللهُ عَلِيماً حَكِيماً»، يعني: تجاوزاً

---

(١) الـوَرِقُ: الفضة، وهي الدراهم المضروبة من الفضة، وإنما قال ذلك لأن الدينار يساوي اثني عشر درهماً.

من الله لكم إلى التيسيرِ عليكم، بتخفيفهِ عنكم ما خَفَّفَ عنكم من فرضِ تحريرِ الرقبة المؤمنة إذا أعسرتم بها، بإيجابه عليكم صومَ شهرين متتابعين. «وَكَانَ ٱللهُ عَلِيماً حَكِيماً»، يقول: ولم يَزَلِ الله. «عَلِيماً»، بما يُصْلِحُ عبادَهُ فيما يُكَلِّفُهم من فرائضهِ وغير ذلك. «حَكِيماً»، بما يَقضي فيهم ويريد.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا ﴿٩٣﴾﴾

يعني بذلك جَلَّ ثناؤهُ: ومن يقتل مؤمناً عامداً قتله، مريداً إتلافَ نفسهِ. «فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ»، يقول: فثوابهُ من قَتْلهِ إياهُ. «جَهَنَّمُ»، يعني: عذاب جهنم. «خَالِداً فِيهَا»، يعني: باقياً فيها. و«الهاء» و«الألف» في قوله: «فيها» من ذكر «جَهَنَّمُ». «وَغَضِبَ ٱللهُ عَلَيْهِ»، يقول: وغضبَ الله عليه بقتله إياه متعمداً. «وَلَعَنَهُ»، يقول: وأبعدَهُ من رحمتهِ وأخزاهُ. «وَأَعَدَّ لَهُ عَذَاباً عَظِيماً»، وذلكَ ما لا يعلمُ قَدْر مبلغهِ سواهُ تعالى ذِكْرُهُ.

وأما قوله: «فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِداً فِيهَا»، فإنَّ أهلَ التأويل اختلفوا في معناه.

فقال بعضهم معناه: فجزاؤه جهنم إنْ جازاه.

وقال آخرون: عني بذلك رجلٌ بعينه، كانَ اسلمَ فارتدَّ عن إسلامهِ، وقتل رجلاً مؤمناً. قالوا: فمعنى الآية: ومَنْ يقتل مؤمناً مُسْتَحِلاً قَتْلَهُ، فجزاؤهُ جهنم خالداً فيها.

وقال آخرون: معنى ذلك: إلاَّ مَنْ تابَ.

وقال آخرون: ذلك إيجابٌ من الله الوعيدَ لقاتلِ المؤمن متعمّداً، كائناً مَنْ كان القاتلُ، على ما وَصَفَهُ في كتابه، ولم يجعل له توبةً من فِعْلِه. قالوا: فَكُلُّ قاتلِ مؤمنٍ عمداً، فَلَهُ ما أوعده الله من العذابِ والخلودِ في النار، ولا توبةَ له. وقالوا: نزلت هذه الآية بعد التي في «سورة الفرقان».

وأوْلى الأقوالِ في ذلك بالصواب، قولُ مَنْ قال: معناه: ومَنْ يقتل مؤمناً متعمداً، فجزاؤُهُ إن جزاه جهنم خالداً فيها، ولكنه يعفو ويتفضَّل على أهلِ الإيمان به وبرسوله، فلا يُجازيهم بالخلود فيها، ولكنه عزَّ ذِكْرُهُ إما أنْ يعفوَ بفضلِه فلا يُدْخله النارَ، وإما أنْ يُدْخله إيَّاها ثم يخرجه منها بفضلِ رحمته، لِمَا سَلَفَ من وعدِه عبادَهُ المؤمنينَ بقوله: ﴿يَا عِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ ٱللهِ إِنَّ ٱللهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعاً﴾ [الزمر:٥٣].

فإنْ ظَنَّ ظانٌّ أنَّ القاتلَ إنْ وجبَ أنْ يكونَ داخلاً في هذه الآية، فقد يجب أنْ يكونَ المشركُ داخلاً فيه، لأن الشرك من الذنوب، فإنَّ الله عزَّ ذِكْرُهُ قد أخبر أنه غير غافرٍ الشركَ لأحدٍ بقوله: ﴿إِنَّ ٱللهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء:٤٨، ١١٦]، والقتل دون الشرك.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا ضَرَبْتُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُواْ وَلَا تَقُولُواْ لِمَنْ أَلْقَىٰٓ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَٰمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿٩٤﴾﴾

يعني جَلَّ ثناؤهُ بقوله: «يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا»، يا أيها الذين صَدَّقُوا الله وصدَّقوا رسوله فيما جاءهم به من عند ربهم. «إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ ٱللهِ»، يقول: إذا سرتم مسيراً لله في جهادِ أعدائكم. «فَتَبَيَّنُوا»، يقول: فَتَأَنَّوْا في قَتْلِ مَنْ أشكلَ عليكم أمرُه، فلم تَعْلَمُوا حقيقةَ إسلامهِ ولا كفره، ولا تعجلوا فتقتلوا مَن التبسَ عليكم أمرُه، ولا تتقدموا على قتلِ أحدٍ إلاَّ على قتلِ مَنْ علمتموه يقيناً حَرْباً لكم ولله ولرسوله، «وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَىٰ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ»، يقول: ولا تقولوا لمن استسلم لكم فلم يقاتلكم، مُظْهِراً لكم أنه من أهلِ مِلَّتِكم ودَعوتكم. «لَسْتَ مُؤْمِناً»، فتقتلوه ابتغاء «عَرَضَ ٱلْحَيَاةِ ٱلدُّنيَا»، يقول: طلبَ متاعِ الحياة الدنيا، فإنَّ. «عِندَ ٱللهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ»، مِنْ رزقهِ وفواضلِ نِعَمه، فهي خيرٌ لكم إنْ أطعتم الله فيما أمركم به ونهاكم عنه، فأثابكم بها على طاعتكم إياه، فالتمسوا ذلك من عنده. «كَذَٰلِكَ كُنْتُمْ مِّنْ قَبْلُ»، يقولُ: كما كان هذا الذي ألقى إليكم السلم فقلتم له: «لَسْتَ مُؤْمِناً» فقتلتموهُ، كذلك كنتم أنتم من قَبْلُ، يعني: مِنْ قَبْلِ إعزازِ الله دِينَهُ بتُبَّاعهِ وأنصارهِ، تستخفُونَ بدينكم، كما استخفى هذا الذي قتلتموهُ وأخذتم مالَهُ، بدينهِ من قومهِ أن يُظْهِرَهُ لهم، حَذَراً على نفسهِ منهم. وقد قيل إنَّ معنى قوله: «كَذَٰلِكَ كُنْتُمْ مِّنْ قَبْلُ»، كنتم كفاراً مثلهم. «فَمَنَّ ٱللهُ عَلَيْكُمْ»، يقول: فتفضَّلَ الله عليكم بإعزازِ دينه بأنصاره وكثرة تُبَّاعه. وقد قيل، فَمَنَّ الله عليكم بالتوبةِ من قتلكم هذا الذي قتلتموهُ وأخذتُمْ مالَهُ بعد ما ألقى إليكم السلم. «فَتَبَيَّنُوا»، يقول: فلا تَعْجَلُوا بقتلِ مَنْ أردتم قتلَه مِمَّن التبسَ عليكم أمرُ إسلامهِ، فلعلَّ الله أنْ يكونَ قد مَنَّ عليه من الإسلام بمثلِ الذي مَنَّ به عليكم، وهداه لمثل الذي هداكم له من الإيمان. «إِنَّ ٱللهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً»، يقول: إنَّ الله كان بقتلِكم مَنْ تقتلون، وكَفِّكم عَمَّنْ تكفُّون عن قتلهِ من أعداءِ الله وأعدائكم، وغير ذلك من أموركم وأمور غيركم. «خَبِيراً»، يعني: ذا خبرةٍ وعلمٍ به، يحفظهُ عليكم

وعليهم، حتى يجازي جميعكم به يومَ القيامةِ جزاءه، المحسنَ بإحسانهِ، والمسيءَ بإساءتهِ.

وذكر أن هذه الآية نزلت في سببِ قتيلٍ قتلته سريّةٌ لرسولِ الله ﷺ بعدما قال: «إنِّي مسلم»، أو بعدما شَهِدَ شهادةَ الحَقِّ، أو بعدما سلَّم عليهم، لغنيمةٍ كانت معه، أو غير ذلك من ملكه، فأخذوه منه.

واختلفت القَرَأَةُ في قراءةِ قوله: «فَتَبَيَّنُوا».

فقرأ ذلك عامةُ قَرَأَةِ المكيين والمدنيين وبعضُ الكوفيين والبصريين: ﴿فَتَبَيَّنُوا﴾ بالياء والنون، من «التبين» بمعنى، التأني والنظر والكشف عنه حتى يتَّضح.

وقرأ ذلك عُظْم قَرَأَةِ الكوفيين: «فَتَثَبَّتُوا»، بمعنى التثبُّت، الذي هو خلاف العَجَلة.

والقولُ عندنا في ذلك أنهما قراءتان معروفتان مستفيضتان في قَرَأَةِ المسلمينَ بمعنىً واحد، وإن اختلفتْ بهما الألفاظُ. لأنَّ «المتثبت» متبيِّنٌ، و«المتبيِّن» متثبِّتٌ، فبأيِّ القراءتين قرأَ القارئُ، فمصيبٌ صوابَ القراءة في ذلك.

واختلفت القَرَأَةُ في قراءةِ قوله: «وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَىٰ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ».

فقرأ ذلك عامةُ قَرَأَةِ المكيين والمدنيين والكوفيين: ﴿ٱلسَّلَمَ﴾ بغير ألف، بمعنى الاستسلام.

وقرأ بعض الكوفيين والبصريين: «السَّلاَمَ» بألف، بمعنى التحية.

والصوابُ من القراءة في ذلك عندنا: «لِمَنْ أَلْقَىٰ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ»، بمعنى: مَن استسلمَ لكم، مُذْعِناً لله بالتوحيدِ، مُقِراً لكم بملَّتِكم.

وإنما اخترنا ذلك، لاختلافِ الرواية في ذلك: فمن راوٍ روَى أنه استسلم بأنْ شَهِدَ شهادةَ الحقِّ وقال : «إنيِّ مسلم»، ومن راوٍ روى أنه قال: «السلام عليكم»، فَحَيَّاهُم تحيةَ الإسلام ومن راوٍ رَوى أنه كان مسلماً بإسلامٍ قد تَقَدَّمَ منه قبلَ قَتْلِهم إياهُ، وكل هذه المعاني يجمعه «السَّلَمَ»، لأنَّ المسلم مستسلمٌ، والمُحَيِّ بتحيةِ الإسـلامِ مستسلمٌ، والمتشهدُ شهادةَ الحقِّ مستسلمٌ لأهلِ الإسلام، فمعنى: «ٱلسَّلَمَ» جامع جميع المعاني التي رُويت في أمرِ المقتول الذي نزلت في شأنه هذه الآية. وليس ذلك في «السلام»، لأن «السلام» لا وجه له في هذا الموضع إلا التحية. فلذلك وصفنا «ٱلسَّلَمَ»، بالصواب.

واختلف أهلُ التأويل في تأويل قوله: «كَذَٰلِكَ كُنْتُم مِّنْ قَبْلُ».

فقال بعضهم: معناه: كما كان هذا الذي قتلتموه بعدما ألقَى إليكم، السَّلَمَ، مستخفياً في قومه بدينهِ خوفاً على نفسهِ منهم، كنتم أنتم مُسْتَخْفِينَ بأديانكم من قومكم حَذَراً على أنفسكم منهم، فَمَنَّ الله عليكم.

وقـال آخـرون: معنى ذلك: كما كان هذا الذي قتلتموه، بعدما ألقى إليكم، السلم، كافراً، كنتم كفاراً، فَهَدَاهُ كما هَدَاكم.

وأوْلى هذين القـولين بتـأويل الآية، القول الأول، وهو قولُ مَنْ قال: كذلـك كنتم تُخْفُـونَ إيمـانكم في قومكم من المشـركين وأنتم مقيمون بين أظهـرهم، كمـا كان هذا الـذي قتلتموه مقيماً بين أظهرِ قومهِ من المشركين مستخفياً بدينه منهم.

وإنما قلنا: «هذا التأويل أولى بالصواب»، لأنَّ الله عَزَّ ذِكْرُهُ إنما عاتبَ الذين قتلوه من أهلِ الإيمان بعد إلقائهِ إليهم السلم ولم يُقَدْبه قاتِلُوه، لِلَّبْسِ الـذي كان دَخَلَ في أمرهِ على قاتليهِ بمقامهِ بين أظهرِ قومهِ من المشركينَ، وظَنِّهم أنه ألقى السلم إلى المؤمنين تَعَوُّذاً منهم، ولم يعاتبهم على قتلهم إياه

مشركاً فيقال: «كما كان كافراً كنتم كفاراً»، بل لا وجهَ لذلك، لأنَّ الله جَلَّ ثناؤُهُ لم يعاتبْ أحداً من خَلْقِه على قتلِ محاربٍ لله ولرسولِهِ من أهلِ الشركِ، بعد إذْنِهِ له بقتله.

وأما قوله: «فَمَنَّ ٱللهُ عَلَيْكُمْ»، فإنه يعني بذلك: فَمَنَّ الله عليكم بإظهارِ دينه وإعزازِ أهلِهِ، حتى أظهروا الإسلامَ بعدما كانوا يكتتمون به من أهل الشرك.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِى ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ﴾

يعني جَلَّ ثناؤُهُ بقوله: «لَّا يَسْتَوِي ٱلْقَاعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِي ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَاهِدُونَ»، لا يعتدلِ المتخلِّفُونَ عن الجهادِ في سبيلِ الله من أهلِ الإيمانِ بالله وبرسوله، المُؤْثِرُونَ الدَّعةَ والخَفْض وَالقُعودَ في منازلهم على مُقاساةِ حُزُونة الأسفارِ والسير في الأرض، ومَشَقَّةِ ملاقاةِ أعداءِ الله بجهادهم في ذاتِ الله، وقتالهم في طاعة الله، إلَّا أهل العذر منهم بذَهَاب أبصارهم، وغير ذلك من العِلل التي لا سبيلَ لأهلها ـ للضَّرَر الذي بهم ـ إلى قتالِهم وجهادِهم في سبيل الله. «وَٱلْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللهِ»، ومنهاج دينه، لتكونَ كلمةُ الله هي العليا، المستفرغونَ طاقَتهم في قتالِ أعداءِ الله وأعداءِ دينهم ـ بأموالِهم، إنفاقاً لها فيما أوهَنَ كيدَ أعداءِ أهلِ الإيمان بالله ـ وبأنفسِهم، مباشرة بها قتالهم، بما تكونُ به كلمةُ الله العالية، وكلمة الذين كفروا السافلة.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ دَرَجَةً﴾

يعني بقوله جَلَّ ثناؤُهُ: «فَضَّلَ ٱللهُ ٱلْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَىٰ ٱلْقَاعِدِينَ دَرَجَةً»، فَضَّلَ اللهُ المجاهدينَ بأموالهم وأنفسهم، على القاعدينَ من أولي الضرر، درجةً واحدةً، يعني: فضيلةً واحدة، وذلك بفضلِ جهاده بنفسه، فأما فيما سوى ذلك، فهما مستويان.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٩٥﴾﴾:

يعني جَلَّ ثناؤُهُ: «وَكُلًّا وَعَدَ ٱللهُ ٱلْحُسْنَىٰ»، وَعَدَ الله الكلَّ من المجاهدينَ بأموالهم وأنفسهم، والقاعدينَ من أهلِ الضرر، «ٱلْحُسْنَى»، ويعني جَلَّ ثناؤُهُ: بـ«ٱلْحُسْنَىٰ»، الجنة.

وأما قوله: «وَفَضَّلَ ٱللهُ ٱلْمُجَاهِدِينَ عَلَىٰ ٱلْقَاعِدِينَ أَجْراً عَظِيماً»، فإنه يعني: وفَضَّلَ الله المجاهدينَ بأموالهم وأنفسهم على القاعدينَ من غيرِ أولى الضرر، أجراً عظيماً.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿دَرَجَٰتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٩٦﴾﴾

معنى الكلام: وفَضَّلَ الله المجاهدينَ في سبيل الله على القاعدين من غيرِ أولي الضرر، أجراً عظيماً، وثواباً جزيلاً، وهو درجات أَعْطَاهُمُوها في الآخرةِ من درجات الجنة، رَفَعَهم بها على القاعدينَ بما أَبْلَوا في ذاتِ الله.

«وَمَغْفِرَةً»، يقول: وصفح لهم عن ذنوبهم، فتفضَّلَ عليهم بترك عقوبتهم عليها. «وَرَحْمَةً»، يقول: ورأفة بهم. «وَكَانَ ٱللهُ غَفُوراً رَّحِيماً»، يقول: ولم

يَزَلِ الله غفوراً لذنوبِ عبادِه المؤمنينَ، يصفح لهم عن العقوبة عليها. «رَّحِيماً» بهم، يتفضلُ عليهم بنعمه، مع خلافهم أمره ونهيه، وركوبهم معاصيه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُواْ فِيمَ كُنتُمْ ۖ قَالُواْ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓاْ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُواْ فِيهَا ۚ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾ إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾ فَأُوْلَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٩٩﴾﴾

يعني جَلَّ ثناؤُهُ بقوله: «إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ ٱلْمَلائكَةُ»، إنَّ الذين تقبضُ أرواحَهم الملائكةُ. «ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ»، يعني: مُكسِبي أنفسِهم غضبَ الله وسخطه.

«قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ»، يقولُ: قالتِ الملائكة لهم: «فِيمَ كُنْتُمْ»، في أيِّ شيءٍ كنتم من دينكم. «قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي ٱلأَرْض»، يعني: قال الذين توفّاهم الملائكة ظالمي أنفسهم: «كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي ٱلأَرْض»، يَسْتَضْعِفُنَا أهلُ الشرك بالله في أرضنا وبلادنا بكثرةِ عددهم وقوتهم، فيمنعونا من الإيمانِ بالله، واتباع رسولِه ﷺ، معذرةٌ ضعيفةٌ وحُجَّة واهية. «قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا»، يقول: فتخرجُوا من أرضِكُم ودُورِكم، وتُفَارِقُوا مَنْ يمنعكم بها من الإيمانِ بالله واتباع رسوله ﷺ، إلى الأرضِ التي يمنعكم أهلُهَا من سلطانِ أهلِ الشركِ بالله، فَتُوَحِّدُوا الله فيها وتعبدوه، وتتبعوا نبيَّه؟

يقول الله جَلَّ ثناؤُهُ: «فَأُوْلَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ»، أي: فهؤلاء الذين وصفتُ لكم صِفَتَهم الذين تَوَفَّاهُم الملائكة ظالمي أنفسهم «مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ»، يقول:

مصيرهم في الآخرة جهنم، وهي مسكنهم. «وَسَاءَتْ مَصِيراً»، يعني: وساءت جهنم لأهلها الذين صاروا إليها. «مَصِيراً»، ومسكناً ومأوى.

ثم استثنى جَلَّ ثناؤُهُ المستضعفين الذين استضعفهم المشركون. «مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَاءِ وَٱلْوِلْدَانِ»، وهم العَجَزَةُ عن الهجرةِ بالعُسْرة، وقِلَّةِ الحيلة، وسوء البصر والمعرفةِ بالطريقِ من أرضِهم أرضِ الشركِ إلى أرضِ الإسلام، من القومِ الذين أخبر جَلَّ ثناؤُهُ أنَّ مأواهم جهنم: أنْ تكون جهنم مأواهم، للعذر الذي هم فيه على ما بَيَّنَهُ تعالى ذِكْرُهُ.

يقول الله جَلَّ ثناؤُهُ: «فَأُوْلَئِكَ عَسَىٰ ٱللهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ»، يعني: هؤلاء المستضعفين، يقول: لعلَّ الله أنْ يعفو عنهم، للعذرِ الذي هُمْ فيه مؤمنون، فيفضل عليهم بالصفح عنهم في تركهم الهجرة، إذْ لم يتركوها اختياراً ولا إيثاراً منهم لدارِ الكفر على دارِ الإسلام، ولكنْ للعجزِ الذي هُمْ فيه عن النّقلة عنها. «وَكَانَ ٱللهُ عَفُوّاً غَفُوراً»، يقول: ولم يَزَلِ الله «عَفُوّاً»، ذَا صَفْحٍ بفضله عن ذنوبِ عباده، بتركهِ العقوبةَ عليها. «غَفُوراً»، ساتراً عليهم ذنوبهم بعفوه لهم عنها.

وذكر أنَّ هاتين الآيتين والتي بعدهما، نزلتْ في أقوامٍ من أهل مكة كانوا قد اسلموا وآمنوا بالله وبرسوله، وتَخلَّفُوا عن الهجرةِ مع رسولِ الله ﷺ حين هاجَر، وعُرِضَ بعضُهم على الفتنة فافْتُتِنَ، وشَهِدَ مع المشركينَ حربَ المسلمين، فأبى الله قبولَ معذرتهم التي اعتذروا بها، التي بَيَّنَها في قولِهِ خبراً عنهم: «قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي ٱلأَرْضِ».

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِي ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ١٠٠﴾

يعني جَلَّ ثناؤُهُ بقوله: «وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ ٱللهِ»، ومَنْ يُفارق أرضَ الشِّرْكِ وأهلَها هرباً بدينهِ منها ومنهم، إلى أرضِ الإسلامِ وأهلها المؤمنينَ. «فِي سَبِيلِ ٱللهِ»، يعني: في منهاجِ دِينِ الله وطريقهِ الذي شَرَعَهُ لِخَلْقِهِ، وذلك الدين القَيِّم. «يَجِدْ فِي ٱلأَرْضِ مُرَاغَماً كَثِيراً»، يقول: يجد هذا المهاجرُ في سبيلِ الله. «مُرَاغَماً كَثِيراً»، وهو المُضْطَّرَبُ في البلادِ والمذْهب.

ثم أخبر جَلَّ ثناؤُهُ عَمَّنْ خرجَ مهاجراً من أرضِ الشركِ فارًّاً بدينه إلى الله وإلى رسوله، إنْ أدْرَكَتْهُ مَنِيَّتُهُ قبلَ بلوغهِ أرضَ الإسلام ودارَ الهجرة فقال: مَنْ كان كذلك. «فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى ٱللهِ»، وذلك ثوابُ عملهِ وجزاءُ هجرتهِ وفراق وطنه وعشيرته إلى دارِ الإسلام وأهل دينه. يقول جَلَّ ثناؤُهُ: ومَنْ يخرج مهاجراً من دارهِ إلى الله وإلى رسولهِ، فقد استوجبَ ثوابَ هجرتهِ إنْ لم يَبْلُغْ دارَ هجـرته باخترامِ المنية إيَّاهُ قبلَ بلوغهِ إياها على ربه. «وَكَانَ ٱللهُ غَفُوراً رَّحِيماً»، يقول: ولم يَزَلِ الله تعالى ذِكْرُهُ. «غفوراً»، يعني: ساتراً ذنوبَ عباده المؤمنينَ بالعفوِ لهم عن العقوبة عليها. «رَّحِيماً»، بهم رفيقاً.

وذُكِرَ أنَّ هذه الآيةَ نزلت بسببِ بعض مَنْ كان مقيماً بمكة وهو مسلمٌ، فخـرج لمـا بلغه أنَّ الله أنزل الآيتين قبلها، وذلك قوله: «إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ ٱلْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ» إلى قوله: «وكانَ الله عَفُوًّا غفوراً»، فمات في طريقه قبلَ بلوغه المدينة.

وأوْلى الأقوالِ في ذلك بالصواب أن يقال: إنَّ الله أخبرَ أنَّ مَنْ هاجر في سبيله يجد في الأرض مُضْطَرَباً ومتَّسَعاً. وقد يدخل في «السعة»، السعةُ في الرزق، والغنى من الفقر، ويدخلُ فيه السَّعةُ من ضيقِ الهَمِّ والكَرْبِ الذي كان فيه أهلُ الإيمانِ بالله من المشركين بمكة، وغير ذلك من معاني «السعة»، التي هي بمعنى الرَّوْح والفَرج من مكروهِ ما كره الله للمؤمنين بمقامهم بين ظَهْري

المشركين وفي سلطانهم. ولم يضع الله دِلالة على أنه عَنَى بقوله: «وَسَعَةً»، بعضَ معاني «السعة» التي وصفنا. فكِل معاني «السعة» التي هي بمعنى الرَّوح والفرج مما كانوا فيه من ضيق العيش، وغَمِّ جِوار أهلِ الشرك، وضيقِ الصدرِ بتعـذُّرِ إظهـارِ الإيمانِ بالله وإخلاصِ توحيده وفراقِ الأنداد والآلهة، داخلٌ في ذلك.

وقد تَأَوَّلَ قومٌ من أهلِ العلم هذه الآيةَ ـ أعني قوله: «وَمَن يَخْرُجْ مِن بَيْتِهِ مُهَاجِراً إلى ٱللهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى ٱللهِ» ـ أنها في حكم الغازي يخرجُ للغزو، فيدركهُ الموتُ بعدما يخرج من منزله فاصلاً فيموت، أنَّ له سَهْمه من المغنَم، وإنْ لم يكنْ شَهدَ الوقعةَ.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي ٱلْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا۟ مِنَ ٱلصَّلَوٰةِ إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنَّ ٱلْكَـٰفِرِينَ كَانُوا۟ لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿١٠١﴾﴾

يعني جَلَّ ثنـاؤُهُ بقـوله: «وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي ٱلْأَرْضِ»، وإذا سرتم أيها المؤمنونَ في الأرض، «فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ»، يقول: فليس عليكم حَرَجٌ ولا إثم. «أَن تَقْصُرُوا مِنَ ٱلصَّلاَةِ»، يعني: أن تقصروا من عددها، فَتُصَلُّوا ما كَانَ لكم عَدَدُهُ منها في الحضر وأنتم مقيمون أربعاً، اثنتين، في قولِ بعضهم.

وقيل: معناه: لا جُناحَ عليكم أنْ تَقْصُروا من الصلاةِ إلى أقلِّ عددها في حال ضَرْبِكم في الأرض ـ أشار إلى واحدة، في قولِ آخرين.

وقال آخرون: معنى ذلك: لا جُنَاحَ عليكم أنْ تَقْصُروا من حدودِ الصلاة.

«إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا»، يعني: إنْ خشيتم أن يفتنكم الذين

كفروا في صلاتكم. وفِتْنَتُهم إياهم فيها: حَمْلُهم عليهم وهم فيها ساجدونَ حتى يَقْتُلوهم أو يأسروهم، فيمنعوهم من إقامَتِهَا وأدائها، ويحولُوا بينهم وبين عبادةِ الله وإخلاص التوحيد له.

ثم أخبرهم جَلَّ ثناؤُهُ عما عليه أهلُ الكفر لهم فقال: «إِنَّ ٱلْكَافِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُواً مُّبِيناً»، يعني: الجاحدينَ وحدانيةَ الله. «كَانُوا لَكُمْ عَدُواً مُّبِيناً»، يقول: عدواً قد أبانوا لكم عداوتهم بمنَاصبتهم لكمُ الحربَ على إيمانِكم بالله وبرسولِهِ، وتَرْكِكم عبادةَ ما يعبدونَ من الأوثانِ والأصنام، ومخالفتكم ما هُمْ عليه من الضلالة.

واختلف أهلُ التأويل في معنى: «القصر» الذي وضع الله الجُنَاحَ فيه عن فاعله.

وأَوْلى الأقوال قولُ مَنْ قال: «عَنَى بالقصر فيها، القصرَ من حدودها. وذلـك ترك إتمامِ ركوعها وسجودها، وإباحة أدائها كيف أمكن أداؤها، مستقبلَ القبلةِ فيها ومستدبرَها، وراكباً وماشياً، وذلك في حال السَّلَّة والمسايفة والتحام الحرب وتزاحف الصفوف، وهي الحالة التي قال الله تبارك وتعالى: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالاً أَوْ رُكْبَاناً﴾ [البقرة: ٢٣٩]، وأذن بالصلاةِ المكتوبةِ فيها راكباً، إيماءً بالركوع والسجود.

وإنما قلنا ذلك أولى التأويلات بقوله: «وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي ٱلأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا مِنَ ٱلصَّلاَةِ إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا»، لدلالةِ قولِ الله تعالى: «فَإِذَا ٱطْمَأْنَنْتُمْ فَأَقِيمُوا ٱلصَّلاَةَ»، على أنَّ ذلك كذلك. لأنَّ إقامتها: إتمامُ حُدودِها من الركوعِ والسجودِ وسائرِ فُروضِهَا، دونَ الزيادةِ في عددها التي لم تكن واجبةً في حال الخوف.

فإنْ ظَنَّ ظَانٌ أنَّ ذلك أمرٌ من الله بإتمامِ عددها الواجب عليه في حال

الأمن بعد زوال الخوف، فقد يجب أن يكون المسافر في حال قصره صلاته عن صلاةِ المقيم، غيرَ مقيمٍ صلاتَهُ، لنقصِ عدد صلاته من الأربع اللازمة كانت له في حالِ إقامته إلى الركعتين. وذلك قولٌ إنْ قاله قائلٌ، مخالفٌ لما عليه الأمةُ مُجْمِعَةٌ: من أنَّ المسافرَ لا يستحق أنْ يقالَ له - إذا أتى بصلاتهِ بكمالِ حدودِهَا المفروضةِ عليه فيها، وقصر عددَهَا عن أربعٍ إلى اثنتين -: «إنه غيرُ مقيمٍ صلاتَهُ».

وإذا كان ذلك كذلك، وكانَ الله تعالى قد أمر الذي أباح له أن يقصر صلاتَهُ خوفاً من عدوه أنْ يَفْتِنَهُ، أنْ يقيمَ صلاتَه إذا اطمأن وزالَ الخوفُ، كان معلوماً أن الذي فرض عليه من إقامة ذلك في حال الطمأنينة، عين الذي كان أسقط عنه حال الخوفِ. وإذْ كان الذي فرض عليه في حال الطمأنينة: إقامة صلاته، فالذي أسقط عنه في غير حال الطمأنينة: تركُ إقامتها. وقد دللنا على أنَّ تركَ إقامتها، إنما هو ترك حدودها، على ما بَيَّنَّا.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوٓا۟ أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا۟ فَلْيَكُونُوا۟ مِن وَرَآئِكُمْ وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّوا۟ فَلْيُصَلُّوا۟ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا۟ حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَدَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَٰحِدَةً﴾

يعني بذلك جَلَّ ثناؤُهُ: وإذا كنتَ في الضاربينَ في الأرضِ من أصحابك، يا محمدُ، الخائفينَ عدوهم أنْ يفتنهم. «فَأَقَمْتَ لَهُمُ ٱلصَّلَاةَ»، يقول: فأقمتَ لهم الصلاةَ بحدودها وركوعها وسجودها، ولم تقصرها القصرَ الذي أبحتُ لهم أن يقصروها في حال تلاقيهم وعَدُوَّهم وتَزَاحُفِ بعضِهم على

بعضٍ، من تركِ إقامةِ حدودها وركوعها وسجودها وسائر فروضها. «فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ»، يعني: فلتقم فرقةٌ من أصحابك الذين تكونُ أنتَ فيهم معكَ في صلاتكَ، وليكن سائرهم في وجوه العدو.

وترك ذِكر ما ينبغي لسائرِ الطوائفِ غير المصلِّية مع النبي ﷺ أنْ يفعله، لدلالـةِ الكلامِ المذكورِ على المرادِ به، والاستغناءِ بما ذكر عما ترك ذكره. «وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ».

فتـأويلُ الآية، على قولِ هؤلاء الـذين قالـوا هذه المقـالةَ ورووا هذه الروايةَ: وإذا كنت يا محمد، فيهم يعني: في أصحابكَ خائفاً. «فَأَقَمْتَ لَهُمُ ٱلصَّلَاةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ»، يعني: مِمَّنْ دخلَ معك في صلاتك. «فَإِذَا سَجَـدُوا»، يقـول: فإذا سجدتْ هذه الطائفةُ بسجودكَ، ورفَعتْ رؤوسَها من سجودها. «فَلْيَكُونُوا مِن وَرَائِكُمْ»، يقول: فَلْيَصِرْ مَنْ خلفكَ خَلْفَ الطائفةِ التي حرستـكَ وإياهم إذا سجـدتَ بهم وسجدُوا معكَ. «وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّوا»، يعني: الطائفةَ الحارسةَ التي صَلَّتْ معه، غير أنها لم تسجدْ بسجودِهِ. فمعنى قولــه: «لَمْ يُصَلُّوا» ـ على مذهب هؤلاء ـ: لم يسجـدوا بسجـودكَ. «فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ»، فإذا سجدت الطائفةُ التي قامت معك في صلاتها. «فَلْيَكُونُوا مِن وَرَائِكُمْ»، يعني: من خلفكَ وخلفِ مَنْ يدخلُ في صلاتك مِمَّنْ لم يُصَلِّ معكَ الركعةَ الأولى بإزاء العدو، وبعد فراغها من بقية صلاتها. «وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَىٰ»، وهي الطائفةُ التي كانت بإزاء العدو. «لَمْ يُصَلُّوا»، يقول: لم يصلوا معك الركعةَ الأولى «فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ»، يقول: فليصلوا معكَ الركعةَ التي بقيت عليكَ. «وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ»، لقتال عدوهم، بعدما يفرغون من صلاتهم.

وذلك نظير الخبرِ الذي رُويَ عن رسولِ الله ﷺ، أنه فعله يوم ذَاتِ

الرِّقاع(١)، والخبر الذي روى سهل بن أبي حثمة(٢).

وإنما قلنا: ذلك أولى بتأويلِ الآية، لأنَّ الله عز ذِكْرُهُ قال: «وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ ٱلصَّلَاةَ»، وقد دللنا على أنَّ «إقامتها»، إتمامها بركوعها وسجودها، ودَللنا مع ذلك على أنَّ قولَهُ: «فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا مِنَ ٱلصَّلَاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا»، إنما هو إذنٌ بالقصرِ من ركوعها وسجودها في حال شِدَّةِ الخوف.

وأما قوله: «وَدَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ»، فإنه يعني: تَمَنَّى الذين كفروا بالله. «لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ»، يقول: لو تَشْتَغِلُونَ بصلاتكم عن أسلحتكم التي تقاتلونهم بها، وعن أمتعتكم التي بها بَلاغُكُم في أسفاركم فتسهونَ عنها. «فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مَّيْلَةً وَاحِدَةً»، يقول: فيحملونَ عليكم وأنتم مشاغيلُ بصلاتِكم عن أسلحتِكم وأمتعتكم حملةً واحدة، فيصيبون منكم غِرَّة بذلك، فيقتلونكم ويستبيحون عسكركم.

يقول جَلَّ ذِكْرُهُ: فلا تفعلوا ذلك بعد هذا، فتشتغلوا جميعكم بصلاتِكُم إذا حَضَرَتْكُم صلاتُكم وأنتم مْواقِفُو العدوِّ، فَتُمَكِّنُوا عَدُوَّكُم من أنفسِكم وأسلحتكم وأمتعتكم، ولكنْ أقيموا الصلاةَ على ما بَيَّنْتُ لكم، وخُذُوا من عدوكم حذْركم وأسلحتكم.

---

(١) أخرجه المؤلف (١٠٣٤٥)، وهو في الصحيحين: البخاري (٤١٢٩)، ومسلم (٨٤١).

(٢) الخبر الذي روي عن سهل بن أبي حثمة صحيح المتن، وهو الحديث السابق في صلاة الخوف بذات الرقاع الذي جاء فيه «عمن صلى مع النبي ﷺ» وهو في الأصح خوات بن جبير، لا سهل بن أبي حثمة حيث إنه كان صغيراً آنذاك، إذ توفي رسول الله ﷺ وهو ابن ثمان سنين فقط. (انظر فتح الباري: ٤٢٢/٧)، وراجع ترجمة سهل في تهذيب الكمال: ١٧٧/١٢-١٧٩.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَن تَضَعُوٓا۟ أَسْلِحَتَكُمْ ۖ وَخُذُوا۟ حِذْرَكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٠٢﴾﴾

يعني جَلَّ ثناؤُهُ بقوله: «وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ»، ولا حَرَجَ عليكم ولا إثمَ. «إِن كَانَ بِكُمْ أَذىً مِّن مَّطَرٍ»، يقول: إنْ نالكم أذى من مطرٍ تُمْطَرُونَهُ وأنتم مُواقِفُو عَدُوِّكم. «أَوْ كُنْتُمْ مَّرْضَى»، يقول: أو كنتم جرحى أو أعِلاَّء. «أَن تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ»، إنْ ضعفتم عن حَمْلِهَا، ولكنْ إنْ وضعتم أسلحتكم من أذى مطرٍ أو مرضٍ، فَخُذُوا من عَدُوِّكم «حِذْرَكُمْ»، يقول: احترسوا منهم أنْ يميلُوا عليكم وأنتم عنهم غافلون غارّون. «إِنَّ ٱللهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَاباً مُّهِيناً»، يعني بذلك: أعَدَّ لهم عذاباً مُذِلاً يبقون فيه أبداً، لا يخرجون منه. وذلك هو عذابُ جهنم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ ۚ فَإِذَا ٱطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ﴾

يعني بذلك جَلَّ ثناؤُهُ: فإذا فرغتم، أيها المؤمنونَ، من صلاتِكم وأنتم مواقفو عدوِّكم التي بَيَّناها لكم، فاذكروا الله على كُلِّ أحوالِكم قياماً وقعوداً ومضطجعينَ على جُنوبكم، بالتعظيم له، والدعاءِ لأنفسِكم بالظفرِ على عدوكم، لَعَلَّ الله أنْ يظفركم وينصركم عليهم. وذلك نظير قوله: ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُوا وَاذْكُرُوا الله كَثِيراً لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الأنفال: ٤٥].

وأما قوله: «فَإِذَا ٱطْمَأْنَنْتُمْ فَأَقِيمُوا ٱلصَّلَاةَ»، فإنَّ أهل التأويل اختلفوا في تأويله.

فقال بعضهم: معنى قوله: «فَإِذَا ٱطْمَأْنَنتُمْ»، فإذا استقررتم في أوطانِكم وأقمتم في أمصاركم. «فَأَقِيمُوا»، يعني: فَأَتِمُّوا الصلاةَ التي أذن لكم بِقَصْرِهَا في حالِ خوفِكم في سفركم وضربكم في الأرض.

وقال آخرون: معنى ذلك: فإذا استقررتم. «فَأَقِيمُوا ٱلصَّلَاةَ»، أي: فأتِمُّوا حُدودَها بركوعها وسجودها.

وأولى التأويلين بتأويلِ الآية، تأويل مَنْ تأوَّلَهُ: فإذا زال خَوْفُكم من عدوكم وأَمِنْتُم، أيها المؤمنونَ، واطمأنتْ أنفسكم بالأمنِ. «فَأَقِيمُوا ٱلصَّلَاةَ»، فأتموا حُدودَها المفروضةَ عليكم، غير قَاصِرِيهَا عن شيءٍ من حدودها.

وإنما قلنا ذلك أوْلى التأويلين بالآية، لأنَّ الله تعالى ذِكْرُهُ عَرَّفَ عباده المؤمنينَ الواجبَ عليهم من فرضِ صَلاتهم بهاتين الآيتين في حالين:

إحداهما: حالُ شِدَّةِ خوف، أَذِنَ لهم فيها بقصرِ الصلاةِ، على ما بيَّنت من قَصْرِ حدودها عن التمام.

والأخرى: حالُ غيرِ شِدَّةِ الخوفِ، أَمَرهم فيها بإقامةِ حدودها وإتمامها، على ما وصَفَهُ لهم جَلَّ ثناؤُهُ، من معاقبةِ بعضِهم بعضاً في الصلاة خلفَ أئمتهم، وحراسة بعضهم بعضاً من عدوهم. وهي حالة لا قَصْرَ فيها، لأنه يقول جَلَّ ثناؤُهُ: لنبيهِ ﷺ في هذه الحال: «وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ ٱلصَّلَاةَ». فمعلومٌ بذلك أن قوله: «فَإِذَا ٱطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُوا ٱلصَّلَاةَ»، إنما هو: فإذا اطمأننتم من الحالِ التي لم تكونوا مقيمينَ فيها صلاتكم، فأقيموها. وتلك حالة شدةِ الخوفِ، لأنه قد أمرهم بإقامتها في حال غير شدةِ الخوفِ بقوله: «وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ ٱلصَّلَاةَ» الآية.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَـٰبًا

﴿مَّوْقُوتًا ﴿١٠٣﴾﴾

اختلف أهلُ التأويل في تأويل ذلك.

فقال بعضهم: معناه: إنَّ الصلاةَ كانت على المؤمنين فريضةً مفروضة.

وقال آخرون: معنى ذلك: إنَّ الصلاةَ كانت على المؤمنين فرضاً واجباً.

وقال آخرون: معنى ذلك: إنَّ الصلاةَ كانت على المؤمنين كتاباً موقوتاً، مُنَجَّماً يُؤَدُّونَها في أنجمها[1].

وهـذه الأقـوال قريب معنى بعضهـا من بعض. لأنَّ ما كان مفـروضـاً فواجب، وما كان واجباً أداؤه في وقتٍ بعد وقتٍ فَمُنَجَّمٌ.

غيرَ أنَّ أولى المعاني بتأويلِ الكلمة، قولُ مَنْ قال: «إنَّ الصلاة كانت على المؤمنين فرضـاً منجَّمـاً»، لأنَّ «المـوقـوتَ» إنما هو «مفعول» من قولِ القائل: «وَقَتَ الله عليك فرضه فهو يَقِته»، ففرضه عليكَ «موقوت»، إذا أخَّرْتَهُ، جعل له وقتاً يجبُ عليكَ أداؤُه. فكذلك معنى قوله: «إِنَّ ٱلصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَىٰ ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَاباً مَّوْقُوتاً»، إنما هو: كانت على المؤمنين فرضاً وقَّت لهم وقتَ وجوبِ أدائه، فَبَيَّنَ ذلك لهم.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَـالَى: ﴿وَلَا تَهِنُوا۟ فِى ٱبْتِغَآءِ ٱلْقَوْمِ ۖ إِن تَكُونُوا۟ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ ۖ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ ۗ﴾

يعني جَلَّ ثناؤُهُ بقوله: «وَلاَ تَهِنُوا»، ولا تَضْعُفُوا.

وقـولـه: «في ٱبْتِغَـاءِ ٱلْقَـوْمِ»، يعني: في التمـاسِ القـوم وطلبهم،

(١) النجم: هو الوقت المضروب. وجمعه: نجوم وأنجم.

و«ٱلْقَوْمِ» هم أعداءُ الله وأعداءُ المؤمنينَ من أهلِ الشركِ باللهِ. «إن تَكُونُوا تَأْلَمُونَ»، يقول: إنْ تكونوا أيها المؤمنون، تَيْجعون[1] مما ينالكم من الجراح منهم في الدنيا. «فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ»، يقول: فإنَّ المشركين يَيْجعون مما يَنَالُهم منكم من الجِراحِ والأذى مثل ما تَيْجَعُونَ أنتم من جِراحهم وأذاهم فيها. «وَتَرْجُونَ»، أنتم أيها المؤمنون. «مِنَ ٱللهِ» من الثوابِ على ما ينالكم منهم. «مَالاَ يَرْجُونَ» هُمْ على ما ينالُهم مِنْكُم. يقول: فأنتم إذْ كنتم مُوقِنِينَ من ثوابِ الله لكم على ما يُصِيبُكُم منهم، بما هم به مُكَذِّبُونَ أَوْلى وأحرَى أنْ تَصبِرُوا على حَرْبِهم وقتالهم، منهم على قتالكم وحربكم، وأنْ تَجِدُّوا في طَلَبِهم وابتغائِهم، لقتالهم على ما يَهِنُونَ فيه ولا يَجِدُّون، فكيف على ما جَدُّوا فيه ولم يَهِنُوا؟

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ١٠٤﴾

يعني بذلـك جَلَّ ثناؤُهُ: ولم يَزَلِ الله. «عَلِيماً» بمصالـح خَلْقِـه. «حَكِيماً»، في تدبيرِهِ وتقديرِهِ، ومن علمه، أيها المؤمنون، بمصالحكم عَرَّفكم عندَ حُضورِ صلاتكم وواجبِ فرضِ الله عليكم، وأنتم مُواقِفُو عَدُوِّكم ما يكون به وصولكم إلى أداءِ فرضِ الله عليكم، والسلامة من عدوكم. ومن حكمته بَصَّرَكُم ما فيه تأييدكم وتوهينُ كيدِ عَدُوِّكم.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَـالَى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ ۚ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا ١٠٥ وَٱسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ١٠٦﴾

---

(١) أي: تَأْلمونَ، ويقال: «وجع الرجل يوجع ويَيْجَعُ وياجع وجعاً»، كله صواب جيد.

يعني جَلَّ ثناؤُهُ بقوله: «إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ ٱلْكِتَابَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَا أَرَاكَ ٱللهُ»، «إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ» يا محمدُ. «ٱلْكِتَابَ»، يعني: القرآن. «لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ»، لتقضي بين الناس فتفصل بينهم. «بِمَا أَرَاكَ ٱللهُ»، يعني: بما أنزل الله إليكَ من كتابه. «وَلَا تَكُنْ لِّلْخَائِنِينَ خَصِيماً»، يقول: ولا تَكُنْ لمن خانَ مسلماً أو معاهداً في نفسه أو ماله. «خَصِيماً» تخاصم عنه، وتدفع عنه من طالبه بحقِّه الذي خانه فيه. «وَٱسْتَغْفِرِ ٱللهُ»، يا محمدُ، وسَلْهُ أنْ يصفحَ لكَ عن عقوبةِ ذنبكَ في مخاصمتك عن الخائنِ مَنْ خان مالاً لغيرِه. «إِنَّ ٱللهَ كَانَ غَفُوراً رَّحِيماً»، يقول: إنَّ الله لم يَزَلْ يصفحُ عن ذنوبِ عبادِه المؤمنينَ، بتركهِ عقوبتهم عليها إذا استغفروه منها. «رَّحِيماً» بهم، فافعلْ ذلكَ أنتَ، يا محمدُ، يغفر الله لكَ ما سَلَفَ من خصومتكَ عن هذا الخائن.

وقد قيل إنَّ النبيَّ ﷺ لم يَكُنْ خاصمَ عن الخائن، ولكنه هَمَّ بذلك، فأمره الله بالاستغفار مما هَمَّ به من ذلك.

وذكر أنَّ الخائنين الذين عاتبَ الله جَلَّ ثناؤُهُ نَبِيَّهُ ﷺ في خصومته عنهم: بنو أُبَيْرِق[1].

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَالَى: وَلَا تُجَـٰدِلْ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا ﴿١٠٧﴾

يعني بذلك جَلَّ ثناؤُهُ: «وَلَا تُجَادِلْ» يا محمدُ، فتخاصم. «عَنِ ٱلَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنْفُسَهُمْ»، يعني: يُخَوِّنُونَ أنفسهم، يجعلونها خَوَنَة بخيانتهم ما خانوا من أموالِ مَنْ خانوه مالَه، وهم بنو أُبيرق. يقول: لا تخاصم عنهم من يطالبهم

(١) حيث جَحَدُوا وديعة أودعوها، فَبَيَّنَ الله خيانتهم.

بحقوقهم وما خانوه فيه من أموالهم. «إِنَّ ٱللهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّاناً أَثِيماً»، يقول: إنَّ الله لا يحبُّ مَنْ كان مِنْ صِفَتِه خِيَانة الناسِ في أموالهم، وركوب الإثم في ذلك وغيره مما حَرَّمه الله عليه.

القَــوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِــهِ تَعَــالَى: يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا ﴿١٠٨﴾

يعني جَلَّ ثناؤُهُ بقوله: «يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ»، يستخفي هؤلاء الذين يختانـونَ أنفسهم، ما أتَـوْا من الخيانـةِ، وركبـوا من العار والمعصية. «مِنَ ٱلنَّـاسِ»، الـذين لا يقدرون لهم على شيء، إلا ذِكْرهم بقبيحِ ما أتَوْا من فِعْلِهم، وشنيع ما رَكِبُوا من جُرْمهم إذا اطَّلَعُوا عليه، حياءً منهم وحَذَراً من قبيحِ الأُحدوثةِ. «وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللهِ» الذي هو مُطَّلِعٌ عليهم، لا يخفى عليه شيءٌ من أعمالهم، وبيده العقابُ والنَّكالُ وتعجيلُ العذابِ، وهو أحقُّ أن يُسْتَحيا منه من غيرِهِ، وأوْلى أنْ يُعَظَّمَ بأنْ لا يراهم حيثُ يكرهون أنْ يراهم أحدٌ من خَلْقِه، «وَهُـوَ مَعَهُمْ»، يعني: والله شاهـدهم. «إِذْ يُبَيِّتُونَ مَالَا يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِ»، يقول: حين يُسَوُّون ليلاً مالا يَرضى من القول، فَيُغَيِّرونَهُ عن وجههِ، ويكذبون فيه.

«وَكَانَ ٱللهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطاً»، يعني جَلَّ ثناؤُهُ: وكان الله بما يعملُ هؤلاء المُسْتَخْفُونَ من الناسِ، فيما أتَوْا من جُرْمهم، حياءً منهم، من تَبْييتهم ما لايَرْضَى من القولِ، وغيره من أفعالهم. «مُحِيطاً»، مُحْصِياً لا يَخْفَى عليه شيءٌ منه، حافظاً لذلك عليهم، حتى يجازيهم عليه جزاءهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ جَٰدَلْتُمْ عَنْهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَمَن يُجَٰدِلُ ٱللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَم مَّن يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ١٠٩﴾

يعني جَلَّ ثناؤُهُ بقوله: «هاأَنْتُمْ هَؤُلاءِ جادَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي ٱلْحَياةِ ٱلدُّنْيَا»، هاأنتم الذين جادلتم، يا معشرَ مَنْ جادل عن بني أُبيرق. «فِي ٱلْحَياةِ ٱلدُّنْيَا»، و«الهاء» و«الميم» في قوله: «عَنْهُمْ» من ذِكْرِ الخائنين.

«فَمَن يُجَادِلُ ٱللهَ عَنْهُمْ»، يقول: فَمَنْ ذَا يخاصمُ الله عنهم، «يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ»، أي: يومَ يقومُ الناسُ من قبورهم لمحشرهم، فيدافع عنهم ما الله فاعلٌ بهم ومعاقبهم به. وإنما يعني بذلك: إنكم أيها المدافعونَ عن هؤلاءِ الخائنينَ أنفسهم، وإنْ دافعتم عنهم في عاجلِ الدنيا، فإنهم سيصيرونَ في آجلِ الآخرةِ إلى مَنْ لا يدافعُ عنهم عندَهُ أحدٌ فيما يَحُلُّ بهم من أليمِ العذابِ ونَكالِ العقاب.

وأما قوله: «أَم مَّن يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلاً»، فإنه يعني: ومَنْ ذا الذي يكونُ على هؤلاء الخائنين وكيلاً يومَ القيامة. أي: ومَنْ يتوكَّلُ لهم في خصومةِ رَبِّهم عنهم يوم القيامة.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ١١٠﴾

يعني بذلك جَلَّ ثناؤُهُ: ومَنْ يعملْ ذنباً، وهو «السوء»، «أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ»، بإكسابهِ إيَّاها ما يستحق به عقوبة الله. «ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللهَ»، يقول: ثم يتوبُ إلى

الله بإنابتهِ مما عملَ من السوءِ وظُلْم نَفْسِهِ، ومراجعته ما يحبهُ الله من الأعمالِ الصالحةِ التي تمحو ذَنْبَهُ وتُذْهب جُرْمَهُ. «يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُوراً رَّحِيماً»، يقول: يجد رَبَّهُ ساتراً عليه ذنبه بصفحهِ له عن عقوبةِ جرمه، رحيماً به.

(وقد) عَنَى الله بهذه الآية كُلَّ مَنْ عملَ سوءاً أو ظلم نفسه، وإنْ كانتْ نزلت في أمرِ الخائنينَ والمجادلين عنهم الذين ذَكَرَ الله أمرَهم في الآياتِ قبلها.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿وَمَن يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُۥ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١١﴾﴾

يعني بذلك جَلَّ ثناؤُهُ: ومَنْ يأتِ ذنباً على عَمْدٍ منه له ومعرفةٍ به، فإنما يجترحُ وَبَالَ ذلك الذَّنْبِ وضُرَّهُ وخِزْيه وعارَهُ على نفسه، دون غيره من سائر خلق الله، يقول: فلا تجادلوا، أيها الذين تجادلونَ، عن هؤلاء الخونة، فإنكم وإنْ كنتم لهم عشيرةً وقرابةً وجيراناً، برآء مما أتوه من الذنب ومن التَّبعة التي يُتَّبعون بها، وإنكم متى دافعتم عنهم أو خاصمتم بسببهم، كُنْتُمْ مِثْلَهم، فلا تدافعوا عنهم ولا تخاصموا.

وأما قوله: «وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً»، فإنه يعني: وكان الله عالماً بما تفعلونَ، أيها المجادلون عن الذين يختانونَ أنفسهم، في جِدالكم عنهم وغير ذلك من أفعالِكم وأفعالِ غيركم، وهو يُحْصِيها عليكم وعليهم، حتى يجازي جميعكم بها. «حَكِيماً»، يقول: وهو حكيمٌ بسياستكم وتدبيركم وتدبير جميع خَلْقِه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿وَمَن يَكْسِبْ خَطِيٓـَٔةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِۦ بَرِيٓـًٔا فَقَدِ ٱحْتَمَلَ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿١١٢﴾﴾

يعني بذلك جَلَّ ثناؤُهُ: ومَنْ يعملْ خطيئةً، وهيِ الذنبُ. «أَوْ إِثْماً»، وهو ما لايحل من المعصية.

وإنما فَرَّقَ بين «الخطيئة» و«الإثم»، لأنَّ «الخطيئة»، قد تكونُ من قبل العَمْد وغير العمد، و«الإثم» لا يكونُ إلَّا من العَمْد، ففصَلَ جَلَّ ثناؤُهُ لذلك بينهما فقال: ومَنْ يأتِ «خطيئة» على غيرِ عَمْدٍ منه لها. «أَوْ إِثْماً» على عمد منه.

«ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئاً»، يعني: ثم يُضيفُ ماله من خطئه أو إثمه الذي تَعَمَّدَهُ «بَرِيئاً» مما أضافه إليه ونَحَلَهُ إياه. «فَقَدِ ٱحْتَمَلَ بُهْتَاناً وَإِثْماً مُّبِيناً»، يقول: فقد تَحَمَّلَ بفعله ذلك فِرْيَةً وكذباً وإثماً عظيماً. يعني، وجُرْماً عظيماً، على عِلْمٍ منه وعَمْدٍ لما أتى من معصيته وذنبه.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُۥ لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَيْءٍ وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴿١١٣﴾

يعني بقوله جَلَّ ثناؤُهُ: «وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ»، ولولا أنَّ الله تَفَضَّلَ عليكَ، يا محمدُ، فَعَصَمَكَ بتوفيقه وتبيانِهِ لكَ أمرَ هذا الخائن، فكففتَ لذلـك عن الجدالِ عنه، ومدافعة أهل الحق عن حقهم قِبَله «لَهَمَّت طَّائِفَةٌ مِّنْهُمْ»، يقول: لَهَمَّتْ فرقةٌ منهم، يعني: من هؤلاء الذين يختانون أنفسهم. «أَن يُضِلُّوكَ»، يقول: يُزِلُّوكَ عن طريقِ الحق، وذلك لتلبيسهم أمرَ الخائنِ عليه ﷺ، وشهادَتِهم للخائنِ عنده بأنه بريءٌ مما ادُّعيَ عليه، ومسألتِهم إياه أنْ يعذره

ويقوم بمعذرته في أصحابه. فقال الله تبارك وتعالى: وما يُضِلُّ هؤلاء الذين هَمُّوا بأنْ يُضِلُّوكَ عن الواجبِ من الحكم في أمرِ هذا الخائنِ دِرْعَ جاره، «إلَّا أَنْفُسَهُمْ».

فإنْ قال قائلٌ: ما كان وجه إضلالهم أنفسَهم؟

قيل: وجهُ إضلالهم أنفسهم: أخذُهم بها في غير ما أباحَ الله لهم الأخذَ بها فيه من سُبُلِه. وذلك أنَّ الله جَلَّ ثناؤُهُ قد كان تَقَدَّمَ إليهم فيما تقدّم في كتابه على لسان رسوله إلى خلقه، بالنهي عن أنْ يتعاونوا على الإثم والعدوان، والأمر بالتعاون على الحق. فكان من الواجب لله فيمن سعى في أمرِ الخائنين الذين وَصَفَ الله أمرهم بقوله: «وَلاَ تَكُنْ لِّلْخَائِنِينَ خَصِيماً»، معاونة مَنْ ظلموه، دونَ مَنْ خاصمهم إلى رسول الله ﷺ في طلب حَقِّه منهم. فكان سعيهم في معونتهم، دون معونةِ مَنْ ظلموه، أخذاً منهم في غير سبيل الله. وذلك هو إضلالُهم أنفُسَهم الذي وصفه الله فقال: «وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ».

«وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَيْءٍ»، وما يَضُرُّكَ هؤلاء الذين هَمُّوا لكَ أنْ يُزلُّوكَ عن الحَقِّ في أمر هذا الخائن من قومه وعشيرته. «مِن شَيْءٍ»، لأنَّ الله مُثَبِّتُكَ ومُسَدِّدُكَ في أمورِكَ، ومُبَيِّنٌ لكَ أمرَ مَنْ سَعَوْا في إضلالكَ عن الحقِّ في أمرهِ وأمرهم، ففاضِحهُ وإياهم.

وقوله: «وَأَنْزَلَ ٱللهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَابَ وَٱلْحِكْمَةَ»، يقول: ومِنْ فَضْلِ الله عليك، يا محمدُ، مع سائر ما تفضَّلَ به عليك من نِعَمِهِ، أنه أنزل عليك «ٱلْكِتَابَ»، وهو القرآنُ الذي فيه بيانُ كُلِّ شيءٍ وهدىً وموعظة. «وَٱلْحِكْمَةَ»، يعني: وأنزل عليك مع الكتاب الحكمة، وهي ما كانَ في الكتاب مُجْملاً ذكره، مِنْ حَلالِه وحرامِهِ، وأمرِهِ ونهيِهِ، وأحكامِهِ، ووعدِهِ ووعيدِهِ. «وَعَلَّمَكَ مَالَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ» من خبرِ الأولينَ والآخرينَ، وما كانَ وما هو كائنٌ، فكلُّ ذلك

من فضلِ الله عليكَ، يا محمدُ، مُذْ خلقكَ، فاشكره على ما أولاكَ من إحسانهِ إليكَ، بالتمسُّكِ بطاعته، والمسارعة إلى رِضاهُ ومحبته، ولزومِ العملِ بما أنزل إليكَ في كتابه وحكمته، ومخالفة مَنْ حاول إضلالكَ عن طريقهِ ومنهاج دينه، فإنَّ الله هو الذي يتولَّاكَ بفضلهِ، ويكفيكَ غائلةَ مَنْ أرادكَ بسوءٍ وحاولَ صَدَّكَ عن سبيلهِ، كما كفاكَ أمرَ الطائفةِ التي هَمَّتْ أنْ تُضِلَّكَ عن سبيلهِ في أمرِ هذا الخائن. ولا أحد دونه ينقذك من سوءٍ إنْ أرادَ بكَ، إنْ أنتَ خَالَفْتَهُ في شيءٍ من أمرهِ ونهيهِ، واتَّبَعْتَ هوى مَنْ حاول صَدَّكَ عن سبيلهِ.

وهذه الآية تنبيهٌ من الله نبيَّه محمداً ﷺ على موضع خطئه، وتذكيرٌ منه له الواجبَ عليه من حقه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ ٱلنَّاسِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١١٤﴾﴾

يعني جَلَّ ثناؤُهُ بقوله: «لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ»، لاخير في كثيرٍ من نجوى الناسِ جميعاً. «إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ»، و«المعروف»، هو كُلُّ ما أمرَ الله به أونَدَبَ إليه من أعمالِ البر والخير. «أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ ٱلنَّاسِ»، وهو الإصلاحُ بين المتباينين أو المختصمين، بما أباحَ الله الإصلاحَ بينهما، ليتراجعا إلى ما فيه الأُلْفَةُ واجتماعُ الكلمة، على ما أَذِنَ الله وأمرَ به.

ثم أخبر جَلَّ ثناؤُهُ بما وَعَدَ مَنْ فعلَ ذلك فقال: «وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ٱبْتِغَاءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً»، يقول: ومَنْ يأمر بصدقةٍ أو معروفٍ من الأمر، أو يصلح بين الناس. «ٱبْتِغَاءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ»، يعني: طَلَبَ رِضَى الله بفعلهِ ذلك. «فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً»، يقول: فسوف نُعطيهِ جزاءً لِمَا فعلَ

من ذلك عظيماً، ولاحدَّ لمبلغ ما سمى الله «عَظِيماً» يَعْلَمهُ سواه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾﴾

يعني جَلَّ ثناؤهُ بقوله: «وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ»، ومَنْ يُباين الرسولَ محمداً ﷺ، مُعادِياً له، فيفارقه على العداوة له. «مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ»، يعني: من بعد ما تَبَيَّنَ له أنه رسولُ الله، وأنَّ ما جاءَ به من عندِ الله يهدي إلى الحق وإلى طريق مستقيم. «وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ»، يقول: ويتبع طريقاً غيرَ طريقِ أهلِ التصديق، ويسلك منهاجاً غيرَ منهاجِهم، وذلك هو الكفرُ بالله، لأنَّ الكفرَ بالله ورسوله غير سبيل المؤمنينَ وغير منهاجهم. «نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ»، يقول: نجعل ناصره ما استنصره واستعان به من الأوثان والأصنام، وهي لا تغنيه ولا تدفع عنه من عذابِ الله شيئاً، ولا تنفعه.

«وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ»، يقول: ونجعلهُ صِلاءَ نارِ جهنمَ، يعني: نحرقهُ بها.

«وَسَاءَتْ مَصِيراً»، يقول وساءت جهنم. «مَصِيراً»، موضعاً يَصِيرُ إليه مَنْ صار إليه.

ونـزلت هذه الآية في الخائنينَ الذين ذكرهم الله في قوله: «وَلَا تَكُنْ لِّلْخَـائِنِينَ خَصِيمـاً»، لَمَّـا أَبَى التـوبـة مَنْ أبى منهم، وهو طُعْمَةُ بنُ الأُبيرق، ولَحِقَ بالمشركينَ من عَبَدَةِ الأوثان بمكة مرتداً، مُفَارقاً لرسولِ الله ﷺ ودينه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ

ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَـٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١١٦﴾

يعني بذلك جَلَّ ثناؤُهُ: إنَّ الله لا يغفرُ لِطُعْمَةَ إذْ أشركَ وماتَ على شِرْكِهِ بالله، ولا لغيره من خَلْقِه بِشِرْكِهم وكفرهم به. «وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ»، يقول: ويغفرُ ما دونَ الشرك بالله من الذنوبِ لمن يشاء. يعني بذلك جَلَّ ثناؤُهُ: أنَّ طُعمةَ لولا أنه أشركَ بالله وماتَ على شِرْكِه، لكان في مشيئة الله على ما سَلَفَ من خيانته ومعصيته، وكان إلى الله أمره في عذابه والعفو عنه. وكذلك حُكْمُ كُلِّ من اجترمَ جُرْماً، فإلى الله أمرهُ، إلَّا أن يكون جُرْمُه شِرْكاً بالله وكفراً، فإنه مِمَّنْ حَتْمٌ عليه أنه من أهلِ النارِ إذا ماتَ على شِرْكِه. فأما إذا مات على شركه، فقد حرَّم الله عليه الجنةَ ومأواهُ النار.

وأما قوله: «وَمَن يُشْرِكْ بالله فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالاً بَعِيداً»، فإنه يعني: ومن يجعل لله في عبادتهِ شريكاً، فقد ذهبَ عن طريق الحقِّ وزالَ عن قَصْدِ السبيل، ذهاباً بعيداً وزوالاً شديداً، وذلك أنه بإشراكهِ بالله في عبادته قد أطاعَ الشيطانَ وسَلَكَ طريقَهُ، وتركَ طاعةَ الله ومنهاجَ دينهِ. فذاك هو الضلالُ البعيدُ والخُسران المبين.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَـٰثًا

يقول: ما يدعو الذين يُشَاقونَ الرسولَ وَيتَّبعونَ غيرَ سبيل المؤمنين شيئاً. «من دون الله»، بعد الله وسواه، «إلَّا إِنَاثاً»، يعني: إلا ما سَمَّوه بأسماءِ الإناثِ كاللات والعزى وما أشبه ذلك. يقول جَلَّ ثناؤُهُ: فَحَسْبُ هؤلاء الذين أشركوا بالله، وعَبَدُوا ما عبدوا من دونهِ من الأوثانِ والأندادِ، حجّة عليهم في ضلالتهم وكفرهم وذهابهم عن قَصْدِ السبيل، أنهم يعبدون إناثاً ويدعونها آلهةً وأرباباً،

والإناثُ من كُلِّ شيءٍ أَخَسُّهُ، فهم يُقِرُّونَ للخسيسِ من الأشياءِ بالعُبودةِ، على عِلْمٍ منهم بخساسته، ويمتنعون من إخلاصِ العبودةِ للذي له ملكُ كُلِّ شيءٍ، وبيده الخَلْقُ والأمرُ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَٰنًا مَّرِيدًا ﴿١١٧﴾﴾

يعني جَلَّ ثناؤُهُ بقوله: «وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَاناً مَّرِيداً»، وما يَدْعُو هؤلاء الـذين يَدْعُـونَ هذه الأوثان الإناث من دونِ الله بدعائهم إياها. «إِلَّا شَيْطَاناً مَّرِيداً»، يعني: متمرداً على الله في خلافه فيما أمره به، وفيما نهاه عنه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿١١٨﴾﴾

معنى الكلام: «وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَاناً مَّرِيداً»، قد لَعَنَهُ الله وأَبْعَدَهُ من كُلِّ خير.

«وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ»، يعني بذلك: أنَّ الشيطانَ المريدَ قال لربِّهِ إذْ لَعَنَهُ: «لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيباً مَّفْرُوضاً».

فإنْ قالَ قائلٌ: وكيف يَتَّخِذُ الشيطانُ من عبادِ الله نصيباً مفروضاً؟

قيل: يَتَّخِذُ منهم ذلكَ النصيبَ، بإغوائِهِ إياهم عن قَصْدِ السبيل، ودعائه إياهم إلى طاعتهِ، وتزيينه لهم الضلالَ والكفرَ حتى يُزيلهم عن منهجِ الطريق، فَمَنْ أجابَ دعاءَه واتَّبع ما زَيَّنَهُ له، فهو من نصيبهِ المعلوم، وحَظِّهِ المقسوم.

وإنما أخبر جَلَّ ثناؤُهُ في هذه الآية بما أخبَر به عن الشيطان من قِيلِهِ: «لأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيباً مَّفْرُوضاً»، ليعلمَ الذين شاقُّوا الرسولَ من بَعْدِ ما تبين لهم الهدى، أنهم من نصيبِ الشيطانِ الذي لعنه الله، المفروضِ[1]، وأنهم مِمَّنْ صَدَّقَ عليهم ظَنَّهُ.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعالَى: ﴿وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾

يعني بقـوله جَلَّ ثناؤُهُ: مُخْبِراً عن قِيلِ الشيطانِ المريدِ الذي وَصَفَ صِفَتَهُ في هذه الآية: «وَلأُضِلَّنَّهُمْ»، ولأَصُدَّنَّ النصيبَ المفروضَ الذي أَتَّخِذُهُ من عبــادك عن محجـةِ الهـدى إلى الضـلال، ومن الإِسـلامِ إلى الكفـر. «وَلأُمَنِّيَنَّهُمْ»، يقـول: لأُزِيغَنَّهُم ـ بمـا أجعـلُ في نفـوسهم من الأماني ـ عن طاعتــكَ وتــوحيدكَ، إلى طاعتي والشِـرْكِ بكَ، «وَلآمُـــرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ آلأَنْعَامِ»، يقول: ولآمُرَنَّ النصيبَ المفروضَ لي من عبادكَ، بعبادةِ غيركَ من الأوثـانِ والأنـدادِ حتى يَنْسُكوا له، ويُحَرِّمُوا ويُحَلِّلُوا له، ويَشْرَعُوا غيرَ الذي شرعته لهم، فيتبعوني ويخالفوك.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ﴾

يعني جَلَّ ثناؤُهُ بقوله: «وَلآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ آللهِ»، دِينَ الله. وذلك لدلالـةِ الآيةِ الأخرى على أنَّ ذلك معناه، وهي قوله: ﴿فِطْرَةَ الله الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ الله ذَلِكَ الدِّينُ القَيِّمُ﴾ [الروم: ٣٠].

وإذا كان ذلك معناه، دخل في ذلك فِعْل كُلِّ ما نهى الله عنه: من خِصَاءِ

(١) «المفروض» صفة قوله: «نصيب الشيطان».

ما لايجوزُ خِصاؤه، ووَشْم ما نهى عن وَشْمِه ووَشْرِه[1]، وغير ذلك من المعاصي، ودخل فيه تَرْكُ كُلِّ ما أمرَ الله به. لأنَّ الشيطانَ لا شك أنه يدعو إلى جميع معاصي الله ويَنْهى عن جميعِ طاعتهِ. فذلك معنى أمْرِهِ نصيبَهُ المفروضَ من عبادِ الله، بتغييرِ ما خَلَقَ الله من دينهِ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: **وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا ﴿١١٩﴾ يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢٠﴾**

وهـذا خَبَرٌ من الله جَلَّ ثناؤُهُ، عن حالِ نصيبِ الشيطانِ المفروضِ من الذين شَاقُّوا الله ورسولَهُ من بعد ما تَبَيَّنَ لهم الهدى. يقول الله: ومَنْ يَتَّبعِ الشيطانَ فيطيعهُ في معصيتهِ الله وخلافِ أمرهِ، ويُوالِيه فيتخذه ولياً لنفسهِ ونصيراً من دون الله. «فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَاناً مُّبِيناً»، يقول: فقد هلك هلاكاً، وبخس نفسَهُ حَظَّها فأوْبَقَها بخساً. «مُّبيناً». يبين عن عَطَبهِ وهلاكهِ، لأنَّ الشيطانَ لا يملكُ له نصراً من الله إذا عاقبه على معصيتهِ إياه في خِلافه أمرَهُ، بل يَخْذُله عند حاجتهِ إليه. وإنما حاله معه ما دام حَياً مُمْهَلاً بالعقوبةِ، كما وصفه الله جَلَّ ثناؤُهُ بقوله: «يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَانُ إلاَّ غُرُوراً»، يعني بذلك جَلَّ ثناؤُهُ: يَعِدُ الشيطانُ المَرِيدُ أولياءَهُ الذين هم نصيبهُ المفروض: أن يكون لهم نصيراً ممن أرادَهُم بسوء، وظهيراً لهم عليه، يمنعهم منه ويدافع عنهم، ويُمَنِّيهم الظفرَ على مَنْ حاول مكروههم والفَلَجَ عليهم.

ثم قال: «وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَانُ إلاَّ غُرُوراً»، يقول: وما يعد الشيطانُ أولياءَهُ. الذين اتخذوه ولياً من دون الله. «إلاَّ غُرُوراً»، يعني: إلاَّ باطلاً.

(١) الوشر: حَدُّ الإنسان وترقيقها بالمنشار، وهو المبرد.

وإنما جعل عِدَتهُ إيَّاهم جَلَّ ثناؤهُ ما وَعَدَهُم «غُروراً»، لأنهم كانوا يحسبون أنهم في اتِّخاذهم إياهُ ولياً على حقيقةٍ من عِداته الكذبَ وأمانيه الباطلة، حتى إذا حَصْحَصَ الحَقُّ، وصاروا إلى الحاجةِ إليه، قال لهم عَدُوُّ الله: ﴿إنَّ الله وَعَدَكُم وَعْدَ الحَقِّ وَوَعَدْتُكُم فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُم مِنْ سُلْطَانٍ إلَّا أنْ دَعَوْتُكُم فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُم بِمُصْرِخِيَّ إنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ﴾ [إبراهيم: ٢٢]. وكما قالَ للمشركينَ ببدر، وقد زيَّن لهم أعمالَهم: ﴿لَا غَالِبَ لَكُمُ اليَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإنِّي جَارٌ لَكُمْ فَلَمَّا تَرَاءَتِ الفِئَتَانِ﴾، وحَصْحَصَ الحقُّ، وعاينَ جِدَّ الأمرِ ونزولَ عذابِ الله بحزبه: ﴿نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ إنِّي أَرَىٰ مَالَا تَرَوْنَ إنِّي أَخَافُ الله وَالله شَدِيدُ العِقَابِ﴾ [الأنفال: ٤٨]، فصارتْ عِداتهُ، عدُوِّ الله إياهم عند حاجتهم إليه غروراً: ﴿كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إذَا جَاءَه لَمْ يَجِدْهُ شَيْئاً وَوَجَدَ الله عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ﴾ [النور: ٣٩].

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: أُوْلَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا ﴿١٢١﴾

يعني جَلَّ ثناؤهُ بقوله: «أُوْلَئِكَ»، هؤلاء الذين اتَّخذُوا الشيطانَ ولياً من دونِ الله. «مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ»، يعني: مصيرهم الذين يصيرونَ إليه جهنم.

«وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصاً»، لا يجدون عن جهنم - إذا صَيَّرهم الله إليها يومَ القيامة - مَعْدِلاً يَعْدِلونَ إليه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ

﴿سَنُدۡخِلُهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٗاۚ وَمَنۡ أَصۡدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلٗا ١٢٢﴾

يعني جَلَّ ثناؤُهُ بقوله: «وَٱلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ»، والذين صَدَّقُوا الله ورسوله، وأقَرُّوا له بالوحدانيةِ، ولرسولِهِ ﷺ بالنبوةِ. «وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ»، يقـول: وأدَّوا فرائضَ الله التي فَرَضَها عليهم. «سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلإِنْهَارُ»، يقول: سوف ندخلهم يومَ القيامةِ إذا صاروا إلى الله، جزاءً بما عَمِلُوا في الدنيا من الصالحات. «جَنَّاتٍ»، يعني: بساتين. «تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلإِنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً»، يقول: باقينَ في هذه الجناتِ التي وصفها. «أَبَداً»، دائماً.

وقوله: «وَعْدَ ٱللهِ حَقاً»، يعني: عِدَةٌ من الله لهم ذلك في الدنيا «حَقاً»، يعني: يقيناً صادقاً، لا كَعِدَةِ الشيطانِ الكاذبةِ التي هي غرور مَنْ وُعِدَها من أوليائه، ولكنها عِدَةُ مِمَّنْ لا يكذبُ ولا يكونُ منه الكذبُ، ولا يُخْلِفُ وعده.

وإنما وصف جَلَّ ثناؤُهُ وَعْدَهُ بالصدقِ والحق في هذه، لما سَبَقَ من خبرهِ جَلَّ ثناؤُهُ عن قولِ الشيطانِ الذي قَصَّهُ في قولِهِ: «وَقَالَ لأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيباً مَّفْرُوضاً * وَلأُضِلَّنَّهُمْ وَلأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ ٱلأَنْعَامِ»، ثم قال جَلَّ ثناؤُهُ: «يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُوراً»، ولكنَّ الله يَعِدُ الذين آمنوا وعملوا الصالحات أنه سيدخلهم جناتٍ تجري من تحتها الأنهار خالدينَ فيها أبداً، وَعْداً منه حقاً، لا كوعدِ الشيطانِ الذي وَصَفَ صفته.

فوصف جَلَّ ثنـاؤُهُ الـوَعْـدَيْن والوَاعِدَيْن، وأخبرَ بحكمِ أهلِ كُلِّ وعدٍ منهما، تنبيهاً منه جَلَّ ثناؤُهُ خَلْقَهُ على ما فيه مصلحتُهم وخلاصُهم من الهلكةِ والمعطبةِ، لينزجروا عن معصيتهِ ويعملوا بطاعتهِ، فيفوزوا بما أعدَّ لهم في جنانِه من ثوابه.

ثم قال لهم جَلَّ ثناؤُهُ: «وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللهِ قِيلًا»، يقول: ومَنْ أصدقُ، أيها الناسُ، من الله قيلاً، أي: لا أحدَ أصدق منه قيلًا! فكيف تتركون العملَ بما وَعَدَكُم على العملِ به رَبُّكم جناتٍ تجري من تحتها الأنهارُ خالدينَ فيها أبداً، وتكفرونَ به وتخالفونَ أمره، وأنتم تعلمون أنَّه لا أحد أصدق منه قيلاً، وتعملون بما يأمركم به الشيطانُ رجاءً لإدراكِ ما يَعِدكُم من عِدَاتِهِ الكاذبةِ وأمانيهِ الباطلةِ، وقد علمتم أنَّ عِدَاتَهُ غُرورٌ لا صحةَ لها ولا حقيقة، وتتخذونه ولياً من دون الله، وتتركون أنْ تُطيعوا الله فيما يأمركم به وينهاكم عنه، فتكونوا له أولياء؟

ومعنى «القِيل» و«القول» واحدٌ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ

اختلف أهلُ التأويل في الذين عُنوا بقوله: «لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَابِ».

فقال بعضهم: عُني بقوله: «لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ»، أهلُ الإسلام.

وقال آخرون: بل عَنَى الله بقوله: «لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَابِ»، أهلَ الشركِ به من عَبَدةِ الأوثان.

وقال آخرون: عُني به أهلُ الكتابِ خاصَّة.

قال أبو جعفر.

وأَوْلى التأويلين بالصواب في ذلك أنه عَنَى مشركي قريش.

وإنما قلنا ذلك أولى بالصواب، لأنَّ المسلمينَ لم يَجْرِ لأمانيهم ذِكْرٌ فيما مضى من الآي قبلَ قوله: «لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ»، وإنما جرى ذِكْرُ أمانيِّ نصيب

الشيطان المفروض، وذلك في قوله: «وَلأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ آلأَنْعَامِ»، وقوله: «يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ»، فإلحاقُ معنى قوله جَلَّ ثناؤُهُ: «لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ» بما قد جرى ذِكْرُه قَبْلُ، أَحَقُّ وأولى من ادِّعاء تأويلٍ فيه، لا دلالةَ عليه من ظاهرِ التنزيلِ، ولا أثر عن الرسولِ ﷺ، ولا إجماع من أهلِ التأويل.

وإذْ كان ذلك كذلك، فتأويلُ الآية إذاً: ليس الأمرُ بأمانيكم، يا معشرَ أولياءِ الشيطانِ وحزبه، التي يُمَنِّيكُمُوها وليُّكم عَدُوُّ الله، من إنقاذِكم مِمَّنْ أرادكُم بسوءٍ، ونُصْرَتِكم عليه وإظفاركم به ولا أمانيِّ أهلِ الكتابِ الذين قالوا اغتراراً بالله وبحلمه عنهم: ﴿لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّاماً مَعْدُودَةً﴾ وَ﴿لَنْ يَدْخُلَ الجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُوداً أَوْ نَصَارَى﴾، فإنَّ الله مجازي كُلَّ عاملٍ منكم جزاءَ عمله، مَن يعمل منكم سوءاً، ومن غيركم، يُجْزَ بِهِ، ولايَجِدْ له من دونِ الله ولياً ولا نصيراً، ومَنْ يعملْ من الصالحاتِ من ذكرٍ أو أنثى وهو مؤمنٌ فأولئك يدخلون الجنة.

ومما يدلُّ أيضاً على صحة ما قلنا في تأويل ذلك، وأنه عُني بقوله: «لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ» مشركو العربِ: أنَّ الله وصفَ وَعْدَ الشيطانِ ما وعدَ أولياءَهُ وأخبرَ بحالِ وعده، ثم أَتْبَعَ ذلك بصفةِ وعدِهِ الصادق بقوله: «وَآلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا آلصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا آلأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً وَعْدَ آللهِ حَقاً»، وقد ذَكَرَ جَلَّ ثناؤُهُ مع وصفه وَعْدَ الشيطانِ أولياءَهُ، تَمْنِيَتَهُ إياهم الأمانيَّ بقوله: «يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ»، كما ذكر وعده إياهم. فالذي هو أشبهُ: أن يتبع تمنيتَه إياهم من الصفةِ، بمثل الذي أتبع عِدَتَهُ إياهم به من الصفة.

وإذْ كان ذلك كذلك، صَحَّ أنَّ قوله: «لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلاَ أَمَانِيِّ أَهْلِ آلْكِتَابِ مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ» الآية، إنما هو خبرٌ من الله عن أماني أولياء الشيطان، وما إليه صائرةٌ أمانِيُّهم مع سيءِ أعمالِهم من سوء الجزاءِ، وما إليه صائرةٌ أعمالُ أولياءِ الله من حُسْنِ الجزاء. وإنما ضَمَّ جَلَّ ثناؤُهُ أهلَ الكتاب إلى

المشركين في قوله: «لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَابِ»، لأنَّ أمانيَّ الفريقين من تمنيةِ الشيطانِ إياهم التي وعدهم أن يُمَنِّيَهُمُوهَا بقوله: «وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَآمُرَنَّهُمْ».

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ

(يعني): إنَّ كُلَّ مَنْ عَمِلَ سوءاً صغيراً أو كبيراً من مؤمنٍ أو كافر، جُوزِيَ به لعمومِ الآية كُلَّ عاملِ سوءٍ، من غير أنْ يُخَصَّ أو يستثنى منهم أحدٌ. فهي على عمومها، إذْ لم يكن في الآية دلالةٌ على خصوصها، ولا قامت حجةٌ بذلك من خبرٍ عن الرسولِ ﷺ.

فإنْ قالَ قائلٌ: وأين ذلك من قول الله: ﴿إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّآتِكُمْ﴾ [النساء: ٣١]؟ وكيف يجوزُ أن يجازي على ما قد وَعَدَ تكفيرَهُ؟

قيل: إنه لم يَعِدْ بقوله: ﴿نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّآتِكُمْ﴾، تركَ المجازاةِ عليها، وإنما وَعَدَ التكفيرَ بتركِ الفضيحةِ منه لأهلها في معادهم، كما فضحَ أهلَ الشرك والنفاق. فأما إذا جازاهم في الدنيا عليها بالمصائبِ ليكفرها عنهم بها، ليوافوه ولا ذَنْبَ لهم يستحقُّونَ المجازاةَ عليه، فإنما وفَى لهم بما وَعَدَهُم بقوله: ﴿نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّآتِكُمْ﴾، وأنجزَ لهم ما ضَمِنَ لهم بقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَارُ﴾ [النساء: ١٢٢].

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا



يعني بذلك جَلَّ ثناؤُهُ: ولا يجد الذي يعمل سوءاً من معاصي الله وخلاف ما أمره به. «مِن دُونِ ٱللهِ»، يعني: من بعد الله، وسواه. «وَلِياً» يَلِي أمرَهُ، ويحمي عنه ما ينزل به من عقوبةِ الله. «وَلَا نَصِيراً»، يعني: ولا ناصراً ينصره مما يحلُّ به من عقوبةِ الله وأليمِ نَكالهِ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴿١٢٤﴾

يعني بذلك جَلَّ ثناؤُهُ: الذين قال لهم: «لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَابِ»، يقول الله لهم: إنما يدخلُ الجنةَ ويُنَعَّمُ فيها في الآخرة، مَنْ يعملْ من الصالحاتِ من ذكورِكم وإناثِكم، وذكورِ عبادي وإناثِهم، وهو مؤمنٌ بي وبرسولي محمدٍ، مصدق بوحدانيتي وبنبوّةِ محمدٍ ﷺ وبما جاء به من عندي لا أنتم أيها المشركونَ بي، المكذبونَ رسولي، فلا تَطْمَعُوا أنْ تحلّوا، وأنتم كفارٌ، مَحلَّ المؤمنينَ بي، وتدخلوا مداخلهم في القيامة، وأنتم مُكَذِّبونَ برسولي.

وأما قوله: «وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيراً»، فإنه يعني: ولا يظلم الله هؤلاء الذين يعملون الصالحات من ثوابِ عملهم، مقدارَ النُّقرةِ التي تكونُ في ظهر النَّواة في القلة، فكيف بما هو أعظم من ذلك وأكثر؟ وإنما يخبر بذلك جَلَّ ثناؤُهُ عبادَهُ أنه لا يبخَسهم من جزاءِ أعمالِهم قليلاً ولا كثيراً، ولكن يُوفِّيهم ذلك كما وَعَدَهم.

فإنْ قال لنا قائلٌ: ما وجه دخول: «مِنَ» في قوله: «وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّالِحَاتِ»، ولم يقل: «ومن يعمل الصالحات»؟

قيل: لدخولها وجهان:

أحدهما: أنْ يكونَ الله قد علم أنَّ عبادَهُ المؤمنينَ لن يُطيقوا أنْ يعملوا جميعَ الأعمالِ الصالحات، فأوجب وَعْدَهُ لِمَنْ عَمِلَ ما أطاقَ منها، ولم يحرمه من فضلِهِ بسبب ما عجزتْ عن عملِهِ منها قُوَّتُهُ.

والآخرمنهما: أنْ يكونَ تعالى ذِكْرُهُ أوجبَ وَعْدَهُ لمن اجتنبَ الكبائرَ وأدَّى الفرائضَ، وإنْ قَصَّرَ في بعضِ الواجبِ له عليه، تَفَضُّلاً منه على عبادِهِ المؤمنين، إذْ كان الفضلُ به أولى، والصفح عن أهل الإيمان به أحرَى.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا﴾

وهذا قضاءٌ من الله جَلَّ ثناؤُهُ للإسلامِ وأهلِهِ بالفضلِ على سائرِ الملل غيره وأهلِها، يقول الله: «وَمَنْ أَحْسَنُ دِيناً» أيها الناسُ، وأصوبُ طريقاً، وأهدى سبيلاً. «مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لله»، يقول: ممن استسلم وجهه لله فانقادَ له بالطاعةِ، مُصَدِّقاً نَبِيَّهُ محمداً ﷺ فيما جاءَ به من عند ربه. «وَهُوَ مُحْسِنٌ»، يعني: وهو عاملٌ بما أمره به ربه، محرِّمٌ حرامه ومحلِّل حلاله. «وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً»، يعني بذلك: واتبعَ الدِّينَ الذي كان عليه إبراهيمُ خليلُ الرحمن، وأمرَ به بنيه من بعدهِ وأوصاهم به. «حَنِيفاً»، يعني: مستقيماً على منهاجه وسبيله.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا ۝١٢٥﴾

يعني بذلك جَلَّ ثناؤُهُ: واتخذ الله إبراهيمَ ولياً.

فإن قال قائل: وما معنى «الخُلَّة» التي أُعْطِيَها إبراهيمُ؟

قيل: ذلك من إبراهيم عليه السلام: العداوةُ في الله والبُغْضُ فيه، والولايةُ في الله والحبُّ فيه، على ما يعرف من معاني «الخلة». وأما من الله لإبراهيم، فَنُصْرته على مَنْ حَاولَهُ بسوءٍ، كالذي فعلَ به إذْ أراده نمرود بما أرادَه به من الإحراقِ بالنارِ فأنقذَهُ منها، أو على حجته عليه إذ حَاجَّهُ وكما فعل بملك مصر إذْ أرادَهُ عن أهلِهِ وتمكينِهِ مما أَحَبَّ وتصييرهُ إماماً لمن بَعْدَهُ من عبادِهِ، وقدوة لمن خَلْفَهُ في طاعتِهِ وعبادته. فلذلك معنى مُخَالَّته إياه.

وقد قيل: سَمَّاهُ الله «خَلِيلاً»، من أجل أنه أصابَ أهلَ ناحيتِهِ جَدْبٌ، فارتحلَ إلى خليلٍ له من أهلِ الموصل وقال بعضهم: من أهلِ مصرَ في امتيارِ طعامٍ لأهلِهِ من قِبله، فلم يُصِبْ عنده حاجَتَهُ. فلما قَرُبَ من أهلِهِ مَرَّ بمفازةٍ ذاتِ رملٍ، فقال: لو ملأت غرائري من هذا الرمل، لئلا أُغُمَّ أهلي برجوعي إليهم بغير مِيرَةٍ، وليظنوا أنِّي قد أتيتهم بما يُحِبُّونَ! ففعلَ ذلك، فتحوَّل ما في غرائرِهِ من الرملِ دقيقاً، فلما صار إلى منزله نامَ. وقامَ أهلُهُ، ففتحوا الغرائر، فوجدوا دقيقاً، فعجنوا منه وخبزوا. فاستيقظ، فسألهم عن الدقيقِ الذي منه خبزوا، فقالوا: من الدقيقِ الذي جئتَ به من عند خليلكَ! فعلم، فقال: نعم! هو من خليلي الله! قالوا: فسماه الله بذلك «خَلِيلاً».

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطًا ﴿١٢٦﴾﴾

يعني بذلك جَلَّ ثناؤُهُ: «وَٱتَّخَذَ ٱللهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً»، لطاعتِهِ ربَّهُ، وإخلاصِهِ العبادةَ له، والمسارعةِ إلى رضاه ومحبته، لا من حاجةٍ به إليه وإلى خُلَّته. وكيف يحتاجُ إليه وإلى خلَّته، ولَهُ ما في السموات وما في الأرض من قليل وكثير مِلْكاً، والمالك الذي إليه حاجة مُلْكه، دون حاجته إليه؟ يقول:

فكذلك حاجةُ إبراهيم إليه، لا حاجته إليه فيتخذه من أجلِ حاجتِه إليه خليلاً، ولكنه اتَّخَذَهُ خليلاً لمسارعتِهِ إلى رِضاهُ ومحبته. يقول: فكذلك فسارعوا إلى رضايَ ومحبتي لأتَّخِذَكُم لي أولياءَ. «وَكَانَ ٱللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطاً»، ولم يزل الله مُحْصِياً لكل ما هو فاعله عبادهُ من خيرٍ وشرٍّ، عالماً بذلك، لا يَخْفَى عليه شيءٌ منه، ولا يعزبُ عنه منه مثقال ذرَّة.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَالَى: وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي ٱلنِّسَآءِ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِي ٱلْكِتَٰبِ فِي يَتَٰمَى ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِي لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ

(يعني): ويستفتونك في النساء، قُلِ الله يُفتيكم فيهن وفيما يُتْلَى عليكم في كتابِ الله الذي أنزله على نبيه في أمرِ يتامى النساء اللاتي لا تُعْطُونَهُنَّ ما كتبَ لهن. يعني: ما فرض الله لهن من الميراث عَمَّنْ وَرِثْنَهُ.

ويعني بقوله: «وَتَرْغَبُونَ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ»، «وترغبون عن أن تنكحوهن». لأنَّ حبسهم أموالَهنَّ عنهن مع عضلهن إياهُنَّ، إنما كانوا لِيَرِثُوا أموالَهن، دونَ زوجٍ إنْ تزوجن. ولو كان الذين حبسوا عنهن أموالهن، إنما حَبسُوها عنهن رغبةً في نكاحهن، لم يكن للحبسِ عنهن وجهٌ معروف، لأنهم كانوا أولياءهن، ولم يكن يمنعهم من نِكَاحِهِنَّ مانعٌ، فيكون به حاجة إلى حبسِ مالها عنها، لِيَتَّخِذَ حبسها عنها سبباً إلى إنكاحِهَا نَفْسَها منهُ.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَالَى: وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلْوِلْدَٰنِ وَأَن تَقُومُواْ لِلْيَتَٰمَىٰ بِٱلْقِسْطِ

يعني بذلك جَلَّ ثناؤُهُ: ويستفتونك في النساء قل الله يفتيكم فيهن ـ وفيما يُتْلَى عليكم في الكتاب ـ وفي المستضعفين من الولدانِ وفي أنْ تَقُومُوا لليتامى بالقسط.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَمَا تَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِهِۦ عَلِيمًا


يعني بذلك جَلَّ ثناؤُهُ: ومهما يَكُنْ منكم، أيها المؤمنونَ، من عدلٍ في أموال اليتامى، التي أمركم الله أنْ تقومُوا فيهم بالقسطِ، والانتهاء إلى أمر الله في ذلك وفي غيره وإلى طاعته. «فَإِنَّ ٱللهَ كَانَ بِهِ عَلِيماً»، لم يزلْ عالماً بما هو كائنٌ منكم، وهو مُحْصٍ ذلك كله عليكم، حافظ له، حتى يجازيكم به جزاءكم يومَ القيامة.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَإِنِ ٱمْرَأَةٌ خَافَتْ مِنۢ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا ۚ وَٱلصُّلْحُ خَيْرٌ

يعني بذلك جَلَّ ثناؤُهُ: وإنْ خافتْ امرأةٌ من بعلها، يقول: عَلِمَتْ من زوجِها. «نشُوزاً»، يعني: استعلاءً بنفسهِ عنها إلى غيرها، أَثَرةً عليها، وارتفاعاً بها عنها، إمَّا لِبُغْضةٍ، وإما لكراهةٍ منه بعضَ أسبابها: إما دَمامتها، وإما سِنَّها وكبرها، أو غير ذلك من أمورها. «أَوْ إِعْرَاضاً»، يعني: انصرافاً عنها بوجهِ أو ببعضِ منـافعـهِ التي كانتْ لهـا مِنْـهُ. «فَـلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحاً»، يقول: فلا حَرَجَ عليهما، يعني: على المرأة الخائفةِ نُشُوزَ بَعْلِها أو إعراضه عنها. «أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحاً»، وهو أنْ تتركَ له يَوْمَها، أو تضعَ عنه بعضَ الواجبِ لها من حقٍّ عليه، تَسْتَعطِفَهُ بذلك وتستديم المُقامَ في حباله،

والتمسك بالعقد الذي بينها وبينه من النكاح، يقول: «وَٱلصُّلْحُ خَيْرٌ»، يعني: والصلحُ بتركِ بعضِ الحقِّ استدامةً للحُرْمةِ، وتماسكاً بعقد النكاح، خيرٌ من طَلَبِ الفرقةِ والطلاق.

واختلفت القَرَأَةُ في قراءة قوله: «أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحاً».

فقرأ ذلك عامة قَرَأَةِ أهلِ المدينة وبعض أهل البصرة بفتح «الياء» وتشديد «الصاد»، بمعنى: أنْ يَتَصَالحا بينهما صلحاً، ثم أُدغمت «التاء» في «الصاد»، فَصُيِّرتا «صاداً» مُشَدَّدة.

وقرأ عامة قرأة أهل الكوفة: ﴿أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحاً﴾، بضم «الياء» وتخفيف «الصاد»، بمعنى: أصلح الزوج والمرأة بينهما.

وأعجبُ القراءتين في ذلك إليَّ قراءة مَنْ قرأ: «أَن يَصَّالَحَا بَيْنَهُمَا صُلْحاً»، بفتح «الياء» وتشديد «الصاد»، بمعنى: يتصالحا. لأن «التصالح» في هذا الموضع أشهر وأوضح معنى، وأفصح وأكثرُ على ألسنِ العربِ من «الإصلاح». و«الإصلاح» في خلاف «الإفساد» أشهر منه في معنى «التصالح».

فإن ظَنَّ ظانٌّ أنَّ في قوله: «صُلْحاً»، دلالة على أنَّ قراءةَ مَنْ قرأ ذلك ﴿يُصْلِحَا﴾ بضم «الياء» أولى بالصواب، فإنَّ الأمرَ في ذلك بخلافِ ما ظَنَّ. وذلك أنَّ «الصلح» اسم وليس بفعل، فيستدلّ به على أولى القراءتين بالصوابِ في قوله: «يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحاً».

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَأُحْضِرَتِ ٱلْأَنفُسُ ٱلشُّحَّۚ وَإِن تُحْسِنُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٢٨﴾

معناه: وأحضرت أنفس النساءِ الشح على أنصبائهن من أنفس أزواجهن وأموالهم.

و «الشُّحّ»: الإفراطَ في الحِرْصِ على الشيء، وهو في هذا الموضع: إفراط حرصِ المرأة على نصيبها من أيامها من زوجها ونفقتها.

فتأويلُ الكلام: وأحضرت أنفس النساء أهواءهن، من فَرْطِ الحرصِ على حقوقهن من أزواجهن، والشح بذلك على ضَرائرهن.

وأما قوله: «وَإِن تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا»، فإنه يعني: وإن تحسنوا، أيها الرجالُ، في أفعالكم إلى نسائكم، إذا كرهتم منهن دَمامةً أو خُلُقاً أو بعضَ ما تكرهون منهن بالصبرِ عليهن، وإيفائِهنَّ حقوقهنَّ وعِشْرتهن بالمعروف، «وَتَتَّقُوا»، يقول: وتتقوا الله فيهن بترك الجَوْر منكم عليهن فيما يجبُ لمن كرهتموه منهن عليكم، من القسمةِ له، والنفقةِ، والعِشْرةِ بالمعروفِ. «فَإِنَّ ٱللهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً»، يقول: فإنَّ الله كان بما تعملون في أمور نسائكم، أيها الرجالُ، من الإحسانِ إليهن والعشرة بالمعروف، والجَوْرِ عليهن فيما يلزمكم لَهُنَّ ويجب. «خَبِيراً»، يعني: عالماً خابراً، لا يَخْفَى عليه منه شيءٌ، بل هو به عالمٌ، وله مُحْصٍ عليكم، حتى يوفِّيكم جزاءَ ذلك: المحسنَ منكم بإحسانه، والمسيءَ بإساءته.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَلَن تَسْتَطِيعُوٓاْ أَن تَعْدِلُواْ بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْۖ فَلَا تَمِيلُواْ كُلَّ ٱلْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَٱلْمُعَلَّقَةِۚ

يعني جَلَّ ثناؤُهُ بقوله: «وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَن تَعْدِلُوا بَيْنَ ٱلنِّسَاءِ»، لن تُطِيقوا، أيها الرجالُ أنْ تسوُّوا بين نسائكم وأزواجكم في حُبِّهِنَّ بقلوبكم حتى تَعْدِلُوا بينهنّ في ذلك، فلا يكون في قلوبكم لبعضهنَّ من المحبةِ إلا مثلُ ما لِصَواحبها، لأنَّ ذلك مما لا تملكونه، وليس إليكم. «وَلَوْ حَرَصْتُمْ»، يقول: ولو حرصتم في تسويتكم بينهن في ذلك.

«فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ ٱلْمَيْلِ»، يقول: فلا تميلوا بأهوائكم إلى مَنْ لم تملكوا محبته منهن كُلَّ الميلِ، حتى يحملكم ذلك على أنْ تَجُوروا على صواحبها في تركِ أداءِ الواجبِ لهن عليكم من حق: في القسمِ لَهُنَّ، والنفقةِ عليهن، والعشرة بالمعروف. «فَتَذَرُوهَا كَٱلْمُعَلَّقَةِ»، يقول: فَتَذَرُوا التي هي سوى التي مِلْتُمْ بأهوائِكم إليها «كَٱلْمُعَلَّقَةِ»، يعني: كالتي لا هَي ذات زوجٍ، ولا هي أيِّمٌ.

وإنما أمر الله جَلَّ ثناؤُهُ بقوله: «فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ ٱلْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَٱلْمُعَلَّقَةِ»، الرجالَ بالعدلِ بين أزواجهن فيما استطاعوا فيه العدلَ بينهن من القسمةِ بينهن، والنفقةِ، وتركِ الجَوْرِ في ذلك بإرسالِ إحداهُنَّ على الأخرى فيما فرض عليهم العدلَ بينهن فيه، إذْ كان قد صفح لهم عَمّا لا يُطيقونَ العدلَ فيه بينهنّ مما في القلوبِ من المحبةِ والهوى.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَإِن تُصْلِحُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٢٩﴾

يعني بذلك جَلَّ ثناؤُهُ: «وَإِن تُصْلِحُوا» أعمالكم، أيها الناس، فتعدلوا في قَسْمكم بين أزواجكم، وما فَرَضَ الله لهن عليكم من النفقة والعشرة بالمعروف، فلا تجوروا في ذلك. «وَتَتَّقُوا»، يقول: وتتقوا الله في الميلِ الذي نهاكم عنه، بأنْ تَميلُوا لإحداهُنَّ على الأخرى، فتظلموها حَقَّها مما أوجبَهُ الله لها عليكم. «فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُوراً»، يقول: فإنَّ الله يسترُ عليكم ما سَلَفَ منكم من مَيْلِكم وجَوْرِكم عليهن قبل ذلك، بتركهِ عقوبتكم عليه، ويُغَطِّي ذلك عليكم بعفوهِ عنكم ما مضى منكم في ذلك قَبْلُ. «رَّحِيماً»، يقول: وكان رحيماً بكم، إذْ تابَ عليكم، فَقَبِلَ توبَتكم مِنَ الذي سَلَفَ منكم من جَوْرِكم في ذلك

عليهن، وفي ترخيصه لكم الصلحَ بينكم وبينهن، بصفحهِنَّ عن حقوقِهِنَّ لكم من القَسْم على أنْ لايُطَلَّقن.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ ٱللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِۦۚ وَكَانَ ٱللَّهُ وَٰسِعًا حَكِيمًا ١٣٠﴾.

يعني بذلك جَلَّ ثناؤُهُ: فإنْ أبتِ المرأةُ التي قد نَشَزَ عليها زوجُها - إذْ أعرضَ عنها بالميلِ منه إلى ضرَّتِهَا لجمالها أو شبابها، أو غير ذلك مما تميلُ النفوسُ له إليها - الصلحَ بصفحِهَا لزوجِهَا عن يومِها وليلتها، وطلبتْ حَقَّها منه من القَسْمِ والنفقة، وما أوجبَ الله لها عليه - وأبى الزوجُ الأخذَ عليها بالإحسانِ الذي نَدَبَهُ الله إليه بقوله: «وَإِن تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ٱللهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً»، وإلحاقَها في القَسْم لها والنفقةِ والعشرةِ بالتي هو إليها مائلٌ، فَتَفَرَّقَا بطلاقِ الزوجِ إيَّاهَا. «يُغْنِ ٱللهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِ»، يقول: يُغْنِ الله الزوجَ والمرأة المطلقةَ من سَعَةِ فضلِه. أما هذه، فبزوجٍ هو أصلح لها من المُطَلِّقِ الأول، أو برزقٍ أوسع وعصمة. وأما هذا فبرزقٍ واسعٍ وزوجةٍ هي أصلح له من المطلقة، أو عِفَّةٍ. «وَكَانَ ٱللهُ وَاسِعاً»، يعني: وكان الله واسعاً لهما، في رزقِهِ إياهما وغيرهما من خلقه. «حَكِيماً»، فيما قضى بينه وبينها من الفرقةِ والطلاقِ، وسائر المعاني التي عرفناها من الحكمِ بينهما في هذه الآياتِ وغيرها، وفي غيرِ ذلك من أحكامِهِ وتدبيرِهِ وقضاياه في خَلْقِه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِۗ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَۚ وَإِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا ١٣١﴾.

يعني بذلـك جَلَّ ثنـاؤُهُ: ولله جميع مُلْك ما حَوَتْـهُ السمـواتُ السبع والأرضُونَ السبع من الأشياء كلها. وإنما ذَكَرَ جَلَّ ثناؤُهُ ذلك بعقبِ قوله: «وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ ٱللهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِ»، تنبيهاً منه خَلْقَهُ على موضعِ الرغبةِ عند فراقِ أحـدهم زوجته، ليفزعوا إليه عند الجزعِ من الحاجةِ والفاقةِ والوَحْشةِ بفراقِ سَكنهِ وزوجتهِ وتذكيراً منه له أنه الذي له الأشياءُ كُلُّها، وأنَّ مَنْ كان له ملكُ جميع الأشياء، فغير مُتَعَذِّرٍ عليه أنْ يُغْنِيَهُ وكُلَّ ذي فاقةٍ وحاجة، ويُؤْنِسَ كُلَّ ذي وحشة.

ثم رجع جَلَّ ثناؤُهُ إلى عَذْلِ مَنْ سعى في أمر بني أُبيرق وتوبيخهم، ووعيدِ مَنْ فعل ما فعل المرتد منهم، فقال: «وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ»، يقـول: ولقـد أمـرنـا أهـلَ الكتـاب، وهم أهـلُ التوراةِ والإنجيلِ. «وَإِيَّاكُمْ»، يقول: وأمرناكم وقلنا لكم ولهم: «ٱتَّقُوا ٱللهَ»، يقول: احذروا الله أنْ تَعْصَوه وتخالِفُوا أَمْرَهُ ونهيه. «وَإِن تَكْفُرُوا»، يقول: وإنْ تَجحَدُوا وصيتـه إياكم، أيها المؤمنون، فتخالفوها. «فَإِنَّ للهِ مَا فِي ٱلسَّمَوَاتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ »، يقول: فإنكم لا تَضُرُّونَ بخلافكم وَصِيَّتَهُ غير أنفسِكُم، ولا تَعْدُونَ في كُفْـرِكم ذلك أنْ تكونوا أمثالَ اليهود والنصارى. في نزولِ عقوبته بكم، وحلولِ غَضَبِه عليكم، كما حَلَّ بهم إذْ بَدَّلوا عَهْدَهُ ونقضوا ميثاقه، فغيَّر بهم ما كانوا فيه من خَفْضِ العيش وأَمْنِ السِّرْب، وجعل منهم القِرَدَةَ والخنازيرَ. وذلك أنَّ له ملكَ جميعِ ما حَوَتْهُ السمواتُ والأرض، لا يمتنعُ عليه شيءٌ أراده بجميعهِ وبشيءٍ منه، من إعزازِ مَنْ أرادَ إعزازَهُ، وإذلالِ مَنْ أراد إذلالَهُ، وغير ذلك من الأمور كلها، لأنَّ الخَلْقَ خَلْقهُ، بهم إليه الفاقةُ والحاجةُ، وبه قوَاهُم وبقاؤهم، وهَلاَكُهم وفناؤهم وهو «الغنيُّ» الذي لا حاجةَ تحلُّ به إلى شيءٍ، ولا فاقة تنزلُ به تضطرُّه إليكم، أيها الناس، ولا إلى غيركم. «والحميدُ» الذي استوجبَ عليكم أيها الخَلْقُ الحَمدَ بصنائعهِ الحميدةِ إليكم، وآلائهِ الجميلة

لديكم، فاستديموا ذلك، أيها الناسُ، باتقائه، والمسارعةِ إلى طاعتهِ فيما يأمركم به وينهاكم عنه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ١٣٢﴾

يعني بذلك جَلَّ ثناؤهُ: ولله مِلكُ جميع ما حوته السمواتُ والأرض، وهو القَيِّمُ بجميعـه، والحافظُ لذلك كله، لايعزبُ عنه عِلْمُ شيءٍ منه، ولا يَؤُودُهُ حِفْظُه وتدبيرهُ.

فإنْ قال قائـل: ومـا وجـه تكرار قوله: «وَلله مَا فِي ٱلسَّمَوات وَمَا فِي ٱلأَرْضِ» في آيتين، إحداهما في إثرِ الأخرى؟

قيل: كَرَّرَ ذلك، لاختلافِ معنى الخبرين عما في السمواتِ والأرضِ في الآيتين. وذلك أنَّ الخبرَ عنه في إحدى الآيتين: ذكرُ حاجته إلى بارئهِ، وغِنَى بارئهِ عنه - وفي الأخرى: حفظ بارئه إياه، وعلمه به وبتدبيره.

فإنْ قال: أفلا قيل: «وَكَانَ ٱلله غَنِيًّا حَمِيداً»، وكفى بالله وكيلاً؟

قيل: إن الذي في الآية التي قال فيها: «وَكَانَ ٱلله غَنِيًّا حَمِيداً»، مما صلح أن يختم ما ختم به من وَصْفِ الله بالغنى وأنه محمودٌ، ولم يذكر فيها ما يصلح أن يختم بوصفهِ معه بالحِفْظِ والتدبير. فلذلك كَرَّرَ قوله: «وَلله مَا فِي ٱلسَّمَوَاتِ وَمَا فِي ٱلأَرْضِ».

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا ٱلنَّاسُ وَيَأْتِ بِـَٔاخَرِينَۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرًا ١٣٣﴾

يعني بذلـك جَلَّ ثنـاؤُهُ: إنْ يشأ الله، أيها الناسُ، «يُذْهِبْكُمْ»، أي: يذهبكم بإهـلاكِكم وإفنائِكم. «وَيَأْتِ بِآخَرِينَ»، يقول: ويأتِ بناسٍ آخرينَ غيركم لمؤازرةِ نبيه محمدٍ ﷺ ونصرته. «وَكَانَ ٱللهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيراً»، يقول: وكـان الله على إهـلاكِكم وإفنائِكم واستبدالِ آخرينَ غيركم بكم. «قَدِيراً»، يعني: ذا قُدْرةٍ على ذلك.

وإنمـا وَبَّخ جَلَّ ثناؤُهُ بهذه الآيات، الخائنينَ الذين خانوا الدِّرع التي وَصَفْنـا شأنهـا، الـذين ذكرهم الله في قوله: ﴿وَلَا تَكُنْ لِّلْخَائِنِينَ خَصِيماً﴾ [النساء: ١٠٥] وحَذَّر أصحابَ محمدٍ ﷺ أنْ يكونوا مثلهم، وأن يفعلوا فِعْلَ المرتدِّ منهم في ارتدادِهِ ولحاقِهِ بالمشركين، وعَرَّفهم أنَّ مَنْ فعلَ فِعْلَهُ منهم، فلن يَضُرَّ إلا نفسَهُ، ولن يُوبِقَ بردَّتِهِ غيرَ نفسِه، لأنه المحتاجُ ـ مع جميع ما في السمواتِ وما في الأرض ـ إلى الله، والله الغنيُّ عنهم. ثم تَوَعدَّهُمْ في قوله: «إن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا ٱلنَّاس وَيَأْتِ بِآخَرِينَ»، بالهلاكِ والاستئصالِ، إنْ هُمْ فعلوا فِعْلَ ابن أُبيرق طُعْمة المرتدِّ ـ وباستبدال آخرين غيرهم بهم، لنصرة نبيهِ محمدٍ ﷺ وصحبته ومؤازرته على دينه، كما قال في الآية الأخرى: ﴿وَإِنْ تَتَوَلَّوا يَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ﴾ [محمد: ٣٨].

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ ثَوَابُ ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴿١٣٤﴾﴾

يعني بذلك جَلَّ ثناؤُهُ: «مَّن كَانَ يُرِيدُ»، ممن أظهرَ الإيمانَ بمحمدٍ ﷺ من أهلِ النفاق، الذين يستبطنون الكفرَ وهم مع ذلك يظهرون الإيمانَ. «ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا»، يعني: عَرَض الدنيا، بإظهارِهِ مَا أظهر من الإيمانِ بلسانِهِ. «فَعِنْدَ ٱللهِ ثَوَابُ ٱلدُّنْيَا»، يعني: جزاؤه في الـدنيا منها وثوابه فيها، وهو ما يصيبُ من

المغنم إذا شَهِـد مع النبيِّ مشهداً، وأمنه على نفسهِ وذريتهِ وماله، وما أشبه ذلك، وأما ثوابه في الآخرة، فنارُ جهنم.

فمعنى الآية: مَنْ كانَ من العاملينَ في الدنيا من المنافقينَ يريدُ بعمله ثوابَ الدنيا وجزاءَها من عمله، فإنَّ الله مُجازِيه به جزاءَه في الدنيا من الدنيا، وجزاءه في الآخرة من الآخرة من العقابِ والنكال. وذلك أنَّ الله قادرٌ على ذلك كله، وهو مالك جميعه، كما قال في الآية الأخرى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الحَيَاةَ الدُّنْيَا وزِينَتَها نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وهُمْ فِيهَا لاَ يُبْخَسُونَ * أُولئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ إِلاَّ النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعمَلُونَ﴾ [هود: ١٥-١٦].

وإنما عَنَى بذلك جَلَّ ثناؤُهُ: الذين تَتَيَّعُوا[1] في أمر بني أُبيرق، والذين وصفهم في قوله: ﴿وَلاَ تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنْفُسَهُمْ إِنَّ الله لاَ يُحِبُّ مَنْ كَانَ خَوَّاناً أَثِيماً * يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلاَ يَسْتَخْفُونَ مِنَ الله وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَالاَ يَرْضَى مِنَ القَوْلِ﴾ [النساء: ١٠٧-١٠٨]، ومَنْ كان من نظرائهم في أفعالهم ونفاقهم.

وقوله: «وَكَانَ ٱللهُ سَمِيعاً بَصِيراً»، يعني: وكان الله سميعاً لما يقولُ هؤلاء المنافقون الذين يُريدون ثوابَ الدنيا بأعمالِهم، وإظهارهم للمؤمنينَ ما يُظهرونَ لهم إذا لَقُوا المؤمنينَ، وقولِهم لهم: «آمَنَّا». «بَصِيراً»، يعني: وكان ذَا بَصَرٍ بهم وبما هم عليه مُنْطَوُونَ للمؤمنين، فيما يَكْتُمونَهُ ولا يُبْدُونَهُ لهم من الغشِّ والغِلِّ الذي في صدورهم لهم.

---

(١) تَتَيَّع فلان في الأمر وتتايع: إذا أسرع إليه وتهافت فيه من غير فكرٍ ولا روية، ولا يكون ذلك إلا في الشر، لا يقال في الخير.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُواْ﴾

وهذا تقدّم من الله تعالى ذِكْرُهُ إلى عبادهِ المؤمنين به وبرسوله: أن يفعلوا فِعْلَ الذين سَعَوا إلى رسولِ الله ﷺ في أمرِ بني أُبيرقٍ أنْ يقوم بالعذر لهم في أصحابه، وذَبّهُمْ عنهم، وتحسينهم أمرهم بأنهم أهل فاقةٍ وفقر. يقول الله لهم: «يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِٱلْقِسْطِ»، يقول: ليكن من أخلاقِكم وصفاتكم القيام بالقسط ـ يعني: بالعدل ـ «شُهَدَاءَ لله».

و«الشهداء» جمع «شهيد».

ونصبت «الشهداء» على القطع مما في قوله: «قَوَّامِينَ» من ذكر «يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا»، ومعناه: قُومُوا بالقسطِ لله عند شهادتكم أو: حين شهادتكم.

«وَلَوْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ»، يقول: ولو كانت شهادتكم على أنفسِكم، أو على والدينَ لكم أو أَقْرَبيكم، فَقُومُوا فيها بالقسط والعدل، وأقيموها على صِحَّتها بأنْ تقولوا فيها الحق، ولا تميلوا فيها لغنيٍّ لِغِنَاهُ على فقيرٍ، ولا لفقيرٍ لفقرهِ على غنيٍّ، فتجوروا. فإنَّ الله الذي سوَّى بين حُكْمِ الغنيّ والفقير فيما ألزمكم، أيها الناسُ، من إقامةِ الشهادةِ لكلٍّ واحدٍ منهما بالعدل. «أَوْلَىٰ بِهِمَا»، وأحق منكم، لأنه مالكهما وأولى بهما دونَكم، فهو أعلمُ بما فيه مصلحةُ كلٍّ واحدٍ منهما في ذلك وفي غيره من الأمور كلها منكم، فلذلك أمركم بالتسويةِ بينهما في الشهادة لهما وعليهما. «فَلَا تَتَّبِعُوا ٱلْهَوَىٰ أَن تَعْدِلُوا»، يقول: فلا تتبعوا أهواءَ أنفسكم في الميلِ في شهادَتِكم إذا قمتم بها ـ لغنيٍّ على فقير، أو لفقيرٍ على غني ـ إلى أحدِ الفريقين، فتقولوا غيرَ الحقِّ، ولكنْ قُومُوا فيه بالقسطِ،

وأدُّوا الشهادةَ على ما أمركم الله بأدائها، بالعدلِ لمن شَهِدتُمْ له وعليه.

فإن قال قائل: وكيف يقومُ بالشهادةِ على نفسهِ الشاهدُ بالقسطِ؟ وهل يشهدُ الشاهدُ على نفسه؟

قيل: نعم، وذلك أنْ يكونَ عليه حَقٌّ لغيرهِ فيقّر له به، فذلك قيامٌ منه له بالشهادةِ على نفسه.

وهــذه الآية عنـدي تأديبٌ من الله جَلَّ ثنـاؤُهُ عبـادَهُ المؤمنينَ أنْ يفعلوا ما فَعَلَهُ الذين عَذَرُوا بني أُبيرق - في سَرِقَتِهم ما سَرَقُوا، وخيانَتِهم ما خَانُوا عندَ رسولِ الله ﷺ، وشهادتهم لهم عنده بالصلاحِ. فقال لهم: إذا قمتم بالشهادةِ لإنسانٍ أو عليه، فقـولـوا فيهـا بالعَـدْلِ، ولو كانت شهادتكم على أنفسِكم وآبائِكم وأمهاتكم وأقربائكم، ولا يحملنكم غِنَى مَنْ شهدتُمْ له أو فقره أو قرابته ورَحِمهُ منكم، على الشهادةِ له بالزورِ، ولا على تركِ الشهادةِ عليه بالحَقِّ وكتمانها.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِن تَلْوُۥٓا۟ أَوْ تُعْرِضُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ١٣٥﴾

تأويلُ الكلام: وإنْ تَدْفَعُوا القيامَ بالشهادةِ على وجهها لِمَنْ لَزِمَكُم القيامُ له بها، فتغيروها وتبدلوا، أو تُعْرِضُوا عنها فتتركوا القيامَ له بها، كما يلوي الرجلُ دينَ الرجل فيدافعه بأدائه إليه على ما وَجَبَ عليه له مَطْلاً منه له.

وأما تأويل قوله: «فَإِنَّ آللهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً»، فإنه أراد: «فَإِنَّ آللهَ كَانَ بِمَـا تَعْمَلُونَ»، مِنْ إقـامتِكم الشهادةَ وتحريفكم إياها، وإعراضكم عنها بِكِتْمَانِكُمُوهَا. «خَبِيراً»، يعني ذا خبرةٍ وعِلْمٍ به، يحفظ ذلك منكم عليكم، حتى يجـازيكم به جزاءكم في الآخـرة، المحسنَ منكم بإحسانه، والمسيء بإساءته، يقول: فاتقوا ربكم في ذلك.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبۡلُۚ وَمَن يَكۡفُرۡ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا ١٣٦﴾

يعني بذلك جَلَّ ثناؤُهُ: «يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا»، بِمَنْ قَبْلَ محمدٍ من الأنبياءِ والرسلِ، وصدَّقُوا بما جاؤوهم به من عند الله. «آمِنُوا بِٱللهِ وَرَسُولِهِ»، يقول: صَدِّقُوا بالله وبمحمدٍ رسوله، أنه لله رسولٌ، مُرْسَل إليكم وإلى سائرِ الأمم قبلكم. «وَٱلْكِتَابِ ٱلَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِ»، يقول: وصَدِّقُوا بما جاءكم به محمدٌ من الكتابِ الذي نَزَّلَهُ الله عليه، وذلك القرآن. «وَٱلْكِتَابِ ٱلَّذِي أَنْزَلَ مِن قَبْلُ»، يقول: وآمنوا بالكتابِ الذي أنزل الله من قَبْلِ الكتابِ الذي نَزَّلَهُ على محمدٍ ﷺ، وهو التوراةُ والإنجيل.

فإنْ قال قائلٌ: وما وجهُ دُعاءِ هؤلاءِ إلى الإيمانِ بالله ورسولِهِ وكتبه، وقد سَمَّاهم «مؤمنين»؟

قيل: إنه جَلَّ ثناؤُهُ لم يُسَمِّهم «مؤمنين»، وإنما وَصَفَهُمْ بأنهم «آمَنُوا»، وذلك وصفٌ لهم بخصوصٍ من التصديق. وذلك أنهم كانوا صنفين: أهلُ توراةٍ مُصَدِّقِينَ بها وبِمَنْ جاء بها، وهم مُكَذِّبُونَ بالإنجيلِ والقرآن وعيسى ومحمد صلوات الله عليهما. وصنفُ أهلِ إنجيلٍ، وهم مُصَدِّقُونَ به وبالتوراةِ وسائرِ الكتب، مُكَذِّبُونَ بمحمدٍ ﷺ والفرقان، فقال جَلَّ ثناؤُهُ لهم: «يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا»، يعني: بما هم به مؤمنون من الكتب والرسل. «آمِنُوا بِٱللهِ وَرَسُولِهِ» محمد ﷺ. «وَٱلْكِتَابِ ٱلَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِ»، فإنكم قد علمتم أنَّ

محمداً رسولُ الله، تجدونَ صِفَتَهُ في كُتُبكم، وبالكتابِ الذي أنزل من قبلُ الـذي تزعمـون أنكم به مؤمنـون، فإنكم لن تكونوا به مؤمنينَ وأنتم بمحمدٍ مُكَذِّبُونَ، لأنَّ كتابكم يأمُركم بالتصديقِ به وبما جاءكم به، فآمنوا بكتابِكم في اتِّباعكم محمداً، وإلا فأنتم به كافرون. فهذا وجهُ أمرهم بالإيمانِ بما أمرهم بالإيمانِ به، بعد أنْ وَصَفَهم بما وصفهم بقوله: «يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا».

وأما قوله: «وَمَن يَكْفُرْ بِٱللهِ وَمَلاَئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَٱلْيَوْمِ الآخِرِ»، فإن معناه: ومن يكفر بمحمد ﷺ فيجحد نبوّته فقد ضلَّ ضلالاً بعيداً.

وإنما قال تعالى ذِكْرُهُ: «وَمَن يَكْفُرْ بِٱللهِ وَمَلاَئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَٱلْيَوْمِ الآخِرِ»، ومعناه: ومَنْ يكفرْ بمحمدٍ وبما جاءَ به من عندِ الله - لأنَّ جحودَ شيءٍ من ذلك بمعنى جحودِ جميعهِ، ولأنه لا يَصِحُّ إيمانُ أحدٍ من الخَلْقِ إلا بالإيمانِ بما أمره الله بالإيمانِ به، والكفرُ بشيءٍ منه كفرٌ بجميعهِ، فلذلك قال: «وَمَن يَكْفُرْ بِٱللهِ وَمَلاَئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَٱلْيَوْمِ الآخِرِ»، بِعَقِبِ خطابهِ أهلَ الكتابِ وأمرِهِ إياهم بالإيمانِ بمحمدٍ ﷺ، تهديداً منه لهم، وهم مُقِرُّونَ بوحدانيةِ الله والملائكةِ والكتبِ والرسلِ واليومِ الآخر، سِوى محمدٍ ﷺ وما جاء به من الفرقان.

وأما قوله: «فَقَدْ ضَلَّ ضَلاَلاً بَعِيداً»، فإنه يعني: فقد ذهبَ عن قَصْدِ السبيلِ، وجارَ عن محجَّةِ الطريق، إلى المهالكِ - ذهاباً وجوراً بعيداً. لأنَّ كُفْرَ مَنْ كفرَ بذلك، خروجٌ منه عن دينِ الله الذي شَرَعَهُ لعبادِه. والخروجُ عن دينِ الله: الهلاكُ الذي فيه البوار، والضلال عن الهدى هو الضلال.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ٱزْدَادُواْ كُفْرًا لَّمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا ﴿١٣٧﴾

عَنَى بذلك أهلَ الكتابِ الذين أقرُّوا بحكمِ التوراة، ثم كَذَّبُوا بخلافِهم إياه، ثم أقرَّ مَنْ أقرَّ منهم بعيسى والإنجيل، ثم كَذَّبَ به بخلافه إياه، ثم كَذَّبَ بمحمدٍ ﷺ والفرقان، فازدادَ بتكذيبه به كُفْراً على كفرهِ لأنَّ الآية قبلها في قصص أهلِ الكتابين أعني قوله: «يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِٱللهِ وَرَسُولِهِ»، ولا دلالةَ تدلُّ على أنَّ قوله: «إِنَّ ٱلَّذِينَ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا»، منقطعٌ معناهُ من معنى ما قبله، فإلحاقُه بما قَبْلَهُ أوْلى، حتى تأتيَ دلالةٌ دالَّة على انقطاعهِ منه.

وأما قوله: «لَّمْ يَكُنِ ٱللهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ»، فإنه يعني: لم يكن الله ليسترَ عليهم كُفْرَهم وذنوبهم، بعفوهِ عن العقوبةِ لهم عليه، ولكنه يفضحهم على رؤوسِ الأشهادِ «وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلاً»، يقول: ولم يَكُنْ لِيُسَدِّدَهُم لإصابةِ طريقِ الحقِّ فيوفقهم لها، ولكنه يخذلهم عنها، عقوبةً لهم على عظيمِ جُرْمِهم، وجرأتهم على ربهم.

وقد ذهبَ قومٌ إلى أنَّ المرتدَّ يُسْتَتَابُ ثلاثاً، انتزاعاً منهم بهذه الآية[1]، وخالفهم على ذلك آخرون، فقالوا: يُسْتتابُ كلما ارْتَدَّ.

وفي قيامِ الحُجَّةِ بأنَّ المرتد يُستتابُ المرَّة الأولى، الدليل الواضح على أنَّ حُكْمَ كلِّ مرة ارتـدَّ فيهـا عن الإسلامِ حكمُ المرة الأولى، في أنَّ توبتَهُ مقبولةٌ، وأنَّ إسلامَهُ حَقَن له دَمَهُ. لأنَّ العِلَّةَ التي حَقَنَتْ دمه في المرةِ الأولى إسلامُه، فغيرُ جائزٍ أنْ توجد العلة التي من أجلها كان دمه مَحْقُوناً في الحالة الأولى، ثم يكون دمه مباحاً مع وجودها، إلَّا أنْ يفرِّق بين حُكْمِ المرة الأولى وسائر المرات غيرها، ما يجبُ التسليم له من أصل محكمٍ، فيخرج من حكمِ القياسِ حينئذٍ.

---

(١) يعني: استنباطاً من هذه الآية.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿بَشِّرِ ٱلْمُنَٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ١٣٨﴾

يعني بقوله جَلَّ ثناؤُهُ: «بَشِّرِ ٱلْمُنَافِقِينَ»، أخبرِ المنافقينَ. «بِأَنَّ لَهُمْ عَذَاباً أَلِيماً»، يعني: بأنَّ لهم يومَ القيامةِ من الله على نفاقهم. «عَذَاباً أَلِيماً»، وهو المُوجِعُ، وذلك عذابُ جهنم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ١٣٩﴾

أما قوله جَلَّ ثناؤُهُ: «ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ»، فمن صفة المنافقين. يقولُ الله لنبيه: يا محمدُ، بَشِّرِ المنافقينَ الذين يتخذون أهلَ الكفرِ بي والإلحاد في ديني. «أَوْلِيَاءَ» يعني: أنصاراً وأخلاء. «مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ»، يعني: من غير المؤمنينَ. «أَيَبْتَغُونَ عِنْدَهُمُ ٱلْعِزَّةَ»، يقول: أيطلبون عندهم المنعةَ والقُوَّةَ، باتخاذهم إياهم أولياءَ من دونِ أهلِ الإيمانِ بي؟ «فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ للهِ جَمِيعاً»، يقول: فإنَّ الذين اتخذوهم من الكافرين أولياء ابتغاءَ العِزَّةِ عندهم، هم الأذلاَّءُ الأقِلاَّء، فَهَلاَّ اتَّخذُوا الأولياءَ من المؤمنينَ، فيلتمسوا العِزَّةَ والمنعةَ والنُّصْرَةَ من عندِ الله الذي له العزةُ والمنعة، الذي يُعِزُّ مَنْ يشاء ويُذِلُّ مَنْ يشاء، فيعزُّهم ويمنعهم؟

وأصل «ٱلْعِزَّة»، الشِدَّةُ. ومنه قِيلَ للأرضِ الصلبة الشديدة، «عَزَاز». وقيل «قد استُعِزَّ على المريض»، إذا اشتدَّ مرضه وكاد يُشْفِي[1]. ويقال: «تعزز اللحمُ»، إذا اشتد. ومنه قيل: «عَزَّ عليَّ أنْ يكون كذا وكذا»، بمعنى: اشتد عليَّ.

---

(١) كاد يشفي: أي: يشرف على الهلاك.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذًا مِثْلُهُمْ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا ١٤٠﴾

يعني بذلك جَلَّ ثناؤُهُ: «بشر المنافقين» الذين يتخذون الكافرينَ أولياءَ من دون المؤمنين، «وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلْكِتَابِ»، يقول: أخبر مَن اتَّخَذَ من هؤلاءِ المنـافقينَ الكفار أنصاراً وأولياءَ بعدما نزل عليهم من القرآن، «أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ الله يُكْفَـرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلاَ تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ»، يعني: بعدما عَلِمُوا نَهْي الله عن مجالسةِ الكفار الذين يكفرونَ بحججِ الله وآيِ كتابهِ ويستهزئون بها. «حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ»، يعني بقوله: «يَخُوضُوا»، يتحدثوا حديثاً غيرَهُ. «بأنَّ لهم عذاباً أليماً».

وقوله: : «إِنَّكُمْ إِذاً مِّثْلُهُمْ»، يعني: وقد نزل عليكم أنكم إنْ جالستم مَنْ يكفر بآياتِ الله ويستهزئ بها وأنتم تسمعون، فأنتم مِثْله. يعني: فأنتم إنْ لم تقـومـوا عنهم في تلك الحـال، مثلُهم في فِعْلِهم، لأنكم قد عَصَيْتُم الله بجلوسكم معهم وأنتم تسمعـونَ آياتِ الله يُكْفَرُ بها ويُستهزأ بها، كما عصوه باستهزائهم بآياتِ الله. فقد أتيتم من معصيةِ الله نحو الذي أتَوْه منها، فأنتم إذاً مِثْلُهم في رُكُوبِكم معصيةَ الله، وإتيانكم ما نهاكم الله عنه.

وفي هذه الآية، الدلالةُ الواضحةُ على النهي عن مجالسةِ أهلِ الباطلِ من كُلِّ نوعٍ، من المبتدعة والفَسَقَةِ، عند خوضِهم في باطلهم.

وقوله: «إِنَّ ٱللهَ جَامِعُ ٱلْمُنَافِقِينَ وَٱلْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعاً»، يقول: إنَّ الله جامعُ الفريقين من أهلِ الكفرِ والنفاقِ في القيامة في النار، فموفِّقٌ بينهم

في عقابهِ في جهنم وأليمِ عذابه، كما اتفقوا في الدنيا فاجتمعوا على عَداوةِ المؤمنين، وتَوازرُوا على التخذيلِ عن دينِ الله ـ وعن الذي ارتضاهُ وأمَرَ به ـ وأهلِه.

واختلفت القَرَأَةُ في قراءةِ قوله: «وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلْكِتَابِ».

فقرأ ذلك عامة القَرَأَةِ بضم «النون» وتثقيل «الزاي» وتشديدها، على وجْه ما لم يُسَمَّ فاعلهُ.

وقرأ بعض الكوفيين بفتح «النون» وتشديد «الزاي»، على معنى: وقد نَزَّل الله عليكم.

وقرأ بعض المكيين: «وَقَدْ نَزَلَ عَلَيْكُمْ» بفتح «النون»، وتخفيف «الزاي»، بمعنى: وقد جاءكم من الله أنْ إذا سمعتم.

وليس في هذه القراآت الثلاث وجهٌ يَبْعدُ معناه مما يَحْتَمِلُهُ الكلامُ. غير أنَّ الذي أختارُ القراءةَ به، قراءة من قرأ: ﴿وَقَدْ نُزِّلَ﴾ بضم «النون» وتشديد «الزاي»، على وَجْه ما لم يُسَمَّ فاعلُه. لأنَّ معنى الكلام فيه التقديم على ما وصفت قَبْلُ، على معنى: «ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ».

«وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ الله يُكْفَرُ بِهَا» إلى قوله: «حَدِيثٍ غَيْرِهِ». «أَيَبْتَغُونَ عِنْدَهُمُ ٱلْعِزَّةَ». فقوله: «فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لله جَمِيعاً»، يعني التأخير، فلذلك كان ضَمُّ «النون» من قوله: «نزّل» أصوب عندنا في هذا الموضع.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ٱلَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ ٱللَّهِ قَالُوٓاْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ وَإِن كَانَ لِلْكَٰفِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوٓاْ أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ

﴿عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَۚ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۗ وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا ﴿١٤١﴾﴾

يعني جَلَّ ثناؤُهُ بقوله: «ٱلَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ»، الذين ينتظرون، أيها المؤمنون، بكم، «فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ الله»، يعني: فإنْ فتحَ الله عليكم فتحاً من عدوكم، فأفاءَ عليكم فَيْئاً من المغانم. «قَالُوا» لكم. «أَلَمْ نَكُنْ مَّعَكُمْ»، نجاهد عَدُوَّكُم ونغزوهم معكم، فأعطونا نصيباً من الغنيمة، فإنا قد شَهِدْنَا القتالَ معكم. «وَإِن كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ»، يعني: وإنْ كان لأعدائكم من الكافرينَ حَظٌّ منكم، بإصابتهم منكم. «قَالُوا»، يعني: قال هؤلاء المنافقون للكافرين. «أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ»، ألم نغلب عليكم حتى قهرتم المؤمنين. «ونمنعكم» منهم، بتخذيلنا إيَّاهُم، حتى امتنعوا منكم فانصرفوا. «فَٱللهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ»، يعني: فالله يحكمُ بين المؤمنينَ والمنافقين يومَ القيامة، فيفصل بينكم بالقضاء الفاصل، بإدخالِ أهلِ الإيمانِ جنَّتَهُ، وأهلِ النفاقِ مع أوليائِهم من الكفارِ نَارَهُ. «وَلَنْ يَجْعَلَ ٱلله لِلْكَافِرِينَ عَلَىٰ ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلاً»، يعني: حجة يوم القيامة.

وذلك وَعْدٌ من الله المؤمنين أنه لن يُدْخِلَ المنافقين مدخلَهم من الجنة، ولا المؤمنين مدخَلَ المنافقين، فيكون بذلك للكافرينَ على المؤمنينَ حُجَّةٌ بأنْ يقولوا لهم، إنْ أُدْخِلُوا مدخلهم: ها أنتم كنتم في الدنيا أعداءَنا، وكان المنافقون أولياءنا، وقد اجتمعتم في النار، فجمع بينكم وبين أوليائنا! فأينَ الذي كنتم تزعمونَ أنكم تقاتلوننا من أجلِهِ في الدنيا؟ فذلك هو «السبيل» الذي وَعَدَ الله المؤمنينَ أنْ لا يجعلها عليهم للكافرين.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓا۟ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُوا۟ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٤٢﴾﴾

تأويل ذلك: إنَّ المنافقينَ يُخادعونَ الله، بإحرازهم بنفاقهم دماءَهُم وأموالَهم، والله خادِعُهم بما حكَمَ فيهم من مَنْع دِمائهم بما أظهروا بألسنتهم من الإيمان، مع عِلْمِه بباطنِ ضمائرهم واعتقادهم الكفرَ، استدراجاً منه لهم في الدنيا، حتى يلقوه في الآخرة، فيوردهم بما استنبطوا من الكفر نارَ جهنم.

وأما قوله: «وَإِذَا قَامُوا إِلَىٰ ٱلصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَىٰ يُرَاؤُونَ ٱلنَّاسَ»، فإنه يعني: أنَّ المنافقينَ لا يعملون شيئاً من الأعمال التي فرضها الله على المؤمنينَ على وجهِ التقرُّبِ بها إلى الله، لأنهم غير مُوقِنينَ بمعَادٍ ولا ثوابٍ ولا عقاب، وإنما يعملون ما عملوا من الأعمالِ الظاهرة إبقاءً على أنفسهم، وحذاراً من المؤمنينَ عليها أن يُقْتَلُوا أو يُسْلَبُوا أموالَهم. فهم إذا قاموا إلى الصلاةِ التي هيَ من الفرائضِ الظاهرةِ، قاموا كُسالى إليها، رياءً للمؤمنينَ ليحسبوهم منهم وليسوا منهم، لأنهم غير معتقدي فَرْضِها ووجوبها عليهم، فهم في قيامِهم إليها كُسالى.

وأما قوله: «وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللهَ إِلَّا قَلِيلًا»، فلعلَّ قائلاً أنْ يقولَ: وهَلْ من ذكر الله شيء قليل؟

قيل له: إنَّ معنى ذلك، بخلافِ ما ذهبتَ: ولا يذكرونَ الله إلا ذِكْرَ رياء، لِيَدْفعُوا به عن أنفسِهم القتلَ والسباءَ وسَلْبَ الأموالِ، لا ذِكْرَ مُوقِنٍ مُصَدِّقٍ بتوحيدِ الله، مخلصٍ له الربوبيةَ. فلذلك سَمَّاهُ الله «قَلِيلاً»، لأنه غيرُ

مقصودٍ به الله، ولا مبتغىً به التقرُّب إلى الله، ولا مرادٌ به ثواب الله وما عنده. فهو. وإنْ كثُرَ، من وجه نَصَب عامله وذاكره، في معنى السراب الذي له ظاهرٌ بغير حقيقة ماء.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا ﴿١٤٣﴾﴾

وإنما عَنَى الله بذلك: أنَّ المنافقينَ مُتَحَيِّرونَ في دينهم، لا يرجعون إلى اعتقادِ شيءٍ على صحة، فهم لا مَعَ المؤمنينَ على بصيرةٍ، ولا مع المشركينَ على جهالةٍ، ولكنهم حيارَى بين ذلك، فَمثَلهم المثلُ الذي ضرب لهم رسولُ الله ﷺ، الذي قال: مَثَلُ المنافقِ كمثل الشَّاةِ العائرةِ بين الغنمين، تَعِيرُ إلى هذه مرة، وإلى هذه مرة، لا تدري أيَّهُمَا تَتْبع[1]!

وأما قوله: «وَمَن يُضْلِلِ ٱللهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلاً»، فإنه يعني: مَنْ يخذُله الله عن طريقِ الرشاد، وذلك هو الإسلامُ الذي دعا الله إليه عبادَهُ. يقول: من يخذله الله عنه فلم يُوَفِّقْهُ له «فَلَنْ تَجِدَ لَهُ»، يا محمدُ. «سَبِيلاً»، يعني: طريقاً يسلكُه إلى الحَقِّ غيره. وأيِّ سبيلٍ يكونُ له إلى الحق غير الإسلام؟ وقد أخبر الله جَلَّ ثناؤُهُ: أنه مَنْ يبتغِ غيرَهْ دِيناً فلن يُقبلَ منه، ومَنْ أضَلَّهُ الله عنه فقد غَوَى فلا هاديَ له غيره.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَـالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ عَلَيْكُمْ

(١) أخرجه الطبري من حديث نافع عن ابن عمر (١٠٧٢٨) و(١٠٧٢٩) و(١٠٧٣٠)، وهو عند مسلم (٢٧٨٤) من غير قوله: «لاتدري أيهما تتبع».

﴿سُلْطَانًا مُّبِينًا ١٤٤﴾

وهذا نهيٌ من الله عبادَهُ المؤمنينَ أنْ يتخلَّقُوا بأخلاقِ المنافقين، الذين يتخذون الكافرينَ أولياءَ من دونِ المؤمنين، فيكونوا مِثْلَهُمْ في ركوبِ ما نهاهم عنه من موالاة أعدائه.

يقول لهم جَلَّ ثناؤهُ: يا أيها الذين آمنوا بالله ورسوله، لا تُوالُوا الكفَّارَ فتؤازروهم من دونِ أهلِ ملَّتكم ودينكم من المؤمنين، فتكونوا كمن أوجبتُ له النارَ من المنافقين.

ثم قال جَلَّ ثناؤهُ: متوعِّداً مَنِ اتَّخَذَ منهم الكافرينَ أولياء من دون المؤمنين، إنْ هو لم يَرْتَدِعْ عن موالاتهِ، وينزجرْ عن مُخَالَّته أنْ يلحقه بأهلِ ولايتهم من المنافقين الذين أمر نبيه ﷺ بتبشيرهم بأنَّ لهم عذاباً أليماً. «أَتُرِيدُونَ»، أيها المُتَّخِذُونَ الكافرينَ أولياءَ من دونِ المؤمنينَ مِمَّنْ قد آمَنْ بي وبرسولي «أَنْ تَجْعَلُوا للهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَاناً مُّبِيناً»، يقول: حجة، باتِّخاذكم الكافرينَ أولياء من دونِ المؤمنين، فتستوجِبُوا منه ما استوجبه أهلُ النفاق الذين وَصَفَ لكم صفتهم، وأخبركم بمحلِّهم عنده. «مُّبِيناً»، يعني: يبين عن صحتها وحقيقتها. يقول: لاتَعَرَّضُوا لغضبِ الله، بإيجابكم الحُجَّةَ على أنفسِكم في تقدمكم على ما نهاكم ربكم من موالاةِ أعدائهِ وأهلِ الكفرِ به.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ١٤٥﴾

يعني جَلَّ ثناؤهُ بقوله: «إِنَّ ٱلْمُنَافِقِينَ فِي ٱلدَّرْكِ ٱلأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ»، إنَّ المنافقين في الطَّبَقِ الأسفلِ من أطباقِ جهنم.

وأمـا قولـه: «وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيراً»، فإنه يعني: ولَنْ تجد لهؤلاء المنافقين، يا محمدُ، من الله إذا جعلهم في الدرك الأسفل من النار ناصراً ينصُرهم منه، فينقذهُمْ من عذابِه، ويدفع عنهم أليمَ عقابه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصْلَحُواْ وَٱعْتَصَمُواْ بِٱللَّهِ وَأَخْلَصُواْ دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ١٤٦﴾

وهذا استثناءٌ من الله جَلَّ ثناؤُهُ، استثنى التائبين من نفاقهم إذا أصلحوا، وأخلصوا الدينَ لله وحده، وتبرأوا من الآلهةِ والأندادِ، وصَدَّقُوا رسولَهُ، أن يكونوا مع المُصِرِّينَ على نفاقهم حتى تُوافيهم مناياهم - في الآخرة[1]، وأن يدخلوا مَداخلهم من جهنم. بَلْ وَعَدَهُمْ جَلَّ ثناؤُهُ أنْ يُحِلَّهم مع المؤمنينَ محلَّ الكرامة، ويُسْكِنَهُمْ معهم مساكنهم في الجنة. ووعدهم من الجزاء على توبتهم الجزيلَ من العطاء فقال: «وَسَوْفَ يُؤْتِ ٱللهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَجْراً عَظِيماً».

فتأويل الآية: «إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا»، أي: راجعوا الحق، وآبوا إلى الإقرارِ بوحدانيةِ الله وتصديق رسوله وما جاء به من عند ربه من نفاقهم. «وَأَصْلَحُوا»، يعني: وأصلحوا أعمالهم، فَعَمِلُوا بما أمرهم الله به. وأَدَّوْا فرائِضَهُ، وانتهوا عما نَهاهُمْ عنه، وانزجروا عن معاصيه. «وَٱعْتَصَمُوا بِٱللهِ»، يقول: وتَمَسَّكُوا بعهدِ الله.

وقد دَلَّلْنَا فيما مضى قَبْلُ على أنَّ «الاعتصام» التَّمَسُّك والتعلُّق. فالاعتصام بالله: التمسك بعهدِه وميثاقِه الذي عَهِدَ في كتابِه إلى خَلْقِه، من طاعتِه وتركِ معصيته.

---

(١) سياق الجملة: أن يكونوا مع المصرين.. في الآخرة».

«وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لله»، يقول: وأخلصوا طاعتَهم وأعمالَهم التي يعملونها لله، فأرادوه بها، ولم يعملوها رِئاءَ الناسِ، ولا على شَكٍّ منهم في دينهم، وامتراءٍ منهم في أنَّ الله مُحْصٍ عليهم ما عملوا، فمجازي المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته، ولكنهم عملوها على يقينٍ منهم في ثوابِ المحسنِ على إحسانِه، وجزاء المسيء على إساءته، أو يتفضَّل عليه ربه فيعفو- متقرِّبينَ بها إلى الله، مُريدينَ بها وجهَ الله. فذلك معنى: «إخلاصهم لله دينهم».

ثم قال جَلَّ ثناؤُهُ: «فَأُوْلَئِكَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ»، يقولُ: فهؤلاء الذين وَصَفَ صِفَتَهم من المنافقينَ بعد توبتهم وإصلاحِهم واعتصامِهم بالله وإخلاصِهم دِينَهم أي: مع المؤمنينَ في الجنة، لا مَعَ المنافقينَ الذين ماتوا على نفاقهم، الذين أوعدهم الدَركَ الأسفلَ من النارِ.

ثم قال: «وَسَوْفَ يُؤْتِ ٱللهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَجْراً عَظِيماً»، يقول: وسوف يُعطي الله هؤلاء الـذين هذه صِفَتُهم، على توبتهم وإصـلاحهم واعتصـامهم بالله وإخلاصهم دينهم له، وعلى إيمانهم، ثواباً عظيماً، وذلك: درجات في الجنة، كما أعطى الذين ماتوا على النِّفاقِ منازلَ في النارِ، وهي السفلى منها. لأنَّ الله جَلَّ ثناؤُهُ وَعَدَ عبادَهُ المؤمنينَ أنْ يؤتيهم على إيمانِهم ذلك، كما أوعدَ المنافقينَ على نِفاقهم ما ذكر في كتابه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴿١٤٧﴾

يعني جَلَّ ثناؤُهُ بقوله: «مَّا يَفْعَلُ ٱللهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ»، ما يصنع الله، أيها المنافقونَ، بعذابكم، إنْ أنتم تُبْتُمْ إلى الله ورجعتم إلى الحَقِّ الـواجبِ لله عليكم، فشكـرتُمـوهُ على ما أنعمَ عليكم من نِعَمِهِ في أنفسكم

وأهاليكم وأولادِكم، بالإنابةِ إلى توحيدِهِ، والاعتصامِ به، وإخلاصِكُمْ أعمالَكم لوجهِهِ، وتركِ رياءِ الناسِ بها، وآمنتم برسولِه محمدٍ ﷺ فَصَدَّقتُمُوهُ، وأقررتم بما جاءكم به من عنده فعملتم به؟

يقول: لا حاجةَ بالله أنْ يجعلكم في الدَّركِ الأسفلِ من النارِ، إنْ أنتم أَنَبْتُمْ إلى طاعتهِ، وراجعتم العملَ بما أمرَكُمْ به، وتركَ ما نهاكم عنه. لأنه لا يجتلبُ بعذابكم إلى نفسهِ نفعاً، ولا يدفعُ عنها ضُراً، وإنما عقوبته مَنْ عاقب من خَلْقِه، جزاءٌ منه له على جراءته عليه، وعلى خلافه أمره ونهيه، وكفرانِه شُكْرَ نِعَمِهِ عليه. فإنْ أنتم شكرتُمْ له على نعمه، وأطعتموه في أمرِهِ ونهيِهِ، فلا حاجةَ به إلى تعذيبكم، بل يشكر لكم ما يكونُ منكم من طاعةٍ له وشكرٍ، بمجازاتِكُم على ذلك بما تقصر عنه أمانيكم، ولم تبلغه آمالكم. «وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِراً» لكم ولعبادهِ على طاعتهم إياه، بإجزالهِ لهم الثوابَ عليها، وإعظامه لهم العِوَضَ منها. «عَلِيماً» بما تعملون، أيها المنافقون، وغيركم من خيرٍ وشر، وصالح وطالح، مُحْصٍ ذلك كله عليكم، محيط بجميعه، حتى يجازيكم جزاءَكم يومَ القيامة، المحسنَ بإحسانِه، والمسيء بإساءته.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَۚ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا ۝١٤٨﴾

تأويل ذلك: لا يحبُّ الله، أيها الناسُ، أن يجهرَ أحدٌ لأحدٍ بالسوء من القول «إلَّا مَن ظُلِمَ»، بمعني: إلا مَنْ ظُلِمَ، فلا حَرَجَ عليه أن يخبر بما أُسيء عليه.

وإذا كان ذلك معناه، دخل فيه إخبار من لم يُقْرَ، أوْ أُسِيءَ قِراهُ[١]، أو

---

(١) القِرى: الضيافةُ، يعني: لم يُحْسنْ ضيافته.

نِيلَ بظلمٍ في نفسِهِ أو مالِهِ - غيرَه من سائرِ الناس. وكذلك دعاؤه على مَنْ نالَه بظلم: أنْ ينصرَهُ الله عليه، لأنَّ في دعائه عليه إعلاماً منه لمن سَمِعَ دعاءَهُ عليه بالسوء له.

وأما قوله: «وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعاً عَلِيماً»، فإنه يعني: «وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعاً عَلِيماً»، لِمَا تجهرونَ به من سوءِ القولِ لمن تَجهرونَ له به، وغير ذلك من أصواتِكم وكلامِكم. «عَلِيماً»، بما تُخْفُونَ من سُوءِ قولِكم وكلامِكم لمن تُخْفُونَ له به فلا تجهرون له به، مُحْصٍ كُلَّ ذلك عليكم، حتى يجازيكم على ذلك كُلِّه جزاءَكم، المسيءَ بإساته، والمحسنَ بإحسانِهِ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِن تُبْدُواْ خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُواْ عَن سُوٓءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا ١٤٩﴾

يعني بقوله جَلَّ ثناؤُهُ: «إن تبدوا» أيها الناسُ. «خيراً»، يقول: إنْ تَقُولُوا جميلاً من القولِ لمن أحسنَ إليكم، فَتُظْهِرُوا ذلك شكراً منكم له على ما كانَ منه من حسن إليكم، «أو تخفوه»، يقول: أو تتركوا إظهارَ ذلك فلا تُبْدُوهُ. «أو تَعْفُوا عن سوء»، يقول: أو تَصْفَحُوا لِمَنْ أساءَ إليكم عن إساءته، فلا تجهروا له بالسوءِ من القولِ الذي قد أَذِنْتُ لكم أنْ تجهروا له به. «فإنَّ الله كان عفواً»، يقول: لم يَزَلْ ذا عَفْوٍ عن خَلْقِه، يصفح عَمَّنْ عصَاهُ وخالفَ أمره. «قديراً»، يقول: ذا قدرةٍ على الانتقامِ منهم.

وإنما يعني بذلك: أنَّ الله لم يَزَلْ ذا عفوٍ عن عبادِه، مع قدرتهِ على عقابِهم على معصيتهم إيّاه.

يقول: فاعْفُوا، أنتم أيضاً، أيها الناسُ، عَمَّنْ أتى إليكم ظلماً، ولا تجهروا له بالسوء من القول، وإنْ قَدرتُمْ على الإساءةِ إليه، كما يعفو عنكم

رَبُّكُم مع قُدْرتهِ على عقابِكم، وأنتم تَعْصُونَهُ وتخالفونَ أمره.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّاۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٥١﴾﴾

يعني بقوله جَلّ ثناؤُهُ: «إنَّ الذين يكفرون بالله ورسله»، من اليهود والنصارى. «ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسله»، بأنْ يكذبوا رُسُلَ الله الذين أرسلهم إلى خَلْقِه بوحيهِ، ويزعموا أنهم افتروا على ربهم. وذلك هو معنى إرادتهم التفريقَ بين الله ورُسُلِه، بنِحْلتهم إياهم الكذبَ والفريةَ على الله، وادِّعائهم عليهم الأباطيلَ. «وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ»، يعني: أنهم يقولون: «نُصَدِّقُ بهذا ونكذِّب بهذا»، كما فعلت اليهودُ من تكذيبهم عيسى ومحمداً صلى الله عليهما وسلم، وتصديقهم بموسى وسائر الأنبياء قبله بزعمهم. وكما فعلتِ النصارى من تكذِيبهم محمداً ﷺ، وتصديقهم بعيسى وسائرِ الأنبياءِ قَبْلَهُ بزعمهم. «وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلاً»، يقول: ويُريدُ المُفَرِّقونَ بين الله ورسله، الزاعمونَ أنهم يؤمنون ببعضٍ ويكفرون ببعض، أنْ يَتَّخِذُوا بين أضعافِ قولهم: «نؤمنُ ببعضِ الأنبياءِ ونكفرُ ببعضٍ». «سبيلاً»، يعني: طريقاً إلى الضلالة التي أحدثوها، والبدعة التي ابتدعوها، يدعون أهل الجهلِ من الناس إليه.

فقال جَلَّ ثناؤُهُ لعبادهِ، مُنَبِّهاً لهم على ضلالتهم وكفرهم: «أُوْلَئِكَ هُمُ ٱلْكَافِرُونَ حَقاً»، يقول: أيها الناسُ، هؤلاء الذين وصفتُ لكم صِفَتهم، هم أهلُ الكفر بي، المستحقون عذابي والخلود في ناري حقاً. فاستيقنوا ذلك،

ولا يُشَكِّكَنَّكُمْ في أمرهم انتحالهم الكذبَ، ودعواهم أنهم يُقِرُّونَ بما زَعَمُوا أنهم به مُقِرُّونَ من الكتبِ والرسل، فإنهم في دعواهم ما ادعوا من ذلك كَذَبَةٌ. وذلك أنَّ المؤمنَ بالكتبِ والرسل، هو المُصَدِّقُ بجميعِ ما في الكتاب الذي يزعم أنه به مصدق، وبما جاء به الرسولُ الذي يزعم أنه به مؤمن. فأمَّا مَنْ صَدَّقَ ببعضٍ ذلك وكذَّب ببعض، فهو لنبوةِ مَنْ كَذَّبَ ببعضٍ ما جاءَ به جاحدٌ، ومَنْ جحدَ نبوةَ نبيٍّ فهو به مكذب. وهؤلاء الذين جحدوا نبوةَ بعض الأنبياء، وزعموا أنهم مُصَدِّقُونَ ببعض، مكذبون مَنْ زعموا أنهم به مؤمنون، لتكذيبهم ببعضٍ ما جاءهم به من عند رَبِّهم، فهم بالله وبرسله الذين يزعمون أنهم بهم مصدقون، والذين يزعمون أنهم بهم مكذبون كافرونَ، فهم الجاحدونَ وحدانيةَ الله ونبوّةَ أنبيائهِ حَقَّ الجحود، المكذبونَ بذلك حَقَّ التكذيب. فاحذروا أنْ تَغْتَرُّوا بهم وببِدْعتِهم، فإنا قد أعتدنا لهم عذاباً مهيناً.

وأما قوله: «وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَاباً مُهِيناً»، فإنه يعني: «وَأَعْتَدْنَا» لمن جحدَ بالله ورسوله جحودَ هؤلاء الذين وصفتُ لكم، أيها الناسُ، أمرَهم من أهلِ الكتابِ، ولغيرهم من سائرِ أجناسِ الكفار. «عَذَاباً»، في الآخرةِ «مُهِيناً»، يعني: يهين مَنْ عُذِّب به بخلوده فيه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ أُولَٰئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٥٢﴾﴾

يعني بذلك جَلَّ ثناؤُهُ: والذين صَدَّقُوا بوحدانيةِ الله، وأقَرُّوا بنبوةِ رُسُلِه أجمعينَ، وصَدَّقُوهم فيما جاؤوهم به من عندِ الله من شرائعِ دينه. «وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ»، يقول: ولم يُكَذِّبُوا بعضَهم ويصدقوا بعضَهم، ولكنهم أقرُّوا أنَّ كُلَّ ما جاؤوا به من عند رَبِّهم حَقٌّ. «أُوْلَئِكَ»، يقول: هؤلاء الذين هذه صِفَتُهم من المؤمنينَ باللهِ ورسلهِ. «سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ»، يقول: سوف يعطيهم.

«أُجُورَهُمْ»، يعني: جزاءهم وثوابهم على تصديقهم الرسلَ في توحيدِ الله وشرائع دينه، وما جاءت به من عند الله. «وَكَانَ ٱللهُ غَفُوراً»، يقول: ويغفر لمن فعلَ ذلك من خَلْقِهِ ما سَلَفَ له من آثامه، فيستر عليه بعفوِهِ له عنه، وتركه العقوبة عليه، فإنه لم يَزَلْ لذنوبِ المُنيبينَ إليه من خَلْقِهِ غفوراً. «رَّحِيماً»، يعني: ولم يزل بهم رحيماً، بتفضُّلِهِ عليهم بالهدايةِ إلى سبيلِ الحَقِّ، وتوفيقه إياهم لما فيه خلاص رِقابِهم من النار.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَسْـَٔلُكَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَٰبًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ فَقَدْ سَأَلُوا۟ مُوسَىٰٓ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوٓا۟ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ۚ ثُمَّ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ فَعَفَوْنَا عَن ذَٰلِكَ ۚ وَءَاتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ١٥٣﴾

(يعني): إنَّ أهلَ التوراة سألوا رسولَ الله ﷺ أنْ يسأل رَبَّهُ أنْ ينزِّلَ عليهم كتاباً من السماء، آيةً معجزةً جميعَ الخلق عن أنْ يأتُوا بمثلها، شاهدةً لرسولِ الله ﷺ بالصدقِ، آمرةً لهم باتباعه.

وجائزٌ أنْ يكونَ الذي سألوه من ذلك كتاباً مكتوباً يُنَزَّلُ عليهم من السماء إلى جماعتهم، وجائزٌ أنْ يكون ذلك كتباً إلى أشخاصٍ بأعينهم. بل الذي هو أوْلى بظاهرِ التلاوةِ، أنْ تكونَ مسألتهم إياهُ ذلك كانت مسألة لتنزيل الكتابِ الواحد إلى جماعتهم، لِذِكْرِ الله تعالى في خَبرهِ عنهم «الكتاب» بلفظِ الواحدِ بقوله: «يَسْأَلُكَ أَهْلُ ٱلْكِتَابِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَاباً مِّنَ ٱلسَّمَاءِ»، ولم يَقُلْ «كتباً».

وأما قوله: «فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَىٰ أَكْبَرَ مِن ذَلِكَ»، فإنه توبيخٌ من الله جَلَّ ثناؤُهُ سائلي الكتاب الذي سألوا رسولَ الله ﷺ أن ينزله عليهم من السماء، في

مسألتهم إياه ذلك وتقرعٌ منه لهم. يقولُ الله لنبيه ﷺ: يا محمد، لايَعْظُمَنَّ عليكَ مسألتهم ذلك، فإنهم من جَهْلِهم بالله وجَراءَتِهم عليه واغترارهم بحلمه، لو أنـزلتَ عليهم الكتابَ الذي سألوكَ أن تُنَزِّلَهُ عليهم، لخالفُوا أمرَ الله كما خالفوه بعد إحياءِ الله أوائلهم من صعقتهم، فعبدوا العِجْلَ واتخذوه إلهاً يعبدونه من دون خالقهم وبـارئهم الذي أَراهم من قُدْرَتِه وعظيمِ سلطانه ما أراهم، لأنهم لَنْ يعدُوا أن يكونوا كأوائلهم وأسلافهم.

ثم قَصَّ الله من قصتهم وقصة موسى ما قصَّ، يقول الله: «فَقَدْ سَأَلُواْ مُوسَىٰٓ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ»، يعني: فقد سأل أسلافُ هؤلاء اليهود وأوائلهم موسى عليه السلام، أعظمَ مما سألوكَ من تنزيلِ كتابٍ عليهم من السماء، فقالوا له: «أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً»، أي: عِياناً نُعَايِنُه وننظرُ إليه.

وأما قوله: «ثُمَّ ٱتَّخَذُواْ ٱلْعِجْلَ»، فإنه يعني: ثم اتَّخَذَ هؤلاء الذين سألوا موسى ما سألوهُ من رؤيةِ رَبِّهم جهرةً، بعدما أحياهم الله فبعثهم من صَعْقَتِهم العِجْـلَ - الذي كان السامريُّ نَبَذَ فيه ما نبذَ من القَبْضَةِ التي قبضها من أثرِ فرسِ جبريلَ عليه السلام - إلهاً يعبدونه من دون الله.

وقوله: «مِن بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ»، يعني: من بعد ما جاءت هؤلاء الذين سألوا موسى ما سألوا، البينات من الله، والدلالاتُ الواضحات بأنهم لن يروا الله عياناً جهاراً.

وإنمـا عنى بـ«البينات»: أنها آيات تبينُ عن أنهم لن يروا الله في أيام حياتهم في الدنيا جهرة. وكانت تلك الآياتُ البيناتُ لهم على أنَّ ذلك كذلك: إصعاقَ الله إياهم عند مسألتهم موسى أنْ يريهم رَبَّهُ جهرةً، ثم إحياءه إياهم بعد مماتهم، مع سائرِ الآياتِ التي أراهم الله دلالةً على ذلك.

يقـول الله، مُقَبِّحـاً إليهم فِعْلَهم ذلك، ومُوضِّحاً لعباده جَهْلَهم ونقصَ

عُقولهم وأحلامهم: ثم أقرُّوا للعجلِ بأنه لهم إلهٌ، وهم يرونه عياناً، وينظرون إليه جِهَاراً، بعد ما أراهم ربُّهم من الآياتِ البينات ما أراهم: أنهم لا يرون ربهم جهرةً وعِياناً في حياتهم الدنيا، فعكفوا على عبادتِه مُصَدِّقينَ بألوهته!!

وقوله: «فَعَفَوْنَا عَن ذَلِكَ»، يقول: فَعَفَوْنَا لِعَبَدَةِ العجلِ عن عبادَتِهم إياه، وللمُصَدِّقينَ منهم بأنه إلهُهُم بعد الذي أراهم الله أنهم لا يرون رَبَّهم في حياتِهم من الآياتِ ما أراهم عن تصديقهم بذلك، بالتوبةِ التي تابوها إلى رَبِّهم بقتلِهم أَنْفُسَهُم، وصبرهم في ذلك على أمر ربهم. «وَآتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَاناً مُبِيناً»، يقول: وآتينا موسى حجةً تبينُ عن صِدْقِهِ وحقيقةِ نُبُوَّتِه، وتلك الحجةُ هي: الآياتُ البيناتُ التي آتاه الله إياها.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَرَفَعۡنَا فَوۡقَهُمُ ٱلطُّورَ بِمِيثَٰقِهِمۡ وَقُلۡنَا لَهُمُ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡبَابَ سُجَّدٗا وَقُلۡنَا لَهُمۡ لَا تَعۡدُواْ فِي ٱلسَّبۡتِ وَأَخَذۡنَا مِنۡهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظٗا ١٥٤﴾

يعني جَلَّ ثناؤُهُ بقوله: «وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ»، يعني: الجبل، وذلك لما امتنعوا من العملِ بما في التوراةِ وقبول ما جاءهم به موسى فيها بِمِيثَاقِهِمْ»، يعني: بما أعطوا الله الميثاقَ والعهد: لنعملن بما في التوراة. «وَقُلْنَا لَهُمُ ٱدْخُلُوا ٱلْبَابَ سُجَّداً»، يعني: «باب حِطَّة»، حين أُمِرُوا أنْ يدخلوا منه سجوداً، فدخلوا يزحفون على أستاههم. «وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا فِي ٱلسَّبْتِ»، يعني بقوله: «لَا تَعْدُوا فِي ٱلسَّبْتِ»، لا تتجاوزوا في يوم السبت ما أُبيحَ لكم إلى ما لم يُبَحْ لكم.

«وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا فِي ٱلسَّبْتِ»، أَمَرَ القومَ أنْ لا يأكلوا الحِيتانَ يومَ السبتِ ولا يعرضوا لها، وأَحَلَّ لهم ما وراء ذلك.

وقوله: «وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقاً غَلِيظاً»، يعني: عهداً مُؤَكَّداً شديداً، بأنهم يعملون بما أمرهم الله به، وينتهون عما نهاهم الله عنه، مما ذُكِرَ في هذه الآيةِ، ومما في التوراة.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَقَتْلِهِمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ۚ بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥٥﴾

يعني جَلَّ ثناؤُهُ: فبنقضِ هؤلاء الذين وصفتُ صِفَتَهُمْ من أهلِ الكتابِ «مِّيثَاقَهُمْ»، يعني: عهودهم التي عاهدوا الله أن يعملوا بما في التوراة. «وَكُفْرِهِم بِآيَاتِ ٱللهِ»، يقول: وجحودهم. «بِآيَاتِ ٱللهِ»، يعني: بأعلام الله وأدِلَّتِهِ التي احتج بها عليهم في صِدْقِ أنبيائهِ ورسله، وحقيقة ما جاؤوهم به من عنده. «وَقَتْلِهِمُ ٱلأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ»، يقول: وبقتلِهم الأنبياءَ بعد قيامِ الحُجَّةِ عليهم بنبوّتهم. «بِغَيْرِ حَقٍّ»، يعني: بغير استحقاقٍ منهم ذلك لكبيرةٍ أتوها، ولا خطيئة استوجبوا القتلَ عليها. «وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ»، يعني: وبقَولِهم «قُلُوبُنَا غُلْفٌ»، يعني: يقولون: عليها غِشاوةٌ وأغطيةٌ عَمَّا تَدْعُونَا إليه، فلا نفقَهُ ما تقولُ ولا نعقلهُ.

«بَلْ طَبَعَ ٱللهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ»، يقول: جَلَّ ثناؤُهُ: كَذَبُوا في قولهم: «قُلُوبُنَا غُلْفٌ»، ما هي بغلف، ولا عليها أغطيةٌ، ولكنَّ الله جَلَّ ثناؤُهُ جعل عليها طابعاً بكفرهم بالله.

«فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلاً»، يقول: فلا يؤمن - هؤلاء الذين وَصَفَ الله صِفَتَهم، لطبعهِ على قلوبهم، فيصدقوا بالله ورُسُلِه وما جاءتهم به من عند الله - إلا إيماناً قليلاً، يعني: تصديقاً قليلاً.

وإنما صار «قَلِيلاً»، لأنهم لم يُصَدِّقُوا على ما أمرهم الله به، ولكن صَدَّقُوا ببعضِ الأنبياء وببعضِ الكتبِ، وكذبوا ببعض. فكان تصديقهم بما صَدَّقوا به قليلاً، لأنهم وإنْ صدقوا به من وجهٍ، فهم به مُكَذِّبُونَ من وجهٍ آخر، وذلك من وجهِ تكذِيبِهم مَنْ كذَّبُوا به من الأنبياء وما جاؤوا به من كتبِ الله، ورسل الله يُصَدِّقُ بعضهم بعضاً. وبذلك أَمَرَ كُلَّ نبيٍّ أمته. وكذلك كُتُبُ الله يُصَدِّقُ بعضُها بعضاً، ويحققُ بعضها بعضاً. فالمُكَذِّبُ ببعضها مكذبٌ بجميعها، من جهة جحودِهِ ما صدقه الكتاب الذي يقرّ بصحته، فلذلك صار إيمانهم بما آمنوا من ذلك قليلاً.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَٰنًا عَظِيمًا ﴿١٥٦﴾﴾

يعني بذلك جَلَّ ثناؤُهُ: وبكفرِ هؤلاء الذين وَصَفَ صِفَتَهُمْ «وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَاناً عَظِيماً»، يعني: بِفِرْيَتِهم عليها، ورَمْيِهم إيَّاها بالزنا، وهو «البهتان العظِيم»، لأنهم رموها بذلك، وهي مما رموها به بغير ثَبَتٍ ولا برهانٍ بريئةٌ، فَبَهتُوها بالباطلِ من القول.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ﴾،

يعني بذلك جَلَّ ثناؤُهُ: وبقولهم إنَّا قتلنا المسيحَ عيسى بنَ مريم رسولَ الله. ثم كَذَّبهم الله في قِيلهم، فقال: «وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ»، يعني: وما قتلوا عيسى وما صلبوه ولكن شُبِّه لهم.

أمَّا صفةُ التشبيه الذي شُبِّه لليهودِ في أمرِ عيسى فهو أنَّ شَبَه عيسى أُلقيَ على جميعِ مَنْ كان في البيتِ مع عيسى حين أُحيطَ به وبهم، من غيرِ مسألةِ عيسى إيَّاهم ذلك. ولكنْ ليخزيَ الله بذلك اليهودَ، وينقذَ به نبيهُ عليه السلام من مكروهِ ما أرادوا به من القتلِ، ويبتلي به مَنْ أرادَ ابتلاءَهُ من عبادهِ في قِيله في عيسى، وصِدْقِ الخبرِ عن أمره. لأنَّ الذين شهدوا عيسى من الحواريين، لو كانوا في حالِ ما رُفعَ عيسى وأُلْقِيَ شَبَهُهُ على مَنْ أُلْقِيَ عليه شَبَهُهُ، كانوا قد عاينوا وهو يُرْفَعُ من بينهم، وأثبتوا الذي أُلقيَ عليه شبهه، وعاينوه مُتَحَوِّلاً في صورتِهِ بعد الذي كان به من صورةِ نفسهِ بمحضَرٍ منهم، لم يَخْفَ ذلك من أمرِ عيسى وأمرِ مَنْ أُلقيَ عليه شَبَهُهُ عليهم، مع معايَنتِهم ذلك كله، ولم يلتبسْ ولم يُشْكِلْ عليهم، وإنْ أشكلَ على غيرهم من أعدائِهم من اليهودِ أنَّ المقتولَ والمصلوبَ كان غير عيسى، وأنَّ عيسى رُفِعَ من بينهم حيًّا.

أو أنَّ القومَ الذين كانوا مع عيسى في البيت، تَفَرَّقُوا عنه قبلَ أنْ يدخلَ عليه اليهودُ، وبقيَ عيسى، وأُلقيَ شَبَهُهُ على بعضِ أصحابهِ الذين كانوا معه في البيت بعدما تَفَرَّقَ القومُ غيرَ عيسى، وغيرَ الذي أُلقيَ عليه شَبَهُهُ. ورُفِعَ عيسى، فَقُتِلَ الذي تَحوَّلَ في صورةِ عيسى من أصحابه، وظَنَّ أصحابهُ واليهودُ أنَّ الـذي قُتِـلَ وصُلِبَ هو عيسى، لِمَا رأوا من شَبَهِه به، وخَفاءِ أمرِ عيسى عليهم. لأنَّ رَفْعَهُ وتَحَوُّلَ المقتولِ في صورته، كان بعدَ تَفَرُّقِ أصحابهِ عنه، وقد كانوا سمعوا عيسى من الليل ينعَى نفسه، ويحزن لما قد ظَنَّ أنه نازلٌ به من الموتِ، فحكوا ما كان عندهم حقًّا، والأمرُ عند الله في الحقيقة بخلافِ ما حكوا. فلم يستحق الذين حكوا ذلك من حوارييه أنْ يكونوا كَذَبَةً، إذ حكوا ما كان حقًّا عندهم في الظاهر، وإنْ كانَ الأمرُ عندَ الله في الحقيقة بخلافِ الذي حكوا.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُواْ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا ١٥٧﴾

يعني جَلَّ ثناؤُهُ بقوله: «وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا فِيهِ»، اليهودَ الذين أحاطوا بعيسى وأصحابه حين أرادوا قَتْلَهُ. وذلك أنهم كانوا قد عرفوا عدة من في البيت قبل دخولهم، فيما ذُكِرَ. فلما دخلوا عليهم، فقدوا واحداً منهم، فالتبسَ أمرُ عيسى عليهم بفقدِهم واحداً من العدّةِ التي كانوا قد أحصوها، وقتلوا مَنْ قتلوا على شَكٍّ منهم في أمر عيسى.

وهذا التأويلُ على قولِ مَنْ قال: لم يُفارِق الحواريون عيسى حتى رُفِعَ ودخل عليهم اليهود.

وأما تأويله على قولِ مَنْ قال: تفرَّقوا عنه من الليل، فإنه: «وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا»، في عيسى، هل هو الذي بقيَ في البيتِ منهم بعد خروجِ مَنْ خرج منهم من العدَّة التي كانت فيه، أم لا؟ «لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ»، يعني: من قتله، لأنهم كانوا أحصوا من العدّةِ حين دخلوا البيتَ أكثر ممن خرج منه ومَنْ وُجِدَ فيه، فَشَكُّوا في الذي قتلوه: هل هو عيسى أم لا؟ من أجل فَقْدِهم مَنْ فقدوا من العـدد الذي كانوا أحصوه، ولكنهم قالوا: «قتلنا عيسى»، لمشابهةِ المقتولِ عيسى في الصورة. يقولُ الله جَلَّ ثناؤُهُ: «مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ»، يعني: أنهم قتلوا مَنْ قتلوهُ على شَكٍّ منهم فيه واختلافٍ، هل هو عيسى أم هو غيره؟ من غير أن يكون لهم بمَنْ قتلوهُ عِلْم، مَنْ هُوَ؟ هو عيسى أم هو غيره؟ «إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ»، يعني: جَلَّ ثناؤُهُ: ما كان لهم بمن قتلوه مِنْ علمٍ، ولكنهم اتبعوا ظَنَّهُم فقتلوهُ، ظَنًّا منهم أنه عيسى، وأنه الذي يُريدونَ قَتْلَهُ، ولم يكن به. «وَمَا قَتَلُوهُ يَقِيناً»، يقول: وما قتلوا ـ هذا الذي اتبعوه في المقتولِ الذي قتلوه وهم

يحسبونه عيسى - يقيناً أنه عيسى ولا أنه غيره، ولكنهم كانوا منه على ظَنٍّ وشُبهةٍ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ١٥٨

أما قوله جَلَّ ثناؤُهُ: «بَل رَّفَعَهُ ٱللهُ إِلَيْهِ»، فإنه يعني: بل رفع الله المسيحَ إليه. يقول: لم يقتلوه ولم يصلبوه، ولكنَّ الله رفعه إليه فَطَهَّرَهُ من الذين كفروا.

وأما قوله: «وَكَانَ ٱللهُ عَزِيزاً حَكِيماً»، فإنه يعني: ولم يزل الله منتقماً من أعدائه، كانتقامه من الذين أخذتهم الصاعقةُ بظُلْمِهِم، وكلعنِهِ الذين قصَّ قصتهم بقوله: «فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِآيَاتِ ٱللهِ». «حَكِيماً»، يقول: ذا حِكْمةٍ في تدبيرِهِ وتصريفِهِ خَلْقَهُ في قضائِهِ. يقول: فاحْذَرُوا أيها السائلونَ محمداً أن ينزل عليكم كتاباً من السماء، من حلولِ عقوبتي بكم، كما حَلَّ بأوائلكم الذين فعلوا فِعْلَكُم، في تكذيبهم رسلي وافترائهم على أوليائي.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦۖ

(يعني): وإن من أهلِ الكتاب إلَّا ليؤمنن بعيسى قبل موتِ عيسى، وإنما قلنا ذلك لأنَّ الله جَلَّ ثناؤُهُ حكم لكلِّ مؤمنٍ بمحمدٍ ﷺ بحكمِ أهلِ الإيمانِ، في الموارَثةِ والصلاةِ عليه، وإلحاق صغار أولاده بحكمه في الملة. فلو كان كُلُّ كتابيٍّ يؤمنُ بعيسى قبلَ موته، لوَجَبَ أنْ لا يرثَ الكتابيَّ إذا مات على مِلّته إلَّا أولادهُ الصغار، أو البالغون منهم من أهلِ الإسلام، وإنْ كان له ولد صغير أو بالغٌ مسلم. وإنْ لم يكن له ولدٌ صغير ولا بالغٌ مسلم، كان ميراثُه مصروفاً حيث يُصْرَفُ مالُ المسلمِ يموتُ ولا وارثَ له، وأنْ يكونَ حُكْمُه حكمَ

المسلمين في الصلاةِ عليه وغَسْله وتقبيره. لأنَّ مَنْ ماتَ مؤمناً بعيسى، فقد ماتَ مؤمناً بمحمدٍ وبجميعِ الرسل. وذلك أنَّ عيسى صلواتُ الله عليه، جاء بتصديقِ محمدٍ وجميع المرسلين صلوات الله عليهم، فالمُصَدِّقُ بعيسى والمؤمنُ به، مُصَدِّقٌ بمحمدٍ وبجميع أنبياء الله ورسله. كما أنَّ المؤمنَ بمحمد، مؤمنٌ بعيسى وبجميع أنبياءِ الله ورسله. فغيرُ جائزٍ أنْ يكونَ مؤمناً بعيسى مَنْ كان بمحمدٍ مُكَذِّباً.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ١٥٩﴾

يعني بذلك جَلَّ ثناؤُهُ: ويوم القيامة يكونُ عيسى على أهلِ الكتاب «شَهِيداً»، يعني: شاهداً عليهم بتكذيبِ مَنْ كذَّبه منهم، وتصديق مَنْ صَدَّقَهُ منهم، فيما أتاهم به من عندِ الله، وبإبلاغهِ رسالةَ رَبِّهِ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا ١٦٠ وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰا۟ وَقَدْ نُهُوا۟ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ١٦١﴾

يعني بذلك جَلَّ ثناؤُهُ: فَحَرَّمنا على اليهودِ الذين نَقَضُوا ميثاقَهم الذي واثَقُوا رَبَّهم، وكفروا بآياتِ الله، وقتلوا أنبياءهم، وقالوا البهتانَ على مريمَ، وفعلوا ما وصفهم الله في كتابه ـ طيباتٍ من المآكلِ وغيرها، كانت لهم حلالاً، عقوبةً لهم بظُلمهم، الذي أخبر الله عنهم في كتابه.

وقوله: «وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللهِ كَثِيراً»، يعني: وبصدِّهم عبادَ الله عن

دينه وسُبُله التي شرعَها لعباده، صداً كثيراً. وكان صدُّهم عن سبيلِ الله: بقولهم على الله الباطل، وادِّعائهم أنَّ ذلك عن الله، وتبديلهم كتابَ الله، وتحريف معانيه عن وجوهه. وكانَ من عظيمِ ذلك: جحودُهم نُبُوَّةَ نَبِيِّنا محمدٍ ﷺ، وتركهم بيانَ ما قد عَلِمُوا من أمرِهِ لمن جَهِل أمره من الناس.

وقوله: «وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَا»، وهو أخذهم ما أفضلوا على رؤوسِ أموالهم، لفضلِ تأخيرٍ في الأجل بعد مَحِلِّها. «وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ»، يعني: عن أخذ الربا.

وقوله: «وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَاطِلِ»، يعني ما كانوا يأخذون من الرُّشَى على الحُكْمِ، كما وصفهم الله به في قوله: ﴿وَتَرَى كَثِيراً مِنْهُمْ يُسَارِعُونَ فِي الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [المائدة:٦٢]. وكان من أكلِهم أموالَ الناس بالباطل، ما كانوا يأخذونَ من أثمانِ الكتبِ التي كانوا يكتبونها بأيديهم، ثم يقولون: «هذا من عند الله»، وما أشْبَهَ ذلك من المآكلِ الخسيسةِ الخبيثة. فعاقبهم الله على جميعِ ذلك، بتحريمهِ ما حَرَّمَ عليهم من الطيبات التي كانت لهم حلالاً قبل ذلك.

وإنما وصفهم الله بأنهم أكلوا ما أكلوا من أموالِ الناس كذلك بالباطل، لأنهم أكلوه بغير استحقاقٍ، وأخذوا أموالهم منهم بغير استيجاب.

وقوله: «وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَاباً أَلِيماً»، يعني: وجعلنا للكافرين بالله ورسوله محمد ﷺ من هؤلاء اليهود، العذابَ الأليمَ ـ وهو الموجع ـ من عذابِ جهنمَ عِنْدَهُ، يَصْلَوْنَها في الآخرةِ، إذا وردوا على ربهم، فيعاقبهم بها.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَّٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلْعِلْمِ مِنْهُمْ وَٱلْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَٱلْمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱلْمُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ أُوْلَٰٓئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا ١٦٢﴾

هذا من الله جَلَّ ثناؤُهُ استثناء، استثنى من أهل الكتاب من اليهود الذين وصَفَ صِفتهم في هذه الآيات التي مضت، من قوله: «يسألك أهلُ الكتابِ أن تُنزل عليهم كتاباً من السماء».

ثم قال جَلَّ ثناؤُهُ لعباده، مبيِّناً لهم حُكْمَ مَنْ قد هداه لدينه منهم ووفقه لرشده: ما كلُّ أهلِ الكتابِ صِفتهم الصفةُ التي وصفتُ لكم، «لَّكِنِ ٱلرَّاسِخُونَ فِي ٱلْعِلْمِ مِنْهُمْ»، وهم الذين قد رَسخوا في العلم بأحكامِ الله التي جاءت بها أنبياؤه، وأتقنوا ذلك، وعرفوا حقيقته. «وَٱلْمُؤْمِنُونَ»، يعني: والمؤمنون بالله ورُسُلِه، هم يؤمنون بالقرآنِ الذي أنزل الله إليك، يا محمدُ، وبالكتبِ التي أنزلها على مَنْ قبلكَ من الأنبياء والرسل، ولا يسألونك كما سألك هؤلاء الجهلة منهم: أنْ تنزل عليهم كتاباً من السماء، لأنهم قد عَلِمُوا بما قرأوا من كتبِ الله وأتتهم به أنبياؤهم، أنك لله رسولٌ، واجبٌ عليهم اتباعك، لايَسَعُهم غير ذلك، فلا حاجةَ بهم إلى أنْ يسألوكَ آيةً معجزةً ولا دلالة غير الذي قد عَلِمُوا من أمركَ بالعلم الراسخ في قلوبهم من إخبارِ أنبيائهم إياهم بذلك، وبما أعطيتك من الأدلّةِ على نبوتكَ، فهم لذلك من علمهم ورسوخهم فيه، يؤمنونَ بكَ وبما أُنزلَ إليك من الكتاب، وبما أُنزلَ من قبلك من سائر الكتب.

و «وَٱلْمُقِيمِينَ ٱلصَّلَاةَ»: الملائكة.

فيكـون تأويل الكـلام: «والمؤمنـون منهم يؤمنون بما أُنزلَ إليك»، يا محمـدُ، من الكتاب. «وبما أُنزلَ من قبلك»، من كتبي، وبالملائكة الذين يقيمـون الصـلاة. ثم يرجع إلى صفة «الراسخين في العلم»، فيقول: لكنِ الـراسخونَ في العلم منهم والمؤمنونَ بالكتبِ والمؤتونَ الزكاةَ والمؤمنون بالله واليوم الآخر.

وأما قوله: «وَٱلْمُؤْتُونَ ٱلزَّكَاةَ»، فإنه معطوفٌ به على قوله: «وَٱلْمُؤْمِنُونَ

يُؤْمِنُون»، وهو مِنْ صِفَتِهِم.

وتـأويله: والـذين يُعْطونَ زكاةَ أموالِهم مَن جَعَلَها الله له وصرفها إليه. «وَٱلْمُـؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلآخِرِ»، يعني: والمُصدِّقُونَ بوحدانيةِ الله وألوهته، والبعثِ بعـد الممـاتِ، والثـواب والعقـاب. «أُوْلَئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْراً عَظِيماً»، يقـول: هؤلاء الـذين هذه صِفَتُهم. «سَنُـؤْتِيهِمْ»، يقـول: سَنُعطيهم. «أَجْراً عَظِيمـاً»، يعني: جزاءً على ما كان منهم من طاعـةِ الله واتباع أمره، وثواباً عظيماً، وذلك الجنة.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيْمَٰنَۚ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿١٦٣﴾

يعني جَلَّ ثناؤُهُ بقوله: «إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إلى نُوحٍ»، إنا أرسلنا إليكَ يا محمد، بالنبوةِ كما أرسلنا إلى نوح، وإلى سائرِ الأنبياءِ الذين سَمَّيتهم لك من بعده، والذين لم أُسَمِّهم لك.

وذُكِـرَ أنَّ هذه الآية نزلتْ على رسولِ الله ﷺ، لأنَّ بعضَ اليهودِ لَمَّا فَضَحَهم الله بالآياتِ التي أنزلها على رسوله ﷺ ـ وذلك من قوله: «يسألك أهل الكتاب أن تنزِّل عليهم كتاباً من السماء» ـ فتلا ذلك عليهم رسولُ الله ﷺ، قالوا: «ما أنزل الله على بشرٍ من شيء بعد موسى»! فأنزل الله هذه الآيات، تكذيباً لهم، وأخبر نبيَّه والمؤمنين به أنه قد أنزل عليه بعد موسى وعلى مَنْ سَمَّاهم في هذه الآية، وعلى آخرين لم يُسَمِّهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ۚ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴿١٦٤﴾﴾

يعني بذلك جَلَّ ثناؤُهُ: إنا أوحينا إليكَ، كما أوحينا إلى نُوحٍ وإلى رسلٍ قد قَصَصناهم، ورسل لم نَقْصُصْهُمْ عليك.

وأما قوله: «وَكَلَّمَ ٱللهُ مُوسَىٰ تَكْلِيماً»، فإنه يعني بذلك جَلَّ ثناؤُهُ: وخاطب الله بكلامِهِ موسى خطاباً.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٦٥﴾﴾

يعني جَلَّ ثناؤُهُ بذلك: إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده، ومن ذكر من الرسلِ. «رُّسُلاً»، فنصب «الرسل» على القطع من أسماء الأنبياء الـذين ذكر أسماءهم. «مُّبَشِّرِينَ»، يقول: أرسلتُهم رسلاً إلى خَلْقي وعبـادي، مبشـرين بثوابي لمن أطاعني واتبع أمري وصدَّق رسلي، ومنذرين عقابي لمَنْ عصاني وخالف أمري وكَذَّبَ رسلي. «لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَىٰ ٱللهِ حُجَّةٌ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ»، يقول: أرسلتُ رسلي إلى عبادي مبشرين ومنذرين، لئلا يحتجّ مَنْ كَفَرَ بي وعبد الأندادَ من دوني، أو ضَلَّ عن سبيلي بأنْ يقول إن أردتُ عقـابـه: ﴿لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِن قَبْلِ أَنْ نَذِلَّ وَنَخْزَى﴾ [طه: ١٣٤]. فقطع حُجَّةَ كُلِّ مبطلٍ ألحدَ في توحيده وخالف أمره، بجميع معاني الحجج القاطعة عذرَه، إعذاراً منه بذلك إليهم، لتكون لله الحجةُ البالغة عليهم وعلى جميع خَلْقِه.

«وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزاً حَكِيماً»، يقول: ولم يزل الله ذا عِزة في انتقامه ممن انتقم منه من خلقه، على كُفْرِه به، ومعصيتِهِ إياهُ، بعد تثبيته حجَّتَهُ عليه برسله وأدلَّته. «حَكِيماً»، في تدبيره فيهم ما دَبَّرَهُ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ١٦٦﴾

يعني بذلك جَلَّ ثناؤُهُ: إنْ يَكْفُرْ بالذي أوحينا إليك، يا محمد، اليهود الذين سألوكَ أنْ تُنَزِّلَ عليهم كتاباً من السماء، وقالوا لك: «ما أنزلَ الله على بشرٍ من شيء» فكذَّبوكَ، فقد كذبوا. ما الأمر كما قالوا: لكن الله يشهدُ بتنزيلهِ إليك ما أنـزلَ من كتابهِ ووحيه، أنزلَ ذلك إليكَ بعلمٍ منه بأنك خِيرتُهُ من خَلْقِه، وصفِيُّه من عبادهِ، ويشهدُ لك بذلك ملائكتُه، فلا يَحْزُنْكَ تكذيبُ مَنْ كذَّبك، وخلافُ مَنْ خالفك. «وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيداً»، يقول: وحَسْبكَ بالله شاهداً على صِدْقِكَ دونَ ما سواه من خَلْقِهِ، فإنه إذا شهدَ لك بالصدق رَبُّكَ، لم يَضِرْكَ تكذيبُ مَنْ كذَّبك.

وقد قيل: إنَّ هذه الآية نزلت في قومٍ من اليهود، دعاهم النبيُّ ﷺ إلى اتباعه، وأخبرهم أنهم يعلمون حقيقة نبوّته، فجحدوا نُبُوَّته وأنكروا معرفته.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ قَدْ ضَلُّوا۟ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ١٦٧﴾

يعني بذلك جَلَّ ثناؤُهُ: إنَّ الذين جَحَدُوا، يا محمد، نبوتك بعد عِلْمِهم بها، من أهلِ الكتابِ الذين اقتصصتُ عليك قصتهم، وأنكروا أنْ يكون الله

جَلَّ ثناؤُهُ أوحى إليك كتابَهُ. «وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ ٱللهِ»، يعني: عن الدِّين الذي بعثَكَ الله به إلى خَلْقِه، وهو الإسلامُ. وكان صدَّهم عنه، قِيلُهم للناسِ الذين يسـألـونهم عن محمد من أهلِ الشرك: «ما نجدُ صِفةَ محمدٍ في كتابنا!»، وادعاؤهم أنهم عُهِدَ إليهم أنَّ النبوّةَ لا تكونُ إلا في ولد هرون ومن ذرية داود، وما أشبهَ ذلك من الأمورِ التي كانوا يُثَبِّطُونَ الناسَ بها عن اتِّباعِ رسولِ الله ﷺ والتصديقِ به وبما جاء به من عند الله.

وقوله: «قَد ضَلُّوا ضَلالاً بَعِيداً»، يعني: قد جاروا عن قَصْدِ الطريقِ جوراً شديداً، وزالوا عن المَحجَّةِ.

وإنما يعني جَلَّ ثناؤُهُ بجورهم عن المحجةِ وضلالهم عنها، إخطاءَهم دِينَ الله الذي ارتضاهُ لعبادِه، وابتعث به رُسُلَهُ. يقول: مَنْ جحدَ رسالةَ محمدٍ ﷺ، وصَدَّ عما بُعِثَ به من المِلَّة مَنْ قَبِلَ منه[1]، فقد ضَلَّ فذهبَ عن الدينِ الذي هو دينُ الله الذي ابتعث به انبياءه، ضلالاً بعيداً.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَظَلَمُواْ لَمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ﴿١٦٨﴾ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٦٩﴾﴾

يعني بذلك جَلَّ ثناؤُهُ: إنَّ الذين جحدوا رسالةَ محمد ﷺ، فكفروا بالله بجحودِ ذلك، وظلموا بمُقامِهم على الكفرِ على علمٍ منهم، بظلمهم عبادَ الله، وحَسَـداً للعـرب، وبغياً على رسولِهِ محمدٍ ﷺ. «لَمْ يَكُنِ ٱللهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ»،

(١) يعني: أن الذي جحد رسالة محمد ﷺ وصَدَّ الناسَ الذين قبلوا منه هذه الرسالةَ فقد ضلَّ ضلالاً بعيداً.

يعني: لم يكن الله ليعفوَ عن ذُنوبهم بتركه عقوبتهم عليها، ولكنه يفضحهم بها بعقوبتهِ إياهم عليها. «وَلاَ لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقاً»، يقول: ولم يكن الله تعالى ذِكْرُه ليهديَ هؤلاء الذين كَفَرُوا وظَلَمُوا، الذين وصفنا صِفَتهم، فيوفِّقَهُم لطريقٍ من الطرقِ التي ينالونَ بها ثوابَ الله، ويَصِلُونَ بلزومِهم إياه إلى الجنة، ولكنه يخذلهم عن ذلك، حتى يسلكوا طريقَ جهنم. وإنما كنى بذكر «الطريق» عن الدين. وإنما معنى الكلام: لم يكن الله ليوفِّقَهُمْ للإسلامِ، ولكنه يخذلهم عنه إلى «طريق جهنم»، وهو الكفر، يعني: حتى يكفروا بالله ورسله، فيدخلوا جهنم. «خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً»، يقول: مقيمينَ فيها أبداً. «وَكَانَ ذَلِكَ عَلَىٰ آللهِ يَسِيراً»، يقول: وكان تخليدُ هؤلاء الذين وصفتُ لكم صِفَتهم في جهنم، على الله يسيراً، لأنه لا يقدرُ مَنْ أرادَ ذلكَ بهِ على الامتناعِ منه، ولا لَهُ أحدٌ يمنعهُ منه، ولا يستصعبُ عليه ما أراد فعله به من ذلك، وكان ذلك على الله يسيراً، لأنَّ الخَلْقَ خَلْقُهُ، والأمرَ أمرُه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلرَّسُولُ بِٱلْحَقِّ مِن رَّبِّكُمْ فَـَٔامِنُوا۟ خَيْرًا لَّكُمْ ۚ وَإِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧٠﴾

يعني بقوله جَلَّ ثناؤهُ: «يَاأَيُّهَا ٱلنَّاسُ»، مشركي العرب، وسائرَ أصناف الكفر. «قَدْ جَاءَكُمُ ٱلرَّسُولُ»، يعني: محمداً ﷺ، قد جاءكم. «بِٱلْحَقِّ مِن رَّبِّكُمْ»، يقول: بالإسلام الذي ارتضاهُ الله لعباده ديناً، يقول: «مِن رَّبِّكُمْ»، يعني: من عند ربكم. «فَآمِنُوا خَيْراً لَّكُمْ»، يقول: فَصَدِّقُوه وصَدِّقُوا بما جاءكم به من عند ربكم من الدين، فإنَّ الإيمانَ بذلك خيرٌ لكم من الكفر به. «وَإِنْ تَكْفُرُوا»، يقول: وإنْ تَجْحَدُوا رسالتَه وتُكَذِّبُوا به وبما جاءكم به من عند ربكم،

فإنَّ جحودَكم ذلك وتكذيبَكُم به، لن يضرَّ غيركم، وإنما مكروهُ ذلك عائدٌ عليكم، دونَ الذي أمركم بالذي بعث به إليكم رسوله محمداً ﷺ، وذلك أنَّ لله ما في السمواتِ والأرضِ، ملكاً وخلقاً، لا يَنْقُصُ كُفْرُكُم بما كفرتم به من أمرِهِ، وعصيانكم إياه فيما عَصَيْتُموه فيه، من مِلْكِهِ وسلطانه شيئاً. «وكان الله عليماً حكيماً»، يقول: «وَكَانَ آللهُ عَلِيماً»، بما أنتم صائرونَ إليه من طاعتِهِ فيما أمركم به وفيما نهاكم عنه، ومعصيته في ذلك، على عِلْمٍ منه بذلك منكم، أمركم ونهاكم. «حكِيماً»، يعني: حكيماً في أمره إياكم بما أمركم به، وفي نهيِهِ إياكم عما نَهَاكم عنه، وفي غير ذلك من تدبيرِهِ فيكم وفي غيركم من خَلْقِهِ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ

يعني جَلَّ ثناؤُهُ بقوله: «يا أَهْلَ آلْكِتَابِ»، يا أهلَ الإنجيل من النصارى. «لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ»، يقول: لا تجاوزُوا الحَقَّ في دينكم فتفرطوا فيه، ولا تقولوا في عيسى غيرَ الحَقِّ، فإنَّ قِيلَكم في عيسى إنه ابن الله، قولٌ منكم على الله غيرَ الحق، لأنَّ الله لم يَتَّخِذْ ولداً فيكون عيسى أو غيره من خَلْقِهِ له ابناً «وَلَا تَقُولُوا عَلَىٰ آللهِ إِلَّا آلْحَقَّ».

وأصلُ «الغُلُو»، في كل شيء مجاوزةُ حَدِّهِ الذي هو حَدُّهُ. يقال منه في الدِّين: «قد غلا فهو يغلو غُلُوًّا».

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ

يعني جَلَّ ثناؤُهُ بقوله: «إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَىٰ ٱبْنُ مَرْيَمَ»، ما المسيحُ، أيها الغَالُونَ في دِينهم من أهلِ الكتاب، بابنِ الله، كما تَزعمونَ، ولكنه عيسى بن مريم، دون غيرها من الخلق، لا نَسَبَ له غير ذلك. ثم نَعَتَهُ الله جَلَّ ثناؤُهُ بنعته ووصَفَهُ بصفتهِ فقال: هو رسولُ الله أرسلَهُ الله بالحَقِّ إلى مَنْ أرسله إليه من خَلْقِه.

وأصلُ «المسيح»، «الممسوح»، صُرِفَ من «مفعول» إلى «فعيل». وسَمَّاهُ الله بذلك لتطهيرِهِ إياهُ من الذنوبِ. وقيل: مُسِحَ من الذنوبِ والأدناسِ التي تكون في الآدميين، كما يُمْسَحُ الشيءُ من الأذى الذي يكون فيه، فيطهر منه. ولذلك قال مجاهد ومَنْ قال مثل قوله: «المسيح»، الصِّدِّيقُ.

وقد زعم بعض الناس أنَّ أصلَ هذه الكلمة عبرانية أو سريانية «مشيحا»، فَعُرِّبَتْ فقيل: «المسيح»، كما عُرِّبَ سائرُ أسماء الأنبياء التي في القرآن مثل: «إسماعيل» و «إسحق» و «موسى» و «عيسى».

وليس ما مثّل به من ذلك لـ «المسيح» بنظير. وذلك أنَّ «إسماعيل» و «إسحق» وما أشبه ذلك، أسماءٌ لا صِفاتٌ، و «المسيح» صِفَةٌ. وغيرُ جائزٍ أن تُخَاطَبَ العربُ، وغيرها من أجناسِ الخَلْقِ، في صفة شيءٍ إلا بمثل ما تَفْهَمُ عَمَّنْ خاطَبها. ولو كانَ «المسيحُ» من غيرِ كلامِ العربِ، ولم تكن العرب تَعقِلُ معناه، ما خُوطِبَتْ به.

وأما «المسيح الدجال»، فإنه أيضاً بمعنى: الممسوح العين، صُرِفَ من «مفعول» إلى «فعيل». فمعنى: «المسيح» في عيسى ﷺ: الممسوح البدنِ من الأدناسِ والآثامِ. ومعنى: «المسيح» في الدجال: الممسوح العين اليمنى أو اليسرى، كالذي روي عن رسولِ الله ﷺ في ذلك[1].

(١) أحاديث الدجال الصحيحة كثيرة، وهي تشير إلى أنه أعور العين.

وأما قوله: «وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَىٰ مَرْيَمَ»، فإنه يعني بـ«الكلمة»، الرسالةَ التي أمرَ الله ملائكته أنْ تأتيَ مريمَ بها، بشارةً من الله لها، التي ذكر الله جَلَّ ثناؤُهُ في قولـه: ﴿إِذْ قَالَتِ المَلاَئِكَـةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ الله يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ﴾ [آل عمران: ٤٥]، يعني: برسالةٍ منه، وبشارة من عنده.

وقـولـه: «أَلْقَـاهَا إِلَىٰ مَرْيَمَ»، يعني: أَعْلَمَهَا بها وأخبرها، كما يقال: «ألقيتَ إليكَ كلمةً حسنةً»، بمعنى: أخبرتُك بها وكَلَّمْتُكَ بها.

وأما قوله: «وَرُوحٌ مِّنْهُ»، فإنَّ أهلَ العلم اختلفوا في تأويله:

فقال بعضهم: معنى قوله: «وَرُوحٌ مِّنْهُ»، ونفخةٌ منه، لأنه حدث عن نَفْخَةِ جبريلَ عليه السلام في دِرْع مريم[1] بأمرِ الله إياهُ بذلك، فنسب إلى أنه «روح من الله»، لأنه بأمْرِهِ كان. قال: وإنما سَمَّى النفخَ «روحاً»، لأنها ريحٌ تخرج من الرُّوح.

وقال بعضهم يعني بقوله: «وَرُوحٌ مِّنْهُ» إنه كان إنساناً بإحياءِ الله له بقوله: «كُنْ». قالوا: وإنما معنى قوله: «وَرُوحٌ مِّنْهُ»، وحياة منه، بمعنى إحياءِ الله إياه بتكوينه.

وقال آخرون: معنى قوله: «وَرُوحٌ مِّنْهُ»، ورحمةٌ منه، كما قال جَلَّ ثناؤُهُ في موضعٍ آخر: ﴿وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ﴾ [المجادلة: ٢٢]. قالوا: ومعناه في هذا الموضع: ورحمة منه. قالوا: فجعلَ الله عيسى رحمةً منه على مَنِ اتَّبَعَهُ وآمَن به وصَدَّقَهُ، لأنه هداهم إلى سبيلِ الرشاد.

وقال آخرون: معنى ذلك: وروح من الله خَلَقَها فَصَوَّرَها، ثم أرسلها إلى مريمَ فدخلت في فِيها، فَصَيَّرَهَا الله تعالى روحَ عيسى عليه السلام.

(١) درع المرأة: قميصها الذي يحميها من أعين الفُسَّاق.

•قال آخرون: معنى «الروح» ههنا، جبريلُ عليه السلام. قالوا: ومعنى الكـلام: وكلمتهُ ألقاها إلى مريمَ، وألقاها أيضاً إليها روحٌ من الله. قالوا: فـ «الروح» معطوف به على ما في قوله: «ألقاها» من ذِكْرِ الله، بمعنى: أنَّ إلقاءَ الكلمةِ إلى مريمَ كان من الله، ثم مِنْ جبريلَ عليه السلام.

ولكلٍّ هذه الأقوالِ وجهٌ ومذهبٌ غيرُ بعيدٍ من الصواب.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۖ وَلَا تَقُولُواْ ثَلَٰثَةٌۚ ٱنتَهُواْ خَيۡرٗا لَّكُمۡۚ﴾

يعني بِقوله جَلَّ ثناؤُهُ: «فَآمِنُوا بِآللهِ وَرُسُلِهِ»، فَصَدِّقُوا، يا أهلَ الكتابِ، بوحدانية الله وربوبيته، وأنه لا وَلَدَ له، وصَدِّقُوا رُسُلَهُ فيما جاؤوكم به من عند الله، وفيما أخبرتكم به أنَّ الله واحدٌ لا شريكَ له، ولا صاحبةَ له، ولا ولدَ له «وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ»، يعني: ولا تقولوا: الأربابُ ثلاثة.

ثم قال لهم جَلَّ ثناؤُهُ: مُتَوعِّداً لهم في قولهم العظيم الذي قالوه في الله: «آنْتَهُوا»، أيها القائلونَ: الله ثالثُ ثلاثة، عَمَّا تقولونَ من الزُّورِ والشركِ بالله، فإنَّ الانتهاءَ عن ذلك خيرٌ لكم من قِيلهِ، لما لكم عندَ الله من العقابِ العاجلِ لكم على قِيلِكُم ذلـكَ، إنْ أَقَمْتُمْ عليه، ولم تُنِيبُوا إلى الحق الذي أمرتكم بالإنابةِ إليه والآجلِ في معادكم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ سُبۡحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٞۘ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلٗا ١٧١﴾

يعني بقـولـه: «إِنَّمَا آللهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ»، ما الله، أيها القائلونَ: الله ثالثُ ثلاثـة، كمـا تقولونَ، لأنَّ مَنْ كانَ له ولدٌ، فليس بإلهٍ. وكذلك مَنْ كان له

صاحبة، فغير جائزٍ أنْ يكونَ إلهاً معبوداً. ولكن الله الذي له الألوهةُ والعبادة، إلهٌ واحدٌ معبود، لا ولدَ له، ولا والدَ، ولا صاحبة، ولا شريك.

ثم نَزَّهَ جَلَّ ثناؤُهُ نفسَهُ وعظَّمها ورفَعَها عَمَّا قال فيه أعداؤه الكفَرَةُ به فقال: «سُبْحَانَهُ أن يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ»، يقول: عَلاَ الله جَلَّ وعزَّ وتَعَظَّم وتنزَّه عن أنْ يكونَ له ولدٌ أو صاحبة.

ثم أخبر جَلَّ ثناؤُهُ عبادَهُ: أنَّ عيسى وأُمَّه ومَنْ في السمواتِ ومَنْ في الأرض، عبيدهُ وإماؤه وخَلْقُه، وأنه رازقهم وخالقهم، وأنهم أهلُ حاجةٍ وفاقةٍ إليه احتياجاً منه بذلك على مَنِ ادَّعى أنَّ المسيح ابنه، وأنه لو كان ابنه كما قالوا، لم يكن ذا حاجةٍ إليه، ولا كان له عبداً مملوكاً، فقال: «لَّهُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوات وَمَا فِي ٱلأَرْضِ»، يعني: لله ما في السموات وما في الأرض من الأشياء كلها ملكاً وخلقاً، وهو يَرْزُقُهم ويَقُوتُهم ويُدَبِّرهم، فكيف يكون المسيحُ ابناً لله، وهو في الأرضِ أو في السموات، غيرُ خارجٍ من أن يكون في بعض هذه الأماكن؟

وقوله: «وَكَفَىٰ بِٱللهِ وَكِيلاً»، يقول: وحسب ما في السموات وما في الأرض بالله قَيِّماً ومدبِّراً ورازقاً، من الحاجة معه إلى غيره.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ

يعني جَلَّ ثناؤُهُ بقوله: «لَّن يَسْتَنْكِفَ ٱلْمَسِيحُ»، لَنْ يأنَفَ ولنْ يستكبرَ المسيحُ. «أن يَكُونَ عَبْداً لله»، يعني: من أنْ يكونَ عبداً لله.

وأما قوله: «وَلاَ ٱلْمَلاَئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ»، فإنه يعني: ولن يستنكفَ أيضاً من الإقرارِ لله بالعُبودةِ والإذعانِ له بذلك، رُسُلُهُ «المقربون»، الذين قَرَّبَهُم الله ورفَعَ منازلهم على غيرِهم من خَلْقِه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا ﴿١٧٢﴾﴾

يعني جَلَّ ثناؤُهُ بذلك: ومَنْ يَتَعَظَّمْ عن عبادةِ ربه، ويأنفْ من التذلُّلِ والخضوعِ له بالطاعةِ من الخَلْقِ كلهم، ويستكبرْ عن ذلك «فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعاً»، يقول: فسيبعثهم يومَ القيامةِ جميعاً، فيجمعهُم لموعدِهم عنده.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْتَنكَفُوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧٣﴾﴾

يعني جَلَّ ثناؤُهُ بذلك: فأما المؤمنون المُقِرُّونَ بوحدانيةِ الله، الخاضعونَ له بالطاعةِ، المتذلِّلونَ له بالعبوديةِ، والعاملونَ الصالحاتِ من الأعمالِ، وذلك: أن يَرِدُوا على رَبِّهم قد آمنوا به وبرسله، وعملوا بما أتاهم به رسله من عندِ رَبِّهم، مِنْ فعلِ ما أمرَهُمْ به، واجتنابِ ما أمرهم باجتنابه. «فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ»، يقول: فيؤتيهم جزاءَ أعمالهم الصالحة وافياً تامًّا. «وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِ»، يعني جَلَّ ثناؤُهُ: ويزيدُهم على ما وَعَدَهُم من الجزاءِ على أعمالهم الصالحة والثواب عليها، من الفضلِ والزيادةِ ما لم يُعَرِّفْهُمْ مبلغَهُ، ولم يحدَّ لهم مُنْتَهاه. وذلك أنَّ الله وعدَ مَنْ جاء من عبادهِ المؤمنين بالحسنةِ الواحدة عشرَ أمثالِها من الثواب والجزاء. فذلك هو أجر كلِّ عاملٍ على عملِه الصالح من أهلِ الإيمان المحدود مبلغه، والزيادة على ذلك تفضُّلٌ من الله عليهم، وإنْ

كان كل ذلك من فضله على عباده. غيرَ أن الذي وَعَدَ عبادَه المؤمنين أنْ يُوفِّيهم فلا ينقصهم من الثوابِ على أعمالهم الصالحة، هو ما حَدُّ مبلغه من العَشْر، والزيادة على ذلك غير محدودٍ مبلغها، فيزيدُ مَنْ شاء من خَلْقِه على ذلك **قَدْرَ ما يشاء**، لا حَدَّ لقَدْرِه يوقف عليه.

وقوله: «وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْتَنكَفُوا وَٱسْتَكْبَرُوا»، فإنه يعني: وأما الذين تعظَّموا عن الإقرارِ لله بالعُبودةِ، والإذعانِ له بالطاعة، واستكبروا عن التذلُّلِ لأُلوهته وعبادته، وتسليم الربيبيَّةِ والوحدانية له. «فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَاباً أَلِيماً»، يعني: عذاباً مُوجعاً. «وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيراً»، يقول: ولا يجد المستنكفونَ من عبادته والمستكبرونَ عنها، إذا عَذَّبهم الله الأليمَ من عذابه، سوى الله لأنفسهم وليًّا يُنْجيهم من عذابِه وينقذهم منه. «وَلَا نَصِيراً»، يعني: ولا ناصراً ينصُرُهم فَيَسْتَنْقِذُهُمْ من رَبِّهم، ويدفع عنهم بقوَّته ما أحلَّ بهم من نقمته، كالذي كانوا يفعلونَ بهم إذا أرادهم غيرُهم من أهلِ الدنيا في الدنيا بسوءٍ، من نُصْرَتِهم والمدافعةِ عنهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَكُم بُرۡهَٰنٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ نُورٗا مُّبِينٗا ﴿١٧٤﴾

يعني جَلَّ ثناؤُهُ بقوله: «يَا أَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَاءَكُم بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ»، يا أيها الناسُ من جميعِ أصناف الملل، يهودِها ونصاراها ومشركيها، الذين قَصَّ جَلَّ ثناؤُهُ قَصَصهم في هذه السورة «قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ»، يقول: قد جاءتكم حُجَّةٌ من الله تبرهنُ لكم بُطُولَ ما أنتم عليه مقيمونَ من أديانِكم ومللكم، وهو محمدٌ ﷺ، الذي جعله الله عليكم حجةً قطع بها عُذْرَكُم، وأبلغَ إليكم في المعذرة بإرسالِه إليكم، مع تعريفِهِ إياكم صحةَ نبوتِه، وتحقيقَ رسالتِهِ. «وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُوراً مُّبِيناً»، يقول: وأنزلنا إليكم معهُ «نُوراً مُّبِيناً»، يعني:

يبين لكم المحجّةَ الواضحةَ، والسُّبل الهاديةَ إلى ما فيه لكم النجاةُ من عذابِ الله وأليم عقابه. إنْ سَلَكْتُموها واسْتَنرتُم بضوئه.

وذلك «النور المبين»، هو القرآنُ الذي أنزله الله على محمدٍ ﷺ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَٱعْتَصَمُواْ بِهِۦ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِى رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿١٧٥﴾﴾

يعني بذلك جَلَّ ثناؤُهُ: فأما الذين صدَّقوا الله وأقَرُّوا بوحدانيته، وما بعثَ به محمداً ﷺ من أهلِ المللِ. «وَٱعْتَصَمُوا بِهِ»، يقول: وتَمَسَّكُوا بالنورِ المبين الذي أنزله إلى نبيه.

«فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ»، يقول: فسوف تنالهم رحمته التي تُنجيهم من عقابِه، وتوجبُ لهم ثوابَهُ ورحمته وجنته، ويلحقهم من فضلِهِ ما لَحِقَ أهلَ الإيمانِ به والتصديق برسله. «وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَاطاً مُسْتَقِيماً»، يقول: ويوفقهم لإصابةِ فَضْلِه الذي تَفضَّلَ به على أوليائه، ويُسدِّدهم لسلوكِ منهجِ مَنْ أنْعَمَ عليه من أهلِ طاعته، ولاقتفاء آثارهم واتباع دينهم، وذلك هو «الصراط المستقيم»، وهو دين الله الذي ارتضاه لعباده، وهو الإسلام.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِى ٱلْكَلَٰلَةِ ۚ إِنِ ٱمْرُؤٌاْ هَلَكَ لَيْسَ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَهُۥٓ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ ۚ﴾

يعني تعالى ذِكْرُهُ بقوله: «يَسْتَفْتُونَكَ»، يسألونك، يا محمدُ، أنْ تفتيهم في الكلالة.

النساء: ١٧٦

«إِنِ ٱمْرُؤًا هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ»، يعني بقوله: «إِنِ ٱمْرُؤًا هَلَكَ»، إن إنسانٌ من الناسِ مات.

«لَيْسَ لَهُ وَلَـدٌ» ذكر ولا أنثى «وَلَهُ أُخْتٌ»، يعني: وللميت أختٌ لأبيه وأمه، أو لأبيه. «فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ»، يقول: فلأخته التي تركها بعده بالصِّفَةِ التي وَصَفنا، نصف تركتهِ ميراثاً عنه، دون سائر عَصَبَتِه. وما بقي فلعصبته.

فإن قال قائلٌ: فما وجه قوله جَلَّ ثناؤُهُ: «وإِنِ ٱمْرُؤٌ هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ»، ولقد علمت اتفاقَ جميعِ أهلِ القبلة ما خلا ابن عباس وابن الزبير رحمة الله عليهما على أنَّ الميتَ لو ترك ابنةً وأختاً، أنَّ لابنتهِ النصف، وما بقي فلأختهِ، إذا كانت أخته لأبيه وأمه، أو لأبيه؟ وأين ذلك من قوله: «إِنِ ٱمْرُؤٌ هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ»، وقد ورَّثوها النصفَ مع الولد؟

قيل: إنّ الأمر في ذلك بخلاف ما ذهبتَ إليه. إنما جعل الله جَلَّ ثناؤُهُ بقوله: «إِنِ ٱمْرُؤٌ هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ»، إذا لم يكن للميتِ ولـدٌ ذَكَرٌ ولا أنثى، وكان موروثاً كلالة، النصفَ من تركتهِ فريضةً لها مسَّماة. فأما إذا كان للميتِ ولد أنثى، فهي معها عَصَبةٌ، يصير لها ما كان يصيرُ للعَصَبةِ غيرها، لو لم تكن. وذلك غير محدود بحدٍّ، ولا مفروض لها فرضَ سهام أهلِ الميراث بميراثهم عن ميِّتهم. ولم يقل الله في كتابه: «فإنْ كان له ولدٌ فلا شيءَ لأخته معه»، فيكون لما رويَ عن ابنِ عباس وابن الزبير في ذلك وجهٌ يوجَّه إليه. وإنما بيَّن جَلَّ ثناؤُهُ، مبلغ حقِّها إذا وُرث الميت كلالةً، وترك بيان ما لها من حَقٍّ إذا لم يورث كلالةً في كتابه، وبيَّنه بوحيهِ على لسانِ رسوله ﷺ، فجعلهـا عَصَبـةً مع إناثِ ولدِ الميت. وذلك معنًى غير معنى وراثتها الميت، إذا كان موروثاً كلالةً.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَهُوَ يَرِثُهَآ إِن لَّمْ يَكُن لَّهَا وَلَدٌ﴾

يعني جَلَّ ثناؤُهُ بذلك: وأخو المرأة يَرِثُها إنْ ماتت قَبْلَهُ، إذا وُرِثت كلالة، ولم يكن لها ولدٌ ولا والد.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَإِن كَانَتَا ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا ٱلثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ وَإِن كَانُوٓاْ إِخْوَةً رِّجَالًا وَنِسَآءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾

يعني جَلَّ ثناؤُهُ بقوله: «فَإِن كَانَتَا اثْنَتَيْنِ»، فإن كانت المتروكةُ من الأخواتِ لأبيه وأمه أو لأبيه. «اثنتين» فلهما ثلثا ما ترك أخوهما الميت، إذا لم يكن له ولد، وورث كلالة. «وَإِن كَانُوا إِخْوَةً»، يعني: وإنْ كان المتروكون من إخوته. «رِّجَالًا وَنِسَاءً فَلِلذَّكَرِ» منهم بميراثهم عنه من تركته. «مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ»، يعني: مثل نصيب اثنتين من أخواته. وذلك إذا ورث كلالةً، والإخوة والأخوات إخوته وأخواته لأبيه وأمه، أو: لأبيه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّواْ﴾

يعني بذلك جَلَّ ثناؤُهُ: يُبَيِّنُ الله لكم قسمةَ مواريثكم، وحُكْمَ الكلالة، وكيف فرائضهم. «أَن تَضِلُّوا»، بمعنى: لئلا تَضِلُّوا في أمرِ المواريثِ وقسمتها، أي: لئلا تجوروا عن الحق في ذلك وتخطئوا الحكمَ فيه، فَتَضِلُّوا عن قصد السبيل.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ١٧٦﴾

يعني بذلك جَلَّ ثناؤُهُ: «وَاللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ» من مصالحِ عبادِهِ في قسمة مواريثهم وغيرها، وجميع الأشياء. «عَلِيمٌ»، يقول: هو بذلك كله ذو عِلْمٍ.

المجلد الثاني

فهرس المحتويات